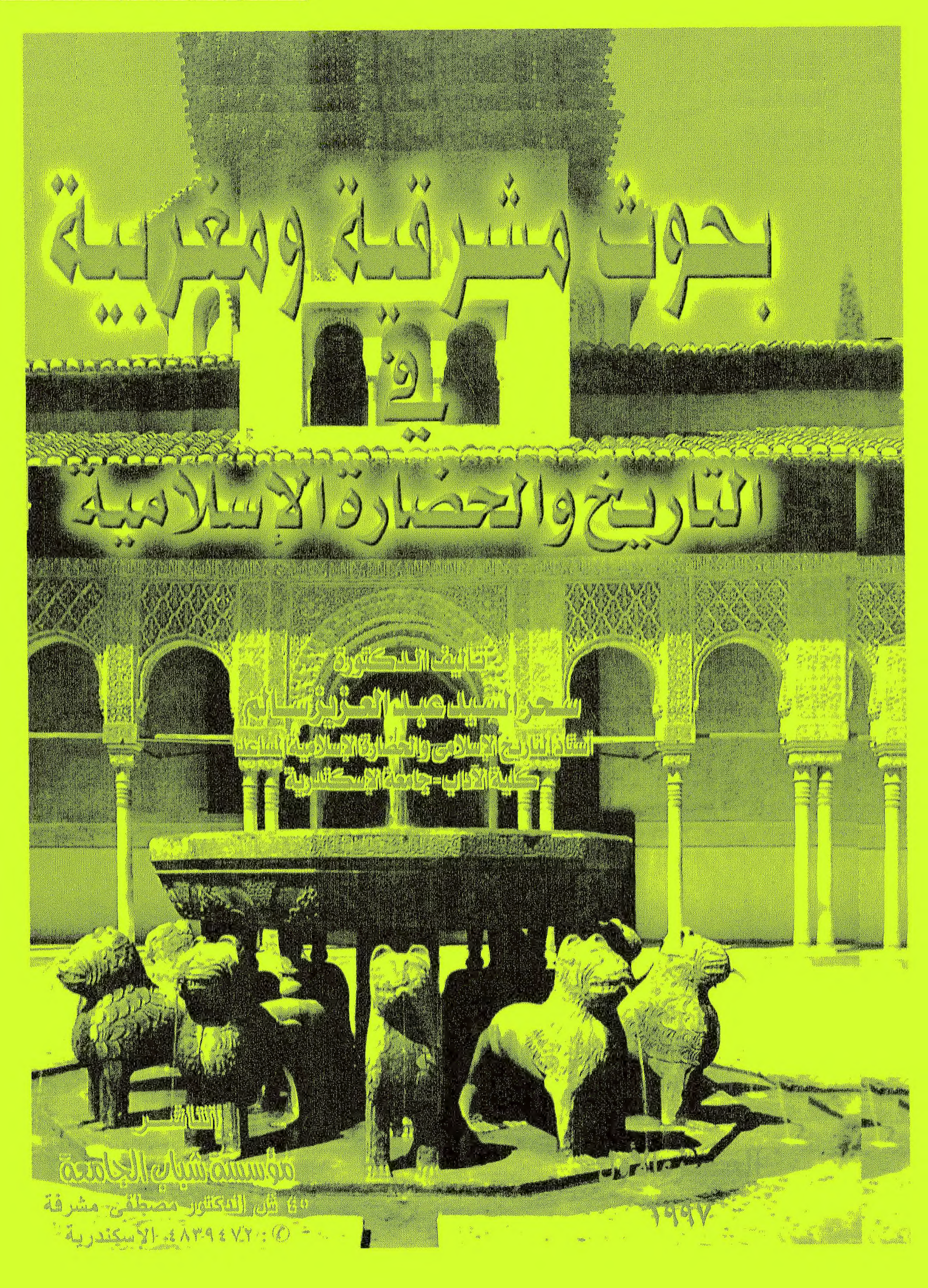


بحوث مشرقية ومغربية
في
التاريخ والحضارة الإسلامية
تأليف الدكتورة
سحر السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية المساعد
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية
الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
٤٠ ش الدكتور مصطفى مشرفة
✆ : ٤٨٣٩٤٧٢٠ - الإسكندرية
١٩٩٧



بحوث مشرقية ومغربية
فى
التاريخ والحضارة الاسلامية

الجزء الاول

تأليف
الدكتورة/ سحر السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية المساعد
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٩٧

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
٤٠ ش الدكتور مصطفى مشرفة
ت : ٤٨٣٩٤٧٧٢ الإسكندرية



إلي كل من ساندني أدبيا ومعنويا من مصر
وخارجها، خلال مشوار العلم والحياة

اهدي هذا الكتاب

مقدمة:

يتضمن هذا الكتاب اثنى عشر بحثاً قمت بكتابتها خلال السنوات الثلاثة الأخيرة منذ أواخر عام ١٩٩٣ وحتى بدايات عام ١٩٩٧. وهى أبحاث متنوعة فى التاريخ والحضارة الاسلامية من المشرق الإسلامى ومغربه بعضها القى فى مؤتمرات علمية وبعضها الآخر نشر فى مجلات محكمة.

والبحث الأول وعنوانه «بنو أبى عبدة وزراء وقادة الدولة الأموية فى الأندلس» (طبعة أولى سنة ١٩٩٧) يتناول بالدراسة تاريخ أسرة من أشهر الأسر فى تاريخ الأندلس، هى أسرة أبى عبدة التى برز منها قادة عظام ووزراء وكتّاب وحجاب وعمّال للخلافة الأموية. وقد تتبعت أهم الشخصيات فى هذه الأسرة وأهم المناصب التى تولوها، والخدمات التى أسدوها لدولة بنى أمية وأهم الانتصارات العسكرية التى أحرزوها ضد اعداء هذه الدولة بالأندلس سواءً من الثوار بالداخل أو ملوك المسيحية باسبانيا فى الخارج.

ويعكس قيامى بالتأريخ لهذه الأسرة، اهتمامى بدراسة تاريخ الأسرات الأندلسية البارزة عبر العصور الاسلامية المختلفة، فمنذ نحو ثمان سنوات أفردت دراسة هامة عن بنى خطاب من نسل عبد الجبار بن نذير، وتدمير بن عبدوش، كما قمت بنشر دراسة خاصة لى سنة ١٩٩٥ عن بنى سراج آخر وزراء بنى نصر حكام غرناطة، فى مركز الدراسات الموريسكية والعثمانية فى تونس، وذلك فى العدد التكريمى الخاص بالمستشرق لوى كاردياك وهى أيضاً منشورة فى هذا المجموعة (البحث العاشر). كما يقوم معهد الدراسات الاسلامية بمدريد بنشرها ضمن عدد خاص بالذكرى الخمسمائة لسقوط غرناطة.

ومن خلال دراسة أصول هذه الأسر، وتتبع سلسلة نسبهم، وأهم الشخصيات البارزة فيهم، نستطيع أن نلقى الضوء على جوانب حضارية هامة من تاريخ الأندلس. ويتضح من خلال ماقمنا به من دراسات عن أشهر الأسرات الأندلسية أن

حكام الأندلس، بدايةً من بنى أمية، وانتهاء ببنى نصر كانوا يميلون إلى تركيز الوظائف الادارية فى أيدى من يثقون بهم من مواليهم أو الشخصيات المقربة منهم، وكان توارث تلك المناصب الادارية العليا فى جميع ابناء الأسرة الواحدة ظاهرة ملحوظة فى الأندلس مثل آل ابى عبدة، وبنى شهيد ، وبنى حدير، وبنى خطاب وبنى سراج، وبنى الزجالى، وبنى عبد الواحد الاسكندرانى وغيرهم. كذلك من العوامل التى دفعتنى لدراسة تاريخ هذه الأسرة (بنو ابى عبدة) الذين كانوا موالى للأمويين أنهم كانوا أسلاف بنى جهور الذين اضطلعوا بحكم قرطبة فى عصر دويلات الطوائف، بعد سقوط الخلافة الأموية بالأندلس، وهذا يعنى أن هذه الأسرة لعبت دوراً كبيراً ولفترة زمنية طويلة من تاريخ الأندلس ممايزيد من أهمية التأريخ لها وتتبّع أبرز اعمال أفرادها.

أما البحث الثاني الذى يحمل عنوان «أضواء على فن الغناء والموسيقى فى الأندلس فى عصر الدولة الأموية وعصر دويلات الطوائف» (طبعة أولى سنة ١٩٩٧) فهو يتناول بالدراسة جانباً فنياً وحضارياً هاماً تميز به المجتمع الأندلسى منذ بداية تكوين ملامح شخصيته الحضارية زمن بنى أمية، وقد استمر تأثير ملامح هذا الفن فى المجتمعات المغربية حتى وقتنا الحاضر، فالموسيقى الشعبية التونسية والمغربية تحمل تأثيرات أندلسية واضحة المعالم فيما يعرف باسم موسيقى «المالوف» و «الموشحات».

وقد تناولنا بالدراسة فن الغناء والموسيقى برؤية جديدة، فلم نركز على دور زرياب الموسيقى العراقى، فى احداث تطور فى مجال الفن والموسيقى وفى عادات المجتمع الأندلسى لأن ذلك كان مجالاً لعشرات من الدراسات السابقة، وانما اعتمدنا على منهج التحليل الاستنباطى للنصوص التاريخية والأدبية، لمعرفة الجديد عن هذا الفن فى الأندلس كما لجأنا إلى صور للآلات الموسيقية، التى نُقش بعضها فى عددٍ من التحف العاجية والرخامية، كما اعتمدنا على الصور الواردة فى كتاب أناشيد الملك الفونسو العاشر وهى ان كانت فى معظمها مسيحية إلا أنها

ذات أصول أندلسية. كما ركزنا في البحث على شخصيات أخرى بخلاف شخصية زرياب، اهتمت بالتلحين وتأليف الكتب في الموسيقى، كما أشرنا إلى أهم من برز من الأمراء الأمويين في عصر الامارة ممن كانوا يجيدون الغناء ويحذقون الضرب بالعود أو النفخ بالمزمار.

وقد ازدهر فن الغناء والموسيقى فى الأندلس فى عصرى الخلافة والطوائف، وقد خضع هذا العصر الأخير لتطور واسع النطاق نتيجة لظهور الموشحات والأزجال أو مايعرف بالشعر الشعبى الأندلسى.

ولذلك فقد تعددت مراكز الغناء والطرب فى كل أنحاء الأندلس فى هذا العصر. وقد اختتمنا هذه الدراسة بالاشارة إلى أثر الموسيقى والغناء الاندلسى فى اسبانيا المسيحية.

أما البحث الثالث الذى يحمل عنوان «صُوَر من التعاون العسكرى بين القاهرة ودمشق ضد الصليبيين فى العصر الفاطمى، رؤية جديدة» فقد شاركتُ به فى مؤتمر «التاريخ العسكرى لشمال مصر عبر العصور» الذى عقده قسم التاريخ بكلية الآداب/ جامعة الاسكندرية فى الفترة من ٨ -٩ اكتوبر ١٩٩٥ بمناسبة الاحتفالات بذكرى انتصار السادس من اكتوبر.

وقد اخترت هذا الموضوع للتأكيد على أنه فى تفرق المسلمين كل الضعف وفى توحدهم وتماسكهم كل القوة. وقد ابرز البحث أهم صُوَر التعاون والتنسيق والتضامن العسكرى بين دمشق والقاهرة خلال فترة اليقظة والصحوة الإسلامية التى سبقت بداية مرحلة توحيد الجبهة الاسلامية على يد الناصر صلاح الدين يوسف ابن نجم الدين ايوب. وهى الفترة التى لمعت فيها أسماء قادة مسلمين كانوا على مستوى المسئولية فتناسوا خلافاتهم وترفعوا عنها من أجل الصالح العام ومن أهمهم كربوغا ومودود وآق سنقر البرسقى فى الموصل، وظهير الدين طغتكين ونور الدين

محمود في دمشق. وهذا يؤكد أن حرب السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ لم تكن سوى حلقة من حلقات سلسلة التعاون والتنسيق العسكرى بين مصر وسوريا عبر العصور المختلفة.

ومن الجدير بالذكر أن بعض المستشرقين حاولوا تشويه صورة بعض هؤلاء المجاهدين الأبطال لاسيما طغتكين (*)، وقد مال بعض مؤرخينا إلى وصمه بالانتهازية والوصولية وذكروا أن دوافعه من توحيد الجبهة الاسلامية انما كانت للمصلحة الشخصية، وقد اتجهنا في هذا البحث اتجاهاً آخر وأعدنا التأريخ لطغتكين بنظرة ورؤية جديدة بعد استقراء النصوص وتحليلها بما ينصف هذه الشخصية التى كانت لها أياد بيضاء فى مجال الجهاد الاسلامى.

والبحث الرابع بعنوان «لمحات انسانية من حياة المعتمد بن عباد الأسرية» وقد شاركتُ به فى مهرجان «المعتمد بن عباد» الذى نظمته وزارة الشؤون الثقافية بالمملكة المغربية فى ديسمبر سنة ١٩٩٥ تحت رعاية الملكين الحسن الثانى وخوان كارلوس، فى مدينة مراكش. ويلقى البحث الضوء على الجانب الآخر من شخصية المعتمد بن عباد، آخر ملوك الطوائف باشبيلية، فقد ركزت معظم الكتابات التى تصدت للتأريخ لاشبيلية زمن الطوائف، على الأحداث السياسية الداخلية والخارجية، وحتى اذا ماتطرقت إلى الجانب الشخصى من حياة ملوكها، تعرضت لنبوغ كل من المعتضد بن عباد وولده المعتمد فى مجال الشعر، أما النواحى الانسانية فى المعتمد وصورة الأب والزوج، فقد غابت عن تلك الكتابات وهذا ماحاولت ابرازه فى البحث فقد تعرضتُ لحياة المعتمد منذ نعومة اظفاره ونشأته وتأثير هذه النشأة على تكوين ملامح شخصيته، وعلاقته بأبنائه وبناته، وزوجته اعتماد الرميكية، وموقفه المتحضر من المرأة.

والبحث الخامس بعنوان «علاقة مصر المملوكية بغرناطة قبيل وعقب

(*) حتى صلاح الدين يوسف بن نجم الدين ايوب لم يسلم من الهجوم فى كثير من الكتابات الحديثة.

سقوطها»، وقد اوضحت فيه مدى عمق العلاقة بين مصر والاندلس حتى مطلع القرن التاسع الهجرى، ثم أوضحت الظروف السياسية السيئة التى كانت تمر بها مصر المملوكية فى نفس الوقت الذى كانت سلطنة غرناطة تتجه فيه نحو الانهيار المحتوم.

وقد أوضح البحث أن مصر المملوكية لم تقم بالدور المنتظر والمتوقع منها كدولة اسلامية كبرى، فلم تبادر بانجاد غرناطة فى لحظاتها الأخيرة، وعللت أسباب هذا التباطؤ، فالمماليك كانوا يعانون من الاضطرابات الداخلية والأزمات الاقتصادية ونقصان فى الغذاء الرئيسى وهو القمح لاسيما فى بلاد الشام ويتخوفون فى ذات الوقت من خطر العثمانيين الذين باتوا على أبواب البلاد. وفى تصورى أن المماليك لو كانوا قد وحدوا جهودهم مع العثمانيين لكانوا قد تمكنوا معاً من انقاذ الاسلام فى الأندلس.

وقد أبرز البحث كذلك أهم الرحلات المتبادلة بين أهل الأندلس ومصر قبيل سقوط غرناطة، كما تناول أخبار غرناطة فى كتابات المؤرخين فى مصر أمثال «ابن اياس» عشية وغداة سقوطها. ومن هذا المنطلق، نؤكد أنه اذا كان فى دروس التاريخ عظة وعبرة، فلنتخذ من تفرق المسلمين وتقاتلهم فى ذلك الوقت، من مماليك وعثمانيين فى المشرق الاسلامى والبيت الحاكم فى الأندلس، درسا يفيدنا فى المستقبل فى ضوء الظروف المحيطة بنا.

أما البحث السادس، فهو يحمل عنوان «قطر وموارد ثروتها الاقتصادية فى العصور الوسطى». وكنت قد دعيتُ فى السنوات السابقة للمشاركة فى أكثر من مؤتمر عن الخليج العربى أهمها المؤتمر الذى نظمته هيئة اليونسكو عن طريق الحرير بالقاهرة سنة ١٩٩٠ ، ومؤتمر العلاقات العمانية المصرية عبر التاريخ والذى عقد بمسقط سنة ١٩٩١ ، ومؤتمر عمان عبر التاريخ الذى عقد بمسقط أيضاً سنة ١٩٩٤ «ومؤتمر الخليج العربى عبر العصور» الذى عقد فى القاهرة سنة ١٩٩٦ .

وقد شاركتُ فى هذه المؤتمرات بأبحاث متنوعة تدور حول كل من عمان والبحرين وتجارتهما فى الخليج العربى والمحيط الهندى وخليج عدن فى العصور الاسلامية، ولاحظتُ اثناء اعدادى هذه الأبحاث وجود اشارات فى بعض المصادر إلى قطر مما يؤكد أن قطر شكلت كياناً طبيعياً وجغرافياً معروفاً ومتميزاً فى العصور الوسطى.

وهذا يخالف رأى الكثيرين من ان اسم قطر ليس سوى مسمى حديثاً لامارة برزت واستقلت فى عصرنا الحالى، وبالتالى فقد دفعنى هذا إلى أن أفرد بحثاً عن قطر ووضعيتها الاقتصادية فى العصور الوسطى الاسلامية انتهيت من اعداده فى يناير ١٩٩٧.

ويؤكد البحث أن المسعودى يعتبر أول من أشار إلى ذلك فى كتابه «مروج الذهب» فهو قد وصف قطر بأنها مجموعة من الجزائر التى تقع فى بحر فارس وتبعه الادريسى فى ذلك.

وقد أكدنا فى البحث بعد رجوعنا إلى العديد من النصوص العربية ان اسم قطر كانت له خلال العصور الوسطى دلالته الجغرافية والطبيعية الخاصة به شأنه شأن اسم «البحرين» واسم «عمان». واكدنا بعد سلسلة من المناقشات لمختلف الأخبار التى وردت فى المصادر ان استخدام كبار المؤرخين المسلمين امثال الطبرى وابن الأثير مصطلح «البحرين» للدلالة على المنطقة الممتدة مابين كل من البصرة وعمان لايعنى ابداً انكار وجود كيان قائم بذاته لقطر، فهذا الاستخدام أشبه باستخدامنا لبعض المصطلحات السياسية والجغرافية فى العصر الحديث فعندما نقول «الخليج العربى» فقط دون تحديد فاننا نعنى بهذا المصطلح فى واقع الأمر ستة دول خليجية هامة لكل منها كيان سياسى مستقل وكذلك مصطلح «الشام» فهو يشمل ضمناً اربع كيانات سياسية قائمة بذاتها وايضاً مصطلح «المغرب العربى» ومصطلح «الشرق الأقصى» و«الشرق الأوسط» و«القرن الافريقى» فكل مصطلح من هذه المصطلحات يتضمن عدة دول مستقلة وقائمة بذاتها.

كما استعرضنا في البحث أهم موارد الثروة الاقتصادية في قطر في العصر الاسلامي فقد اشتهرت قطر ببعض الصناعات كصناعة الحمور والمنسوجات كما عُرِف ابناؤها بأنهم تجار مهرة.

وفيما يتعلق بالبحث السابع والذى يحمل عنوان «موقف مدينة صور من احداث الشام منذ منتصف القرن الخامس الهجرى وحتى سقوطها فى ايدى الصليبيين سنة ٥١٨هـ» فقد اخترت الكتابة عن هذه المدينة على وجه التحديد عندما دعيت للمشاركة في «مؤتمر بلاد الشام فى العصر السلجوقى» فى دمشق سنة ١٩٩٤ ونظراً لما أبداه أهالى صور من مقاومة باسلة ضد الصليبيين، ونظراً لتشابه الأمس باليوم ، فصور اليوم تتحمل بإباء وشمم مع بقية مدن الجنوب اللبنانى الضربات الاسرائيلية المتتابعة، لذلك فقد قررت التأريخ لهذه المدينة العريقة فى هذه الفترة الحرجة من تاريخها الاسلامى.

والبحث الثامن يتناول الجوانب الايجابية والسلبية للزواج المختلط فى الأندلس، وهو مكتوب باللغة الاسبانية وكنت قد شاركتُ به فى مؤتمر «المرأة فى حوض البحر المتوسط» الذى عقد سنة ١٩٩٤ فى مدريد.

أما البحث التاسع فهو ترجمة لأحد الأبحاث التى نشرت مؤخراً للمؤرخة الفرنسية راشيل آرييه، والتى تعد من المؤرخات القليلات المتأسبنات واحدى المتخصصات، البارزات فى مجال الدراسات الأندلسية. وبحثها بالاسبانية وهو يحمل عنوان «رحالة من المغرب إلى المشرق» وقد نشر فى كتاب صدر فى غرناطة باسبانيا سنة ١٩٩٥ . وقد قمت بترجمة هذا البحث سنة ١٩٩٦ من اللغة الاسبانية إلى العربية كما اعقبت هذه الترجمة بدراسة نقدية للبحث.

والبحث العاشر بعنوان «بنو سراج وزراء بنىْ نصر بين الحقيقة التاريخية والقصة الشعبية» فقد نشره مركز الدراسات الموريسكية والعثمانية فى تونس سنة ١٩٩٥ بمناسبة تكريم المستشرق لوى كاردياك كما يقوم معهد الدراسات

الاسلامية بمدريد الآن بنشره في عدد خاص عن غرناطه والشق الأول من البحث يعالج أصل بني سراج تاريخياً، فقد كانوا من اعرق الأسرات الأندلسية، وقد رجحنا انتسابهم إلى كلاب بن ربيعة على حد قول كل من ابن بسام وابن حزم، كما تتبعنا أهم شخصيات هذه الأسرة وتحدثنا عن دورهم السياسى الهام والمؤثر كوزراء لسلاطين غرناطة، كما أشرنا إلى ثورة فرج بن فرج من بنى سراج ضد الحكم الاسبانى المسيحى بعد سقوط الحكم الاسلامى بالمدينة. أما الشق الثانى من البحث فيعالج ماورد بشأن بنى سراج فى القصص الشعبى ومدى ارتباط ذلك بالواقع التاريخى، ومن أهمها رواية «ابن سراج» التى ظهرت بعد سقوط غرناطة بحوالى سبعين عاماً. كما تعرضنا بالنقد لكتاب «الحروب الأهلية فى غرناطة» لخينيث بيريث دى هيتا الذى صدر فى القرن السادس عشر الميلادى، وكذلك اشرنا إلى قصة «آخر بنى سراج» للفيكونت دو شاتو بريان.

أما البحث الحادى عشر فهو بعنوان «دور الطراز فى الأندلس فى عصر بنى أمية» فقد نشر مرتين فى عام ١٩٩٥، المرة الأولى فى مجلة كلية الآداب بجامعة سوهاج (العدد ١٧) والمرة الثانية فى مجلة دراسات أندلسية بتونس فى عدد يناير ١٩٩٥ وكلتاهما دورية علمية محكمة.وقد عالجت فى هذا البحث انشاء دار الطراز فى قرطبة،كما تعرضت لذكر دار الطراز باشبيلية التى انشأها ابراهيم بن حجاج الثائر بها فى عهد الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠هـ) والتى نافست دار قرطبة إلى أن سقطت دولة بنى حجاج على يد الرحمن الناصر سنة ٣٠١ هـ.

وأشار البحث إلى أهم التطورات التى طرأت على دار الطراز بقرطبة وأهم من تولى هذه الخطة من الفتيان، وتعرضت إلى نماذج من قطع النسيج التى انتجتها دار الطراز القرطبية واهمها قطعة من النسيج الرقيق تعرف بطراز هشام المؤيد بالله، عثر عليها فى سانت استبيان دى جورماث (غرماج) وتحتفظ بها الأكاديمية التاريخية بمدريد وأشرت إلى وضوح أثر التقاليد الفنية العراقية بها كما يتضح هذا التأثير الفنى العراقى فى قطعة النسيج المعروفة بنسيج الفيلة المحفوظة بكنيسة سان ايسيدرو بليون.

وقد تعرض البحث أيضاً بالاضافة إلى دور الطراز الخاصة بقرطبة وباشبيليه إلى دور طراز العامه التى خصصت لأهل الأندلس والتى كانت موزعة على معظم مدن الأندلس بالاضافة إلى بعض التجمعات العمرانية القروية التى كانت لها أنوال لنسج المنسوجات الكتانية أو القطنية أو الحريريه. فكانت بالمرية وبجانة ومالقة ومرسيه وغرناطة واشبيلية وقرطبة وبطليوس وشنترين ولشبونة وغيرها من مدن الأندلس، دور طراز عامة واختصت بعض هذه المدن بنوع معين من المنسوجات مثل شهرة بجانة فى صناعة الحرير حتى ظهور المرية التى ورثت أيضاً شهرة قرطبة فى صناعة الوشى والديباج واختصاص سرقسطة بصناعة السمور

أما البحث الأخير فهو دراسة عن برغواطة بعنوان «من جديد حول برغواطة هراطقة المغرب فى العصر الاسلامى» وكان هذا البحث باكورة أبحاثى بعد حصولى على درجة استاذ مساعد مباشرة فقد صدر فى أواخر عام ١٩٩٣، وقد نشر هذا البحث فى طبعة خاصة ١٩٩٣ بمدت فأعدت نشره ضمن هذه المجموعة

وقد سبقنى فى التأريخ لبرغواطة عدد من كبار الأساتذة والمؤرخين فى العالم العربى نذكر منهم على سبيل المثال الاستاذ الدكتور محمود اسماعيل فى بحثه «حقيقة المسألة البرغواطية، مغربيات - دراسات جديدة» والأستاذ الدكتور رجب محمد عبد الحليم فى بحثه «دولة بنى صالح فى تامسنا بالمغرب الأقصى»

وقد اتجه هذا الفريق من المؤرخين إلى الدفاع عن العقيدة البرغواطية واعتبارها احدى فرق الخوارج ولكننى أكدت فى بحثى على أن برغواطة دولة خارجة عن تعاليم الاسلام، اعتماداً على ماورد بشأنها من أخبار فى المصادر العربية إلى حد ان كثير من المؤرخين القدامى قد وصموها بالهرطقة مثل ابن أبى زرع والحسن بن الوزان

وقد ناقشت جميع الآراء الخاصة بأصل برغواطة ومنازلها فى المغرب الاسلامى وصيغة الكيان السياسى برغواطة وقيام هذه الدولة وأهم ملوكها

وسياساتهم الخارجية وصلاتهم مع الدول المغربية المجاورة كما عالجت بشيء من التفصيل الفكر العقائدى لبرغواطة، وأشرت إلى اعتقادى بأنه كان يجمع بين افكار ومذاهب واديان متعددة بدءاً من الفكر السنى إلى الخارجية المتطرفة والتشيع كذلك جانباً من الدوناتيه وبعض الأفكار اليهودية كما نلمح فى فكرهم العقائدى بعض التقاليد البربرية المحلية والوثنية الأمر الذى يجعل من البرغواطية فكراً خارجاً عن الدين الاسلامى الحنيف.

وبعد، أرجو من الله عز وجل أن تحظى هذه البحوث باهتمام الباحثين فى التاريخ والحضارة الاسلامية وعلى الله التوفيق،،

د/ سحر السيد عبد العزيز سالم

يناير ١٩٩٧

بنو ابي عبدة وزراء وقادة
الدولة الأموية في الأندلس

بنو أبى عبدة وزراء وقادة
الدولة الأموية فى الأندلس

أولية بنى أبى عبدة

ينتمى بنو جهور أصحاب قرطبة فى عصر دويلات الطوائف إلى أبى عبدة حسان بن مالك بن عبد الله بن جابر(١). وعرفت هذه الأسرة خلال فترة حكم الأمويين بالأندلس «بآل أبى عبدة»، إلى أن برز أحد ابنائها وهو أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبيدالله من نسل عبد الغافر بن ابى عبدة حسان بن مالك، على المسرح السياسى الأندلسى فى أواخر عصر الخلافة، فهو مؤسس الدولة التى حملت اسمه واضطلعت بحكم قرطبة فى عصر دويلات الطوائف بعد سقوط الخلافة الأموية بالأندلس فعرفت هذه الأسرة منذ ذلك الحين «ببنى جهور»(٢).

وينتسب عبد الله بن جابر الجد الأعلى لهم إلى كلب(٣)، وكان مولى لمروان ابن الحكم وشارك فى موقعة مرج راهط وأبلى فيها بلاء حسناً فأعتقه(٤).

وكان أول من دخل الأندلس من هذه الأسرة، ابو عبدة حسان بن مالك، دخلها فى سنة ١١٣هـ (٧٣١/ ٧٣٢م) أى قبل دخول عبد الرحمن بن معاوية بخمس وعشرين عاماً، وكان حسان يعيش قبل ذلك بالمشرق، حيث أنجب عدداً من الأبناء، قتلوا جميعاً ماعدا إبنه أبو أمية عبد الغافر لصغر سنه، فنشأ مع عبد الرحمن بن معاوية وتأدب معه بالمشرق(٥).

وبعد سقوط الخلافة الأموية فى المشرق، ونجاة عبد الرحمن بن معاوية من مذبحة نهر أبى فطرس، وفراره إلى بلاد المغرب، وجه مولاه بدر إلى زعماء الموالى المروانية فى الأندلس يسألهم نصرته ويلتمس منهم أن يبذلوا له العون فى تحقيق رغبته فى دخول الأندلس. ولم يتردد بدر فى الجواز إلى الأندلس واتصل بادىء ذى بدء بأبى عبدة حسان بن مالك لارتياحه إليه فبادر ابو عبدة بارسال ابنه ابى أمية عبد الغافر إلى عبد الرحمن فى ملجئه عند قبيلة نفزة ليطلعه على أحوال الأندلس ويؤكد له استعداد الموالى لتأييده(٦).

ويميل فريق من المؤرخين الحديثين إلى التمييز بين بنى جهور أصحاب

قرطبة، وهم الذين ينتهى نسبهم إلى أبى عبدة حسان بن مالك، وبين أسرة أخرى كانت تسمى ببنى جهور كذلك، وهى أسرة الجهاروة البختيين الذين ينتمون إلى جهور بن يوسف بن بخت[٧]، فى حين أن بعض المصادر العربية قد خلطت بين البيتين، ومن بين هؤلاء ابن عذارى الذى ذكر فى معرض حديثه عن دولة بنى جهور فى قرطبة أن مؤسسها هو «جهور بن محمد بن جهور بن عبد الملك بن جهور بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن يوسف بن بخت بن ابى عبدة .....[٨]، كما ذكر ان الجد الأعلى لهذه الأسرة وهو «بخت بن أبى عبدة» كان فارسى الأصل وأنه كان مولى لعبد الملك بن مروان وأن ابنه يوسف بن بخت دخل الأندلس قبل دخول عبد الرحمن بن معاوية بعدة سنين، وكان أحد كبار الموالى بقرطبة[٩].

وحذا ابن الخطيب حذو ابن عذارى فى نسبة أبى الحزم جهور بن محمد بن جهور إلى عبد الغافر بن يوسف بن بخت بن أبى عبدة الذى كان لدخوله الأندلس على حد وصفه «أثر عظيم من جميل الذراع وسعة الباع وأسندوا إليه مهمهم وعدوا من خصله مالم يختلفوا فيه ......»[١٠].

ويتضح مما سبق عرضه أن المؤرخين المذكورين يربطان بين بنى جهور البختيين، وبين بنى جهور الذين ينتمون إلى بيت «ابن أبى عبدة وهو مالانقبله فنحن نميل الى التفرقة بين الجهاورة من بيت ابى عبدة، والجهاورة البختيين، فابن عذارى نفسه وهو أحد الذين خلطوا بين نسب البيتين ذكر فى موضع آخر من البيان المغرب مايفيد بأن وزراء عبد الرحمن الداخل كانوا أربعة هم عبد الله بن عثمان، وعبد الله بن خالد، ويوسف بن بخت وحسان بن مالك[١١].

ولو أننا رجعنا إلى رأيه الأول فان يوسف بن بخت يكون طبقاً لما ذكره حفيداً لحسان بن مالك «أبى عبدة» وهذا مالايمكن أجازته بناء على ماورد فى هذا الخبر الذى أشار ابن عذارى فيه إلى وزراء عبد الرحمن الداخل فقد فصل فيه تماما بين شخصية يوسف بن بخت، وأبى مالك حسان بن مالك الذى كان زميلاً له فى الوزارة وليس حفيداً له، وأورد صاحب **أخبار مجموعة فى تاريخ الأندلس** مايشير إلى أن عبد الرحمن الداخل انتقل بعد نزوله بطرش إلى دار ابى الحجاج يوسف بن

بخت في قرية طرش Torrox، فجاءه ابن بخت نفسه وانثالت عليه الأموية كلها ومن بين من وفد عليه للترحيب به وتأييده له ومبايعته بخلاف يوسف بن بخت، عاصم بن مسلم الثقفي، وأبو عبدة حسان بن مالك، ولم يشر ابن القوطية على الاطلاق إلى وجود أية علاقة تربط بين كل من ابن بخت وأبي عبدة[١٢]، كما أن سير الأحداث لايدل على أن يوسف بن بخت كان حفيداً لأبي عبدة.

كذلك يفرق **ابن الأبار** بين كل من البيتين وأولية كل منهما بما لايدع مجالاً لأى شك[١٣] في ارتباطهما أسرياً. أما **ابن حيان** فقد كان دائم التمييز في أخباره بين جهاورة بني ابي عبدة والجهاورة البختيين[١٤].

وكان لأبي عبدة حسان بن مالك دور كبير في اقناع أبي الصباح اليحصبي شيخ اليمانية في غرب الأندلس بنصرة عبد الرحمن بن معاوية الداخل، فقد كان أبو الصباح يقطن في قرية مورة من شرف اشبيلية إلى جوار أبي عبدة، ولذلك فقد عمد أبو عبدة إلى ملاطفته لحمله على تأييد عبد الرحمن والوقوف إلى جانبه وأخذ يذكره بأفضا[illegible] بن عبد الملك تجاهه ونجح في استمالته، ثم قام أبو عبدة ومعه أبو عبد الله بن خالد وأبو عثمان عبيد الله بن عثمان بمخاطبة بقية سادات العرب اليمنية في غرب الأندلس مثل علقمة بن غياث اللخمي، وأبو علافة الجذامي وزياد بن عمر الجذامي، كما خاطبوا رؤساء اليمنية في البيرة وجيان ومنهم جد بني أضحى، وبني حسان وبني عمر أصحاب وادي آش[١٥].

ولم ينس عبد الرحمن الداخل لأبي عبدة حسان بن مالك هذا الصنيع وماقدمه له هو وولده عبد الغافر من أجل توطيد دعائم دولته في الأندلس فيذكر كل من صاحب أخبار مجموعة وابن عذارى أن عبد الرحمن الداخل اختار حسان ابن امالك ليكون وزيراً له ضمن أربعة آخرين[١٦] كماسبق أن أشرنا وبالإضافة إلى ذلك يزودنا ابن الأبار بخبر هام مماثل ذكر فيه أنه لما «توطد عبد الرحمن، استوزر أبا عبدة واستقوده، ثم استعمله على اشبيلية قائداً بها ومضيقاً على أهل باجة وغيرها، فملك الغرب أجمع خمسة أعوام إلى أن توفي باشبيلية وقبره بها»[١٧].

وعلى الرغم من النص الذى أورده المقرى وأكد فيه أنه لم يكن لعبد الرحمن الداخل من يطلق عليه لقب وزير، وانه انما عين أشياخاً للمشاورة والمؤازرة فحسب

ومنهم أبو عثمان عبيد الله بن عثمان، وعبد الله بن خالد، وأبو عبدة صاحب اشبيلية وكذلك شهيد بن عيسى بن شهيد مولى معاوية بن الحكم وعبد السلام بن بسيل الرومي(١٨)، فاننا نستنتج مما أورده كل من ابن الأبار والمقرى أن ابا عبدة حسان بن مالك كان يشغل مكانة سامية في دولة عبد الرحمن الداخل بحيث اعتبر وكأنه وزير من وزرائه الأثيرين لديه، ويؤكد تلك الحقيقة النص الذى أورده كل من صاحب أخبار مجموعة وابن عذارى كما سبق أن أوضحنا. كذلك نستنتج أن أبا عبدة لم يكن مجرد مستشار أو وزير لعبد الرحمن الداخل فحسب وانما كان أيضاً من أكبر قادته العسكريين وعامله على كورة اشبيلية والغرب كله، ويفسر هذا الخبر الذى انفرد بذكره ابن الأبار أسباب تغلب الأمير عبد الرحمن على الثورات التى احتدم أوارها في غرب الأندلس، لاسيما ثورة العلاء ابن مغيث فى باجة، وثورتى عبد الغافر اليمانى وأبى الصباح بن يحيى اليحصبى فى أشبيلية وثورة سعيد اليحصبى المعروف بالمطرى فى لبلة(١٩).

وبرز من أبناء أبى عبدة حسان بن مالك اثنان هما أبو أمية عبد الغافر وعبد العزيز.(٢٠)

وفيما يتعلق بأبى أمية عبد الغافر بن أبى عبدة، فقد حل محل والده لدى عبد الرحمن الداخل، فكان له نعم المشير والمعين بحيث عهد إليه عبد الرحمن الداخل، فكان له نعم المشير والمعين بحيث عهد إليه عبد الرحمن بخاتمه إلى أن مات(٢١)، وكان على حد قول ابن الأبار من بين وزراء عبد الرحمن بن معاوية وأنه أحسن التصرف فى الوزارة (٢٢). وازدادت مكانة أبى أمية عبد الغافر بن أبى عبدة، سمواً، فى عهد الأمير هشام الرضا (١٧٢ - ١٨٠هـ / ٧٨٩ - ٨٩٦م) فتولى عدداً من المناصب الهامة فكان صاحب شرطته(٢٣)، وأحد حجابه وصاحب خاتمه(٢٤)، واستمر يحتفظ بخاتم الامارة فى عهد الحكم الربضى(٢٥) (١٨٠-٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢٢م).

أما عبد العزيز بن أبى عبدة أخو أبى أمية عبد الغافر فقد ورد اسمه أيضاً ضمن حجاب الأمير الحكم الربضى(٢٦).

وقد أنجب أبو أمية عبد الغافر عدداً من الأبناء نعرف ثلاثة منهم من خلال

ماورد في المصادر العربية هم يحيى[٢٧]، وحسن[٢٨] ومالك[٢٩] ولانعرف عن يحيى بن عبد الغافر سوى أنه الجد الأعلى لأبي الحزم جهور مؤسس دولة الجهاورة في قرطبة، بعد انهيار الخلافة، فقد أجمعت المصادر العربية على ذلك، فجهور هو ابن محمد بن جهور بن عبيد الله بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن أبي عبدة[٣٠].

أما حسن بن عبد الغافر بن أبي عبدة فقد انفرد ابن حيان بذكر خبر مفاده أنه كان ضمن وزراء الأمير عبد الرحمن الأوسط[٣١] (٢٠٦ - ٢٣٨هـ / ٨٢١ - ٨٥٢م).

وفيما يتعلق بمالك الابن الثالث لعبد الغافر بن أبي عبدة فقد كان وفقاً لما أورده ابن الفرضي الجد الأعلى لأبي الإصبغ عيسى بن أحمد من بني أبي عبدة، وهو أحد علماء قرطبة الموسوعيين، من أقران وزملاء ابن الفرضي نفسه[٣٢].

وفيما يلي بيان تفصيلي شامل لذراري كلٍ من الأبناء الثلاثة لأبي أمية عبد الغافر بن أبي عبدة:

أولاً يحيى بن عبد الغافر بن أبي عبدة وذريته

أنجب يحيى بن عبد الغافر ولداً هو الغمر الذى أنجب بدوره أبناء عرفنا منهم ولدين هما عثمان[٣٣] ومحمد[٣٤].

وفيما يتعلق بعثمان بن الغمر، فقد أشار ابن حيان في سياق حديثه عن انبعاث الفتنة بكورة اشبيلية سنة ٢٧٦هـ زمن الأمير عبد الله إلى استمساك جماعة من موالي الأمويين بالطاعة، ويعبر عن ذلك بقوله «فتميزت عنهم جميعاً فرقة أهل الطاعة المستمسكة بالجماعة فلم يدخلوا مع أحد من الفريقين في شيء من المعصية وأقاموا على حريتهم في التمسك بدعوة السلطان وفيهم رجال صدق من قريش ومواليهم من العرب والبرابرة وغيرهم منهم من قريش ابن الأشعث ووليد وحكيم بن هشام بن وثان، من الأمويين عثمن بن الغمر بن أبي عبدة وحسان بن عامر بن أبي عبدة ووهب بن بسيل ...»[٣٥] ونلاحظ من خلال هذا النص أن ابن حيان أورد اسم عثمن بن العمر بن أبي عبدة بين أسماء موالي الأمويين الذين

استمسكوا بالطاعة للحكومة المركزية. ونرجح أن والد عثمان من بنى أبى عبدة المذكور هنا هو الغمر بالغين وليس العين كما ورد فى نص ابن حيان وأن اختفاء النقطة من فوق العين فى النص انما حدث نتيجة خطأ فى القراءة أو النسخ والطباعة وذلك لتواؤم الفترة الزمنية التى عاش فيها عثمان هذا (أواخر القرن الثالث الهجرى) وكونه ابناً للغمر وحفيداً ليحيى بن عبد الغافر بن أبى عبدة.

كذلك نستنتج من نص ابن حيان هذا حقيقة هامة، وهى استمرار بقاء فرع كبير من بنى أبى عبدة فى اشبيلية فقبيل دخول عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس كان أبو عبدة حسان بن مالك مقيماً بها، كما سبق أن أشرنا ثم تولى ادارتها فى عهد عبد الرحمن الداخل هى ومنطقة الغرب، وفقاً لما أورده كل من ابن الأبار، والمقرى.

ولم يكن عثمان بن الغمر بن أبى عبدة وحده الذى كان مقيماً باشبيلية فقد أورد ابن حيان اسماً اخراً لأحد أفراد هذه الأسرة شارك عثمان فى الاقامة بها وقت انبعاث الفتنة سنة ٢٧٦هـ وهو حسان بن عامر بن أبى عبدة.

وقد يتبادر إلى الذهن أن عثمن بن الغمر بن أبى عبدة هو نفسه عثمن بن أبى عبدة القرشى المذكور بين شهود صلح تدمير على حد قول الضبى[٣٦]، ولكنهما فى حقيقة الأمر شخصان مختلفان تماماً فعثمان المذكور فى صلح تدمير قد أورد العذرى اسمه على أنه عثمان بن عبيدة القرشى[٣٧] وليس عثمان بن أبى عبدة كما ذكر الضبى، وكان عثمان بن عبيدة هذا من وجوه أصحاب موسى بن نصير الذين شاهدوا معه فتح الأندلس، واسمه ثابت فى كتاب الصلح الذى كتبه عبد العزيز بن موسى سنة ٩٤ هـ لتدمير بن عبدوش. وهو يبتعد بذلك كثيراً عن عصر عثمان ابن الغمر بن أبى عبدة الذى عاش فى أواخر القرن الثالث الهجرى.

أما محمد بن الغمر فقد تألق اسمه بسبب شهرة أحد ابنائه وهو أبو عثمان عبيد الله بن محمد بن الغمر بن أبى عبدة[٣٨] الذى تصرف للأمير عبد الله فى الكور وحجابة الأولاد، والمدينة، والخيل، والقيادة ثم فى الكتابة الخاصة والوزارة[٣٩]، وكان على براعته فى الآداب وعلوم البلاغة، قائداً عسكرياً قديراً أثبت جدارة فى ساحات القتال وله فتوح جمة أحرز فيها انتصارات عدة ضد المارقين

والمنتزين على الحكومة المركزية في قرطبة، من ذلك دوره سنة ٢٧٥هـ في مواجهة عبد الله بن خنجر الثائر على الأمير عبد الله بحصن جريشة من جيان، وكان عبيد الله آنذاك عاملاً على جيان[٤٠]، وبادر بالخروج على رأس قواته لمواجهة ابن خنجر، وأحكم الحصار على الحصن وظل يشدد عليه الحصار إلى أن وافاه كتاب الأمير عبد الله يأمره فيه بالقفول عنه إلى حصن أرجونة، فلما فك عبيد الله بن أبي عبدة الحصار عن ابن خنجر، طمع فيه هذا الثائر فحشد عليه كل الثوار من جهة البيرة وتدمير واعترضوا طريقه بجبل افركلس وهناك دارت معركة عنيفة تغلب فيها عبيد الله بن محمد بن أبي عبدة على ابن خنجر واصحابه وقتل منهم خمسة وسبعين رجلاً واعتصم فلهم بجبال المنطقة[٤١].

وكان لأبي عثمان عبيد الله كذلك دور كبير في الانتصار الذي احرزته جيوش الامارة في المعركة الحاسمة التي دارت بين الأمير عبد الله وبين عمر ابن حفصون عند ببشتر فكافأة الأمير عبد الله بتقليده الوزارة، ويعبر ابن حيان عن ذلك بقوله «وكان لأبي عثمن عبيد الله بن محمد بن الغمر بن أبي عبدة في اليوم الذي وقعت فيه الحرب بين الأمير عبد الله وبين المارق عمر بن حفصون عندما أخذ عليه المضيق عند منصرفه عنه عند ببشتر قاعدته مقام محمود وغناء عظيم فاق فيه جميع أهل العسكر نظر الله الأمير عبد الله ولم يغب عنه فقدمه خطة الوزارة يومه ذلك وازدادت منزلته فنال بذلك الذروة»[٤٢].

ويؤكد ابن عذارى ماذكره ابن حيان فقد أورد خبراً مفاده أن الأمير عبد الله عهد بقيادة الصوائف لعدد من أفراد أسرة «أبي عبدة» أبرزهم عبيد الله بن محمد ابن أبي عبدة، ومسلمة بن علي بن أبي عبدة، وعبد الرحمن بن حمدون بن أبي عبدة، كما أكد على أن عبيد الله تقلد الكتابة للأمير بالاضافة إلى القيادة[٤٣]، وحدث أنه اعتل وهو يتولى الكتابة[٤٤] وفي ذلك يقول العتبي الشاعر[٤٥]:

لأينع العي مذ أصبحت مرتدياً ∴ ثوب السقام وجفت زهرة الكلم
واستوحش الطرس من أنس البديع اذا ∴ نشبت فيه وطالت عجمة القلم[٤٦]

كذلك كان له دور كبير في تهدئة احداث الفتنة التي انبعثت باشبيلية زمن الامير عبد الله واعتزم عبيد الله أداء فريضة الحج وعند عودته إلى قرطبة زهد في

المناصب والسلطة وأخلد إلى الخمول ولزم داره إلى أن توفاه الله سنة ٢٩٦هـ آخر أيام الأمير عبد الله، وكان عبيد الله بن أبي عبدة شاعراً مجيداً ومن أشعاره:

صدود ليس يبلغه عقاب ∴ وعتب ليس يثنيه عتاب
وابعاد - بلا ذنب - طويل ∴ واعراض وهجر واجتناب
فلا سهر يطيب ولا رقاد ∴ ولا طعم يسوغ ولا شراب
فجسمي ناحل والجفن مني ∴ قريح والفؤاد له اضطراب
وموت عاجل أحلى وأشهر ∴ إلى من أن يطاولني العذاب(٤٧)

وكان أبو عثمان عبيد الله قد أنجب عدداً من الأبناء، منهم ثلاثة أبناء وردت اسماؤهم في المصادر العربية هم عثمان ومحمد وجهور.

أما عثمان فقد ولاه الخليفة عبد الرحمن الناصر طرطوشة وثغرها سنة ٣١٧هـ(٤٨) وأما محمد فكان أسن من أخيه جهور وان كان جهور أشهر منه. وقد تصرف محمد هذا في الكور والقيادة، كما كان شاعراً بارزاً أنشد له الحميدي يخاطب أبا عمر ابن عبد ربه:

أعدها في تصابيها خداعاً ∴ فقد فضت خواتمها نزاعا
قلوب يستخف بها التصابي ∴ اذا أسكنتها طارت شعاعاً

فأجابه:

حقيق أن يصاخ لك استماعاً ∴ وان يعصى العذول وأن تطاعا
متى تكشف قناعك للتصابي ∴ فقد ناديت من كشف القناعا(٤٩)

وفيما يتعلق بالابن الثالث جهور بن عبيد الله فقد تولى نفس المناصب التي كان يتولاها أبوه عبيد الله للأمير عبد الله في أواخر عهده(٥٠)، كما سجل له الخليفة الناصر في ربيع الأول من سنة ٣١٨هـ على كورة اشبيلية(٥١).

وكان قد تولى اشبيلية في سنة ٣١٨هـ ثم عزل عنها وتولى في سنة ٣٢١هـ كورة شذونة بدلاً من أمية بن اسحاق القرشي(٥٢)، ثم عزله الناصر عنها في سنة ٣٢٢هـ ووليها مكانة أحمد بن أبي العاص(٥٣)، وعاد ليتولى كورة اشبيلية من جديد في سنة ٣٢٣هـ(٥٤).

ويشير ابن حيان في سياق عن أحداث سنة ٣٢٤هـ إلى أنه في هذه السنة عزل جهور بن عبيد عن كورة اشبيلية وتولاها ولده محمد بن جهور بن عبيد

الله[٥٥]. وكان جهور من بين من شهدوا على الأمان الذى أعلنه الناصر للثائر محمد بن هاشم التجيبى سنة ٣٢٥ هـ[٥٦]، كما لعب جهور دوراً هاماً فى اعادة هذا الثائر إلى الطاعة والخضوع للحكومة المركزية بقرطبة، فقد كان محمد ابن هاشم يأمن لجهور لما عرف عنه من صدق وأمانة، وكان على حد قول ابن حيان «آخر من تردد إليه من رجال السلطان وكان يثق بصدقه والصدق عنه فسكنت بجهور نفرته وأصحبت مقادته واطمأنت روعته فأصغت إلى الإنابة ولاذ بالتوبة فقبل السلطان انابته وبذل له الأمان ..... »[٥٧].

وكان الخليفة الناصر قد بعث السفراء سفيراً تلو الآخر إلى محمد بن هاشم التجيبى أثناء ثورته بسرقسطة ليعرضوا عليه الأمان حقناً للدماء وكان جهور آخر هؤلاء السفراء، وقد استنتجنا من النص أنه نجح تماماً فى مهمته هذه وعاد بموافقة هاشم على بذل طاعته للخليفة الناصر[٥٨].

ويبدو أن نجاح جهور بن عبيد الله فى مهمته الدبلوماسية تلك، قد عززت من مكانته فى نفس الخليفة الناصر، اذ أننا نطالع فى أخبار سنة ٣٢٦هـ نبأ وفاة أحد الوزراء وهو سعيد بن المنذر القرشى المروانى، فبادر الناصر بتنصيب جهور بن عبيد الله بن محمد أبى عبدة مكانه فى الوزارة كما ولاه خطة المدينة فى شهر ربيع الأول من نفس السنة[٥٩].

واستمر جهور بن عبيد الله يؤدى عمله وزيراً مدة عامين فقد أورد ابن حيان اسمه بين وزراء الخليفة الناصر العشرة فى أخبار سنة ٥٢٨هـ[٦٠] ثم حدث أن أصدر الناصر أمره فى سنة ٣٢٩هـ بعزل جميع وزرائه بغتة لأمر أنكره عليهم صرفهم به جميعاً الا قليلاً منهم، وكان جهور بن عبيد الله من بين الذين عزلهم من منصب الوزارة، وان كان صرفه عنها هو وعبد الرحمن بن عبد الله الزجالى قد تأخر بعض الوقت إلى غرة ذى القعدة من هذه السنة[٦١] ثم عاد الناصر فأعاد بعضهم إلى الوزارة سنة ٣٣٠هـ، وكان جهور من بين الذين أعيدوا إلى الوزارة فى هذا العام[٦٢].

ونعتقد أن جهور استمر وزيراً للخليفة الناصر حتى سنة ٣٤٤هـ فقد أورد ابن عذارى خبراً هاماً فى أحداث سنة ٣٤٤هـ أشار فيه إلى أن الناصر لقف أمور

الخدمة السلطانية وقام بتوزيعها بين وزرائه فقلد جهور بن أبى عبدة الذى وصفه ابن عذارى «بالوزير» النظر فى كتب جميع أهل الخدمة[٦٣].

وكان لجهور بن عبيد الله بن أبى عبدة عدد من الأبناء أشهرهم أبو الوليد محمد[٦٤] الذى تقلد هو الآخر منصب الوزارة[٦٥] وكان من أهل الأدب والشعر[٦٦]، ذكره ابو محمد بن حزم ومن أشعاره:

أبلغت فى حبل أسماعى فصرت لا أصغى إلى الداعى
من صمم أورثنيه الأسى وحرقه تشعل أوجاعى
كلفتنى الصبر وأنى به وكيف بالصبر لمرتاع[٦٧]

وحظى أبو الوليد محمد عند الحكم المستنصر الذى ولاه فى سنة ٣٥١هـ على شرطة المدينة بقرطبة بدلاً من عبد الله بن بدر، وأنفذ له الحكم سجلاً بذلك بخط يده[٦٨]. وأنجب أبو الوليد محمد ابناً هو أبو الحزم جهور مؤسس دولة الجهاورة فى قرطبة فى عصر دويلات الطوائف، ومنذ ظهور أبى الحزم جهور على مسرح الأحداث السياسية فى قرطبة تحول اسم هذه الأسرة من آل «بنى عبدة» إلى «بنى جهور»، والحديث عن ابى الحزم جهور وأسرته يخرج عن دائرة البحث باعتباره من الموضوعات التى تناولها كثير من الباحثين بالدراسة[٦٩].

ثانياً: حسن بن عبد الغافر بن أبى عبدة وذريته

ذكرنا فيما سبق أن حسن بن عبد الغافر كان طبقاً لما أورده ابن حيان وزيراً للأمير عبد الرحمن الأوسط[٧٠]. وقد أفاض ابن حيان فى الحديث عن شخصية ولده الحاجب عيسى بن الحسن بن أبى عبدة الذى تولى الحجابة للأمير محمد بعد حاجبه عيسى بن شهيد[٧١] فقد وصفه ابن حيان بحسن الخلق والتصرف فى أمور الدولة وكانت كلها تجرى على غاية التصحيح والاستقامة كما كان حكيماً فى إصدار آرائه التى وسمت بالإصابة، ويصفه ابن حيان أيضاً بسرعة البديهة فاذا وقع فى أمر غير موفق أحسن الخروج منه بالحيلة، فما أثار عليه حسد كبار الشخصيات فى المجتمع وكبار الوزراء[٧٢] أمثال هاشم بن عبد العزيز، وتمام ابن عامر بن تمام ومحمد بن موسى وغيرهم من المقربين من الأمير محمد. وكان

يغلب على الحاجب عيسى بن الحسن بن أبى عبدة رغم ذكائه وسرعة بديهته، نوع من حسن النية عبر عنها ابن حيان بغفلة السلامة[٧٣] مما شجع حساده ومنافسيه لاسيما الوزير هاشم بن عبد العزيز على توريطه فى أمر دفعوه لكى يكون أول متكلم فيه أمام الأمير محمد بعد أن وعدوه فى الظاهر بنصرتهم له فيما يذهب إليه من رأى بينما يضمرون فى الواقع خذلانه مستهدفين اسقاط مكانته امام الأمير. فلما بدأ الحاجب عيسى فى الحديث عن ذلك الأمر بادروا بنقده ناكثين بذلك وعودهم بتأييده وأخذوا يسفهون رأيه ويهزأون منه لاحراجه أمام الأمير ففطن الحاجب عيسى إلى مايهدفون إليه، وطلب من الأمير أن ينفرد به، فلما فعل حدّث الأمير فى أمر آخر لاعلاقة له بما اتفق مع الوزراء على اثارته من قبل. وكان الأمر الذى ناقش فيه الأمير محمد بعد أن هداه الله إلى فتحه وساقه إليه حضور بديهته وسرعة تفكيره للخروج من ورطته متعلقاً بمصلحة من مصالح البناء وشراء كميات من الأخشاب، فشكره الأمير محمد على تذكيره بذلك واثنى على اهتمامه وغيرته على مصالح الامارة وصدق نصحيته[٧٤]. ولم يكف الوزير هاشم بن عبد العزيز عن الكيد للحاجب عيسى بن الحسن بن أبى عبدة والتآمر عليه، ومما يؤكد ذلك القصة التى أوردها ابن حيان فى سياق حديثه عن القائد عبد الحميد بن عبد الواحد بن مغيث، فقد رأى الأمير محمد ان يوليه الغرب كله لكفايته وشجاعته فى ميادين القتال، فجمع له قلمرية وباجة، وأمر الأمير محمد بأن يعقد سجله وكلّف الحاجب عيسى بابلاغه بمكان ولايته، ولكن عيسى نسى المكان فسأل وزيره هاشم ابن عبد العزيز ليذكره، فضلله هاشم سعيا منه فى احراجه فقال له باغة. ولما كانت باغة (التى تقترب فى نطقها من باجة الموضع الأصلى المناط بعبد الحميد بن مغيث قيادته) بلدة صغيرة من أعمال غرناطة، قليلة الشأن والخطر، عديمة الأهمية، فقد ثار عبد الحميد بن مغيث وتنمر عندما أخبره عيسى بن أبى عبدة خطئاً بنبأ توليه قيادتها ورد عليه بما يفيد أن غلامه يرفض أن يتولاها وأن فى ولايته لها تقليل من قدره وبادر القائد عبد الحميد بكتابة إحتجاج للأمير محمد، الذى أغرق فى الضحك عند قراءته له وأرسل إليه قائلاً أنه يعلم بالقصة وبمن خدعه وأوصى له بولاية الغرب[٧٥].

ويعلل ابن حيان سبب انحراف هاشم عن عيسى بن أبي عبدة وكراهيته له رغم فضله وحسن سيرته بصداقة عيسى بن أبي عبدة لخالد بن عبد الله عم الوزير هاشم، فقد كان بين خالد بن عبد الله وهاشم ابن أخيه، خلاف وعداوة، وكان عيسى يقول لهاشم اذا انبسط عليه: وقّر ياصبي فيقول له هاشم: «رب صبي ارسخ عقلاً من هرم »(٧٦).

وكان عيسى من القادة العظام ليس في مجال الحروب البرية فحسب بل وفي المعارك البحرية أيضاً ففي عام ٢٤٥هـ، اغار النورمان على ساحل الغرب من أرض الأندلس في اثني وستين مركباً (٧٧) وكان هذا هو خروجهم الثاني (٧٨) إلى شبه الجزيرة الايبيرية فوجدوا البحر محروساً ومراكب المسلمين معدة، فتقدم مركبان من مراكب النورمان نحو الساحل الشمالي الغربي من ساحل الأندلس فطاردتهما بعض سفن الأسطول الأندلسي وتمكنت من أسر المركبين في بعض كور باجة وغنمت ماكان فيهما من ذهب وفضة، ومرت سائر مراكب المجوس في الريف حتى انتهت إلى مصب نهر اشبيلية في البحر(٧٩)، فبادر الأمير محمد باخراج الجيش إلى الغرب وأمر باستنفار الناس إلى العدو الطارق فنفر الناس من كل أوب، وتولى الحاجب عيسى بن الحسن بن أبي عبدة قيادة جيش الامارة الرسمي وكذلك جيوش المطوعة(٨٠). وقد فصّل كل من ابن حيان وابن عذارى تفاصيل الغارة النورمندية، فذكر أن النورمان تقدموا حتى احتلوا الجزيرة الخضراء واستباحوا أهلها وأحرقوا مسجدها الجامع، ووصلوا حتى ريف الأندلس الشرقي وسواحل تدمير ثم انتهوا إلى حصن أوريولة وتقدموا إلى افرنجة حيث أمضوا فصل الشتاء وأصابوا الذراري والأموال وتغلبوا على احدى المدن التي نسبت اليهم ثم انصرفوا إلى ريف بحر الأندلس، فلقيتهم المراكب التي كان قد أعدها لهم قرقاشيش بن شكوح وخشخاش، وواجهوهم بالنفط وأصناف العدة البحرية، وفي هذه المعركة استشهد خشخاش، ومضت بقية سفن النورمان منسحبة نحو الشمال حتى ادركت أسوار بنبلونة وأغارت على البشكنس.

ونلاحظ هنا أن المصادر التي تحدثت عن المعركة التي دارت بين جيوش الامارة والمتطوعين بقيادة عيسى بن أبي عبدة الحاجب وبين المجوس ٢٤٥هـ، لم

تشر إلى قيادة عيسى بن ابى عبدة للأسطول، وإنما اكتفت بالاشارة إلى دوره فى قيادة الجيوش المنظمة والمتطوعة، وركزت الأنظار على الدور الذى قام به كل من خشخاش وقرقاشيش بن شكوح فى المقاومة البحرية.

ولكن ابن حيان انفرد فى أخبار سنة ٢٤٧هـ عند عرضه لأحداث الهجوم الذى شنه النورمان على الأندلس(٨١) بذكر خبر مفاده أن الحاجب عيسى بن الحسن زاد بمن معه فى الأسطول وعلى رأسهم خشخاش وابن شكوح عن اشبيلية(٨٢) وفى ذلك مايؤكد بأن عيسى بن أبى عبدة الحاجب تولى قيادة الاسطول بالإضافة إلى قيادته للجيش والمطوعة.

ويذكر ابن حيان فى أخبار سنة ٢٥١ هـ أن الأمير محمد أرسل ولده المنذر على رأس الصائفة إلى ألبة والقلاع وقد تولى قيادتها عيسى بن الحسن بن أبى عبده الحاجب(٨٣) فأوغل فى أرض العدو وخرّب وانتسف وجال ودمر، وفى موضع ذكره ابن حيان بفج المركويز(٨٤) اشتبكت قواته بقوات أردون أمير الجلالقة ودارت موقعة ضارية انهزم فيها الجلالقة وقتل منهم وأسر اعداد عظيمة(٨٥).

ويبرز أسم محمد من بين ابناء عيسى، وتشير المصادر العربية لاثنين من أبناء محمد بن عيسى الحاجب هما عيسى(٨٦) وأبو العباس أحمد(٨٧) اللذين تقلدا منصب القيادة العسكرية فى عصرى الامارة والخلافة.

أما عيسى بن محمد بن أبى عبدة، فقد أورد ابن حيان ذكره فى أخبار سنة ٣٣٠هـ، بمناسبة صدور أمر الناصر بتقليده على كورة لبلة بدلاً من عمر بن أحمد(٨٨). وأما أبو العباس أحمد بن محمد بن عيسى بن الحسن بن أبى عبدة(٨٩) فقد ولى الكتابة للأمير عبد الله إلى جانب أبى عثمان عبيد الله بن محمد بن الغمر بن أبى عبدة(٩٠)، كما ولاه الأمير عبد الله الوزارة والقيادة العليا(٩١). ويذكر ابن القوطية أن أبا العباس أحمد تولى القيادة بعد وفاة القائد عبد الملك بن عبد الله بن أمية بن يزيد وكان قبل ذلك وزيراً وصاحباً للمدينة(٩٢).

ويعد أبو العباس أحمد من أعظم القادة العسكريين الذين انجبتهم الأندلس فقد اضطلع بالعبء الأكبر فى محاربة الثوار والمنتزين على قرطبة طوال عهد الأمير عبد الله ولولا جهوده الموفقة لكانت دولة بنى أمية فى الأندلس تعرضت للانهيار خلال هذه الفترة المضطربة من تاريخ الأندلس(٩٣).

ورغم تولى أبى العباس أحمد عبء القيادة العسكرية زمن الأمير عبد الله فقد ظل يجمع بينها وبين الوزارة، واستمر أبو العباس يجمع بين المنصبين حتى وفاة الأمير عبد الله حيث يؤكد ابن حيان أنه عند وفاة هذا الأمير كان له أربعة وزراء فحسب هم العباس بن عبد العزيز القرشي المروانى وأحمد بن محمد بن أبى عبدة، ومحمد بن وليد بن غنيم وعبد الله بن محمد الزجالى الكاتب(٩٤).

وقد لعب الوزير القائد أبو العباس أحمد دوراً كبيراً فى استنزال الثائر خير بن شاكر بحاضرة جيان وفى ذلك يذكر ابن حيان أنه فى سنة ٢٧٧ هـ «غزا القائد أحمد بن محمد بن أبى عبدة إلى حاضرة جيان وبها خير بن شاكر على الخلاف فحاصره بالحاضرة وقتل جميع أصحابه وبعث برءوسهم إلى قرطبة وأحرق كثيراً من دور الحاضرة وبلغ بحربه لهم وشداته عليهم باب يعلس وسلم الله أصحابه على استئصالهم فلم يبق منهم غير الرياحى العريف...»(٩٥).

ولعب أبو العباس أحمد بن أبى عبدة الوزير القائد دورا كبيراً فى اخضاع كل من ابن هذيل وحريز بن هابل وديسم بن اسحاق سنة ٢٨٣هـ، ففى هذا العام غزا بالصائفة الأمير هشام بن الأمير عبد الرحمن الأوسط وكانت الحملة بقيادة أبى العباس أحمد بن أبى عبدة، وسميت هذه الغزوة بغزوة تدمير، فقد خرجا من قرطبة على رأس جيش الامارة عقب ربيع الأول من هذه السنة ونزلوا على حصن قامرة من أعمال رية على وادى بلون، ثم تابعوا السير إلى أن نزلوا على قلعة الأشعث وشرعوا فى افساد زرع ابن هذيل وأقاموا على هذه القلعة أياماً، ثم خرج القائد أحمد بن محمد بن أبى عبدة بالعلافة لافساد الزروع وانتساف الأشجار فاضطر ابن هذيل إلى الخروج من قلعته واشتبكت قواته مع قوات أحمد بن أبى عبدة فى معركة حامية استمرت من الصباح حتى وقت صلاة الظهر وقد حسم المعركة موقف ابن هذيل نفسه الذى أرسل رسوله يطلب الأمان ويشترط أن يكون والده هو الذى يأخذ له أمانه فأجيب إلى طلبه وتم صلحه على مارسمه ونزل والده إلى الأمير هشام فتوثق لابنه وأرسل إلى قرطبة ضمن الرهائن(٩٦).

ويذكر ابن حيان أن جيش الامارة واصل تقدمه لمواجهة الثائر حريز بن هابل فى بختويرة، وشرع فى تدمير المزارع وانتسافها طوال مسيرته ثم واصل زحفه حتى

أشرف على الوصول إلى بياسة التى كانت تابعة للحكومة المركزية، فأقامت بها قوات الإمارة مدة ثلاثة أيام رحلوا بعدها إلى بلدة تشكر التى كانت قد خلت تماماً من سكانها فأمر الأمير هشام باحراقها هى وحصنين آخرين بجوارها.

واتفق أن هطلت الأمطار الغزيرة واجتاحت المنطقة موجة عاتية من البرد القارس واستمر هطول الأمطار أياماً، ولكن ذلك لم يفت فى عضد قوات الامارة فلم تلبث أن حطت على حصن بختويرة وفيه حريز بن هابل، فاضطر إلى الخروج عن حصنه مع قوة من عساكره واشتبك مع جيش الامارة فى معركة عنيفة انتهت بهزيمة حريز فلما أيقن بالهزيمة لاذ بالأمان وأرسل ولده رهينة وضمن الفين وخمس مائة دينار وثمن خيل الجند المعقورة للامارة فى حربه، فأجيب إلى التماسه وتم عقد الصلح بين الجانبين وكتب له الأمان. ثم تابعت الحملة سيرها حتى وصل جيش الامارة إلى حصون البراجلة وحط عسكر قرطبة بطرش منها وأثناء ذلك عصفت بهم ريح عاتية صاحبها مطر شديد ورعد وبرق مفزع، وبعد أربعة أيام ازدادت العاصفة عنفاً واتفق ذلك يوم الاحتفال بعيد العنصرة ولكنها لم تعق الحملة عن متابعة [illegible] فقد مضت الجيوش إلى حصن اللقون وقاتلت حاميته وتمكنت من التغلب عليها والاستيلاء على الحصن فأصابت به خيلاً ومتاعاً وطعاماً وفيراً، ثم أمر القائد أحمد بن ابى عبدة باخراج اتباع ابن هذيل من الحصن وابدلهم بالعرب والبربر ثم جدد عمارة الحصن. ولما فرغ من كل هذه المهام أمر قواته بالسير الى حصن ونجة من حصون وادى آش وهناك أقامت اياماً، ثم رحلت إلى حصن رغشانة من تاجلة وركب القائد أحمد بن أبى عبدة لمنازلته مع صلاة الظهر. فلما توجه إليه لم يجد فيه ما يستحق عناء القتال فلم يقاتل أهله، ثم تابع الجيش زحفه إلى بسطة ومنها إلى بلش وقاتل أهلها يومين خرّب خلالها العمران ودمر الزروع وقتل عدداً كبيراً من أهلها ثم غادرت قواته بلش لمهاجمة بقية حصون ديسم بن اسحق بتدمير وتخريبها وتدمير أسوارها. ويذكر ابن حيان أنه نزل على مائة من حصون هذا الثائر فى وادى طادرو، وكان من اشهرها حصن رقوط الذى ناشب أهله الحرب، واستماتت أصحاب هذا الحصن فى الدفاع عنه، ولكن ذلك لم يجدهم نفعاً فلم تلبث جيوش الامارة أن تغلبت على الحصن وأوقعت بحماته هزيمة نكراء وقتل فى المعركة عدد كبير من أنجاد أصحاب الحصن أما بضربات

سيوف ابن ابى عبدة وجنده أو غرقاً فى الوادى، وكان من بين وجوه القتلى ابنا عمر ذى النون الشنترى، وغاز بن عزوان الطلبرى، ثم نزل الجيش الى مرسية فنزل بها على طادور وتلوم بها عشرة أيام حتى تقاضى مغارم هذه المنطقة، ثم رحل، القائد احمد بن ابى عبده الى الثائر ديسم بن اسحق بلورقه Lorca الذى أصر على العصيان فاشتبك جيش بن ابى عبده مع قوات ديسم فى موقعة دارت على مقربة من لورقة وانتهت بهزيمة الثوار وارتداد ديسم بن اسحق إلى قرطبة(٩٧)

ويبدوا أن الوزير القائد أبا العباس أحمد بن أبى عبده الذى كان كما أشار ابن القوطية صاحباً للمدينة قبل توليه قيادة جيوش الإمارة، قد عزل عنها فيما بعد، استنادا على رواية ابن حيان الذى يشير فى أخبار سنه ٢٨٣ هـ بعد حديثه عن أخبار انتصارات هذا القائد على الثوار والمنتزين والتى تحدثنا عنها فيما سبق إلى أن الأمير عبد الله عزل مروان بن عبد الملك بن أمية عن المدينة وولاها القائد أبا العباس أحمد بن محمد بن ابى عبده بدلا عنه ونرجح أن اعادته لولاية المدينة كان تقديرا منه لجهوده فى اخضاع المتمردين والخارجين على سلطان الحكومة المركزية واعادة الهيبة الى الأمير الأموى.(٩٨)

ولم تقتصر جهود القائد الوزير ابى العباس أحمد بن محمد بن ابى عبده على منازلة ابن هذيل وحريز بن هابل وديسم بن اسحاق سنه ٢٨٣هـ، فقد واصل بذل جهوده العسكرية عام ٢٨٤ هـ، لمنازلة ابن خصيب الثائر فى منت ميور، وخرج على رأس جيوش الإمارة فى صائفة هذا العام إلى لبلة ولقنت وكان يغزو بها الأمير ابان بن الأمير عبد الله (٩٩)

وقامت جيوش الامارة بالاغارة على حصن مرشانة واحتلته رغم سوء الأحوال الجوية وشدة العواصف ثم أغارت على مزارع برديس ولقندر وقصر ابن غراب بمورور، واحتلت بقلسانة وتلوم بها العسكر اياما ثم انتقلوا بعدها الى مدينة شريش فخرجت الخيل فى العلافة وعليها مسلمة بن السليم فتغلب خيالة قرطبة على خيالة المتمردين وقتلوا منهم عددا كبيرا، ويذكر **ابن حيان** ان القائد أبا العباس بن ابى عبده نجح فى القضاء على قوة عسكرية كانت تكمن بالقرب من شريش ثم

هاجم شعونشة وجبل جعفر وصخرة ابى ماالك وفنت طحنة وارباشبتر من كورة اشبيلية، ثم زحف جيش الامارة الى حصن منت ميور مقر الثائر ابن خصيب(١٠٠) فحاصره، وقذف المدينة بقذائف المجانيق حتى أرغم ابن خصيب على بذل الطاعة فانعقد أمانه.

كذلك كان للقائد ابى العباس احمد دور فى انهاك قوى عمر بن حفصون إمام الثوار وأعتاهم، بهجماته العنيفة التى كان يشنها فى ابريل من سنة ٢٨٤ هـ، ووردت تفاصيل ذلك فى المقتبس لابن حيان، فقد ذكر أن الأمير عبد الله أصدر أوامره الى ولده ابان بالخروج فى صائفة أخرى بخلاف الصائفة الاولى التى كانت تستهدف ابن خصيب والتى أشرنا اليها فى الفقرة السابقة، وتولى قيادة الحملة ايضا القائد احمد بن ابى عبده، وكانت وجهته هذه المرة الى مناطق نفوذ عمر بن حفصون ، وعرفت هذه الغزوة بغزوة الجزيرة .

وقد هاجم جيش الامارة فى طريقه الى طريف والجزيرة الخضراء عدة حصون لابن حفصون اهم [illegible] ن منت شنت . وعند مدينة الجزيرة الخضراء اشتبكت قوات ابن حفصون مع جيش الامارة فى معركة عنيفة استغرقت يومين متتاليين وانتهت لصالح جيش قرطبة الذى تقدم نحو حصن لورة وتجدد القتال عليه وانهزم الثوار التابعون لابن حفصون، ووقع فى اسر ابن ابى عبده، «أحمد بن محمد» كبير ثوار البرانس الذين كانوا يمدون عمر بن حفصون [illegible]ميرة والمؤن وعدد كبير من أتباعه وضرب رقابهم فى أول يوم من شهر شعبان من نفس هذه السنه ومضى ابن ابى عبده على رأس الجيش فى طريقه مفتتحا عدة حصون من القصر الى مرسى الشجر الى خندق الجنة الى سهيل الى ذكوان حيث نزلها يوم الاثنين الموافق أول يونيو من سنه ٢٨٤هـ، وهناك اشتبكت قواته مع القوات التابعة لابن حفصون وقتل عددا كبيرا من وجوههم من بينهم احمد بن خيرون وابن الأيسر، ومضت الجيوش الاميرية على«قصر بنيرة» حيث تجددالاشتباك مع الثوار فانهزم ابن حفصون واتباعه الذين ولوا الأدبار ولاذوا بالجبال الوعرة، وواصل جيش بن ابى عبده زحفه فى المناطق التابعة لابن حفصون الى أن وصل العسكر إلى « وادى بنى عبد الرحمن» .

قبالة ببشتر ، فتلوم العسكر على تدمير لمدة سته أيام لم يقع خلالها أى قتال، ثم تابع الجيش تقدمه حتى نزل على مدينة ارشذونة يوم العنصرة، فاندلع القتال حتى منتصف النهار، وانهزم الثوار وأذعنوا بالطاعة، وتوقف القتال فى اليوم التالى بعد الأتفاق على شروط التسليم، ولكن الثوار لم يلبثوا أن نكثوا بعهدهم فتجدد القتال بكل عنف وأرغم ابن ابى عبدة الثوار على الاذعان بالطاعة والتماس الأمان، ولم يكتف القائد ابن ابى عبدة بذلك فقد تابع السير بقواته حتى نزل فى المرج بحاضرة البيرة فى أول يوم من يوليو من نفس السنه ، ومن هناك انتقل إلى حصن غرناطة فحصنى شلو بينية فمنت قاية ثم إلى عريفون حيث قضى فترة عيد الفطر وتحرك بعد ذلك نحو اندرش إلى أن وصل إلى ببشتر نفسها قاعدة الثائر ابن حفصون فأحكم عليها ابن ابى عبدة الحصار مدة ثلاثة أيام، كما أغار بقواته على ما حولها من مدن وحصون، فاستولى على حصن مرشانة ومنت روى وقلشانة ومدينة سامى بوادى آش وطربلة الحمة وحصن المرة والبنيول وحصن منتيشة. واكتفى احمد بن ابى عبدة بما احرزه من انتصارات على قوات ابن حفصون وما استولى عليه من حصونه وقفل عائداً إلى قرطبة[١٠١].

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره من جهود بذلها القائد الوزير ابو العباس أحمد ابن ابى عبدة، فقد كان له الفضل فى تخليص الامارة من الثائر طالب بن مولود فقد خرج فى سنة ٢٨٧هـ بصائفة إلى كورة مورور وحاصر المضرية الثوار بها وزعيمهم طالب بن مولود وأنتهى هذا القتال بهزيمتهم ومصرع زعيمهم ابن مولود، ثم تقدم بعد ذلك إلى كورة شذونة فاجتاحها ثم تجاوزها إلى كورة رية حيث اشتبكت قواته بثوارها وتمكنت من التغلب عليهم[١٠٢].

وفى هذه السنة (٢٨٧هـ) تجدد القتال بين قوات القائد ابى العباس أحمد وقوات الثائر عمر بن حفصون الذى تحالف مع ابراهيم بن حجاج المتغلب على كورة اشبيلية وكان الثائران المتحالفان قد التقيا بمدينة قرمونة التى كانت تابعة لابن حجاج، وتعاهدا على التنسيق والتعاون فيما بينهما وأخذ كل منهما يرسل للآخر المؤن والخيل. وقد تولى فجيل بن ابى مسلم الشذونى قيادة الفرقة التى أمد بها

ابراهيم بن حجاج عمر بن حفصون. وكان فجيل محاربا شجاعا مجربا، فاتفق مع ابن حفصون على محاربة قوات القائد ابى العباس أحمد ودارت بين الفريقين موقعة عنيفة راح ضحيتها عدد كبير من فرسان جيش الامارة الذين بدأوا فى التراجع والانسحاب، ولكن القائد القدير ابن ابى عبدة تمكن من الالتفاف حول الثوار المتحالفين وأوقع بهم الهزيمة مما غير من نتيجة المعركة لصالح جيش الامارة.(١٠٣) وكان فجيل بن مسلم قد نصح ابن حفصون بأن يكتفى بانتصاره الأول على ابن ابى عبده ونهاه عن مطاردته ولكن ابن حفصون وقد اعماه غروره، رفض الأخذ بنصيحة حليفة وتمادى فى تتبع فلول جيش الامارة مما سهل على ابن ابى عبده عملية الالتفاف حول جيشه وابدال الهزيمة بنصر ساحق لقوات الامارة وانتهت هذه المعركة بانتصار القائد ابن ابى عبده وارساله عبد الرحمن بن ابراهيم ابن حجاج وابن أخى عمر بن حفصون إلى الأمير عبد الله(١٠٤).

كما كان للقائد ابى العباس أحمد الفضل الأول فى القضاء على ثورة عمر ابن مضم الهترولي الملاحى فى جيان، ففى سنه ٢٨٩هـ حاصر القائد ابو العباس احمد حاضرة جيان فافتتحها وقبض على ابن مضم وأرسله إلى قرطبة (١٠٥).

وفى سنه ٢٩١هـ (٦ من جمادى الآخرة) خرج الأمير ابان بن الأمير عبد الله فى الصائفه المعروفة بغزوة رية (١٠٦)، وتولى القيادة ايضا الوزير القائد ابو العباس احمد وذلك بنية قتال عمر بن حفصون . واشتبك جيش ابن ابى عبدة بقوات عمر بن حفصون عند قلعة ببشتر فى معركة ضارية وفشت الجراح خلالها بين الفريقين خاصة بعد أن نجح ابن حفصون فى استدراج قوات الامارة لكمين نصبه لهم، فاستشهد جماعة من خيرة فرسانهم امثال زيدان غلام الامير المنذر، ورغم ذلك قد تمكن جيش الامارة من اعادة تنظيم قواته فحملوا حملة رجل واحد على الثوار وهزموهم وارغموهم على التراجع إلى وادى ببشتر والاعتصام بالمناطق الوعرة.

وبعد يومين تجدد القتال، وتمكن القائد ابو العباس أحمد من ايقاع الهزيمة بقوات ابن حفصون للمرة الثانية وأقدمت قواته على حرق القرى المجاورة لببشتر

والكنائس الفخمة حولها وعقر كثير من خيول الثوار وقتل عدد كبير منهم . واستمرت المناوشات مدة سته عشر يوما حتى الحق ابن ابى عبده هزيمة نكراء بقوات الثائر ابن حفصون[١٠٧] عند ببشتر وانتقل بعد ذلك إلى لوشة ثم إلى طرش حيث خرج أهلها لقتاله فهزمهم القائد ابن ابى عبده وقتل زعيمهم المعروف باسم «أخى زينى» المتحالف مع ابن حفصون، ثم نازل الحصن وحاصره وضربه بالمنجنيقات وأمر جيشه بحرق وتدمير ونسف الزروع المحيطة بهذه المنطقة، كذلك أحتل القائد ابن ابى عبده بمسانة من قرى قبره قبيل قفوله الى قرطبة، وقد استغرقت الصائفة ثلاثة أشهر وستة عشر يوما[١٠٨] .

كذلك تشير المصادر العربية إلى الدور الكبير الذى قام به الوزير القائد ابو العباس أحمد ابن ابى عبدة فى استنزال بنى الخليع البربر الذين ثاروا على الحكومة المركزية بحصن قنيط من كورة تاكرنا، ففى سنه ٢٩٣هـ، دخل القائد القدير ابو العباس أحمد بن ابى عبده بجيشه الى هذا الحصن، وولىّ عليه عاملا من قبل الامير عبد الله واستنزل من كان فيه من ثوار هذه الاسرة[١٠٩] .

كما تشير المصادر إلى دوره فى استنزال مساور بن عبد الرحمن الثائر بحاضرة رية، ففى يوم الجمعة ٢١ من رجب سنة ٢٩٤هـ غزا ابّان ابن الأمير عبد الله فى صائفة إلى الجزيرة الخضراء فى حين تولى ابو العباس أحمد قيادة جيوش الامارة، وتقدمت قوات الامارة إلى حصن لوزة وحاصروه وقضوا على بعض الثائرين فيه، ثم واصلوا السير حتى حاضرة رية وبها مساور بن عبد الرحمن فأحرقوا أرباض الحاضرة وحاصروا من كان فيها وأرغموا مساور على الإذعان للطاعة فبادر بتقديم الرهائن اظهاراً لحسن النية والرغبة فى السلم فأجيب إلى ذلك، ولم يكتف ابن ابى عبدة بذلك الانتصار، فقد تقدم إلى الساحل فهاجم كل الثوار هناك وخرج من حصون البيرة قافلاً إلى قرطبة فدخلها فى الثانى من ذى القعدة من نفس السنة[١١٠] .

وفى سنة ٢٩٥ هـ تجدد خروج ابان بن الأمير عبدالله فى صائفة يقودها القائد ابو العباس أحمد إلى رية بنية مهاجمة ببشتر نفسها قاعدة الثائر عمر بن حفصون وأخذت قوات الحكومة المركزية تعيث بساحة ببشتر ونواحيها وأحرزت عدة

انتصارات على ابن حفصون(١١١)، ولم تنته الأمور عند هذا الحد فقد خرجت الصائفة في العام التالى سنة ٢٩٦ هـ من قرطبة لغزو مناطق نفوذ ابن حفصون بقيادة ابى العباس والأمير ابان ونازلا بقواتهما ابن حفصون في ببشتر، وأرسل القائد ابو العباس أحمد، ولده عيسى ليغزو حصون سعيد بن مستنه، ريثما يفرغ من حربه مع ابن حفصون في ببشتر فلما فرغ تماماً من غزوه في رية، تقدم لمساندة ولده، ونازل حصن لك من حصون ابن مستنة فأقام عليه حتى فتحه في صدر المحرم من سنة ٢٩٧هـ(١١٢).

ويبدو ان سعيد بن هذيل نكث بعهده للأمير عبد الله سنة ٢٩٧هـ بعد أن افتتحت بياسة واستنزل منها حفيده محمد بن يحيى بن سعيد بن هذيل(١١٣). فقد اورد كل من ابن حيان وابن عذارى ما يفيد بتحالفه في هذا السنة مع كل من عمر بن حفصون وسعيد بن وليد بن مستنة على العصيان، فقاموا بشن غارات مدمرة على ناحية جيان فأصابوا الدواب والبقر والماشية (١١٤)ثم توجهوا الى حصن جريشة بالغنائم ، فلما علم القائد أبو العباس أحمد بذلك لحق بهم ونازلهم في هذا الحصن وأوقع بهم هزيمة منكرة(١١٥) ثم افتتح حصن الزبيب وابتنى حصن ترضيض ليضيق به ابن هزيل ، كذلك اهتم بتحصين قلعة الأشعث وحشدها بالرجال(١١٦) . وامضى ابن ابى عبدة شتاء هذه السنة بجبل أروس (أيروس)من كورة قبرة على حد قول ابن حيان(١١٧) أو جبل أربيش في قول ابن عذاري(١١٨)، ومن هناك أخذ ينطلق طوال فترة الصيف في حملات على الثوار .

وفي هذه السنة ٢٩٧هـ كان غزو ابى أمية العاصي ابن الامير عبد الله الغزوة المعروفة بغزوة رية وفريرة وقد أسند قيادة الجيش الى أبى العباس احمد. وخرج جيش الامارة في ٢١من شعبان متقدما إلى بلدة من حصون ابن حفصون حيث اشتبك الجيشان في معركة ضارية ، ومنها تقدم الجيش الأميري الى نهر طلجيرة حيث تجدد القتال بين جيش الامارة وبين اتباع عمر ابن حفصون، ودارت معركة عنيفة فقد فيها كل من الطرفين اعدادا كبيرة من المحاربين ثم تقدم ابن ابى عبدة الى حصون البيرة وغرناطة فنزل على حصن شبيلش حيث التقى بقوات ابن حفصون ووقعت حرب شديدة بين الفريقين ونالت ابن طلمس فيها جراحات ، ثم نقل

جيش الامارة الى حصن جلياقة وتجول فى كورة البيرة وحل بمحل بجانة ثم قفل عائداً على كورة جيان حيث ناز ل حصن المنتلون يوم الثامن والعشرون من ذي القعدة ،فظل يحاصره اياما ، ثم عاد الى قرطبة فى ١٤ من ذي الحجة(١١٩) .

وفى سنة ٢٩٨ هـ خرج بالصائفة كل من الأمير العاصى ابن الامير عبد الله والقائد أبى العباس أحمد باتجاه حصن ببشتر وغيره من حصون الساحل بكورتى رية والبيرة . وكان عيسى ابن القا ئد احمد بن ابى عبدة مقيما بالخيل ببيانة (١٢٠).

فأغار الحليفان عمر بن حفصون وسعيد بن مستنة على قرى قبرة وقرى قرطبة، فخرج عيسى بن أحمد لمطاردتهما واشتبك بهما على نهر ألبة كما يذكر ابن حيان(١٢١) أو ألية كما يذكر ابن عذارى(١٢٢) ، ودارت بين الفريقين معركة ضارية عند قرية مطنانة انهزم فيها عمر بن حفصون وحليفه ابن مستنة وقتل من قواتهما اعدادا كبيرة واستولى عيسى بن أحمد بن آبى عبدة على علمهم وأرسل الى قرطبة عددا كبيرة من رؤوسهم .

وفى صدر المحرم من سنة ٢٩٩هـ كانت غزاة القائد ابى العباس احمد الى حصن فنتجالة من حصون ابن هذيل بالقرب من جبل المنتلون ، أحكم خلالها الحصار على الحصن حتى أتم فتحه(١٢٣) .

وفى نفس السنة ٢٩٩هـ غزا بالصائفة كل من الأمير ابان بن الامير عبد الله والقائد الوزير عباس بن عبد العزيز. وقد توجه جيش الامارة بقيادة الوزير عباس بن عبد العزيز بداية الأمر الى ببشتر حيث حارب ابن حفصون وأوقع به . ثم استدعى الوزير عباس بن عبد العزيز الى قرطبة ، فخرج فى أثره القائد الاعلى الوزير احمد ابن محمد بن أبى عبدة ، حيث تولى قيادة الجيش بدلاً منه ، وقصد القائد ابن ابى عبدة حصون ابن حفصون وحارب من كان فيها(١٢٤) .

وفى مستهل ربيع الأول من سنة ٣٠٠هـ افتتح عبد الرحمن الناصر عهده بارسال تقليد بيعته الى الكور والأطراف وأقر في يوم مبايعته الوزير احمد بن محمد ابن ابى عبدة على القيادة(١٢٥) ثم امره بالتوجه الى كورة قبرة على رأس جيش الامارة لمواجهة الثوار على الحكومة المركزية هناك(١٢٦) .

ورغم هذه الجهود العسكرية التى بذلها الوزير القائد احمد بن ابى عبدة، فإن عبد الرحمن الناصر بادر بعزله عن الوزارة والقيادة فى السادس والعشرين من ربيع الآخر من نفس السنة (٣٠٠هـ) واستبدله باحمد بن محمد بن حدير الذى ولاه الوزارة والقيادة[١٢٧]، غير ان الناصر سرعان ما أعاد القائد القدير أحمد فى صفر من العام التالى (٣٠١هـ) إلى كل من الوزارة[١٢٨] والقيادة[١٢٩]. وكان الناصر قد امضى هذا العام فى محاربة الثوار على حكومة قرطبة وكانت أولى حملاته عليهم حملته إلى المنتلون لمحاربة سعيد بن هذيل الذى استسلم له كما اشتبك مع عبيد الله بن أمية بن الشالية بحصن شنتمان[١٣٠]، غير أن ابن هذيل سرعان ما نكث عهوده وعاود الخروج على الإمارة فى أواخر هذا العام، اثر عودة الناصر الى قرطبة مباشرة مما دفع الناصر إلى أن يعهد الى الوزير القائد احمد بن محمد بن ابى عبدة بمحاربته، وقد تقدم هذا القائد القدير اليه ونجح فى التغلب عليه واسره هو وعدد من رجاله وعاد بهم موثقين بالأغلال إلى قرطبة[١٣١] وفى سنه ٣٠٢هـ فقد الوزير القائد ابو العباس احمد بن ابى عبدة أشهر ابنائه وهو ابنه القائد عباس ابن ابى العباس أحمد بن ابى عبدة الذى استشهد اثناء حصاره لحصن منت روى كما سنشير فيما بعد، وقد شارك عبد الرحمن الناصر والده ابا العباس فى حزنه وثكله[١٣٢].

وتنقطع أخبار الوزير القائد أبى العباس احمد بن ابى عبدة العسكرية ماتبقى من عام ٣٠٢ هـ وكذلك طوال عام ٣٠٣هـ، وفى تصورى أنه قد تأثر بحادثة مقتل ولده عباس طوال هذين العامين، ولكنه سرعان ماعاد إلى الظهور على مسرح المعارك الحربية فى عام ٣٠٤هـ بقوة وجد لم يسبق لهما مثيل، فقد أوردت المصادر العربية ﴿وخاصة ابن حيان الذى نقل عن الرازى﴾، بمزيد من التفصيل كل ما يتعلق بهذه النشاطات والتحركات العسكرية للقائد القدير، وأشارت إلى أن الناصر قد أغزى ابا العباس بن ابى عبدة إلى جهتين، الأولى تتعلق بممالك اسبانيا المسيحية والثانية تتعلق بالثوار على الحكومة المركزية، وفى ذلك يقول ابن حيان «قال الرازى: فيها (٣٠٤هـ) أغزى الناصر لدين الله بالصائفة الى دار الحرب الوزير القائد ابا العباس احمد بن محمد بن أبى عبدة مسهماً مشكوراً سعيه فى جهاد

اعداء الله الكفرة مع تورطه حروب المارقين بالموسطة الشاقين عصا الجماعة، فجرّد القائد ابا العباس فى هذا الوجه فى اكثف جمع وأجمع قوة، فصل بها لسبيله يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم منها. وهى أول غزاة كانت لقواده الى أرض العدو، فوطئ العسكر أطراف المشركين، وروع قلوبهم على طول عهد بالأمنة وجال فى نواحيهم واداخ بلدهم، ثم قفل القائد أبو العباس بالمسلمين سالمين ظاهرين بنقمة الله عليه»(١٣٣) .

ويردد كل من صاحب مدونة الناصر وابن عذارى نفس الخبر وان كان ابن عذارى قد أرخّه بيوم السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من المحرم من سنة ٣٠٤هـ الموافق اليوم الثامن عشر فيه يوليه(١٣٤) .

ويتبين مما أوردناه أن هذه الصائفة كانت الأولى من نوعها فى عهد الناصر التى يتوجه فيها ابن ابى عبدة الى نصارى اسبانيا، بل اننا لم نصادف خلال تاريخ ابن ابى عبدة العسكرى الطويل إلا حروبه ضد الثوار على الحكومة المركزية منذ عهد الأمير عبد الله، ويسجل هذا التوجه نحو أرض العدو الاسبانى منعطفاً جديداً فى تاريخ الوزير القائد ابى العباس احمد بن ابى عبدة العسكرى(١٣٥) .

ويحدد ليفى بروفنسال وجهة القائد ابى العباس احمد بن ابى عبدة بمملكة ليون. وكانت هذه الصائفة التى قاد بها ابو العباس احمد بن ابى عبدة سنه ٣٠٤هـ إلى ليون رداً على الهجوم واسع النطاق الذى شنه أردون الثانى الملك الليونى (٣٠٢ - ٣١٢هـ/ ٩١٤ - ٩٢٤م)(١٣٦) على غرب الأندلس سنة ٣٠١ - ٣٠٣ هـ (٩١٣ - ٩١٤م)(١٣٧) . وقد نجح ابن ابى عبدة فى حملته على مملكة ليون فاجتاح أراضيها وغنم وسبى وقفل عائداً بقواته منتصراً الى قرطبة. وكان رد فعل ملك ليون أن أغار فى عام ٣٠٥ هـ (٩١٧م) على منطقة يابرة مما دفع عبد الرحمن الناصر إلى أن يعاود ارسال قائده ابى العباس احمد بن أبى عبدة من جديد لقتاله، ولكن سوء الحظ حالف المسلمين هذه المرة، فقد تلقى ابو العباس بن ابى عبدة هزيمة مروعة على ايدى قوات ليون فى موقعة قشترة مورش Castro mores المعروفة بشنت اشتيبن واستشهد القائد احمد ابن ابى عبدة فى هذه الموقعة(١٣٨) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حدث اللقاء في ١٤ ربيع الأول من سنة ٣٠٥هـ (٤ سبتمبر ٩١٧م) وانهزم المسلمون في هذه الموقعة هزيمة شنعاء وأذرع الليونيون فيهم بسيوفهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة بالغت مدونة سيلوس في تصويرها فذكرت أن المرتفعات والغابات والسهول أبتداء من وادى دويره حتى بلدة أتينثا Atienza وبار اكويوس Para cuel-los، كانت مغطاة بجثث عسكر المسلمين. وعاد اردون الثاني عقب انتصاره على المسلمين الى ليون بعد أن نصب رأس القائد الشهيد أحمد بن ابى عبدة على سور شنت اشتيبن San Esteban بجوار رأس خنزير[١٣٩] . وتجمع المصادر العربية على أن أحمد بن أبى عبدة ثبت في لحظاته الأخيرة ثبات الأبطال وكان حريصاً على طلب الشهادة التى رزقه الله وحباه بها[١٤٠] .

ومن عوامل هزيمة المسلمين فى هذه الموقعة أن الجيش الاسلامى كان يتكون معظمه من البربر المرتزقة الذين اهتموا بغنائمهم، فلما رأوا هجوم الليونيين الساحق التمسوا النجاة بأنفسهم فتسلل معظمهم من أرض المعركة ولاذوا بالفرار من ساحة المعركة.

ويشير البكرى إلى استشهاد عبد الرحمن بن سعيد بن ادريس صاحب نكور في هذه المعركة مع القائد ابى العباس بن ابى عبدة[١٤١] ، وتشير المدونات المسيحية إلى أسماء عدد من القادة المسلمين القتلى فى شنت اشتيبن من بينهم عبد الرحمن بن سعيد الذى أشار اليه البكرى[١٤٢] .

وكان ابو العباس أحمد بن محمد بن ابى عبدة قد أنجب عدداً من الأبناء، اشتهر بعضهم كقادة ووزراء في حياته، ومن هؤلاء الأبناء عباس وعيسى وعبد الله وعبد الرحمن.

١- عباس الابن الأول للقائد ابى العباس احمد بن ابى عبدة:

أما عباس إبن القائد .أبى العباس احمد، فقد شارك مثل والده فى كثير من الحملات الموجهة من قبل الحكومة المركزية للقضاء على الثوار، ففى سنة ٢٩٨هـ خرج على رأس جيش كبير فى صائفة للأمير العاصى بن الامير عبد الله إلى حصن المنتلون لمحاربة سعيد بن هذيل، وكان جيشه يتكون من فرقة من البربر الطنجيين سبق لهم أن غزوا مع والده القائد الشهير ابى العباس بن ابى عبدة.

وتذكر المصادر العربية أن هولاء البربر نبذوا الطاعة للإمارة وانضموا إلى ابن هذيل اثناء المعركة، ولكن عباس بن ابى العباس احمد بن ابى عبدة، تمكن من سحق جموعهم وألحق بهم هزيمة منكرة فى ببشتر ثم فى المنتلون وأرغم من بقى منهم على قيد الحياة على العودة إلى الطاعة، وقد تحقق لجيش الامارة هذا الانتصار رغم الأمراض والأوبئة التى استشرت فى صفوف الجيش خلال هذه الغزوة[١٤٣] . وفى سنة ٣٠١ هـ تولى قيادة جيش الحكومة المركزية فى قرطبة الى اشبيليه للقضاء على ثورة محمد بن ابراهيم بن حجاج.

ولم يقتصر عباس بن احمد بن ابى عبدة على القيادة العسكرية لبعض فرق جيش الامارة بل تولى ايضاً الشرطة العليا لعبد الرحمن الناصر سنة ٣٠١هـ[١٤٤]. واستمر عباس بن ابى عبدة يتولاها حتى وفاته[١٤٥]. وتختلف المصادر العربية فى تحديد السنة التى توفى فيها، فبينما يرى كل من ابن حيان وابن عذارى أنه استشهد فى سنة ٣٠٢هـ اثناء حصاره لحصن منت روى، نتيجة لضربة تلقاها تسببت فى القضاء عليه[١٤٦] يرى صاحب مدونة عبد الرحمن الناصر أن وفاته حدثت فى سنة ٣٠٣هـ[١٤٧] .

وتذكر المصادر أسماء ثلاثة من ابنائه، أولهم عبد الله الذى أورد ابن حيان اسمه بين كبار الشخصيات من الموالى الذين شهدوا على الأمان الذى منحه عبد الرحمن الناصر سنة٣٢٥هـ لمحمد بن هاشم الثائر بسر قسطة[١٤٨] ، وكان قد شاركه عدد لابأس به من نفس هذه الأسرة ﴿آل ابى عبدة﴾ فى الشهادة على هذا الأمان[١٤٩] .

وثانيهم محمد الذى ولاه عبد الرحمن الناصر على كورة البيرة واعمالها سنة ٣٢٣هـ ثم عزله عنها فى سنة ٣٢٤ هـ، فتولاها يوسف بن محمد[١٥٠] بدلاً منه. أما ثالثهم فاسمه أحمد، ولم تزودنا المصادر العربية بتفاصيل عن نشاطه العسكرى. ويذكر ابن حزم فى طوق الحمامة اسم حفيد له من ولده محمد يدعى يحيى وذلك فى سياق حديثه عن رقة مشاعره وعاطفته، فقد كان مفتوناً بحب جارية له، فقامت امه ببيعها حتى يتخلص من حبها وأجبرته على التزوج من بعض العامريات. وعرف يحيى هذا بنبل اخلاقه وتعمقه فى الفقه واللغة فقد كان زميلاً لابن حزم وتلميذاً للفقيه أبى الخيار اللغوى. وقد تسبب حزنه على محبوبته فى فقدانه لصوابه[١٥١] .

٢- عيسى الابن الثانى للقائد ابى العباس احمد بن ابى عبدة:

كان عيسى بن ابى العباس احمد بن ابى عبدة، وزيراً وقائداً للأمير عبد الله، وشارك فى القضاء على كبار الثوار على دولة بنى أمية أمثال[١٥٢] سعيد بن مستنة الذى خرج لقتاله سنة ٢٩٨هـ كما عمل قائداً لبيانة فى عهد هذا الأمير، وفى نفس هذه السنة ٢٩٨هـ، أقام عيسى بن احمد فى قوة من الخيالة بهده المدينة، وكان عمر بن حفصون وحلفاؤه قد أغاروا على بسائط قبرة وقرى قرطبة وسبوا وغنموا، فخرج القائد عيسى بن أحمد للقائهم على نهر ألية وألحق بهم هزيمة كبيرة كما أشرنا من قبل[١٥٣].

أما عبد الرحمن الناصر فقد ولاه يوم مبايعته سنة٣٠٠هـ على الشرطة العليا بعد أن صرف عنها قاسم بن وليد الكلبى[١٥٤]، ثم أقدم فى ٤ من ربيع الآخر من نفس السنة (٣٠٠هـ) على خلع والده احمد بن محمد من منصبى الوزارة والقيادة كما عزله هو عن الشرطة العليا[١٥٥].

وفى العام التالى (٣٠١هـ) أعاد الناصر الأب «ابا العباس احمد» إلى خطة الوزارة، كما ضم ولده عيسى الى هذه الخطة إلى جانب أبيه ومحمد بن سليمان ابن وانسوس[١٥٦] فجمع الناصر بذلك فى وزارته بين الأب وابنه. أما الشرطة العليا فقد تولاها احمد بن محمد بن مسلمة بعد أن عزل عيسى بن احمد ابى عبدة عنها، ولكن احمد هذا لم يطل عهده بهذا المنصب : سرعان ماعزله الناصر هو الآخر وعهد بهذه الخطة إلى عباس بن الوزير القائد احمد بن ابى عبدة وشقيق عيسى بن ابى عبدة[١٥٧].

وفى نفس سنة ٣٠١هـ، ولى الناصر عيسى بن احمد بن ابى عبدة على القيادة وعلى كورة اشبيلية بالاضافة الى توليه خطة الوزارة[١٥٨] ونلاحظ أنه منذ ذلك التاريخ أخذ عيسى بن احمد بن ابى عبدة يتذبذب فى منصبه الوزارى فقد ولاه عبد الرحمن الناصر الوزارة وعزله عنها اكثر من مرة، ففى سنة ٣٠٣ هـ عزل الناصر عيسى بن احمد عن الوزارة[١٥٩] ويبدو انه اعادة اليها مرة أخرى بعد فترة قصيره فقد أشار المؤرخ المجهول صاحب مدونة عبد الرحمن الناصر الى ذلك فى اخبار سنة ٣١٣هـ فى سياق حديثه عن جهود كل من درى بن عبد الرحمن وعيسى

ابن احمد بن ابى عبدة الذى وصفه المؤرخ مجهول الاسم «بالوزير» فى استنزال حصن اشتيبين ونجاحهما فى افتتاحه والقضاء على الثوار الممتنعين به(١٦٠) .

ولما توفى محمد بن عبد الله الخروبى صاحب المدينة فى مستهل سنة ٣١٤هـ نصّب عبد الرحمن الناصر مكانه عيسى بن احمد بن ابى عبدة(١٦١) ولم يلبث ان عزل عيسى بن احمد بن ابى عبدة عن منصبه الوزارى(١٦٢) سنة ٣١٦هـ كما عزله فى نفس العام عن المدينة وولى عليها احمد بن عبد الوهاب بن عبد الرءوف(١٦٣) ، ولم تمض اشهر على ذلك حتى أعاده مرة أخرى إلى الوزارة فى سنة ٣١٧ هـ(١٦٤) ليعزله عنها من جديد عام ٣٢١ هـ(١٦٥) .

وفى سنة ٣٢٣ هـ اعيد عيسى بن احمد بن ابى عبدة إلى خطة الوزارة واستمر يتولاها طوال عامى ٣٢٤هـ(١٦٧) ، ٣٢٥هـ(١٦٨) . وكان عيسى بن احمد بن ابى عبدة من بين من شهد من الوزراء على الأمان الذى اعطاه الناصر للثائر محمد بن هاشم التجيبى بسرقسطة سنة ٣٢٥(١٦٩) .

ثم عزله الناصر عن الوزارة فى العام التالى(٣٢٦ هـ) وولى فى نفس العام ابن عمه جهور بن عبيد الله بن محمد بن ابى عبدة مكانه(١٧٠) .

ومن الجدير بالذكر أن تنافساً شديداً حدث بين الوزير القائد عيسى بن احمد ابن ابى عبدة، وبين الوزير موسى به حدير خاصة فى عهد الأمير عبد الله، اذ أراد كل منهما أن يتقدم على صاحبه، وكان الامير محمد يميل الى تقديم بنى حدير على بنى أبى عبدة تفضيلاً منه للشاميين على البلديين فى حين كان عيسى ابن احمد يتوقع من الأمير أن يقدم بنى ابى عبدة على بنى حدير بحكم الخدمات والأعمال الجليلة التى يقومون بها لصالح الامارة، ولكن الأمير عبد الله آثر أن يظل الأمر كما رسمه ابوه، وقرر أن يظل بنو حدير متقدمين على بنى ابن عبدة(١٧١) .

وتشير المصادر الى ثلاثة من ابناء عيسى بن احمد بن ابى عبدة هم أحمد وحسن وحسين.

أما أولهم وهو احمد فكان كثيراًماينوب عن والده عيسى فى الاشراف على المدينة، من ذلك ما حدث سنة ٣١٥ هـ عندما توجه عبد الرحمن الناصر إلى

ببشتر لاستنزال ابن حفصون فخلف على المدينة احمد بن ابى عبدة بدلاً عن والده الوزير عيسى الذى يبدو أنه اشترك مع الناصر فى هذه الحملة(١٧٢) ، ثم تكرر ذلك فى السنة التالية (٣١٦هـ)(١٧٣) . وفى هذه السنة أمر الناصر بتولية احمد بن عيسى بن ابى عبدة على خزانة المال(١٧٤) واستمر احمد به عيسى يتولى هذه الخزانة منذ ذلك التاريخ وحتى سنة ٣٢٠ هـ عندما نقله الناصر من الخزانة الى قيادة بجانة(١٧٥) ونستنتج من خبر أورده ابن حيان أن احمد بن عيسى بن ابى عبدة كان والياً على كورة البيرة ايضاً(١٧٦) .

وقد أثبت احمد بن عيسى بن احمد بن ابى عبدة كفاءة كبيرة كقائد بحرى بدليل أن الخليفة الناصر لم يكتف بتقليده قياده مدينة بجانة بالاضافه إلى ولايته على كورة البيرة، بل أنه عهد إليه بالاشراف على اسطول المرية وترميم مايحتاج منه الى اصلاح بدار الصناعة والاهتمام بدعمه بمزيد من القطع البحرية والعدد والآلات.

وعندما فرغ احمد بن عيسى بن ابى عبدة من مهمته فى ترميم القطع البحرية بدار صناعة المرية وإنشاء مزيد من هذه القطع دعماً للأسطول، أخرج الناصر الحشم من قرطبة مع القائدين سعيد بن يونس وعمرو بن مسلمة الباجى ليغزوا بهذا الاسطول الى حيث أمر، فتوجه ابن يونس إلى بلاد افرنجة فى حين أغزا عمرو ابن مسلمة الباجى إلى الجزائر الشرقية(١٧٧) .

ويبدو أن الناصر قد ولى أحمد بن عيسى بن ابى عبدة على خطة المدينة استناداً الى نص أورده ابن حيان فى حوادث شهر ربيع الأول من سنة ٣٢٦ هـ ذكر فيه أن الوزير جهور بن عبيد الله بن ابى عبدة تولى خطة المدينة بدلاً من احمد ابن عيسى بن ابى عبدة(١٧٨) .

أما حسن وحسين ابناء عيسى بن احمد بن ابى عبدة فليس لدينا من أخبار عنهما سوى ما انفرد بذكره ابن حيان فى المقتبس فى سياق عرضه لاحداث سنة ٣٢١ هـ فهو يشير الى عزلهما معاً عن كورة تدمير وتولية كل من دلهاث بن محمد وسعيد بن عبد الرءوف(١٧٩) ، كما أشار الى حسين بن عيسى فى أخبار سنة ٣٢٤ هـ عندما تحدث عن قيام الناصر بعزله عن كورة بجانة وأعمالها

واستبداله بيوسف بن سليمان(١٨٠) وفى أخبـار سنة ٣٣٠ هـ عندما ولاه الناصر على كورة أشونة(١٨١) .

٣- عبد الله الابن الثالث للوزير القائد ابى العباس احمد بن محمد بن ابى عبدة.

أما عبد الله بن ابى العباس احمد بن محمد بن ابى عبدة فقد تولى الشرطة العليا لعبد الرحمن الناصر سنة ٣٠٢ هـ(١٨٢) بدلاً من اخيه عباس الذى قتل اثناء حصاره لحصن منت روى كما سبق أن أشرنا ولكن الناصر سرعان ماعزله عنها فى العام التالى اذ أن ابن عذارى يذكر فى أخبار سنة ٣٠٣ هـ أن الناصر ولى محمد ابن محمد بن ابى زيد الشرطة العليا بعد أن كان يلى الشرطة الصغرى(١٨٣) .

وفى سنة ٣١٧ هـ اسند الخليفة الناصر ولاية كورة بسطة إلى عبد الله بن احمد ابن ابى عبدة(١٨٤) . هذا وقد أنجب عبد الله بن احمد بن ابى عبدة ابناً هو محمد الذى ولاه الناصر على الخزانة سنة ٣٠٠ هـ(١٨٥) .

٤- عبد الرحمن الابن الرابع للوزير القائد ابى العباس احمد بن محمد بن ابى عبدة.

انفرد ابن حيان بذكر اسم هد الابن الرابع من أبناء القائد احمد بن ابى عبدة فى أخبار سنة ٣١٨ هـ بين عمال هذا العام، فقد ولاه الناصر على كورة تاكرنا فى ربيع الأول منه(١٨٦) .

ثالثاً : مالك بن عبد الغافر وذريته:

لانعرف من ذرية مالك بن عبد الغافر بن ابى عبدة سوى ابا الاصبغ عيسى ابن احمد بن محمد بن حارث بن ابى عبدة محمد بن مالك بن عبد الغافر. وقد ترجم له ابن الفرضى الذى أوضح أن تاريخ مولده فى احد شهرى ربيع من سنة ٣٥١ هـ يتفق مع تاريخ مولد عيسى هذا، وأنه كان صاحبا له، وقد وصفه ابن الغرضى بأنه كان نبيلاً، جيد الفهم، متصرفاً فى فنون العلم.

سمع من محمد بن ابى دليم ويحيى بن مالك العائذى ومحمد بن احمد بن يحيى بن مفرج وتوفى ليلة السبت فى الخامس والعشرين من شهر صفر

سنة ٣٨٠هـ ودفن بعد وفاته بيومين فى مقبرة قريش من قرطبة وصلى عليه القاضى محمد يبقى(١٨٧) .

رابعاً شخصيات هامة من بنى أبى عبدة:

زودتنا المصادر العربية بأسماء عدد من الأفراد ينتسبون إلى «بنى أبى عبدة» دون اية تفاصيل عن نسبهم بالقدر الذى يسمح لنا بمعرفة آبائهم وأجدادهم لضمهم الى سلسلة النسب، ومن بين هؤلاء «جهور بن عبد الملك بن ابى عبدة» الذى عمل سفيراً لدى الخليفة عبد الرحمن الناصر، وعهد اليه بمهمة الفصل فى القضايا السياسية الداخلية الشائكة، من ذلك ما أشار اليه ابن حيان فى المقتبس فى سياق حديثه عن جهود الناصر سنة ٣٢٥ هـ لاعادة محمد بن هاشم التجيبى الثائر بسرقسطة الى الطاعة، فقد ختم الناصر سفراءه إلى هذا الثائر بجهور بن عبد الملك ابن ابى عبدة الذى نجح فى تنفيذ مهمته على خير وجه فحمل هذا الثائر على التوبة وتوسط لدى الناصر فى منحه العفو والأمان(١٨٨) .

ولانعرف إلى أى فرع من فروع الأسرة ينتمى جهور بن عبد الملك بن ابى عبدة وقد اختلط الأمر على ليفى بروفنسال فخلط بين «جهور بن عبد الملك بن ابى عبدة» هذا، وبين عبد الملك بن جهور من فرع الجهاورة البختيين فاستقى من المصادر اخباراً تتعلق بالبختيين ونسبها الى جهور بن عبد الملك ابن ابى عبدة(١٨٩) .

كذلك أورد ابن حيان وابن عذارى فيما ذكراه عن وزراء الامير عبد الله أسماء ثلاثة افراد من هذه الأسرة هم «سليم بن على بن ابى عبدة»(١٩٠) و «عبد الرحمن بن حمدون بن ابى عبدة» و «عبيد الله محمد بن أبى عبدة»(١٩١)

كما اورد ابن عذارى اسم «محمد بن ابى عبدة» الذى تولى خزانة المال لعبد الرحمن الناصر سنة ٣٠٢ هـ(١٩٢) .

ويذكر ابن حيان فى سياق حديثة عن الموالى الذين شهدوا على الأمان الذى منحه الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٥ هـ لمحمد بن هاشم التجيبى، أسماء بعض شخصيات من أسرة «ابى عبدة» أشرنا الى بعضهم فى الصفحات السابقة

كل فى حينه، وبقى واحد منهم لم نتمكن من تحديد مكانه من شجرة النسب هو «محمد بن عباس بن محمد بن محمد بن ابى عبدة»[(١٩٣)] ، كما أشار فى أخبار سنة ٣٣٠ هـ إلى «عيسى بن محمد بن محمد بن ابى عبدة» الذى ولاه الخليفة الناصر على كورة لبلة فى هذا العام[(١٩٤)] .

كذلك أشار المقرى فى نفح الطيب الى الشاعر الأديب «حسان بن مالك بن ابى عبدة» الذى كان معاصراً للمنصور بن ابى عامر. وكان حسان بن مالك هذا صاحب تواليف كثيرة أشهرها كتاب اسماه «ربيعة وعقيل» اهداه إلى المنصور فسر به كثيراً[(١٩٥)] . ولما نشبت الفتنة اضطربت أمور حسان بن مالك بن ابى عبدة لفترة، إلى أن استوزره الخليفة المستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام، ولكن حسان ابن مالك كره أحوال المستظهر الذى بالغ فى الاستبداد فكتب اليه ذات يوم بعض الأبيات الشعرية منها:

اذا غبتُ لم أحضر وان جئت لم أسل

فسيان منى مشهد ومغيب

فأصبحت يتيماً وماكنت قبلها

ليتم ولكن الشبيه نسيب[(١٩٦)]

كما أورد المقرى بعض ابيات له فى عيد المهرجان منها:

أرى المهرجان قد استبشرا غداة بكى المزن واستعبرا

وسربلت الأرض أمواهها وجللت السندس الاخضرا

وهز الرياح صنابيرها فضوعت المسك والعنبرا[(١٩٧)]

ومما سبق من أشعاره يتبين لنا اشتهاره فى اللغة والأداب ويؤكد ذلك ما وصفه به المقرى من ابداع فيما ألف من كتب.

الحواشـــــــــى

(١) ابن الأبار، **الحلة السيراء**، تحقيق د. حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣، جـ١، صـ٢٤٤– تحقيق د. محمود على مكى لكتاب المقتبس لابن حيان، بيروت، ١٩٧٣، صـ٤٥٤ – خالد الصوفى، تاريخ العرب فى اسبانيا، جمهورية بنى جهور، دمشق، ١٩٥٩، صـ٤٦.

(٢) الضبى، **بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس**، مدريد، ١٨٨٤، صـ٢٤٣ ترجمة ٦٢٣، صـ٥٤ ترجمة ٧٦، صـ٢٤٤ ترجمة٦٢٥ – ابن بشكوال، الصلة، القسم الأول، طبعة تراثنا، القاهرة، ١٩٦٦، صـ١٣١، ترجمة ٣٠٠ وراجع ماذكره ابن حيان، المقتبس، تحقيق ب. شالميتا، ف. كورينطى، م. صبح، مدريد، ١٩٧٩، صـ٤١٩، ٤٢٩، ٤٠٤، ٣٧٩ – ابن بسام، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، بيروت، ١٩٧٨، القسم الأول، المجلد الثانى، صـ٦٠٤ – ابن الابار، الحلة السيراء، حـ١، صـ٢٤٦ – المقرى، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محى الدين عبد الحميد، جـ١، صـ٢٨٢ – تحقيق د. محمود على مكى لكتاب المقتبس صـ٤٥٤،٤٥٥ – خالد الصوفى، جمهورية بنى جهور، صـ٤٦،٤٧.

(٣) الضبى، **بغية الملتمس**، صـ٨٩ ترجمة ١٨٧– المقرى، نفح الطيب جـ١، ص ٢٧٨.

(٤) ابن الأبار، **الحلة السيراء**، جـ١، صـ٢٤٦ – تحقيق د. محمود على مكى لكتاب المقتبس لابن حيان، صـ٤٥٤. كما قيل أن بنى ابى عبدة كانوا موالى مغيث الرومى مولى الوليد بن عبد الملك حفيد مروان بن الحكم ولهذا فقد كانوا معدودين بين البلديين وعن صلتهم بمغيث الرومى ارجع إلى ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. مكى، صـ١٩٦، ١٩٧ – ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق د. حسين مؤنس، جـ١، صـ١٢٠ حاشية(٣).

(٥) ابن الأبار، الحلة السيراء، جـ١ ، صـ٢٤٦ ، جـ٢ ، صـ٣٠

(٦) **المصدر السابق، جـ١ ، صـ٢٤٦ .**

(٧) راجع رأى الدكتور حسين مؤنس فى تحقيقه للحلة السيراء لابن الأبار، جـ١ ، صـ٢٤٥ حاشية رقم (٤) ورأى د. محمود على مكى فى تحقيقه لمقتبس ابن حيان، صـ٤٥٤ .

(٨) ابن عذارى، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، بيروت، تحقيق ليفى بروفنسال، جـ٣ ، صـ١٨٥ .

(٩) المصدر السابق، جـ٣ ، صـ١٨٦ .

(١٠) ابن الخطيب، اعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام، تحقيق ليفى بروفنسال، بيروت، ١٩٥٦ ، صـ١٤٧ .

(١١) ابن عذارى، البيان، جـ٢ ، صـ٤٨ .

(١٢) أخبار مجموعة، صـ٧٦.

(١٣) ابن الأبار، الحلة السيراء، جـ١ ، صـ٢٤٥-٢٥٢ ، جـ٢ ، صـ٢٧٥ ومايليها. ولمزيد من التفاصيل عن الجهاورة البختيين راجع ما أورده ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. محمود على مكى، صـ١٥٥ وتعليق د. مكى على بنى جهور من نسل يوسف بن بخت، صـ٤٥٣ ، ٥٣٠-٥٣١ .

(١٤) ابن حيان المقتبس، تحقيق د. مكى، صـ١٩٢ .

(١٥) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، مجريط، ١٨٦٨ ، صـ٢٢ - ويذكر ابن القوطية أن اباعبدة حسان بن مالك كان من بين من دخل على أرطباس مع عشرة من الشاميين منهم ابو عثمان عبيد الله وعبد الله بن خالد ويوسف بن بخت والصميل بن حاتم زمن عبد الرحمن الداخل بعد ان كان قدولاه القماسة، فكان أول قومس بالأندلس (ابن القوطية، صـ٣٨).

(١٦) أخبار مجموعة، صـ٧٦ - ابن عذارى، البيان، جـ٢ ، صـ٤٨ .

(١٧) ابن الأبار، الحلة السيراء، جـ١ ، صـ٢٤٦ .

(١٨) المقرى، نفح الطيب، حـ٤ ، صـ٤٥ .

(١٩) ابن الأبار، الحلة السيراء، حـ١ ، صـ٢٤٦، حاشية (٣). ولمزيد من التفاصيل عن تلك الثورات التى واجهها عبد الرحمن الداخل، ارجع إلى ﴿ابن القوطية، صـ٣٣ ومايليها - اخبار مجموعة، صـ١٠٢، ١٠٥ - ابن عذارى، البيان، جـ٢ ، صـ٧٧ ومايليها - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، الاسكندرية، ١٩٦٢ ، صـ١٩٩ ومايليها﴾.

(٢٠) ابن الأبار، الحلة السيراء، جـ٢ ، صـ٣٠.

(٢١) المصدر السابق، حـ١ ، صـ٢٤٧ .

(٢٢) نفسه، جـ١ ، صـ٢٤٧ ، جـ٢ ، صـ٣٠.

(٢٣) ابن عذارى، البيان، جـ٢ ، صـ٦١ .

(٢٤) ابن الأبار، الحلة السيراء، حـ٢، صـ٣٠.

(٢٥) المصدر السابق، صـ٣٠.

(٢٦) نفسة، صـ٣٠.

(٢٧) الضبى، بغية الملتمس، صـ٢٤٣، ترجمة ٦٢٣ - ابن بشكوال، الصلة، القسم الأول، طبعة تراثنا، القاهرة، ١٩٦٦ ، صـ١٣١ - ابن الابار، الحلة السيراء، جـ١ ، صـ٢٤٥ .

(٢٨) ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. محمود على مكى، صـ٢٨.

(٢٩) ابن الفرضى، تاريخ علماء الأندلس، مجموعة تراثنا، القاهرة، ١٩٦٦ ، جـ١ ترجمة ٩٩٠ ، صـ٣٣٥ .

(٣٠) راجع الحاشية رقم (٢٧). ويخطئ ابن الخطيب فى ذكر اسم ابى الحزم

جهور فهو يذكره فى أعمال الاعلام على أنه «ابو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله بن احمد بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن يوسف بن بخت بن ابى عبدة» فهو بذلك قد أضاف اسم احمد بن عبيد الله ومحمد وهذا لم يرد فى أى من المصادر العربية الأخرى كما خلط بين بيتى «ابى عبدة» ويوسف بن بخت، وقد سبق أن ناقشنا هذا الموضوع فى المتن «ابن الخطيب، اعمال الاعلام، صـ١٤٧».

(٣١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. محمود على مكى، صـ٢٨، ٢٩.

(٣٢) ابن الفرضى، تاريخ علماء الأندلس، جـ١، صـ٣٣٥، ترجمة ٩٩٠.
واسمه كاملاً كما اورده ابن الفرضى هو «ابو الاصبغ عيسى بن احمد بن محمد بن حارث بن ابى عبدة بن محمد بن مالك بن الغافر بن حسان ابى عبدة.

(٣٣) ابن حيان، المقتبس، قطعة من عهد الأمير عبد الله، تحقيق د. اسماعيل العربى، منشورات دار الآفاق، المغرب، ١٩٩٠، صـ٩١.

(٣٤) الضبى، بغية الملتمس، صـ٢٤٣ - ابن بشكوال، الصلة، ق١، صـ١٣١ - ابن الابار، الحلة السيراء، جـ١، صـ٢٤٥.

(٣٥) ابن حيان، المقتبس، قطعة من عهد الامير عبد الله، صـ٩١.

(٣٦) الضبى، بقية الملتمس، صـ٤٠٠ ترجمة ١٠٩٢.

(٣٧) العذرى، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، والبستان فى غرائب البلدان والمسالك إلى الممالك، تحقيق د. عبد العزيز الأهوانى، مدريد، ١٩٦٥، صـ٥.

(٣٨) ابن حيان، المقتبس، قطعة من عهد الامير عبد الله، تحقيق د. اسماعيل العربى، صـ١٢٥ - ابن الابار، الحلة السيراء، حـ١، صـ١٤٦.

(٣٩) ابن الابار، المصدر السابق، جـ١، صـ١٤٦.

(٤٠) أخطأ ابن حيان عندما ذكر اسم عبيد الله بن محمد بن ابى عبدة للمرة الأولى فى هذا النص. فقد ذكره على أنه «عبيد الله محمد عامل جيان» ولكنه استدرك هذا الخطأ فى آخر هذا النص فذكر اسمه على أنه «عبيد الله بن أبى عبدة» فيكون ابن حيان بذلك قد نسى وضع كلمة «ابن» فى العبارة الأولى بين اسمى «عبيد الله» و «محمد» فتكون صحتها «عبيد الله بن محمد عامل جيان» «ابن حيان، المقتبس، قطعة من عهد الأمير عبد الله، صـ٧٣».

(٤١) لمزيد من التفاصيل راجع ابن حيان، قطعة من عهد الامير عبد الله، صـ٧٤.

(٤٢) المصدر السابق، صـ١٢٥. ولمزيد من التفاصيل عن جهوده فى القضاء على ابن حفصون ارجع الى نفس المصدر، صـ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥.

(٤٣) ابن عذارى، البيان، جـ٢، صـ١٥٢.

(٤٤) ابن الأبار، الحلة السيراء، حـ١، صـ١٤٧.

(٤٥) هو محمد بن عبد العزيز العتبى، وكان من نبهاء شعراء دولة الامير محمد «لمزيد من التفاصيل ارجع إلى ابن سعيد، المغرب فى حلى المغرب، تحقيق د. شوق بضيف، جـ١، صـ١٣٤.

(٤٦) ابن الابار، الحلة، حـ١، صـ١٤٧.

(٤٧) المصدر السابق،جـ١، صـ٩٧، صـ ١٤٧ وأرجع كذلك إلى ابن عذارى، البيان جـ٢، ص ١٤٥.

(48) Una Cronica Anonima De Abd Al- Rahman 111 Al Nasir, E.levi Provençal y Garcia Gomez, Madrid, 1950, P 83.

(٤٩) ابن الأبار، الحلة السيراء، حـ١، صـ٢٥٢.

(٥٠) المصدر السابق، حـ١ ، صـ٢٤٧ .

(٥١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، صـ٢٨٤ ، ٢٨٥

(٥٢) ابن حيان، المقتبس، المصدر السابق، صـ٣٣٠ .

(٥٣) نفسه، صـ٣٥٥ .

(٥٤) نفسه. صـ٣٧٦ .

(٥٥) نفسه. صـ٣٩١ .

(٥٦) نفسه. صـ٤٠٨ .

(٥٧) نفسه. صـ٤١٣ .

(٥٨) نفسه. صـ٤٠٤ .

(٥٩) نفسه. صـ٤٢٩ .

(٦٠) نفسه. صـ٤٦١ .

(٦١) نفسه. صـ٤٧٠ .

(٦٢) نفسه. صـ٤٨٧ .

(٦٣) ابن عذارى، البيان، جـ٢ ، صـ٢٢٠ .

(٦٤) عن محمد بن جهور ارجع الى الضبى، بغية الملتمس، صـ٥٤، ترجمة ٧٦ – ابن عذارى البيان، حـ٢ ، صـ٢٣٥ .

(٦٥) الضبى، بغية الملتمس، صـ٥٤، ترجمة ٧٦ .

(٦٦) المصدر السابق، صـ٥٤ .

(٦٧) نفسه، صـ٥٤ .

(٦٨) ابن عذارى، البيان، حـ٢ ، صـ٣٣٥ .

(٦٩) من أهم هذه المؤلفات كتاب الدكتور خالد الصوفى، جمهورية بنى جهور، دمشق، ١٩٥٩ . ومن الجدير بالذكر أن هذا الكتاب تناول تاريخ هذه الاسرة

منذ عهد ابى الحزم جهور دون ان يتعرض إلى تفاصيل تاريخ وأولية هذه الاسرة منذ بداية عصر الدولة الأموية.

(٧٠) ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. محمود على مكى، صـ٢٨، ٢٩.

(٧١) المصدر السابق، صـ١٥٢.

(٧٢) نفسه، صـ١٥٢.

(٧٣) نفسه، صـ١٥٢.

(٧٤) نفسه، صـ١٥٣.

(٧٥) نفسه، صـ١٥٤، ١٥٥.

(٧٦) نفسه، صـ١٥٥.

(٧٧) ابن عذارى البيان، حـ٢، صـ٩٦.

(٧٨) ابن حيان، المقتبس، تحقيق د، مكى، صـ٣١٨.

(٧٩) ابن عذارى، البيان، حـ٢، صـ٩٦.

(٨٠) العذرى، صـ١١٨، ١١٩ - ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. مكى، صـ٣٠٨ - ابن عذارى، حـ٢٢ صـ٩٦.

(٨١) راجع تعليق د. محمود على مكى على الهجوم الذى قام به النورمان على الاندلس سنة ٢٤٧هـ في صـ٦٠٣ حاشية رقم ٥١٠.

(٨٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. مكى، صـ٣١٢.

ويرى د. مكى أن الأحداث قد اختلطت لدى ابن حيان، فقد أورد فى اخبار وتفاصيل هذا الهجوم الجديد سنة ٢٤٧هـ نفس تفاصيل هجوم النورمان سنة ٢٤٥هـ خاصة حادثة استشهاد خشخاش.

(٨٣) ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. مكى، صـ٣١٩.

(٨٤) يرى د. محمود على مكى أنه تحريف للفظ «المركوير» وكان فرانسسكو كوديرا قد حقق هذا الموضع على أنه هو نفسه الموضع المعروف اليوم باسم Hoz de la Morcuera أو Foz de le Malcuera وهو هضبة تخترقها سلسلة من الجبال التى تشقها وديان عميقة إلى الجنوب الغربى من بلدة ميراندا وادى ابره Miranda del Ebro الواقعة على بعد نحو من ١٣٠ كلم غربى بنبلونة «لمزيد من التفاصيل عن هذا الموقع راجع تعليق د. محمود على مكى، فى تحقيقه لمقتبس ابن حيان، صـ٦٠٥، ٦٠٦ حاشية رقم ٥١٩».

(٨٥) ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. مكى، صـ٣١٩.

وقد أورد ابن الأثير أخبار هذه الصائفة ضمن احداث سنة ٢٥١هـ، وان كان لم ينص على اسم القائد عيسى الحاجب، وذكر أن ملك الفرنج كان لذريق وسمى موضع المعركة بفج المركوين، وذكر ان اعداد القتلى بلغت ٢٤٩٢ قتيلا «ابن الأثير؛ الكامل فى التاريخ، بيروت، ١٩٦٥، جـ٧، صـ١٦٢» أما ابن عذارى فقد أورد خبر هذه الغزوة فى اخبار سنة ٢٥١هـ واسماها بهزيمة المركويز ايضاً شأنه فى ذلك شأن ابن حيان، ولكنه اختلف معه فى بعض التفاصيل حيث ذكر أن الأمير محمد قد أنفذ ابنه عبد الرحمن على رأس هذه الصائفة وأن عبد الملك بن العباس القرشى كان القائد الذى تولى قيادة الجيوش، وليس عيس بن الحسن بن ابى عبدة كما ذكر أن أمير النصارى كان رذريق صاحب القلاع عند ابن عذارى وأن عدد القتلى بلغ ٢٤٧٢ رأساً «لمزيد من التفاصيل راجع ابن عذارى، البيان، حـ٢، صـ٩٨، ٩٩».

ونحن نميل إلى الأخذ برأى ابن حيان «تـ سنة ٤٢٢هـ» لقربه من زمن وقوع الاحداث بخلاف ابن عذارى الذى يعد مصدراً متأخراً من جهة ولاشتراك ابن الأثير مع ابن حيان، فى ذكر غالبية تفاصيل هذه الصائفة من جهة أخرى.

(٨٦) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، صـ٤٨٩ .

(٨٧) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، صـ١٠٤ - ابن حيان، المقتبس، قطعة من عهد الامير عبد الله. صـ٢١، وتحقيق د. مكى، صـ٢١٧، صـ٦٩، ١٦٩ - ابن عذارى، البيان، جـ٢، صـ١٥٢ .

(٨٨) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، صـ٤٨٩ .

وقد يتبادر إلى الذهن ان عيسى بن محمد بن ابى عبدة هذا الذى أشار إليه ابن حيان فى اخبار سنة ٣٣٠هـ كان ابنا لمحمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن أبى [illegible] من الفرع الأول لهذه الأسرة، ولكننا بالنظر الى العام الذى ورد فيه اسمه وهو سنة ٣٣٠هـ نعتبره معاصراً للخليفة الناصر، بينما كان كل من محمد بن الغمر بن ابى عبدة وولده ابى عثمان عبيد الله وهو من المفترض ان يكون أخاً لعيسى هذا، معاصرا للأمير عبد الله مما يجعلنا نرجح أن عي[illegible] محمد بن ابى عبدة الوارد ذكره فى المتن هو ابن لمحمد ابن عيسى بن الحسن بن عبد الغافر، وليس ابناً لمحمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر.

(٨٩) ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. اسماعيل العـ[illegible] «قطعة من عهد الأمير عبد الله» صـ٢١- محمود على مكى فى تحقيقه لمقتبس ابن حيان، صـ٥٥٥ حاشية ٣٧٤.

(٩٠) ابن عذارى، البيان، جـ٢، صـ١٥٢ - ابن الأبار، الحلة السيراء، جـ١، صـ١٤٦.

(٩١) ابن القوطية، صـ١٠٤ - ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. مكى، صـ١٩٧ والمقتبس تحقيق شالميتا، صـ٢١٧ والمقتبس، تحقيق د. اسماعيل العربى، صـ٦٩، ١٦٨ - ابن عذارى، البيان، جـ٢، صـ١٥٢ . ويذكر ابن حيان أنه عندما توفى الأمير عبد الله كان له أربعة وزراء فحسب هم العباس بن عبد

العزيز القرشى المروانى، أحمد بن محمد بن ابى عبدة، والقائد محمد بن وليد ابن غنيم، وعبد الله بن محمد الزجالى الكاتب ﴿ابن حيان، المقتبس، قطعةم من عهد الامير عبد الله، صـ٢١﴾.

(٩٢) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، صـ١٠٤.

(٩٣) اخبار مجموعة، مجريط، ١٨٦٧، ص ١٥١، حسين مؤنس فى تحقيقه للحلة للسيراء لابن الابار، ص ١٢١، حاشية (٣) محمود على مكى فى تحقيقه للمقتبس، ص ـ ٥٥٥ حاشية (٣٧٤).

(٩٤) ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. اسماعيل العربى، صـ٢١.

(٩٥) المصدر السابق، صـ١١٥. ويذكر ان حيان ابن عمر بن حفصون تمكن من الغدر بخير بن شاكر، فقد ارسل اليه ابن حفصون احد اتباعه ويدعى «الريول» متظاهراً بامداده ودعمه ولكنه كان يبطن قتله وبالفعل قتل الريول خير بن شاكر عندما خرج لاستقباله وأرسل رأسه الى ابن حفصون. وكان ابن حفصون يهدف بذلك الى أمرين الأول التقرب الى الامير عبد الله لايهامه بطاعته والثانى السيطرة على حاضرة جيان. وقد توجه ابن حفصون بالفعل الى حاضرة جيان واستولى عليها واغرم أهلها اموالاً طائلة ﴿لمزيد من التفصيل راجع المصدر السابق، صـ١١٥ وما يليها﴾.

(٩٦) ابن حيان المقتبس، قطعة من عهد الامير عبد الله، تحقيق د. اسماعيل العربى، صـ١٣٦.

(٩٧) لمزيد من التفاصيل، راجع المصدر السابق، صـ١٣٦ - ١٣٩. ويذكر العذرى ان ديسم بن اسحق كان من فرسان عمر بن حفصون المنتزى ببشتر، وقد ثار بلورقة واستولى عليها وقد عثر على معادن الفضة بتدمير فضرب الدراهم على اسمه،فغزاه احمد بن محمد بن ابى عبدة وحاربه وضايقه فأذعن بالطاعة وادى قطيعاً من الجباية وضرب الدراهم على اسم الامير عبد

الله، وتوفى بمرسيه سنة٢٩٣هـ «العذرى، صـ١١» وارجع كذلك إلى ابن عذارى، البيان، حـ٢، صـ١٣٥ ومايليها».

(٩٨) ابن حيان، المقتبس، قطعة من عهد الامير عبد الله، صـ١٤٢.

(٩٩) كانت هذه الصائفة اولى غزوات الامير ابان ولكنها كانت فاتحة التعاون العسكرى بين ابان بن الامير عبد الله وبين الوزير القائد ابن العباس احمد بن ابى عبدة فقد تكررت الصوائف التى تشاركا فيها معاً على مدى السنوات التالية كما سنوضح فى المتن فى الصفحات التالية.

(١٠٠) ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. اسماعيل العربى، صـ١٤٣ - ابن عذارى، البيان، حـ٢، صـ١٣٨.

(١٠١) لمزيد من التفاصيل، ارجع الى ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. اسماعيل العربى، صـ١٤٥ ومايليها. وارجع كذلك الى ابن عذارى، البيان، جـ٢، ص ١٣٣.

(١٠٢) ابن حيان،المصدر السابق، صـ١٥١ - ابن عذارى، البيان، حـ٢، صـ١٣٩.

(١٠٣) وممن أبلى بلاءً حسناً فى هذه المعركة لصالح جيش الامارة الفارس عبد الواحد الروطى أحد فرسان الأمير عبد الله «ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. اسماعيل العربى، صـ١٥٢».

(١٠٤) ويذكر ابن حيان ان الأمير عبد الله أمر بقتل ابن اخى عمر بن حفصون ولكن فيما يتعلق بعبد الرحمن بن ابراهيم بن حجاج فقد استمع الى نصيحة مولاه بدر الخصى الصقلبى فأطلق سراحه وسجل له على اشبيلية ولأخيه محمد على قرمونة فكان لذلك أطيب الأثر فى نفس ابراهيم بن حجاج الذى استجاب لمطلب الأمير عبد الله بأن يحل مابينه وبين ان حفصون من مناصرة وتحالف بينهما وان أبقى على صداقته به «لمزيد من التفاصيل ارجع الى ابن حيان، المقتبس، قطعة من عهد الأمير عبد الله، صـ١٥٣».

(١٠٥) ابن حيان، المصدر السابق، صـ ٤٥، صـ١٦٢ - وعن عمر بن مضم الهترولي الملاحي ارجع الى ابن عذارى، البيان، حـ٢ ، صـ١٣٦ .

(١٠٦) ابن حيان، المقتبس، قطعة من عهد الامير عبد الله، صـ١٦٣ . وان كان ابن عذارى قد أشار الى هذه الغزوة وحدد تاريخ خروج جيس الامارة في الخامس من جمادى الآخرة سنة ٢٩١هـ ﴿ابن عذارى، البيان، جـ٢ ، صـ١٤٠﴾.

كذلك يختلف ابن عذارى مع ابن حيان في بعض التفاصيل خاصة فيما يتعلق بأسماء بعض الحصون فابن عذارى يشير الى ان المعارك التى دارت بين الفريقين كانت في وادى نسقانية وليس من ببشتر نفسها ﴿كما ذكر ابن حيان﴾.

(١٠٧) لمزيد من التفاصيل ارجع الى ابن حيان، المقتبس، قطعة من عهد الامير عبد الله، صـ١٦٣ .

(١٠٨) يذكر ابن عذارى أن القائد احمد بن ابى عبدة تقدم الى حصن الخشن بعد فراغه من حصن لوشة في جرائد من الخيل كما أنه طلب من ابان ابن الامير عبد الله البقاء في معسكره بمحلة لوشة في حين قام هو بمحاربة حصن الخشن وقتل عدداً من أهله واسر منهم جماعة ثم انصرف بالرؤوس والأسرى الى لوشة وذلك قبل قفوله بالعسكر الى قرطبة يوم الخامس والعشرين من رمضان. وقد استغرقت هذه الغزاة في رأى ابن عذارى مدة ثلاثة أشهر وعشرين يوماً ﴿ابن عذارى البيان، حـ٢ ، صـ١٤١﴾.

(١٠٩) ابن حيان، المقتبس، قطعة من عهد الامير عبد الله، صـ١٦٤ - ابن عذارى، البيان حـ٢ ، صـ١٤٢ .

(١١٠) ابن حيان، المقتبس، قطعة من عهد الامير عبد الله، صـ١٦٤ - ابن عذارى، البيان، حـ٢ ، صـ١٤٢ .

(١١١) ابن حيان،. المصدر السابق، صـ١٦٥ - ابن عذارى، المصدر السابق، حـ٢، صـ١٤٣.

(١١٢) وعند افتتاح هذا الحصن يقول عبيد الله بن يحيي بن ادريس مهنئاً الامير عبد الله:

على ممن لحظه سيفان سلهما فكم بقاء أسير بين سيفين

الاكقدر بقاء الجانبين معا من بين جندين للتقوى معدين

الله ايد عبد الله حين غدا يذب عن دينه الارضى عدوين

﴿ابن حيان، المقتبس، صـ١٦٥﴾.

وارجع كذلك الى ابن عذارى، البيان، حـ٢، صـ١٤٤.

(١١٣) أورد ابن عذارى اسمه على أنه محمد بن يحيى بن سعيد بن بزيل بالباء ولكننا نرجح انها هذيل بالهاء، ﴿ابن عذارى، البيان، حـ٢، صـ١٤٥﴾.

(١١٤) ابن حيان، المقتبس فى صـ١٦٧.

(١١٥) ابن عذارى، البيان، حـ٢، صـ١٤٦. وقتل ابن ابى عبدة عدداً كبيراً من قواد ابن حفصون أشهرهم تسريل العجمي.

(١١٦) المصدر السابق، صـ١٤٦.

(١١٧) ابن حيان، المقتبس، صـ١٦٧.

(١١٨) ابن عذارى، البيان، حـ٢، صـ١٤٦.

(١١٩) المصدر السابق، صـ١٤٥ - ولمزيد من التفاصيل عن هذه الغزوة ارجع الى ابن حيان، المقتبس، صـ١٦٦، ١٦٧.

(١٢٠) ذكره ابن حيان لأول مرة على أنه عيسى بن محمد بن احمد وفى نفس الفقرة عاد فذكره على أنه عيسى بن احمد بن محمد بن ابى عبدة. وقد

أخطأ ابن حيان في المرة الأولى وأصاب في المرة الثانية لأن عيسى هو ابن للقائد احمد بن ابى عبيدة وليس حفيداً له. وقد أورد ابن عذارى نفس الخبر في احداث سنة٢٩٨هـ وذكر اسمه على أنه عيسى بن احمد بن ابى عبدة ﴿ابن حيان، صـ١٦٨ ، ابن عذارى، البيان ، حـ٢ ، صـ١٤٧﴾.

(١٢١) ابن حيان، صـ١٦٨ .

(١٢٢) ابن عذارى، البيان، حـ٢ ، صـ١٤٧ .

(١٢٣) المصدر السابق، حـ٢ ، صـ١٤٩ .

(١٢٤) لمزيد من التفاصيل ارجع الى ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. اسماعيل العربى صـ١٦٨ – ابن عذارى، البيان، حـ٢ ، صـ١٤٩ .

(١٢٥) ابن عذارى، البيان، حـ٢ ، صـ١٥٨ ، ١٦٠ .

(١٢٦) المصدر السابق، صـ١٥٩ .

(١٢٧) نفسه، صـ١٥٩ ، ١٦٠ .

(١٢٨) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، صـ٩٧ . وارجع كذلك الى مدونة عبد الرحمن الناصر، صـ٤٧ .

(١٢٩) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، صـ٩٢ .

(١٣٠) لمزيد من التفاصيل راجع المصدر السابق، صـ٥٩ ومايليها.

(١٣١) نفسه، صـ٩٢ ، ٩٣ .

(١٣٢) مدونة الناصر، صـ٥٢ ، ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، صـ١٠٧ – ابن عذارى، البيان، حـ٢ ، صـ١٦٧ .

(١٣٣) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، صـ١٢٧ .

(١٣٤) مدونة الناصر، صـ٥٢ – ابن عذارى، البيان، حـ٢ ، صـ١٦٩ .

(135) Levi Proverc,al, Histoire de l'Espagne Musulmane, Paris, 1950, T. II, P37.

(١٣٦) خلفَ اردون الثانى والده غرسية ﴿٢٩٨ – ٣٠٢ هـ ا ٩١٠ – ٩٠٤م﴾ على عرش ليون وقد سار على نفس سياسة ابيه وجده الفونسو الثالث فيما يتغلق بسياسته العدوانية على جيرانه المسلمين وغاراته المتتالية على القواعد الاسلامية المتاخمة لمملكة ليون مثل استرقة وسمورة وشلمنكه وشقوبيه. ﴿لمزيد من التفاصيل ارجع الى سحر سالم، تاريخ بطليوس الاسلامية و غرب الأندلس فى العصر الاسلامى، الاسكندرية، ١٩٩٣، حـ٢، صـ٣١٢ ومايليها﴾.

(١٣٧) كان اردون الثانى قد غزا يابرة سنة ٣٠١/ ٣٠٢هـ، وفيها استشهد معظم سكان هذه المدينة المسلمة ومن بينهم واليها مروان بن عبد الملك بن احمد كما أغار على [illegible] ماردة واستولى على حصن الحنش Alanje وذبح جميع حاميته ﴿ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، صـ٩٨، ١٢٠. وارجع الى مدونة الناصر، صـ٤٤. Levi Provencal, Histoire, t.,II, P36. ولمزيد من التفاصيل عن تاريخ غزوة اردون على ماردة والحنش وهل سبقت غزوه ليابرة أم تأخرت عنها ارجع الى سحر سالم، تاريخ بطليوس الاسلامية، حـ١، صـ٣٠٥ – ٣٢٥﴾.

(١٣٨) مدونة الناصر، صـ٥٤ – ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، صـ١٣٥– ابن عذارى، البيان، حـ٢، صـ١٧٠، ١٧١.

(١٣٩) لمزيد من التفاصيل ارجع الى، Lévi Provenc,al, Histoire, T. II, p37.38.

(١٤٠) مدونة الناصر، صـ٥٤ – ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، صـ١٣٥ – ابن عذارى، البيان، حـ٢، صـ١٧٠، ١٧١.

(١٤١) البكرى، المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب، جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى ببعداد، بدون تاريخ، صـ١٢

(١٤٢) لمزيـــد من التفاصيلِ ارجع إلى Lévi Provenc.al. Op. cit. T. II P 37-39.

وعن رد الفعل الاسلامى لهذه الهزيمة وخروج حملة اسلامية سنة٣٠٦هـ بقيادة الحاجب بدر بن احمد وهى الغزوة الشهيرة بمطونية ارجع إلى ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، صـ١٤٥– ابن عذارى، البيان، حـ٢، صـ١٧٢ – سحر سالم، بطليوس، حـ٢، صـ ١١٧ ومايليها».

(١٤٣) أورد ابن حيان اخبار هذه الصائفة التى قادها عباس بن احمد بن ابى عبدة فى أخبار سنة ٢٩٩هـ «ابن حيان، المقتبس، قطعة من عهد الامير عبد الله، صـ١٦٨، ١٦٩ فى حين اوردها ابن عذارى فى اخبار سنة ٢٩٨هـ «ابن عذارى، البيان، حـ٢ صـ١٤٧، ١٤٨».

(١٤٤) ابن حيان. المقتبس تحقيق شالميتا، صـ٩٧، ٨٢ – ابن عذارى، البيان، حـ٢، صـ١٦٥.

(١٤٥) ابن حيان. المقتبس تحقيق شالميتا، صـ١٠٧ – ابن عذارى، البيان، حـ٢، صـ١٦٧.

(١٤٦) ارجع الى الحاشية السابقة.

(١٤٧) مدونة الناصر، صـ٥٢ وارجع الى Levi Provercal, L'Espagne Musulmane au Xeme Siecle, Paris, 1932, Ploo.

(١٤٨) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، صـ٤٠٨.

(١٤٩) منهم عيسى بن احمد بن محمد بن عيسى بن ابى عبدة، ومحمد بن عباس بن محمد بن ابى عبدة، وهذان سنتحدث عنهما فى المتن فى

الصفحات المقبلة، وكذلك ذكر ابن حيان فى شهود هذا الأمان اسم جهور ابن عبيد الله بن محمد بن ابى عبدة الذى سبق ان اشرنا اليه فى الصفحات السابقة، (ابن حيان، المصدر السابق، ص٤٠٨.

(١٥٠) ابن حيان، المصدر السابق، صـ٣٩١. وكان ابن حيان قد أورد فى اخبار سنة٣٢٢هـ. خبراً مفاده عزل محمد بن عباس بن أبى عبدة عن كورة البيرة وتولية محمد بن عمرو مكانه «المصدر السابق، صـ٣٥٥» فيكون محمد بن عباس بن ابى عبدة قد تولى بذلك كورة البيرة مرتين، الأولى سنة٣٢٢هـ ثم عزل عنها ثم اعاده الناصر إلى ولايتها سنة٣٢٣هـ لمدة عام ثم عزله عنها مجدداً سنة٣٢٤هـ.

(151) Ibn Hazm, lo collier du pigeo, ed. leon Bercher, Alger, 1949, p270.

(١٥٢) ابن عذارى، ،بيان، حـ٢، صـ١٤٤– ابن الأبار الحلة السيراء، حـ١، صـ١٢٠.

(١٥٣) ابن عذارى، صـ١٤٧. وكانت بيانة من اعمال قبرة وتقع على بعد ٦٤كلم من قرطبة.

(١٥٤) نفسه، صـ١٥٨.

(١٥٥) ابن عذارى، البيان، جـ٢، صـ١٦٠.

(١٥٦) مدونة الناصر، صـ٤٧ – ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، صـ٩٧.

(١٥٧) المصدر السابق، صـ٩٧.

(١٥٨) ابن عذارى، البيان، حـ٢، صـ١٦٥.

(١٥٩) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، صـ١١٠،١١١.

(١٦٠) مدونة الناصر، صـ٧١،٧٢

(١٦١) ابن عذارى، البيان، حـ٢ ، صـ١٩٣ . وارجع الى ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، صـ٢١٠.

(١٦٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، صـ٢٤٢ .

(١٦٣) ابن عذارى، البيان، حـ٢ ، صـ١٩٣ .

(١٦٤) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، صـ٢٥٢ - ابن عذارى، البيان، جـ٢ صـ٢٠١.

(١٦٥) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، صـ٣٣٠.

(١٦٦) المصدر السابق، صـ٣٧٦.

(١٦٧) نفسه، صـ٣٧٩.

(١٦٨) نفسه، صـ٤١٦ .

(١٦٩) نفسه، صـ٤٠٨ .

(١٧٠) نفسه، صـ٤١٩ - ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. مكى، صـ١٩٨ .

(١٧١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. مكى، صـ١٩٦ - ابن الابار، الحلة السيراء حـ١ ، صـ١٢٠، ١٢١ حاشية(١).

وكتب الأمير عبد الله ابيات شعرية فى هدا الصدد اوردها كل من ابن حيان وابن الأبار منها:

موالى قريش من قريش فقدموا
موالى قريش لاموالى معتب

اذا كان مولانا يساويه عندنا
سواه فمولانا كآخر أجنب

(١٧٢) ابن حيان، المقتبس، نشر، شالميتا، صـ٢٠٩، ٢١٠ - ابن عذارى، البيان، حـ٢، صـ١٩٣.

(١٧٣) ابن حيان، المقتبس، نشر شالميتا، صـ٢١٥ - ابن عذارى، البيان، حـ٢، صـ١٩٦.

(١٧٤) تولى خزانة المال فى هذه السنة (٣١٦هـ) أربعة خزان وهم محمد ابن جهور، واحمد بن عيسى بن ابى عبدة، وعبد الرحمن بن عبد الله الزجالى واحمد بن محمد بن أبى قابوس «ابن عذارى، البيان، حـ٢، صـ١٩٧».

(١٧٥) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، صـ٣٢٢ - ابن عذارى، البيان، حـ٢ صـ٢٠٨. وان كان ابن عذارى قد اورد هذا الخبر فى احداث سنة ٣٢٠هـ. أما ابن حيان فقد ذكره فى اخبار اول محرم من سنة٣٢١هـ.

(١٧٦) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، صـ٣٢٣.

(١٧٧) لمزيد من التفاصيل راجع المصدر السابق، صـ٣٢٤.

(١٧٨) نفسه، صـ٤١٩.

(١٧٩) نفسه، صـ٣٣٠.

(١٨٠) نفسه، صـ٣٩١.

(١٨١) نفسه، صـ٤٨٩.

(١٨٢) مدونة الناصر، صـ٥٢- ابن عذارى، البيان، حـ٢، صـ١٦٧. وان كان صاحب مدونة الناصر قد أورد هذا الخبر فى احداث سنة ٣٠٣هـ. وارجع كذلك الى ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالمتيا، صـ١٠٧.

(١٨٣)ابن عذارى، البيان، حـ٢، صـ١٦٨.

(١٨٤) مدونة الناصر، صـ٨٤ - ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، صـ٢٥٤.

(١٨٥) ابن عذارى، البيان، حـ٢ ، صـ١٥٨ .

(١٨٦) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، صـ٢٨٥.

(١٨٧) ابن الفرضى، تاريخ علماء الأندلس، مجموعة تراثنا، القاهرة، ١٩٦٦ ، ترجمة ٩٩٠، حـ١ ، صـ٣٣٥.

(١٨٨) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، صـ٤٠٤ .

(189) Levi Provenc,al, L'Espagne musulmane, P 100 - 101.

(١٩٠) ابن حيان، المقتبس، قطعة من عصر الامير عبد الله، صـ٢١ .

وقد ذكره ابن عذارى على أنه «سلمة بن على بن ابى عبدة «ابن عذارى، البيان، حـ٢ ، صـ١٥٢» . وقد أخذنا بالاسم الذى اورده ابن حيان لقرب ابن حيان من الأحداث زمنياً.

(١٩١) راجع الحاشية السابقة.

(١٩٢) ابن عذارى، البيان، حـ٢ ، صـ١٦٧ .

(١٩٣) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، صـ٤٠٨ .

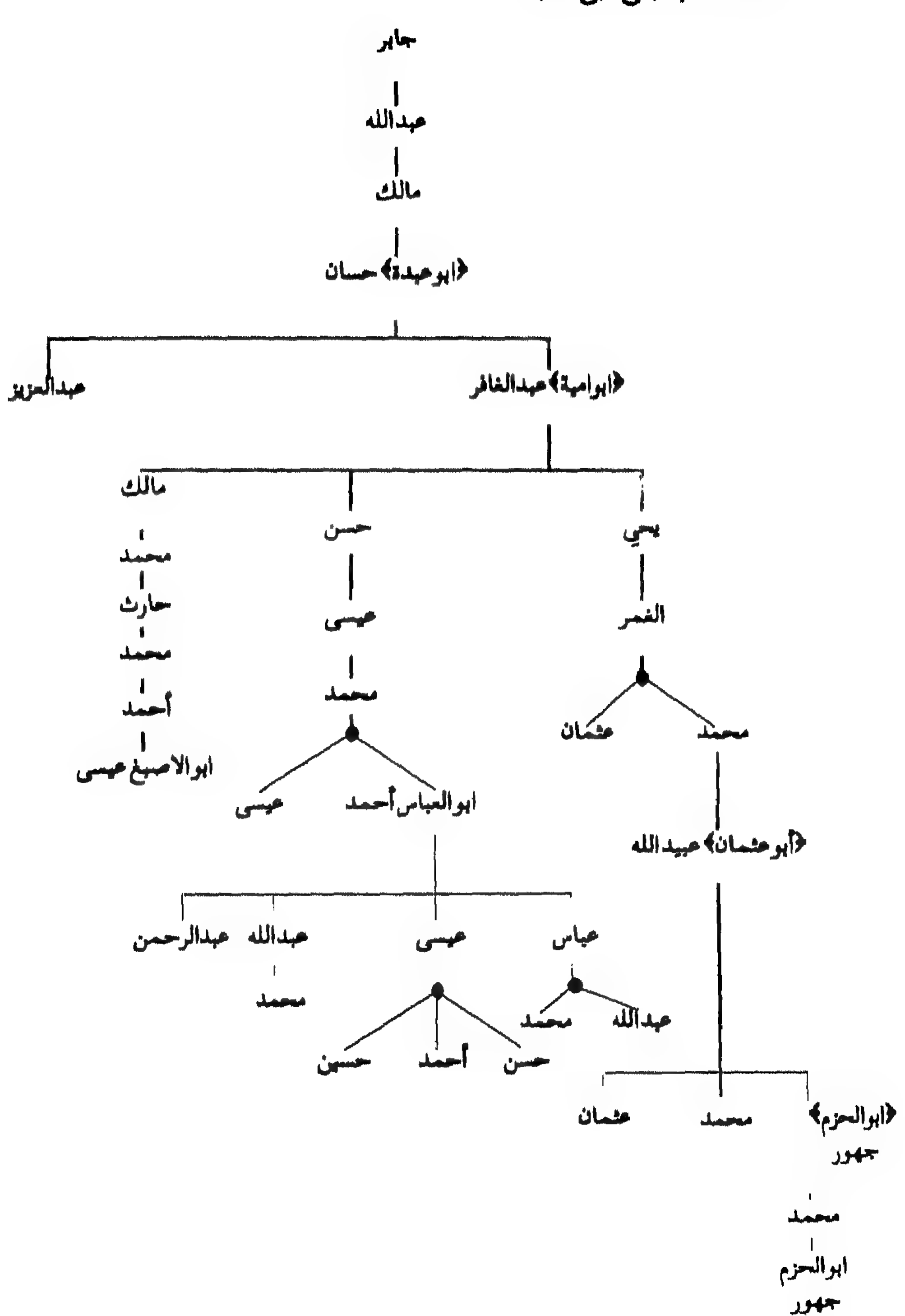
(١٩٤) المصدر السابق، صـ٤٨٩ .

(١٩٥) المقرى، نفح الطيب، حـ٥، صـ٨٩.

(١٩٦) لمزيد من التفاصيل راجع المصدر السابق، حـ١ ، صـ٤١٢ .

(١٩٧) نفسه، حـ٥، صـ٨٩ .

سلسلة نسب بني ابي عبدة



أضواء علي فن الغناء والموسيقي في الأندلس في عصر الدولة الأموية وعصر دويلات الطوائف



أضواء على فن الغناء والموسيقى
فى الأندلس فى عصر الدولة الأموية
وعصر دويلات الطوائف

مقدمة:

ارتبط الاحساس بنشوة الجمال السماعى عند الانسان منذ أقدم العصور، بخرير المياه وسجيع الحمائم وتغريد الطيور وحفيف الأشجار وصفير الرياح[1]، ثم بدأ يبتكر من الآلات ما يحقق له نشوة السماع، وتوصل إلى صناعة المزمار والطبل والبوق، وبمرور الزمن تمكن من صناعة الآلات الوترية كالجنك الذى نشهده فى آثار مصر الفرعونية واستخدم هذه الآلات مصاحبة لأصوات مقطعة تنسجم مع التلاحين، وهذا ما يعرف بفن الغناء. ويعرف ابن خلدون هذا الفن بقوله: «هى تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة، يوقع على كل صوت منها توقيعاً عند قطعه فيكوّن نغمة، ثم تؤلف تلك النغم بعضها إلى بعض على نسب متعارفة، فيلذ سماعها لأجل ذلك التناسب، وما يحدث عنه من الكيفية فى تلك الأصوات». ويواصل ابن خلدون تعريفه لفن الغناء بقوله: «.... وقد يساوق ذلك التلحين فى النغمات الغنائية بتقطيع أصوات أخرى من الجماوات، وإما بالقرع أو بالنفخ فى الآلات تتخذ لذلك، فترى لها لذة عند السماع»[2]. ومن المعروف أن الصوت الحسن

1) Antonio Aragonés Subero, Danzas, rondas y musica popular de Guada lajara, Guadalajara, 1973, p 15.

٢) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى، جـ٣، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٩٦٤، وانظر صلاح أحمد البهنسى، مناظر الطرب فى التصوير الايرانى فى العصرين التيمورى والصفوى، القاهرة، ١٩٩٠، ص ١٦

يحدث فى النفس نشوة حسية يسميها ابن خلدون «لذة» قد يسلك السامع له سلوكاً غير ارادى كأن يشق ثيابه مثلما فعل الوزير أبو محمد عبد الرحمن بن مالك، عندما أنشد شعراً طرب عند سماعه طرباً شديداً شق له ثيابه وعبر عن ذلك بقوله:

لا تلمنى بأن طربت لشدو ∴ يبعث الأنس فالكريم طروب
ليس شق الجيوب حقاً علينا ∴ إنما الحق أن تشق القلوب[3]

ومما يروى عن شق الثياب عند الطرب بالسماع ما رواه ابن خلدون عن أبى بكر ابن تيفلويت عامل يوسف بن تاشفين على سرقسطة فذكر أن أبا بكر محمد بن باجة التجيبى صاحب التلاحين المعروفة وكان عواداً بارعاً مجيداً لصنعة الموسيقى حضر مجلساً من مجالس ابن تيفلويت، فألقى على بعض قيناته موشحته التى بدأها بقوله:

جرر الذيل أيما جر ∴ وصل الشكر منك بالشكر

فطرب ابن تيفلويت لذلك، فلما ختمها بقوله:

عقد الله راية النصر ∴ لأمير العلا أبى بكر

يقول ابن خلدون «فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت صاح واطرباه وشق ثيابه وقال: ما أحسن ما بدأت وما ختمت وحلف بالايمان المغلظة لا يمشى ابن باجة إلى داره إلا على الذهب.» فاحتال ابن باجة لإرضائه بأن وضع قطعة من الذهب فى نعله ومضى على هذا النحو إلى داره[4].

ويذكر المسعودى أن قاضى المدينة فى ولاية عمر بن عبد العزيز طرب طرباً

(٣) ابن سعيد، المغرب فى حلى المغرب، تحقيق د. شوقى ضيف، جـ٢ القاهرة، ١٩٥٣، ص١١٧، المقرى، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محيى الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٤٩، جـ٢، ص ١٩٣

(٤) ابن خلدون، المقدمة، حـ٤، ص ١٣٣٠، ابن ابى اصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، تحقيق د. نزار رضا، ص ٥١٥

شديداً عند سماعه غناء جاريته فدفعه احساسه بالطرب إلى خلع أحد نعليه وعلقه في أذنه وجثا على ركبتيه، وجعل يأخذ بطرف أذنه والنعل معلقة فيها وهو يقول:

«اهدوني إلى البيت الحرام فاني بدنه حتى أدمى أذنه». وعندما بلغ ذلك عمر بن عبد العزيز أمر بصرفه من عمله، «فاحتج القاضي وقال: نساؤه طوالق لوسمعها عمر لقال اركبوني فإني مطية. فلما بلغ ذلك عمر أشخصه وأشخص الجارية، وطلب منها أن تغني فغنت:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ∴ أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كنا أهلها، فأبادنا ∴ صروف الليالي والجدود العواثر

فلما فرغت من هذا الشعر حتى طرب عمر طرباً بيِّناً وأقبل يستعيدها ثلاثاً، وقد بلت دموعه لحيته، ورضي عن القاضي وأعاده إلى عمله»[٥].

ومن ذلك أيضاً أن ابن عائشة القرشي المغني، غنى للوليد بن يزيد أبياتاً من الشعر طرب لها الوليد، وطلب اعادتها مرات، ثم أكبَّ على ابن عائشة يقبله ويقبل رأسه ويقول: واطرباه!! واطرباه. ثم نزع ثيابه فألقاها على ابن عائشة وبقي مجرداً إلى أن أتوه بثياب غيرها[٦].

وعقد ابن ابي عامر مجلس غناء وشراب وطرب دارت فيه الكؤوس، فأخذوا يرمون القلانس ويجرون العمائم، ويصفقون بالأكف ويرقصون[٧].

وكان معاوية بن أبي سفيان إذا طرب ضرب برجله الأرض طربا[٨]. وذكر

---

٥) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، طبعة محي الدين عبد الحميد، جـ٣، القاهرة، ١٩٥٨، ص ١٩٨، ١٩٩

٦) المسعودي، المصدر السابق، ص ٢٢٨

٧) ديوان ابن شهيد الأندلسي، تحقيق يعقوب زكي، القاهرة، ص ١٥٦ - شارل بلا، ابن شهيد الأندلسي حياته وآثاره، عمان، ١٩٦٥، ص ١١٦

٨) ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق الاساتذة أحمد أمين وابراهيم الابياري وعبد السلام هارون، جـ٦، القاهرة، ١٩٤٩، ص ١٧

المقرى أن القاضى أبا عبد الله محمد بن عيسى من بنى يحيى بن يحيى الليثى خرج يوماً لحضور جنازة، وكانت لرجل من أصحابه دار قريبة من مقبرة قريش (فى الجانب الغربى من قصبة قرطبة) فألح عليه صاحبه أن يزوره بداره قبل أن يتوجه لحضور الجنازة، فقبل القاضى الدعوة وأنزله صاحبه بداره وقدم له طعاما ثم غنت جاريته أبياتاً من الشعر جاء فيها:

طابت بطيب لقـائك الأقـداح ∴ وزها بحمرة وجهك التفـاح
وإذا الربيع تنسـمت أرواحـه ∴ نمّت بعرف نسيمك الأرواح
وإذا الحنادس ألبست ظلماءها ∴ فضياء وجهك فى الدجى مصباح

فطرب القاضى طرباً شديداً، ولم يملك أن سجلها على ظهر يده، وشوهد يكبر على الجنازة والأبيات على ظهر يده[٩].

ويقر الفقيه العالم ابن حزم القرطبى فى كتابه طوق الحمامة بأنه أحب جارية بلغت الغاية فى الحسن والجمال والعفاف والتعقل والخفر، بنت ١٦ عاماً، لا ترغب فى اللهو لجديتها، وكانت بالإضافة الى ما تميزت به من جمال وخصال تحسن ضرب العود والغناء، فسعى إلى التحادث معها، فلم ترد عليه بكلمة، وحدث أن تجمعت النساء بقصبة كانت بدار بنى ابن حزم، مشرفة على بستان الدار، ثم نزلن إلى البستان، وأبدت كرائم هؤلاء النساء إلى سيدة الدار رغبتهن فى سماع غناء تلك الجارية فلم تتردد فى أن تأمرها بالغناء، وعندئذ أخذت الجارية العود وسوته بخفر واندفعت تغنى بأبيات للعباس بن الأحنف قال فيها:

انى طربت إلى شمس اذا غربت ∴ كانت مغاربها جوف المقاصير
شمس ممثله فى خلق جارية ∴ كأن اعطافها طى الطوامير
ليست من الإنس إلا فى مناسبة ∴ ولا من الجن إلا فى التصاوير
فالوجه جوهره والجسم عبهرة ∴ والريح عنبرة والكل من نور
كأنها حين تخطو فى مجاسدها ∴ تخطو على البيض أو حدّ القوارير

٩) المقرى، نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ٥، ص ١٠٤.

فطرب ابن حزم طرباً شديداً عبّر عنه بقوله «فلعمرى لكأن المضراب انما يقع على قلبى وما نسيت ذلك اليوم ولا أنساه إلى يوم مفارقتى الدنيا»(١٠) .

ونخرج من هذه الأمثلة بأن الطرب يحدث فى النفس الإنسانية نشوة تنس صاحبها ما يقوم به من سلوكيات غير ارادية، ويبدو أن ما ذكره ابن عبد ربه فيما يتعلق بأثر الصوت الحسن من النفس يعبر بصدق عن ذلك فهو يذكر استناداً إلى مزاعم أهل الطب أن الصوت الحسن يسرى فى الجسم، ويجرى فى العروق فيصفوله الدم ويرتاح له القلب، وتهمس له النفس وتهتز الجوارح وتخف الحركات(١١) . وقد يفضى بصاحبه أحياناً إلى البكاء(١٢) ومن أمثلة ذلك أنه لما توفى أبو بكر بن تيفلويت أكثر ابن باجة من رثائه، وغنّى بمرثياته فى ألحان مبكية(١٣) .

وبينما كان فقهاء المالكية يتشددون فى تحريم آلات الموسيقى، ومنهم أحمد بن عبد الرءوف فى رسالته «فى آداب الحسبة» استناداً على النبى ﷺ «صوتان ملعونان فى الدنيا وفى الآخرة: النياحة والزمير»(١٤) ، ومنهم يحيى بن عمر الذى حرّم آلات الموسيقى وتساهل فى الدف المدور والكبير ويقصد به الطب(١٥) ، وكان

---

١٠) ابن حزم، طوق الحمامة فى الألفة والألاف، تحقيق وترجمة النص إلى الفرنسية للاستاذ ليون برشيه Leon Bercher، الجزائر، ١٩٤٩، ص ٢٨٢ - ٢٨٤.

١١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٦، ص ٤ ، فارمر، تاريخ الموسيقى العربية، ترجمة د. حسين نصار، القاهرة، ١٩٥٦، ص ١٨٤، ١٨٥.

١٢) ابن عبد ربه، المصدر السابق، ص ٥.

١٣) ابن سعيد، المغرب فى حلى المغرب، جـ٢، ص ١١٩.

١٤) يقول ابن عبد الرءوف فى ذلك «يؤمر بمنع اللهو كله على أنواعه فى الأعراس وغيرها كالعود وغيره إلا ما كان من الدف العربى الذى هو شبه الغربال واختلف فى الكبر وكذلك شراء الدرامات وشبهها للصبيان، ومن اشترى من آله للهو شيئاً فسخ بيعه وأدّب أهله. من قول ابن الماجشون» (رسالة أحمد بن عبد الملك بن عبد الرءوف فى آداب الحسبة من كتاب رسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق ليفى بروفنسال، القاهرة ١٩٥٥، ص ٧٧، ٨٣.

١٥) يحيى بن عمر، أحكام السوق، تحقيق د. محمود على مكى، ص ١١٩، هامش ٢.

هذا التحريم على حد قول أحد الباحثين الحديثين «أمراً نظرياً أكثر منه واقعياً في كثير من الأحيان»[١٦] . وقد كتب ابن حزم رسالة عبّر فيها عن إباحة الغناء المصحوب بالموسيقى ورفض فيها الآراء المعارضة مستنداً في ذلك على شهادة الفقيه ابن عبد البر الذى لم يجد غضاضة في تفسير ابن حزم[١٧] .

ويواجد الباحثون في فنون الغناء والموسيقى الأندلسية صعوبات جمة مرجعها المشكلات المنهجية والنقدية العويصة التى تتطلب دراسات تحليلية متعمقة، ذلك أن قسماً كبيراً من البحوث التى صدرت حول الموضوع تفتقد، ذلك أن قسماً كبيراً من البحوث التى صدرت حول الموضوع تفتقد التحليل الاستنباطى الذى لا غناء عنه، والنصوص التاريخية والأدبية الكافية لسد الثغرات، وصور للآلات الموسيقية التى نقش بعضها في عدد من التحف العاجية والرخامية أو الواردة في كتاب أناشيد الملك الفونسو العاشر ومعظمها مسيحية، وإن كانت ذات أصول أندلسية أناشيد الملك الفونسو العاشر وسعظمها مسيحية، وإن كانت ذات أصول أندلسية اسلامية وبعض مقطوعات من الموسيقى والغناء «الفلامنكو» (Canto Jondo) وكذلك الموسيقى المغربية الحالية والموشحات الغنائية التى يعتقد أنها من أصول أندلسية[١٨] . ومن المعروف أن شبه جزيرة ايبيريا كان لديها وقت دخول المسلمين الأندلس تراث قديم من الموسيقى الشعبية والحضرية، كما أن العرب والبربر الفاتحين كانت لديهم موسيقاهم الخاصة، غير أن المصادر التاريخية والأدبية العربية لم تسعفنا بنصوص كافية تعين على دراسة حالتى التطور والتواصل اللتين تعرضت لها هذه الموسيقى في الفترة

---

١٦) عبد الوهاب خلاّف، قرطبة الاسلامية فى القرن الخامس الهجرى، بدون تاريخ، ص ٣٢٠.

١٧) Cruz Hernandez, El Islam de al-Andalus, Historia y est ructura de su realidad social, Madrid, 1992, p 438

١٨) Cruz Hernandez, El Islam, op. cit, p 436 - 437.

السابقة لسنة ٢٢٥هـ (٨٤٠م) على وجه التقريب، فكل ما زودتنا به لا يعدو أسماء لبعض المغنين والمغنيات ممن اجتلبهم أمراء بنى أمية فى الأندلس بداية بعبد الرحمن الداخل، وكلهم ينتمون إلى المدرسة المدنية التى ذاعت تقاليدها فى الأندلس إلى أن ظهرت مدرسة زرياب بغدادية الأصل، وبدأنا نلتقط أول الأخبار التى يعوّل عليها فى دراستنا لفن الغناء والموسيقى وتتعلق بدخول الموسيقى البغدادية التى يرجع الفضل فى انتشارها فى الأندلس إلى زرياب[١٩]، فقد وفق زرياب فى تأسيس مدرسة لفن الغناء والموسيقى فى قرطبة، ونجح تلاميذه فى نقل دروسها إلى معظم أنحاء الأندلس، ولاقت رواجا واسع النطاق بين كافة طبقات أهل الأندلس وأصبح فن الغناء والموسيقى على حد قول أحد الباحثين جزءاً لا يتجزأ من ثقافة الشعب الأندلسى[٢٠] وكيانه فى مختلف طبقات المجتمع[٢١]، ويعبر أبو بكر الطرطوشى عن مدى شغف أهل الأندلس وتعلقهم بهذا الفن إلى حد أنهم فى أوساطهم الشعبية قرأوا القرآن بالألحان وهى عادات ابتدعوها[٢٢] وفى ذلك يقول الطرطوشى «وجعلوا لكل لحن من ألحانهم فى القرآن اسماً مخترعاً، فقالوا اللحن الصقلبى[٢٣]». ولم يعد فن الغناء والموسيقى فى الأندلس قاصراً على الخاصة من الأمراء وأصحاب البيوتات

---

(١٩) Cruz Hernandez op. cit, p 438.

(٢٠) محمود الحفنى، زرياب، سلسلة اعلام العرب، عدد ٤، ص ١٣٨، وانظر عبد الوهاب خلاف، قرطبة، ص ١٣٠.

(٢١) احمد مختار العبادى، الاسلام فى أرض الأندلس، بحث فى المختار من عالم الفكر (أ)، الكويت ١٩٨٤، ص ١٤٢.

(٢٢) الطرطوشى، كتاب بالحوادث والبدع، تحقيق محمد الطالبى، ص ٧٧، ٧٨ وراجع الترجمة الاسبانية Abu Bakr al Turtusi, Kitab al Hawadit wal Bida: ellibro de las Novedades, y las innovaciones, trad. Maribel Fierro, Madrid, 1993 p 266.

(٢٣) الطرطوشى، المصدر السابق، وانظر مختار العبادى، المرجع السابق، ص ١

العريقة، وإنما أصبح له قبول واسع النطاق لدى الشعب وأهل الفن والأدب، وامتثل بعض علماء الأندلس البارزين في علوم الحكمة علماء المشرق فى الاهتمام بفن الغناء والموسيقى، وكما ظهر بين علماء المشرق الإسلامي من اهتم بالكتابة فى فن الغناء والموسيقى أمثال أبو الفرج الأصفهاني والفارابى والسرخسى وثابت بن قرة والرازى وقسطا بن لوقا البعلبكى والحسن بن موسى النصيبى وأبو أيوب سليمان المدينى ومنصور بن طلحة وعلى بن يحيى بن ابى منصور وابناه يحيى وهارون[٢٤]، نجد فريقاً من علماء الأندلس وبعض الشخصيات البارزة في المجتمع الأندلس يهتمون بالتأليف في فن الغناء والموسيقى نذكر منهم أسلم بن عبد العزيز الذى بالإضافة إلى كونه أحد المتميزين من أهل الفقة والأدب، كان ذا معرفة بالأغاني وتصرفها، فكان على حد قول ابن حزم صاحب تواليف فى طرائق غناء زرياب وأخباره «وهو ديوان عجيب جداً»[٢٥]. ومنهم أيضاً أبو الصلت أمية بن أبى الصلت الأشبيلى (تـ ٥٢٨ هـ) الذى صنّف فى الطب والتنجيم والألحان[٢٦] وعنه أخذ أهل افريقية الألحان أثناء اقامته الطويلة فى كنف الزيريين، ويقول عنه ابن ابى أصيبعة «كان من أكابر الفضلاء فى صناعة الطب وفى غيرها من العلوم وله التصانيف المشهورة والمآثر المذكورة،... وكان أوحد فى العلم الرياضى متقناً لعلم الموسيقى وعمله، جيد اللعب بالعود» وكان من بين مؤلفاته العديدة رسالة فى الموسيقى[٢٧]، ومنهم عبد الوهاب بن الحسين الحاجب، وكان من أشهر المغنين ضاربى العود وصانعى الألحان، وكان أعلم الناس بضرب العود واختلاف طرائقه، وصنعة اللحون. ويقول عنه ابن الرقيق أنه كثيرا ما كان يقول المعانى اللطيفة فى الأبيات الحسنة ويصوغ عليها الألحان المطربة البديعة المعجبة اختراعاً منه وحذقاً[٢٨]. ومنهم أيضاً عباس بن فرناس الذى أبدع فى فنون الموسيقى وحذقها

---

(٢٤) فارمر، تاريخ الموسيقى العربية، ص ١٩٤ - ٢٠١.

(٢٥) ابن حزم، طوق الحمامة، ص ٣٠٠.

(٢٦) ابن سعيد، المصدر السابق، جـ١، ص ٥٧ - المقرى نفح الطيب، جـ٢، ص ٣٠٨. وينسبه ابن ابى اصيبعة الى دانية (ابن ابى اصيبعة، المصدر السابق) ص ٥٠١

(٢٧) ابن ابى اصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، ص ٥١٥.

(٢٨) المقرى، نفح الطيب، جـ١، ص ١٨٠، ١٨١.

إلى أن عانى ضرب العود وصوغ اللحون وأدناه الأمير محمد منه ورفع من منزلته، وكان عباس على حدقول معاوية ابن هشام الشبنيسى يصنع له قطعاً من رقيق الأشعار تنتظم بمدحه، وتصوغ قيانه فيها الألحان فيغنيه بها[٢٩]. ونضيف إلى هؤلاء الذين ذكرناهم أبا الحسين بن الحسين بن الحاسب الذى رزق فى علم الموسيقى ذوقاً مع صوت بديع، وكان شيخاً لأبى الحسين بن الوزير أبى جعفر الوقشى[٣٠]، وكذلك أبا الفضل حسداى ابن يوسف بن حسداى الطبيب والموسيقى (توفى بعد ٤٥٨ هـ) الذى برع فى علم العدد والهندسة والتنجيم وصناعة الموسيقى[٣١] ومنهم أيضاً أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة الغرناطى، الذى كتب فى علم الموسيقى، وكان فى المغرب على حد قول ابن حزم بمنزلة أبى نصر الفارابى بالمشرق، وإليه تنسب الألحان المطربة بالأندلس التى عليها الاعتماد[٣٢]، وكان متقناً لصناعة الموسيقى مجيداً فى اللعب بالعود[٣٣]، وله رسالة فى التلاحين الموسيقية، ما زال قسم منها مخطوطاً فى مكتبة بودليانا باكسفورد تحت رقم ٢٠٦ بوكوك[٣٤]. ومنهم أيضاً يحيى الخدج المرسى الذى صنف كتاباً فى الأغانى الأندلسية على غرار كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى[٣٥]. ومن علماء الموسيقى فى الأندلس أبو عامر محمد بن الحمارة الغرناطى تلميذ أبى بكر محمد بن باجة الذى كان إماماً فى الأندلس فى الألحان

---

(٢٩) ابن حيان، المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس، تحقيق د. محمود على مكى (قطعة خاصة بالسنوات الأخيرة من عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط وعصر الأمير محمد)، بيروت، ١٩٧٣، ص ٢٧٩ - ٢٨٥.

(٣٠) المقرى، نفح الطيب، جـ٥، ص ٢٧٣.

(٣١) ابن ابى اصيبعة، المصدر السابق، ص ٤٩٩.

(٣٢) المقرى، المصدر السابق، جـ٤، ص ١٧٦.

(٣٣) ابن ابى اصيبعة، المصدر السابق ، ص ٥١٥.

(٣٤) Curz Hernandez, op. cit, p 437.

(٣٥) المقرى، المصدر السابق، جـ٤، ص ١٧٦.

واشتهر عنه أنه كان يعمد إلى الشعراء فيقطع العود بيده ثم يصنع منه عوداً للغناء وكان ينظم الشعر ويلحنه ويغني به فيطرب سامعيه(٣٦).

(١)

الغناء والطرب فى الأندلس فى عصر الدولة الأموية

أ- فى عصر الإمارة:

اعتمد أمراء بنى أمية في الأندلس فى فنون الغناء والموسيقى على مدرسة المدينة، فكانوا يجلبون القيان المجيدات لفنون الغناء والطرب على العود من المدينة التى كانت مركزاً هاماً لهذه الفنون بفضل انتجاع المغنين من الفرس والروم إليها فى أعقاب حركة الفتوح، وأصبحوا موالى للعرب، وغنوا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزاه[illegible]هر منهم فى المدينة نشيط الفارس وطويس وسائب جاثر، وعنهم أخذ معبد وطبقته وابن سريج ونظرائه(٣٧). ففى الفترة من قيام الدولة الأموية على يد عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل (سنة ١٣٨هـ) إلى بداية عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (فى سنة ٢٠٦هـ) كان جل من وفد إلى الأندلس من المغنين والمطربين المشارقة ينتمون إلى مدرسة المدينة، فكانت لعبد الرحمن الداخل قينة مدينة تسمى غفرة كانت تغنى على العود(٣٨)، كما ابتيعت له جارية بارعة فى فن الغناء تسمى العجفاء حملت إليه من المدينة(٣٩). ومن الداخلات فى الأندلس من المغنيات المدنيات فضل المدينة، وقلم المدينة، وهذه الأخيرة كانت أندلسية الأصل من سبى البشكنس حملت صبية إلى المدينة حيث

(٣٦) ابن سعيد، المغرب فى حلى المغرب، جـ٢، ص ١١٩، المقرى، نفح الطيب، جـ٥، ص ٢٧٥.

(٣٧) ابن خلدون، المقدمة، جـ٣، ص ٩٧٠.

(٣٨) فارمر، تاريخ الموسيقى العربية، ص ١١٧.

(٣٩) المقرى، المصدر السابق، جـ١، ص ١٣٩.

تعلمت الغناء وحذقته، وابتيعت إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط الذى خصص لهن ولأخريات مدنيات داراً عرفت بدار المدنيات بقصر الإمارة بقرطبة، وكان يؤثرهن لجودة غنائهن(٤٠).

وفى عهد الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بدأ فن الغناء والموسيقى يشغل مكانة سامية فى البلاط الأميرى ، وفى عهده دخل الأندلس علون وزرقون، فنالا من الشهرة ما رفع من قدرهما، فنفقا على الأمير الحكم، وانضما إلى طائفة من الموسيقيين بالبلاط الأميرى على رأسهم العباس بن النسائى ومنصور اليهودى(٤١) ، وهذا الأخير أوفده الأمير الحكم إلى المغرب لاستدعاء زرياب الى قرطبة(٤٢) ، فما كاد يجتاز بصحبته الزقاق إلى الجزيرة الخضراء حتى وافته الأخبار بوفاة الأمير الحكم الربضى فى سنة ٢٠٦ هـ، فهم بالعودة إلى المغرب، ولكن منصور اثناه عن ذلك ورغبة فى قصد الأمير عبد الرحمن الأوسط بن الحكم، فكتب إليه بخبر زرياب، فجاءه كتاب الأمير يذكر فيه ترحيبه بزرياب وتطلعه إليه(٤٣) ، فقد كان عبد الرحمن صبياً بالغناء مولعاً بالسماع مقدماً له على جميع لذاته(٤٤)، كما كان يتوق إلى سماع غناء أو أحد من أشهر تلاميذ اسحق الموصلى وأكثرهم حذقاً فى الغناء على العود. ولسنا بصدد الحديث عن زرياب فيكفى ما كتب عنه فى كثير من المصادر العربية والمراجع الحديثة حتى أصبح المزيد من الكتابة عنه يثير الملل ولا يتضمن الجديد فيما يتعلق بابتكاراته الزريابية.

---

(٤٠) المقرى ، نفس المصدر، جـ٤، ص ١٣٦.

(٤١) فارمر، المرجع السابق، ص ١١٧.

(٤٢) فارمر، نفسه، ص ١٥٤.

(٤٣) المقرى، المصدر السابق، جـ٤، ص ١٢٠.

(٤٤) مجهول، ذكر بلاد الأندلس، نشر لويس مولينا، ص ١٤٤. وقد أخطأ ابن خلدون إذ ذكر ان زرياب لحق بالحكم بن هشام (مقدمة ابن خلدون)، ص ٩٧١.

(٤٥) ابن حيان، المقتبس، القسم الخاص بعبد الرحمن الأوسط وابنه محمد، تحقيق د. محمود على مكى، ص ٥٤٩.

وتتلمذ على زرياب ابناؤه الذكور الثمانية (عبد الرحمن ومحمد والقاسم وعبد الله ويحيى وجعفر وأحمد وحسن) وبنتاه علية وحمدونة[٤٥] التي تزوجها الوزير هاشم بن عبد العزيز، وتفوقت على أختها علية في الغناء، وقد مارس كل بنيه صناعة الغناء، وكان قاسم أحذقهم غناء[٤٦]، وبرزت من جواريه في فن الغناء والطرب غزلان وهنيدة، وكانتا تأخذان عودهما ويطارحهما بعوده، وكذلك اشتهرت من تلميذاته أيضاً مصابيح جارية الكاتب أبي حفص عمر بن قلهيل، وكانت في غاية الاحسان وطيب الصوت[٤٧]، وكذلك متعة التي علمها افضل اغانيه وأهداها زرياب للأمير عبد الرحمن فحظيت عنده[٤٨].

ومما لاشك فيه أن الفن الموسيقي الذي أدخله زرياب الأندلس كان فناً بغدادياً اختص به البلاط الأموي الأندلسي، ودعم هذه الموسيقى الشرقية البغدادية مغنيات قدمن من بغداد أو غيرها من بلاد المشرق منهن قمر البغدادية جارية أبي اسحق ابراهيم بن حجاج الثائر باشبيلية، ابتاعها من بغداد بأموال طائلة[٤٩]. وكانت قمر تحسن صوغ الألحان. كذلك دعمها وفود بشارة الزامر وكان من حذاق زمرة المشرق ويقول عنه المقري «كان بعيد الهمة سمحاً بما يجد، تغل عليه ضياعه كل عام أموالاً جليلة، فلا تحول السنة حتى ينفذ جميع ذلك ويستلف غيره، فمن وصله منهم استقبله بصنوف البر والأكرام وكساه وخلطه بنفسه، ولم يدعه إلى أحد من الناس[٥٠].

---

(٤٥) ابن حيان، المقتبس، القسم الخاص بعبد الرحمن الأوسط وابنه محمد، تحقيق د. محمود علي مكي، ص ٥٤٩.

(٤٦) المقري، المصدر السابق، جـ٤، ص ١٢١ - ١٢٦

(٤٧) المقري، نفسه، ص ١٢٧

(٤٨) نفسه، ص ١٢٧.

(٤٩) ابن عذاري، البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب، نشر دار الثقافة ببيروت ١٩٦٧، حـ٢، ص ١٣٨ - المقري، نفسه، جـ٤ ص ١٣٧

(٥٠) المقري، المصدر السابق، جـ١، ص ١٨١

ومن الوافدين من مصر من المغنين، المغنى عبد الواحد بن يزيد الاسكندرانى الذى قدم إلى الأندلس وهو حدث متظرف يحسن الغناء، ولزم عيسى بن شهيد حاجب الأمير عبد الرحمن الاوسط ولكنه أمسك عن الغناء بعد فترة قصيرة من اقامته بالأندلس امتثالاً لنصح الحاجب عيسى بن شهيد الذى أوصله إلى الأمير عبد الرحمن، فرفع منزلته، ونادمه وأنس به واستخدمه حتى قلده منصب الوزارة والقيادة(٥١).

ونستخلص مما أورده المؤرخون عن التلاحين الغنائية الزريابية، إذا صح تسميتها بهذا المسمى، بأنها تتميز بالإبهار الذى جعل الأمير عبد الرحمن بعد أن سمع غناء زرياب لأول مرة - يطرح كل غناء سواه، ويقدمه على سائر من لديه من المغنين. وكان طبيعياً أن تتأثر هذه الموسيقى الشرقية بمرور الزمن بالموسيقى المحلية التى كانت شائعة عند المستعربين، وما أدخله البربر من موسيقاهم المغربية، حتى تخرج من نطاق الموسيقى البلاطية، وتتغلغل بعمق فى المجتمع الأندلسى فى القرنين الرابع والخامس للهجرة(٥٢)، وتتباعد تدريجياً عن التقاليد الشرقية البغدادية لاسيما بعد أن ابتكر أهل الأندلس الموشحات والأزجال، وظهرت فى قرطبة فى عهد المنذر مغنية بارعة الحسن اسمها طرب عرفت بحسن غنائها(٥٣)، كما اشتهرت فى عهد الأمير عبد الله جارية حسنة الصوت تسمى جيحان، هام بها الأمير عبد الله قبل توليه الإمارة(٥٤). ومن الشهيرات فى فن الغناء من الجوارى أمهات ولد لأمراء الأندلس غزلان أم

---

(٥١) ابن حيان، المقتبس تحقيق د. مكى، ص ٣٠.

(٥٢) Cruz Hernandez, op. cit, p 443

(٥٣) المقرى، نفح الطيب، جـ٥، ص ١١٦.

(٥٤) ابن حيان، المقتبس فى تاريخ الأندلس، تحقيق د. اسماعيل العربى، المغرب، ١٩٩٠، ص ١٤٧ - ابن الابار، الحلة السيراء، تحقيق د. حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣، جـ١، ص ١٥٧

المطرف بن الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط، وكانت مغنية بديعة محسنة عوادة أدبية، كما كان لمحمد بن الأمير المنذر جارية مغنية تسمى الأراكة[٥٥].

وممن أشتهر من المغنين فى عصر الإمارة عباس بن فرناس الذى كان يحضر مجالس الأندلس التى كان يعقدها الأمير محمد بن عبد الرحمن فى خاصته، فكان يغنيه بعوده أشعاراً فى مدحه[٥٦]. ومن بين الموسيقيين الذين حذقوا الغناء على نغمات الآلات الموسيقية المختلفة كالعود والمزمار، شرحبيل الزامر، وكان أثيراً لدى الأمير محمد[٥٧].

وبرز من بين الأمراء الأمويين فى عصر الإمارة ممن كانوا يجيدون الغناء ويحذقون الضرب بالعود أو النفخ بالمزمار، عبد الله بن الأمير عبد الرحمن الأوسط من جاريته طروب، وكان يعقد مجالس الطرب فى داره المطلة على باب القنطرة من مدينة قرطبة حيث كان لا يسمع سوى الغناء والزمر[٥٨]. وكان الأمير المطرف بن [illegible] محمد بن عبد الرحمن الأوسط مولعاً بالسماع، متمناً فى محسنات القيان، وكان يحسن الضرب بالعود ويصوغ عليه أصواتاً رائعة، وأحدث لنفسه طريقة حسنة حملها المغنون عنه، وكانوا يعزونها إليه[٥٩]، وكان على حد قول معاوية ابن هشام الشبينسى أكلف ولد الأمير محمد بالأدب وافضلهم فى صوغ الشعر وأكثرهم اقبالاً على السماع، وأبصرهم بالموسيقى، وأجمعهم لمحسنات القيان[٦٠]. وكان عثمان وابراهيم ولدا الأمير محمد بن عبد الرحمن حاذقين لفن الغناء[٦١].

---

(٥٥) المقرى، نفح الطيب، جـ٥، ص ١٢٠.

(٥٦) ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. مكى، ص ٢٧٩ : ٢٨٠.

(٥٧) ابن حيان المصدر السابق، ص ١٥٠.

(٥٨) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، نشر وتحقيق دون خليان ريبيرا ،مدريد، ١٩٢٦ ص ٨٠.

(٥٩) ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. محمود مكى، ص ٢٠٥، ٢٠٨.

(٦٠) ابن حيان المصدر السابق، ص ٢٤٠ - ابن حزم، جمهرة انساب العرب، تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٧١، ص ٩٩.

(٦١) ابن حزم، المصدر السابق، ص ٩٩.

ب- فى عصر الخلافة:

ازدهر فن الغناء والموسيقى فى الأندلس فى عصر الخلافة، فعبد الرحمن الناصر رغم المشكلات السياسية التى كان يعانيها فى مستهل توليه الإمارة إلى أن تلقب بألقاب الخلافة ثم اشتغاله بمواجهة الفاطميين الذين كانوا يتهددون الأندلس بغاراتهم على سواحله الجنوبية، ورغم اشتغاله فى أوقات السلم بالبناء والتعمير، كان يختلس من وقته ما يتيح له امتناع نفسه بسماع بعض المغنيات من جواريه، فكان بطبعه ميالاً لسماع الغناء مهتماً رغم اعبائه الثقيلة فى الداخل والخارج باجتلاب عدد من المغنيات من المشرق بدليل أنه سيّر فى سنة ٣٤٤ هـ سفينة إلى الإسكندرية عادت مشحونة بعدد من الجوارى والمغنيات(٦٢).

وكانت زوجته السيدة القرشية الحرة، فاطمة بنت المنذر، عم أبيه، ولكنه كان يؤثر عليها مرجان أم ولده وولى عهده الحكم، التى عرفت بالسيدة الكبرى، وكان السبب فى ذلك حسبما أورده ابن حيان أنه انفرد يوماً لراحته فى بعض رياض القصر بمن استدعى من جواريه، فقضى وقتاً مليئاً باللهو والطرب، ثم تاق إلى رؤية زوجته الحرة السيدة القرشية التى كان قد تزوجها عندما آلت إليه الإمارة سنة ٣٠٠ هـ وحظيت عنده، وأنجب منها ولده أبا الحكم المنذر، فأمر وصيفة من وصائفه باستدعائها فانطلقت الوصيفة إلى دار الحرة فأبلغتها رسالة عبد الرحمن الناصر لها، وكان يلتف حولها جماعة من كرائم الخليفة الناصر وأمهات أولاده فيهن مرجان أم الحكم ولى العهد فنهضت مرجان وتناولت العود وقرعته مغنية ببيت شعر سنح لها نصّه.

يا ليلة لو أنها تبتاع لى أو تشترى ∴ شريتها بكل ما أطلبه من المنى

---

(٦٢) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، طبعة ليدن، ١٨٦٧، حـ٨، ص ٥١٣ - أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر، طبعة بيروت، ١٩٥٦ - ١٩٥٩، جـ٣، ص ١٢٧

وأخذت تعيد غناء البيت، فقالت لها القرشية الحرة «ويحك يا مرجان!! لقد أفرطت في إطرابي هذه الليلة وذلك من فرط صلفك ومجونك» وطلبت منها القرشية أن تعطيها مقابل ذهابها بدلاً منها عشرة آلاف دينار، فأحضرت لها مرجان ما طلبته من الدنانير مقابل تخليها عن الدعوة، واشترطت عليها أن تخط بيدها ما حدث بينهما ثم انصرفت مرجان بالرقعة إلى دارها، ثم جلست في طريق الخليفة إلى دار القرشية، فلما شاهدته مقبلاً نهضت من جلستها وأخبرته بما فعلته زوجته الحرة القرشية، وأبرزت له مرجان الرقعة التي سجلت عليها اسماء الشاهدات، فاستاء الخليفة الناصر من صنيع زوجته القرشية، ورأى أن مرجان أحق منها بأن تكون سيدة نسائه وكبرى حظاياه وقيّمة قصره، وزادت منزلتها عنده حتى ملكت زمام قيادة(٦٣).

ويبدو أن قصر الخلافة بمدينة الزهراء كان يموج بالجواري والقيان، وان عدداً كبيراً منهن كن من المغنيات المجيدات لفن الغناء، وقد أثر وجودهن بالقصر بهذه الكثرة في اقبال بعض ابناء الناصر على مشاركتهن في الغناء وشغفهم بسماعهن، بدليل أن عدداً من هؤلاء الأبناء كان مولعاً بهذا الفن، نذكر منهم على سبيل المثال الأمير عبد العزيز ابن الناصر، ويذكر ابن سعيد أنه كان مغرماً بالشراب والغناء فترك الخمر لبغض أخيه الحكم (ولي العهد) لها، وكان الحكم يقول: لو ترك الغناء لكمل سروره، وكان جواب عبد العزيز «والله لا تركته حتى تترك الطيور تغريدها» ثم أنشد قائلاً:

أنا في صحةٍ وجاه ونُعمى ∴ هي تدعو للذة الألحان
وكذا الطير في الحدائق تشدو ∴ للذي سر نفسه بالقيان(٦٤)

وكانت جعفر التي عرفت بالسيدة صبح زوج الحكم المستنصر بالله

---

(٦٣) ابن حيان، المقتبس، الجزء الخامس، تحقيق د. بدرو شالميتا ود. كورينطي ود. صبح، مدريد، ١٩٧٩، ص ٥ - ١٣.

(٦٤) ابن سعيد، المصدر السابق، جـ١، ص ١٨٤، ترجمة ١٢١

مغنية[٦٥] حظية عند الحكم رغم ولعه بالعلوم والآدراب واستغراقه جل وقته فى قراءة المصنفات، وعزوفه عن المباذل ومجالس اللهو، وعندما أنجبت له ولده عبد الرحمن فى سنة ٣٥١هـ أصبحت أم ولده، ولم تمض خمس سنوات على ولادته حتى توفى فى سنة ٣٥٦ هـ، فحزن الحكم لوفاته، وكانت صبح قد أنجبت له ولداً آخر فى سنة ٣٥٤ سماه هشاماً، سرّبه[٦٦] وقرت له عينه به فولاه العهد من بعده.

وكان هشام صبياً عندما بويع بالخلافة فى سنة ٣٦٦ هـ ولقب بهشام المؤيد بالله، وكان قد نشأ بين حريم البلاط والجوارى، الأمر الذى هيأ للحاجب المنصور محمد بن أبى عامر أن يستبد بالحكم، وكان المنصور رغم مشاغله الكثيرة وما عرف منه من جدية وصراحة يقبل فى بعض الأحيان على عقد مجالس الطرب فى منية السرور بمدينة الزهراء، وكانت تغنيه من جواريه جارية تسمى أنس القلوب[٦٧]. وذكر ابن بسام أن أبا العلاء صاعد بن الحسن بن عيسى البغدادى كان فرداً فى علم الموسيقى حاذقاً للضرب على العود، وأنه تناول العود يوماً فى حضرة المنصور بن ابى عامر وجس أوتاره وسوى تسوية أطربت ابن ابى عامر، واندفع ينشده بيتى مجنون بنى عامر:

أبى القلبُ إلا حبّها عامّرية ∴ لها كنية عمرو وليس لها عمرو

تكاد يدى تندى إذا ما مالمستها ∴ وينبت فى أطرافها الورق الخضر[٦٨]

ومع ذلك فقد كان يتوقع أن تنهار القيم من بعده، ويجنح من يخلفه فى الحجابة من بنيه إلى اللهو والمجون، فقد دكر ابن الكردبوس أنه قال لكوثر الفتى الصقلبى ساعة احتضاره «وها أنذا هالك، وليس فى بنىّ من يخلفنى،

---

(٦٥) ابن عدارى، البيان المغرب، جـ٢، ص ٢٥٣ - مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٧٤.

(٦٦) ابن عذارى، المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٣٥

(٦٧) المقرى، نفح الطيب، جـ٢، ص ١٤٦

(٦٨) ابن بسام، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، قسم ٤، مجلد ١، ص ٣٠، ٣١.

وسيشتغلون باللهو والطرب والشرب»[٦٩]. وصح ما توقعه المنصور فعندما خلف عبد الرحمن شنجول أخاه عبد الملك فى الحجابة، افتتح عهده بالخلاعة والمجون، فكان يخرج من منية إلى منية ومن متنزه إلى متنزه مع الخيالين والمغنين والمضحكين[٧٠].

وممن اشتهر بالمجون واللهو والشغف بالطرب فى عصر الفتنة التى أعقبت مصرع شنجول، محمد بن هشام بن عبد الجبار، وكان مغرماً باللهو واستعمل له مائة بوق للزمر ومائة عود للضرب، وكانت لديه من الجوارى المغنيات جارية أبى القاسم المصرى الخيالى المسماة بستان، وامرأة ابن الشرح التى تسمى واجد[٧١]. وكان الخليفة الأموى المعتد بالله هشام بن محمد يعرف بولعه باقتناء الجوارى المغنيات وقد أعد له وزيره حكم بن سعيد القزاز عدداً كبيراً من القينات والملهيات[٧٢].

(٢)

فن الغناء والموسيقى فى عصر دويلات الطوائف

تعرض فن الغناء والموسيقى بعد سقوط الخلافة الأموية فى سنة ٤٢٢ هـ وقيام دويلات الطوائف لتطور واسع النطاق نتيجة لظهور الموشحات والأزجال أو ما يعرف بالشعر الشعبى الأندلسى[٧٣]. ومن المعروف أن الموشحات الأندلسية

---

(٦٩) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، تحقيق د. أحمد مختار العبادى، مدريد، ١٩٧١، ص ٦٥.

(٧٠) ابن عذارى، البيان المغرب، جـ٣، ص ٧٩.

(٧١) المصدر السابق، ص ٨٠.

(٧٢) نفسه، ص ١٤٩.

(٧٣) عن شعر الموشحات والأزجال ارجع إلى: ابن بسام، الذخيرة، القسم الأول - ابن سعيد المغرب فى حلى المغرب - ابن عبد ربه، العقد الفريد - ديوان ابن قزمان، مخطوطة (نسخة مصورة) رقم ١٥١٣ أدب، دار الكتب المصرية - عبد العزيز الأهوانى، الزجل فى الأندلس=

ابتكرها مقدم بن معافى اعمى قبرة فى قول، أو محمد بن محمود القبرى الضرير فى قولٍ آخر، والموشحة والزجل تجيز للشاعر أن يستخدم بحوراً غير بحور العروضيين، ويخالف بين القوافى فى القصيدة الواحدة، ووجه الاختلاف بينهما أن الموشحة تصاغ بلغة فصيحة بينما يُصاغ الزجل بلغة دارجة ملحونة، كما أن الموشحة تنتهى عادة ببيتين يعرفان بالخرجة، يصوغهما الوشاح فى لغة دارجة أو رومانسية، وكان يقصد بالموشحة أو الزجل الغناء، فكان المغنون والمغنيات يعتمدون على الوزن فى تجزئة اللحن وتقسيمه(٧٤)، وقد ربط اخوان الصفا بين مقاييس الغناء وأوزان الشعر، وقالوا «ان قوانين الموسيقى مماثلة لقوانين العروض»(٧٥). وكانت مجالس الغناء بهذا الشعر الغنائي الشعبى تعتمد على جوقة مؤلفة من عواد وزامر فى الناى أو المزمار، وضارب على الدف أو بالصنوج، ويبدأ المغنى غناءه بالمطلع، ويواصل غناءه للأغصان الثلاثة، فإذا بلغ الجزء الرابع المعروف بالسمط والذى تتفق قافيته المطلع، رددته معه البطانة.

ويعتقد الأستاذ رامون مننديث بيدال أن الزجل هو حلقة الاتصال بين الموسيقى الاسبانية الحالية والموسيقى الايبيرية فى التراث اليونانى واللاتينى(٧٦).

= القاهرة، ١٩٥٧ - مصطفى الكريم، فن التوشيح، بيروت، ١٩٥٩ - سيد مصطفى غازى، فى أصول التوشيح، الاسكندرية، ١٩٧٦ - جودة الركابى، فى الأدب الأندلسى، دمشق ١٩٥٥ - عبد الرحمن الحجى، تاريخ الموسيقى الأندلسية: أصولها، تطورها، أثرها على الموسيقى الأوروبية، بيروت، ١٩٦٩ - السيد عبد العزيز سالم، تأثير الأزجال الأندلسية فى الشعر الغنائى الأوروبى، كتاب الشعب، عدد ٥٦٤ - ليفى بروفنسال، الاسلام فى المغرب والأندلس، ترجمة السيد عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمى، القاهرة، ١٩٥٨.

(٧٤) سيد مصطفى غازى، فى أصول التوشيح، ص ٤٢.

(٧٥) رسائل اخوان الصفا، تحقيق خير الدين الزركلى، القاهرة، ١٩٢٨، جـ١، ص ١٤٤.

(٧٦) ليفى بروفنسال، الاسلام فى المغرب والأندلس، ص ٢٨٠ - ٢٨٢ - سيد مصطفى غازى، فى أصول التوشيح، ص ٤٦.

وافتتن أهل الأندلس بالشعر الشعبي الذى يصاغ بلغته العامية أو تقتصر خرجاته على العامية أو الرومانسية (الأعجمية)، ونظموا فيه أغانيهم الشعبية وأخضعوها لمطالب البيئة التي يحيون فيها، وأخذوا يرددونها في الأعراس والأعياد[٧٧].

وعلى هذا النحو شاع تلحين الأزجال والموشحات في الأندلس في عصر دويلات الطوائف لملاءمتها لأذواق عامة الناس، وأصبح يتغنى بها الخاص والعام، في هذا العصر الذى ساد فيه السفه واللهو، وأهدرت القيم الرفيعة وأقبل ملوك الطوائف على المجون والعبث وعكفوا على الشراب والمغاني والعيدان[٧٨] فكان منذر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة يميل للتبذل ويكثر من اتخاذ الجوارى[٧٩]. وكان ابو محمد هذيل بن خلف بن لب بن رزين المعروف بابن الأصلع صاحب السهلة يميل إلى اللهو واكتساب الآلات، وذكروا أنه كان «أول من بالغ الثمن بالأندلس في شراء القينات، اشترى جارية أبي عبد الله المتطبب ابن الكتاني بعد أن أحجمت الملوك عنها لغلاء سومها. فأعطاه فيها ثلاثة آلاف دينار فملكها، وكانت واحدة القيان في وقتها لا نظير لها في مغناها، لم ير أخف منها روحاً،ولا أملح حركة ولا ألين اشارة، ولا أطيب غناء ولا أجود كتابة، ولا أملح خطاً ولا أبرع أدباً ولا أحضر شاهداً على سائر ما تحسنه وتدعيه مع السلامة من اللحن فيما تكتبه وتغنيه الى الشروع في علم صالح من الطب ينبسط بها القول من المدخل إلى علم الطبيعة وهيئة تشريح الاعضاء «الباطنة» وغير ذلك مما يقصّر عنه كثير من منتحلى الصناعة إلى حركة بديعة في معالجة الثقاف والمجاولة بالجحفة، واللعب بالسيوف والأسنّة والخناجر المرهفة، وغير ذلك من أنواع اللعب المطربة لم يسمع لها بنظير ولا مثيل ولا عديل، وابتاع إليها كثيراً من المحسنات المشهورات بالتجويد طلبهن بكل جهة، فكانت ستارته ذاك أرفع ستائر الملوك بالأندلس»[٨٠].

---

(٧٧) سيد مصطفى غازى، المرجع السابق، ص ٨٨، ٨٩

(٧٨) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس، ص ٨٩.

(٧٩) ابن بسام، الذخيرة، قسم ١، مجلد١، ص ١٨١

(٨٠) ابن بسام، المصدر السابق، ق٣، م١، ص ١١٢ – ابن عذارى، البيان المغرب، حـ٣، ص ٣٠٨

وكان لدى المعتضد بالله بن عباد ملك اشبيلية مغن مشهور يعرف بالمغنى السوسى[٨١] يتضح من اسمه أنه من بلاد السوس فى أرض المغرب، وذكروا أن المعتضد بالله انتهز فرصة وفاة ابن الرميمى الوزير، واجتلب قينته من قرطبة لما وصفت له بالحذق فى صنعتها، فوجهت نحوه. وقلده المظفر ابن الأفطس ملك بطليوس وخصمه اللدود فى التماس شراء وصائف ملهيات يأنس بهن، فاشترى صبيتين ملهيتين من قرطبة[٨٢]. وكان المعتمد على الله بن المعتضد بالله بن عباد شغوفا بالسماع والطرب، وكانت له من الجوارى جوهرة ووداد[٨٣]، كما أهداه يوسف بن تاشفين جارية مغنية نشأت بالعدوة من أرض المغرب، وجاء بها إلى[٨٤] اشبيلية. وبرز فى مجالس الطرب التى كان يعقدها ولده الرشيد، المغنى أبو بكر الأشبيلى[٨٥].

وظهرت فى بلاط المعتصم بن صمادح ملك المرية جارية أندلسية مغنية هى غاية المنى[٨٦]، وكانت لأبى محمد عبد الله بن مسلمة الشاطبى مغنية تغنى على ألحان عودها يقال لها هند[٨٧]. واتخذ الوزير الشاعر أبو الوليد بن زيدون جارية مغنية تسمى عتبة[٨٨]. وكان أبو جعفر أحمد بن عبد الله الشاعر المعروف بأعمى تطيلة متيماً بحب مغنية تسمى «لذيذة» أنشد فيها كثيراً من أشعاره، ومما قاله فيها:

---

(٨١) المقرى، نفح الطيب، جـ٥، ص ٢٣٥.

(٨٢) ابن عذارى، المصدر السابق، جـ٣، ص ٢١٢.

(٨٣) المقرى، المصدر السابق، جـ٥، ص ٢٣٢.

(٨٤) المقرى، نفسه، جـ٦، ص ١٢.

(٨٥) ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج١، ص ٣٨٥ - المقرى، نفح الطيب، جـ٦، جـ٨

(٨٦) المقرى، المصدر السابق، جـ٦، ص ٢٢.

(٨٧) نفسه، ص ٢٩

(٨٨) ابن بسام، الذخيرة، ق١، م١، ص ٤٣١.

غنت فلوان ميتاً كان يسمعها ∴ لعاد حيا كأن لم يرّد يوم ردى(٨٩)

وكان الجغرافى الأندلسى المشهور أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز البكرى مولعاً بالغناء والشراب، وفى ذلك يقول:

خليلىّ انى قد طربت على الكاس ∴ وتُقتُ إلى شم البنفسج والآس
فقوموا بنا نلهو ونستمع الغنا ∴ ونسرق هذا اليوم سراً من الناس(٩٠)

(٣)

مجالس الطرب فى حواضر الأندلس

كان امراء بنى أمية فى الأندلس يعقدون فى قصرهم بقرطبة وما يحف بها من منيات ومتنزهات مجالس للغناء والموسيقى يشهدها الندماء من الوزراء والأعيان وأصحاب ...رطة والشعراء، فكان الأمير محمد بن عبد الرحمن يجمع لفيفاً من هؤلاء الندماء، ويأمرها بمراتب الغناء وآلات الصهباء(٩١) على نغمات البوق والدف والمزمار، وكان فى خدمته عدد من المهرة فى استخدام البوق(٩٢). ويذكر ليفى بروفنسال أن الأمير محمد نفسه كان يجيد استخدام البوق، وكان له بوق من الأبنوس المرصع بالذهب والأحجار الكريمة(٩٣). وتتمثل هذه

(٨٩) المصدر السابق، ق ٢، م٢، ص ٧٣٨.

(٩٠) ابن الأبار، الحلة السيراء، ص ١٨٧ ويعتقد د. حسين مؤنس ان هذه الابيات لعبد الله بن عبد العزيز المروانى.

(٩١) المقرى، نفح الطيب، جـ٤، ص ٢٣١.

(٩٢) Rachel Arié, Espana Musulmana, trad. Berta Julia, Barcelona, 1982, p 319.

(٩٣) Lévi- Provençal, Histoire de L'Espagne Musulmane, t. III Leiden, 1954, p 450.

المجالس فى نقوش آدمية محفورة داخل جامات صندوق مس العاج مستطيل الشكل محفوظ فى كاتدرائية بنبلونة، صنع خصيصاً للمظفر عبد الملك بن المنصور محمد بن أبى عامر ففى أحد الجانبين الطويلين من الصندوق ثلاث جامات تمثل مجالس طرب وشراب نشهد فى الجامة الوسطى مجلس غناء وموسيقى من ثلاثة أفراد أوسطهم عواد يجلس القرفصاء ويعزف بيده على عود بينما ينفخ الأيسر فى مزمار ذى فرعين أما الأيمن فقد طمست معالم وجهه بسبب المزلاج الذى يغلق به الصندوق(٩٤).

ومن أمثلة النقوش التى تمثل مجالس الأنس والطرب جامة مفصصة بالعلبة العاجية اسطوانية الشكل المحفوظة بمتحف اللوفر وبداخلها مجلس طرب وشراب أبطاله شخصان يجلسان القرفصاء، الأيمن منهما يمسك بآلة موسيقية لعلها القيثار، والثانى يمسك بيده اليمنى قارورة ويتوسطهما عواد يقف على قدميه يعزف على أوتار عود(٩٥).

ويحتفظ متحف الآثار الأهلى بقرطبة بتاج عمود من الطراز الخلافى المركب يتوسط كل وجه من أوجهه الأربعة نقش بارز يمثل أحد الموسيقيين يقف مواجهاً الناظر إليه ويرتدى قميصاً وسروالاً وقد تشوهت معالم وجهه فى كل نقش من النقوش الأربعة ربما بتوجيه من رجال الفقه، ويتميز أحد النقوش بأن صاحبه يضرب بأوتار عود فى حين تتميز صورته الثانية بأنه يعزف على القيثار(٩٦). كما يحتفظ نفس المتحف بقارورة من الخزف المزجج من عصر الخلافة، عليها رسوم ملونة تمثل رجلاً متقلساً ينفخ بالبوق، وآخر بيده دف(٩٧).

(٩٤) السيد عبد العزيز سالم، تحف العاج الأندلسية فى العصر الإسلامى، الاسكندرية، ١٩٩٥، ص ٥٩، شكل ٢٣.

(٩٥) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٥٢ شكل ١٥.

(٩٦) Al- Ándalus: Las artes islamicas en España, articulo de Renata Holod, en Artes Suntuarias del periodo Califal, Madrid. 1992, p 248.

(٩٧) Ibid, p 233

وفى متحف شاطبة للآثار حوض من الرخام مستطيل الشكل، يرجع تاريخه إلى عصر دويلات الطوائف، نقشت فى جوانبه الأربعة نقوش بارزة يمثل بعضها فى الجانبين الطويلين جوقة من الموسيقيين، أحدهم زامر ينفخ فى مزمار، وآخر عواد يمسك بعود يضرب على أوتاره، وفى جانب آخر صورة رجل يمسك بعود يضرب على أوتاره هذا إلى جانب نقش يمثل زامر يجلس القرفصاء(٩٨).

ويعتبر هذا الحوض أهم أثر اسلامى بالمتحف المذكور، وأبرز الصور المنقوشة فى جوانبه منحوتات تمثل مناظر صيد ونقوش صقور تنقض على غزلان، وصور أسود تفترس غزلاناً، ورجال بأيديهم عصى يرقصون على نغمات الطنبور والمزمار. ويعتقد عالم الآثار الأندلسية مانويل جومث مورينو أن هذه النقوش تمثل على نحو رمزى الاحتفال بعيد الأضحى، وربما دفعه إلى هذا الاعتقاد صور التيوس المتناطحة والماعز التى يحملها رجال أو يسوقونها للذبح، بالإضافة إلى صور الرقص والعزف على العود والطنبور والنفخ بالمزمار(٩٩).

ويذكر ابن حيان أن الوزير هاشم بن عبد العزيز استدعى فرج بن سلام البزاز الراوية الأديب الظريف لكى يأنس به فى مجلس سمر وشراب، عنت فيه احدى قيانه(١٠٠)، ومعظم ما وصلنا فى المصادر العربية عن وصف مجالس الأنس والطرب والرقص يرجع تاريخه إلى عصر الخلافة الأموية وعصر دويلات الطوائف، ومن هذه المجالس مجلس عقده المنصور محمد بن أبى عامر ودعا إليه الندماء والوزراء وبعض الشخصيات الهامة فى الدولة، وكان من بين الحاضرين

---

(٩٨) Ibid. articulo de Cynthia Robinson, Lasartes en los Reinos de Taifas, Lamina 49, p 261, 262.

(٩٩) سحر السيد عبد العزيز سالم، شاطبة الحصن الأمامى لشرق الأندلس فى العصر الإسلامى، الاسكندرية، ١٩٩٥، ص ٣٦٥.

(١٠٠) ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. محمود مكى، ص ١٦٣.

الوزير أحمد بن عبد الملك بن شهيد، وكان يعاني من نقرس لازمه، فحملوه على محفة، وقضى الجميع يوماً لم يشهدوا مثله، وطما الطرب وسما بهم إلى حد أن القوم تصايحوا وأخذوا يرقصون بالنوبة، فلما أتى الدور إلى ابن شهيد أخذه الحماس ونسي أوجاع النقرس، فنهض من مجلسه، وساعده في نهوضه الوزير أبو عبد الله بن عباس، وجعل يرقص وهو متكئ عليه(١٠١).

ويذكر ابن عذارى أن المنصور عقد مجلس طرب في الثالث من شعبان سنة ٣٧٢هـ ضم عدداً كبيراً من علية القوم، وأمر جعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي بأن يسقي الحاضرين، واستخف الطرب بالجميع حتى قاموا يرقصون على نغمات الموسيقى(١٠٢). وجدير بالذكر أنه كان من بين الشخصيات التي كانت تتردد على مجالس الطرب التي يعقدها المنصور، أبو مضر محمد بن الحسين التميمي الطبني الشاعر وأبو بكر عبد الله بن أبي الحسن، والشاعر أبو عبد الله محمد بن شخيص(١٠٣). وكان الوزير الحائك حكم يكثر من تقديم مجالس الطرب للخليفة هشام المعتد، ويعد له القينات والملهيات والمغنيات(١٠٤).

ومن مجالس الطرب والغناء التي كانت تعقد في عصر الطوائف، مجلس عقده المستعين بالله بن هود على مركب يسير بنهر سرقسطة وقد حفت بمركبه الزوارق، واجتمع له من أصحابه من اختصه لاستصحابه، وفيهم الوزير الكاتب أبو الفضل بن حسداي، وقد أحضر المستعين الكثير من آلات ايناسه، وعلت نغمات الأوتار، وطرب لسماعها الحاضرون(١٠٥). ولما أعرس المستعين

(١٠١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، م١، ص ٢٧، ٢٨ - المقرى، المصدر السابق، جـ٤، ص ٢٤٣، ٢٤٤

(١٠٢) ابن عذارى، البيان، المغرب، جـ٢، ص ٢٨٠

(١٠٣) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، جـ١، ص ٢٠٢

(١٠٤) ابن بسام، الذخيرة، قسم ٣، مجلد١، ص ٥٢٥

(١٠٥) الفتح بن خاقان، قلائد العقيان في محاسن الأعيان، تحقيق محمد العنابي، تونس، ص ٢١١ - المقرى، نفح الطيب، جـ٢، ص ١٦٧

بالله بن هود ببنت الوزير أبى بكر بن عبد العزيز احتفل أبوه المؤتمن بالله فى ذلك احتفالاً مذهلاً، فقد أحضر فيه من الآلات المبتدعة، والأدوات المخترعة ما بهر الألباب، وقطع دون حرفتها الأسباب(١٠٦).

ومن مجالس الأنس والطرب التى كانت تعقد فى عصر دويلات الطوائف مجلس أعده الوزير أبو بكر بن سعيد والى غرناطة، وفيه يقول الشاعر أبو بكر المخزومى الموروري المدوري الأعمى:

دار السعيدى ذى أم دار رضوان ∴ ما تشتهى النفس فيها حاضر دانى
سقت أباريقها للند سحب ندى ∴ تحدو برعد لأوتار وعيدان(١٠٧)

ومنها مجلس طرب عقده أبو الحسن بن نزار فى وادى آش ودعا إليه أبا جعفر بن سعيد وأنشد شعراً ليستدعيه، جاء فيه:

شزون ورقص واقتطاف فكاهة ∴ وتعانق وتغامز بنواظر(١٠٨)

وحدث مرة أن أمر عبد الله بن مردنيش بسجن الشاعر الوشاح أبى الحسن ابن نزار، وفى السجن تحيّل فى جارية محسنة للغناء، حسنة الصوت وطلب منها أن تحفظ موشحة صاغها فى مدح ابن مردنيش لتغنيها أمامه إذا ما استدعاها للغناء، وأوصاها أن تغنيها فى أطرب أوقاته، واتفق أن أحسنت المغنية غناء الموشحة، فطرب ابن مردنيش لسماع الموشحة، وسأل المغنية عن صاحبها فلما عرف اسمه أمر بفك قيده والإفراج عنه(١٠٩).

ومن المجالس التى كان يعقدها بعض الأمراء فى عصر دويلات الطوائف مجلس عقده ذخر الدولة بن المعتمد على الله بن عباد باشبيلية وكان يصحب الشراب فى هذا المجلس أنغام المثانى والمثالث(١١٠).

(١٠٦) الفتح بن خاقان، المصدر السابق، ص ٢١٠ - المقرى، نفح الطيب، جـ٢ ص ١٦٦، ١٦٧.

(١٠٧) المقرى، المصدر السابق، جـ١، ص ١٧٨ - ابن الخطيب، الاحاطة فى أخبار غرناطة، نشر وتحقيق الاستاذ محمد عبد الله عنان، جـ١، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٤٢٥.

(١٠٨) المقرى، نفس المصدر، جـ٥، ص ٤٢.

(١٠٩) نفس المصدر، جـ٥، ص ٣٩، ٤٠.

(١١٠) نفسه، جـ٦، ص ١٦، ١٧

وكتب الوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن مسلم يصف مجلس موسيقى وغناء، وقال «وأوحى إلىّ المزمار أن ينطق، ورآلى الأوتار أن تخفق وإلى الغناء أن يذيب القلوب، ويشق الجيوب ويحث الشمول ويكفى الساقى أن يقول، وقد أسبلت على بهو السماع وقبة الغناء قطعة من الخسروان[111] اللازوردية، وقد ألهب بالذهب نحورها وحواشيها، وقرنت بالعسجد أسافلها وأعاليها وكحلت بأسلاك الجوهر خطوطها ورسومها، ووصلت بالياقوت الأحمر دوائرها ورقومها... فاندفعت منها بلابل المدارى تغرد، وحمائم الأوتار تصوب وتصعد وأطيار المعازف تتجاوب وأصناف الملاهى تتناوب[112]».

ويصف ابن خفاجة مجلس أنس فيقول «فاحتللنا قبة خضراء، ممدودة أشطان الأغصان، سندسية رواق الأوراق، ومازلنا نلتحف منها ببرد ظل ظليل، وتشتمل عليه برداء نسيم عليل، ونجيل الطرف فى نهر صقيل صافى لجين الماء كأنه مجرة السماء... وقد حضرنا مسمِّع يجرى فى النفوس لطافة، فهو يعلم غرضها وهواها، ويغنى لها مقترحها ومناها، فصيح لسان النقر، يشفى منه الوقر، كأنه كاتب حاسب، تمشق يمناه وتعقد يسراه،

يحرك حين يشدو ساكنات ∴ ويبتعث الطبائع للسكون[113]

وهذا ابن خفاجة يصور مجلس طرب يدعو إليه من يحضر من الأصحاب فيقول «ان النبيذ بساط، موضوعه الراحة و الانبساط، وقلّما يطيب رضاع الكأس إلا مع الصديق الشفيق، المشتبه بالأخ الشقيق، فهو رضاع ثان ترعى حرمته وتحفظ ذمته، وهذا يوم ضربت منه أروقة الأنواء وأعرست الأرض فيه بالسماء، فالغصن يتلوى ويتثنى والحمامة ترجّع وتتغنى والماء يرقص من طرب ويصفق، والزهر يشق جيب كمامه ويمزق، فإن رأيت أن تكون فى من شهد هذا الإملاك، وتحضر فى من حضر هناك أجبت منعما»[114].

(١١١) نوع من النسيج الحريرى.

(١١٢) ابن بسام، الذخيرة، ق٣، م٢، ٥٤٤.

(١١٣) المصدر السابق، ق٣، م٢، ص ٥٤٤ - المقرى، نفح الطيب، جـ٢، ص ٧٥

(١١٤) ابن بسام، المصدر السابق، ق ٣، م٢، ص ٥٤٦

واحتفل المأمون بن ذى النون فى طليطلة باعذار حفيده يحيى، فعقد مجلس أنس وصفه ابن حيان بقوله «وذهب المأمون إلى تتميم تكريم زواره من رجال الأمراء الذى استحضرهم يومئذ لشهود فرحته بمشاهدة مجلس خلوته، وتنعيم اسماعهم بلذات أغانيه، وقد علم أن فيهم من يرخّص فى النبيذ، ولا يسوغ له نعيم دونه فاحتمل حرج ذلك مبالغة فى تأنيسهم، فاحتفل لهم فى مجلس قد نُضّد، وأحضر فيه جميع آلات الأنس، فلما استوى بالقوم مجلسهم واشرأبوا إلى الأخذ فى شأنهم، قرّب إليهم أطعمة طيورية جوامد وباردة، وصنوف من المصوص والأشربة والطباهج موائد مترعة، اتخذوها بسطا لنبيذهم ثم انثنوا إلى الشراب ونفوسهم به صبّة، وقد مدت ستارة الغناء لأهل الحجاب ونظمت نوبة المغنين زمرا، فهاجوا الأطراب واستخفوا الألباب، ونقلوا الطباع فجاءوا بأمر عجاب، بذّهم فيه سابق حلبتهم، المحسّد من جماعتهم، الاسرائيلى ذى، الزائد باحسانه على ابراهيم الُموصلى صديق ابليس، الظريف فى فتنته وتخايله بالماخورى[115] المكنون، الذى اغتدى فى باطله نسيج وحده، يزدهى العيدان جسّه ويخرس الأطيار شجوه.... فطربوا وطرب المأمون ليلتذ على وفور حلمه، وكان الذى غنّاه فيها «ذى» صوتاً شجياً لحنّه من خفيف الرمل مطلق بالخنصر، فى مقطوعة نظمها عبد الله بن الخليفة الملقب بالمصرى وهى:

باكـــر لبكر الدنان إن ∴ هداء العـــروس فى الســـحَر
واشرب عقارا تخال حمرتها ∴ تحـرق ايدى السـقـاة بالشـرر
فـان يحـيى أحـيـا بدولتـه ∴ مـا قـد مـحاه تصرف القـدر
ملك هو الدهر فى عـزيمتـه ∴ يطلع فـينا مطلعـة قـمـر

فطمح بابن ذى النون الأطراب، وخلع لوقته عليه ثوبا من التسترى الأخضر مطرزاً بالذهب، ثم فض الصلات والخلع فى سائر الطبقات تعاور المغنون فى تلك الليلة الغناء بها»[116].

(١١٥) نوع من الألحان.

(١١٦) ابن بسام، نفس المصدر، ق ٤، م ١، ص ١٣٥ – ١٣٧

وفى وصف مجلس طرب ولهو يقول الشاعر أبو بحر يوسف بن عبد الصمد:

رُبَّ ليل قطعتُهُ فى رياض ∴ وندامى وقهوة ومثانى
ووجوه مثل البدور تلالا ∴ وقدود كأنها قُضُبُ بان[117].

وفى وصف مجلس أنس يقول ابن خفاجة:

وكم يوم لهو قد أدّرنا بأفقه ∴ نجوم كؤوس بين أقمار ندمان
وللقصب والأطيار نلهى بجزعه ∴ فما شئت من رقص على رجع ألحان[118]

ويصف الأديب أحمد الشروانى صاحب حديقة الأفراح لإزالة الأتراح أحد مجالس الطرب بقوله «كنت بمالقة (٤٠٦ هـ / ١٠١٥م) واعتللت مرة ولزمت فراشي وسهرت طول الليل لما بى من آلام، وإذا بى اسمع اوتار العيدان والطنابير من كل ناحية وتختلط الأصوات بالغناء مما زاد ألمى وأن كانت نفسى تعاف سماع تلك الضروب ثم سمعت ما أنست له نفس وارتاحت حتى خيّل إلىّ أن أرض المنزل ارتفعت بى، وأن حيطانه تدور حولى».

ويتابع الأديب وصف ما سمعه، فيذكر أنه لم يملك نفسه إلا أن نهض من سريره، واتجه نحو مصدر الصوت، فالفى نحو عشرين رجلاً قد اصطفوا فى وسط بستان وبين ايديهم شراب وفاكهة، ورأى جوارى يزمرن ويعزفن على العيدان والطنابير، وشاهد جارية تغنى غناء حسناً وقد وضعت عودها فى حجرها، فتأثر بسماعها تأثراً بالغاً دفعه إلى أن يحفظ أشعارها وينسى أوجاعه وآلامه[119].

---

(١١٧) ابن بسام، نفسه، م٢، ق٣، ص ٨١١.

(١١٨) نفسه، ق٣، م٢، ص ٥٨٥.

(١١٩) أحمد الشروانى، حديقة الأفراح لازالة الأتراح، القاهرة، ١٣٠٢هـ ص ١٢٧ وما يليها، وانظر عبد الوهاب خلاف، قرطبة، ص ٣٢٣، وما يليها.

(٤)

أشهر مراكز الغناء والطرب فى الأندلس

تعددت مراكز الغناء والطرب فى كل أنحاء الأندلس لاسيما فى عصر دويلات الطوائف عندما اشتغل الملوك بشرب الخمور واقتناء القيان، وركوب المعاصى وسماع العيدان « واعتكفوا على المغانى والعيدان»[١٢٠]. وتفشى الاقبال على اللهو والطرب وسماع الألحان بين طبقات المجتمع الأندلسى بحيث أصبحت فنون الأندلس جزءاً أساسيا من كيان أهل الأندلس[١٢١]، ووجد فى مختلف انحاء البلاد من تصدّر لاعداد القيان وتثقيفهن علميا وادبيا وفنياً ثم يبيعهن بأعلى الأثمان، وكان من بين هؤلاء محمد بن الكتانى المتطبب الذى يصف فى رقعة من رسالة يذكر فيها أنواع الثقافات التى كانت تتلقاها القيان فيقول «فأنا منبه الحجارة فضلاً عن أهل الفدامة والجهالة، وأعتبر ذلك بأن فى ملكى الآن أربع رومیات كن بالأمس جاهلات، وهن الآن عالمات حكيمات منطقيات فلسفيات، هندسيات موسيقاويات، اسطر لابيات معدلات، نجوميات عروضيات أدبيات خطاطيات»[١٢٢].

وكان تعلم الموسيقى يشكل جانباً رئيسياً من التعليم العام للقيان منذ عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط وذلك عندما أسس زرياب مدرسته بقرطبة أعظم مراكز الغناء والموسيقى فى العصر الأموى، وظلت قرطبة تحتفظ بمكانتها السامية فى فن الغناء طيلة هذا العصر حتى سقوط الخلافة وقيام دويلات الطوائف ثم خلفتها اشبيلية، وفى هذا المعنى يقول الأستاذ محمد المنونى نقلاً عن التيفاشى:

---

(١٢٠) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس، ص ٧٧، ٨٩.

(١٢١) أحمد مختار العبادى، الاسلام فى أرض الأندلس، ص ١٤٤.

(١٢٢) ابن بسام، المصدر السابق، ق٣، م١، ص ٣٢٠.

«وهذا الغناء اليوم موقوف على اشبيلية من مدن الأندلس، وبها عجائز محسنات يعلمن الغناء لجوار مملوكات لهن ومستأجرات عليهن مولدات، ويشترين من اشبيلية لسائر ملوك المغرب وافريقية، تباع الجارية منهن بألف دينار مغربية وأكثر من ذلك وأقل على غنائها لا وجهها ولا تباع إلا ومعها دفتر فيه جميع محفوظها... ولابد للجارية المغنية عندهم من أن تكون تحسن الخط وتعرض محفوظها على من يصححه لها من جهة العربية فيقرأ مشتريها ما في الدفتر ويعرض عليها منه ما أحب، وتغنيه بالآلة التي تشترط في بيعها، وربما كانت محسنة في جميع الآلات وفي جميع أنواع الرقص والخيال ومعها آلتها والجوارى اللواتي يطلبن عليها ويزمرن، فتسمى مكمّلة وتباع بعدة ألوف من الدنانير المغربية»(١٢٣).

وكانت قرطبة في عصر بني جهور ما تزال تتبوأ مكان الصدارة في وفرة المغنين والمغنيات، وأهم مراكز الغناء والموسيقى في الأندلس، فقد ذكر عن أبي الوليد بن جهور صاحب قرطبة أنه قال «وردت عليّ من الكتب في يوم واحد كتاب من ابن صمادح صاحب المرية يطلب جارية عوادة، وكتاب من ابن عباد يطلب جارية زامرة»(١٢٤). وفي سنة ٤٤٢ هـ أرسل المظفر ابن الأفطس إلى قرطبة رسولاً يلتمس شراء وصائف ملهيات يأنس بهن، كتب رسوله في قرطبة عنهن «وكن قد عدن من قرطبة يومئذ فوجد له صبيتين ملهيتين عند بعض التجار لا طائل فيهما فاشتراهما له... وبعد وفاة عبد الرحيم وزير قرطبة اجتلب المعتضد قينته لما وصفت له بالحذق في صنعتها، فوجهت نحوه»(١٢٥).

---

(١٢٣) محمد المنوني، ثقافة الصقالية بالأندلس، مجلة أوراق، العدد الخامس والسادس، مدريد، ١٩٨٢ - ١٩٨٣، ص ٢٣

(١٢٤) ابن عذارى، البيان المغرب، جـ٣، ص ٢٥٠.

(١٢٥) ابن بسام، المصدر السابق، ق٢، م١، ص ٣٥ وما يليها.

وكانت اشبيلية من أهم مراكز فن الغناء والموسيقى فى الأندلس وفيها يقول صاحب منهاج الفكر «من أحسن مدن الدنيا وبأهلها يضرب المثل فى الخلاعة»(١٢٦) وعليها ينطبق قول أبى الفضل التيفاشى «إذا مات عالم باشبيلية وأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى اشبيلية»(١٢٧).

ويذكر المقرى أن وادى اشبيلية كان لا يخلو من مسرة، وأن جميع آلات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر(١٢٨). وكان بطريانة، الربض القبلى لاشبيلية من أصناف الطرب فى الليالى القمرية ما هو مشهود فى البلاد(١٢٩).

وكانت بلنسية مركزاً هاماً فى الأندلس لفنون الطرب. ويذكر العذرى أن أهلها عرفوا بقلة تحملهم للهموم بحيث لا يكاد المرء يجد فيها أحداً من جميع الطبقات إلا وهو قليل الهم سواء كان غنياً أم فقيراً «ولا تكاد تجد فيها من يستطيع على شئ من دنياه إلا وقد اتخذ عند نفسه مغنية وأكثر من ذلك، وإنما يتفاخر أهلها بكثرة الأغانى، ويقولون: عند فلان عودان وثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك» وبلغ العذرى أن مغنية تجاوز ثمنها ألف مثقال طيبة، وأما دون الآلاف فكثيرات(١٣٠).

وكان بنو ذى النون أصحاب طليطلة يقيمون الاحتفالات فى شتى المناسبات، كالاحتفال باعذار أحد ابناء الأمراء، داخل مجالس قصر الناعورة، حيث يجتمع كبار رجال الدولة وتقدم لهم الأطعمة وتعقد لهم مجالس الطرب

---

(١٢٦) المقرى، نفح الطيب، جـ١، ص ١٥٠.

(١٢٧) المقرى، نفس المصدر، جـ١، ص ١٤٧.

(١٢٨) نفسه، جـ٤، ص ١٩٩.

(١٢٩) ابن سعيد، المغرب فى حلى المغرب، جـ١، ص ٢٩٣.

(١٣٠) العذرى، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، تحقيق د. عبد العزيز الأهوانى، مطبوعات المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد، مدريد، ١٩٦٥، ص ١٨

يغنى فيها كبير المغنين فى بلاط الأمير (ذى الاسرائيلى)[١٣١] وغيره من كبار المغنين. كذلك ذاعت شهرة الجانه من اقليم شريش بمجالسها الغنائية التى كانت تقام فى متفرجاتها على النهر، ومنها يقول أبو عمرو بن غياث:

باكر الجانه مع روح الجنان ∴ واصطبح فيها على نقر المثان[١٣٢]

وشغف أهل وادى الحجارة بالموسيقى والطرب وأجادوا فن الضرب على العود والعزف على القيثارة، واستمرت تحتفظ بهذه الشهرة حتى يومنا هذا فقد اشتهر واحد من أبنائها اليوم يدعى انبيجه لوبث دى مندوثة بالضرب على العود[١٣٣].

ويجرنا الحديث عن مراكز فن الغناء إلى الحديث عن آلات الطرب، وهى متنوعة وكثيرة، وكان معظمها فى المشرق الإسلامى وأكثرها شيوعاً فى الأندلس الرباب والمزمار والبوق والدف والعود والطبل، فقد سبق أن ذكرنا أن الأمير محمد كان يطيب له استخدام البوق، وكان لديه بوق يزدان بالذهب ومرصع بالأحجار الكريمة، كما شاع استخدام الدف وآلات النفخ كالمزمار والشبابة فى الأعراس.

وورد فى أبيات شعرية لأبى الحسن بن سعيد فى الطالع السعيد ما يفيد بالغناء على الرباب والزمر، بينما ورد فى بيت من الشعر فى الشاعر الأعمى ابى بكر المخزومى المشهور بالهجاء القاذع ما يفيد باستخدام الأوتار والعيدان[١٣٤]. وورد فى أشعار أبى زيد عبد الرحمن بن مقانا الأشبونى أحد شعراء عصر الطوائف اسم آلة موسيقية اسمها الكنك وتعرف أيضاً بالكنكلة[١٣٥].

---

(١٣١) عن هذه الاحتفالات ارجع إلى ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، م١، ص ١٠٥ وما يليها وانظر السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور فى الأندلس، سلسلة اقرأ، عدد ١٩٠، القاهرة ١٩٥٨، وقرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس، جـ٢ ص ١٠٥.

(١٣٢) ابن سعيد، المغرب فى حلى المغرب، جـ١ و ص ٣٠٢.

(١٣٣) Antoñio Aragon´es Subero, Danzas, Rondas y Musica Popular de Guadalajara, 1979, p 22.

(١٣٤) المقرى، المصدر السابق، جـ١، ص ١٧٨

(١٣٥) ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، م٢، ص ٧٨٨.

وفى رد أبى الطيب عبد المنعم بن من الله القروى على رسالة ابن غرسية الشعوبى ما يعبر عن أصالة الألحان التى برع فيها العرب، وكان يتغنى بها مع الأرغن والسلياق والصنج والكنكلة والقندورة والقيثارة(١٣٦). ويصنف ابن خلدون آلات الطرب إلى ثلاثة أنواع: آلات النفخ والآلات الوترية وآلات القرع. فمن آلات النفخ الشبابة وهى قصبة جوفاء مزودة بأبخاش معدودة فى جوانبها ينفخ فيها فيترج الصوت من جوفها على سدادة من تلك الأنجاش، ويقطع الصوت بوضع الأصابع من اليدين جميعاً على تلك الأنجاش وضعاً متعارفاً حتى تحدث النسب منسجمة بين الأصوات فيه. ومنها المزمار المسمى أيضاً بالزلامى ويتخذ شكل قصبة جوفاء من الخشب منحوتة الجانبين من قطعتين منفردتين وبأبخاش معدودة، ينفخ فيها بقصبة صغيرة، فيصدر منها صوت بنغمة حادة يقطّع بأصابع اليد.

ومنها البوق وهو من أفضل آلات الزمر، يصفه ابن خلدون بأنه من النحاس الأجوف له أبخاش ويبلغ طوله مقدار الذراع، وينفخ فيه بقصبة صغيرة، ويصدر الصوت من خلالها دوياً.

أما الآلات الوترية فجوفاء كلها، وهى إما على شكل قطعة من الكرة مثل البربط والرباب أو على شكل مربع كالقانون أو الكنيرة، توزع الأوتار على بسائطها مشدودة فى رأسها إلى دسر جاثلة مهمتها شد الأوتار وارخائها عند الضرورة وذلك بادارتها ثم تضرب الأوتار اما بعود آخر أو بوتر مشدود من طرفى قوس يمر عليها بعد أن يطلى بالشمع والكندر، ويقطّع الصوت فيه بتخفيف اليد فى إمراره أو نقله من وتر إلى وتر، واليد اليسرى مع ذلك فى جميع آلات الأوتار توقع بأصابعها على أطراف الأوتار فيما يطرب بالضراب أو بحك الوتر فتصدر الأنغام متناسبة.

---

(١٣٦) ابن بسام، نفس المصدر، ق ٣، م٢، ص ٧٣٩.

ويتم القرع فى الطسوت بالقضبان أو فى الأعواد بعضها ببعض على توقيع متناسب(١٣٧).

ونستنتج مما أورده الشقندى فى سياق حديثة عن اشبيلية أن هذا البلد كان يتوافر فيه الكثير من الآلات الطرب كالخيال والكريج Carrizo والعود Alaud والروطة Rota والرباب Rabel والقانون والمؤنس والكنيرة Citara والقتار Guitarra والزلامى والشقرة والنورة وهما مزماران الواحد غليظ الصوت والآخر رقيقه والبوق Alboque فى حين استخدم البربر فى المغرب الدف والأقوال وهى نوع من الطبول والبرا وأبو قرون(١٣٨).

ويعتبر العود أهم آلات العزف الوترية عند المغنين والمغنيات، وكان معروفاً عند عرب المشرق، وكان يطلق عليه العود الكامل أو الشبوط، وكان مزوداً بأربعة أوتار أضاف إليها زرياب الوتر الخامس. وكان معظم القيان يكثرن من اصطحاب المزامير والطبول والدفوف فى المرتبة الثانية بعد العيدان(١٣٩). ويصف ابن عبد ربه البربط من الآلات الوترية بأنه محدودب الظهر، أرسح البطن، له أربعة أوتار اذا حركت لم يسمعها أحد الاحرك أعطافه وهز رأسه(١٤٠).

ويضيف بعض الباحثين إلى آلات القرع البندير والمزهر والكبر والنجرة والجربال وهى أنواع من الطبول(١٤١)، وإلى آلات النفخ السرناى والصورنة والنورة واليراعه، وكلها من نوع المزمار والشبابة(١٤٢)، أما الطسوت فكانت تقرع بالقضبان.

(١٣٧) ابن خلدون، المقدمة، ص ٩٦٤ وما يليها.

(١٣٨) فارمر، تاريخ الموسيقى العربية، ص ١٣٠.

(١٣٩) فارمر، تاريخ الموسيقى العربية، ص ١٣٠.

(١٤٠) ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٦، ص ٧٣.

(١٤١) Miguel Cruz Hernandez, op. cit. p 442 – عبد الوهاب خلاف، قرطبة الاسلامية فى القرن الخامس الهجرى، ص ٣٢٠

(١٤٢) M. Cruz Hernández, op. cit, p 442 - Rachel Arié, op. cit, p 320.

(٥)

أثر الموسيقى والغناء الأندلسى
فى أسبانيا المسيحية

كما أثر الشعر الغنائي الأندلسي والموشحات والأزجال على شعر التروبادور والتروڤير والشعراء المنشدين المعروفين فى اللغة القشتالية باسم Las Ju glares[١٤٣] عن طريق الاتصال بين الأقطانيين فى جنوب فرنسا الذين أسهموا فى الحملة الصليبية على بربشتر سنة ١٠٦٤م، وساعدوا ألفونسو المحارب ملك أرجون فى معركة كتندة سنة ١١٢٠م، وكذلك عن طريق الألوف من أسرى المسلمين الذى حملوهم معهم إلى أقطانية، أثرت فنون الغناء والموسيقى الأندلسية تأثيراً واضح المعالم فى نظائرها المسيحية في ممالك أسبانيا المسيحية وجنوبى فرنسا. لقد بدأ تأثير الموسيقى الأندلسية فى الغرب المسيحى على نحو متواضع منذ القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) عندما أدخل العرب آلة العود والرباب وأنواع متعددة من آلات الزمر إلى الموسيقى المستعربة، ولم يلبث القشتاليون والأرجونيون ان تأثروا بالموسيقى الأندلسية عن طريق المستعربين واليهود وأسرى المسلمين وكذلك المدجنين من أهل الأندلس، وخير شاهد على الأثر الاسلامى فى الموسيقى المسيحية الكم الهائل من المصطلحات واسماء الآلات الموسيقية التى نقلها الغرب بألفاظها العربية إلى لغاته الأوروبية ومنها Alaud و Lute من كلمة العود، و Rabel و Reber و Rebible من رباب، وكلمة Nekero من النقارة و Timpal و Tambour و Tambore من الطنبور والطبل و Guitarra و Guitar من القيثار و Rota من الروطة وكلمة Carrizo من الكريج وكلمة Al-

---

(١٤٣) عن تفاصيل ذلك ارجع إلى الاسلام فى المغرب والأندلس، مقال الشعر العربى فى اسبانيا وشعر أوروبا فى العصر الوسيط، لليفى بروفنسال، ترجمة السيد عبد العزيز سالم، ومحمد صلاح الدين حلمى، طبعة ثانية، الاسكندرية، ١٩٩٠، ص ٢٨٠ - ٣٠٣ Henri Pérés, La poésie arabe d' Andalousie et ses relations possibles avec la poésie des Troubad ours, Paris, 1947, pp. 107 - 130.

boque من البرق، و Adufe من الدف، وكلمة Atabale من الطبل(١٤٤)

ونستدل على استخدام نصارى اسبانيا للجوارى والمغنيات المسلمات مما ذكره ابن بسام الشنتريني في معرض حديثه عن سقوط مدينة بربشتر في ايدى الصليبيين والنورمان، يقول ان بسام ان أحد تجار اليهود «أتى إلى بربشتر بعد الحادثة عليها ملتمساً فدية بنات لبعض وجوه من نجا من أهلها حصلن في سهم قوس، فوجده جالساً مكان رب الدار، مستولياً على فراشه، رافلاً في نفيس ثيابه، والمجلس والسرير كما تخلفهما ربهّما يوم محنته لم يتغير شئ من رياشهما وزينتهما، ووصائف على رأسه ووقته مضمومات الشعور، قائمات على رأسه، ساعيات لخدمته، معهن مغنية صاحب الدار المسلم كانت تشدو له على نشواته، طلب منها القومس أن تأتي بعودها وتغني، فأخذت العود وقعدت تسوّيه واندفعت تغنىْ بشعر لم يفهمه العلج الذى أظهر الطرب»(١٤٥).

ويتحدث أبو محمد بن الحسن المعروف بابن الكتاني بأنه شهد يوماً مجلس العلجة بنت شانجة ملك البشكنس، زوج الطاغية شانجة بن غرسية بن فرذلند لبعض تردده عن الثغر إليه وذلك في عهد الفتنة، فلاحظ أن بالمجلس عدة قينات مسلمات ممن وهبهن سليمان بن حكم الملقب بالمستعين، «فأومأت العلجة إلى جارية منهن فأخذت العود وغنت بهذه الأبيات:

خليلى مـا للريح تأتى كـأنما ∴ يخـالطهـا عن الهـبـوب حلوق

أم الريح جـاءت من بلاد أحـبتى ∴ فـأحـسـبهـا ريح الحـبيـب تسـوق

سقى الله أرضاً حلّها الأغيد الذى ∴ لتـذكـاره بين الضلوع حـريق

أصـار فـؤادى فـرقـتين فـعنده ∴ فـريق وعندى للسـيـاق فـريق

---

(١٤٤) على أحمد، المؤثرات الحضارية العربية الأندلسية والمغربية في الغرب الأوروبى وكيفية انتقالها خلال العصور الوسطى، من بحوث الندوة العلمية الدولية التى نظمتها كلية الآداب بالرباط سنة ١٩٩٤ تحت عنوان: الغرب الاسلامي والغرب المسيحى خلال القرون الوسطى، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، ١٩٩٥، ص ٢١١ - ٢٣٢.

(١٤٥) ابن بسام، الذخيرة، ص ٣، م١، ص ١٨٦ - ١٨٨ - المقرى، نفح الطيب جـ٦، ص ١٩٥

فأحسنت وجودّت، وعلى العلجة من القوامات أسيرات كأنهن فلقات قمر»[١٤٦].

وفي كتاب أناشيد الفونسو العاشر صور يظهر فيها موسيقيون مدجنون ومسيحيون يمسكون بآلاتهم الموسيقية، وبعض الآلات الوترية الممثلة في الرسوم تبدو محدثة وتختلف بعض الشئ عن الآلات الوترية الاسلامية المعروفة. وفي السقف الخشبي بكاتدرائية. ترويل صور لأفراد يلبسون ثيابا مدجنة ومعهم آلة موسيقية. كما تظهر على صفحة من مخطوطة مسيحية يرجع تاريخها إلى القرن السابع الهجري (١٣م) صورة امرأة ترتدى زى المدجنات تعزف على الجنك. وهناك نقش بارز مدجن الطابع يتمثل في تابوت يرجع تاريخه إلى سنة ١٣٩٠م، وكان محفوظاً في دير نويسترا سنيورة دى بيدرا يحمل صورا تمثل موسيقيين[١٤٧].

ومن خلال ما ذكرناه يتبين أن الميل إلى الطرب الذى تميز به أهل الأندلس تفشى في اسبانيا المسيحية، وأصبح من العادات الشائعة بين طبقات المجتمع الاسبانى المسيحى.

---

(١٤٦) ابن بسام، المصدر السابق، ق٣، جـ١، ص ٣١٨.

(١٤٧) M. Cruz Hernandez, op. cit, p 441

صور من التعاون العسكري بين دمشق والقاهرة
ضد الصليبيين في العصر الفاطمي
٤٩٨ - ٥٦٤هـ/ ١١٠٤-١١٦٨م)
(رؤية جديدة)



صور من التعاون العسكرى بين دمشق والقاهرة
ضد الصليبيين فى العصر الفاطمى
٤٩٨ - ٥٦٤/ ١١٠٤ - ١١٦٨م)

(رؤيــة جديــدة)(*)

مقدمـــة:

يعتبر موضوع هذا البحث موضوعا حيا تجدر الافادة من دروسه فى مستقبل علاقاتنا مع العالم المحيط بنا. والفترة التى يعالجها البحث هى الفترة المواكبة لأهم مراحل الحركة الصليبية ضد المشرق الإسلامى، وهى الفترة التى شهدت أول نجاح حققته الهجمة الصليبية الشرسة على الشرق الأدنى الإسلامى فى نهاية القرن الخامس الهجرى الموافق الحادى عشر الميلادى وكانت بلا شك تجربة قاسية فى تاريخ المسلمين وكارثة عظمى هزت الكيان الإسلامى، وزلزلته وذلك عندما استغل الغرب الأوروبى المسيحى الظروف المؤسفة التى كان يعيشها العالم الإسلامى من تناحر أبنائه وتفكك قواهم وتنازعهم وغلبة المصالح الشخصية على مصالح المسلمين العليا، الأمر الذى أتاح المجال أمام قوى الغرب المسيحى للتسلل إلى قلب المشرق الإسلامى.

وسنوضح من خلال البحث أنه لم يمض وقت طويل حتى أفاق المسلمون من هول هذه الصدمة واستيقظوا من سباتهم العميق وأدركوا أن العدو الذى تغلغل فى قلب الأمة الإسلامية وتمكن من غرس أربع كيانات دخيلة فوق ترابها المقدس وداس مقدساتها وانتهك حرماتها واستولى على ثرواتها، لم يتمكن من ذلك الابسبب تناحرهم وتفرقهم. ومن حسن الطالع أنه كان قد تبقى لدى مسلمى القرن السادس الهجرى، بقايا وعى وادراك وضمير إسلامى دفعهم إلى مراجعة النفس، والدعوى إلى الجهاد المقدس قبل فوات الأوان وظهرت أولى بوادر التضامن

(*) شاركت الباحثة بهذا البحث فى مؤتمر «التاريخ العسكرى لشمال مصر عبر العصور» الذى عقده قسم التاريخ والآثارالمصرية والإسلامية فى الفترة من ٨-٩ أكتوبر ١٩٩٥.

والتآزر والتنسيق العسكرى بين القوى الإسلامية المختلفة وهى التى طالما تنازعت وتقاتلت فيما بينها لأسباب مذهبية وسياسية، ممثلة فى الحلف الإسلامى الذى تكون فى بلاد الشام وشمال العراق تحت زعامة كربوغا اتابك الموصل فى المحرم من سنة ٤٩١هـ (أواخر ديسمبر ١٠٩٧م).

وسنركز فى هذا البحث على ابراز أهم صور التعاون والتنسيق والتضامن العسكرى بين دمشق والقاهرة خلال فترة اليقظة والصحوة الإسلامية التى سبقت بداية مرحلة توحيد الجبهة الإسلامية على يد الناصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب، وهى الفترة التى لمعت فيها أسماء قادة مسلمين كانوا على مستوى المسئولية، فتناسوا خلافاتهم وترفعوا عنها من أجل الصالح العام، من أهمهم كربوغا ومودود وآق سنقر البرسقى فى الموصل، وظهير الدين طغتكين ونور الدين محمود فى دمشق.

ويرجع السبب الحقيقى من وراء اختيارى لهذا الموضوع فى ذكرى الانتصار المصرى/ السورى العظيم فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣ اثبات أن أحداث التاريخ وملابساته تتشابه فى كثير من الأحيان وأنه اذا كانت فى وقائعه دروس وعظات وعبر فلنلتمس من أجدادنا الحكمة فقد ادركوا قبل فوات الأوان أنه لاسبيل للخلاص الا فى الوحدة وأن الهلاك كل الهلاك فى التفرق والتنازع والتمزق.

تمهيـــد:

الأوضاع السياسية للمشرق الإسلامى فى مطلع القرن الخامس الهجرى حتى مجيء الحملة الصليبية الأولى.

شهد الشرق الأدنى الإسلامى منذ قيام الدولة الفاطمية بمصر سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) خلافتين، الخلافة العباسية السنية فى بغداد، والخلافة الفاطمية الاسماعيلية فى القاهرة[١]. ودار صراع قوى بين العباسيين والفاطميين، اتسم بأنه كان فى آن واحد صراعا مذهبيا، وسياسيا، واقتصاديا وعسكريا. فعلى الصعيدين السياسى والعسكرى[٢]. نجد أن بلاد الشام كانت المحور الأساسى لهذا الصراع، ونجحت الدولة الفاطمية فى ضم جنوب بلاد الشام إلى مصر منذ عام ٣٥٩هـ

(٩٧٠م) وحتى بداية خلافة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١هـ/ ٩٩٦ - ١٠٢٠م) ولكن الفاطميين فشلوا في بسط نفوذهم على شمال الشام بسبب موالاة الحمدانيين في بداية العصر الفاطمي للبيزنطيين ومناوأة البيزنطيين للدولة الفاطمية[٣].

وكان تطلع الفاطميين بأنظارهم إلى جنوبي الشام، أمراً طبيعيا ومنطقيا باعتبار أن الشام امتداد جغرافي طبيعي لمصر، وارتأى الفاطميون ان ضمهم للشام فيه تأمين لنفوذهم في مصر من الخطرين العباسي والبيزنطي في آن واحد، كما أن بلاد الشام كانت تمثل بالنسبة للفاطميين، القاعدة الأمامية للوثوب على العباسيين.

ورغم نجاح الفاطميين في السيطرة على جنوبي الشام الا أن الشام ظل منذ فتح الفاطميين له وحتى انفصاله عنهم، مصدر قلاقل واضطرابات وفتن وثورات، كما ساعدت المؤامرات التي كانت تحيكها الدولة البيزنطية للفاطميين على اضطراب الوضع السياسي للفاطميين في الشام في أواخر القرن الرابع الهجرى وطليعة القرن الخامس، ومن ذلك تورط الامبراطور البيزنطي بسيل الثاني (٣٨٦ - ٤١٦هـ/٩٩٦ - ١٠٢٥م) في تأييده للملاح العلاقة الثائر في مدينة صور سنة ٣٨٧هـ (٩٩٧م) على الحكم الفاطمي[٤]. وقد انتهت ثورته بالفشل. ورغم محاولة الفاطميين أحكام قبضتهم على الشام بعد أن اتفقوا مع البيزنظيين على توقيع هدنة مدتها عشر سنوات، استغلوها في القضاء على حركة بني جراح الطائيين في فلسطين وعلى نفوذ الحمدانيين في حلب، الا أن هذه السيطرة لم تستمر طويلا اذ سرعان ما بدأ نفوذ الفاطميين في التراجع منذ طليعة القرن الخامس الهجرى. منذ عام ٤٢٩هـ وحتى عام ٤٦٢هـ تناوب كل من الفاطميين والمرداسيين السيادة على حلب إلى أن أستقلت حلب تماما عن الدولة الفاطمية في ١٨ شوال سنة ٤٦٢هـ، وذلك عندما أعلن عز الدولة تاج الملوك محمّود بن نصر بن صالح المرداسي (٤٥٧ - ٤٦٧هـ/ ١٠٦٤ - ١٠٧٤م) الدعوة للخليفة القائم بأمر الله العباسي وقطع الخطبة للفاطميين في عاصمة حلب[٥].

وفيما يتعلق بالخلافة العباسية فقد خضع خلفاؤها منذ منتصف القرن الخامس الهجرى لسيطرة سلاطين الأتراك السلاجقة [٦] ودخل طغرلبك بغداد سنة ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) بعد أن استدعاه الخليفة العباسي ليخلصه من القائد أبي الحارث البساسيرى الذى خلع الدعوة للعباسيين مناديا باسم الخليفة المستنصر بالله الفاطمي على منابر[٧] العراق. ومالبث أن أعاد طغرلبك الدعوة للعباسيين، كما قبض على الملك الرحيم آخر ملوك بنى بويه (٤٤٠ - ٤٤٧هـ / ١٠٤٨ - ١٠٥٥م) وأرسله إلى السجن بالقرب من الرى بعد أن تمكن من القضاء نهائيا على الفتنة التى أثارها البساسيرى.

وخلف ألب أرسلان، عمه طغرلبك فى زعامة الأتراك السلاجقة (٤٥٥ - ٤٦٥هـ/ ١٠٦٣ - ١٠٧٢م) واستندت شهرته على ما ابداه من نشاطات ضد الدولة البيزنطية وعلى ما قام به من جهود فى مد حدود الدولة بمساعدة وزيره نظام الملك فاجتاح ارمنية واصطدم مع قرات الامبراطور البيزنطى رومانوس ديوجينوس فى موقعة ملاذكرت (مانزكرت) الكبرى قرب بحيرة ڤان عام ٤٦٣ هـ (١٠٧١م) فألحق بالبيزنطيين هزيمة نكراء واوقع الامبراطور اسيراً فى يده [٨] مما مهد الطريق أمام والده ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥هـ/ ١٠٧٢-١٠٩٣م) ليصبح أكبر قوة اسلامية فى المشرق الإسلامى فى ذلك الوقت.

وكان من الطبيعى أن تكون بلاد الشام مجالا خصبا لامتداد نفوذ السلاجقة، وبالفعل، فقد شهد عام ٤٦٣هـ (١٠٧١م) نزول السلطان ألب أرسلان على مدينة حلب واخضاعه أميرها محمود بن نصر بن صالح المرداسي وربطه بالتبعية له كما سبق أن أشرنا[٩]. أما فى جنوب الشام فقد تمكن أتسز بن أوق (الأقسيس)، مقدم الأتراك الغز وأشهر قادة ألب أرسلان من انتزاع بيت المقدس والرملة من أيدى الفاطميين فى نفس العام، ثم مالبث أن انتزع منهم دمشق أيضا عام ٤٦٨هـ (١٠٧٥م) مما أدى إلى تفجر الصراع بين أكبر قوتين فى العالم الإسلامى فى ذلك الوقت، الأتراك السلاجقة مدعمين بالشرعية الممثلة فى الخلافة العباسية من جهة، والخلافة الفاطمية من جهة أخرى[١٠].

واندفع أتسز بعد ما أحرزه من نجاح ضد الفاطميين فى دمشق وفلسطين، إلى مصر فى محاولة لغزوها فخرج فى العام التالى سنة ٤٦٩هـ (١٠٧٦م) قاصدا

حدودها عازما على فتحها الا أنه لقى هزيمة منكرة على يد أمير الجيوش بدر الجمالى فعاد منهزما فى حالة سيئة إلى الرملة ومنها إلى دمشق(١١).

ويشير ابن ميسر إلى اهتمام ألب ارسلان بفكرة غزو مصر والقضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية بها، ولكن انشغاله بحروبه مع البيزنطيين حال دون اقدامه على ذلك، وان كان حاول اضعاف الخلافة الفاطمية بطريق غير مباشر من خلال تدعيمه لحركة ناصر الدولة الحسين بن حمدان الذى قاد حركة تمرد ضد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ترمى إلى الدعوة للخلافة العباسية فى ظل رعاية السلاجقة سنة ٤٦٢هـ (١٠٧٠)(١٢).

وفى سنة ٤٦٥هـ (١٠٧٣م) تولى ملكشاه عرش الدولة السلجوقية وقام فى عام ٤٧٠هـ (١٠٧٧م) بارسال أخيه تاج الدولة تتش إلى الشام مقطعا اياه كل مايفتتحه فيها من بلاد، كما أمر شرف الدولة مسلم بن قريش صاحب الموصل بمساعدته.

ويذكر ابن القلانسى أن ملكشاه كان قد عزم على قصد مصر عند توجهه من أصفهان إلى بغداد سنة ٤٨٥ (١٠٩٢م)(١٣). قبيل وفاته مباشرة وكان أخوه تتش قد نجح فى انتزاع دمشق من يد أتسز بعد أن قتله كما آل اليه حكم بيت المقدس والرملة، فأناب عنه الأمير أرتق التركمانى ببيت المقدس(١٤).

ولكن سرعان ماتغيرت سياسة شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلى تجاه تتش فطمع فى ضم حلب إلى ملكه ليكون بذلك جبهة قوية تضم كل من الموصل وحلب. ونجح فى سنة ٤٧٢هـ (١٠٧٩م) فى تحقيق أطماعه، فدخل حلب، وبدأ حكم العقيليين بها(١٥) ولم يكتف مسلم بن قريش بذلك فقد تحالف مع الفاطميين أعداء تتش السلجوقى حليفه السابق(١٦) بهدف انتزاع دمشق من يده منتهزا فرصة خروجه لغزو انطاكية فتوجه مسلم إلى دمشق فى سنة ٤٧٥هـ/ ١١٨٢م مما دفع تتش للعودة بسرعة اليها ليحول بينها وبين السقوط فى يد العقيلى وقد نجح بالفعل فى انقاذها.

ولم يلبث مسلم العقيلى أن وجه جهوده للتصادم مع قوى اسلامية جديدة تتمثل فى دولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى، فاشتبك مع سليمان بن قتلمش

سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) فى موضوع قرزاحل على نهر سفين. وانتهت المعركة بهزيمة مسلم بن قريش ومقتله[١٧].

ورفع هذا الانتصار من شأن سليمان بن قتلمش، مما أطمعه فى الدخول فى صراع مع سلاجقة الشام لالتهام أكبر قدر من الأراضى الشامية. وهذا الصراع فى حد ذاته بين فرعين من فروع السلاجقة، يكفى لتوضيح مدى ضعف المسلمين أنذاك فلم يكن الصراع قاصرا على القوى الإسلامية الكبرى واعنى بها الخلافتين العباسية والفاطمية، بل أنه امتد ليشمل الكيانات الصغيرة التى ظهرت على مسرح السياسة الإسلامى فى ذلك الوقت مما مهد الطريق أمام العدوان الصليبى على المشرق الإسلامى. وعلى هذا النحو ساد الاضطراب والفوضى السياسية بلاد الشام الأمر الذى أدى إلى تدخل ملكشاه بنفسه فى أمور البلاد سنة ٤٨٠هـ (١٠٨٧م) فأعاد تقسيم مناطق النفوذ بها، كما حد من سلطة أخيه تتش وأن كان قد سمح له بالتوسع على حساب الفاطميين، فاستولى تتش بمساعدة قسيم الدولة أقسنقر على كل من حمص سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) وعرقة وأفامية[١٨].

وبذلك كادت جميع بلاد الشام أن تخضع للسيادة السلجوقية سواء كانت تابعة للسلطان ملكشاه نفسه أو لأخيه تتش الذى أصبح يسيطر على دمشق وبيت المقدس والرملة وحمص وعرقة وافامية إلى جانب بعض حصون الساحل الشامى.

ولم تتوقف الأمور عند هذا الحد من الانقسام والضعف والتفتت السياسى فقد ازدادت بوفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) ترديا وسؤا، وانتهى عصر الامبراطورية السلجوقية التى تفككت بدورها، وانقسم الأمراء السلاجقة فيما بينهم وتفرغوا للتقاتل والتناحر ودخلوا فى سلسلة من الحروب عرفت باسم حروب الوراثة السلجوقية. وانقلب تتش على بركيا روق ابن ملكشاه أخيه وطالبه بالسلطنة. وازداد تفرق الحلفاء عندما انحاز كل من قسيم الدولة اقسنقر وبوزان إلى بركيارق ضد تتش.

واستمرت المنازعات التى اسفرت عن مقتل تتش فى احدى معاركه ضد بركيارق سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) مما زاد من تفكك بلاد الشام وضعفها[١٩].

وفيما يتعلق بأملاك تتش فقد انقسمت عقب وفاته بين ولديه، فخر الملوك رضوان، وشمس الملوك دقاق اللذين تنازعا بدورهما. كل منهما يسعى لانتزاع أكبر قدر من الأملاك والأراضي والمدن دون أخيه. ثم استقر الأمر على أن تكون حلب لفخر الملوك رضوان ودمشق لشمس الملوك دقاق.

واعتمد كل منهما على أتابك يسير له أموره وينظم له دولته، فبينما اعتمد رضوان على جناح الدولة الحسين الذى كان اتابكا له فى حياة أبيه، توجه ظهير الدين طغتكين أحد اتباع تتش إلى دمشق فأصبح أتابكا لدقاق الذى عهد إليه بكل أموره[٢٠].

وساهم الخلاف بين رضوان ودقاق فى اضعاف الموقف السياسى فى بلاد الشام عشية مجيء الصليبيين، فقد دخل رضوان فى صراع حاد مع ياغى سيان، أمير انطاكية كما عمل على مهاجمة أملاك أخيه دقاق فى دمشق مما دفع هذا الأخير وطغتكين اتابكه إلى مهاجمة رضوان فى حلب.

ورغم الصلح الذى تم بين الأخوين سنة ٤٩١هـ (١٠٩٧م) عقب هزيمة جيش دقاق وحليفه ياغى سيان أمام جيوش رضوان بالقرب من قنسرين، فقد استمرت روح التشكك والعداء قائمة بينهما[٢١].

وفى ذات الوقت كانت أحوال الخلافتين العباسية والفاطمية تسير من سيء إلى أسوأ، ففيما يتعلق بالخلافة العباسية، فان التنافس الذى شهدته مع الخلافة الفاطمية كان تجسيدا وترجمة حقيقية للفوضى الدينية التى شهدها المشرق الإسلامى مما أوجد حالة من البلبلة وعدم التوازن فى المنطقة بأسرها، ورأينا كيف نجح أبو الحارث البساسيرى فى فترة من الفترات فى الدعوة لخلفاء الفاطميين على منابر العراق مما دفع الخليفة العباسى القائم، إلى استدعاء طغرلبك السلجوقى وتسليمه مقاليد الامور فى حين قنع هو بالرسوم الشكلية للخلافة وظلت الخلافة على هذه الحالة من الضعف حتى وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ وقيام ابنائه بالتنازع والتصارع على السلطة.

وتوفى الخليفة المقتدى بأمر الله العباسى سنة ٤٨٧هـ (١٠٩٤م) فجأة بعد أن عاين تنازع السلاطين السلاجقة على السلطنة إلى الحد الذى جعله يتلكأ فى اقامة الخطبة لأى منهم، ويبدو أنه تأنى فى اقامة الخطبة لبركيا روق فلما توفى المقتدى فجأة قيل انه مات مسموما بتحريض منه(٢٢).

وقد شجع هذا الضعف الذى أصاب الخلافة وضرب هيبتها فى الصميم على تمرد بعض العناصر البدوية العربية النازعة نحو الاستقلال على الخلافة خاصة أصحاب الحلة من بنى مزيد على الضفة الغربية لنهر الفرات، فقد استقل صدقة بن منصور بن دبيس بن مزيد الأسدى، بحكمها سنة ٤٩٤ (١١٠١م)(٢٣).

أما الخلافة الفاطمية فلم تكن أحسن حالا، فبعد أن نعمت مصر فى النصف الأول من عهد الخليفة المستنصر بالله ـ ــى، باستقرار سياسى ورخاء اقتصادى لم تشهده من قبل، وبعد أن كان نفوذ الدولة الفاطمية يظلل آنذاك وسط الشام وجنوبه والحجاز وصقلية والمغربين الأدنى والأوسط(٢٤)، واعترف الصليحى الشيعى فى اليمن بسلطات الخليفة المستنصر بالله سنة ٤٥٥هـ(٢٥) (١٠٦٣م)، وخطب البساسيرى للفاطميين على منابر بغداد، تراجع هذا المجد وتقلص النفوذ الفاطمى لاشتعال نيران الثورات على الفاطميين فى بلاد الشام ولاندلاع الحروب الداخلية بين العناصر المختلفة المكونة للجيش الفاطمى كما أصيبت البلاد بالمجاعات والأوبئة وهو ماعرف فى التاريخ باسم الشدة العظمى المستنصرية(٢٦) مما دفع الخليفة المستنصر بالله إلى استدعاء بدر الجمالى واليه على عكا.

ورغم نجاح الجمالى فى اقرار الأوضاع الداخلية الا أنه لم ينجح فى اعادة بسط النفوذ الفاطمى على الشام، ولكن ولده الأفضل شاهنشاه نجح فيما اخفق فيه والده، فتمكن من تأكيد نفوذ الفاطميين على مدينة صور(٢٧) كما استرد مدينة بيت المقدس من يد حاكميها الأرتقيين فى أواخر رمضان أو شوال سنة ٤٩١هـ (١٠٩٨م) فى قول، وفى عام ٤٩٢هـ (١٠٩٩م) فى قول آخر. ولم يتوقف الافضل منذ ذلك الحين عن بسط النفوذ الفاطمى على مدن الساحل الشامى،

وتشهد على ذلك العملات الفاطمية التي عثر عليها في معظم الساحل والتي تحمل اسم الخليفة المستعلي بالله الفاطمي. ولم يحل خريف سنة ٤٩١هـ (١٠٩٨م) الا وكان الأفضل قد أمن حدود الخلافة الفاطمية في بلاد الشام حتى مجرى نهر الكلب على الساحل شمالي مدينة بيروت وحتى ارباض اللاذقية بالاضافة إلى سيطرته الاسمية على مدينة طرابلس.(٢٨)

على أن هذا التقدم في المسار العسكري لم يحل دون انتشار الفوضى في السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية، فعقب وفاة الخليفة المستنصر بالله، استبعد الأفضل شاهنشاه ولده الأكبر نزار، وثبت المستعلي بالله، أخاه الاصغر بدلا منه علي، عرش الخلافة الفاطمية مما أدى إلى قيام الفتن والثورات من قبل الطائفة المشايعة والمؤيدة لنزار الابن الأكبر للمستنصر بالله، فأدى ذلك إلى اضطراب الأحوال الداخلية للدولة(٢٩) الفاطمية.

ومن خلال هذا العرض السريع يتبين لنا أن المشرق الإسلامي كان يعاني حالة من الضعف والتفكك وصفها المؤرخ **الفيومي** في العصر الوسيط بقوله «وكان الخلفاء والملوك في ذلك الوقت، مامنهم الا مشغول بنفسه، مكث على مجالس أنه يصطبخ في لهوه ويغتبق ويجرى في مضمار لعبه ويستبق، ويرى السلامة غنيمة واذا عن له وصف الحرب يوما، لم يسل عنها الا عن طريق الهزيمة وقد بلغ أمله في الرفاهية، وقنع من ملكه كما يقال بالسكة والخطبة،أموال تنهب وممالك تذهب ونفوس قد تجاوزت الحد في اسرافها وبلاد تأتيها الاعداء فتنتقصها من أطراف لايبالون بما سلبوا.»(٣٠).

ووصفها المؤرخ **هولت** في العصر الحديث بقوله «عندما تقدمت الحملة الصليبية الأولى نحو سوريا في خريف سنة ١٠٩٧م، كان المشاركون فيها يتقدمون نحو منطقة تمزقت أراضيها إلى أجزاء ضعيفة، وكان حكام هذه البلاد ضيقي الأفق تعوزهم الخبرة السياسية، وكان يحرك هؤلاء الملوك المتفرقين (ملوك الطوائف) قوتان رئيسيتان، الأتراك السلاجقة والدولة الفاطمية وكلاهما كان في مرحلة انهيار...»(٣١).

اليقظة الإسلامية وبداية التعاون العسكرى بين اتابكية دمشق والخلافة الفاطمية فى مصر:

شهد عام ٥٣٩هـ انتصاراً كبيرا لفكرة الجهاد الأعظم ضد الصليبيين، وذلك عندما استرد عماد الدين زنكى اتابك الموصل (٥٢٢ - ٥٤١هـ / ١١٢٧ - ١١٤٦م) امارة الرها الصليبية احدى الامارات الصليبية الأربعة التى أسسها الصليبيون فى بلاد الشام. وكانت البشائر الأولى لهذه اليقظة قد ظهرت قبل ذلك بسنوات أثناء الزحف الصليبى نفسه على بلاد الشام وفى الأعوام الأولى لاستقرار الصليبيين على أراضى الإسلام(٣٢).

ويعرف بعض المؤرخين هذه المرحلة بأنها مرحلة الصحوة والافاقة الإسلامية(٣٣)، فقد شهدت محاولات عديدة من قبل بعض القوى الإسلامية للتصدى لجحافل الصليبيين متناسية ما كان بينها من صراع وخلاف.

وتمت أولى هذه المحاولات على أيدى السلاجقة الذين كانوا أسبق فى ادراكهم لخطورة الهجمة الصليبية من الفاطميين. من الفاطميين. ففى الوقت الذى بادر فيه الأفضل شاهنشاه بارسال سفارة فاطمية إلى الصليبيين أثناء حصارهم لانطاكية بهدف التحالف معهم ضد الأتراك السلاجقة اخوانه فى الدين، عارضا عليهم أقتسام بلاد الشام بينهما، فيكون شمالها بما ذلك انطاكية من نصيبهم فى حين تكون بيت المقدس وجنوب الشام من نصيب مصر(٣٤)، كان ياغى سيان المسلم حاكم انطاكية المحاصرة يستنجد بكافة القوى الاسلامية المجاورة له. مما أدى إلى سريان روح قوية من التعاطف والتضامن الدينى بين تلك القوى فى بلاد الشام،فسعت إلى التكتل وتوجهت مجتمعة إلى انطاكية لايقاف تقدم الصليبيين نحوها.

أما الأفضل شاهنشاه فقد كان أكثر حكام المسلمين استهانة بهذا الخطر الصليبى فهو لم ير فى الانتصارات الصليبية الأولى على السلاجقة، أية خطورة على الإسلام ولم يستشعر مدى الكارثة التى حلت ببلاد الشام، والتى ستحل عليه فيما

بعد، بل تصور أن مجيء الصليبيين إلى الشام كان بمثابة حركة انقاذ للدولة الفاطمية لتخليص الشرق الأدنى كله من سيطرة السلاجقة ورد الصليبيون على هذه السفارة الفاطمية بسفارة صليبية يرأسها يوحنا الخادم الذى كان أحد رجال الدين الجنوبيين لتوطيد العلاقات الاقتصادية بين جنوة ومصر الفاطمية. وقد تلقى أعضاء الوفد الفاطمى عقب اتصالهم بالصليبيين هدية من الفرنج تتمثل فى مائتى رأس من رؤوس القتلى الشهداء من الأتراك السلاجقة موجهة للخليفة الفاطمى فأبدى أفراد السفارة الفاطمية سرورهم البالغ(٣٥) مما يشير إلى عمق التعصب المذهب الأعمى الذى ابداه ممثلو الأفضل تجاه الأتراك السلاجقة اخوانهم فى الدين، وإلى جهلهم بأهداف الحملة الصليبية الأولى.

كما استقبل الأفضل سفارة من الكسيس كومنين الامبراطور البيزنطى يعرض فيها عليه المساعدة فى الخطط الفاطمية القادمة.

لقد حرصت القوى الإسلامية فى بلاد الشام على التضامن فيما بينها لصد جحافل الصليبيين المحاصرين لانطاكية، فتشكل حلف إسلامى تحت زعامة كربوغا(٣٦) صاحب الموصل فى المحرم من سنة ٤٩١هـ (أواخر ديسمبر ١٠٩٧م). وكان يشمل إلى جانب كربوغا، دقاق بن تتش ملك دمشق واتابكه طغتكين، وجناح الدولة حسين بن ملاعب صاحب حمص، وأمير حماة، وشمس الدولة ابن ياغى سيان.

واجتمعت هذه القوات الإسلامية بأرض شيزر، ثم التقت بسرية كبيرة من الفرنج كان يقودها بوهمند النورمندى وروبرت أمير فلاندر، بأرض البارة قرب حلب ودارت معركة فى نهاية ديسمبر سنة ٤٩١هـ (١٠٩٧م) لم تسفر عن أى نتائج حاسمة بالنسبة للطرفين بالرغم من تأكيد المصادر العربية على تفوق المسلمين فى هذه المعركة.

كما بادر رضوان بن تتش ملك حلب تحت ضغط والحاح من ياغى سيان، بانفاذ جزء من جيشه بقيادة سكمان بين ارتق ليلحق بالجيوش الإسلامية

المتحالفة[٣٧]. ولعبت الخيانة دورا فى حسم هذه الأحداث فقد قام مسيحيو حلب وحارم من الأرمن والسريان بتسريب أسرار الخطة الإسلامية إلى الجانب الصليبى مما أسفر عن هزيمة نكراء منى بها المسلمون المتحالفون عند لقائهم بالصليبيين عند بحيرة العمق فى (فبراير ١٠٩٨م)[٣٨].

ورغم هذه الهزيمة الا أننا نرى - على خلاف مايراه بعض المؤرخين - أن قيام هذا الحلف فى حد ذاته بصرف النظر عن النتائج العسكرية التى ترتبت عليه، كان بمثابة خطوة أولى ايجابية نحو افاقة اسلامية حقيقية تمخض عنها فى النهاية توحيد شامل للجبهة الاسلامية زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب[٣٩].

وفى أعقاب استيلاء الصليبيين على انطاكية وتنكيلهم بأهلها وارتكابهم بها أبشع أنواع المذابح وأشنعها، تقدموا باتجاه بيت المقدس، التى وصلوا أمام أسوارها فى ٧ يونيو ١٠٩٩ (٤٩٢هـ) فشرعوا على الفور فى حصارها، ثم اقتحموها وانتزعوها من ايدى الفاطميين فى ٢٣ شعبان سنة ٤٩٢هـ (١٤ يوليو ١٠٩٩م)، وقتلوا بمسجدها الأقصى مايزيد على سبعين ألفا. وعندئذ أحس الفاطميون بالخطر وأدركوا مدى الخطأ الذى وقعوا فيه عندما جنحوا إلى التحالف مع الصليبيين، وتلقى الأفضل شاهنشاه درسا قاسيا أدرك من خلاله مدى جهله السياسى وحمقه وسؤ تصرفه بعدم تعاونه مع القوى الاسلامية فى بلاد الشام ضد هذا الخطر الداهم.

ولم يقف الأفضل مكتوف الأيدى بعد تسببه فى ضياع بيت المقدس، فى وقت كانت المقاومة السلجوقية قد انهارت فيه تحت وطأة الضربات الصليبية المتتالية، فسرعان ماخرج على رأس الجيش الفاطمى فى سلسلة من الحملات ضد الصليبيين واشتبكت قواته معهم فى عدة مواقع أهمها الموقعة المعروفة باسم موقعة عسقلان الكبرى (رمضان سنة ٤٩٢هـ / أغسطس ١٠٩٩م) وهى الموقعة التى سحق فيها الجيش الفاطمى، وهزم هزيمة نكراء، فقام الأفضل بحل جيشه القديم

واعاد تكوين فرق جديدة لتكون بمثابة نواة الجيش قوى استعدادا لمعارك قادمة ضد الصليبيين(٤٠) .

وقبع الأفضل وانكمش داخل مصر قرابة عامين قبل أن يفكر مرة أخرى فى مواصلة الجهاد، مما أتاح الفرصة للصليبيين لتأسيس المملكة الصليبية دون أى مضايقة كما استولوا على كل من أرسوف وقيسارية مما أجبره على الخروج مرة أخرى لمواجهة اعدائه. والتقى الأفضل مجددا بالصليبيين فى حملة الرملة الأولى سنة ٤٩٤هـ (١١٠١م).

ويرجع السبب فى أختيار الأفضل لهذه المدينة على وجه الخصوص إلى أنه. كان باستطاعته أن يهدد منها كل من يافا وبيت المقدس، بيد أن هذه الحملة انتهت بهزيمة الفاطميين وأنسحابهم من أرض المعركة إلى عسقلان. ورغم فشل هذه المحاولة الفاطمية وتكبد جيوش الخلافة خسائر جسيمة إلا أن الأفضل ما لبث أن عاود الكرة، وذلك فى حملة الرملة الثانية سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢م) وفى هذه المرة أحرز الفاطميون نتائج كان من الممكن لو أحسنوا استغلالها أن تسفر عن مكاسب عسكرية رائعة، ولكن الخلاف الذى دب بين قيادة الحملة، مكن الجيش الصليبى من النجاة من خطر الحماس الذى انتاب الفاطميين.

ولسنا هنا فى معرض الحديث عن تفاصيل هذه الحملات الفاطمية إذ أنها كانت مجالا لدراسات تاريخية قيمة قائمة بذاتها(٤١).

ولكن ما نود الإشارة إلية هو أن الأفضل استفاد جيدا من الدروس السابقة اذ أنه طرح جانبا الخلافات المذهبية والسياسية التى طالما غلبت على علاقاته بحكام دمشق من السلاجقة، وطلب معونتهم للقيام بعمل واحد مشترك ضد الصليبيين هذه المرة.

ويذكر ابن ميسر أن الأفضل بادر فى عام ٤٩٦ هـ (١١٠٢/ ١١٠٣م) بالاستنجاد بدقاق ملك دمشق وذلك حين أصيب الفاطميون بانتكاسات متتالية أمام الصليبيين إلا أن دقاقا اعتذر عن ذلك ولم يحضر(٤٢).

ولكن بعد مرور نحو عامين تغيرت الأوضاع السياسية فى امارة دمشق فقد توفى دقاق وتولى ظهر الدين طغتكين أمور البلاد.

ويعد طغتكين من أعظم الشخصيات الاسلامية التى برزت فى هذه المرحلة التارخية والتى لم تسلط عليها الأضواء بالقدر الذى يستحقه ولم تنل حقها من الدراسات التاريخية بالنظر إلى الدور الذى اضطلع به، فهو حاكم صادق فى ايمانه العميق بالجهاد المقدس، أفنى زهرة عمره فى قتال الصليبيين، كما آمن بفكرة الوحدة الاسلامية وترفع عن الصغائر وتعالى على أية خلافات مذهبية لتحقيق التضامن الاسلامى والتكتل مع مختلف القوى الاسلامية فى مصر والموصل لمواجهة التيار الصليبى الجارف.

وكانت شخصية ظهر الدين طغتكين مجالا للنقاش بين المؤرخين فى العصور الاسلامية الوسطى وكذلك فى العصر الحديث، وناله شأن الكثير من رموزنا وشخصياتنا العربية والاسلامية العظيمة بعض التجريح والتلويم، ولكننا إذا تتبعنا اعماله ونظرنا إليها نظرة مجردة ومحايدة واضعين فى اعتبارنا الظروف التى أحاطت به فى ذلك الوقت لوجدناه من رواد حركة الجهاد المقدس ومن أقطاب فكرة الوحدة الاسلامية، ويكفيه شرفا أنه هاجم حصن علعال أحد الحصون الصليبية التى كانت تنطلق منها قواتهم لضرب المدن الساحلية الاسلامية، واستولى عليه، كما انقض على جيش هيو حاكم الجليل فى نهاية سنة ٤٩٩ هـ (١١٠٥م) اثناء عودته محملا بالغنائم وأصابه بجرح توفى على أثره. وفى سنة ٥٠٢ هـ (اوائل مايو ١١٠٨م) اشتبك طغتكين مع الصليبيين فى موقعة اسفرت عن أسره لجرفيه جرفاس أمير الجليل وقتله له.

وكانت هذه الأعمال العسكرية بمثابة انتصارات اسلامية كبيرة تحققت بعد سلسلة من الهزائم وقد رفعت هذه الانتصارات من روح المسلمين المعنوية وساعدتهم على الاستمرار فى المقاومة(٤٣). وسنستعرض أمثلة أخرى على الصفحات القادمة لتوضيح دوره البطولى كما سنناقش بعض الاتهامات التى وجهها بعض المؤرخين إليه.

وطغتكين أو طغركين وقيل طغدكين وقطلغتين[٤٤] كان مملوكا لتاج الدولة تتش بن ألب أرسلان، ومقدما لديه، وقد زوجه تتش من رقمان أم ولده[٤٥]، ورتبه في امارة ميافارقين بعد استيلائه عليها. وعرف طغتكين منذ ظهوره بالمهارة والكفاءة العسكرية والسياسية، فعندما ثارت مدينة آمد التابعة لميافارقين قام باخضاع ثوارها وضرب على ايديهم واعاد المدينة الى نفوذ تتش[٤٦]، وانتقل حكمها من بعده إلى ولده دقاق.

وتختلف المصادر حول الوضع الذى كان عليه طغتكين عند وفاة سيده تتش، ففي حين يذكر ابن القلانسي أنه حضر مع سيده الوقعة الأخيرة في الرى، فلما قتل تتش وقع طغتكين فى أسر بركياروق، وظل لديه مدة عام، خرج بعده إلى دمشق حيث استقبله دقاق بالترحاب واعتمد عليه في تدمير مملكته[٤٧]، يذكر الفارقى أن طغتكين لم يشهد تلك الوقعة وأنه كان فى ميارفارقين آنذاك، وانه مضى إلى دمشق حيث استقبله دقاق عند سماعه بمقتل تتش، وولى الامير التاش على ميافارقين[٤٨]. وقد ساندطغتكين دقاق ابن سيدة، طوال حياته وتفانى فى الدفاع عن دمشق عندما هاجمها الحليفان رضوان صاحب حلب وسكمان ابن أرتق، ثم قام بمطاردتهما حتى اجبرهما على العودة إلى حلب، وبعدها قام طغتكين بمهاجمة رضوان في عقر داره، إلا أن رضوان انتصر على الدماشقة فتراجعوا إلى دمشق[٤٩]. كما شارك مع سيده دقاق في حلف كربوغا سنة ٤٩١ هـ لمواجهة الصليبيين المحاصرين لانطاكية كما سبق أن أشرنا ومنذ ذلك التاريخ بدأت مرحلة جهاده ضد الصليبيين. وعندما توفى دقاق سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٤م)[٥٠] قام طغتكين بتولية تتش ابن دقاق على عرش البلاد وخطب له، ثم قطع خطبته لتتش وخطب لأرتاش أخي دقاق الذى كان لا يزال صبيا والذى خوفته أمه من طغتكين لزواجه من أم دقاق، فاستوحش وفارق دمشق إلى بعلبك فى صفر سنة ٤٩٨ هـ. أما طغتكين فقد نصب الطفل تتش ابن دقاق مرة أخرى وخطب له مدة قصيرة ثم ما لبث أن عزله وقام هو بأمر دمشق.

وقد تعرض طغتكين لهجوم شديد من قبل بعض مؤرخي العصور الوسطى(٥١). كما تعرض لحملة من التشكيك في مدى صدقه كمجاهد اسلامي، واتهم بالانتهازية والطموح اللامحدود.

وفيما يتعلق بقضية استئثاره بحكم دمشق واتهام المؤرخين له بالانتهازية والاستبداد لا يسعنا إلا القول بأن طغتكين عندما تولى حكم هذه الامارة عقب وفاة دقاق انما كان ينفذ بذلك وصية سيده الذى أكد قبيل وفاته على رغبته بأن يتولى طغتكين حكم البلاد من بعده وأن يشرف كذلك على حضانة ولده الصغير تتش(٥٢).

وعندما فكر طغتكين فى تنصيب أرتاش بن تتش واخي دقاق كان صادقا فى ذلك، فقد جاء ارتاش بالفعل إلى دمشق. ويذكر بعض المؤرخين أن طغتكين ارهبه ففر من دمشق هاربا(٥٣). والواقع أن شخصية أرتاش كانت شخصية سيئة مذمومة يجب علينا ألا ندافع عنها أو حتى نتعاطف معها، فالمصادر تؤكد أن أم ارتاش هى التى خوفته من طغتكين(٥٤) كما أشرنا، ففر من تلقاء نفسه من دمشق، وسنراه ينضم فيما بعد إلى الصليبيين وسيحارب إلى جانبهم ضد قوات ابناء جلدته من الدماشقة(٥٥) وحلفائهم من الفاطميين فى موقعة الرملة الثالثة سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٥م) كما سنوضح بعد قليل، وحتى لو افترضنا جدلا أن طغتكين هو الذى أرهب ارتاش ودفعه إلى الهرب، فان ذلك كان بلا ادنى شك لصالح دمشق الاسلامية، ولنا أن نتصور نوعية السياسة التى كان سينتهجها شخص مثل ارتاش فى حالة توليه حكم البلاد وهو الذى سعى إلى التحالف مع عدو دينه وبلاده فى سبيل مصلحته الذاتية. ولو كان طغتكين قد أرهب ارتاش، ونحى ابن دقاق الصغير لينفرد بحكم دمشق وحده، فان المصلحة العليا للاسلام والظروف التى كان يمر بها العالم الاسلامى فى ذلك الوقت من هجوم الصليبيين، على بلاد الشام وتهديدهم لباقى الأقطار الاسلامية، كانت تفرض عليه كرجل مسلم وحاكم محنك وسياسى بارع بعيد النظر أن يقوم هو بادارة دفة الأمور فى دمشق، خاصة وأن دمشق لم تكن بالمدينة الصغيرة بل كانت امارة وحاضرة من حواضر الاسلام الكبرى، وكان

الضمير والواجب الاسلامى يحتمان عليه أن ينحى عواطفه جانبا فيقوم بابعاد ابن سيده وولى نعمته حفاظا على دمشق من السقوط فى أيدى الصليبيين[٥٦]، وستثبت لنا الأحداث التى تلت حملة الرملة الثالثة سنة ٤٩٨ هـ ان امارة دمشق كانت دائما مطمعاً للصليبيين الذين لم يزهدوا ابدا فى الاستيلاء عليها ومهاجمة نواحيها.

ويؤكد رأيى ما أوردته المصادر العربية من أخبار عن حسن سيرة طغتكين وعدالته ورضا رعيته عنه[٥٧]، وسعيه إلى التضامن مع الأفضل فى مصر من جهة وحكام الموصل من جهة أخرى لمواجهة الصليبيين.

وتعتبر حملة الرملة الثالثة هى أول مظاهر التعاون العسكرى بين دمشق والقاهرة ولكنها كانت فى نفس الوقت آخر المحاولات العسكرية الكبرى للأفضل ضد الصليبيين فى بلاد الشام لاستعادة النفوذ الاسلامى هناك[٥٨]. واستعد الأفضل للخروج بهذه الحملة خير استعداد، فكان الجيش الفاطمى يتكون من خمسة آلاف جندى[٥٩] يقودهم عدد من القادة المشهورين امثال زهر الدولة بناء الجيوش امير عكا السابق، وجمال الملك امير عسقلان، وامير قيسارية، ولكنه وضع القيادة العامة للجيش تحت اشراف سناء الملك حسين أحد ابنائه[٦٠]، كما تقدم الاسطول البحرى لمساندة الجيوش البرية.

وكان الأفضل الذى تلقن درسا قاسيا بتحالفه السابق مع الصليبيين، هو الذى بادر بالاتصال بأتابكية دمشق السنية، طالبا معونتها العسكرية. ويرى بعض المؤرخين فى هذا المطلب الفاطمى، مؤشرا على عقد حلف عسكرى فاطمى شيعى - سلجوقى سنى ومحاولة فاطمية - سلجوقية للاطباق على الصليبيين من الشمال والجنوب وحصرهم بين شقى الرحى.

واستجاب طغتكين اتابك دمشق لهذا النداء الفاطمى معربا عن سرورة لمساندة الأفضل شاهنشاه وتوحيد جهودهما لمواجهة الصليبيين.

ويرى فريق كبير من المؤرخين أن هذا التحول المفاجئ فى سياسة دمشق

مساعدة الأفضل سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢م) إلا أن طغتكين بموافقته هذه المرة انما كان يهدف إلى اسباغ نوع من الشرعية على حكمه لكسب الرأى العام الاسلامى فى دمشق إلى صفه فتتغاضى رعيته عن اغتصابه عرش امارتهم(٦١).

والواقع أنه إذا جاز لبعض المؤرخين الغربيين امثال ستيفنسون Stevenson* أن يفسروا روح التضامن والرغبة الملحة لدى طغتكين للتنسيق العسكرى مع الأفضل رغم خلافاتهم المذهبية، بهذا التفسير فاننا يجب ونحن نتصدى لتأريخ فترة حاسمة وهامة - من تاريخنا الاسلامى أن نتوقف قليلا لنتأمل هذا الرأى وصولا منا إلى الحقيقة التاريخية وتبرئة شخصية اسلامية لها اياد بيضاء فى مجال الجهاد المقدس ضد الصليبيين مما اتهم به ونحن نستبعد أن يكون عامل المصلحة الذاتية وراء اندفاع طغتكين للتضامن مع الأفضل لعدة أسباب:

أولاً: لم تكن هذه هى المرة الأولى التى شارك فيها طغتكين فى حلف اسلامى بهدف الجهاد ضد الصليبيين فقد ساهم من قبل فى حلف كربوغا الاسلامى سنة ٤٩١ هـ لانقاذ انطاكيه، وكان دقاق لا يزال حاكما لدمشق وعلى قيد الحياة، ولم يكن طغتكين آنذاك فى حاجة لاسباغ أى نوع من الشرعية على حكمه.

ثانياً: لو كان طغتكين يسعى إلى التظاهر بالتقوى والورع من خلال جهاده مع الأفضل ضد الصليبيين، كسبا للرأى العام فى امارة دمشق وتفويتا للفرصة على أرتاش، لكان قد اكتفى بالمشاركة فى هذه الحملة إلى أن تستقر له دعائم الحكم فى دمشق، ولكن بالنظر إلى تاريخ طغتكين الطويل فسنجد أنه أمضى حياته كلها مجاهدا وأن مشاركته الفاطميين فى حملة الرملة الثالثة انما كانت بمثابة نقطة البداية لتعاون عسكرى طويل بين دمشق والقاهرة، كما سنوضح فى الصفحات التالية كما أن طغتكين قد شارك بنفسه فى القتال ضد الصليبيين فى مواقع أخرى عديدة فى بلاد الشام وتحالف مع حكام الموصل فى أكثر من مناسبة.

ثالثاً: لو لم يكن الجهادهو هدف طغتكين الرئيسى، لما جازف وهو القائد العسكرى المحنك بالاحتكاك بالصليبيين ومشاركة الأفضل فى قتالهم، لأنه بذلك

قد استثارهم وفتح باب المواجهة معهم على مصراعيه ولفت انظارهم إلى امارته، ولو كان طغتكين يبغى حقيقة مصلحته الشخصية فحسب، لكان قد آثر تجنب تلك المواجهة. ويشير نفس المؤرخين العرب الذى تشككوا فى صدق نوايا طغتكين ورغبته الحقة فى الجهاد مع الفاطميين إلى أنه باشتراكه فى حملة الرملة الثالثة، انما عرض دمشق للخطر الصليبى وأنه لولا الخسائر الفادحة التى اصيب بها الصليبيون فى هذه المعركة لكانوا قد تحولوا لمهاجمة دمشق ذاتها لتلقين اتابكها درسا لا ينساه[٦٢].

رابعاً: ان انضمام ارتاش إلى الصليبيين وسعيه إلى التحالف معهم والحاحه فى ذلك رغم رفض بلدوين مساعدته فى بداية الأمر، كان كفيلا فى حد ذاته لتغيير مشاعر أهالى دمشق تجاهه ونفورهم منه ودافعا لتمسكهم باتابكهم طغتكين الذى حسنت سيرتة فيهم[٦٣]، وبذلك لم يكن هناك داع لأن يجازف طغتكين باستثارته للصليبيين ومواجهتهم لو لم يكن هدفه الرئيسى هو الجهاد المقدس.

وتختلف الولايات الاسلامية فيما بينها حول مسألة قيادة الجيش الدمشقى، فبعضها يؤكد على خروج طغتكين بنفسه على رأس قواته الدمشقية للقتال ضد الصليبيين[٦٤] فى حين تذكر بعض الروايات الأخرى أنه أرسل أصبهبد صباوو[٦٥] أحد قيادته نيابة عنه.

وتحرك الجيشان المتحالفان باتجاه عسقلان ومنها صوب الرملة فى الوقت الذى واكبهم الاسطول الفاطمى فى البحر. واتخذت القوات الاسلامية موقعا فى سهل الرملة. ومن الجدير بالذكر أن الأفضل كان قد تخير هذا التوقيت لبدء حملته على وجه التحديد، لعلمه التام بخلو مدينة القدس من الحجاج فضلا عن انشغال بعض الامارات الصليبية الأخرى بالمنازعات الداخلية والحروب الأهلية فيما بينها، ولا سيمابين بوهيمند صاحب انطاكية والكسيس كومنين الامبراطور البيزنطى مما عرقل امكانية وصول أية مساعدات للقدس فسهلت على المسلمين مهمة الانقضاض على الفريخ.

وقد أصيب الصليبيون بحالة من الهلع والتوتر عندما وصلتهم انباء وفود الجيش الاسلامى المتحد، لذلك أسرع بلدوين بترك يافا وتوجه مع اتباعه وافصاله وجيوشهم وحاميات الجليل وحيفا وبطريارك وبيت المقدس واتباعه نحو الرملة ليتمكن من حماية كل من بيت المقدس ويافا، وكان ارتاش قد انضم اليهم بقواته.

واتسمت الخطة الاسلامية المشتركة بالدقة والاحكام، فقد قسم القادة المسلمون الجيش المتحد إلى قسمين، وفيما يتعلق بالقسم الأول وهو الأصغر فقد اقتصرت مهمته على الاتجاه إلى الرملة لشغل الصليبيين واستدراجهم في قتال مكشوف في حين يتوجه القسم الآخر إلى يافا لمهاجمتها واسقاطها، بمعاونة الأسطول الفاطمى.

وبدأت المعركة يوم الأحد ١٤ ذى الحجة سنه ٤٩٨ هـ (٢٧ أغسطس ١١٠٥م) فى سهل الرملة، وأبلى فيها كل من الدماشقة والفاطميون بلاء حسنا واستماتوا فى ميدان القتال. وتميز الدماشقة بالسرعة الفائقة والمهارة البالغة فى التصويب الدقيق على أهدافهم بالسهام فتمكنوا من محاصرة أحدى الفرق الفرنجية وانهالوا بتسديد سهامهم عليها مما أثار ثائرة الملك الصليبى فأخذ علمه الأبيض من يد أحد فرسانه واقتحم الصفوف وأخذ يقاتل حتى تمكن من فك شبكة الحصار حول اتباعه وشتت شمل جند دمشق والحق بهم خسائر فادحة(٦٦). وكان فى امكان المسلمين التغلب على قوات الصليبيين لولا أن انسحبت ميمنة الجيش فى محاولة للاستيلاء على ميناء حيفا مما أضعف الجيش الاسلامى، وانتهت هذه المحاولة بالفشل، وعند عودة هذه الفرقة فى المساء، وجدت أن المعركة قد انتهت بتراجع الدماشقة إلى دمشق والفاطميين إلى عسقلان.

وفيما يتعلق بنتيجة هذه المعركة المشتركة بين الجيشين الفاطمى والدمشقى فقد كانت محورا للنقاش بين المؤرخين. فالفريق الأول منهم وعلى رأسه **ابن ميسر وابن القلانسى والمقريزى** يؤكد أن المعركة انتهت باستظهار الفرنج على المسلمين وان كان عدد القتلى من كلا الجانبيين متقاربا(٦٧). أما الفريق الثانى، من

المؤرخين **كالعظيمي وابن الأثير** فيؤكد أن المعركة انتهت بدون كسرة على[٦٨] أحد من الفريقين. ونحن نميل إلى الأخذ برأى الفريق الثانى، لأن الصليبيين لو أنهم انتصروا وسحقوا الجيش الاسلامى لما تردد بلدوين فى تعقب فلول المسلمين حتى اسوار عسقلان نفسها مثلما حدث عقب حملة عسقلان الكبرى وحملتى الرملة الأولى والثانية، ومطاردة جيش طغتكين حتى دمشق ومهاجمتها تأديبا له لأنه تجاسر على مقاتلتهم من جهة وتأييدا لأرتاش بن تتش وتمكينا له من عرش دمشق من جهة أخرى.

ومن نتائج هذه المعركة أيضا استشهاد جمال الملك امير عسقلان ووقوع كل من زهر الدولة الجيوشى[٦٩] أمير عكا، وكذلك امير ارسوف السابق فى الأسر حيث حصل بلدوين على فدية كبيرة مقابل أطلاق سراحهما فى حين نجح سناء الملك حسين ابن الأفضل فى الفرار إلى القاهرة. وقد ابدى **فوشيه دى شارتر** حزنه لفراره حيث كان يأمل فى حصول الصليبيين على فدية كبيرة مقابل اطلاق سراحه.

ورغم عدم احراز هذا الحلف الدمشقى/ الفاطمى، نصرا حاسما فى هذه الحملة إلا أنه كان خطوة ايجابية على طريق التعاون والتنسيق العسكرى المشترك بين البلدين.

وفى عام ٥٠٠هـ (١١٠٦م) تكرر هذا التعاون العسكرى عندما خرج الأمير عز الملك متولى صور وواليها من قبل الفاطميين فأوقع بالفرنج على حصن تبنين[٧٠]. الذى كان الصليبيون قد ابتنوه منه ٤٩٩ هـ (١١٠٥م) ليسهل عليهم مهمتهم فى الاستيلاء على مدينة صور التى كانت منطلقا للغارات الفاطمية ضدهم. فلما علم بلدوين بذلك، توجه من طبرية لمهاجمة المدينة انتقاما من حاميتها. وتذكر المصادر العربية أن طغتكين أسرع بالتحرك من دمشق الى طبرية فور وصول انباء التحركات الصليبية إلى اسماعه، وبادر بمهاجمة املاكهم وأخذ حصنا

لهم بالقرب من طبرية نفسها وأسر بعض من كان فيه وقتل البعض الآخر فارتد الصليبيون إليه، والتقى الجيشان في وضع حدده **ابن القلانسي** بناحية زرا.

وكان الدماشقة على أهبة الاستعداد للاشتباك مع الصليبيين وقد قويت نفوسهم وارتفعت روحهم المعنوية ولكن الصليبيين جبنوا على الاقدام على هذه المواجهة، وعندما زحف الجيش الدمشقي الى موضع مخيمات الصليبيين ألفاهم قد رحلوا عائدين إلى طبرية ومنها إلى عكا فاضطر طغتكين إلى العودة بجيشه إلى دمشق(٧١).

ونلاحظ هنا أن ظهر الدين طغتكين كان قد خرج بنفسه على رأس قواته لمهاجمة طبرية وحصونها، وهذا يدفعنا إلى ترجيح رأى ابن القلانسي الذى يؤكد أن طغتكين قد شارك بنفسه فى حملة الرملة الثالثة سنة ٤٩٨هـ.

وفى نفس العام ٥٠٠ هـ (٩ أكتوبر ١١٠٦م) أنتهز مسلمو عسقلان وصور وصيدا بيروت فرصة انشغال بلدين الأول بأمور الجليل فبادروا بالهجوم على الصليبيين على طريق يافا – بيت المقدس وخروج سبعة آلاف فارس من الحاميات الفاطمية من تلك المدن إلى سهل نهر العوجة بين أرسوف ويافا وقتلوا خمسمائة من حجاج الصليبيين. واستمرت تلك الهجمات الاسلامية ضد الصليبيين حتى علموا بتقدم بلدوين لقتالهم عندئذ انسحب المسلمون عائدين إلى مدنهم الساحلية. ومن ذلك يتضح أن مملكة بيت المقدس ألفت نفسها بين شقى رحى، فضربات الدماشقة كانت تنهال عليهم من الشمال وضربات الفاطميين من الجنوب فى تنسيق رائع، هذا بخلاف العمليات العسكرية المصرية(٧٢) الشامية المشتركة. واعتمد فريق كبير من مؤرخى العصور الوسطى(٧٣) على رواية أوردها بعض المستشرقين عندما قام الصليبيون بمحاصرة مدينة صيدا التابعة للفاطميين سنة ٥٠١هـ (١١٠٧/ ١١٠٨م) تمهيدا للاستيلاء عليها، اتخذت كل من القاهرة ودمشق العدة للدفاع عن هذه المدينة الساحلية الهامة فى نفس الوقت الذى استعد فيه

الاسطول المصرى لمساندة الجيوش البرية فى ذلك واشتبك الاسطول الجنوى المشارك فى الحصار الصليبى، مع الأسطول المصرى فى معركة بحرية ضارية، أسفرت عن هزيمة الجنويين مما أصاب الصليبيين بانتكاسه معنوية. ولما وصلت إلى اسماعهم انباء قرب وصول طغتكين على رأس قواته، قرر بلدوين الأول فك حصاره عن المدينة والرحيل بعد أن أحرق معداته الحربية حتى لا تتاح للمسلمين فرصة الاستيلاء عليها(٧٣). ويعتمد فريق كبير من مؤرخى العصور الوسطى(٧٤) على رواية أوردها بعض المستشرقين وعلى رأسهم رانسمان وستيفنسون نقلا عن البرت دكس(٧٥) مفادها أن والى صيدا قد عرض على طغتكين ألف دينار مقابل مساعدته لهم فى مقاومة الصليبيين. فلما اصطدم الاسطول المصرى بالأسطول الجنوى وانهزم الجنويون وقام بلدوين بفك الحصار عن المدينة، عدل والى صيدا عن دفع المبلغ المذكور لطغتكين ورفض السماح له ولقواته بدخول المدينة لارتيابه فى نواياه مما أثار غضب طغتكين وجنده فقام بتهديد والى المدينة الفاطمى باستدعاء بلدوين وتمكينه منها، وعندئذ اضطر والى صيدا إلى أن يدفع له عشرة آلاف دينار تعويضا عن خروجهم لنجدته.

ونحن نأخذ هذه الرواية التى اوردتها المراجع الأوربية نقلا عن البرت دكس بشئ من الحذر لعدة أسباب:

أولاً: لم يرد فى المصادر العربية أى تأكيد أو حتى اشارة إليها **فابن القلانسى** يذكر فى سياق حديثه عن هذه الأحداث فى أخبار سنة ٥٠١ هـ ما يلى «وفى هذه السنة نهض بغدوين فى عسكره المخذول من الافرنج نحو ثغر صيدا فنزل عليه فى البحر والبر ونصب البرج الخشب عليه ووصل الاسطول المصرى للدفع عنه والحماية له فظهروا على مراكب الجنوية وعسكر البر واتصل بهم نهوض العسكر الدمشقى لحماية صيدا والذب عنها فرحلوا عنها عائدين إلى اماكنهم.....»(٧٦).

وواضح أن ابن القلانسى لم يذكر شيئا عن رواية البرت دكس من قريب أو

بعيد. وحذا حذوه كل من ابن الأثير[٧٧]، وسبط ابن الجوزى[٧٨] والمقريزى[٧٩].

ثانيا: لو كانت هناك اتفاقية أو صفقة بين كل من طغتكين اتابك دمشق ومجد الدولة والى صيدا الفاطمى لكانت المصادر العربية قد أشارت إلى ذلك مثلما حدث فى عام ٥٠٥هـ (١١١١م) عندما قام طغتكين بالدفاع عن مدينة صور التابعة للسيادة الفاطمية كما سنشير فى السطور القادمة.

ثالثاً: وحتى فيما يتعلق بدفاع طغتكين عن مدينة صور، فقد نصت المصادر العربية على أن قبوله مبلغا من المال من قبل واليها الفاطمى لم يكن ثمنا لدفاعه عنها، فطغتكين لم يكن بالجندى المرتزق، وإنما كان ذلك مساهمة من أهالى صور وواليها فى تجهيز جيش طغتكين بالرجال والعدد لتسهيل مهمته فى الجهاد والدفاع عن المدينة وقد أورد ابن الأثير خبرا ينص على ذلك صراحة نطالع فيه ما يلى: «ثم ان عز الملك صاحب صور أرسل الأموال إلى طغتكين ليكثر من الرجال ويقصدهم ليملك البلد......»[٨٠].

ويذكر ابن القلانسى أن والى صور لم يستطع الوفاء بما كان قد وعد طغتكين به فجاءه رد أتابك دمشق كالتالى «انما فعلت ما فعلت لله تعالى وللمسلمين ولا لرغبة فى مال ولا مملكة فكثر الدعاء له والشكر بحسن فعله ووعدهم انه متى دهمتهم خطب مثل هذا سارع إليه وبالغ فى المعونة عليه وعاد إلى دمشق بعد مكابدة المشقة فى مقابلة الأفرنج إلى أن فرج الله عن أهل صور...»[٨١]. كما أنه يتضح من خلال ما سبق ذكرناه، مدى صدق طغتكين سواء فى مشاركته الفاطميين فى الجهاد ضد الصليبيين أو فى دفاعه عن موانى الشام الاسلامية وللحيلولة دون سقوطها فى ايديهم. وإذا كان موقف طغتكين من صور فيما بعد بهذا النبل فلماذا لا نتصور أن يكون موقفه فى الدفاع عن صيدا مماثلا؟؟ ولماذا نقبل رواية أوردها مؤرخ لا تينى ولم يرد ما يماثلها أو يقابلها فى المصادر العربية، وروج لها المؤرخين الغربيون امثال رانسمان وستفنسون طعنا فى

نزاهة وصدق وجدية أحد كبار القادة المسلمين؟؟

رابعاً: أن تاريخ طغتكين في الجهاد ضد الصليبيين والدفاع عن المدن الشامية طويل فبخلاف دفاعه عن مدينة **حمص** فقد أرسل أهلها سنة ٤٩٦ هـ إلى دقاق الذي كان لا يزال حاكما على دمشق يلتمسون منه انقاذ من يتسلم مدينتهم بعد مقتل صاحبها الأمير جناح الدولة حسين على يد الباطنية اثناء صلاة الجمعة فسار شمس الملوك دقاق وبصحبته ظهر الدين طغتكين في عسكر من دمشق ووصلوا الى حمص ووافق ذلك وحول الفرنج ونزولهم إلى الرستن فلما عرفوا بقدوم الدماشقة احجموا عن الاقتراب منها(٨٢).

وكذلك موقفه من مدينة **عرقة**، فقد تولى طغتكين الدفاع عنها ولكن محاولاته باءت بالفشل. وعرقة احدى الحصون المنيعة من اعمال طرابلس، وكانت بيد غلام لفخر الملك بن عمار، استقل بها بعد أن خرجت طرابلس نفسها من يد فخر الملك.

وقد ضيق الصليبيون على المدينة وقطعوا عنها الميرة، فلم يجد أهلها وواليها من يستنصرون به سوى طغتكين صاحب دمشق، وكان ذلك في عام ٥٠٢ هـ فأرسل طغتكين رجلا من قبله يسمى اسرائيل، قام بتسلم حصن المدينة، ثم عزم طغتكين على زيارة الحصن لتفقده وشحنه بالعسكر وآلات الحرب وافتتح عدة حصون في طريقه إليه ولكن الصليبيين فاجأوا قواته ليلا واشتبكوا معه في موقعه ضاريه اسفرت عن هزيمته واستيلائهم على عرقه. وكانت لهذه الاشتباكات أعظم الأثر في زيادة التعاون العسكري بين دمشق والقاهرة، وبدأ البلدان في الدخول في مرحلة جديدة من التنسيق المشترك، وتجسد ذلك بوضوح اثناء دفاعهما عن مدينة صور في محاولة لانقاذها من السقوط في ايدي الصليبيين.

وكانت مدينة صور لا تزال خاضعة للسيادة الفاطمية في ذلك الوقت، وفي نفس الوقت كانت هذه المدينة ترتبط ارتباطا اداريا وثيقا بجبال بشارة أو جبل عامل(٨٣) مما وثق العلاقات الاقتصادية بين كل من صور ودمشق ولذلك اعتبرت

صور بمثابة المنفذ البحرى الرئيسى لدمشق[٨٤] ولعل ذلك يفسر أحد أسباب استماتة طغتكين فى الدفاع عنها والحفاظ عليها من السقوط فى أيدى الصليبيين، إلى جانب رغبته فى الجهاد فى سبيل الله.

وكانت مدينة صور قد تعرضت سنة ٥٠١هـ (١١٠٧م) لحصار صليبى[٨٥] فقد بادر بلدوين بمهاجمة المدينة واستمر يحصارها لمدة شهر أنشأ خلاله حصنا على تل المعشوقة ليكون بمثابة نقطة ارتكاز عسكرية صليبية يوجه منها مزيدا من الضربات اليها. واستمات سعد الدولة كمشتكين الافضلى، والى صور فى الدفاع عنها وعرض على بلدوين أن يدفع له اتاوة قدرها سبعة آلاف دينار فى مقابل رحيله عنها[٨٦]، وعندئذ رحلت القوات الصليبية متجهة إلى مدينة صيدا لحصارها.

وتكرر هذا الخطر الصليبى على مدينة صور سنة ٥٠٥ هـ (١١١١م) خاصة بعد أن قام الأسطول الفاطمى الراسى فى صور بدور كبير فى الدفاع عن مدينة صيدا سنة ٥٠٤ هـ عشية سقوطها فى ايدى الصليبيين، مما دفع بلدوين إلى اتخاذ قرار بضرورة الاستيلاء على صور، فجهز الجيوش والاساطيل اللازمة لذلك.

ولسنا هنا فى معرض شرح تفاصيل هذا الحصار الصليبى الثانى الذى ضرب حول المدينة، فقد تعرضنا لدراسة ذلك فى بحث مفصل خاص بمدينة صور[٨٧].

وما نود الاشارة إليه هو الدور البطولى الذى قام به طغتكين أتابك دمشق عندما تصدى للدفاع عن هذه المدينة الخاضعة للسيادة الفاطمية تلبية لاستغاثة واليها عز الدين انوشتكين بعدما لمسه من تباطؤ الأفضل الفاطمى فى انجاد المدينة لانشغاله بالظروف الداخلية العصبية التى كانت تمر بها مصر من أوبئة وطواعين[٨٨]. وبادر طغتكين بارسال قوة كبيرة من الأتراك مزودة بالزاد والعدة الكاملة، وكانت تتألف فى معظمها من جماعة من مقاتلة جبل عاملة أو الجليل واحواز صور مع رجال من دمشق، ولم تكن هذه القوة الفرقة الوحيدة التى ارسلها بل اتبعها بفرقة أخرى كذلك خرج طغتكين بنفسه وخيم ببانياس وأخذ يهاجم ورجاله اعمال الفرنج

ارغاما لهم على فك الحصار عن صور واقتحم حصن الحبيس أحد الحصون الهامة القريبة من دمشق.

ولم يكن الخطر الصليبي على مدينة صور بالهين هذه المرة فقد شارك الأسطول البيزنطي في حصار المدينة كما شارك في ذلك يوستاش جارنييه بارون صيدا ولكن استماتة أهالي المدينة في الدفاع عن مدينتهم واستبسال طغتكين في ذلك، جعل الصليبيون يتحققون من عدم جدوى حصارهم هذا، فشرعوا في فك الحصار والرحيل عن المدينة وأحرقوا كثيرا من سفنهم التي كانت راسية في البحر ورحلوا قاصدين عكا»*. وفي عام ٥٠٦ هـ (١١١٣م) عزم بلدوين على منازلة صور مرة أخرى فلما وصلت الأنباء الى مسامع أهالي المدينة أجمعوا بالاتفاق مع واليهم عز الملك الأفضلي على مراسلة ظهير الدين طغتكين اتابك دمشق ودعوته لتسلم المدينة وتولي الدفاع عنها، ولم ينسوا ما فعله طغتكين لحمايتهم وما بذلك من جهود لاستنفاذ المدينة من السقوط في ايدي الصليبيين. ولم يتردد طغتكين في قبول طلب والي المدينة فأمر سيف الدين مسعود بن سلار واليه على بانياس وابنه تاج الملوك بوري نائبه في دمشق بأن يتسلما صور نيابة عنه لأن كان قد رحل، إلى حماة لاقرار الأوضاع فيما بينه وبين فخر الملك رضوان وحرص طغتكين على اظهار تعففه عن بسط نفوذه على المدينة فرغم مذهبه السني إلا أنه استقر مبقيا على الخطبة الفاطمية على منابر صور كما ظلت السكة تحمل اسم الخليفة الفاطمي، إلى جانب مبادرته بارسال مبعوث من قبله الى مصر حاملا رسالة يفسر فيها طغتكين سبب تصرفه موضحا للأفضل أن هدفه الوحيد هو الابقاء على صور اسلامية عن طريق تقويتها بالرجال، ويبلغه فيها ان بلدوين قد جمع وحشد للنزول على صور وأنه (طغتكين) على أتم استعداد لاجلاء قوته عن المدينة اذا ما ارتأى الأفضل ذلك.

وتذكر المصادر العربية أن الأفضل حمد لطغتكين ما قدمه لصور من معونات ورد عليه بكتاب عبر فيه عن شكره العميق له على ما فعله واستصوب رأيه فيما اعتمده.

وموقف طغتكين هذا يعبر تعبيرا صادقا عن رغبة أكيدة فى الدفاع عن ديار الاسلام والتعاون مع مصر الفاطمية فى التصدى للصليبيين كما يتضمن ردا على بعض المؤرخين الغربيين الذين روجوا للرأى القائل بأن طغتكين بتدخله فى صور انما قد انتزعها من ايدى الفاطميين(٨٩).

ويذكر وليم الصورى ان صور أصبحت منذ دخول الامير مسعود نائب طغتكين فيها خاضعة لحاكمين فقد احتفظ خليفة مصر لنفسه بقسمين فيها كحاكم أعلى لها، ومنح الجزء الثالث إلى صاحب دمشق لأنه كان قريبا منها وكان قد وثق ثقة تامة بطغتكين(٩٠) مما يجعلنا نرجح قيام نوع من الادارة الثنائية أو حكم فاطمى/ دمشقى مشترك بمدينة صور وهو ما يعرف باسم Condominium.

ويسجل عام ٥٠٧ هـ (١١١٣م) تطورا ملحوظا فيما يتعلق بالتعاون والتنسيق بين أكبر ثلاث قوى اسلامية فى ذللك الوقت، الموصل ودمشق والقاهرة وكانت امارة الموصل قد آلت إلى شرف الدين مودود بن التونتكين(٩١). الذى اعاد اليها، بحكمه لها الاستقرار والهدوء بعد فترة من الاضطرابات التى مرت بها عقب وفاة اميرها كربوغا. وعرف الامير مودود بتقواه وورعه ورغبته الصادقة فى جهاد الصليبيين(٩٢). ولعل ذلك كان أحد الأسباب التى قوت اواصر الصداقة والود بين كل من مودود وطغتكين فكلا الرجلين كان شغوفا بفكرة الجهاد المقدس وباستخلاص الأراضى الاسلامية من ايدى الصليبيين مما دفعهما إلى التحالف. ولعل اشهر نتائج هذا التحالف، خروجهما معا لحصار مدينة طبرية(٩٣) ونجاحهما فى نصب كمين لبلدوين الأول فى سنه ٢٠٧ هـ (٢٠ يونيو ١١١٣م) تعرض بسببه لهزيمة ساحقة عند جسر الصنبرة الواقع جنوبى غربى بحيرة طبرية. وتنفرد المصادر اللاتينية بذكر خبر مفاده ان نوعا من التنسيق العسكرى بين الموصل ودمشق والقاهرة تحقق بالفعل اثناء هذه المعركة، فبينما كان بلدوين محتجزا فى منطقة طبرية مع جميع قوات مملكته تحاصره جيوش مودود وطغتكين انتهزت القوات الفاطمية الفرصة فانطلقت حامية عسقلان، لتهاجم مملكة بيت المقدس، وتقدم المصريون نحو المدنية ودمروا فى طريقهم، مزارع القمح واحرقوها وقتلوا وسبوا

من من صادفوه حتى وصلوا إلى بيت المقدس وأقاموا أمامها عدة أيام ثم عادوا إلى عسقلان خوفا من عودة بلدوين من المعركة(٩٤) - غير أنه سرعان ما أصيب هذا التعاون العسكرى الاسلامى الشامل بصورته الجديدة بضربة فى الصميم بأغتيال الأمير مودود(٩٥) سنة ٥٠٧ هـ في دمشق حيث كان يقيم مع بعض خواصه في ضيافة طغتكين. وكان قد خرج في يوم الجمعة الأخيرة عن شهر ربيع الآخر من هذه السنة إلى المسجد الجامع بدمشق، لأداء الصلاة وهو يتأبط ذراع طغتكين، فوثب عليه شخص طعنه وأصابه بعدة جراح أدت إلى وفاته. ولم يحدد ابن القلانسى شخصية القاتل واكتفى بوصف الواقعة(٩٦). أما ابن الأثير فقد نص على أن القاتل كان باطنيا(٩٧). ويفسر ابن الأثير مقتل مودود بأحد احتمالين أولهما أن الباطنية بالشام خافوه فقتلوه وثانيهما أن طغتكين هو الذى خافه وخشى من نفوذه فوضع عليه من قتله(٩٨).

ويميل فريق كبير من المؤرخين المحدثين إلى اتهام طغتكين بالتدبير لمقتل مودود مدللين على رأيهم هذا، بمبادرته وتعجله بقتل القاتل وقطع رأسه واحراق جثمانه، واعتبروا ذلك بمثابة دليل قوى على تورطه فى الجريمة ورغبته فى طمس الحقيقة(٩٩) ونحن نستبعد هذا الاتهام الموجه إلى طغتكين بتآمره على قتل حليفة وشريكه فى الجهاد المقدس لعدة أسباب منها:

(١) ان غالبية المصادر العربية المعاصرة أشارت الى حزن طغتكين وأسفه الشديد على مقتل حليفة وصديقه مودود، فابن القلانسى الدمشقى الأصل والأقدم بين مؤرخى أحداث الشام، أكد على ذلك بقوله «فتلق أتابك لوفاته على هذه القضية وتزايد حزنه وأسفه وانزعاجه وكذلك سائر الأجناد والرغبة وتألموا لمصابه...»(١٠٠).

وكذلك سبط ابن الجوزى الذى رد هذه التهمة عن طغتكين بقوله" «وذكر بعضهم ان اتابك خاف منه فوضع عليه من قتله وليس بصحيح فان طغتكين كان أحب الناس اليه وحزن عليه حزنا لم يحزنه أحد على أحد وشق ثوبه عليه وجلس

في عزائه سبعة أيام وتصدق عنه بمال جزيل»[١٠١].

(٢) لم تكن هذه هي الحادثة الأولى أو الوحيدة من نوعها في التاريخ الاسلامي الوسيط التي اغتيلت فيها شخصية اسلامية كبرى على يد طائفة الباطنية حتى نعجب لهذا الفعل ونبادر إلى تأويل اسبابه وارجاعها إلى عنصر الخيانة، فطائفة الباطنية اهتمت بتنظيم جماعات الفداوية لتنفيذ خططهم الرامية إلى اغتيال من شاءوا من زعماء المسلمين لا سيما من السنة أو من الصليبيين. ومن ذلك اغتيالهم لجناح الدولة حسين أمير حمص منه ٤٩٦ هـ[١٠٢]، وخلف بن ملاعب صاحب أفامية سنة ٤٩٩ هـ (١١٠٥م)[١٠٣] وأقسنقر البرسقي سنة ٥٢٠هـ (١٢٢٦م)[١٠٤]، ومحاولتهم الفاشلة لقتل بصلاح الدين يوسف بن ايوب مرتين[١٠٥]، كما اغتالوا الكونت ريموند الثاني امير طرابلس سنة ٥٤٧ هـ (١١٥٢م) والمركيس كونراد دي مونتيفرات صاحب صور[١٠٦] وريموند الابن الأكبرلبوهمند الثالث.

(٣) لم يكن رد فعل طغتكين السريع والتلقائي بالمبادرة بقتل قاتل مودود بالشيء الغريب المثير للريبة كما تصور بعض المؤرخين، بل اننا نرى أنه على العكس، فإن هذا التصرف من قبل طغتكين يشير إلى براءته من التهمة المنسوبة إليه، لأنه لو كان متورطا في جريمة اغتيال مودود لكان أجدر به، وهو امير دمشق وصاحب الأمر والنهي بها، أن يقبض على القاتل ويتجنب قتله فورا منعا من اثارة الأقاويل والشكوك حول نفسه، فيقوم بحبسه لفترة وجيزة ثم يقوم بقتله في سجنه فيما بعد، عندما يتأكد أن الأمور قد هدأت. أما قتله على الفور فهو أمر طبيعي وتلقائي لأنه يعبر عن انتقام سريع ممن قتل شخصاً عزيزا للمنتقم وقد قرأنا في المصادر التاريخية الاسلامية عن حوادث مماثلة لما حدث عند مقتل مودود، من ابرزها وأقربها إلى الأحداث التي نعالجها، ما حدث عام ٤٩٦ هـ عند مقتل الاتابك جناح الدولة حسين صاحب حمص على يد ثلة عجم من الباطنية، ومعهم شيخ يدعون له، قاموا جميعا بطعنه بسكاكينهم فقتلوه ومعه جماعة من أصحابه في المسجد الجامع، وكان بالجامع عشرة من المتصوفة العجم اتهموا ظلما بمشاركتهم في

المؤامرة، ويشير ابن القلانسي إلى أنهم مظلومين عن آخرهم في الحال(١٠٧).

وكذلك ما حدث سنة ٥٢٠ هـ عند مقتل الامير سيف الدين أقسنقر البرسقى أمير الموصل على يد الباطنية فى مسجد المدينة الجامع فقد قتل جميع من دبر لقتله واغتياله(١٠٨).

وفى سنة ٥٢٥ هـ عندما هاجم بعض الخراسانية والديلم والأحداث، تاج الملوك بورى بن طغتكين الذى كان قد تولى حكم اتابكية دمشق بعد وفاة والده سنة ٥٢٢ هـ، فقد بادر حراسه بقتل المعتدين بالسيوف على الفور(١٠٩).

(٤) لم يكن طغتكين بالرجل الذى تسول له نفسه التخلص من أقرب اصدقائه وحلفائه في سبيل الحفاظ على ولايته لدمشق كما صورته كتابات بعض المؤرخين، ولكنه كان رجلا حسن النوايا إلى ابعد الحدود، ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما أوردته المصادر العربية فى أخبار سنة ٤٩٨ هـ عندما تعرض طغتكين لمرض اشتد به ولازمه فخاف على نفسه واشفق على أهله ورعيته من أخطار الصليبيين، ان توفاه الله، لذلك فقد بادر بالاستنجاد بالامير سكمان ابن ارتق صاحب حصنى كيفا وماردين، واستدعاه للحضور الى دمشق ليتولى حمايتها.

وكان الأمير سكمان قد تحالف مع الامير جكرمش صاحب الموصل، ورفعا معاراية الجهاد ضد الصليبيين. وبالفعل شرع سكمان فى التوجه إلى دمشق ولكن اصحاب طغتكين وخواصه سرعان ما استشعروا الخطر تجاه نوايا سكمان وخشوا أن يفعل ما سبق أن فعله بأتسر، وأخذوا يخوفون أميرهم طغتكين ونجحوا فى نهاية الامر فى اثارة شكوكه وجعلوه يندم على غفلته وحسن نيته، وكان قضاء الله وأمره أسرع من سكمان اذ لحقه مرض شديد حدده ابو الفدا بالخوانيق، وهو بمنطقة القريتين فى طريقه إلى دمشق وقضى منه امرا كان محتوما(١١٠).

ومن خلال هذا المثال يتبين لنا أن طغتكين كاد يعرض حياته هو شخصيا وملكه للخطر باستدعائه سكمان إلى دمشق، وذلك حماية لأتابكيته من السقوط من ايدى الصليبيين، فهو بذلك قد فضل مصلحة بلده ودينه على مصالحه الشخصية.

(٥) لم يكتف هذا الفريق من كبار المؤرخين باتهام طغتكين بقتل مودود بل وزادوا على ذلك باتهامه بأنه انما سعى الى قتال الصليبيين لكسب مكانة معنوية زائفة في نفوس أهل دمشق خاصة بعد انتزاعه الحكم من أسرة دقاق بن تتش كما سبق أن أشرنا في الصفحات السابقة.

ونضيف الى ما سبق أن ذكرناه أن طغتكين سعى منذ بداية الحركة الصليبية الى التصدى للصليبيين ومجاهدتهم بداية من مشاركته في حلف كربوغا ومرورا بتحالفه مع مودود واستمر طغتكين في سياسته هذه حتى بعد وفاة مودود، فسرعان ما وجدناه يسعى إلى التحالف مع الأسفهسلار سيف الدين أقسنقر البرسقى أمير الموصل الجديد ولعل أبرز أمثلة هذا التحالف والتعاون ما أشار إليه ابن القلانسى في أخبار سنة ٥١٠، عندما وصل البرسقي الى دمشق لمعاونة ظهير الدين على الافرنج فقد كان بدران (برترام) ابن صنجيل صاحب طرابلس قد هاجم نواحي البقاع وعاث فيها فسادا.

وقد أحرز الجيشان الموصلي والدمشقي انتصارا كبرا على الصليبيين واستوليا على عددهم وخيولهم(١١١). ويشير ابن القلانسى الى احتفاء طغتكين بقدوم البرسقي واصحابه إلى دمشق واكرامه لهم. ويعبر ذلك أولا على أن الجهاد كان الهدف الرئيسى في سياسة طغتكين وانه كان يسعى بكل قواه الى تكوين جبهة اسلامية موحدة، ولذلك فقد تحالف مع مصر من جهة ومع أمراء الموصل امير بعد الآخر من جهة أخرى.

ويؤكد هذا المثال على أن طغتكين لم يكن يخشى من نفوذ امراء الموصل على دولته سواء زمن مودود أو زمن البرسقي وأنه برئ من التهمة التى ألصقت به بشأن مودود فلو كان يفكر في حماية عرشه فحسب لما سعى إلى الاستعانة بالبرسقى أمير الموصل واستضافته هو وقواته في دمشق، بل كان على العكس قد تحاشاه وابعده عن بلاده خاصة بعدما أثير من أقاويل حول ازدياد نفوذ مودود الامير السابق للموصل وتهديده لعرشه.

يذكر هذا الفريق من المؤرخين أن طغتكين انتهز فرصة اغتياله لمودود وبادر عقب مصرعه مباشرة بالتحالف مع الصليبيين(١١٢).

وحقيقة الأمر أن عقد الهدنة بين طغتكين والصليبيين انما تم قبيل وفاة مودود بل وقبل أن تتوثق أواصر الصلة والصداقة بينهما، ولو تتبعنا تاريخ عقد المهادنات بين طغتكين والفرنج، سنجد أن أول هدنة عقدت بينهما كانت في سنة ٥٠٢ هـ في أعقاب فشل محاولة طغتكين في الدفاع عن عرقة ونجاح الصليبيين في امتلاكها. وقد اعقب هذه الانتكاسة الاسلامية انتكاسه أخرى تمثلت في سقوط طرابلس في نفس هذه السنة. واثناء هذه الظروف المتدهورة التي كانت تعيشها بلاد الشام، أرسل بلدوين الأول رسله إلى طغتكين يلتمسون منه المهادنة والموادعة. ولم يتردد طغتكين في قبول هذا العرض.

واعتقد أن قبوله هذه الهدنة مع الصليبيين كان بغرض اتاحة الفرصة له، ولجيشه لالتقاط الأنفاس تمهيدا لمواصلة الجهاد ضدهم مرة أخرى بعد أن يكون قد أخذ العدة لذلك، بدليل أنه لم يتردد في مساعدة نجم الدين ايل غازى ابن ارتق في سنة ٥٠٣ هـ وقواته عند لقائهم بالفرنج عند نهر الفرات رغم الهدنة(١١٣). وفي نفس الوقت وخلال فترة الهدنة كذلك، بادر بمراسلة شرف الدين مودود امير الموصل آنذاك للتعاون معه ضد الصليبيين كما سبق أن ذكرنا مما يؤكد أنه كان يعمل خلال الهدنة على اعداد العدة للانقضاض على العدو من جديد.

وفي أعقاب ذلك، وصل بلدوين إلى نواحي بعلبك عازما على العيث والافساد فيها، ثم جدد مراسلته لطغتكين عارضا عليه اقرار الهدنة والموادعة بينهما، ورغم ذلك فقد نقض الفرنج عهودهم في سنة ٥٠٤ هـ، وكان طغتكين قد بدأ يحقق لامارته وجيشه ما أراده من اعداد عسكرى وتنظيم عند قبوله التهادن مع الفرنج فنهض في عسكره ونزل في المنزل المعروف برأس الماء ثم رحل عنه إلى اللجأة وفرق عسكره من عدة جهات، وبث في المعابر خيلا تمنع على العدو الميرة مما ضايقهم أشد الضيق فعادوا إلى مراسلته طلبا للهدنة التي تجددت مرة أخرى.

ومما يؤكد ما نقول أن طغتكين بادر فى سنة ٥٠٥ هـ (١١١١م) بالاستجابة لاستغاثة والى مدينة صور عندما تعرضت المدينة للحصار الصليبى كما سبق أن ذكرنا، رغم الهدنة التى كانت قد وقعت بينه وبين الصليبيين، ثم ارسل فى سنة ٥٠٦ هـ نائبا عنه إلى المدينة ليتولى الدفاع عنها ضد أى هجوم صليبى محتمل. وفى سنة ٥٠٧هـ اجتمع مع الامير مودود على الجهاد ضاربا عرض الحائط بالموادعة مع الفرنج. ويبدو أن بلدوين حاول أن يستميله عدة مرات ولكن طغتكين الذى كان قد نجح فى الاستفادة من الهدنة فى اعادة ترتيب قواته، رفض تجديد الموادعة مما دفع بلدوين على العودة الى شن الغارات فى بلاد الشام(١١٤).

وفى اعقاب مقتل مودود توترت العلاقات بين طغتكين فى دمشق وبين محمد ابن ملكشاه السلطان السلجوقى. ويورد ابن القلانسى أسباب ذلك التوتر فى كتابه ذيل تاريخ دمشق، إذ يشير إلى انه لما شاع ذكر ظهير الدين طغتكين اتابك فى الأعمال العراقية والدركاه السلطانية بما عرف عنه من بأس فى محاربة الفرنج. حسده قوم من مقدمى الدرك السلطانية الغياثية وراموا القدح فيه والطعن عليه.

ويذكر ابن القلانسى أن طغتكين لم يهتم بهذه الوشايات وأنه تأهب للقاء السلطان واعد ما يصحبه من أنواع التحف المستحسنة من اوانى البلور والمصاغ والثياب المصرية والخيول العربية(١١٥).

ويشير كل من ابن العديم وابن الأثير الى أن طغتكين بادر بالأتصال بأمير انطاكية الصليبى للتحالف معه تأمينا لملكه وخوفا من الجيوش التى ارسلها السلطان السلجوقى بقيادة برسق بن برسق لمهاجمة دمشق(١١٦).

وتشير نفس تلك المصادر التى اوردت خبر تحالف طغتكين مع صاحب انطاكية الصليبى بطريقة غير مباشرة، إلى أسباب ذلك فابن الأثير ذكر ما يفيد بأن السلطان محمد قد أوصى جيوشه بداية بقتل ايلغازى وطغتكين فإذا ما فرغوا منهما قصدوا بلاد الفرنج وقاتلوهم(١١٧). **وفى تصورى** أن سبب تهادن طغتكين مع صاحب انطاكية الصليبى، يرجع الى رغبته فى تأمين ظهره أثناء مواجهته للخطر

القادم من السلاجقة. وأرى ان اللوم انما يقع فى معظمه على السلطان السلجوقى نفسه وليس على طغتكين أتابك دمشق، فلم تكن الظروف مناسبة لكى يرسل السلطان جيوشه للاستيلاء على املاك امراء الشام ومن بينهم طغتكين الذى جعل على عاتقه عبء التصدى للفرنج، وكان دخول برسق بن برسق على رأس الجيوش السلطانية الى مدينة حماة التابعة لطغتكين عنوة، «والتى كان بها ثقله» على حد تعبير ابن الآثير، واباحته نهبها لمدة ثلاثة أيام أكبر دليل على عظيم الخطأ الذى وقع فيه السلطان السلجوقى باقدام جيشه الذى أرسله على هدم كل محاولة اسلامية للتوحد.

وقد اثبتت الأحداث التالية صحة الرأى الذى نأخذ به فابن العديم نفسه يشير إلى دور هام قام به طغتكين لمنع اشتباك الجيوش الصليبية مع جيش برسق السلطانى ويعلل ابن العديم ذلك بقوله «وجعل اتابك يريث الفرنج عن اللقاء خوفا من الفرنج أن يكسروا العساكر السلطانية فيأخذوا الشام جميعه أو ينكسروا فتستولى العساكر السلطانية على ما فى يده»(١١٨).

وفى العام التالى ٥٠٩هـ (١١١٥م) توجه طغتكين الى بغداد طالبا الصفح من السلطان بعد أن تأكد من فشل حملة برسق، فرضى عنه السلطان وخلع عليه وأحسن استقباله وأمر بانشاء منشور أورد ابن القلانسى نصه كاملا، جدد له فيه امارة الشام(١١٩) مما يؤكد صدق نوايا طغتكين وانه قبل التحالف مع امير انطاكية الصليبى مضطرا ليتمكن من حماية نفسه من مهاجمة الجيوش السلطانية له.

ولكن ما أن زال التهديد السلطانى حتى أبدى فروض الطاعة والولاء للسلطان السلجوقى وعاود سياسة والجهاد ضد الفرنج فلم تأت السنة التالية سنة ٥١٠هـ إلا وكان طغتكين قد تحالف مع آقسنقر البرسقى صاحب الموصل كما سبق وأن أشرنا وأحرزا معا انتصارا كبيرا على صاحب طرابلس. وفى سنة ٥١٢ هـ كاتب ظهير الدين طغتكين أرباب الجهات والمناصب يحثهم على التعاون على دفع شر الصليبيين بالتآزر والتواظب(١٢٠). وورد الخبر بتوجه الامير نجم الدين ايل غازى الى

دمشق فى عسكره للاجتماع مع طغتكين على اعمال الرأى فى التدبير والتشاور وأسفر اللقاء عن اتفاقهما على بذل المكنة والاجتهاد فى مجاهدة الفرنج وحددا لنفسهما تاريخا يلتقيان فيه مع جيوشهما للجهاد، وحددا شهر هو صفر من سنة ٥١٣ هـ موعدا للقاء بالفعل والتقى الجيشان عندما وردت الأخبار بظهور روجر صاحب انطاكية فى حشد من طوائف الصليبيين ورجاله الأرمن وكان يزيد عددهم على ٢٠ ألف فارس وراجل، عندئذ ضرب طغتكين بالهدنة عرض الحائط وانطلق مع الجيوش الاسلامية لمهاجمتهم واحرز المسلمون انتصاراً ساحقاً على الصليبيين يوم السبت السابع من شهر ربيع الأول من هذه السنة، واسفرت المعركة عن مقتل روجر نفسه (١٢١).

ولم يتوقف جهاد طغتكين ضد الصليبيين عند هذا الحد كما سنوضح على الصفحات التالية مما يؤكد أن المعاهدات التى وقعها مع الفرنج لم تكن سوى هدنات حتمتها ظروف سياسية معينة، أفاد منها طغتكين فى اعادة تنظيم قواته استعدادا لمواصلة الجهاد.

وقبل اختتامنا لهذه المناقشة تجدر الاشارة الى حقيقة هامة وهى أنه ليس كل من وقع هدنة مع الصليبيين متهم بالخيانة. فصلاح الدين نفسه وهو الحاكم الذى لا يمكن بأى حال اتهامه بالخيانة والتواطؤ مع العدو، وقع معاهدات مع الصليبيين ويكفينا أن نذكر من بينها صلح الرملة سنة ٥٨٨ هـ (سبتمبر ١١٩٣م)، وكذلك أخوه العادل ابوبكر وكبار سلاطين المماليك أمثال الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى والمنصور قلاوون.

وتشهد سنة ٥١٢ هـ ذروة التعاون والتنسيق العسكرى بين القاهرة ودمشق، وكان بلدوين دى بويون ملك بيت المقدس قد وجه حملة فاشلة على مصر تصدى لها الجيش الفاطمى بعنف، وبادر الأفضل شاهنشاه بارسال قوات ضخمة لمطاردة فلول الصليبيين وتعقبها حتى فلسطين ، ثم ما لبث أن توفى بلدوين، وتولى بلدوين أوف بورج كونت الرها Baldwin of Bourg ملك بيت المقدس، خلفا له فى ١٨

ذى الحجة من سنة ٥١٢هـ (١٤أبريل ١١١٨م) [١٢٢] ووسط هذه الظروف المضطربة التى كان يمر بها الفرنج، فكر الأفضل بضرورة القيام بعمل يكون بمثابة رد قوى على الحملة الصليبية على مصر ويبين للفرنج بأن مصر قادرة على مواجهتهم وقرر الأفضل أن يستعين مرة أخرى بطغتكين اتابك دمشق فهو بلا شك لم ينس جهوده الصادقة وتعاونه السابق معه فى مواجهة الصليبيين ولذلك لم يتردد فى الكتابة إليه مقترحا عليه القيام بحملة فاطمية / دمشقية مشتركة على غرار حملة الرملة الثالثة لمواجهة طغيان الفرنج واطماعهم التوسعية فى مصر والشام أن تكون عسقلان مركزا رئيسيا لتجمع قوات الجانبين[١٢٣].

واستجاب طغتكين بالفعل لنداء الأفضل، وكان قد سار من دمشق لقتال الفرنج فنزل بين دير ايوب، وكفر بصل باليرموك، ولم تكن انباء وفاة بلدوين قد وصلت الى اسماعه بعد، فلما علم بعد ثمانية عشر يوما، فوجئ برسل الصليبيين تتردد عليه، طلبا لتجديد الهدنة. ولكن طغتكين الذى كان قد استفاد من الهدنات السابقة وأعاد تنظيم قواته، حرص على اشعار الصليبيين بالعجز التام أمام شروطه، لذلك فقد طالبهم بترك المناصفة التى بينهم من جبل عوف والحنانه والصلت والغور، ولما رفض الصليبيون عرضه، سار طغتكين الى طبرية ونهبها ثم زحف منها نحو عسقلان حيث التقى بالقوات الفاطمية[١٢٤].

وقبل أن نستطرد فى سرد احداث هذه الحملة الفاطمة/ الدمشقية المشتركة يجدر بنا الاشارة إلى أن فى موقف طغتكين هذا ما يبرئه تمام من كل الاتهامات التى ألصقت به والتى سبق أن عرضنا لها فى الصفحات السابقة فهو نقض الهدنة مع الصليبيين ورفض تجديدها من أجل مناصرة الفاطميين، رغم أن ذلك عرضه وعرض بلاده لأخطار جسام.

وقد ابدى الأفضل روحا عالية من التسامى والترفع عن الصغائر في تلك الظروف الحرجة، إذ أنه أرسل رسالة مع مقدم جيشه الى طغتكين يعلمه فيها بأنه قد اختاره هو لقياده الجيش المشترك، وأن الجيشين سيقفان عند رأيه ومشورته[١٢٥].

وتقدمت الجيوش الصليبية بقيادة بلدوين الثانى الذى كان قد استنجد بروجر اوف سالرنو امير انطاكية Roger of Salerno، وبونز Ponz كونت طرابلس وجوسلين دى كورتناى Joccelinde Cortenay اميرتل باشر لمساندة الصليبيين أمام الجيوش الاسلامية المتحالفة(١٢٦).

وعلى أن الجيشين الاسلامى والصليبى ظلا يواجهان بعضهما دون المخاطرة بأى اشتباك فعلى، وتجمد الموقف بينهما لمدة شهرين فى رأى(١٢٧) وثلاثة أشهر فى(١٢٨) رأى آخر. وسرعان ما تفرق الجانبان وعاد كل فريق من حيث أتى.

ويعلل المؤرخ وليم الصورى سبب هذا الانسحاب المفاجئ من الجانبين بأن المسلمين انبهروا بضخامة القوات الصليبية التى كانت تضاهى القوات الاسلامية، كما أن الشعور الصليبى كان مشابها للشعور الاسلامى لذا انسحب الجانبان(١٢٩).

وعلى أى الأحوال فقد نجحت هذه التظاهرة العسكرية الاسلامية المشتركة فى ارهاب الصليبيين وتهديدهم وايهامهم بأن الأوضاع قد تغيرت فى الجانب الاسلامى، وانه لم يعد بوسع الصليبيين التغرير بحكام المسلمين كما حدث فى السابق وأن صحوة اسلامية وروحا جديدة بدأت تسرى فى نفوس المسلمين حكاما وشعوبا.

واستمر التعاون العسكرى بين دمشق والقاهرة قائماً حتى بعد مقتل الأفضل شاهنشاه فى سنة ٥١١ هـ.

ولم يكن المأمون البطائحى، الوزير الفاطمى الجديد، رغم شجاعته، على مستوى الأفضل من حيث الحنكة السياسية والقدرة على التصرف، فما كاد يتولى الوزارة حتى عزم على ازالة نفوذ طغتكين من صور كما قرر عزل الأمير مسعود الذى كان يتولى المدينة من قبل الأتابك الدمشقى.

وفى بداية سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢م) أرسل المأمون الأسطول المصرى الى ثغر صور بقيادة وحشى بن طلائع مشحونا بالرجالة البحرية والجنود ومحملا بكميات كبيرة من الغلال تقدر بخمسة عشر ألف اردب وأقوات كثيرة. ولما وصل الأسطول

المصرى الى صور خرج الأمير مسعود لاستقبال وحشى مقدم الاسطول، فطلب منه مقدم الاسطول ان ينزل بسفينته فاستجاب مسعود لرغبته ولكن ما كاد مسعود ينزل الى سفينة مقدم الاسطول حتى أعتقله وأقلع الاسطول عائدا الى مصر بعد أن أنزل الجند على البر وأمرهم باحتلال صور(١٣٠).

ولما علم الصليبيون بأمر هذا الانقلاب الذى تم فى صور على يد المأمون البطائحى تحركت أطماعهم من جديد فانتهزوا فرصة الخلافات التى اشعلها المأمون مع نواب طغتكين فى صور، وبدأوا يعدون العدة لحصارها حصارا محكما من البر والبحر ومنع نفاذ أى عدد واقوات تصل اليها تمهيدا لاسقاطها هذه المرة.

ولن نتحدث هنا عن تفاصيل الحصار الصليبى لمدينة صور، فقد سبق ان استعرضناها فى بحث سابق(١٣١) وكل ما نود الاشارة إليه هو موقف طغتكين اتابك دمشق من هذه الأحداث.

فعندما تنبه والى صور الجديد من قبل المأمون البطائحى بالتحركات الصليبية الجديدة أخذ يعيد حساباته، فأدرك مدى عجزه عن دفع الخطر الصليبى الداهم لقلة ما لديه من عدد وأقوات فبادر بارسال تقرير مفصل إلى الآمر بأحكام الله الخليفة الفاطمى. عندئذ قرر الفاطمى رد ولاية المدينة إلى ظهير الدين طغتكين مع حق مصر فى الاشراف على المدينة وفرض سلطانها عليها. وكان ذلك فى جمادى الآخرة من سنة ٥١٧ هـ (يوليو/ أغسطس ١١٢٣م)(١٣٢).

ولم يتردد طغتكين فى قبول هذه المسئولية الجسمية ما دام ذلك يتفق مع اهدافه الرامية الى الجهاد ضد الصليبيين. وتجمع المصادر العربية واللاتينية على أن طغتكين لم يأل جهدا فى الدفاع عن مدينة صور وعندما اشتد كلب الصليبيين عليها اتجه الى بانياس وارسل قوة كبيرة فى الأتراك وعدد كبير من الفرسان للدفاع عنها*.

ولما علم بازدياد وطأة الحصار عليها، واشراف أهلها على الهلاك فى انتظار معونة المأمون البطائحى الذى تقاعس عن نجدتها، اضطر طغتكين الى مراسلة الفرنج

بالملاطفة والمهادنة(١٣٣).

وكان بلك بن بهرام بن ارتق صاحب حلب قد بلغته الأنباء بقرب سقوط مدينة صور رغم محاولات طغتكين المستميتة لاستنفاذها فتجهز لنجدة أهلها، وعزم بصدق على مساندتهم بعد أن يفرغ من حصاره لمنبج، ولكن القدر لم يمهله إذ أنه استشهد فى منبج سنة ٥١٨هـ، مما أضاع الأمل الوحيد المتبقى لأهالى صور فى التغلب على عدوهم(١٣٤).

واستمر طغتكين فى محاولاته مهادنة الصليبيين ولكن جهوده ضاعت عبثا ولم يتزحزح الفرنج عن مواقعهم حتى استسلم أهل المدينة بعد مقاومة بطولية رائعة. ونجح طغتكين بعد مفاوضات اجراها مع قادة الفرنج فى انتزاع الأمان لكل أهالى صور واشترط لتسليمها أن يخرج منها كل من أراد الخروج من العسكر والرعية آمنا بما يستطيع حمله فى حين يبقى من يريد الاقامة بمدينته، وقبل القادة الفرنج والبنادقة شروط طغتكين على الرغم من اشتداد ثائرة الجند البحريين الذين كانوا يطمعون فى نهب صور، وهددوا بالتمرد والثورة، ولكن الشروط التى التزم بها قادتهم نفذت ومنح أهالى المدينة الأمان(١٣٥) فخرجت منها فى حشود هائلة من أهلها أنفوا المقام فى ظل الحكم الصليبى، ولم يبق بصور إلا كل ضعيف عجز عن الرحيل.

وتم سقوط صور فى ايدى الصليبيين فى ٢٣ جمادى الأولى من سنة ٥١٨ هـ الموافقة ٧ يوليو من سنة ١١٢٤م بعد استماتة طغتكين وجيوشه فى الدفاع عنها.

ومن خلال ما استعرضناه على الصفحات السابقة يتبين لنا أن طغتيكن يعتبر من أوائل القادة المسلمين الذين حاولوا توحيد الجبهة الاسلامية فى الشام ومصر والموصل بعمليات مشتركة لمواجهة الفرنج وطردهم من بلاد الشام.

وإذا كان بعض المؤرخين يرجعون الفضل فى التعاون والتنسيق العسكرى بين القاهرة ودمشق الى الأفضل شاهنشاه(١٣٦)، فاننا لا يمكن ابدا أن نغفل دور ظهير

الدين طغتكين اتابك دمشق فى هذا المجال، بل اننا نقدمه على الأفضل ونعتبره أحد الرموز والشخصيات الاسلامية الكبرى التى لا تزال فى حاجة إلى مزيد من الدراسات المتعمقة. وفى اعقاب سقوط مدينة صور سنة ٥١٨ هـ امضى ظهير الدين طغتكين ايامه فى صراع مستمر مع الصليبيين[١٣٧] ومع المرض الذى بدأ يداهمه منذ سنة ٥٢٠هـ[١٣٨] حتى انهك قواه واضعف جسده. ولما اشتد عليه المرض أوصى لتاج الملوك بورى اكبر أولاده بولاية العهد من بعده ثم توفى فى ٨ صفر من سنة ٥٢٢هـ[١٣٩].

وقد تجمد التعاون العسكرى بين دمشق والقاهرة عقب وفاة طغتكين، فلم تعد المصادر تشير إلى ذلك فى عهد خلفائه من أمراء الأسرة البورية، إلا أن العلاقات الودية لم تنقطع بوفاته بين البلدين، فابن القلانسى يورد فى أخبار سنة ٥٢٧ هـ ما يفيد بأن الأمير المنتضى ابو الفوارس وثاب بن مسافر الغنوى وصل من مصر إلى دمشق رسولا إلى شمس الملوك اسماعيل بن بورى فى يوم السبت لأربع بقين من ذى القعدة. وكان يحمل معه جوابا على ما كان صدر من مكاتبة شمس الملوك للفاطميين كما كان يحمل معه الخلع السنية وأسفاط الثياب المصرية والخيل والمال. وأقام فترة معززا مكرما فى دمشق حتى عاد إلى مصر فى سنة ٥٢٨هـ يوم السبت لليلتين بقينا من شهر ربيع الأول منها[١٤٠].

ولعل الظروف التى كانت تمر بها كل من الامارة البورية فى دمشق والدولة الفاطمية فى مصر كانت العامل الرئيسى وراء توقف التعاون العسكرى المشترك فيها بين البلدين ضد الصليبيين وتجميده.

فالصراعات الداخلية على الحكم واحاكة المؤامرات والدسائس كانت السمة الرئيسية فى كل من الدولتين ففى دمشق، زخر عهد شمس الملوك اسماعيل ابن بورى بالاضطرابات ومحاولات الاغتيال مما دفعه إلى الاتصال بعماد الدين زنكى يحثه على القدوم الى دمشق ليتسلم حكمها، وقد أسفر هذا الموقف عن قتله على يد أمه وكبار رجال دولته فى نهاية الأمر[١٤١].

ومنذ ذلك التاريخ اصبح الهدف الرئيسى لزنكى هو ضم دمشق الى دويلته فى حلب والموصل، وأصـبح هم البـوريين الأول مـركـزا على دفع زنكى عن امارتهم[١٤٢].

أما فى مصر، فكان الصراع بين الوزراء السمة الغالبة على الحكم، وأصبح الخلفاء الفاطميون ألعوبة فى ايدى وزرائهم وتأرجحت الوزارة ما بين وزير سنى وآخر مسيحى وتذبذبت السياسة الخارجية للدولة طبقا لميول كل وزير من هؤلاء الوزراء تجاه الصليبيين.

ومن أمثلة ذلك أن الوزير بهرام الأرمنى المسيحى لم يدخر وسعا فى فتح ابواب مصر امام بنى جنسه من الأرمن وشجع سياسة المعايشة السلمية مع الصليبيين فى الشام وقاوم انصار الجهاد مما أدى إلى ثورة رضوان بن الولخشى عليه، واسفرت هذه الثورة عن فرار بهرام وتولى ابن الولخشى الوزارة[١٤٣].

وكان الوزير ابن الولخشى السنى المذهب، من أشد المتحمسين للجهاد، فأنشأ ديوانا جديدا أسماه ديوان الجهاد[١٤٤] وأخذ يندد بسياسة الاستكانة التى اتبعها الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمى تجاه الصليبيين بالشام.

وبرزت خلال وزارته محاولة جديدة للتنسيق والتعاون بين مصر والشام، وكان عماد الدين زنكى آنذاك يحاول اتمام توحيد الجبهة الاسلامية بالاستيلاء على دمشق وضمها إلى دويلته فى الموصل وحلب، فتوجه رضوان بن الولخشى للقائه اثناء حصاره لبعلبك للاتفاق معه على خطة مشتركة لمواجهته الصليبيين.

وعندما علم معين الدين أنر صاحب النفوذ الأكبر فى امارة دمشق بنية ابن ولخشى التحالف مع زنكى استشعر خطرا كبيرا على امارته فاستدعى أسامة ابن منقذ فى مهمته تلك، فعدل انر الولخشى عن مقابلة زنكى وعاد إلى مصر حيث قتل بعد ذلك بقليل[١٤٥].

وفشلت محاولة التنسيق العسكرى بين مصر وكل من الموصل وحلب هذه المرة. أما عماد الدين زنكى فقد تمكن من توجيه ضربة قاصمة للوجود الصليبى

في بلاد الشام باستيلائه على امارة الرها سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤م)، وكان يحلم باستكمال مشروع الوحدة الاسلامية بضمه لدمشق، ولكن القدر لم يمهله اذ اغتيل على يد أحد غلمانه سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦م).

وانقسمت دويلته بين ابنائه، فخلفه سيف الدين غازى على الموصل، في حين نصب نور الدين محمود على حلب.

وفى سنة ٥٤٣هـ تعرضت دمشق لحصار صليبى المانى مما دفع اميرها مجير الدين ابق واتابكه معين الدين أنر إلى الاستنجاد بسيف الدين غازى امير الموصل، فسار بعسكره من الموصل إلى الشام، ورافقه نور الدين محمود اخوه، بعسكره ونزلت قواتهما على حمص مما فت في عضد الفرنج وأرسل انر إلى فرنج الشام يعرض عليهم تسليم قلعة بانياس مقابل تخليهم عن ملك الألمان، وقبل صليبيو الشام هذا العرض وطلبوا منه الرحيل، فرحلوا وملكهم عن دمشق، واضطر انر الى التخلى عن بانياس[١٤٦] تنفيذا لوعوده للفرنج.

أما في مصر فقد توفى الخليفة الحافظ سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م) وبويع بالخلافة لابنه اسماعيل، ولقب بالظافر بأمر الله (٥٤٤ - ٥٤٩هـ/ ١١٤٩ - ١١٥٤م) وتقلد على بن السلار والى الاسكندرية والبحيرة الوزارة، في عهده.

وحاول ابن السلار ان يحيى التعاون العسكرى بين القاهرة وحلب، وكان نور الدين صاحب حلب يسعى فى نفس الوقت الى ضم دمشق، فاستدعى ابن السلار، اسامة بن منقذ، الذى كان آنذاك في مصر، وعهد إليه بمهمة الاتصال بنور الدين محمود لأنه كان يخشى ان ينجح الصليبيون فى الاستيلاء على عسقلان وغزو مصر. ولكن نور الدين محمود لم يتحمس لمشروع ابن السلار، لأنه خشى أن يغامر بحرب ضد مملكة بيت المقدس الصليبية في الوقت الذى لم تكن وحدة الجبهة الاسلامية قد اكتملت بعد كما كان حكام دمشق يناصبونه العداء[١٤٧].

وتركز اهتمام نور الدين محمود على ضم دمشق خوفا من سقوطها في أيدى الفرنج، فكاتب أهل المدينة واستمالهم فى الباطن ثم سار اليها وحصرها، ففتح له

الباب الشرقي ودخل منه وملكها[١٤٨] سنة ٥٤٩ هـ.

ومهد امتلاك نور الدين محمود لدمشق عودة التنسيق والتعاون العسكرى بينها وبين القاهرة، وبدا ذلك جليا سنة ٥٥٨ هـ عندما لاذ شاور، أحد المتنافسين على كرسى الوزارة فى مصر بنور الدين محمود فرارا من خصمه ضرغام، وهناك فى دمشق أخذ شاور يستنجد به ويطمعه في الديار المصرية، وهو يعلم تمام العلم أن نور الدين محمود كان يحلم بتوسيع نطاق الوحدة الاسلامية.

وقد تردد نور الدين كثيرا فى ارسال حملة إلى مصر ولكن خوفه من سقوطها فى أيدى الصليبيين الذين استعان بهم ضرغام، وحرصه على توحيد الجبهة الاسلامية، دفعه الى التدخل عسكريا لحسم هذا الصراع بين الوزيرين سنة ٥٥٩[١٤٩].

وعندما حسم الصراع لصالح شاور بفضل أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين قائدى الجيش النورى، انقلب شاور وتنكر لوعوده لنور الدين محمود وأمر قادته بالرحيل عن مصر وبدأ يتصل بالصليبيين[١٥٠].

هنا تحول الجيش النورى الى جيش انقاذ اسلامى يهدف إلى تخليص مصر من وزرائها الخونة وحمايتها من السقوط فى أيدى الفرنج وبادر نور الفرنج وبادر نور بارسال قائديه اسد الدين شيركوه، وصلاح الدين فى حملتين جديدتين، الأولى سنة ٥٦٢ هـ والثانية سنة ٥٦٤هـ خاصة بعد أن حدث تحالف بين البيزنطيين والصليبيين بغرض تقسيم مصر فيما بينهما[١٥١].

وتجلى التعاون العسكرى بين أهل مصر وبين الجيوش الدمشقية فى الحملة النورية الثانية سنة ٥٦٢ هـ، عندما التجأ صلاح الدين وقواته الدمشقية إلى مدينة الاسكندرية التى عرف أهلها بوطنيتهم وكرههم لشاور لخيانته لبلده وتحالفه مع الصليبيين ضد المسلمين، ولذلك لم يترددوا فى فتح ابواب مدينتهم لقوات شيركوه، الذى نصب صلاح الدين ابن أخيه نائبا عنه فى حكمها، ومضى هو الى الصعيد ليشرف على شؤونه ويجمع بعض المال، وأحكم شاور وخلفاؤه من الفرنج

الحصار حول الاسكندرية مدة أربعة شهور عانى خلالها صلاح الدين ورجاله كثيرا غير أن أسد الدين شيركوه عندما بلغه شدة حصار الفرنج لابن اخيه لجأ إلى حيلة مضادة فاتجه بجيشه شمالا ليوهم شاور وحلفاءه الفرنج بأنه ينوى محاصرة القاهرة، ونجحت الحيلة واضطر شاور وحلفاؤه إلى رفع الحصار عن الاسكندرية والاسراع بالعودة إلى العاصمة خشية أن ينجح شيركوه فى الاستيلاء عليها.

وكانت هذه الحملات النورية الثلاثة على مصر مجالا لدراسات قيمة اوضحت الهدف الحقيقي من ورائها(١٥٢) فنور الدين محمود كان يرمى الى ضم مصر بهدف توحيد الجبهة الاسلامية وتخليصها من العملاء والخونة ليتفرغ الى الجهاد الاعظم وهو بذلك قد مهد الطريق أمام صلاح الدين يوسف لاستكمال توحيد الجبهة الاسلامية وتحقيق اعظم الانتصارات على الصليبيين.

الحواشــى:

(١) والى جانب هاتين الخلافتين، وجدت خلافة ثالثة فى الأندلس، بعد أن تلقب عبد الرحمن بن محمد الأموى فى قرطبة بالناصر لدين الله، ولكننا لن نتعرض لها فى دراستنا فى هذا البحث وسنركز فقط على خلافتى المشرق الاسلامى لما لهما من علاقة بصميم الموضوع.

(٢) على الصعيد الاقتصادى، حاولت الدولة الفاطمية، ضرب طريق تجارة التوابل والحرير فى الخليج العربى، الذى يمثل الثروة والرواج الاقتصادى للدولة العباسية، وكانت الدولة الفاطمية تهدف من ذلك السيطرة على تلك التجارة عصب الاقتصاد العالمى فى ذلك الوقت لتدعيم اقتصادها على حساب الدولة العباسية، وشجعت ذلك عن طريق نشر المذهب الاسماعيلى فى اليمن وعمان والهند، ونجحت فى ذلك فى كل من اليمن والهند، أما عمان فقد ظل ابناؤها يتمسكون بالمذهب الاباضى. وقد أشارت السجلات المستنصرية إلى وجود دعاة اسماعيلية فاطميين فى تلك البلاد. وسمى الدعاة الفاطميون الذين ذهبوا الى الهند على هيئة تجار باسم «البوهرا» نسبة لتجارتهم فى التوابل أو البهار، ولذلك أطلق فيما بعد على طائفة الشيعة الهنود اسم طائفة البهرة. وكان من نتائج تلك السياسة الفاطمية تعطيل طريق الخليج العربى كطريق رئيسى لتجارة التوابل، واحياء طريق البحر الأحمر كمنافس خطير للخليج العربى وان لم يقضوا عليه تمام كما يذكر بعض المؤرخين (لمزيد من التفاصيل عن التنافس التجارى بين الخلافتين العباسية والفاطمية ارجع الى Kenneth M. Setton, A history of the Crusades, Philadelphia, 1958, P 96 جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٢٤ وما يليها – عصام الدين عبد الرؤوف، اليمن فى ظل الاسلام منذ فجره حتى قيام دولة بنى رسول، القاهرة، ١٩٨٢، ص ١٤٥ – ١٨٠ – السجلات المستنصرية، تحقيق د. عبد المنعم ماجد، ١٩٥٤، ص

٣٨- ٤٢، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٦- ١٧٩ - ١٩٠، ١٩٣، ص ٢٠٣ - ٢٠٦،
عبد المنعم ماجد، سياسة الفاطميين فى الخليج مستمدة من السجلات المستصرية، بحث مقدم الى ندوة قطر ١٩٧٦ عن تاريخ شرق الجزيرة العربية، جـ٢، ص ٢٦٧ وما يليها - ولمزيد من التفاصيل عن هذا التنافس الاقتصادى فيما بين بغداد والقاهرة وآثار ذلك على نشاط الخليج العربى التجارى ارجع إلى سحر عبد العزيز سالم، تجارة عمان فى الكارم وصداها على سياسة مصر حتى طليعة القرن السابع الهجرى، مجلة كلية الآداب، الاسكندرية، ١٩٩١ - ١٩٩٢، العدد ٢٤.

Sahar Abdel Aziz Salem, Head Light on the commercial Relation between India and Egypt during the Islamic Period, Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria, 1991 - 1992 - J.J. Saunders, A history of Medieval Islam, U.S.A, 1972, P. 136.

(٣) صلاح الدين محمد نوار، تاريخ الشام السياسى خلال القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، رسالة دكتوراة، أشرف أ. د. السيد عبد العزيز سالم أ. د. / چوزيف نسيم يوسف، الاسكندرية، ١٩٨٩، ص ١١٨.

وعن تعاون الحمدانيين مع البيزنطيين معا للتصدى للفاطميين، وتطور الصراع فى شمال الشام بين الحمدانيين والفاطميين ارجع إلى (جمال الدين سرور، النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق خلال القرنيين الرابع والخامس الهجريين، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٤٩ - ٥٣.

(٤) عن نشاط بسيل الثانى ضد الدولة الفاطمية ارجع إلى (الفارقى «أحمد بن يوسف بن على الأزرق»، تاريخ الفارقى، تحقيق د. بدوى عبد اللطيف، بيروت ١٩٧٤، ص ١٠٩). وعن ثورة العلاقة ارجع الى (ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، بيروت، ١٩٠٨، ص ٥٠، ٥١ - تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى، بيروت، ١٩٠٩، ص ١٨١) وارجع كذلك إلى (ابن شداد، الاعلاق الخطيرة

فى ذكر أمراء الشام والجزيزة، وتحقيق ونشر سامى الدهان، دمشق، ١٩٦٢، ص ١٦٤ – ابن الاثير، الكامل فى التاريخ، بيروت، ١٩٦٦، جـ٩، ص ١٢٠ – المقريزى، اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا، تحقيق د. محمد حلمى محمد أحمد، القاهرة، ١٩٧١، جـ٢، ص ١٨– و ١٧ G. Wiet, Histoire de la nation Egyptienne, t. L'Egypte Arabe, Paris, 1937, P. 198, 199

السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام، بيروت ١٩٧٢، ص ٩٩، عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر، التاريخ السياسى، القاهرة، ١٩٦٨، ص ١٣٨ – محمد احمد عبد المولى، بنو مرداس الكلابيون فى حلب والشام وسياستهم الخارجية مع دولتى الفواطم والروم (١٠٢٥ – ١٠٨٠م)، الاسكندرية، ١٩٨٥، ص ١٦، ١٧).

(٥) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق – أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، بيروت ١٩٥٦، جـ٣، ص ١٠٤– صلاح الدين نوار، سياسة الخلافة الفاطمية فى الشام، ص ٢٦٦. وان كان الدكتور محمد عبد المولى يعتبر أن خضوع المرداسيين فى سنة ٢٦٣ هـ للسلاجقة قد اضعف من كيانهم، وساعد على ذلك اندلاع الحرب الأهلية بين بنى كلاب مما أ[illegible] فى النهاية عن الاحتلال العقيلى لحلب فى ظل السيادة السلجوقية (٤٧٢ هـ/ ١٠٨٠م) مما أدى إلى انقراض دولة بنى مرداس بحلب وشمال الشام. وفى سنة ٤٧٥ هـ (١٠٨٢) انقطع ذكر المرداسيين تماما من اعمال حلب فقد اعتقل شرف الدولة مسلم ٣٠٠ فارسا تركمانيا بقايا من كان يخدم بنى الروقلية (بين مرداس) وفرقهم فى القلاع وكان ذلك آخر العهد بهم لمزيد من التفاصيل أرجع إلى محمد احمد المولى، بنو مرداس، ص ١٧٣ – ١٨٦ – خاشع المعاضيدى، دولة بنى عقيل فى الموصل بغداد، ١٩٦٨، ص ١٠٧ محمد ضامن، امارة حلب فى ظل الحكم السلجوقى، دمشق، ١٩٩٠، ص ٦٣– ١١٣).

(٦) السلاجقة: من فرع الأتراك الغز، ينتسبون إلى زعيمهم الأكبر سلجوق ابن

تقاق (دقاق) خرجت قبائلهم من سهوب التركستان واتجهوا إلى الأراضى الاسلامية فى الغرب عند بلاد ما وراء النهر، وسيطروا على الوادى الأدنى لسيحون واعتنقوا الدين الاسلامى على المذهب السنى. ويرجع الفضل فى توحيدهم الى سلجوق. وقد ازدادت قوتهم فى عهد زعيمهم طغرلبك ابو طالب محمد بن ميكائيل السلجوقى وتمكنوا من الحاق هزيمة مروعة بالسلطان مسعود الغزنوى سنة ٤٣١ هـ (١٠٤٠م) أسفرت عن سيطرتهم على معظم بلاد فارس وشمال العراق وارمينيا وآسيا الصغرى (لمزيد من التفاصيل ارجع الى الاصفهانى، تاريخ دولة آل سلجوق، بيروت، ١٩٨٠ – الراوندى، راحة الصدور وآية السرور فى تاريخ الدولة السلجوقية القاهرة، ١٩٦٠ – البندارى، تاريخ دولة آل سلجوق، القاهرة، ١٩٠٠ – المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٦، جـ٢، ق١، ص ٣٠ – فامبرى، تاريخ بخارى، ترجمة د. الساداتى، القاهرة، ١٩٦٥ – عبد النعيم حسنين، سلاجقة ايران والعراق، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٩ وما يليها – زبيدة عطا، الترك فى العصور الوسطى، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٣٨ – ٥٣ – وعن السلاجقة ارجع ايضا إلى Setton, op. cit, P. 135 - 175- C.E Bos Worth, Islamic surveys, the Islamic Dynasties, 1967, vol I, P 116- 118 - JJ. Saunders, A history of Medieval Islam, P 146.)

(٧) هو ابو الحارث ارسلان البساسيرى، نسبة إلى بساسير في بلاد فارس، أيد الدعوة الشيعية فى العراق مما دفع الخليفة العباسى ووزيره الأول ابو القاسم على ابن مسلمة الى الاستنجاد بطغرلبك السلجوقى لتحرير البلاد من سطوة البساسيرى (الفارقى ص ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٩). وتمكن طغرلبك من قتل البساسيرى واعادة الخطبة للخليفة القائم العباسى (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٨٧ – ٩٠ – ابن ميسر، اخبار مصر، تصحيح هنرى مارسيه، القاهرة، ١٩١٩، ص ١١ – المقريزى، أتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٢٣٢ – ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، طبعة وزارة الثقافة،

القـاهرة، بدون تاريخ، جـ٥، ص ٢ .) وارجع كـذلك إلى (صـدر الدين على بن ناصر الحسيني، زبدة التواريخ، اخبار الامراء والملوك السلجوقية، تحقيق د. محمد نور الدين، بيروت، ١٩٨٥، ص ٥٩ - ابن الصيرفي، الاشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق عبد الله مخلص، مطبعة القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي، ١٩٣٤، ص ٤٤، ٤٥- محمد أحمد عبد المولى، استبداد البساسيرى مقدم الأتراك بالسلطة في العراق وسقوط بني بويه، الاسكندرية، ١٩٨٦، ص ٦ وما يليها - محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، ١٠٩٧ - ١١٤٤م، الاسكندرية، ١٩٩٠، ص ٦٢ وما يليها -
Lane Poole, S, History of Egypt in the Middle Ages, London 1914, P 138 J.J. Saunders, Ahistory of Medievel Islam, P 146.

(٨) لمزيد من التفـاصيل عن موقعة ملاذكرت ارجع إلى (العظيمي، تاريخ العظيمي، نشر كـاهن، باريس، ١٩٣٨، ص ٣٥٩ - ابن القـلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٩ - ابن ميسر، اخبار مصر، ص ٢٠) وارجع كذلك الى (اومان، الامبراطورية البيزنطية، ترجمة مصطفى طه بدر، القاهرة، ١٩٥٣، ص ١٦٩، ١٩٨ -

Nikita Elisseeff, L'Orient musulman au moyen Age, 622 - 1260, Paris, 1977, P 215 -

عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس الصليبية، الاسكندرية، ١٩٥٨، ص ٢٤ - ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الباز العريني، بيروت، ١٩٦٧ - ١٩٦٨، جـ١، ص ١٠٠.

C.E. Bosworth, Islamic Surveys, vol I, 117.

صلاح نوار، تاريخ الشام السياسى، ص ٤١٩ - ٤٢١.

(٩) ابن ميسر، اخبار مصر، ص ١٩ - ابن الأثير الكامل، جـ١٠، ص ٦٣.

وارجع كذلك الى (الاصفهانى، تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٣٩ - السيد عبد العزيز سالم، دراسة فى تاريخ مدينة صيدا فى العصر الاسلامى، بيروت، ١٩٧٠، ص ٨٣ - زبيدة عطا، الترك في العصور الوسطى، ص ٥٠ - محمد محمد مرسي الشيخ، الجهاد المقدس، ص ١٤ - ١٥.

(١٠) يسميه ابن خلكان اتسز بن اوق ابن الخوارزمى التركى (ابن خلكان، وفيات الاعيان وانباء أهل الزمان، تحقيق د. احسان عباس، بيروت، بدون تاريخ، جـ١، ص ٢٩٥) أما الفارقي فيسميه بالاقسيس (الفارقي، ص ١٩٩). ويعلق كل من ابن الأثير وابن خلدون بأن الشاميين يطلقون عليه اسم اقسيس، ولكن الصحيح أنه أتسز ابن اوق وهم اسم تركى (ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٦٨، ١٠٣ - ابن خلدون، العبر، طبعة دار الكتاب اللبنانى، ١٩٨٣، حـ٩، م ٥، ص ٨). أما ابن ميسر فيسميه اتسزالتركمانى ويصفه بأسد دمشق (ابن ميسر، اخبار مصر، ص ٢٤). ولكن المقريزى فى اتعاظ الحنفا يسميه باطسز بن ارتق المعروف بالأقسيس (المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٣١٥) وهذا خطأ لأن اتسز لم يكن ابنا لأرتق، فقد كان مؤسس أسرة الملوك الاراتقة ولدان هما سكمان وايلغازى. وكان ارتق رجلا من التركمان تغلب على بيت المقدس في بلاد الشام، ولم يملك دمشق، وقد حكم القدس من قبل تتش السلجوقي. ولما توفى ارتق تولى ولداه سكمان وايلغازى بعده فى القدس حتى استولى عليها الأفضل شاهنشاه وانتزاعها منهما سنة ٤٩٠ هـ، فتوجها الى الجزيرة الفراتية وملكا ديار بكر وماردين (ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ١، ص ١٩١، ترجمة ٨٠) وقد أطلق عليه ابو الفدا اسم يوسف بن ابق الخوارزمى (ابو الفدا، المختصر، جـ٣، ص ٩٥) أما ابن القلانسى فقد ذكر انه اتسز بن اوق (ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٨). ونرجح أن يكون المقريزى قد نقل الاسم محرفا من أوق أو ابق فجعله ارتق. ولمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث ارجع إلى .Setton, op. cit. P. 94).

(١١) وعن مشاعر أهل دمشق العدائية تجاه اتسز يقول ابن القلانسى «وبرز من

دمشق (اتسز) ونهض في جمع عظيم إلى ناحية الساحل ثم منها إلى ناحية مصر طامعاً في ملكها ومجتهدا في الاستيلاء عليها والدعاء عليه من أهل دمشق متواصل واللعن له متتابع متصل، فلما قرب من مصر، وأظلت خيله عليها، برز إليه امير الجيوش بدر فيمن حشده من العساكر ومن انضاف اليها من الطائف والعرب، وكان قد وصل إليها واستولى على الوزارة، وعرف ما عزم عليه اتسز، فاستعد للقائه، وتأهب لدفع قصده، واعتدائه وجد في الايقاع به وحصلت العرب وأكثر العساكر من ورائه وصدقوا الحملة عليه، فكسروه وهزموه ووضعوا السيوف في عسكره قتلا واسرا ونهبا وافلت هزيما بنفسه في نفر يسير من أصحابه ووصل إلى الرملة وقد قتل اخوه وقطعت يد اخيه الآخر، ووصل بعض الفل إلى دمشق...» (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٠٩ - ١١٢).

ولمزيد من التفاصيل ارجع إلى (ابن ميسر، اخبار مصر، ص ٢٥، ابن الأثير الكامل جـ١٠، ص ١٠٣ في أخبار ص ٤٦٩ هـ) وكذلك الى (ابو الفدا، المختصر، جـ٣، ص ١٠٣ - ابن خلدون، العبر، جـ٩، م ٥، ص ٩ - W.B Stevenson, M.A, The Crusaders in the east, Cambridge, 1907, P 19.

(١٢) وفي ذلك يقول ابن ميسر «فيها (سنة ٤٦٢هـ) بعث ناصر الدولة بن حمدان الفقية أبا جعفر بن أحمد ابن أحمد بن البخارى رسولا إلى السلطان ألب ارسلان ملك العراق يسأله أن يسير إليه عسكرا من قبله ليقيم الدعوة العباسية وتكون مصر له فتجهز الب ارسلان من خراسان في عساكر جمة...». وفي موضوع آخر يقول «ولما بلغ المستنصر ارسال ناصر الدولة إلى السلطان ألب أرسلان يستدعيه إلى الديار المصرية فجهز اليه عساكر كثيرة من الأتراك...» (ابن ميسر، أخبار مصر، ص ١٩، ٢٠، محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ١٥).

(١٣) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢١ - محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ١٦.

(١٤) **ارتق بن أكسب التركمانى:** اشرنا فى الحاشية رقم (١٠) الى شخصية أرتق ابن اكسب أو اكسك الذى كان يلقب بظهير الدين، وكان ينتمى إلى قبيلة الدقر Dogar التركمانية وهى احدى البيوت الكبيرة التى تنتمى للغز. وكانت زعامتها قد انتهت إلى ارتق (ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ١، ص ١٩١). ويرجح كل من ابى الفدا وابن خلدون أن الاسم الأصح لوالد أرتق هو اكسك وليس اكسب (ابو الفدا، المختصر، جـ٣، ص ١٠٥ - ابن خلدون، العبر، جـ٥، ص ٤٦١، ٣١٥) وكان ارتق من مماليك ملكشاه بن ألب أرسلان، وبدأ حياته السياسية بتقديم خدمات جليلة للسلاجقة فحارب فى آسيا الصغرى ضد البيزنطيين سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٢م) كما توجه سنة ٤٧٠ هـ على رأس حملة عسكرية لقتال قرامطة البحرين (ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ١٠٦) واستولى على منطقتى حلوان والجبل التى تقع جنوبى كردستان على الحدود الواقعة بين العراق وفارس وضعها الى السلاجقة سنة ٤٧٢ هـ (١٠٧٩م) (ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ١، ص ١٩١). وعن علاقة ارتق مع الفاطميين اثناء وزارة بدر الجمالى ارجع (إلى عماد الدين خليل، الامارات الأرتقية فى الجزيرة والشام ٤٦٥ - ٨١٢ هـ/ ١٠٧٢م - ١٤٠٩م، اضواء جديدة على المقاومة الاسلامية للصليبيين والتتر، بيروت، ص ١٥٧ وما يليها). وقد قام تتش بتوليه أرتق على القدس سنة ٤٧٩ هـ (١٠٦٨م)، وظل يتولاها حتى وفاته سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١م) (ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ١١٥). ويعتبر ارتق مؤسس الكيان السياسى للأراتقة. وبعد وفاته لم تبق القدس فى حوزة ولديه فترة طويلة، اذ سرعان ما استردها الأفضل شاهنشاه الوزير الفاطمى سنة ٤٩١ هـ فانتقلا الى ديار بكر واسسا امارتهما هناك (عماد الدين خليل، الامارات الأرتقية، ص ٦٩. وارجع كذلك الى سعيد

كذلك الى سعيد عاشور، الحركة الصليبية، القاهرة، ١٩٦٣، جـ١، ص ١٠٥ وما يليها.

C.E Bos worth, Islamic surveys, the Islamic dynasties, P 119- P. A. Holt, the age of the crusades, the near east from the eleventh century to 1517, London and New York, 1986, P 28.

(١٥) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١١٣ – ابن الأثير، الكامل، جـ١ ص ١١٤. وان كان كل من العظيمى وابو الفدا يذكر أن استسلام مدينة حلب له تم فى سنة ٤٧٣ هـ وليس فى سنة ٤٧٢ هـ (العظيمى، تاريخ العظيمى، ص ٣٦٣، ابو الفدا، مختصر اخبار البشر، جـ٣، ص ١٠٤). وقد كان الاختلاف حول تاريخ دخول مسلم العقيلى حلب مجالا خصبا للنقاش بين المؤرخين قديما وحديثا، وقد ابرز هذه القضية وناقشها بمزيد من التفصيل الدكتور محمد ضامن (ارجع إلى محمد ضامن، امارة حلب فى ظل الحكم السلجوقى، ص ١١٥). وارجع كذلك إلى (خاشع المعاضيدى، دولة بنى عقيل فى الموصل، بغداد، ١٩٦٨، ص ٥٩، ١٠٧ وعن علاقة العقيليين بالسلاجقة ارجع إلى (نفس المرجع السابق، ص ٩٨ وما يليها).

(١٦) ابن الأثير الكامل، جـ١٠، ص ١٢٧ حيث يذكر أن وصول تتش إلى دمشق كان فى أول المحرم سنة ٤٧٦ هـ فى حين وصل شرف الدولة أواخر المحرم. كما أشار ابن الأثير إلى عدم وصول أى عسكر أو قوات من الفاطميين لمساعدة شرف الدولة العقيلى فى فتح دمشق. ولمزيد من التفاصيل ارجع إلى (محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس ص ١٧). وعن علاقة العقيليين بالدولة الفاطمية ارجع (إلى خاشع المعاضيدى، المرجع السابق، ص ٨٣ وما يليها).

(١٧) العظيمى، ص ٣٦٥ – ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١١٨ – ابو الفدا،، مختصر اخبار البشر، جـ٣، ص ١٠٦ هذا وقد أورد ابن الأثير هذا

وارجع كذلك إلى ما أورده ابن خلدون بهذا الشأن (ابن خلدون، العبر، جـ٩، م٥، ص ١٥) وقد علل الدكتور محمد ضامن هزيمة مسلم بن قريش وقواته امام سليمان بن قتلمش بعدة أسباب منها تخلى قوات جبق التركمانية عنه وانضمامها إلى جانب سليمان منذ بداية المعركة، كما تخلى عنه اصحابه من بعض القبائل اثناء القتال، ولم يبق معه سوى أحداث حلب إلى جانب شدة حرارة الجو فى فصل الصيف (شهر يونيو) (لمزيد من التفاصيل راجع محمد ضامن، امارة حلب فى ظل الحكم السلجوقى، ص ١٢٢).

أما فيلا توريوس براخاميوس Philaretos Brakhamios فقد كان على رأس زعماء الأرمن الجسورين الذين أفادوا من عجز الامبراطورية البيزنطية عن حماية أراضيها فى جنوب شرق آسيا الصغرى بعد هزيمة ملازكرت فرفض الاعتراف بالامبراطور الجديد ميخائيل السابع وتمكن من السيطرة على ثلاث مدن رئيسية فى قيليقية هى طرسوس والمصيصة وعين زربة ثم تولى انطاكية باختيار امرائها حتى لا تقع فى يد الأتراك السلاجقة (سعيد عاشور، الحركة الصليبية جـ١ ، ص ٩٩)وان كان قبل أن يحكمها كتابع للسلاجقة.

(١٨) لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث ارجع إلى سعيد عاشور، الحركة الصليبية، حـ١ ، ص ٩٧ - ١٢٥ - محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٢٢ . وقسيم الدولة أقسنقر، هو ابو سعيد ابن عبد الله المعروف بقسيم الدولة وهو والد البطل المسلم عماد الدين زنكى (ابن واصل، مفرج الكروب، القاهرة، ١٩٥٣ ، جـ١ ص ٢٨) وجد ملوك الموصل، وهو بخلاف أقسنقر البرسقى قسيم الدولة (راجع ترجمة كل منهما فى ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ١ ، ص ٢٤١ ، ٢٤٤) . ويرجع بأصله إلى قبيلة ساب يو وقيل أنه كان مملوكا للسلطان ألب ارسلان فى رأى آخر. ومن أقوى الدلائل على الحظوة التى نالها أقسنقر لدى السلطان ملكشاه منحه لقب قسيم الدولة فقد كانت الألقاب لا تمنح الا لمستحقيها وقد وصلت مكانة أقسنقر الى الحد الذى أقلق الوزير نظام الملك رغم تحكمه بأمور الدولة. وقد اعتمد السلطان

ملكشاه فى كثير من الحروب على أقسنقر إلى الحد الذى أقلق الوزير نظام الملك رغم تحكمه بأمور الدولة. وقد اعتمد السلطان ملكشاه فى كثير من الحروب على أقسنقر مثلما حدث فى عام ٤٧٣ هـ (١٠٨٠/ ١٠٨١م) عندما عينه السلطان قائدا للجيش الذى أرسله إلى الموصل بصحبة ابن جهير. وفي سنة ٤٧٩ هـ اقطع السلطان ملكشاه أقسنقر حلب ومناطقها حماة ومنبج واللاذقية فى حين أقطع أنطاكية للآمير ياغى سيان. وقد اختلف المؤرخون حول تاريخ تعيين أقسنقر واليا على حلب فمنهم من قدر ذلك بأنه فى أواخر سنة ٤٧٩ هـ (٢٠٨٦ – ١٠٨٧م) ومنهم من قدره بأول سنة ٤٨٠هـ (١٠٨٧/ ١٠٨٨م). وقد شق أقسنقر عصا الطاعة على تتش، فانتهت حياته على يديه سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤م) (الفارقى، ص ٢٤٣). ودفن بمشهد قرنبيا مدة إلى أن نقله الاتابك زنكى الى المدرسة الزجاجية بحلب (لمزيد من التفاصيل ارجع الى العظيمى، ص ٣٦٦، ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١١٩ وما يليها.

ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٢٣٢، ابن الأثير، التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر طليمات، دار الكتب الدينية بالقاهرة والمثنى ببغداد ١٩٦٣، ص ١٥ – ابن خلدون، العبر، المجلد الخامس، جـ٩، ص ١٧، ١٨ والدراسة القيمة للدكتور محمد ضامن، امارة حلب، القسم الخاص بأقسنقر وحكمه وسياسته الداخلية والخارجية، ص ١٣٥ – ١٥٢).

(١٩) وتذكر بعض المصادر أن بعض أصحاب قسيم الدولة أقسنقر صاحب حلب قتلوه (ابن القلانسى، وذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٠ – ابن الأثير،الكامل، جـ١ ص ٢٤٥) وراجع ابن خلكان، جـ١، ص ٢٩٥، ترجمة ١٢٢. وانظر كذلك إلى ما أورده ابو الفدا، المختصر، جـ٣، ص ١١٩ – ابن خلدون، ق ٥ م ٩، ص ٣٤).

فى حين يذكر الفارقى فى تاريخه ان مملوكا لبزان أو بوزان صاحب الرها رماه

بسهم فى ظهره فى وسط المعركة أرداه صريعا ثأرا لقتل تتش لبوزان (الفارقى، ص ٢٤٤).

(٢٠) هو جناح الدولة الحسين بن ايتيكين، أحد كبار القادة فى جيش السلاجقة بالشام وتذكر المصادر العربية أنه كان متزوجا بأم رضوان (ابو الفدا، مختصر اخبار البشر، جـ٣، ص ١٢٠ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٢٤٦). وكان قد حضر مع تتش معركته التى استشهد فيها ولكنه نجا من المعركة. وقد أحسن تدبير المملكة وكان فى ذلك شبيها بطغتكين فى ادارته لدمشق أيام حكم دقاق لها ولمزيد من التفاصيل عن جناح الدولة وعلاقته بصاحبها رضوان ابن زوجته ارجع الى (محمد ضامن، امارة حلب، ص ١٦٦ وما يليها وارجع كذلك الى ستيفن رانسمان، الحركة الصليبية، بيروت، ١٩٦٨ جـ٢، ص ٢٧.

(٢١) العظيمى، ص ٣٧١ - ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٠ وما يليها - أبو الفدا، مختصر اخبار البشر، ص ١٢٠ - ابن خلكان، جـ١، ص ٢٩٦ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٢٤٦ - محمد ضامن، امارة حلب، ص ١٥١ وما يليها - محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٢٩.

Stevenson, op. cit, p 24, 25.

(٢٢) عن مختصر التواريخ للسلامى ارجع إلى محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٤٠.

(٢٣) عنه وعن ولده دبيس بن صدقة الذى تمكن فى خلافة الامام المسترشد من الاستيلاء على كثير من بلاد العراق (ارجع الى ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ ٢ ص ٢٦٤ وما يليها - محمد محمد مرسى الشيخ، المرجع السابق، ص ٣٩.

(٢٤) عبد المنعم ماجد، الامام المستنصر بالله الفاطمى، القاهرة، ١٩٦١، ص ٦٨.

(٢٥) عن سياسة الفاطميين فى اليمن والدعوة الاسماعلية وهناك وعلاقة التبعية والولاء التى ربطت الصليحيين بالخلافة الفاطمية (ارجع إلى حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٢٣٩ - محمد أحمد عبد العال أحمد الايوبيون فى اليمن، الاسكندرية، بدون تاريخ، ٢٧ - ٦٧ - جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٢٤ وما يليها - عصام الدين عبد الرءوف، اليمن فى ظل الاسلام منذ فجره حتى قيام دولة بنى رسول، القاهرة، ١٩٨٢، ص ١٤٥- ١٨٠).

(٢٦) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٨٦، ابن ميسر، اخبار مصر، ص ٧ ابن الأثير الكامل، جـ٩، ص ٦١٤ - ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب طبعة بيروت، جـ ٣، ص ٢٧٧ - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة، جـ٥ ، ص ١٦- عبد المنعم ماجد، الامام المستنصر بالله، ص ١٥٦ وما يليها - عبد المنعم ماجد ،ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٥٦١ وما يليها.

(٢٧) - Conder, The latin Kingdom of Jerusalem, London 1897, P 48 - Stevenson, The Crusaders, P. 20.

صلاح الدين نوار، تاريخ الشام السياسى، ص ٥٥٣.

(٢٨) راجع الحاشية السابقة.

(٢٩) عن الفتنة النزارية ارجع إلى ان القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢٨ وما يليها.

(٣٠) الفيومى، نثر الجمان، مخلوط دار الكتب المصرية تحت رقم ١٧٤٦ جـ ٢ ورقة ٣٢٤ - صلاح الدين نوار،العدوان الصليبى على العالم الاسلامى (٤٩٠ - ٥١٥ هـ/ ١٠٩٧ - ١١٢١ م)، الاسكندرية ١٩٩٣، ص ٥١.

(٣١) Holt, The age of the Cursades, P. 15.

(٣٢) محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ١٠٠٤ .

(٣٣) المرجع السابق، ص ١٠٤، ١٠٥ .

(٣٤) لقد تصور الأفضل شاهنشاه ان هذه الحملات الصليبية شبيهة بالحملات البيزنطية على ديار الاسلام، واعتقد ان الصليبيين قد قدموا بناء على استصراخ الكسيس كومنين واستنجاده بهم لضرب السلاجقة Cambell, G. The Crusades, London, 1935, P. 119 - Grousset, Histoire des Croisades, Paris, 1934, vol I, P 85.

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١، ص ٢٣٦ وما يليها – مصطفى الكنانى، العلاقات بين جنوة والفاطميين فى الشرق الأدنى (٤٨٨ – ٥٦٧ هـ/ ١٠٩٥ – ١٧٧١م)، الاسكندرية، ١٩٨١، جـ١، ص ١٢٤).

وساعدهم على ذلك التصور محاولات الصليبيين طمأنة حكام المسلمين وايهامهم عن طريق الشائعات بأن هدفهم الوحيد هو استعادة الأراضى البيزنطية المفقودة فى آسيا الصغرى.

ويذكر بعض المؤرخين أن الصليبيين اثناء حصارهم لمدينة نيقية وجهوا سفارة من معسكرهم الذى أقاموه امام المدينة، إلى القاهرة وكانت أهم اهدافها اقامة تحالف مع الفاطميين، وذلك بناء على نصيحة الكسيس كومنين وأرخت هذه السفارة بتاريخ ٢٩ جمادى الثانية سنة ٤٩٠ هـ (١٢ يونيو ١٠٩٧م) (صاحب هذا الرأى هو المؤرخ Pierre Tudebodus فى كتابه الحرب المقدسة Historia belli sacri ولمزيد من التفاصيل عن هذه السفارة المزعومة ورأى ستيفن رانسمان فيها ارجع إلى (كتابه تاريخ الحروب الصليبية جـ١، ص ٣٢٦) – وعن سفارة الفاطميين الى الفرنج عند أسوار انطاكية ارجع إلى (ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة د. حسين عطية، الاسكندرية، ١٩٩٠، ص ١٠٤، ١٠٥ – سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١، ص ١٩٧– مصطفى الكنانى، العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص

١٢٤ – محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٩٠. Lane)
poole, A history of Egypt, P. 164 ويذكر الذكتور صلاح الدين نوار أن الفاطميين ارسلوا سفارة أخرى للصليبيين اثناء حصارهم لمدينة عرقة (لمزيد من التفاصيل عن هذه السفارات والمفاوضات ارجع الى صلاح نوار الذى استعرض كل الآراء التاريخية بشأنها، فى كتابه العدوان الصليبى على العالم الاسلامى، ص ٥٢ – ٨٣). وعن السفارة التى ارسلها الصليبيون الى مصر عقب استيلائهم على انطاكية والبارة ، ارجع إلى وليم الصورى، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة د. سهيل زكار، طبعة مؤسسة دار الفكر، ١٩٩٠، جـ١، ص ٣٩٤ – المؤرخ المجهول، اعمال الفرنجة وحجاج بين المقدس، ترجمة حسن حبشي، القاهرة، ١٩٤٨، ص ٥٩، ٦٣.

(٣٥) – ريموندا جيل، ص ١٠٤.

صلاح نوار، العدوان الصليبى، ص ٦٤.

(٣٦) كان قوام الدولة أبو سعيد كربوغا، أحد القادة الكبار في جيش السلطان ملكشاه السلجوقي. وبدأ اسمه يتردد منذ وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥ (١٠٩٢م) وعندما قامت تركان خاتون بتنصيب ولدها محمود فى السلطنة وتأهبت للعودة إلى أصفهان فاختارت كربوغا على رأس فرقة من الجيش ليسبقها إلى هناك وكلفته بالاستيلاء على قلعة اصفهان ليمهد لها الطريق فى العاصمة، وظل كربوغا يقوم بدور حاسم وهام فى الأحداث التى قامت بين خاتون وبركيا روق حتى وفاتها سنة ٤٨٧ هـ (ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٢٤٠ – محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ١١٣).

وفى اعقاب وفاة محمود بن خاتون دخل كربوغا فى طاعة بركيا روق الذى سيره امدادا للأميرين أقسنقر، وبوزان، فى حربه مع عمه تتش بن ألب ارسلان بالشام، وشارك كربوغا فى هذه المعركة الحربية التى انتهت بهزيمتهم أمام تتش وبمقتل كل من اقسنقر وبوزان (ابن العديم، زبدة الحلب، ص ١١٨)

فى حين وقع كربوغا اسيرا فى يد تتش الذى اودعه فى سجن مدينة حمص (ابن واصل، مفروج الكروب فى اخبار بين ايوب، القاهرة، ١٩٥٣، جـ١، ص ٢٦). وعندما قتل تتش بالرى، طلب بركيا روق من رضوان بن تتش ان يطلق سراح كربوغا الذى توجه بعد فك اسره الى حران فملكها ثم توجه الى نصيبين فملكها ايضا، أما الموصل فقد حاصرها مدة تسعة أشهر حتى استسلمت له فى سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٦) (ابن الأثير، الكامل، جـ١٠ ص ٢٥٨). ولمزيد من التفاصيل عن شخصيته ودوره فى الجهاد ضد الصليبيين، وحملته الى انطاكية وموقفه من السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية أثناء جهاده ضد الصليبيين واسباب هزيمته امام الصليبيين ارجع الى Stevenson, op. cit) P 27 - Setton, op cit, p 320 - 326-

محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ١١٠ وما يليها)

(٣٧) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٥ – ابن الاثير، الكامل، جـ١٠، ص ٢٧٦ – ابن العديم، زبدة الحلب، ص ١٣٢ أخبار سنة ٤٩١ هـ – ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ١٤٧.

وحول موقف رضوان صاحب حلب من هذا التحالف ومن الصليبيين ارجع الى Conder, op. cit, p 46.

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١، ص ١٩٩ – محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ١١١، محمد ضامن، امارة حلب فى ظل الحكم السلجوقى، ص ١٨٤، ١٨٥ صلاح نوار، العدوان الصليبى ص ١٧ وما يليها).

(٣٨) وليم الصورى، جـ١، ص ٣٦٣ وما يليها • سيعد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١ ص ٢٠٠، ٢٠١ – محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ١١٢.

وعن أحداث سقوط انطاكية وحصار كربوغا لها وعثوره على الحربة المقدسة

ارجع الى ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة، ص ١٠٣ وما يليها.

(٣٩) المصدر السابق، ص ١٠٣ وما يليها.

(٤٠) لمزيد من التفاصيل عن موقعة عسقلان الكبرى (سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩م) واهم نتائجها واسباب هزيمة الفاطميين فيها ارجع الى صلاح الدين نوار، العدوان الصليبي، ص ١٣٥ - ١٦٣.

(٤١) عن حملات الرملة الثلاثة ارجع الى (أسامة زكي زيد، حملات الرملة الثلاث ضد الصليبيين في عهد الوزير الفاطمي الأفضل، ١١٠١/ ١١٠٥م - ٤٩٥ - ٤٩٩ هـ، مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، ١٩٨١ - سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١ ، ص ٢٩٢ وما يليها - محمد محمد مرسي الشيخ، الجهاد المقدس، ص ١٥٢ وما يليها - صلاح نوار، العدوان الصليبي، ص ١٨٧ - ٢١٩.

(٤٢) ابن ميسر، اخبار مصر، ص ٤١.

(٤٣) العظيمي، احداث سنة ٥٠٢ هـ - ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٩ - ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢، ص ١٠٤، ١٥٥- سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١ ص ٣٠٨.

(٤٤) ابن خلدون، العبر، المجلد الخامس، القسم الأول، جـ٩، ص ٨٨، ٨٩، ٩١.

(٤٥) الفارقي، تاريخ الفارقي، ص ٢٣٧ وكان من عادة السلاطين السلاجقة الزواج بأكثر من امرأة ولما كان الاسلام لا يسمح بالجمع بين أكثر من اربع حرائر فقد كان السلطان يقوم بتطليق بعض زوجاته ويمنح المطلقة الى واحد من امرائه ويعهد اليه بتربية ابنه (ارجع الى تعليق د. سهيل زكار لكتاب تاريخ الحروب الصليبية، لوليم الصوري، جـ٢ ص ٤١.

(٤٦) المصدر السابق، ص ٢٣٧.

(٤٧) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٠، ١٣١ - وراجع ايضا ابن العديم، زبدة الحلب، ص ١٢١.

(٤٨) الفارقى، تاريخ الفارقى، ص ٢٤٥.

(٤٩) لمزيد من التفاصيل عن علاقة رضوان صاحب حلب بامارة دمشق ارجع الى محمد ضامن، امارة حلب في العصر السلجوقى، ص ١٦٠ - ١٦٦.

(٥٠) العظيمى، ص ٣٧٧ - ابن القلانسى، ذيل دمشق، ص ١٤٤ - ابن الاثير الكامل، جـ١٠، ص ٣٧٥ - ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ١٨٩ - فى حين يذكر الفارقى ان وفاته كانت سنة ٤٩٨هـ (الفارقى، ص ٢٧١).

(٥١) من بين هؤلاء المؤرخين الدكتور سعيد عاشور فى كتابه الحركة الصليبية، جـ١، ص ٣٢٣ والدكتور محمد محمد مرسى، الجهاد المقدس، ص ٨٠، ١٧٤، الدكتور صلاح نوار، العدوان الصليبى ص ٢١٣. والدكتور شاكر مصطفى في بحثه طغتكين رأس الأسرة البورية ومؤسس النظام الأتابكى، مجلة كلية الأداب، جامعة الكويت، ص ٥١ ومايليها

(٥٢) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٤.

(٥٣) محمد محمد الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٨١.

(٥٤) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٥ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٣٧٦.

(٥٥) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٥ - المقريزى، انعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٣٥.

(٥٦) يذكرنا ذلك بموقف صلاح الدين يوسف الأيوبى من الصالح اسماعيل ابن نور الدين محمود، سيده وولى نعمته، وموقف السلطان المظفر قطز من المنصور ابن سيده عز الدين ابيك.

(٥٧) من ذلك ما ذكره ابن القلانسى عن حسن سيرة طغتكين فهو يقول «وشرع فى احسان السيرة فى العسكرية وفى الرعية واحسن الى الأمراء والمقدمين من الدولة وأطلق يده من الخزانة فى الخلع والتشريفات والصلات والهبات وأمر

بالمعروف ونهى عن المنكر وأقام الهيبة على المفسدين المسيئين وبالغ فى الاحسان الى المطيعين والمحسنين وتألف القلوب بالعطاء واستمال الجانح بالتردد والحباء واستقامت له الأمور وأجمع على طاعته الجمهور» (ابن القلانسى، المصدر السابق، ص ١٤٤). وفى موضع آخر من كتابة يقول ابن القلانسى «وحسنت أحوال دمشق بايالته وعمرت بجميل سياسته وقضى الله تعالى بوفاة تتش ولد الملك شمس الملوك دقاق المقدم ذكره فى هذه الأيام، واتفق ان الاسعار رخصت والغلات ظهرت وانبسطت الرعية فى عمارة الأملاك فى باطن دمشق وظاهرها لاحسان سيرته واحمال معاملته وبث العدل فيهم وكف اسباب الظلم عنهم...» (نفسه، ص ١٤٥).

وارجع كذلك الى ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، حـ٥، ص ١٨٩، فقد وصف طغتكين بأنه قام بأمر دمشق أحسن قيام وراجع كذلك الى (ابو الفدا، المختصر، ص ١٦٠.)

(٥٨) صلاح الدين نوار، العدوان الصليبى، ص ٢١٢.

(٥٩) اختلفت المصادر العربية والمسيحية حول اعداد الجيش الاسلامى المتحد وتجمع المصادر جميعها على أن الجيش الاسلامى كان يزيد على خمسة آلاف من المشاة ورماة السهام والفرسان فابن القلانسى يؤكد أن الجيش الفاطمى وحده، كان يبلغ عشرة آلاف جندى (ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٨). ويذكر ابن الأثير أن الجيش المشترك كان يزيد على خمسة آلاف جندى (ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٣٩٤ -

فى حين يشير فوشيه دى شارتر على أن الجيش الاسلامى المشترك بلغ خمسة عشر ألف مقاتل بخلاف رجال الاسطول (فوشيه الشارترى، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة د. زياد العسلى، عمان، ١٩٩٠، ص ١٣٨).

(٦٠) ابن الأثير الكامل، جـ١٠، ص ٣٩٤ - ابن خلدون، العبر، جـ٩، م ٥، ص ٤٠٠ فى حين ذكر كل من ابن ميسر وابن القلانسى والمقريزى ان قائد

الحملة كان شرف المعالى ولد الأفضل (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٨ - ابن ميسر اخبار مصر، ص ١٤١ - المقريزى، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، القاهرة، ١٩٧٣، جـ٣، ص ٣٥). ولمزيد من التفاصيل عن اعداد القوة الاسلامية راجع Stevenson, op. cit, p 47 - ستيفن رانسمان تاريخ الحروب الصليبية، بيروت، ١٩٦٨، جـ٢ ص ١٤٤ - سعيد عاشور الحركة الصليبية، جـ١، ص ٣٠٤ - محمد الشيخ، الجهاد المقدس، ص ١٧٤ - اسامة زيد، حملات الرملة الثلاث ضد الصليبيين، ص ٥٨ وما يليها - صلاح نوار العدوان الصليبي، ص ٢١٢ وما يليها.

(٦١) ارجع الى المصادر والمراجع فى الحاشية السابقةStevenson, op. cit, p 48 وأرجع إلى ما ذكره د. شاكر مصطفى في المرجع السابق، ص ٦٣.

(٦٢) محمد الشيخ، المرجع السابق، ص ١٧٤ وما يليها - صلاح نوار، العدوان الصليبي، ص ٢١٧ وما يليها.

(٦٣) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٥ - وارجع الى حاشية رقم (٥٧).

(٦٤) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٩.

(٦٥) ابن الأثير الكامل، جـ١٠، ص ٣٩٤ - ابن خلدون، جـ٩، م ٥ ص ٤٠٠ المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٣٥. ويذكر د. شاكر مصطفى أحداث هذه الحملة في سنة ٥٠٠ هـ بدلاً من ٤٩٨ هـ ويعلل تعاون طغتكين مع الأفضل برغبته فى تأمين طريق القوافل التجارية بين مصر ودمشق بعدما قطعته غزوات بلدوين المتكررة، شاكر مصطفى، المرجع السابق، ٦٤. وارجع الى فوشيه الشارترى، ص ١٣٥ - ١٣٨.

(٦٦) المصدر السابق (فوشيه الشارترى، ص ١٣٥ - ١٣٨). ولمزيد من التفاصيل ارجع الى اسامة زكي زيد، حملات الرملة الثلاثة، ص ٦٦ - صلاح نوار، العدوان الصليبي، ص ٢١٦.

(٦٧) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٩ - ابن ميسر، اخبار مصر، ص ٤١ - المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٣٥.

(٦٨) العظيمى ، ص ٣٧٧ -ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٣٩٥

(٨٩) أشهر من نادى بهذا الرأى السير هاملتون جب Gibb (ولمزيد من التفاصيل عن آرائه، ارجع الى كتاب العدوان الصليبى للدكتور صلاح نوار، ص ٣٠٨).

(٩٠) وليم الصورى، جـ٢، ص ٦١٧.

(٩١) هو مودود بن التونتكين المكنى بشرف الدين (ابن القلانسى، ص ١٧٤ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٤٢٢). كان أحد رجال السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقى، وشارك فى الوقائع التى دارت بينه وبين أخيه بركيا روق، وأظهر خلالها شجاعة وبسالة مما استدعى انتباه السلطان محمد فقربه اليه وأسند إليه فى نهاية الأمر حكم امارة المرصل، ومهمة الجهاد ضد الصليبيين. ومن أشهر اعماله حملته على الرها سنة ١١١٠ م (لمزيد من التفاصيل عن مودود، ارجع الى ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص ١٧ - محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٢١٤ وما يليها، عبد الغنى ابراهيم رمضان، شرف الدين مودود اتابك الموصل والجزيرة، ٥٠١ - ٥٠٧ هـ+ ١١٠٨ - ١١١٣م، مجلة كلية الآداب، المجلد الرابع، ، جامعة الرياض، ١٩٧٥ - ١٩٧٦..

(٩٢) المرجع السابق، ص ٢١٤.

(٩٣) وقد توثقت اواصر الصداقة والمودة بينهما فيما بين عامى ٥٠٣ هـ، ٥٠٥ هـ، وظهر ذلك اثناء حصار الرها (لمزيد من التفاصيل، ارجع الى ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٧٠، ١٧٨). وعن هذه المعركة ارجع الى (الفارقى، ص ٢٨١ - ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٥ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٤٩٦ والباهر ص ١٨، ١٩ - ابن خلدون، العبر، جـ ٩، م ٥، ص ٨٨). ومن المصادر اللاتينية ارجع (الى فوشية الشارترى، ص ١٥١).

وراجع كذلك - Conder, The Latin Kingdom, P 88

(٦٩) كان بلدوين قد حاصر عكا قبل الاستيلاء عليها، وكانت لا تزال تابعة للفاطميين ففر زهر الدولة الجيوشي واليها الفاطمى، الى دمشق سنة ٤٩٧ هـ حيث استقبله ظهر الدين طغتكين خير استقبال، وأكرمه وأحسن اليه ثم جهزه الى الأفضل الذى أنكر عليه خروجه من عكا وتضييعها (المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٣٤).

(٧٠) حصن تبنين أو Toron: حصن شيده الصليبيون سنة ٤٩٩ هـ (١١٠٥م) ليسهل عليهم عملية الاستيلاء على مدينة صور التى استمرت خاضعة للسيادة الفاطمية حتى سنة ٥١٨ هـ، وأبدت ضروبا من المقاومة لصد هجمات الصليبيين عليها، وكذلك للدفاع عن امارة الجليل الصليبية من جهة العزب، وضرب الحركة التجارية بين صور والمسلمين فى الداخل ولا سيما دمشق. وقد تمتعت صور بموقع استراتيچى هام، وكانت تمثل مركزا من مراكز المقاومة الفاطمية ضد الصليبيين، فقد كانت القاعدة البحرية التى تبحر منها السفن الفاطمية للدفاع عن مدن الشام الساحلية التى تحاصرها أساطيل الفرنج. ولم يكن تبنين هو الحصن الوحيد الذى ابتناه الصليبيون لاستنزال مدينة صور ولكنهم شيدوا حصنا آخر سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧م) على تل المعشوقة وقلعة سكانداليون Scandalion أو أسد الحقل على بعد ٥ أميال من صور فى الطريق إلى عكا. (ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٥٩ وارجع الى وليم الصورى، جـ٢، ص ٦٢٧ - رضا السيد حسن، الصليبيون وآثارهم فى جبل عامل، بيروت ١٩٨٧ص ٤٩ - سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١، ص ٣٠٦ - عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس الصليبية، الاسكندرية، ١٩٥٨، ص ٨٩.

فى حين يذكر جان ريشارد أن قلعة سكانداليون قد تم بناؤها سنة ٥١٠هـ (١١١٦م) ويتفق معه فى هذا الرأى كل من روبن فيدين وجون طوسون راجع (Jean Richard. The Latin Kingdom, p 25, 156- Fedden and John Thomson. Crusader Robin Castles, London, 1957 - p 25).

وان كانا يذكران ان بناء قلعة تبنين أو تورون كان قد تم في عام ٤٩٧ هـ (١١٠٣م) (op. cit. p. 25) ويذكر أحد المؤرخين الحديثين أن قلعة تل المعشوقة هي نفسها قلعة سكانداليون (صلاح نوار، العدوان الصليبي، ص ٢٩٩). وفي تصوري أن قلعة تل المعشوقة هي قلعة أخرى بخلاف قلعة سكانداليون التي بنيت في فترة متأخرة وفي المنطقة الواقعة ما بين صور وعكا. أما قلعة تبنين Toron فهي من انشاء النبيل الفرنسي هيودى سان اومر Hogh de Saint Omer حاكم طبرية سنة ٤٩٩، على الطريق التي يربط بين صور وبانياس ودمشق وعلى بعد ١٣ ميلا شرقي صور (لمزيد من التفاصيل ارجع الى سحر عبد العزيز سالم، موقف صور من احداث الشام، ص ٤، ٥).

(٧١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٥١ اخبار سنة ٥٠٠ هـ - وبيط ابن الجوزي، مرآة الزمان، جـ٨، ص ١٩، المقريزي، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٣٧ - سعيد عاشور الحركة الصليبية، جـ١، ص ٣٠٧ - السيد عبد العزيز سالم، دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الاسلامي، بيروت، ١٩٧٠، ص ٩٥ - صلاح نوار، العدوان الصليبي ص ٢٩٨.

وارجع كذلك إلى

وليم الصوري، جـ١، ص ٥٨٩

وعن البرت دكس ارجع إلى Stevenson, p 50

(٧٢) لمزيد من التفاصيل ارجع الى سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١، ص ٣٠٧ وما يليها.

(٧٣) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٢ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠ ص ٤٥٦. وعن البرت دكس ارجع الى أسامة زكي زيد، صيدا ودورها في الصراع الصليبي الاسلامي، الاسكندرية، ١٩٨١، ص ٨٨.

وارجع كذلك الى سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٣١٠ - السيد

عبد العزيز سالم، دراسة فى تاريخ مدينة صيدا، ص ٩٦ - عمر عبد السلام تدمرى، لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين، طرابلس ١٩٩٤، ص ٢٧٨.

(٧٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١ ص ٣١٠ - اسامة زيد، صيدا ودورها، ص ٨٨ - عمر عبد السلام تدمرى، لبنان من السيادة الفاطمية، ص ٢٧٨.

(٧٥) رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢، ص ١٤٨، ١٤٩ - Stevenson, The Crusaders, P 50.

وراجع رأى Frederick Carl Eislen, Sidon, A Study of Oriental history, New York 1907, p 84

(٧٦) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٢.

(٧٧) ابن الأثير الكامل، جـ١٠، ص ٤٥٦.

(٧٨) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، جـ٨، ص ٢٥.

(٧٩) المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٤٣، وان كان المقريزى قد أوردها فى أحداث سنة ٥٠٢ هـ، وليس سنة ٥٠١ هـ مثل كل من ابن القلانسى وابن الأثير.

(٨٠) ابن الأثير، الكامل، جـ١٠ ص ٤٨٩.

(٨١) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨١.

(٨٢) المصدر السابق، ص ١٤٢.

(*) نفسه، ص ١٦٢ - ابن الأثير الكامل، جـ١٠، ص ٤٦٨ - عمر عبد السلام تدمرى، المرجع السابق، ص ٢٣١.

(٨٣) أجمع المؤرخون على تحديد جبل عامل شرقا بواحة الحولة إلى نهر الغجر،

ووادى التيم وشمالا بنهر الأولى المعروف قديما بوادى الفراديس الفاصل مجراه بين مقاطعة الشوف وجزين بالقرب من صيدا، وغربا بالبحر المتوسط، وفيما يتعلق بحدوده الجنوبية فيجمع فريق كبير من المؤرخين على ادراج صور في بلاد بشارة أو جبل عامل. لمزيد من التفاصيل ارجع الى (رضا السيد حسن، الصليبيون وآثارهم فى جبل عامل، بيروت، ١٩٨٧، ص ١٨ ٢٠ - سحر سالم، موقف صور، ص ٢)

(٨٤) Jean Richard, The Latin Kingdom, Vol I, P 30)

(٨٥) عن اسباب هذا الهجوم الصليبى ارجع الى سحر سالم، موقف صور، ص ١٥.

(٨٦) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٥٩ - ابن ميسر، اخبار مصر، ص ٤٣ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٤٥٦ - المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٣٨. وعن البرت دكس ارجع إلى Stevenson, P 50 - السيد عبد العزيز سالم دراسة فى تاريخ مدينة صيدا، ص ٩٥ - اسامة زكى زيد، صيدا ودورها ص ٨٧ - صلاح نوار، العدوان الصليبى، ص ٢٩٩.

(٨٧) لمزيد من التفاصيل، راجع بحثى السابق، ص ١٧ وما يليها.

(٨٨) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٧ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠ ص ٤٨٨، ٤٨٩ - المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٤٨ - ابن خلدون، العبر، م ٥، جـ ٩، ص ٤١٣، ٤١٤.

(*) لمزيد من التفاصيل عما ورد بشأن هذه الأحداث فى المصادر الأوروبية ارجع الى فوشية الشارترى، تاريخ الحملة الى القدس، ص ١٥ - وليم الصورى، جـ١، ص ٥٤٦ وارجع كذلك الى Anna Comnena, The Alexiad, P 442.

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١، ص ٣١٩ - محمد الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٢٣٥ وما يليها - Nikita Elisseff, L'Orient Musulman au Moyen Age, Paris, 1977, P 237.

وقد شارك عماد الدين زنكي في هذه المعركة وأبلى فيها بلاء حسنا وأظهر من ضروب الشجاعة والبسالة الكثير (ابن الأثير، الباهر، ص ١٨)

(٩٤) عن هجوم حامية عسقلان على بيت المقدس اثناء تطويق كل من مودود وطغتكين لبلدوين عند جسر الصنبرة، ارجع الى ما أورده كل من فوشيه الشارترى، ص ١٥٣، ووليم الصورى، جـ٢، ص ٥٤٧، ٥٤٨.

(٩٥) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٧.

(٩٦) المصدر السابق، ص ١٨٧.

(٩٧) ابن الأثير الكامل، جـ١٠، ص ٤٩٧، الباهر، ص ١٩.

(٩٨) وارجع كذلك الى ابن خلدون، العبر، جـ٩، م ٥، ص ٨٨.

(٩٩) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١، ص ٣٢٣ - محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٢٤١، عبد الغنى ابراهيم رمضان، شرف الدين مودود اتابك الموصل والجزيرة، ص ١٤٧ وما يليها، شاكر مصطفى طغتكين، ص ٦٢.

(١٠٠) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٧.

(١٠١) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ص ٥١. وراجع ما ذكره ابن الفرات في تاريخ الدول والملوك، جـ ١، ص ٧٨. ولمزيد من التفاصيل عن ما ورد من آراء في المصادر العربية، راجع عبد الغنى ابراهيم رمضان، المرجع السابق، ص ١٤٧ ومايليها.

(١٠٢) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٢.

(١٠٣) المصدر السابق، ص ١٤٩.

(١٠٤) نفسه، ص ٢١٤.

(١٠٥) ابو الفدا، المختصر، جـ٥، ص ٧٧، ٨٠.

(١٠٦) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٢، ص ٣٨١.

(١٠٧) ابن القلانسي، ص ١٤٢.

(١٠٨) المصدر السابق، ص ٢١٤ - ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٦٣٤ وارجع كذلك الى ابن خلكان، جـ١، ص ٢٤٢.

(١٠٩) ابن القلانسي، ص ٢٣٠.

(١١٠) المصدر السابق، ص ١٤٦. ولمزيد من التفاصيل عن سكمان ارجع الى (ابو الفدا، المختصر، ص ١٣٧).

(١١١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٩٧، ١٩٨.

(١١٢) راجع ما ذكره الدكتور محمد الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٢٤٤.

(١١٣) ابن القلانسي، ص ١٧٠.

(١١٤) المصدر السابق، ص ١٨٤.

(١١٥) نفسه، ص ١٩٢، ١٩٣.

(١١٦) ابن العديم، زبدة الحلب، ص ١١٧، ص ١١٧ - ابن الأثير الكامل، جـ١٠، ص ٥٠٣، ٥١٠. وارجع الى ما أورده **وليم الصورى**، جـ١، ص ٥٥٥.

(١١٧) ابن الأثير الكامل، جـ١٠، ص ٥٠٩.

(١١٨) ابن العديم، زبدة الحلب، ص ١٧٥.

(١١٩) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٩٣.

(١٢٠) المصدر السابق، ص ١٩٩.

(١٢١) نفسه، ص ٢٠٠، ٢٠١.

(١٢٢) وقد وافق هذا الموعد يوم عيد الفصح (فوشيه الشارترى، تاريخ الحملة الى القدس، ص ١٨٥)

(١٢٣) Setton, op. cit, P. 98 – صلاح نوار، العدوان الصليبى، ص ٣٤٩.

(١٢٤) ابن الأثير الكامل، جـ١٠، ص ٥٤٣.

(١٢٥) المصدر السابق، ص ٥٤٣. ويذكر فوشيه دى شارتر أن الجيش الفاطمى وحده كان يقدر عدده بخمسة عشر ألف فارس وعشرين الف راجل وكان الاسطول الفاطمى قد ابحر الى عسقلان لمشاركة القوات البرية الا أنه سرعان ما غادر الى صور، تاركا الجيوش البرية وحدها فى عسقلان انتظارا لبدء المعركة (فورشيه الشارترى، المصدر السابق، ص ١٨٥).

(١٢٦) فوشية الشارترى، نفسه، ص ١٨٥، ص ٢٤٣ حاشية (٤) – صلاح نوار، العدوان الصليبى، ص ٣٥١.

(١٢٧) ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٥٤٣.

(١٢٨) فوشيه الشارترى، المصدر السابق، ص ١٨٦.

(١٢٩) وليم الصورى، جـ١، ص ٥٧٥ وما يليها.

ولمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة ارجع الى صلاح نوار، العدوان الصليبى ص ٣٥٠ وما يليها.

(١٣٠) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٧ – ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٦٢٠، ٦٢١ – المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٩٦ – ستيفن رانسمان، الحروب الصليبية، جـ٢، ص ٢٧.

(١٣١) لمزيد من التفاصيل ارجع الى سحر سالم، موقف صور من أحداث الشام منذ منتصف القرن الخامس الهجرى وحتى سقوطها فى ايدى الصليبيين سنة ٥١٨ هـ، ص ٢٢.

(١٣٢) المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ١٠١، ١٠٢.

(*) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١١ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٦٢١ - المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ١٠٧. بينما يذكر وليم الصورى أن طغتكين استقر في منطقة مجاورة لصور تقع على ضفاف نهر يبعد عنها بنحو أربعة أميال. (وليم الصورى، جـ٢، ص ٦٢١)

(١٣٣) تجمع المصادر العربية على تخاذل المأمون البطائحى في نجدة مدينة صور. ارجع الى (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١١ وابن ميسر، اخبار مصر، ص ٦٤. وارجع ما أورده ابن الأثير الكامل، جـ١٠، ص ٦٢١ وكذلك ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ص ١٧٠ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ١٨٢). ان كان المقريزى قد أورد في الخطط المقريزية، جـ٢، ص ٣٧٦ ان اسطولا مصريا خرج لانجاد صور ولكنه تعرض لهجوم بعض السفن البندقية.

(١٣٤) ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٦١٩.

وراجع ما ذكره وليم الصورى، جـ٣، ص ٦٢٣ - ستيفن رانسمان، جـ٢ ص ٢٧٢.

(١٣٥) ستيفن رانسمان، المرجع السابق، جـ٢، ص ٢٧٢.

(١٣٦) راجع رأى صلاح نوار العدوان الصليبى، ص ٣٥٣.

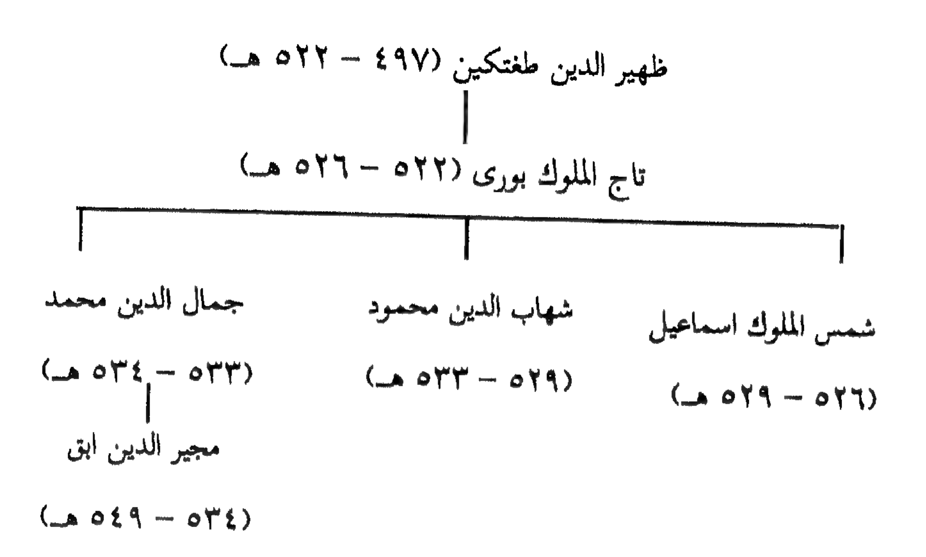
(١٣٧) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١٢.

(١٣٨) المصدر السابق، ص ٢١٥.

(١٣٩) نفسه، ص ٢١٨.

(١٤٠) خلف تاج الملوك بورى والده طغتكين، في حكم دمشق منذ عام ٥٢٢ هـ حتى عام ٥٥٦ هـ عندما توفى متأثرا بجراحه من جراء الهجوم الدى دبره بعض الباطنية الموتورين (لمزيد من التفاصيل ارجع الى ابن القلانسي، ذيل

تاريخ دمشق، ص ٢٣٠) وخلفه ولده شمس الملوك ابو الفتح اسماعيل على حكم دمشق (٥٢٦ هـ - ٥٢٩ هـ) وقد انتهت حياة شمس الملوك اسماعيل بالقتل ايضا، فقد اساء السيرة وطغى وبغى وظلم الرعية مما عرضه لمؤامرة اغتيال فاشله دبرها له احد مماليك والده، وأمر اسماعيل بعد نجاته، بقتل هذا المملوك، وكل من حامت حوله الشبهة حتى أنه قتل أخاه سونج (ابن القلانسي، ص ٢٤١، ٢٤٢). واستخدم اسماعيل رجلا كرديا كافرا لا يعرف الاسلام، كمستشار له، مما زاد من نقمة الرعية عليه، فلما أحس اسماعيل بالمؤامرات تحاك ضده من كل جانب، عمل على الاتصال بعماد الدين زنكى أمير الموصل وحلب الذى كان يطمع فى ضم دمشق الى امارته استكمالا لتوحيد الجبهة الاسلامية والشروع فى مواجهة الفرنج مواجهة حاسمة. وقد أثار هذا الفعل سخط صفوة الملك خاتون، والدة اسماعيل، فاجتمعت بكبار رجال الدولة فى دمشق، ودبرت معهم قتل ولدها غير راحمة ولا متألمة لفقده، وتمت المؤامرة، واغتيل اسماعيل سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٥م)، واقامت والدته بالقاء جثته فى موضع من الدار ليشاهده غلمانه وأقامت مكانه اخاه شهاب الدين محمود. (ابن القلانسى، المصدر السابق، ص ٢٤٦). وتذكر بعض المصادر أن صفوة الملك خاتون أتهمت بالحاجب سيف الدولة يوسف بن فيروز أحد خواص زوجها تاج الملوك بورى، فعزله اسماعيل، وقرر قتل امه، فبادرت هى بالتدبير لقتل ولدها (ابو الفدا، المختصر، ص ١٥). أما فيروز فكان قد فر الى تدمر (ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٤٤).



(١٤١) ابن القــلانسى، ذيل تاريخ دمـــشق، ص ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٦، المقريزى اتعاظ الحنفا، جـ٣ ص ١٤٦ – محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٣٣٠ وراجع كذلك ما اورده ابو الفدا، المختصر، ص ١٥.

(١٤٢) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٤٧ وما يليها.

(١٤٣) لمزيد من التفاصيل ارجع الى سعيد عاشور، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية، أحد ابحاث كتاب «بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى بيروت، ١٩٧٧، ص ١٩٤.

(١٤٤) ابن ميسر، تاريخ مصر، جـ٢، ص ٨٢ – سعيد عاشور، شخصية الدولة الفاطمية، ص ١٩٤ وما يليها.

(١٤٥) لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث ارجع الى اسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، تحرير فيليب حتى، مطبعة برنستون، ١٩٣٠، ص ٣٠ وما يليها سعيد عاشور، شخصية الدولة الفاطمية، ص ١٩٦.

(١٤٦) ابو الفدا، مختصر اخبار البشر، ص ٣٠.

(١٤٧) اسامة بن منقذ الاعتبار، ص ١٠ سعيد عاشور، شخصية الدولة الفاطمية، ص ١٩٨.

(١٤٨) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٢٧ - ابن الآثير الكامل جـ ١١، ص ١٩٦. وراجع كذلك ما أورده أبو الفدا، مختصر اخبار البشر ص ٤٢.

(١٤٩) بدأ شاور بن مجير السعدى حياته كتابع للصالح طلائع بن رزيك الذى ولاه الصعيد. وكانت ولاية الصعيد من أكبر الاعمال بعد الوزارة. وابدى شاور كفاية عظيمة وتقدم زائد، واستمال الرعية والمقدمين من العرب مما أثار خوف الصالح ولكنه عجز عن عزله لتوطيد نفوذه هناك. ولما جرح الصالح، كان من جملة وصيته لولده العادل أن يستميل شاور ولا يعزله لتفاقم نفوذه وعظم شوكته. ولكن العادل الذى خلف والده على الوزارة، حاول الاطاحة بشاور، ولم يقف شاور مكتوف اليدين فجمع جموعا كثيرة وسار بهم الى القاهرة، فهرب العادل ابن الصالح بن رزيك ثم قبض عليه وقتل، واصبح شاور وزيرا وتلقب بأمير الجيوش واستولى على أموال بنى رزيك وودائعهم وذخائرهم (لمزيد من التفاصيل عن شاور السعدى ارجع الى ابن الأثير، الكامل، جـ١١، ص ٢٩٠ - ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ٣٤٦).

(١٥٠) ابو شامة، الروضتين فى اخبار الدولتين، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٦٢، جـ١، ص ١٣١ - ابن الأثير، الكامل، جـ١١، ص ٢٩٨، الباهر، ص ١٢٠، ١٢١ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥ ص ٢٤٧.

(١٥١) **وليم الصورى** جـ٢، ص ٩٢٧، ٩٣٩ وما يليها.

(١٥٢) لمزيد من التفاصيل عن تلك الحملات النووية الثلاثة سنة ٥٥٩ هـ، ٥٦٢، ٥٦٤ هـ على مصر، واصطدام أسد الدين شيركوه وابن اخيه صلاح الدين يوسف مع الصليبيين على أرضها فى معركة البابين وفى الاسكندرية ارجع الى سعيد عاشور، شخصية الدولة الفاطمية، ص ٢٠٠ وما يليها - أحمد الشامى، صلاح الدين والصليبيون، القاهرة، ١٩٩١، ص ٥٩ وما يليها.



لمحـات إنسانيـة
من حياة المعتمد بن عباد الأسرية*

* هذا البحث شاركت به المؤلفة فى مهرجان المعتمد بن عباد الذى نظمته وزارة الشؤون الثقافية بالمملكة المغربية فى مراكش فى الفترة من ٦ - ٨ ديسمبر ١٩٩٥ تحت رعاية كل من الملكين الحسن الثانى وخوان كارلوس.

لمحات إنسانية من حياة المعتمد بن عباد الأسرية

هيأ القدر للمعتمد بن عباد منذ نعومة أظفاره حياة مترفة وظروفا خاصة تضافرت جميعها لتكوين شخصية هذا الأمير الذى بقيت سيرته حية حتى بعد مماته وتحول هو ذاته إلى رمز جسدته الكتابات التاريخية والأدبية وأشعاره الرقيقة التى ملأت صفحات المصنفات كأسطورة من أساطير التاريخ.

ولد محمد بن عباد يوم الثلاثاء لسبع بقين من صفر سنة ٤٠٧هـ[١]، ونشأ فى أسرة ملكية فوالده، هو المعتضد بالله أبو عمرو بن عباد بن محمد بن اسماعيل ابن عباد أعظم ملوك الطوائف بأسا وأوسعهم ثقافة، أما أمه فهى السيدة الكبرى بنت مجاهد العامرى صاحب دانية والجزائر الشرقية[٢].

وأعتقد أن المعتضد بن عباد كان له الأثر الأكبر فى تكوين شخصية ولده محمد فالمعتضد كان يجمع بين النقيضين[٣] فهو على حد ماوصفته المصادر العربية حاكم مستبد، جبار تجاوز الحدود فى اصطناع القسوة وأسرف فى قتل خصومه واعدائه والمثلة بهم وبالغ فى الأخذ بالظنة والاخفار للذمة[٤].

واقتنى بباب قصره حديقة تحمل رؤوسا محنطة لاعدائه الذين سقطوا فى ساحة الحرب[٥] أو قتلوا غيلة وقد بلغت به القسوة أنه أقدم على قتل ولده اسماعيل المتسمى بالمنصور عندما ثار عليه وأخفى جثته وعذب شركاءه أشنع عذاب وقطع أطرافهم ثم اعدمهم مع نفر من حرم ولده ونسائه وكانت تلك الحادثة مأساة مروعة تركت اصداء عميقة المدى فى سائر أنحاء الأندلس[٦].

ورغم اقباله على سفك الدماء وجنوحه إلى البطش باعدائه والتنكيل بهم، الا[٧] أنه كان على حد وصف **ابن حيان** ذا قدرة فائقة على «تحبير الكلام، وقرض قطع من الشعر ذات طلاوة فى معان أمدته فيها الطبيعة وبلغ فيها الارادة واكتتبها الأدباء للافادة فجمع هذه الخلال الظاهرة والباطنة إلى حود كف بارى بها السحاب».

كما كان له اهتمام شديد بالمرأة وكانت للنساء مكانة فى حياته فزوجته الحرة ابنه مجاهد العامرى وأخت على بن مجاهد صاحب دانية كانت ذات حظوة كبيرة

ومكانة أثيرة لديه[٨]، وكان على قسوته وجبروته شديد الميل لاحدى بناته فلما توفيت سنة ٤٦١ هـ، حزن لذلك حزنا شديدا وأصيب بصدمة عنيفة عقب دفنها أفضت به إلى الموت في اليوم التالي[٩]. كما استكثر من الجوارى وأمهات الأولاد من كل جنس ولون وخلف وراءه سبعين جارية[١٠]. فكان له من البنين نحو عشرين ومن البنات مثل ذلك[١١]

وقد تأثر المعتمد محمد بن عباد بلا أدنى شك بشخصية أبيه سلبا وايجابا ففى اعتقادى أن القسوة الشديدة التى عامل بها المعتضد خصومه واعداءه قد ولدت لدى ابنه محمد احاسيسا مضادة، ودفعته إلى اصطناع النقيض والنفور من هذا العنف وسفك الدماء فنشأت لدى المعتمد محمد بن عباد مشاعر رقيقة مشبعة بالحب، مشاعر بعيدة كل البعد عن صفات أبيه، فكان فى ذلك نقيضا له وغلبت عليه الوداعة والكرم والبعد عن شهوات القتل والقهر التى اتصف بها أبوه. وقد أجمع المؤرخون مشارقة ومغاربة على وصفه بأجمل الصفات وأرقها، **فابن خلكان** المؤرخ المشرقى نقل عن أبى الحسن على بن القطاع السعدى وصفه للمعتمد بقوله «أندى ملوك الأندلس راحة وأحبهم ساحة واعظمهم ثمادا وأرفعهم عمادا، ولذلك كانت حضرته ملقى الرجال وموسم الشعراء وقبلة الآمال، ومألف الفضلاء حتى أنه لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء ماكان يجتمع ببابه[١٢] ....»

أما **ابن الأبار** فقد وصفه بقوله «وكان المعتمد من الملوك الفضلاء والشجعان العقلاء والأجواد الأسخياء المأمونين، عفيف السيف والذيل مخالفا لأبيه فى القهر والسفك والأخذ بأدنى سعاية، رد جماعة ممن نفى أبوه، وسكن مانفر وأحسن السيرة وملك فأسجع[١٣] ..»، فى حين وصفه **ابن الخطيب** بأنه كان «كثير المعانى حر المآخذ، لدن معاطف الكلام، رقيق الحاشية، كثيف المتن وكثير البديع، رائق الديباجة. .» وذكر فى موضع آخر أنه «كان شجاعا مقداما، حسن السيرة رفيقا بالرعية. .»[١٤]

واذا كان لحادثة قتل المعتضد لولده الأكبر اسماعيل، أصداء قوية فى جميع

أنحاء الأندلس، فقد تركت جرحا داميا عميقا فى نفس ابنه المعتمد بن عباد. ومما لاشك فيه أن قسوة المعتضد وعنفه كانا وراء اندفاع ابنه اسماعيل على التمرد عليه، وأدى ذلك فى نهاية الأمر إلى اقدام الأب على قتله. وأثرت هذه الجريمة الشنعاء فى محمد بن المعتضد تأثيرا عميقا دفعه إلى نبذ سياسة أبيه الدموية وإلى الارتباط الوثيق بأبنائه، فغمرهم بعطفه وشملهم بحنانه وأسبغ عليهم من فيض أبوته.

عرف المعتمد بحبه الشديد لأبنائه وبناته وبلغت به الثقة الكاملة بهم أنه كان يسند إلى البنين أن ينوبوا عنه فى ولاية المدن التابعة لمملكته، فولى ولده عبادا الملقب بسراج الدولة على قرطبة أعظم مدن الأندلس[١٥] رغم المخاطر التى كانت تواجهه فيها، وعند مادبر المأمون بن ذى النون خطة لاستردادها وقتل ولده عباد على يد ابن عكاشة أثناء الدفاع عنها، تقدم المعتمد إلى قرطبة على رأس قواته واستعادها ولم يتردد فى الفتك بابن عكاشة أخذا بالثأر لولده[١٦]، ثم ولى عليها بعد ذلك أبنا آخر له هو الفتح الملقب بالمأمون[١٧] وهو الذى سيقتل فى صفر سنة ٤٨٤هـ أثناء دفاعه عن المدينة عند دخول قوات المرابطين وسترفع رأسه على رمح دلالة على النصر المرابطى. كما ولى المعتمد ولده أبا خالد يزيد الراضى على الجزيرة الخضراء واستمر الراضى يتولاها حتى خصصها المعتمد لنزول قوات يوسف بن تاشفين بها عند جوازها إلى الأندلس لمساندة ملوك الطوائف، فنقل المعتمد ابنه إلى رندة[١٨]، فلما انقلب المرابطون على المعتمد وأرادوا الاطاحة بملكه، حاول الراضى التصدى لهم فكان فى ذلك نهايته فقد استنزل الراضى من رندة عند خلع ابيه وعقب مخاطبته من قبل المرابطين على عهود أضفرت ومواثيق نقضت فقتل صبرا فى رمضان سنة ٤٨٤هـ[١٩] وأخفى جسده[٢٠].

وقد أورد المقرى فى ترجمته للراضى مايشير إلى أسلوب المعتمد بن عباد المتطور السابق لعصره فى معاملته لأبنائه وتوجيهه لهم، فهو لم يكن يقسو عليهم أو يعنفهم وانما كان اذا أخطأ أحدهم يرميه بملامه مثلما فعل المعتمد مع ولده الراضى، الذى تباطأ فى الدفاع عن مدينة لورقة وأظهر التمارض مما دفع المعتمد

إلى ارسال ابنه الآخر المعتد على رأس جيش الدفاع عن المدينة وأعرض عن ولده الراضى تماما عقابا له على اهماله، ويؤكد المقرى أن الراضى حاول استرضاء والده فكتب اليه ابياتا من الشعر.ولكن المعتمد تمادى فى خصامه حتى اشتاق إلى ولده وغلبه الحنين فكتب إليه بهزل قائلا:

الملك فى طى الدفاتر ... فتخل عن قود العساكر
طفت بالسرير مسلما ... وارجع لتوديع المنابر
وازحف إلى جيش المعا ... رف تقهر الحبر المقامر(٢١)

ثم صالحه المعتمد وقربه إليه وأدناه منه.

كما ولى المعتمد أكبر أبناءه أبا الحسن عبيد الله بن محمد الرشيد عهده وقدمه إلى خطة القضاء باشبيلية فكان يجلس للأحكام جلوسا تاما يوم الخميس من كل أسبوع ويدعو للحضور أعيان الفقهاء وأهل العلم وثقات الشهداء وتتجاذب عنده النوازل فيحكم فيها ويستفتى الفقهاء وتنعقد عليه السجلات بالأحكام. كماكان ينيبه فى ادارة شئون أشبيلية فى كثير من الأحيان. وقد أشار **ابن الأبار** أيضا إلى بعض الأبيات التى كتبها الرشيد إلى أبيه المعتمد يسترضيه ويستعطفه بعد أن عتب عليه عتابا شديدا لخلاف وقع بينهما وذلك فى طريقه من مكناسة إلى اغمات نطالع منها البيتين التاليين:

ياحليف الندى ورب السماح ... وحبيب النفوس والأرواح
من تمام النعمى على التماص ... لمحة من جبينك الوضاح

فرد عليه المعتمد ببعض أبيات توضح أسلوبه التربوى فى معالجة أخطاء أبنائه بقوله:

كنت حلف الندى درب السماح ... وحبيب النفوس والازواح
اذ يمينى للبذل يوم العطايا ... ولقبض الأرواح يوم الكفاح
وشمالى لقبض كل عنان ... يقحم الخيل فى مجال الرماح(٢٣)

ويعبر ميل المعتمد بن عباد إلى تولية ابنائه على المناطق التابعة لمملكته واسناد المناصب العليا اليهم عن حبه الشديد لهم وثقته العمياء بهم كما يعبر هذا التصرف عن استفادته من الدرس الذى تلقاه فى فجر شبابه عندما أقدم والده على قتل ابنه اسماعيل فكأنما أراد بحبه الفياض لأولاده أن يكسب محبتهم له فيخلق بذلك علاقة حميمة تختلف عن تلك التى ربطت بين والده وأخيه القتيل.

وشاءت الاقدار أن يشهد المعتمد فى حياته مقتل خمسة من أبنائه الذكور هم سراج الدولة عباد، والفتح الملقب بالمأمون، وأبو خالد يزيد الراضى كما سبق أن أشرنا وابنه الرابع مالك الذى قتل عند اقتحام المرابطين لاشبيلية اما الابن الخامس فهو عبد الجبار الذى قتله المرابطون فى أواخر أيام المعتمد، لأنه ثار على حكمهم بعد أن امتنع مع جماعة من أصحابه بحصن اركش(٢٤)، كما أرسل إلى الفونسو السادس يطلب معاونته العسكرية، فلما علم الأمير المرابطى سير بن أبى بكر بأنباء تلك الثورة توجه على الفور إلى اركُش وأرسل فى ذات الوقت إلى يوسف بن تاشفين يستمده، فأمده بعدة اضافية من الخيل والرجال، ثم تقدم المرابطون إلى الحصن واتصلت الحرب بين الفريقين، وكان عبد الجبار بن عباد يخرج من حصنه للقتال بنفسه واشتبك معهم فى عدة معارك فأوقعوا به الهزيمة ودفعوه إلى التحصن داخل الحصن بعد أن كبدوه خسائر فادحة، وظل الوضع كذلك إلى أن نجح أحد الرماة المرابطين فى اصابته بسهم فى احدى المعارك فاحتمله اصحابه جريحا، وتوفى لايام قلائل فكتم اصحابه موته وبعد مرور ستة أشهر تمكن المرابطون من اقتحام الحصن واستخرجوا جثة عبد الجبار واحتزوا رأسه ورؤوس أصحابه وحملت إلى مدينة اشبيلية وعلقت على أسوارها سنة ٤٩٠هـ (١٠٩٧م)(٢٥).

وقد أثارت هذه الأحداث آلام المعتمد بن عباد وأحزانه وهو فى منفاه بأغمات، فعاش لحظات قاسية وهو يسمع بمصارع أبنائه الواحد بعد الآخر، وعندما أصدر سير بن أبى بكر أمانا للمعتمد فى النفس والأهل والولد(٢٦) أرغمه على مخاطبة ولديه يزيد الراضى وأبى بكر المعتد الذى كان ممتنعا فى مرتلة للتسليم. وحاول المعتمد بن عباد وزوجته اعتماد الرميكية حث ابنيهما على التسليم فأذعن الأميران،

ولكن المرابطين نكثوا بعهدهم مع الراضى فقتلوه[٢٧].

ويورد ابن الأبار ابياتا شعرية للمعتمد أنشدها بعدها يرثى فيها ولديه المأمون والراضى منها:

معى الأخوات الهالكات عليكما وأمكما الثكلى المضرمة الصدر
تبكى بدمع ليس للغيث مثله وتزجرها التقوى فتصغى إلى الزجر
تذللها الذكرى فتفزع للبكا وتصبر فى الأحيان شحا على الأجر
أبا خالد أورثتنى البث خالدا أبا النصر مذ ودعت ودعنى نصرى
وقبلكما ما أودع القلب حسرة تجدد طول الدهر: ثكل أبى عمرو[٢٨]

كما أورد المقرى بعض الأبيات التي رثى بها المعتمد أبناءه وقد رأى قمرية بائحة بشجنها نائحة بفننها على سكنها وأمامها وكر فيه طائران يرددان نغما ويغردان ترحة وترغا:

بكت أن رأت الفين ضمهما وكر مساء وقد أضمنى على ألفها الدهر
وناحت فباحت وأستراحت بسرها ومانطقت حرفا يباح به سر
بكت واحدا لم يشجها غير فقده وابكى لالاف عديدهم كثر
بنى صغير أو خليل موافق يمزق ذا فقر ويفرق ذا بحر
ونجمان زين للزمان احتواهما بقرطبة النكداء أورندة القبر

كذلك أورد المقرى أبيات للمعتمد أنشدها عندما اعتقل عقب مقتل ولده عبد الجبار فقال:

غنتك أغماتية الألحان ثقلت على الأرواح والأبدان
قد كان كالثعبان رمحك فى الورى فغدا عليك القيد كالثعبان
متمردا يحميك كل تمرد متعطفا لارحمة للعانى
قلبى إلى الرحمن يشكو بثه ماخاب من يشكو إلى الرحمن[٢٩]

واذا كانت قسوة المعتضد بن عباد قد أثرت سلبا فى شخصية ولده المعتمد فوجدناه أبا حنونا رقيقا فى معاملته لأبنائه، فان المعتمد قد تأثر ايجابا ببعض خصال أبيه فقد ورث عنه ملكته الشعرية الفائقة ونزعته الأدبية بل تفوق عليه فى ذلك، فكان له فى الأدب باع وساع ينظم وينثر، وفى أيامه نفقت سوق الأدباء فتسابقوا إليه وتهافتوا عليه.[٣٠] ولسنا الآن فى معرض الحديث عنه كشاعر متميز وانما ينصبب اهتمامنا فى هذا البحث على ابراز مايتعلق بحياته الأسرية، وفى هذا المجال تجدر الاشارة إلى حقيقة هامة وهى أن المعتمد ورث فى جملة ماورثه عن أبيه من صفات، اهتمامه بالمرأة وحرصه على رعايتها ورفع منزلتها. لقد ورث المعتمد بن عباد هذا السلوك عن والده، فاذا كان المعتضد قد أجل ابنة مجاهد العامرى زوجته وأم ابنه المعتمد، اجلالا كبيرا فحظيت عنده واحتلت مكانة أثيرة فى قلبه ونفسه فان المعتمد بن عباد قد أجل زوجته اعتمادا اجلالا فاق كل اجلال[٣١] فغلبت عليه وكان شديد الميل إليها حتى تلقب بالمعتمد لينتظم اسمه حروف اسمها[٣٢]. كما لقبت بأم الربيع وعرفت بالسيدة الكبرى[٣٣] تعظيما لها وتقديرا لما كانت تحظى به من حب المعتمد لها، ولانعجب لهذه المكانة العالية التى كانت تنعم بها اعتماد الرميكية فى نفس زوجها وتأثيرها البالغ عليه إلى حد أنها أوغرت صدره على ابن عمار صديق عمره ورفيق شبابه ووزيره عندما هجاها بقوله:

تخيرتها من بنات الهجين رميكية ماتساوى عقالا[٣٤]

ولهذا الهجاء أصل من الحقيقة فقد أوردت المصادر العربية الظروف التى التقى فيها المعتمد بن عباد باعتماد للمرة الأولى وأشارت إلى نشوب عاطفة رقيقة بينهما عبرت عن مدى رقة مشاعره، فيذكر المقرى أن المعتمد كان يتنزه ذات يوم مع وزيره ابن عمار فى نهر الوادى الكبير، وكانت الريح قد جعلت ماء النهر أشبه بالزرد فنظم المعتمد الشطر التالى:

«صنع الريح من الماء زرد»

وطلب إلى ابن عمار ان يكمل البيت فعجز الوزير الشاعر، فردت سيدة كانت

تراقبهما وصفها ابن عمار بأنها امرأة من الغسالات بقولها:

«أى درع لقتال لو جمد»

وقد أثار هذا الرد السريع دهشة المعتمد وأعجب لسرعة خاطرها وذكائها وخفة روحها فنظر إليها فاذا هى جميلة الوجه فأعجبته ووقعت فى قلبه موقعا حسنا وسألها ان كانت مرتبطة بالزواج فلما أجابت بالنفى طلبها للزواج[٣٥] وقد أنجب المعتمد من اعتماد كل أولاده[٣٦] ونعرف منهم من البنين أبا الحسين عبيد الله الملقب بالرشيد الذى كان والده يوليه أمر اشبيلية نيابة عنه وقد حمل مع أبيه إلى العدوة بعد خلعه، وأبا بكر عبد الله المعتد وأبا نصر الفتح الملقب بالمأمون زوج زائدة، قتيل قرطبة، وأبا خالد يزيد الملقب بالراضى قتيل رندة، وسراج الدولة أبا عمرو عباد قتيل ابن عكاشة بقرطبة وابا سليمان الربيع تاج الدولة وأبا هاشم المعلى زين الدولة، وعبد الجبار الثائر على المرابطين فى أركش ومالك ل اشبيلية[٣٧].

أما بنات المعتمد من زوجته اعتماد فلانعرف منهن رغم كثرتهن سوى[٣٨] بثينة. وتعبر العلاقة الحميمة الشاعرية التى ربطت بين الزوجين، المعتمد واعتماد عن مدى انسانيته فى المقام الأول، فقد اختار للزواج جارية وبسببها زهد فى أميرات بيت عباد أو غيرهن من بنات الملوك فى عصر الطوائف. فقد تمثلت فيها صفات كان يحرص على توفرها فى المرأة التى سوف تشاركه حياته من ذكاء وفطنة ولباقة، هذا على الرغم من أن أمه كانت بنتا لأحد ملوك الطوائف فى حين أن اعتماد كانت مجرد جارية حتى انها لقبت بالرميكية نسبة إلى سيدها رميك بن حجاج الذى[٣٩] باعها للمعتمد وهو بعد أمير ولم يتردد المعتمد فى الزواج منها فى حياة أبيه.

ويشير **ابن الأبار** أن أباه لما علم بزواجهما ثار ثورة عارمة على ولده الذى فضل الجارية على أى امرأة من البيوتات الأندلسية العريقة فعزم المعتضد على عقابه والتنكيل به وخرج بالفعل من أشبيلية قاصدا شلب التى كان يتولاها المعتمد آنذاك، وكانت اعتماد قد أنجبت للمعتمد ابنه عبادا الملقب بسراج الدولة أكبر

أولاده. فلما بلغ المعتمد وصول أبيه إليه، أشار على زوجته أن تحسن استقباله، فرق قلب المعتضد لها وفتر عزمه على الايقاع بهما(٤٠).

ويشير هذا الخبر إلى مدى عمق العلاقة بين الزوجين العباديين والى انسانية وشاعرية المعتمد الذى عرض نفسه لنقمة ابيه بما عرف عنه من جبروت وبطش فى سبيل زوجته التى أحبها وآثرها على غيرها.

ويورد **المقرى** خبرا يؤكد ما نشير إليه من مشاعر المعتمد بن عباد الانسانية ورقته وحنانه كزوج، وتقديره لزوجته ولمشاكلها النفسية فذات يوم رأت اعتماد حشدا من النساء وقد وضعن أرجلهن فى معجن به طين لصنع الآجر فأخذت تنعى حظها الذى جعلها تفقد حريتها وتمنت لو كانت حرمت من السلطان لتحيا حياة البسطاء وتعيش على سجيتها مثل أولئك العاملات، فقدر المعتمد مشاعر زوجته وأحس بها كل الاحساس وراعى أنها تتوق إلى الحياة العامة وانها ضاقت ذرعا بحياة الأمراء فأمر باحضار كميات هائلة من المسك والعنبر فسحقت وذرت فى ساحة القصر حتى ملأته ثم نصبت الغرابيل وصب فيها ماء الورد على أخلاط الطيب وعجنت بالأيدى حتى أصبحت كالطين فخاضت فيها اعتماد وجواريها وشعرت بسعادة غامرة(٤١).

وذات يوم، اختلف الزوجان فأقسمت اعتماد الرميكية انها لم تر منه خيرا قط فسألها المعتمد مداعبا «ولايوم الطين» فخجلت منه واعتذرت.

ويعلق **المقرى** على هذه الحادثة الطريفة بقوله «ومصداق قول نبينا ﷺ فى حق النساء (لو احسنت إلى احداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئا قالت، ما رأيت منك خيرا قط).

وقد أشار المعتمد بن عباد فى أبياته الرائية إلى هذه الحادثة حيث قال فى بناته:

يطأن فى الطين والأقدام حافيـة

كأنها لم تطأ مسكا وكافورا(٤٢).

وكان المعتمد يحرص فى كثير من أشعاره على الاشارة إلى زوجته اعتماد الرميكية من ذلك ما أورده ابن الأبار على لسان المعتمد وهو يحتسى كأسا من الخمر فقال:

تظن بنا ام الربيع سـآمـة ... الا غـفـر الرحـمن ذنبـا تواقـعـه

أأهجـر ظبـيـا فى فـؤادى كناسـه ... وبدر تمام فى ضلوعى مطالعى

وروضـة حـسن أجـتنيـهـا وباردا ... من الظلم لم تحظر على شـرائعـه

وله فيها وضمن أوائل الأبيات حروف اسمها:

أغـائبـه الشـخص عن ناظرى ... وحـاضـرة فى صـمـيم الفـؤاد

عليك السـلام بقـدر الشـجـون ... ودمع الشـؤون وقـدر السـهـاد

تملكت منى صـعـب المرام ... وصـادفت منى سـهل القـيـاد

مـرادى أعـيـاك فى كل حين ... فـيـاليت أنى أعطى مـرادى

أقـيـمى على العـهـد فى بيننا ... ولاتسـتـحـيلى لطول البـعـاد(٤٣)

دسـست اسـمك الحلو فى طيـه ... والفت فـيك حـروف «اعـتـمـاد»

كما أشار إليها فى قصيدته التى رثى فيها ابنيه المأمون والراضى والتى سبق أن أوردنا بعض أبيات منها فى الصفحات السابقة!

وظل المعتمد متيماً بحب زوجته الأثيرة مقيما لها على العهد طوال فترة امارته إلى أن خلف أباه على مملكة اشبيلية فرفع من منزلتها بحيث أصبحت ترافقه فى معظم مجالسه الأدبية، وشاركت زوجها فى هوى الشعر ونظمه، واسهمت بنصيب وافر فى الارتقاء بالمستوى الادبى الرفيع الذى بلغته اشبيلية فى عهد المعتمد(٤٤). وكان المعتمد لايطيق البعد عنها لاسيما فى مجالس أنسه وطربه التى تتخللها المطارحات الشعرية.

ولعل تعلق المعتمد الشديد بزوجته الرميكية وحنوه عليها واطلاقه لها حرية الاختلاط بالشعراء والأدباء فى مجالسهم، دفع البعض إلى الطعن فى أخلاقياتها وسلوكياتها فقد نقل لنا التيجانى الأندلسى عن الحجارى فى حق الرميكية ما يأتى «وهى التى ورطته من الخلاعة والاستهتار والمجاهرة حتى كتب أهل اشبيلية عليه بذلك

وبتعطيل صلوات الجمع عقودا ورفعوها إلى أمير المسلمين فكان من أمره ماكان وسجن المعتمد بأغمات وسجنت الرميكية معه فماتت هنالك قبله»[٤٥] وكانت نهايتها فى غاية السوء فقد نفى المعتمد وآله بأغمات وقضى البقية الباقية من عمره سجينا مع زوجته وبناته، غير أنها لم تتحمل ذل الأسر والاعتقال فسرعان ماذوت وتوفيت تاركة زوجها غارقا في أحزانه يعانى مرارة الفراق ودفنت فى ظاهر أغمات على مقربة من معتقل المعتمد.

ولم يقتصر حنان المعتمد وغطفة على زوجته بل شملت نساء بيته جميعها، فكان أبا عطوفا على بناته يحنو عليهن ويسعى جاهدا إلى اسعادهن، ولعله تأثر فى ذلك بوالده المعتضد الذى كان يحب احدى بناته حبا جما حتى انه مات حزنا عليها عقب وفاتها.

ومن الأمثلة المعبرة عن تعلق المعتمد بن عباد، الأب ببناته، ماذكره المقرى عن المعتمد فى أول عيد قضاه بأغمات عندما دخلت عليه بناته الجميلات «وعليهن اطمار كأنها كسوف وهن أقمار يبكين عند التساؤل ويبدين الخشوع بعد التخايل وضياع الملك قد غير صورهن وحير نظرهن واقدامهن حافية «فقال بعض الأبيات منها:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا	فساءك العيد فى أغمات ماسورا
ترى بناتك فى الأطمار جائعة	يغزلن للناس مايملكن قطميرا[٤٦]
برزن نحوك للتسليم خاشعة	أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطان فى الطين والأقدام حافية	كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
لاخد لاتشكى الجدب ظاهره	وليس الا مع الأنفاس ممطورا[٤٧]

أما بثينة ابنة المعتمد بن عباد التى ورثت عن أمها جمالها وموهبتها الشعرية فقد كانت قد وقعت سبية عند دخول المرابطين اشبيلية، وعندما رحل ابواها مغربين إلى أغمات، كان الحزن والأسى يعتصرهما عليها اذ كانا لايعلمان ما آلت إليه أحوالها إلى أن كتبت إليهما بالشعر المشهور المتداول بين أهل المغرب، وأخبرتهما بما أصابها، فقد اشتراها أحد تجار اشبيلية على أنها جارية سرية ووهبها لولده ولكنها اصرت على الزواج

رافضة أن تكون مجرد جارية، وأظهرت له سببها واشترطت أن يوافق والدها المعتمد على زواجها وأشارت عليهم بتوجيه كتاب من قبلها لأبيها انتظارا لجوابه وكتبت بخطها عدة أبيات منها:

فخرجت هاربة فحازني امرو لم يأت في اعجاله بسداد

اذ باعني بيع العبيد فضمني من صانني الا من الأنكاد

وأرادني لنكاح نجل طاهر حسن الخلائق من بني الأنجاد

ومضى اليك يوم رأيك في الرضا ولانت تنظر في طريق رشادي

فعساك ياابتي تعرفني به ان كان ممن يرتجى لوداد

وعسى رميكية الملوك بفضلها تدعو لنا باليمن والاسعاد(٤٨)

فلما وصل شعرها لأبيها وهو يعاني ذل الاسر باغمات أسعده المصير الذى انتهت إليه ابنته وتوفيقها في الزواج من رجل فاضل يقدرها فكتب إليها والدها ناصحا لها بقوله:

بنيتي كوني به بره فقد قضى الدهر باسعافه(٤٩)

وتشير المصادر إلى رفق المعتمد بن عباد بجواريه وقيل أنه ترك بعد أن خلع عن عرشه ثمانمائه سيدة مابين أمهات أولاد واماء خدمة(٥٠).

ومن الأمثلة الدالة على ترفق المعتمد بجواريه الخبر الذى أورده المقرى من أن المعتمد جلس يوما وبين يديه جارية تسقيه وهي تقابل وجهها بنجم الكاسر في راحة كالثريا واتفق أن لعب البرق بحسامه فارتاعت لخطفته فقال المعتمد يلاطفها:

روعها البرق وفي كفها برق من القهوة طاع

عجبت منها وهي شمس الضحى كيف من الأنوار ترتاع(٥١)

ويشير ابن خلكان إلى خبر مفاده أن المعتمد عزم ذات يوم على ارسال حظاياه من قرطبة إلى اشبيلية فخرج معهن يشيعهن فسايرهن من أول الليل إلى الصبح فودعهن ورجع وأنشد ابياتا من جملتها:

سايرتهم والليل غفل ثوبه حتى تبدى للنواظر معلما

فوقفت ثم مودعا وتسلمت مني يد الاصباح تلك الانجما

وله في وداعهن أيضا:

ولما وقـــفنا للوداع عــــدية وقد خفقت فى ساحة القصر رايات
بكينا دمـا حـتى كـأن عـيوننا يجرى الدموع الحمر منها جراحات(٥٢)

وتوفى المعتمد بن عباد سنة ٤٨٨ هـ فى سجنه بقلعة أغمات بعد اعتقال دام اربع سنوات، وكان قد بلغ من العمر ٥٧عاما ودفن بظاهر اغمات إلى جانب زوجه اعتماد الرميكية مختتما بذلك حياة تقلبت مابين عز وذل وملك واسر، ضرب خلالها وفى كل الاحوال أروع الامثال للإنسان أبا وزوجا فاستحق بجدارة أن يكون مثلا أعلى للأب الرحيم بأبنائه والزوج الوفى، وهى صفات جعلت منه رمزا للترابط الاسرى بين الناس ونموذجا صادقا لما يجب أن يتحلى به الملوك بحيث يستحق أن يطلق عليه ملك ملوك الطوائف فى الأندلس.

الحواشـــي:

١- ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق. حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣، ج٢، ص ٥٣.

٢- ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ليفي بروفنسال بيروت، ج٣، ص ٢٠٨ - ابن الأبار، الحلة السيراء، ج٢ ، ص ٤٣ - ٤٧، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٦٧.

٣- ابن الأبار، الحلة السيراء، جـ٢، ص ٤٠.

٤- المصدر السابق، ص ٤١ ، وارجع كذلك إلى ابن خلكان، وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق احسان عباس، بيروت، ج٥، ص ٢٣.

٥- ابن عذارى، البيان ،ج٣، ص ٢٠٦.

٦- لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث، راجع ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، بيروت، القسم الثالث، المجلد الأول، تحقيق احسان عباس ١٩٧٩، ص ١٤٤ ومايليها - محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٥٠ ومايليها.

٧- ابن عذارى، البيان، ج٣، ص ٢٠٧.

٨- ابن الأبار، الحلة السيراء، ج٢، ص ٤٣، وعن قصائده في والدها مجاهد العامري، راجع، ص ٤٧، وعن شعره لأخيها علي بن مجاهد راجع ابن عذارى، البيان، ج٣، ص ٢٠٨.

٩- لمزيد من التفاصيل راجع ابن الأبار، الحلة السيراء، ج٢، ص ٥٣.

١٠- ابن عذارى، البيان، ج٣، ص ٢٠٨ - ابن الأبار، الحلة السيراء، ج٢، ص ٤٣.

١١- ابن عذارى، البيان، ج٣، ص ٢٠٨.

١٢- ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج٥، ص ٢٤.

١٣- ابن الأبار، الحلة السيراء، ج٢، ص ٥٤، ص٥٥.

١٤- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت، ١٩٥٦، ص ١٥٧.

١٥- ابن الأبار، الحلة السيراء، ج٢، ص ٦٢.

١٦- لمزيد من التفاصيل راجع ابن الخطيب، أعمال الاعلام، ص ١٥٨ ، محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص ٦١.

١٧- أبن الأبار، الحلة، ج٢، ص ٦٢.

والمأمون بن عباد هو زوج زايدة المسلمة التى امتلأ قلبها حقدا على قاتلى زوجها فرحلت باحثة عن ملاذ لها في مملكة الفونسو السادس وهناك ارتدت عن الإسلام واعتنقت المسيحية وتزوجت الفونسو السادس وانجبت له ولده الوحيد سانشو الذى لقى مصرعه سنة ١١٠٨م فى موقعة اقليش (لمزيد من التفاصيل راجع ليفى بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة السيد عبد العزيز سالم، محمد صلاح الدين حلمى، الإسكندرية، ١٩٩٠، مقال زايدة المسلمة، ص ١٥٢ - ١٦٤).

١٨- ابن الأبار، الحلة، ج٢، ص ٧٠، وارجع كذلك إلى المقرى، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، طبعة محى الدين عبد الحميد، القاهرة، ج٥، ص ٣٨٢.

١٩- ابن الأبار، الحلة السيراء، ج٢، ص ٧١.

٢٠- عبد الواحد المراكشى، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، القاهرة، ١٩٤٩، ص ١٤٣.

٢١- المقرى، نفح الطيب، ج٥، ص ٣٨٤، ٣٨٥.

٢٢- ابن الأبار، الحلة، ج٢، ص ٦٨، وارجع المقرى، ج٥، ص ٣٧٩.

٢٣- ابن الأبار، الحلة، ج٢، ص ٧٠.

٢٤- حصن يقع جنوبى اشبيلية وشرقى شريش. ويذكر المقرى أن اعتماد قد لحقت بولدها فى أركش، ج٥، ص ٣٤٩.

٢٥- عن البيان المغرب من أوراق مخطوطة عثر بها فى خزانة القرويين بفاس راجع المقرى، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٥، ص ٣٤٩ وراجع كذلك ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ١٦٤، عنان، المرجع السابق، ص ٣٦١،٣٦٢.

٢٦- ابن أبى زرع، الأنيس المطرب روض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، أوبسالة، ١٨٤٣، ص ١٠٠.

٢٧- المراكشى، المعجب، ص ١٤٣

٢٨- ابن الأبار، الحلة، ج٢، ص ٦١

٢٩- المقرى، نفح الطيب، ج٥، ص ٢٨٣، ٣٥٠

٣٠- ابن الأبار، الحلة، ج٢، ص ٥٥.

٣١- المصدر السابق، ص ٦٢.

٣٢- نفسه، ص ٦٢.

٣٣- نفسه، ص ٦٢.

٣٤- نفسه، ص ٦٣.

٣٥- المقرى، نفح الطيب، ج٥، ص ٣٤٢ - عبد الهادى التازى، المرأة فى الغرب الإسلامى، الدار البيضاء، ١٩٩٢، ص ١٨٧.

٣٦- وان كان ابن الخطيب يؤكد أنها أم أربعة من أولاده فقط (أعمال الإعلام ص ١٥٩).

٣٧- ابن الأبار، الحلة السيراء، ج٢، ص ٦٢، وراجع كذلك المقرى، نفح الطيب، ج٥، ص ٣٧٩.

٣٨- المقرى، نفح الطيب، ج٦، ص ٢٠.

٣٩- ابن الأبار، الحلة السيراء، ج٢، ص ٦٢.

٤٠- ابن الأبار، الحلة السيراء، ج٢، ص ٧١.

٤١- المقرى، نفح الطيب، ج٦، ص ٩.

٤٢- المصدر السابق، جـ٦، جـ٩. ويحتمل أن يكون أشار بذلك إلى ما جرت به عادة الملوك من ذر الطيب فى قصورهم حتى يطؤه باقدامهم زيادة فى التنعم.

٤٣- ابن الأبار، الحلة السيراء، جـ٢، ص ٦٠-٦١.

٤٤- عنان، المرجع السابق، ص ٦٧.

٤٥- نفسه، ص ٣٥٨.

٤٦- فى ذلك اشارة إلى أن بنات المعتمد كن يعملن بغزل النسيج للانفاق على والديهن واكد ابن خلكان ذلك وأشار إلى أن احداهن غزلت لبيت صاحب الشرطة الذى كان فى خدمة ابيها وهو فى السلطان (ابن خلكان ج٥، ص ٣٥، وكذلك ابن الخطيب، فى أعمال الأعلام، ص ١٦٤

٤٧- المقرى، نفح الطيب، ج٦، ص ١٠

٤٨- المصدر السابق، ص ٢١.

٤٩- نفسه، ص ٢١.

٥٠- ابن الأبار، الحلة، ج٢، ص ٥٥.

٥١- المقرى، نفح الطيب، ج٥، ص ٣٩٥.

٥٢- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص ٢٥

علاقة مصر المملوكية بغرناطة
قبيل وعقب سقوطها



علاقة مصر المملوكية بغرناطة قبيل وعقب سقوطها

(١) عمق العلاقة بين مصر والأندلس حتى مطلع القرن التاسع الهجرى:

كانت علاقة مصر بالأندلس وثيقة للغاية طوال العصر الإسلامى، وساعدت على توثيق هذه الروابط عوامل كثيرة، على رأسها عامل التجارة، فموقع مصر فى قلب العالم الإسلامى، أتاح لها المجال أن تتبوأ مكانة سامية وأهمية سياسية واقتصادية واستراتيجية، كما هيأ لها الفرصة فى أن تكون الوسيط التجارى بين الشرق الاقصى مصدر التوابل والكارم عصب التجارة العالمية فى العصور الوسطى، وبين الغرب الإسلامى والأوروبى[١]. كما كان لإطلال مصر بموانيها وأهمها الإسكندرية[٢]، على البحر الأبيض المتوسط، أعظم الأثر فى ارتباطها الوثيق تجاريا وعلميا واجتماعيا بالمغرب والأندلس، مما دعا العديد من المؤرخين إلى الاعتقاد بأن بحر الاسكندرية ينتهى عند المحيط الأطلسى. كذلك هناك من يرى أن وحدة البحر المتوسط فى العصر الرومانى قد تجددت مرة أخرى، بدءا من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) بفضل نشاط حركة التجارة بين موانىء هذا البحر المختلفة[٣]، فقد كان يربطها بموانىء الأندلس وتونس[٤]، والمغرب الأقصى خط ملاحى مباشر يحاذى الساحل الشمالى للقارة الأفريقية.

---

(١) راشد البراوى، حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٤٨، ص ٢٥٥ ومايليها – سحر السيد عبد العزيز سالم، «تجارة عمان فى الكارم وصداها على سياسة مصر حتى طليعة القرن السابع الهجرى»، بحث من أبحاث ندوة العلاقات العمانية/ المصرية، مسقط، ١٩٩١، ص ٢.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص ٢٥٧ ومايليها – حسين مؤنس، «أثر ظهور الإسلام فى الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى البحر الأبيض المتوسط»، فى المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع، العدد الأول، مايو ١٩٥١، ص ٥١١.

- Viajes De Benjamin of Tudela, Madrid, 1918, p. 115.

(3) Kruger, "The Wars of Exchange", in Speculum 12, 1973, p. 57- Goitein, A Mediteranean Society, Vol: 1, Berkelley, 1967, p. 61, 212 - 215 - Goitein, Studies in Islamic History and Institutions, Leiden, 1966, p. 297.

- سحر السيد عبد العزيز سالم، مظاهر الحضارة فى بطليوس الإسلامية، رسالة دكتوراه، الإسكندرية ١٩٨٧، ج١، ص ٤٤٩.

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٤٩.

كذلك كان العامل الدينى، أحد الأسباب الرئيسية التى أدت إلى تعميق الصلة بين مصر وبلاد المغرب الإسلامى، فقد كان حجاج المغرب والأندلس يؤثرون الرحلة البحرية إلى الإسكندرية، ثم ينتقلون منها إلى القاهرة أو الفسطاط ليركبوا السفن النيلية، وتبحر بهم جنوبا حتى يصلوا إلى قوص حيث كانت تنتظرهم القوافل البحرية لتعبر بهم وادى العلاقى إلى ميناء عيذاب المطل على البحر الأحمر، ومن هناك يركب الحجاج الجلبيات التى كانت تعبر بهم البحر الأحمر وترسو بساحل جدة ومنها إلى مكة المكرمة[1]. هذا بخلاف طريق الحج البرى الذى كان يخترق شبه جزيرة سيناء إلى آيلة ثم إلى الحجاز بحذاء الساحل، وأن كان قد أبطل استخدامه فى فترة الحركة الصليبية تأمينا لسلامة الحجاج والمشتغلين بالتجارة الكارمية.

ولايمكن كذلك أن نغفل العامل العلمى الثقافى، فطلب العلم كان دائما هدف علماء المسلمين فى العصور الوسطى، وكان عالم الأندلس يتجشم اخطار السفر ومتاعبه ليلتقى بشيوخ مصر فى مراكزها العلمية المختلفة مثل القاهرة أو الفسطاط أو الإسكندرية أو قوص وغيرها على نحو ماكان متبعاً فى كثير من المراكز العلمية بالمشرق الإسلامى كبغداد، حاضرة الخلافة العباسية والبصرة والكوفة ودمشق وحلب ومكة والمدينة وغيرها. وقد امتزج مفهوم العلم فى العصر الإسلامى بالتجارة، فكثير من علماء الأندلس والمغرب كانوا يرحلون إلى المشرق طلبا للعلم، وفى الوقت ذاته سعيا للتكسب من التجارة.

(١) ابن جبير، الرحلة، تحقيق وليم رايت، ليدن ١٩٠٧، ص ٦٥. (كان طريق التجار الكارمية هو نفسه طريق الحجاج وكانت عيذاب تستقبل أفواجا من كل منهما (ارجع إلى المقريزى، الخطط، طبعة بيروت، ج١، ص ٣٥٦). ومما يؤكد هذه الروابط التجارية ماذكره القشتالى فى تحفة المغترب ببلاد المغرب فى سياق حديثه عن كرامات الولى أبى مروان عبد الملك بن ابراهيم القيسى اليحانسى نسبة إلى بلده Ohanes فى إقليم المرية بالأندلس الذى يروى أنه انفصل عن رفاقه فى رحلة إلى الاسكندرية ومنها إلى عيذاب ثم ركب من هناك مركبا إلى جدة. وقد عاش هذا الولى فى القرن السابع الهجرى، وتوفى سنة ٦٦٧هـ (القشتالى «أحمد بن إبراهيم الازدى»، تحفة المغترب ببلاد المغرب، تحقيق د. فرناندو دى لاجرانخا، مدريد، ١٩٧٤، ص ٢٢: ٢٣

وكان سقوط طليطلة حاضرة بنى ذى النون من ملوك الطوائف فى الأندلس فى يد الفونسو السادس ملك قشتالة وليون ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) ضربة اصابت دويلات الطوائف فى الأندلس، وتهديدا مباشرا للإسلام فى أسبانيا، سجلت اندفاعا سريعا وقويا لحركة الاسترداد الاسبانى La Reconquista . وادى سقوط مملكة طليطلة وبعض مدن غرب الأندلس إلى هجرة عدد من الأندلسيين إلى المشرق الإسلامى، كما ترتب على ذلك انبعاث حركة دينية واسعة النطاق فى الأندلس، آثرت الاستعانة بقوى المرابطين فى المغرب للتصدى لقوى المسيحية فى أسبانيا، والذب عن الإسلام، وقدر للمرابطين أن يخلصوا الأندلس من سقوط أكيد، فأعادوا الأندلس إلى سابق وحدتها السياسية، وسخروا قدراتهم للدفاع عن الإسلام فى الأندلس، واحرزوا على القوى المسيحية فى أسبانيا، انتصارات متلاحقة فى الزلاقة الأولى وأقليش وافراغه والزلاقة الثانية والبكار، إلى أن تدخل الموحدون، استجابة لبعض ثوار غرب الأندلس على المرابطين، عسكريا ضد المرابطين وتمكنوا من بسط سلطانهم على الأندلس، منذ عام ٥٤٠هـ، وحققوا بدورهم انتصارا حاسما على القشتاليين فى الارك سنة ٥٩١هـ اعقبته هزيمة نكراء فى العقاب سنة ٦٠٩هـ، لم يقم للمسلمين فى الأندلس قائمة تحمد وأخذت قواعد المسلمين فى الأندلس على أثرها تتساقط الواحدة بعد الأخرى، ومع بداية انكماش الوجود الإسلامى بأسبانيا بتساقط قواعده، ازدادت اعداد أهل الأندلس الذين آثروا الهجرة من بلادهم على البقاء فيها مدجنين فى ظل السيطرة المسيحية. كما أنف عدد كبير من شيوخ الأندلس ومفكريها الخضوع لملوك قشتالة وليون وأرغون والبرتغال فهاجر العدد الأعظم منهم إلى بلاد المغرب وقدم عدد من هؤلاء المهاجرين إلى مصر، يحثون سلاطينها المماليك على انقاذ ماتبقى من الأندلس[١] وتزخر كتب التراجم والمصادر التاريخية والأدبية بأسماء عديد من الشخصيات الأندلسية التى وفدت إلى مصر بعد

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، المآذن المصرية منذ الفتح العربى حيث الفتح العثمانى، الإسكندرية، ١٩٨٣، ص ٢٩

سقوط طليطلة أغلبهم من العلماء وعلية القوم من أشهرهم على سبيل المثال لا الحصر، أسرة ابن حديد التى تولى أحد أفرادها وهو مكين الدولة أبو طالب أحمد ابن عبد المجيد منصب قاضى الإسكندرية فى العصر الفاطمى، ويرى الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم أنه أندلسى الأصل من أسرة ابن الحديدى الطليطلية التى تولى أحد أعيانها الوزارة [1] لبنى ذى النون، كما قام أحد أفرادها وهو القاضى أحمد بن حديدى بانشاء مسجد باب المردوم بطليطلة سنة ٣٩٠هـ، ومن أشهر العلماء الذين زاروا مصر ونزلوا بالإسكندرية واستوطنوها الفقيه العالم الشيخ أبو بكر محمد الطرطوشى الذى دخل القاهرة ٥١٦هـ وعاش بالإسكندرية وتوفى بها سنة ٢٠٥هـ فى قول، وسنة ٥٢٥هـ فى قول آخر، وله ضريح كان مازال قائما حتى سنة ١٩٨٧ ثم هدم واقيم فى موضعه مسجد حديث، وكان المقرى قد ذكر انه زاره مرارا [2]. وممن نزل الإسكندرية الفيقيه الزاهد أبو عبد الله بن محمد بن سليمان المعافرى الشاطبى الذى زار مصر عقب سقوط شاطبة سنة ٦٤٤هـ، وعاش بالإسكندرية منقطعا للعبادة فى رباط سوار، توفى بها فى رمضان سنة ٦٧٢هـ، ودفن فى تربته، ولايزال أحد أكبر أحياء الإسكندرية يحمل اسمه إلى يومنا هذا[3]. وقد اورد «السيوطى» فى كتابه حسن المحاضرة «اسماء عديدة من علماء الأندلس

---

(١) ابن بسام، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، المجلد الأول، القسم الرابع، القاهرة، ١٩٤٥، ص ١١٨ - ابن الخطيب، اعمال الأعلام، القسم الأندلسى، تحقيق ليفى بروفنسال، بيروت، ١٩٥٦، ص ١٧٧، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٢١٦ : ٢١٧.

(٢) راجع ترجمة الطرطوشى، ابن بشكوال، كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس، مدريد، ١٨٨٣، مجلد ٢، ص ٥١٨ - الضبى، بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس، تحقيق كرديرة، مدريد، ١٨٨٥، ص ١٢٥ : ١٢٨، السيوطى، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، طبعة مصر، ١٣٢١، ص ١، ص ٢١٣، المقرى، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، القاهرة، ١٩٤٩، تحقيق محى الدين عبد الحميد، ج٢، ص ٢٩٣.

- Ara - Francisco Pons Boigues, Ensayo bio - bibliografico Sobro Los Historiadores Geografos bigo-espanoles, Madrid, 1898, p. 183.

- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الأسكندرية، ص ٢٢٣ - جمال الدين الشيال، أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٥٠ : ١٠٠.

(٣) لمزيد من التفاصيل ارجع إلى السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٢٧٩.

ممن زاروا مصر فى القرنين السادس والسابع للهجرة، أشهرهم ابو الحجاج يوسف ابن عبد العزيز الميورقى (ت ٥٢٣هـ) الذى استوطن الإسكندرية[١]، والقاسم بن خيرة بن خلف الشاطبى المقرىء الضرير (توفى بمصر سنة ٥٩٠هـ)[٢]، وابن وثيق شيخ القراء أبو اسحق ابراهيم بن محمد الأموى الاشبيلي الذى رحل إلى المشرق وزار الشام، واستقر بمصر حيث توفى بالإسكندرية ٦٥٤هـ. ومن المعروف أن سقوط اشبيلية فى يدفرناندو الثالث ملك قشتالة تم فى عام ٦٤٦هـ[٣]. وهناك ابن دحية الإمام أبو الخطاب عمر بن حسن الأندلسى السبتى الذى كان بصيرا بالحديث ودرس بدار الحديث الكاملية بالقاهرة وتوفى بها سنة ٦٣٣هـ[٤] وفتح الدين بن سيد الناس الأندلسى الأصل والذى درس الحديث بالظاهرية وتوفى فى مصر سنة ٧٣٤هـ[٥]، وأبو اسحاق إبراهيم بن عيسى المرادى الأندلسى الذى توفى بمصر سنة ٦٦٨هـ[٦]، وابراهيم بن على بن عبد الغفار الأندلسى ثم القنائى الذى مات بقنا سنة ٦٥٦هـ[٧]، والشيخ أبو العباس أحمد بن عمر الانصارى المرسى شيخ الإسكندرية ورأس أصحاب الشيخ أبى الحسن الشاذلى ٠ت٦٨٦هـ) ودفن برباطه ويعتبر المسجد الذى يحتوى على ضريحه أشهر مساجد الإسكندرية فى عصرنا الحاضر[٨] على الاطلاق. وهناك الإمام أبو حيان اثير الدين الأندلسى

---

(١) السيوطى، حسن المحاضرة، ج١، ص ١٨٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٣٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٣٨، ومن المعروف أن طليطلة سقطت فى يد الفونسو السادس سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) .اما ماردة فسقطت فى سنة ٦٢٧هـ (١٢٣٠م) وقرطبة فى ٦٣٣هـ (١٢٣٥م) وبلنسية فى ٦٣٦هـ (١٢٣٨م) ودانية فى سنة ٦٤١ هـ (١٢٤٣م) وجيان فى سنة ٦٤٣هـ (١٢٤٦م) وشاطبة فى سنة ٦٤٤هـ (١٢٤٧م) واشبيلية فى سنة ٦٤٦هـ (١٢٤٨م) أما سقوط الجزيرة الخضراء فتم فى سنة ٧٤٥هـ (١٣٤٤م)، (ارجع إلى عادل سعيد بشتاوى، الأندلسيون المواركة، القاهرة ١٩٨٣، ص ٣٠١، ومايليها وكذلك انطونيو دومينقيز هورتز، وبرنارد بنثت، تاريخ مسلمى الأندلس، الموريسكيون حياة ومأساة أقلية، ترجمة عبد العال صالح طه، الدوحة، ١٩٨٨، ص ٣

(٤) السيوطى، حسن المحاضرة، ج١، ص ١٦٦.

(٥) المصدر السابق، ص ١٦٧.

(٦) نفسه، ص ١٩٤

(٧) نفسه، ص ٢٤٧

(٨) نفسه، ص ٢٤٩

الغرناطى (ت٧٤٥م) الذى رحل إلى مصر وأخذ على عدد من شيوخها [١]. ومن أشهر من زار مصر من علماء الأندلس، محمد بن جابر بن محمد بن قاسم القيسي الوادياشي الأندلسي الذى زار مصر ودرس على عبد الرحمن بن مخلوف بالإسكندرية، كما جال في البلاد المشرقية وعاد إلى تونس حيث توفي سنة ٧٤٩هـ[٢] ، ومحمد بن غالب بن يونس بن غالب الانصارى الأندلسي الجيانى، الذى زار مصر عقب سقوط جيان في يد فرناندو الثالث، وأدى فريضة الحج وتوفى بها سنة ٧٠٣هـ[٣] ومنهم أيضا الشاعر الطبيب الأديب أبو الفضل محمد بن عبد المنعم الجليانى من جليانة من أعمال غرناطة، نبغ فى الطب فى ظل الموحدين ثم رحل إلى المشرق وطاف بمصر والشام فى القرن السابع الهجرى[٤].هذا وقد شاهد القرن الثامن الهجرى بدوره ظهور عدد كبير من علماء الأندلس في مصر منهم محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الشريشى القنائى الذى ناب بقفط وادفو وأسوان وعيذاب وتوفى سنة ٧٠٥هـ[٥]. ومحمد بن سهل الازدى الغرناطى، وكان ابوه رئيسا لغرناطة، زار مصر في طريقة إلى مكة لاداء فريضة الحج، وتوفى بمصر بعد ادائه الحج سنة ٧٣٠هـ[٦]. أما محمد بن محمد بن محمد بن أحمد اليعمرى (ابن سيد الناس الاشبيلى، فقد كان من بيت رياسة فى بلاده، وكان ابن عمر قائدا وحاجبا باشبيلية ولد سنة ٦٧١هـ أى بعد سقوط أشبيلية بنحو ٢٥ سنة ورحل أبواه إلى مصر حيث نشأ محمد اليعمرى نشأة علمية وسمع على شيوخها واجيز، وتولى التدريس بالجامع الطولونى وتوفى سنة ٧٣٤هـ[٧] . وعلى بن أحمد

(١) نفسه، ص ٢٥٥.

(٢) ابن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، طبعة القاهرة، ج٤، ص ٣٣، ترقجمة ٣٦١٨.

(٣) المصدر السابق، ج٤، ص ٢٥٠، ترجمة ٤٢١٤.

(٤) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، وتاريخ العرب المتنصرين، القاهرة ١٩٦٦، ص ٤٥٩

(٥) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص ٣٣٧، ترجمة ٤٤٤٣.

(٦) المصدر السابق، ص ٢٩٦ ترجمة ٤٣٤٧.

(٧) نفسه، ص ٣٣٠، ترجمة ٤٤٣٧.

ابن حديدة الأندلسي الذى ولد في حدود سنة ٦٦٥هـ وعاش بالإسكندرية وعمر بها عدة زوايا وتوفى ببيت المقدس سنة ٧١٩هـ[١]، ومحمد بن عثمان الغرناطى الذى ولد سنة ٦٨٠ هـ وزار مصر وتوفى سنة ٧٥٢ هـ[٢] ومحمد بن على الرندى الذى عمل مؤذنا بجامع مصر وتوفى سنة ٧٣١هـ[٣] ومحمد بن البلوى الأندلسي أبو الحسن الذى زار القاهرة في طريقه للحج وتوفى سنة ٨٨٧هـ [٤]، وقد ظهرت آثار هذا التوافد الأندلسي المتزايد على مصر في الفنون المعمارية والزخرفية بمصر على مدى العصر الإسلامي. ففى جامع أحمد بن طولون على سبيل المثال، نجد أن الاصلاحات التى اجريت فى مئذنته فى عهد السلطان المملوكى حسام الدين لاجين ٦٩٦هـ ١٢٩٦م تحمل طابعا اندلسيا، فهناك قنطرة من البناء تصل بين الجدار الشمالي للمسجد والمئذنة، يحملها عقدان متجاوزان لنصف الدائرة من نفس طابع العقود القرطبية، وتتكيء قبوة هذه القنطرة على كوابيل ذات لفائف من نوع الكوابيل القرطبية، ويقترب كثيرا من شكل عقد المحراب بجامع قرطبة ويحيط به تربيعة مستطيلة الشكل على الطراز الأندلسي، وتتفق العقود جميعها فى نسبها ومواقعها ومراكزها وتشعيع سنجاتها مع العقود الأندلسية الخلافية من نفس طراز قرطبة، وتزدان الأوجه الأربعة للطابق الأول من مئذنة ابن طولون بعقدين توأمين مزدوجين تحيط بهما تربيعة.**كل ذلك يؤكد أن أحد الفنانين القرطبيين ربما من بين من نزح إلى مصر بعد سقوط قرطبة فى ايدى القشتاليين**، تولى تجديد المئذنة فى العصر المملوكى بمشاركة فنانين مصريين[٥] ووضع بصماته الأندلسية عليها. كذلك نشهد فى **مئذنة مدرسة المنصور قلاوون** بعض التأثيرات الأندلسية ممثلة فى أعلى القاعدة المربعة، اذ نرى افريزا من المقرنصات

---

(١) نفسه، ج٣، ص ٨٠، ترجمة ٢٦٥١.

(٢) نفسه ، ج٤، ص ١٦٣ ، ترجمة ٣٩٩٥.

(٣) نفسه، ج٤، ص ٣٢٥، ترجمة ٤٤٢٠.

(٤) نفسه ، ج٤، ص ٣٥٠، ترجمة ٤٤٧٤.

(٥) السيد عبد العزيز سالم، المآذن المصرية، ص ١٦ : ١٧.

يشبه افريز العقود المتجاورة المتشابكة الذى نشهده فى مئذنة جامع اشبيلية وغيرها من مآذن الموحدين، بل أن الطابق الثانى يكشف بجلاء عن هذا التأثير فى افريز العقود ثلاثية الفصوص، كما أن الطابق الأخير يمثل شبكة من المعينات تشبه ذلك النوع من التشبيكات التى ظهرت فى واجهة بهو الجص بقصر اشبيلية وزخارف المعينات بالجيرالدا. كذلك تتمثل هذه التأثيرات الأندلسية فى تفاصيل الزخرفة الجصية بمئذنة مسجد الناصر محمد بالنحاسين، وعقود مئذنة ضريح الاميرين سلار وسنجر الجاولى. ويمثل تناوب الألوان بمئذنتى المنصور قلاوون وسلار وسنجر تقليدا أندلسيا مغربيا واضح المعالم، سبق أن ظهر فى جامع الزيتونة بتونس سنة ٢٥٠هـ (٨٦٤م)، وجامع قرطبة سنة ١٧٠هـ ومسجد باب المردوم بطليطلة[١].

هذا وكانت تربط السلطان الناصر محمد بن قلاوون صلات طيبة بالسلطان ابى الحسن على بن عثمان بن يعقوب المرينى صاحب فاس ومن المعروف ان السلطان أبى الحسن على المرينى كان من أعظم المجاهدين من بين سلاطين بنى مرين وأكثرهم حماسا لحماية ماتبقى من دولة الإسلام فى الأندلس والذب عن الإسلام. وفى سنة ٧٣٨هـ ارسل السيدة الحرة والدة اخته فى موكب إلى مصر فى طريقها إلى مكة لاداء فريضة الحج، وقد حملت معها من الهدايا والحلى الكثير، من ذلك مصحف خطه السلطان بيده واستقبلها الناصر محمد بن قلاوون افخم استقبال ورد على هدية سلطان المغرب بهدية نفيسة[٢]. وفى سنة٧٤٥ هـ عاود السلطان أبو الحسن المرينى مكاتبة سلطان مصر آنذاك السلطان ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون، وشكا له فى رسالته من ضياع ثغر الجزيرة الخضراء من ايدى

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٩ : ٣١.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن هذه الزيارة والهدايا التى قدمها الوفد المغربى، ارجع إلى المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الثانى، القسم الثانى، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩١٤، ص ٤٤٧. ويرى المقريزى ان السيدة الحرة هى ابنة السلطان ابى الحسن على المرينى، وارجع كذلك إلى ص ٤٦٠، فى احداث عام ٧٣٩ هـ عند عودة الحرة المغربية من الحج، المقرى، نفح الطيب، ج٦، ص ١٣٨؛١٣٩، محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس، ص ١٢٨ ومايليها.

مسلمى الأندلس فى ربيع أول سنة ٧٤٤هـ، كما ذكر له فى رسالته انه فقد أحد أبنائه فى جهاده مع أبناء الأندلس ضد النصارى وانه ينوى رغم ذلك مواصلة مدافعة النصارى الاسبان والجهاد[1]، وقد رد عليه سلطان مصر فى رمضان سنة ٧٤٥هـ كتابا رقيقا، يعزيه فيه ويبدى اسفه على سقوط الجزيرة الخضراء، ويذكره بأن الحرب سجال ويبدى اغتباطه لاحتفاظ المسلمين بجبل طارق.

أما سلاطين الأندلس فقد حرصوا على مداومة الاتصال بسلاطين مصر المملوكية، من ذلك الرسالة التى أرسلها السلطان أبو الحجاج يوسف الأول (٧٣٢ - ٧٥٥هـ / ١٣٣٣- ١٣٥٤م) إلى سلطان مصر الصالح عماد الدين اسماعيل (٧٤٣-٧٤٦هـ / ١٤٣٢-١٣٤٥م) يستنجد به ويستنصره ضد نصارى اسبانيا. إلا أن السلطان المملوكى اكتفى بأن قدم له امانيه الطيبة [2] كذلك أرسل السلطان محمد الخامس الغنى بالله (٧٥٥-٧٦٠هـ / ١٣٥٤- ١٣٥٩م) إلى المنصور أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون رسالة من انشاء لسان الدين ابن الخطيب، يصف لسلطان مصر فيها، الظروف السيئة التى كان يتعرض لها الإسلام فى الأندلس.

كما أرسل السلطان محمد الخامس، رسالة أخرى إلى يلبغا الخاصكى الذى كان يمسك بزمام السلطة فى زمن السلطان المملوكى الملك الأشرف شعبان بن

---

(١) المقريزى، السلوك، الجزء الثانى، القسم الثالث، ص ٦٧٠ وعن الخطاب الذى أرسله الملك أبو الحسن على المرينى مع السيدة الحرة اخته سنة ٧٤٥هـ، ارجع كذلك إلى المقرى، نفح الطيب، ج٦، ص ١٣٩-١٤٠- محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ١٢٨ ومايليها. ولمزيد من التفاصيل عن هزيمة المرينيين فى موقعة طريف البحرية أو نهر سلاد والتى دارت فى ٧ جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ بين الاسطول الارغونى والقشتالى والبرتغالى، وبين اسطول المرينيين والغرناطيين، ارجع إلى أحمد مختار العبادى، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، الأسكندرية، ١٩٨٢، ص ٤١٨ - ٤٢٠.

(٢) لمزيد من التفاصيل، ارجع إلى أحمد الطوخى، المماليك والأندلس، دراسة فى العلاقات السياسية والعلمية والاقتصادية والفنية، الاسكندرية، ١٩٨٣، ص ١٣.

الناصر محمد بن قلاوون، وفيها يسرد السلطان الغرناطى، أخبار انتصاراته على القشتاليين، كما يطلب المعونة من سلطان مصر، وقد رد الاشرف شعبان على رسالة السلطان الغرناطي ردا طيبا[1]. هذا وتتمثل مشاعر الود القائمة بين سلاطين غرناطة وسلاطين مصر وتعبر عن روابط الاخوة الوثيقة التى تربط بين الشعبين الغرناطي والمصرى، فى رد الفعل الأندلسى على الغزوة الغادرة التى قام بها القبارصة على ثغر الاسكندرية وفيها اقتحم القبارصة مدينة الاسكندرية من البحر وعاثوا فسادا فى المينة وانتهبوا ثرواتها ودمروا عمرانها وقتلوا الكثير من اهلها، مما دفع السلطان الغرناطى عبد الله الغنى بالله محمد الخامس سنة ٧٦٩هـ (١٣٦٧م) إلى الاقدام على مهاجمة جيان (Jaen) التى كانت تابعة لقشتالة منتهزا فرصة انشغال ملكها بدور الأول بمحاربة أخيه غير الشرعى انريكى دى تراستمارا. وفى هذه الغارة اطلق عسكر غرناطة أثناء هجومهم هذا عبارة **(يالثارات أهل الإسكندرية) وهذه العبارة تعبر عن شىء واحد لايمكن لعربى أن ينساه أو يتناساه فى أى عصر من العصور وتحت أى ظرف من الظروف وهو ان المسلمين من مشارق الأرض إلى مغاربها كانوا يدا واحدة وقلبا واحدا**[2]. وقد أورد النويرى قصة رجل مصرى من قرية مليج بمصر، كان بالاسكندرية وقت هجوم القبارصة عليها سنة ٧٦٧هـ فوقع اسيرا فى يد رجل اسبانى كان مشاركا فى الحملة، وانتقل مع بقية الأسرى المسلمين إلى أوروبا وطاف فى البلاد حتى وصل مع الأسبانى الذى أسره إلى جيان، فلما استولى السلطان محمد الخامس على جيان، وقع هذا الأسير المصرى فى يده، ودار بينه وبين السلطان حوار، اطلق السلطان بعده

---

(١) نفس المرجع، ص ١٤-١٥، السيد عبد العزيز سالم، المآذن المصرية، ص ٢٩. وعن كل من السلطان أبى الحجاج يوسف الأول، ومحمد الخامس، ارجع إلى يوسف شكرى فرحات، غرناطة فى ظل بنى الأحمر، بيروت، ١٩٨٢، ص ٤٣؛ ٤٦.

(٢) ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، تحقيق محمد بن تاويت، القاهرة، ١٩١٥، ص ١٩٢- القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعه الانشا، القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٥، ج٦، ص ٥٥١.

سراحه وافتداه، وسمح له بالرجوع إلى مصر فى صحبة الركب المغربى القادم لفريضة الحج[1] وأكد الأندلسيون أن سلطان غرناطة رفض عرضا بالصلح قدمه له ملك قشتالة احتجاجا على هجوم القبارصة على مصر[2].

٢- أسباب انهيار سلطنة غرناطة:

اذا أردنا أن نقيم تاريخ مملكة غرناطة ونتعرف على الأسباب التى أدت إلى سقوطها، لا ينبغى أن نوجه اللوم على أهلها وحدهم أو حكامها الذين انقسموا على أنفسهم وتفرغوا لخلافاتهم الأسرية، وانما يجب أن نوجهه أيضا إلى أخوتهم فى العروبة والإسلام، الذين تخاذلوا عن نصرتهم وانقاذهم. لقد كانت الظروف الداخلية والخارجية التى سبقت غرناطة ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م خطيرة تنذر بالنهاية المحتومة. فعلى الصعيد الداخلى فى الأندلس، نجد أنه بعد هزيمة الموحدين فى موقعة العقاب ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م أخذت المدن الأندلسية تتساقط الواحدة تلو الأخرى، بعد أن عجز حكام الأندلس عن ايقاف المد الصليبى الجارف، وأمام هذه الأخطار الداهمة حاول بعض الثوار على الموحدين أن يتماسكوا. ومن هؤلاء ابن مردينش وابن هود ومحمد بن يوسف النصرى المعروف بابن الاحمر سليل بنى نصر صاحب حصن ارجونة، وقد اشتدت المنافسة بين كل من ابن هود وابن الأحمر، وانتهى الأمر بأن تمكن محمد بن الأحمر من دخول غرناطة مؤسسا فيها دولة «بنى الأحمر»، أو بنى نصر سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م ومالبثت مالقة أن دخلت فى طاعة ابن الأحمر ٦٣٥هـ وذلك بعد مقتل ابن هود فى المرية. وبذلك امكن لابن الأحمر أن يجمع اشلاء الأندلس الممزقة ويجعل منها دويلة استطاعت أن تصمد أمام حركة الاسترداد قرنين من الزمان. وكانت مملكة غرناطة تمتد من جيان وبياسة جنوبا حتى البحر وشرقا حتى المرية وغربا حتى مصب الوادى الكبير، وكان يشقها

---

(١) لمزيد من التفاصيل ارجع إلى أحمد الطوخى، المماليك والأندلس، ص ٢٠: ٢١

(٢) نفس المرجع، ص ٢١

واديا شنيل وحدره، وكان يطل عليها جبل شلير المعروف بسيرا بيفادا وهضبة البشرات[1].

ويرجع الفضل في مقاومة غرناطة لحركة الاسترداد هذه الفترة الطويلة، إلى تماسك الجبهة الداخلية في بداية قيام هذه الدولة، وتنازع الممالك المسيحية في الشمال وكذلك مساعدات بني مرين المتواصلة ووفود المجاهدين المغاربة إليها للجهاد. بفضل كل هذه العوامل، تمكن الغرناطيون من صد الهجمات الاسبانية الشرسة [2]ولكن الظروف تغيرت، بعد ذلك اذ تفرغ أبناء البيت النصرى للتقاتل والتصارع من أجل العرش الهش. ولعل خير مثال على ذلك ماحدث زمن السلطان أبي عبد الله محمد بن يوسف الثالث الملقب بالأيسر الذى كان يدين في اعتلائه عرش السلطنة، لوزرائه من بني سراج الذين وقفوا إلى جانبه ضد منافسيه من نفس أسرة بني الأحمر، ولقد اتسم عهد الايسر بالفوضى السياسية، والاضطرابات العنيفة والحروب الأهلية، فقد خلع عن عرشه واستعاده ثلاث مرات واستعان المتنافسون

---

(١) نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر، لمؤلف مجهول، تحقيق د. محمد رضوان الداية، دمشق ١٩٨٤، ص ١٣-١٥، يوسف شكرى فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، بيروت ١٩٨٢، ص ٢٣ ومايليها.

- ومحمد بن الأحمر، هو الغالب بالله أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن نصر الخزرجي من نسل امير الأنصار سعد بن عبادة. وهو مؤسس مملكة بني الأحمر بغرناطة وقد اقتضت مصالحه أن يساعد فرناندو الثالث في الاستيلاء على اشبيلية ضد أبناء جنسه ودينه الذين استماتوا في الدفاع عن مدينتهم طيلة ٦ أشهر وكان ذلك عام ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م وقد أعلن ابن الأحمر مبايعته للخليفة العباسي المستنصر بالله. عاش ابن الأحمر نحو ثمانين عاما وتوفي سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م. ومن أهم أعماله إلى جانب بنائه قصر الحمراء أنه انشأ مأوى للعميان ودارا للعجزة ومستشفى كبيرا، كما أكثر من المدارس وأعد المنازل للغرباء واشتهر بالكرم والجود. (لمزيد من التفاصيل راجع ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، القسم الأول، المجلد الرابع، طبعة دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٨، ص ٣٦٦ ومايليها، يوسف شكرى فرحات، المرجع السابق، ص ٥٣ ومايليها.

(٢) محمد رزوق، الاندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين ١٦، ١٧ م، الدار البيضاء، ١٩٨٩، ص ٥٣.

على عرشه واستعاده ثلاث مرات واستعان المتنافسون على عرش غرناطة فى صراعهم الداخلى بخوان الثانى ملك قشتالة مما أتاح الفرص أمام النصارى للتدخل فى شؤون غرناطة تمهيدا للسيطرة عليها واسقاطها ارتقى الأيسر عرش السلطنة فى سنة ٨٢٠هـ ١٤١٧ م بعد وفاة أبيه أبى الحجاج يوسف الثالث، ولكن ثورة اندلعت ضده فى غرناطة انتهت بخلعه وتولى قريب له أو ابنه (محمد التاسع الشهير بالزغير أو الصغير) وذلك بعد نحو عشر سنوات من حكم الايسر، ففر هذا الاخير إلى تونس وأقام فيها إلى أن تمكن من استعادة ملكه. وبعد عامين آخرين، ثار عليه ثائر جديد من نفس أسرة بنى الأحمر، هو يوسف بن المول وذلك سنة ٨٣٦هـ ١٤٣٢/م، فخلع عن العرش للمرة الثانية، ولاذ بمالقة التى كانت تدين له بالطاعة وقام بها إلى أن ادركت الوفاة يوسف بن المول فى نفس العام فعاد الايسر للمرة الثالثة إلى غرناطة، وظل فى ملكه حتى خلع للمرة الثالثة على يد محمد بن نصر (محمد العاشر الشهير بالاعرج El Cojo) وكان ذلك هو الخلع النهائى وتم ذلك فى سنة ٨٤٩هـ/١٤٤٥م فى أغلب الروايات التاريخية[١]

وتتمثل الانقسامات بين الحكام المسلمين فى غرناطة بجلاء فى أواخر عهد هذه الدولة فى زمن أبى الحسن على بن نصر بن سعد بن السلطان أبى عبد الله محمد بن السلطان أبى الحسن من سلاطين بنى نصر. لقد تولى أبو الحسن السلطنة فى ٨٦٧هـ، بعد أن انتزعها قسرا من أبيه الذى نفى إلى المرية وأقام بها حتى وفاته. ولم يقف النزاع فى الأسرة المالكة عند هذا الحد، بل نجده يتسع ليصبح صراعا على العرش بين أبى الحسن على، وأخيه أبى الحجاج يوسف، انتهى بوفاة يوسف، وظهور أبى عبد الله محمد بن سعد (الزغل). لقد كان من سوء

(١) لمزيد من التفاصيل راجع يوسف شكرى فرحات، المرجع السابق، ص ٥٣ ومايليها - ومحمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ١٥٥ ومايليها عبد العزيز الاهوانى، «سفارة سياسة من غرناطة إلى القاهرة فى القرن التاسع الهجرى»، سنة ٨٤٤هـ، مجلة كلية الآداب، المجلد السادس عشر، الجزء الأول، مايو ١٩٥٤ القاهرة، ١٩٥٤، ص ١١٣ ومايليها

طالع المسلمين فى الأندلس أن تفرغ حكامهم للتقاتل والتناحر والتصارع فى وقت كانوا فى أمس الحاجة للتضامن والتوحد أمام الخطر الجاثم وكأنما غشت أعينهم عن رؤية تكالب العدو لاسقاط عرشهم والاطاحة بملكهم والقضاء على آخر معقل للاسلام، فى الأندلس ولكن حكام غرناطة بدلا من تداركهم للموقف الخطير واللوذ إلى العصبة والوحدة، اقبلوا على التحالف مع ملوك المسيحية الواحد ضد الآخر، فأبو عبد الله محمد بن سعد (الزغل) الذى كان واليا على مالقة استعان بهنرى الرابع ملك قشتالة، ليساعده فى الاستيلاء على املاك أخيه أبى الحسن، واستمر الصراع سجالا بين الأخوين وانتهى إلى هدنة مؤقتة بين الأخوين على أن يبقى أبو عبد الله الزغل مستقلا بمالقة واحوازها فى حين يستقر أبو الحسن على عرش غرناطة. بيد أن الصراع انبثق من جديد فى غرناطة بين أبى الحسن على وولده أبى عبد الله الصغير من السيدة عائشة الحرة، وتدخل فى هذا الصراع بنو سراج الذين كانوا يؤيدون ابن السيدة الحرة عائشة، على الابن الآخر لابى الحسن على من زوجته ثريا الاسبانية الاصل. وحدث أن تمكن أبو عبد الله محمد ابن مولاى أبى الحسن من السيدة عائشة من انتزاع عرش غرناطة سنة ٨٨٧هـ، ولاذ أبوه أبو الحسن على إلى أخيه الزغل بمالقة. وحدث ان أنهزم الأمير أبو عبد الله محمد بن مولاى أبى الحسن أمام الجيوش القشتالية فى ظاهر قلعة اللسانةLuceno سنة ٨٨٨هـ،ووقع اسيرا فى يد الاسبان، ولكن الملكين الكاثوليكيين فرناندو الرابع وايزابيلا، وافقا على اطلاق سراحه بشرط أن يبذل لهما الطاعة، ويدفع جزية سنوية، ويتعهد بالافراج عن أربعمائة من الرهائن النصارى فى غرناطة، ويقدم رهائن من أبناء الأكابر والأمراء، ضمانا لتنفيذ تلك الشروط.

وكانت هذه المعاهدة حجر الأساس فى القضاء على مملكة عرناطة.وفى ذلك الوقت كانت أسبانيا المسيحية قد سارت فى الطريق النهائي للوحدة حيث اقترن فرناندو الرابع بن خوان الثانى ملك اراجون، بايزابيلا أخت هنرى الرابع ملك قشتالة، وتم اعلانهما ملكين على قشتالة واراجون سنة ٨٨٣هـ

١٤٧٩م[١]. وزاد الأمور تعقيداً احتدام الصراع بين أبناء الأسرة الواحدة، فقد تولى الزغل حكم غرناطة خلال فترة أسر ابن أخيه أبي عبد الله محمد، واشتد الصراع بينه وبين الأمير يوسف أبو الحجاج بن أبي الحسن شقيق أبي عبد الله محمد، فلما أطلق الملكان الكاثوليكيان سراح ابي عبد الله محمد، تجدد الصراع بينه وبين عمه الزغل وكان ربض البيازين الواقع في الشمال الشرقي من غرناطة مسرحا لهذا الصراع واستغل العدو هذه الفرصة وازداد تكالبه على التهام مابقي من دولة الإسلام في الأندلس[٢]. فتساقطت في يد العدو معاقل غرناطة الواحد بعد الآخر،

---

(١) فرديناند الكاثوليكي أو «فرناندو» هو ابن ملك نبرة خوان الأول الذى عرف فيما بعد بالملك خوان الثاني ملك ارغون. ولد فرديناند سنة ١٤٥٢م (٨٥٦هـ) من زوجة خوان الثانية، خوانا انريكث ابنة أمير بحر قشتالة. تولى فرديناند عرش مملكة ارغون منذ عام ١٤٧٩- ١٥١٦م (٨٨٤-٩٢٢هـ) كما اعتلى عَرش مملكة نابلى منذ عام ١٥٠٤ حتى ١٥١٦م (٩١٠-٩٢٢هـ) وصقلية عام ١٤٦٨حتى ١٥١٦م (٨٧٣-٩٢٢هـ) وقشتالة من عام ١٤٧٤ إلى عام ١٥٠٤م (٨٧٩-٩١٠هـ) ثم تزوج من ايزابيلا الأولى ملكة قشتالة عام ١٤٧٤م (٨٧٩هـ) وقاد الحرب ضد المسلمين في مملكة غرناطة حتى سقوطها ١٤٩٢م. وعند وفاة زوجته ايزابيلا الكاثوليكية عام ١٥٠٦م تزوج من الفرنسية خيرمانا دى فوا. ولمزيد من التفاصيل عن حياته وأعماله ارجع إلى محمد عبده حتاملة، التنصير القسرى لمسلمى الأندلس فى عهد الملكين الكاثوليكيين، عمان، ١٩٨٠، ص ١٤.

- Luis Suarez Fernandez, Historia de Espana, Madrid, 1970, Capt XL VIII, p. 681-682.

أما ايزابيلا - فقد ولدت فى مدريغال دى التاس تورس عام ١٤١٥م، كانت ابنة ملك قشتالة خوان الثانى، وامها هى ايزابيلا البرتغالية، ابنة حفيد خوان ملك البرتغال. تزوجت من فرديناند أمير ارغون وصقلية سنة ١٤٦٩م، وعرفا عندئذ بأميرى قشتالة. وعندما توفى شقيقها الملك انريكى الرابع عام ١٤٧٤م، عرفت هى وزوجها بملكى قشتالة واراجون (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى محمد عبده حتاملة) : التنصير القسرى، ص ١٦ ، وكذلك إلى

T.De Azcona, Isabel La Catolica, Madrid, 1964.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن تلك الاحداث الأخيرة فى عهد مملكة بين الاحمر، والحروب الأهلية التى تخللتها ارجع إلى المقرى، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٤٩ ، ج٦، ص ٢٥٨ ومايليها، ابن اياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ج٣، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ١٩٩ ، ٢١٨، ٢٣٠- بدة العصر فى انقضاء

= دولة بنى نصر، لمؤلف مجهول، تعليق المؤلف، ص١٥، ٣١، ٣٢، ٩٤، وقد اتهم مؤلف نبذة العصر، الزغل وشك في اخلاصه وولائه للإسلام والأمة، ولكن الأستاذ محمد عبد الله عنان، يدافع عنه مشيرا إلى أنه لم يكن باستطاعته أن يضع حدا لأسباب ضعف السنين التى سبقته وانه حاول انقاذ مايمكن انقاذه (نبذة العصر) ص ٣٣، محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص٢٢٨ كما دافع الاستاذ عنان عن أبى عبد الله الصغير ووصف بطولاته الأخيرة، ص ٢٨٤ومايليها. وعن أحداث غرناطة الأخيرة قبيل السقوط، ارجع إلى عنان، ص ١٨٨-٢١٧- فون شاك، الفن العربى فى أسبانيا وصقلية، ترجمة د. الطاهر أحمد مكى، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١٢٠ومايليها - يوسف شكرى فرحات، غرناطة. فى ظل بنى الأحمر، ص ٥٦ ومايليها، عبد الواحد ذنون طه، حركة المقاومة العربية الإسلامية فى الأندلس بعد سقوط غرناطة، بغداد، ١٩٨٠، ص ٨، ٩.

أما عبد الله محمد بن أبى الحسن على بن نصر آخر سلاطين غرناطة، الذى لقب بالصغير تمييزا له عن عمه الزغل، هو ابن مولاى السلطان أبو الحسن على النصرى من زوجته الملقبة بالحرة، وكان له شقيق آخر هو أبو الحجاج يوسف، عندما تقدمت السن بمولاى أبى الحسن تزوج من جارية أسبانية هى «ايزابيلا سوليس» المعروفة باسم ثريا الرومية، وكانت امراة شديدة الدهاء والأطماع، فسعت أن [illegible] ولدها يحيى ولى العهد دون ولدى عائشة الحرة، وأوقعت فيما بين مولاى أبى الحسن وزوجته عائشة الحرة حتى اعتقلها مع ولديها فى برج قمارش بالحمراء ولكنهم تمكنوا من الهرب بمساعدة بنى سراج ليبدأ الصراع بين ابنها أبى عبد الله محمد مع والده على العرش سنة ٨٨٧هـ وكذلك مع عمه الزغل. وهو آخر امراء غرناطة، وتم على يديه تسليم المدينة، وقد توفى فى فاس واختلف فى تاريخ وفاته بين سنة ٩٤٠هـ . ٩٤٠هـ، ودفن بازاء المصلى خارج باب الشريعة وخلف ولدين احدهما يوسف والآخر محمد. (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى المقرى، نفح الطيب، ج٦، ص ٢٦٠، ٢٦١)، وعن خروج الأمير أبو عبد الله محمد الصغير إلى فاس ووفاته وشيء عن عقبه، ارجع إلى المقرى، أزهار الرياض فى أخبار عياض، الرباط، ١٩٧٨، ج١، ص ٦٧، ٦٨ ومايليهما، نبذة العصر، ص ٣٢، من تحقيق المؤلف، ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ١٩٩ - يوسف شكرى فرحات، غرناطة فى ظل بنى الأحمر، ص ٥٦ ومايليها.

أما ابو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل، فقد كان واليا على مالقة أيام أخيه أبى الحسن ثم ارتقى عرش السلطنة فى سنة ٨٩٠هـ بعد أن ضعف أبو الحسن. وقد دخل أبن أخيه وسميه أبو عبد الله محمد بن أبى الحسن (إلى غرناطة سنة ٨٩٢)هـ فى حين كان الزغل يحاول استنقاذ بلش مالقة من ايدى النصارى. واستقر الزغل فى مالقة حتى سقطت فى سنة ٨٩٢هـ. وأشهر الأحداث فى عهد الزغل استنجاده بملوك المشرق والمغرب الإسلامى فى تونس ومصر (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى: نبذة العصر، ص ٣٢، محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٢٢٨)

بدءا بالحامة فى سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م وحصنا قرطبة وذوكين وعدة حصون أخرى فى الشمال الغربى من مالقة سنة ٨٩٠هـ، وتمكن من عزل مدينة رندة التى لم تلبث أن سقطت بدورها فى جمادى الأول من نفس العام ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م وبسقوطها انهارت المقاومة فى المنطقة الغربية من مملكة غرناطة ففى سنة ٨٩١هـ استولى العدو على مدينة لوشة، وخرج أهلها إلى غرناطة حاملين امتعتهم وخيلهم، وانتهز فرناندو الرابع احتدام الصراع بين الزغل وابن أخيه أبو عبد الله فى سنة ٨٩٢هـ، فهاجم مدينة بلش مالقة (Valez Malaga واستولى عليها. وبدلا من أن يوحد سلطان غرناطة، جهود المسلمين للصمود والتصدى نجده يواصل صراعه ضد عمه الزغل فى الوقت الذى انقسم ماتبقى من مملكة غرناطة الصغيرة إلى قسمين: القسم الأول يشمل غرناطة وأعمالها ويحكمها أبو عبد الله محمد ابن السلطان أبى الحسن، أما الثانى فيشمل وادى آش واعمالها وكان يحكمه الأمير محمد بن سعد الزغل. ولما كان فرناندو وايزابيلا قد كبلا الأمير أبا عبد الله محمد بمعاهدة جعلت غرناطة تابعة لسيادتهما وضمنا بذلك انضواءها إلى ملكهما، فقد آثرا عندئذ مهاجمة القواعد الشرقية والجنوبية التى يسيطر عليها الزغل، وعلى هذا النحو زحفت قواتهما فى سنة ٨٩٢ هـ نحو مالقة التى تخلى عنها الزغل لمصيرها المحتوم دون أن يستنقذها خوفا من غدر ابن أخيه سلطان غرناطة، وقاومت مالقة مقاومة باسلة ثلاثة أشهر، ولكنها سقطت فى النهاية بعد ملحمة رائعة من البطولة والشجاعة وأعقب سقوطها سنة ٨٩٣هـ، سقوط بيرة والبلشين واشكر سنة ٨٩٣هـ ١٤٨٨م، وتبعها ثغر المنكب فى المحرم من سنة ٨٩٥هـ ١٤٨٩م. أما بسطة فقد بدأ النصارى هجومهم عليها فى رجب سنة ٨٩٤هـ / ١٤٨٩م ولكنها قاومت ببسالة فترة طويلة قبل أن يسلمها قائدها يحيى للقشتاليين سنة ٨٩٥هـ وأعقبها بقليل سقوط المرية فى ربيع الأول سنة ٨٩٥هـ/١٤٩٠م أما وادى آش آخر معاقل الزغل فقد سقطت فى أوائل صفر سنة ٨٩٥ هـ بعد أن ادرك الزغل عدم جدوى المقاومة[1].

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذه الفترة، ارجع إلى محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص ١٩١-١٤١

وبقيت غرناطة أو الورقة الأخيرة التى كان على الملكين الكاثوليكيين أن يطوياها طى الكتاب ليختتما بذلك ثمانية قرون استغرقتها حركة الاسترداد المسيحى التى بدأت منذ بداية الفتح الإسلامى للأندلس.

وفى سنة ٨٩٥هـ/ فاتحة ١٤٩٠م ارسل الملكان الكاثوليكيان إلى السلطان أبى عبد الله محمد، يطلبان منه تسليم مدينة الحمراء، وقصورها حيث مقر الملك والحكم، وسمحا له أن يقيم فى غرناطة، فى طاعتهما وتحت حمايتهما. وأبدى السلطان الغرناطى رفضه لهذا الطلب، وحاول عبثا أن يثنيهما عن عزمهما فاضطر أبو عبد الله الصغير إلى القتال، ولكن انتصاراته الهزيلة فى اندرش وشلوبانية لم تفت فى عضد الملكين الكاثرلكيين اللذين حطا بقواتهما بكل عدتها وعديدها على مدينة غرناطة. واضطر سلطان غرناطة فى نهاية الأمر إلى التسليم بعد أن عقد مع الملكين الكاثولكيين معاهدة اقسم الملكان الاسبانيان باحترامها، دون أى تغيير فى بنودها. وكانت بنود المعاهدة المفضلة كفيلة بأن تضمن للمسلمين فى الأندلس ممارسة حريتهم فى دينهم ولغتهم وسائر انظمتهم الشرعية، وعاداتهم الاجتماعية. وهكذا كانت الخلافات والفتن والانقسامات بين عرب الأندلس وتفكك الأسرة الحاكمة فى الوقت الذى توحدت فيه مملكتا قشتالة وارغون، السبب الأول فى سقوط غرناطة. وساهمت فى سقوط غرناطة، آخر معاقل المسلمين فى الأندلس، الظروف الصعبة التى كانت تمر بها دول المغرب الإسلامى التى كانت تمر بظروف سياسة واقتصادية واجتماعية سيئة، فمن غلاء مفرط ومجاعة إلى طواعين وأوبئة فتكت بسكان المغرب إلى حد أن بعض الأفراد اضطروا فى بعض مدن المغرب، لبيع أطفالهم ونسائهم للحصول على القوت اليومى[1]. أما دولة بنى مرين التى طالما انفذت الحملات لانقاذ الإسلام فى الأندلس، فقد كانت تمر بمرحلة حرجة من تارخيها بسبب المنازعات بين أفراد البيت المرينى وكثرة الثورات الداخلية، واضطراب الأحوال فى المغربين الأدنى والأوسط. وخلال هذه

---

(١) محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص ٦٣.

الفترة تمكن البرتغاليون من الاستيلاء على سبتة ٨١٨هـ. كما استولى الأسبان على جبل طارق ٨٦٩هـ، كذلك سقطت عنابة سنة ٨٦٧هـ، واستولى البرتغاليون على قصر المجاز سنة ٨٦٢هـ، وعلى طنجة سنة ٨٦٩هـ واصيلا سنة ٨٧٦هـ. وتزايدت الاضطرابات أيام السلطان عبد الحق بن سعيد. وبسقوط كل من جبل طارق وطريف من جهة وسبتة وطنجة من جهة ثانية، انقطعت الاتصالات بين المغرب والأندلس وتوقفت المعونات العسكرية التى كانت تتوافد على مملكة غرناطة وانعزلت غرناطة وأصبحت محصورة بأساطيل العدو، وقواته من جميع الجهات[1].

أما **مصر المملوكية** فكانت فى ذلك الوقت فى شغل شاغل عن هذه الأحداث، فقد وقف سلاطينها **موقفا سلبيا** تجاه مسلمى الأندلس، ربما لبعد الأندلس عن مصر، فطول المسافة بين البلدين كانت تمثل عقدة كأداء أمام العون العسكرى لاسيما وأن أسطول مصر زمن المماليك لم يكن من القوة بحيث يمكنه أن يواجه الأساطيل المسيحية فى أسبانيا، والبرتغال، بل أن سفن القراصنة القطلان والاراغونيين والقبارصة والروادسة، كانت تهدد سواحل مصر والشام، وهناك عامل ثان للموقف السلبى الذى وقفته مصر أنذاك وهو الخطر المغولى الذى كان لايزال يهدد دولة المماليك فى مصر والشام بالاضافة إلى القوة العثمانية الفتية التى ظهرت فى هذه الفترة وأصبحت تشكل خطرا جاثما يتهدد دولة المماليك فى مصر والشام[2] وتشير المصادر المعاصرة ككتاب «بدائع الزهور» لابن اياس إلى أن مصر شغلت منذ النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى بصراعها مع العثمانيين، فى نفس الوقت الذى كان مسلمو غرناطة فى اشد الحاجة إلى التماس العون من

---

(١) المقريزى، السلوك، تحقيق د.سعيد عبد الفتاح عاشور، الجزء الرابع، القسم الثالث، القاهرة ١٩٧٣، ص ١٠٥٩ – ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٢١٨-٢٦٠، ج٢ أحداث ٨٤١هـ – نبذة العصر وتحقيق المؤلف، ص ١٤، ١٥ومايليها، وملحق ١، ص ١٤٥– على مظهر، محاكم التفتيش، القاهرة ١٩٤٧، ص ١٦، ١٧، وملحق ١، ص ١٤٥ انطونيو دومينقير، تاريخ مسلمى اسبانيا، ص ٧– محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم، ص ٦٣.

(٢) أحمد الطوخى، المماليك والأندلس، ص ٣٥ ومايليها – محمد رزوق، الأندلسيون، ص ٦٤ – محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٢٢٠.

مماليك مصر الذى ترددوا فى مساعدتهم لحاجتهم إلى كل جندى فى معرفة مصيرهم، بدليل أن دولة المماليك لم يطل بها العمر بعد سقوط غرناطة، اذ سقطت مصر بدورها فى ايدى العثمانيين سنة ١٥١٦م ونضيف إلى هذه الأسباب جميعا سببا آخر هو القلاقل الداخلية التى انبعثت بسبب الصراعات فى مصر والشام بين امراء المماليك حول عرش السلطنة، وثورات العربان فى الصعيد وانهيار الاقتصاد المملوكى بسبب تحول طريق التجارة من البحر الأحمر إلى رأس الرجاء الصالح فى ختام القرن التاسع الهجرى. أما الدولة العثمانية الفتية التى اقلق ظهورها الغرب الأوربى، خاصة بعد استيلائها على القسطنطينية وانتصاراتها العسكرية التى تحققت فى أوربا الشرقية، فقد أصبحت تنعم بمكانة سياسية وعسكرية عالية بين دول العالم فى نهاية العصر الوسيط، وقد سير أهل غرناطة سفارة غرناطية إلى السلطان بايزيد الثانى سنة ٨٩٣ هـ/ ١٤٨٧م أى قبل سقوط غرناطة بخمس سنوات، يشكو فيها أهل غرناطة من معاناتهم، ويبلغونه بقرب سقوط الإسلام فى أسبانيا. وقد رد السلطان بايزيد على هذه الرسالة باسطول عثمانى برئاسة القائد كمال رايس، سيره إلى الشواطىء الاسبانية، ربما لتهديد اسبانيا لترجع عما سعت إليه. وفى المراحل التالية التى تلت سقوط غرناطة كانت الدولة العثمانية على اتصال دائم بالموريسكيين وحاولت مساعدتهم بوسائل عديدة، رغم انشغال الاتراك بفتح جزيرة قبرص وبالمناوشات التى قامت بينهم وبين روسيا القيصرية المجاورة(١).

٣- علاقة مصر المملوكية بمملكة غرناطة قبيل سقوطها:

أ- السفارات والرسائل الغرناطية الموجهة إلى سلاطين دولة المماليك فى مصر:

تعد أهم السفارات الغرناطية إلى دولة سلاطين المماليك فى مصر هى تلك السفارة التى ارسلها السلطان الغرناطى الأيسر إلى الظاهر جقمق.

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذه الرسالة التى ارسلها الموريسكيون إلى السلطان بايزيد الثانى، ارجع إلى الدكتور عبد الجليل التميمى، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين، زغوان، ١٩٨٩، ص ١١، ويرجح د. محمد رزوق أن هذه الرسالة وجهت إلى السلطان العثمانى بايزيد الثانى سنة ١٥٠١م (محمد رزوق، الاندلسيون، ص ٦٤).

وقد اختلفت آراء المؤرخين حول تحديد اسم سلطان غرناطة الذى امر بارسال هذه السفارة، وبالتالى السنة التى ارسلت فيها. ويتفق كل من المقريزى والسخاوى والجوهرى على أنه عبد الله بن محمد بن نصر. فالمقريزى يذكر انه فى عام ٨٤٤هـ فى يوم «الاثنين رابع عشرينه» ورد كتاب الغالب بالله عبد الله محمد ابن الأمير ابى الجيوش نصر بن أمير المسلمين أبى الحجاج بن أبى الوليد اسماعيل ابن نصر «متملك غرناطة من الأندلس، يتضمن مافيه المسلمون بغرناطة من الشدة من النصارى أهل قرطبة واشبيلية ويسأل النجدة»[١]. أما السخاوى فقد أورد فى ترجمته لعبد الله بن محمد بن نصر الغالب بالله انه «متملك غرناطة من الاندلس. وحفيد الأمير أبى الجيوش نصر بن أمير المسلمين أبى الحجاج بن أبى الوليد اسماعيل بن نصر. ذكر المقريزى فى حوادث سنة أربع وأربعين أنه فى رجب منها ورد كتابه يتضمن مافيه المسلمون بغرناطة من الشدة مع النصارى أهل قرطبة واشبيلية وتطلب النجدة»[٢].

هذا وقد ورد فى **مخطوط نزهة النفوس والأبدان فى تاريخ الزمان** لعلى بن داوود، الخطيب **الجوهرى** مايفيد بانه فى عام ٨٤٤هـ تم ارسال هذه السفارة، ولكن اسم السلطان ورد على انه الغالب بأمر الله بدلا من الغالب بالله[٣].

أما المؤرخون الاسبان الذين يعتمدون على الروايات المسيحية، فيختلفون فى ذلك الرأى. وقد قام الأستاذ **الدكتور الأهوانى** بمناقشة دقيقة لكافة الاراء المختلفة، ورجح فى النهاية أن صاحب السفارة هو السلطان الغرناطى محمد الثامن بن يوسف الأيسر Mohamaed El Izquierdo. El Zuido، ويذكر الدكتور الاهوانى أنه لايستطيع أن يحدد تحديدا دقيقا، الظروف التى دفعت السلطان الغرناطى الأيسر

---

(١) المقريزى، السلوك ، ج٤، القسم الثالث، القاهرة ١٩٧٣، ص ١٢١٩.

(٢) السخاوى، الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع، ج٥، المجلد الثالث، ص ٦٧

(٣) عبد العزيز الأهوانى، سفارة سياسية، ص ١١٣، ومايليها.

إلى ارسال هذه السفارة إلى السلطان المملوكي جقمق، الا أنه من الممكن بوجه عام القول بأن هدنة عقدت بين المسلمين والقشتاليين قبيل ارسال هذه السفارة بعام أو اثنين، كما ورد فى المصادر المسيحية وفى الأخبار التى ذكرها المقريزى فى احداث شهر المحرم من عام ٨٤٣هـ[١].

وكانت هذه السفارة الغرناطى تضم أربعة سفراء غرناطيين، قدموا كتابا من سلطانهم إلى الظاهر جقمق، يستنجد فيه بالسلطان المملوكى، وقد وعد السلطان جقمق فى رده بأنه سيبعث إلى ابن عثمان أى السلطان العثمانى لنجدة الأندلس، واعتذر جقمق للسفراء الغرناطيين ببعد الأندلس عن مصر مما يحول بينه وبين ارسال جنود لمساندتهم، ولما طلب السفراء من السلطان ان يساعد غرناطة بمعونة مالية من مصر، وعدهم الظاهر جقمق خيرا[٢].

وفى هذه السفارة قدم رسل سلطان غرناطة هدية إلى السلطان المملوكى قوامها بعض أوانى من الفخار المالقى والانجبار الغرناطى واثوابا من الخز الأندلسية، وانتهز سفراء غرناطة فرصة، وجودهم بمصر، ليؤدوا فريضة الحج مع ركب الحج، ويفهم من قراءة النص أن السلطان جقمق للاسف، لم يف بوعوده لنجدة مسلمى غرناطة بالمال والسلاح[٣]. وقد وصل الينا رد جقمق على ر. الة السلطان الغرناطى ممثلا فى رسالة مبتورة وناقصة لاتحمل سوى اسم السلطان وبها عبارات الود والدعاء له

(١) المقريزى، السلوك، القسم الثالث، الجزء الرابع، ص ١١٥٨، عبد العزيز الاهوانى، سفارة سياسية، ص ١٢٠ وارجع كذلك إلى محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ١٦٢ ومايليها، أحمد الطوخى، المماليك والأندلس، ص ٢٢-٢٨، محمد رزوق، الأندلسيون، ص ٦٣-٦٥ وارجع كذلك إلى أحمد دراج، المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى (١٥م)، القاهرة، ١٩٦١، ص ٧٠ ومايليها.

(٢) كان السلطان العثمانى فى ذلك الوقت هو مراد بن محمد الذى يرتبط مع جقمق بعلاقات ودية طيبة، ولمزيد من التفاصيل عن هذه السفارة ونصها ارجع إلى، نبذة العصر فى انقضاء دولة بنى نصر، تحقيق المحقق) محمد رضوان الداية، ص ١٤٧، وما يليها.

(٣) أحمد الطوخى، المماليك والأندلس، ص ٢٦، ٢٧- تحقيق المحقق فى نبذة العصر ص ١٤٩.

بالنصر على الاعداء واحاطته علما بوصول سفارته، كما اخبره بأنه قد كلف سفيرا من قبله للتوجه إلى الأندلس لمقابلته وقد قام **الاستاذ الدكتور أحمد السيد دراج** بنشر هذه الرسالة فى كتابه «**المماليك والفرنج**»[١] ويعلل بعض المؤرخين تقاعس الظاهر جقمق عن ارسال معونة عسكرية إلى الأندلس، ببعد المسافة بين البلدين وصعوبة تدبير سفن لنقل المساعدات في تلك الفترة الحرجة من تاريخ المماليك بعد أن اخفق فى حملته البحرية الأولى على جزيرة رودس، كما أن العلاقات بين السلطان المملوكى جقمق والفونسو الخامس ملك نابلى الذى كانت قواته البحرية تسيطر على غربى البحر المتوسط، قد توترت آنذاك إلى حد كبير[٢] .

وقد اعقبت هذه السفارة، رسالة ارسلها محمد الاحنف بن عثمان، سلطان غرناطة إلى السلطان المملوكى الظاهر جقمق (قام بنشرها هى الأخرى الاستاذ الدكتور دراج) فى ١٣ جمادى الأول عام ٨٥٥هـ/ ١٣يونيو ١٤٥١م ليستنجد به ويناشده فيها أن يرسل معونة من مصر إلى مسلمى الأندلس. وتولى حمل هذه الرسالة إلى سلطان مصر، التاجر أبو عبد الله محمد البنيولي. وفى هذه الرسالة يذكر السلطان الغرناطى أن هذا التاجر قد استأجر هذه السفينة هو ومن معه حتى الاسكندرية، وان كراءها كلفه ثلاثة عشر ألفا وخمسمائة دينار الذهب، ذهابا وعودة، بهدف شحن مايسر الله تعالى من صدقات المسلمين ونوافل خيراتهم. وقد طلب السلطان الغرناطى فى هذه الرسالة، من الظاهر جقمق أن يعاون وطنه المستصرف بأبواب مصر المتمسك بأسبابها[٣] .

---

(١) دراج، نفس المصدر ص ١٧٨.

(٢) الطوخى، المرجع السابق، ص ٢٦- دراج، المماليك والفرنج، ص ٧١ - ٧٣.

(٣) دراج، المرجع السابق، ص ٧١-٧٣، ص ١٨١ ومايليها - الطوخى، المماليك والأندلس، ص ٢٦ ومايليها ومحمد الأحنف هو محمد بن نصر بن محمد الغنى بالله، وكان أحد خصوم السلطان الغرناطى، الأيسر، وقد نجح الأحنف فى دخول غرناطة سرا مع عدد من أنصاره، وساهم فى إذكاء نيران الفتنة والاضطرابات الداخلية فى غرناطة، كما نجح فى الاستيلاء على الحمراء والحصون المجاورة لها، وقبض على الأيسر وأهله وزج بهم فى السجن، وارتقى عرش غرناطة إما فى عام =

وفي جمادى الأول سنة ٨٦٨ هـ ارسل السلطان الغرناطي سعد المستعين بالله رسالة إلى السلطان المملوكي الظاهر خشقدم٨٦٥-٨٧٢هـ/ ١٤١٦ - ١٤٦٧م يستنجد به فيها، من ضربات عدوه ملك قشتالة الذى كان على حد قوله كما ورد فى الرسالة، يهجم فى كل عام على بلاده وثغوره ويجدد فى كل ساعة ولحظة شجعان قلبه وصدره. وقد استولى فى سنة ٨٦٧هـ على مدينة جبل الفتح (جبل طارق) وعلى حصن اللقوق، أحد حصون غرناطة، وفى سنة ٨٦٨هـ، وهى السنة التى ارسلت فيها هذه الرسالة، استولى على حصن ارجدونة، وقد حمل هذه الرسالة الشيخ أبو عبد الله محمد بن الفقيه[1] .

ويبدو أن السلطان خشقدم استجاب لطلب السلطان الغرناطي وبادر بتقديم العون المادى له، ولكن ذلك العون لم يجد نفعا فقد استنزفت الحروب الأهلية والفتن المشتعلة فى غرناطة بين السلطان سعد المستعين بالله، وابنه ابى الحسن على، والتى لم تكن سوى صفحة من صفحات الصراع المتواصل فى هذه الأسرة الحاكمة، قدرات المسلمين وقواهم، ودفعتهم دفعا سريعا نحو النهاية المحتومة[2] .

= ٨٤٥هـ (١٤٤١م) أو ٨٤٦هـ (١٤٤٢م) وكان يتميز ببطشه وعنفه بحيث كانت معظم الأسر الكبيرة فى الأندلس وعلى رأسها أسرة بنى سراج تسعى لإسقاطه، رغم خوضه العديد من المعارك ضد النصارى، وبعد سلسلة من المعارك الطاحنة والحروب الأهلية، انهزم الأحنف أمام منافسيه (٨٥٩هـ) (١٤٥٤م) فى قول وفى سنة ٨٦٣هـ (١٤٥٨م) فى قول آخر. (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى محمد عبد الله عنان. نهاية الأندلس، ص ١٦٣ - ١٦٤).

(١) ارجع إلى نص الرسالة المنشورة فى ملحق رقم ١٢ من كتاب أحمد دراج، المماليك والفرنج، ص ١٩١ - ١٩٩.

(٢) أحمد الطوخي، المماليك والأندلس، ص ١٩ - ٢٠.

أما سعد المستعين بالله فهو سعد بن محمد بن يوسف، الذى ماكاد يجلس على العرش حتى ثار عليه ولده أبو الحسن بتحريض من بنى سراج. وقد تمكن ولده أبو الحسن من طرده من غرناطة والاستيلاء عليها، فسار سعد المستعين بالله إلى مالقه سنة ٨٦٧هـ واستقر بها مدة عام وفى العام التالى ٨٦٨هـ اصطلح مع ولده أبو الحسن لاشتداد ضغط النصارى على غرناطة، ولكن سعد المستعين اختار هذه المرة الإقامة فى المرية حتى وفاته فى آخر هذا العام. وبدأ عهد ولده أبو الحسن بخلافات مع أخيه أبى الحجاج يوسف كما سبق أن ذكرنا من قبل فى المتن.

وفى ذى القعدة من عام ٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م استقبل **السطان الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين قايتباى المحمودى** سفيرا من الأندلس يحمل رسالة من **أبى عبد الله الزغل**، يستنصره فيها ويطلب منه أن يبعث إليه بقوة من مصر تعينهم على التصدى لعدوهم وتوقف من عدوانه، وكانت الضربات الاسبانية المتلاحقة قد اشتدت فى تلك الفترة على الأجزاء الشرقية والجنوبية من مملكة غرناطة الخاضعة لنفوذه، فى حين كانت غرناطة وأعمالها تدين بالطاعة للملكين الكاثوليكيين طبقا للمعاهدة التى عقدت بين أبى عبد الله محمد بن أبى الحسن الأسير عندهم. لقد كانت هذه السفارة الغرناطية إلى مصر احدى محاولات أبى عبد الله الزغل، للاستنجاد بملوك المغرب والمشرق الإسلامى، ولكن دول المغرب كانت فى ذلك الوقت تعانى من التفكك والضعف والخلافات المحتدمة بينهم، ولذلك لم يلب نداء مولاى الزغل سوى اعداد قليلة من المطلوعة المجاهدين[1]. أما مصر التى كانت لها «هيبة كبيرة» بين الدول المسيحية والاوروبية نظرا لجهادهم الطويل ضد قوى الصليبيين وقوى المغول، فقد كانت معقد امال حكام غرناطة فى تلك الفترة الحاسمة من تاريخهم، اذ أن الزغل ومن سبقه من ملوك هذه المملكة الصغيرة أمثال الأيسر، والاحنف، وسعد المستعين بالله، تصوروا أن مصر المملوكية التى تتحكم فى الأراضى المقدسة فى فلسطين، بمن فيها من الرعايا المسيحيين قادرة على اغاثة الأندلس وحمايتها من الضياع.

ويشير ابن اياس إلى هذه السفارة الغرناطية إلى مصر فى احداث شهر ذى القعدة من عام ٨٩٢هـ، ورد فعل مصر ازاءها ونتائج ذلك بقوله«وفى ذى القعدة قدم قاصد من عند ملك الغرب صاحب الأندلس، وعلى يده مكاتبة من مرسله، تتضمن بأن السلطان يرسل إليه بجريدة تعينه على قتال الفرنج، فانهم قد أشرفوا على أخذ غرناطة، وهو فى المحاصرة معهم، فلما سمع السلطان ذلك اقتضى رأيه بأن يبعث إلى القسوس الذين بالقيامة التى بالقدس أن يرسلوا كتابا على يد قسيس من

(١) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٢١٨

اعيانهم إلى ملك الفرنج صاحب نابل بأن يكاتب صاحب قشتيلية بأن يحل عن أهل الأندلس ويرحل عنهم، والا يشوش السلطان على أهل القيامة ويقبض على اعيانهم، ويمنع جميع طوائف الفرنج من دخول القيامة ويهدمها، فارسلوا قاصدهم، وعلى يده كتاب إلى صاحب نابل كما اشار السلطان، ولم يفد من ذلك شيء، وامتلك الفرنج مدينة غرناطة فيما بعد(١).

وبينما تتضمن الرواية السابقة إلى اجراء قام به السلطان قايتباى محاولة منه لفك الخناق الاسبانى عن غرناطة، نجد أن المصادر الغربية تشير إلى خطة وضعتها مصر بالاتفاق مع السلطان العثمانى بايزيد الثانى لانقاذ مسلمى غرناطة. وتقضى هذه الخطة بأن يتهادن بايزيد الثانى والاشرف قايتباى سلطان مصر، هدنة مؤقتة رغم مابينهما من عداء ومعارك طاحنة، للنظر فيما هو أهم من تلك الخلافات وهو انقاذ الإسلام فى الأندلس، لذلك اتفقا على أن يقوم بايزيد الثانى، بارسال اسطول قوى لغزو جزيرة صقلية التى كانت تابعة آنذاك لاسبانيا المسيحية، فى حين ترسل مصر سرايا من قواتها إلى الأندلس لمساعدة المسلمين هناك. ويستبعد المؤرخون هذا الاتفاق الذى عقد على حد الرواية الغربية بين مصر والاتراك العثمانيين لما كان بينهما من علاقات جفاء وقطيعة، ويرجحون تحرك مصر دبلوماسيا فحسب طبقا لما ورد فى كتابات ابن اياس(٢).

ومن الواضح أن السفارة الغرناطية ارسلت إلى مصر فى وقت كانت القوات المسيحية تحاصر فيه مالقة في جمادى الثانية ٨٩٢هـ/ يونيو ١٤٨٧م عسى أن تسرع مصر بانجاد مسلمى الأندلس، فتحول بين مالقة وبين السقوط فى ايدى القشتاليين، ولكن يبدو أن هذه الدعوة الأندلسية لم تصل إلى مصر الا فى أواخر ٨٩٢هـ بعد سقوط مالقة بالفعل. ومن سوء الطالع أن مصر كانت تعانى من

---

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٤٤.

(٢) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص٢١٩- أحمد الطوخى، المماليك والأندلس، ص ٣١ - ٣٥.

اضطرابات داخلية، كما كانت تتخوف من الخطر العثمانى، فلم يتمكن الاشرف قايتباى الا من الضغط سياسيا على قشتالة لتكف عن محاربة مسلمى الأندلس.
ويتمثل هذا الضغط السياسى، الدبلوماسى، المصرى فى سفارة ارسلها الاشرف قايتباى إلى البابا،وإلى ملوك المسيحية مثله فيها راهبان احدهما القس القشتالى الأصل انطونيو ميلان رئيس دير القديس فرنسيس فى بيت المقدس، يعاونه فى ذلك أحد الرهبان الايطاليين. وقد قاما بهذه المهمة الدبلوماسية لدى كل من فرناندو الأول ملك نابلى والبابا انوسنت الثامن، والملكين الكاثوليكيين فرناندوو ايزابيلا[1].

غادر الراهبان القدس فى أواخر عام ٨٩٢ هـ متوجهان إلى نابلى، حيث قابلا فرناندو الأول، ثم غادرا نابلى إلى رومة حيث التقيا بالبابا انوسنت الثامن ومن رومة تابعا رحلتهما إلى أسبانيا. وقد كتب الباب إلى الملكين الكاثوليكيين يطلب إليهما أن يجيبا مطالب السلطان الاشرف قايتباى بحسن معاملة مسلمى الأندلس والكف عن مقاتلتهم. كما قام ملك نابلى (فرناندو الأول) بمكاتبة الملكين الكاثوليكيين يستفهم منهما عن سير الحرب ضد مسلمى الأندلس، كا يلومهما على سوء معاملة المسلمين، ويرى المؤرخون أن تدخل ملك نابلى على تلك الصورة، يرجع فى حقيقة الأمر إلى خلاف، قام بينه وبين ملك اراجون على حنوق عرش نابلى، وإلى تخوفه من نوايا فرناندو العدوانية تجاهه اذا ماانتهى من حروبه فى الأندلس[2].
وصل السفيران إلى أسبانيا بعد عام ونصف من وصول سفارة الأندلس إلى مصر، وكان قد مضى على سقوط مالقة نحو عامين، وكانت القوات المسيحية فى ذلك الوقت تحكم الحصار حول بسطة – وأمام أسوار بسطة طلب الراهبان مقابلة الملك الكاثوليكى فرناندو الرابع، وتمت مقابلتهما له وتسلم الملك فرناندو رسالة الاشرف قايتباى، التى هدد فيها ملك قشتالة بالانتقام من رجال كنيسة القيامة والرعايا

---

(١) ابن اياس، البدائع، ج٣، ص ٢٤٤ – محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٢٢١، أحمد الطوخى،المماليك والأندلس، ص ٣١ ومايليها.

(٢) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٢٢٢.

النصارى فى بلاده، اذا لم يتوقف عن محاربة المسلمين واضطهادهم كما رحب بالراهبين وأحسن وفادتهما، ثم زار الراهبان كذلك مدينة جيان حيث رحبت بهما الملكة ايزابيلا، وبعد أن أتم الراهبان مهمتهما، تلقيا رد الملكين الكاثوليكيين إلى السلطان قايتباى، وفيه يوضحان للسلطان المملوكى انهما لا يفرقان فى المعاملة بين الرعايا المسلمين والمسيحيين.

واكتفت مصر بذلك الدور الدبلوماسى، ولم تنفذ حتى وعيدها بالضغط على رعاياها المسيحيين، واقتصرت على الاهتمام بشؤونها الخاصة، تاركة مسلمى الأندلس لمصيرهم التعس، بل للأسف الشديد لم يكن لتصميم الملكين الكاثوليكيين على متابعة الحرب ضد غرناطة حتى نهايتها، أدنى أثر على العلاقات الودية والتجارية التى كانت قائمة بين دولة المماليك وأسبانيا المسيحية. ففى ٢ يناير سنة ١٤٨٨م / ٨٩٤هـ طلب الملك فرناندو من البابا أن يسمح له ببيع كميات من القمح إلى السلطان قايتباى الذى كان فى أشد الحاجة إليه لإطعام أهل الشام الذين كانوا مهددين بالمجاعة. وتدل هذه الحادثة على ذكاء شديد من الملك الكاثوليكى، الذى استطاع بثمن هذا القمح أن يواصل آخر معارك الاسترداد ضد مسلمى الأندلس، وفى نفس الوقت كان الملك الكاثوليكى يرى أنه بتقديمه القمح للمماليك كان يقوى مصر المملوكية ضد الأتراك - العثمانيين الذين باتوا يشكلون خطرا جسيما على المسيحيين فى أوروبا[1].

ب- الرحلات المتبادلة بين أهل الأندلس ومصر قبيل سقوط مملكة غرناطة:

وردت فى المصادر العربية اسماء عدد من الأندلسيين الذين زاروا مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى، فى الفترة التى اشتدت فيها الضربات المسيحية على مسلمى غرناطة وأعمالها. وتمت رحلة بعض هؤلاء إلى مصر قبيل سقوط مدنهم مباشرة فى ايدى النصارى، أما للاستقرار أو مرورا لاداء فريضة الحج، كما زارها البعض الآخر بعد سقوط مدنهم، فى الفترة السابقة مباشرة لسقوط

(١) أحمد الطوخى، المماليك والأندلس، ص ٣٣.

غرناطة، آنفة من ذلك الخضوع للحكم الاسبانى المسيحى والتعرض للاضطهاد الدينى الذى قد يحول دون الاحتفاظ باسلامهم ورغبة فى الاستقرار فى أرض يظللها الإسلام ويعيش فيها أخوة لهم يحيطونهم برعايتهم ويعتبرونهم مواطنين لهم، ومن بين هؤلاء الأندلسيين الذين زاروا مصر قبيل سقوط مدنهم التابعة مباشرة لمملكة غرناطة، أبو القاسم ابن على بن محمد بن فرج بن محمد بن فرج السبتى الأصل، الوادى آشى، الأندلسى، المالكى. ولد أبو القاسم بمدينة وادى آش من مدن مملكة غرناطة فى سنة ٨٦٥هـ، ونشأ بها، وقرأ الكثير من الروايات على على بن داود، الذى كان يقيم زمن السخاوى بتملسان، وعليه قرأ فى الفقه واللغة العربية، ورحل أبوالقاسم إلى تونس فى ٨٨٧هـ، ثم انتقل إلى القاهرة، وادى فريضة الحج سنة ٨٨٨هـ، وجاور بمكة نحو سنة، وكذلك بالمدينة ومنها سافر إلى دمشق، كما زار بيت المقدس(١). ومنهم محمد بن عيسى الشمس أبو عبد الله التبسى الأندلسى المغربى المالكى النحوى، الذى رحل إلى المشرق واقام فى حماة فترة وتولى قضاءها، واقام فترة من الوقت فى القاهرة، وسمع عليه عدد من طلاب العلم، وممن قرأ عليه بالقاهرة البدر بن القطان(٢). ومنهم أيضا ابراهيم بن سعد بن ابراهيم بن محمد أبو المكارم بن أبى الحسن الحضرمى الأندلسى المغربى المالكى المعروف بالحربى، وبابن الصباغ الذى رحل إلى مصر وأقام بها والتقى فى القاهرة

---

(١) السخاوى، الضوء اللامع، المجلد السادس، ج١١، ص ١٣٦، ومن المعروف أن وادى أش سقطت سنة ٨٩٣هـ أى قبل سقوط مملكة غرناطة بنحو ٤ سنوات، ومعنى ذلك أن أبا القاسم صاحب الترجمة رحل من الأندلس قبل سقوط وادى آش فى أيدى الاسبان ومن أبناء مالقة (من أعمال غرناطة) الذين زاروا مصر فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى، قاسم بن على بن محمد ابن على الشرف أبو القاسم التينمللى الفاسى المغربى، المالقى الأندلسى المالكى، ولد سنة ٧٤٣ هـ بمالقة من الأندلس وسمع على عدد من العلماء اشهرهم، أبو جعفر أحمد بن محمد الهاشمى الطنجالى، وأبو القاسم بن سلمون القاضى، وأبو الحسن التلمسانى الحافظ، وقد أجاز له لسان الدين ابن الخطيب، وقدم إلى مصر حاجا، وتوفى سنة ٨١١ هـ بالبيمارستان من القاهرة، (السخاوى، الضوء اللامع، مجلد ٣، ج٦، ص ١٨٣).

(٢) المصدر السابق، المجلد الرابع، ج٨، ص ٢٧٧.

بشمس الدين السخاوى، وتناظرا علميا، وقد سأل ابراهيم بن سعد فى بعض المسائل وقدرها له. وكان هذا العالم قد رحل من الأندلس، إلى الإسكندرية بعد وفاة والده التاجر. وقد توفى ابراهيم سنة ٨٩٣ هـ بعد أن شارك فى شرح الالفية الحديثة[١].

ومن الأندلسيين الذين زاروا مصر كذلك، عبد الله بن محمد بن سليمان بن عطاء بن جميل الشقورى الاسكندرى، المالكى المعروف بابن خير، ولد سنة ٧٣٩هـ، وأخذ عن والده فى سنة ٧٤٣هـ، وحدث ببلده ثم وفد إلى القاهرة فى سنة ٨١٥ هـ فحدث فى جامع الأزهر، وتوفى بعد بضع عشرين وثمانمائة[٢]، وكذلك عمر ابن أبى بكر بن على بن على بن عبد الحميد السراج الأندلسى الأصل القاهرى الشافعي، المعروف بابن المغربل، ولد فى حدود عام ٧٦٧هـ، وتوفى بالقاهرة فى ذى القعدة سنة ٨٥٠ هـ فى زاويته بقنطرة الموسكى عن ٨٣ سنة[٣].

وهناك عدد من علماء غرناطة اهتموا بالرحلة خارج الأندلس قبيل سقوط غرناطة ربما لتهيئة الرأى العام الإسلامى خارج الأندلس لمساعدتها أو لاثبات أن علماء الأندلس مازالوا روادا فى أمور دينهم، ولم يفرطوا فيه،ولم يتسببوا فى ضياع الأندلس[٤]. ومن هؤلاء العلماء أبو عبد الله المجارى، الذى يعد بشهادة معاصريه من أبرز الشخصيات العلمية. وقد اتجه المجارى، الذى يعد بشهادة معاصريه من أبرز الشخصيات العلمية. من غرناطة إلى تلمسان ومنها قصد تونس عن طريق بجاية، ثم تابع الطريق إلى مصر، وهناك تتلمذ على العديد من الشخصيات التى أصبح لها شأن فيما بعد. وألف كتابا عنوانه «برنامج المجارى»

---

(١) نفس المصدر، ج ١، ص ٥١.

(٢) نفسه، المجلد الثالث، ج٥، ص ٦٣

(٣) نفسه، المجلد الثالث، ج٦، ص ٧٥.

(٤) محمد رزوق، الأندلسيون، ص ٧٠.

بعد هذه الرحلة المشرقية، ذكر فيه أهم الشيوخ حسب بلادهم واماكنهم التى تلقى عنهم فيها مبتدئا بشيوخ غرناطة، تليها تلمسان ثم بجاية ثم تونس، فمصر، وتوفى سنة ٨٦٢هـ(١).

ومنهم أبو الحسن على القلصادى الذى يرجع بأصله إلى مدينة بسطة، وقد تلقى دراسته الأولى على يد أبرز شيوخ غرناطة، وعندما انتقل إلى تلمسان أخذ عن علمائها، وأقام بها ثمان سنوات قبل أن ينتقل إلى تونس، ومنها إلى القاهرة فالأراضى المقدسة. لقد استغرقت رحلة القلصادى خمسة عشر عاما، عاد بعدها إلى غرناطة حيث اشتغل بالتأليف والتدريس خاصة فى علم الفرائض والحساب، ولما احس بالاخطار المحدقة بوطنه، غادره إلى تلمسان حيث أقام عند صديقه ابن مرزوق الكفيف. وقد وصف القلصادى فى رحلته المناطق التى زارها وذكر شيوخ العلم بها. وتوفى القلصادى بباجة افريقية سنة ٨٩١ هـ(٢) .

وعنه يقول المؤرخ المصرى السخاوى «على بن محمد بن محمد بن على، أبو الحسن القرشى الأندلسى، البسطى، نسبة إلى بسطة، مدينة من جزيرة الأندلس، المالكى، ويعرف بالقلصادى، ولد قبل سنة ٨١٥هـ فى مدينة بسطة وقرأ بها القرآن لورش، وقد دخل مدينة المنكب، وقرأ على خطيبها أبى عبد الله البجلى فى النحو ثم انتقل إلى تلمسان سنة ٨٤٠هـ، ودرس هناك علم التفسير والحديث والفرائض والنحو، ثم انتقل إلى تونس، ورحل منها سنة ٨٥٠هـ، ودخل القاهرة، وفى التى بعدها حج فيها، وعاد وأقام بها فقرأ عليه الناس وكتبوا من مصنفاته(٣). ومن المعروف أن حصار مدينة بسطة بدأ فى سنة ٨٩٤هـ(٤).

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن المجارى وزيارته لمصر ولقائه بابن خلدون ارجع إلى (أبو عبد الله المجارى الأندلسى، برنامج المجارى، تحقيق محمد أبو الاجفان، بيروت، ١٩٨٢، ص ٣٥ ومايليها) وكذلك محمد رزوق، المرجع السابق ص ٧٠ - ٧٠

(٢) المرجع نفسه، ص ٧١

(٣) السخاوى، الضوء اللامع، المجلد الثالث، ج٦، ص ١٤

(٤) المقرى، نفح الطيب، ج٦، ص ٢٧١ - نبذة العصر، ص ٩٥ ومايليها

ومن الأندلسيين الذين ولدوا وعاشوا في مصر في القرن التاسع الهجرى، محمد بن عبد الرحمن بن عوض بن منصور بن أبي الحسن الأندلسى الأصل الطنتدائي ثم القاهرى الحنفى نزيل البيبرسية، ولد سنة ٧٧٠ هـ بطنتدا (طنطا). وقرأ بها القرآن، ثم تحول إلى القاهرة في سنة ٧٨٥هـ. وكان للشيخ ناصر الدين ابن أنس الحنفى إمام البيبرسية به عناية فائقة فشغله حنفيا بعد أن اشتغل في مذهب الشافعي، وقد توفي محمد بن عبد الرحمن سنة ٨٥٢هـ بخانقاة بيبرس ودفن خارج باب النصر عن ٨٢ سنة[١].

ومنهم عمر بن على بن أحمد بن محمد السراج أبو حفص الانصارى الوادياشى الاندلسى، التكرورى، المصرى الشافعي المعروف بابن الملقن. وقد ولد بالقاهرة سنة ٨٢٣هـ من أصل أندلسى، وكان والده قد تحول إلى التكرور حيث أقرأ أهلها القرآن وتميز في اللغة العربية، وحصل مالا كثيرا وقدم بعدها إلى القاهرة. وتوفي وولده صاحب الترجمة لديه من العمر سنة فأوصى به إلى الشيخ عيسى المغربي الذى كان يلقن القرآن بجامع ابن طولون، فتزوج من والدته وعرف لذلك صاحب الترجمة به، اذ قيل له ابن الملقن. ورحل عمر إلى الشام ٨٧٠هـ، وأخذ عن علمائها وقرأ في بيت المقدس على العلائى. وتوفي بمصر سنة ٩١٤ هـ ودفن على أبيه بحوش سعيد السعداء[٢].

ومن أبرز علماء غرناطة الذين زاروا مصر عشية سقوط غرناطة العالم أبو عبد الله محمد بن على بن محمد، الشهير بابن الأزرق الغرناطى، الاصبحى، المالكى، المالقى، وقد ترجم له المؤرخ المصرى السخاوى ترجمة طويلة، ذكر فيها انه ولد بمالقة حيث نشأ وحفظ القرآن. وسمع من قاضى مالقة أبى اسحق إبراهيم بن أحمد البدوى، وكذلك من عدد من علماء الأندلس أمثال إبراهيم ابن أحمد بن فتوح مفتى غرناطة وأبو عبد الله محمد بن محمد السرقسطى، والخطيب ابى

(١) السخاوى، الضوء اللامع، المجلد الرابع، ج٧، ص ٢٩٧.

(٢) المصدر السابق، المجلد الثالث، ج٦، ص ١٠٠ : ١٠٥.

الفرج عبد الله البقني. ويذكر السخاوى المناصب القضائية التى تقلب عليها ابن الأزرق[1] ورحل ابن الأزرق إلى تلمسان ومن هناك انتقل إلى مصر. وعن زيارة ابن الأزرق لمصر يذكر السخاوى انه خرج مع الأمير النصرى أبى عبد الله بن سعد الزغل إلى وادى آش «وهما منفصلان فوجهه قاصدا إلى السلطان أبى عمرو عثمان ابن محمد أبى فارس لمساعدة الأندلسيين على عدوهم الكافر، فلم يلبث أن مات أبو عمرو فارتحل صاحب الترجمة (ابن الأزرق) إلى الديار المصرية ليحج، فحج فى البحر وأقام بضعة شهور فى الحجاز ثم عاد بعد حجه إلى مصر فى البحر أيضا»[2].

أما المقرى فقد ترجم لابن الازرق فى عدة مواضع من كتبه واكد فى الجزء الأول من ازهار الرياض أنه خرج من الأندلس قبل أخذ غرناطة مباشرة، فلما رأى استطالة العدو عليها وأنه أخذها لامحالة، قوض رحاله عنها ونزل بتلمسان وكانت غرناطة قد سقطت بعد ارتحاله بفترة قصيرة[3]. ويناقض نفسه فى موضع آخر من الجزء الثالث من نفس الكتاب فيذكر أن ابن الأزرق ارتحل رحمه الله إلى تلمسان عند غلبة العدو الكافر على (هضم مابقى بيد المسلمين من) بلاد الأندلس ثم ارتحل منها إلى المشرق، ولم اقف على وقت وفاته، الا أنه كان ارتحاله لتلمسان بعد التسعين وثمان مائة بلا شك وغالب ظنى أن ذلك فى أواخر العشرة التى كملت بها تسع مائة سنة للهجرة، والله أعلم. ولم انحقق الآن هل دخلها، أعنى تلمسان، بعد أخذ غرناطة أو قبله[4].

وهناك بعض علماء أندلسيين ينتسبون إلى مدن من أعمال غرناطة أو من

---

(١) لمزيد من التفاصيل، ارجع إلى المصدر السابق، المجلد الخامس. ج٩، ص ٢٠ ومايليها.

(٢) نفسه، وارجع كذلك إلى محمد رزوق، الأندلسيون، ص ٦٩.

(٣) المقرى، أزهار الرياض فى أخبار عياض، ج١، ص ٧١.

(٤) المصدر السابق، ج٣، ص ٣١٨، ولمزيد من التفاصيل عن مؤلفاته وحياته، ارجع للمصدر السابق، ج٣، ص ٣١٨، ومايليها - السخاوى، الضوء اللامع، المجلد الخامس ج٩، ص ٢٠ ومايليها - ومحمد رزوق، الأندلسيون، ص ٦٩ ومايليها، أحمد الطوخى، المماليك والأندلس، ص ٣٤

ضواحيها، زاروا مصر وأقاموا بها عقب سقوط مدنهم فى أيدى الأسبان، نذكر منهم على سبيل المثال محمد بن محمد بن أحمد بن محمد الفهرى الشاطبى المريى أو المروى نسبة للمرية من بلاد الأندلس[1] على حد قول السخاوى، فقد ولد بالمرية سنة ٨٦٨هـ ونشأ بها وتلقى فيها دروسه فى مرحلة صباه ثم رحل إلى مصر فى أول سنة ٨٩٥هـ بعد سقوط مدينة المرية ونزل بتربة السلطان. ومنهم أحمد ابن أبى يحيى بن محمد بن خلف الغسانى الأندلسى الوادياشى المالكى المعروف بالأزيرق الذى وفد إلى القاهرة فى سنة ٨٩٦هـ عند سقوط وادى آش، بغرض اداء فريضة الحج واجتمع بالسخاوى وسمع على علماء مصر، وبعد فترة رحل إلى مكة عبر ميناء الطور، ثم عاد لمصر بعد قضاء نسكه[2].

وليس غريبا أن نرى بعض هؤلاء الأندلسيين يقررون المجيء لمصر عقب سقوط مدنهم، اذ أن مصر اعتادت استقبال الأندلسيين الذين تعرضوا لمثل هذه الظروف، وتتضمن المصادر أمثلة لذلك فى فترات سابقة، من ذلك على سبيل المثال ابراهيم ابن عبد الملك بن ابراهيم الجذامى البرنتيشى نسبة إلى حصن برنتيش من غرب الأندلس من أعمال أشبونة التى سقطت سنة ٥٤٢هـ. هذا الأندلسى استقر بالقاهرة، ووصفه السخاوى بانه «تاجر السلطان» وتوفى بالإسكندرية فى أواخر رجب وأول شعبان سنة ٨٨٠هـ. وكان من أصحاب الاشرف قايتباى. ومن الغريب أنه أوصى قبيل وفاته بمعظم تركته لأهله الذين كانوا لايزالون يعيشون فى برنتيش بالاشبونة بعد سقوطها فى ايدى البرتغاليين، ويقول السخاوى انه «لم يترك عنده الامايكون شيئا تغتصبه الدولة»[3] وبعد وفاته بنحو ثلاثة أعوام وفد إلى القاهرة فى جمادى الآخرة سنة ٨٨٣هـ مواطن آخر يدعى محمد بن أبى القاسم ويكنى بأبى الفضل بن أبى عبد الله محمد البرنتيشى وهو ابن عم والد إبراهيم البرنتيشى

---

(١) السخاوى، الضوء اللامع، المجلد الخامس، ج٩ .

(٢) المصدر السابق، ج١، ص ٢٤٤.

(٣) نفسه ج١، ص ٥٢.

صاحب الترجمة السابقة، ربما سعيا إلى الظفر بميراث ابن عم والده المذكور. واستغل اقامته في القاهرة، فأخذ عن العلاء الحصنى فى الاصلين والمنطق والحكمة وعن حمزة البجائى نزيل الشيخونية فى المنطق والمعانى والبيان. غير أنه حدث له أجحاف فى أرثه، فقرر له السلطان راتبا فى الجوالى، وصار يكرمه ثم لم يزل يتلطف به حتى استقر به فى متجره بالإسكندرية كابن عم والده، وعاش بها حتى توفى سنة ٨٩٢هـ(١).

ويذكر السخاوى أن أحد أفراد أسرة ابن الأحمر ويدعى أحمد بن عبد الله ابن إسماعيل ابن الأحمر، زار مصر فى أوائل القرن التاسع الهجرى. وقد روى عن الميدومى، والتقى بأبى بكر القلقشندى وحدث بالقاهرة سنة ٨٠٤هـ(٢).

أما عن المصريين الذين زاروا مملكة غرناطة قبل سقوطها، فليس لدينا سوى اسم أحد الرحالة المصريين الذى زار غرناطة عشية سقوطها سنة ٨٧٠هـ وأعنى عبد الباسط بن خليل ابن شاهين الملطى المصرى، وقد وصف أحد مواضع غرناطة بانه يستخرج منه تراب أحمر اللون، يشبه فى لونه الطين الارمينى، يعرف فى الأندلس بتراب الانجبار المعدنى، كانت تصنع منه الكيزان التى يشرب بها الماء هناك، وكانت تبرد الماء إلى حد كبير(٣).

جـ- أخبار مملكة غرناطة فى كتابات المؤرخين المصريين عشية سقوطها:

ورغم أن مواقف المملوكية السياسية، تجاه مسلمى غرناطة، لم تكن ايجابية، كما كان يتوقع من دولة كبيرة مثل مصر طالما ساندت الإسلام والعروبة وتصدت لأعداء الإسلام من صليبيين ومغول وقبارصة وبيزنطيين عبر العصور، الا أنها فى

---

(١) نفسه، المجلد الرابع، ج٨، ص ٢٨٩.

(٢) نفسه، ج١، ص ٣٥٦.

(3) G.Levi Dell Vida: "Il Regno di Granata nel 1456. 66 Nel Ricrodi- di un Viaggiatore Egiziana in (Al Andalus, Vol, Fasc. 2 ano 1933, p. 315).

راجع: نبذة العصر، ص ١٦١.

هذه المرحلة لم تضطلع بالدور المنتظر منها، وربما كان لسلاطين المماليك فى مصر بعض العذر، اذ أن دولة المماليك فى هذه الفترة السابقة لسقوط غرناطة كانت فى دور الاحتضار، اذا جاز لنا استخدام هذا التعبير. ولكن السياسة الرسمية الحذرة والمتحفظة لسلاطين المماليك نحو مملكة غرناطة، لم تمنع المصريين من التعاطف مع اخوانهم الاندلسيين، ونلمح تلك المساندة النفسية والروحية فى كتابات مؤرخى مصر فى هذه الفترة التى تسبق سقوط غرناطة مباشرة، فقد تلهفوا على التقاط أخبار اخوانهم فى الأندلس، وكتبوا ماكان يصلهم عنهم من أخبار مختصرة. ومن تلك الأمثلة، الخبر الذى أورده المقريزى فى كتابه «السلوك» فى أحداث عام ٨٤٠هـ عن أبى عبد الله محمد بن الأيسر بن الأمير نصر الدين بن السلطان أبى عبد الله بن نصر المعروف بابن الأحمر صاحب غرناطة[١]. كما ذكر المقريزى فى احداث شهر المحرم من سنة ٨٤٣هـ انه «وقع الصلح بين الفنسن ملك اشبيلية وقرطبة وغيرهما من ممالك الفرنج، وبين محمد بن الأحمر ملك المسلمين بغرناطة من بلاد الأندلس، بعد ما امتدت الفتنة بين الفريقين عدة سنين ولله الحمد»[٢].

وذكر المقريزى فى احداث شهر ذى القعدة من عام ٨٤٤ هـ انه بلغه أن «صاحب قشتيلة من بلاد الفرنج عمر أربعين بيونى وعشرة أغربة يريد رودس ليأخذ بثأرهم من المسلمين»[٣] كما أورد فى حوادث نفس العام خبر سفارة السلطان الأيسر إلى الظاهر جقمق شأنه فى ذلك شأن السخاوى والجوهرى كما سبق أن ذكرنا[٤].

(١) المقريزى، السلوك، الجزء الرابع، القسم الثانى، أخبار سنة ٨٤٠هـ. كما أورد المقريزى فى أحداث سنة ٨٤١ هـ أخبار المغرب وصراعه مع دولة البرتغال (المقريزى): السلوك، ج٤، القسم الثالث، أخبار سنة ٨٤١ هـ، ص ١٠٥٩. هذا وقد ذكر ابن اياس أخبار الصراع بين صاحب فاس والافرنج فى احداث ربيع الآخر سنة ٨٤١هـ، مما يدل على اهتمام مؤرخى مصر بأمور المغرب الإسلامى.

(٢) المقريزى، السلوك، ج٤، القسم الثالث، ص ١١٥٨.

(٣) المصدر السابق، ص ١٢٢٧.

(٤) نفسه، ص ١٢١٩ – وارجع كذلك إلى السخاوى، الضوء اللامع، ج٢٥، المجلد الثالث، ص ٦٧ – عبد العزيز الاهوانى، سفارة سياسية، ص ١١٣.

وفي سنة ٨٨٧ هـ ذكر ابن اياس انه «في أواخر هذه السنة جاءت الأخبار من بلاد الغرب أن أبا عبد الله محمد بن حسن بن على بن أبى نصر بن سعد بن الأحمر، قد ثار على ابنه الغالب بالله صاحب غرناطة، وملك منه الأندلس بسبب أمه، فحقد عليه ذلك، واخرجه من غرناطة وملكها من ابنه، وجرت بينهما أمور يطول شرحها، وآل الأمر بعد ذلك إلى خروج الأندلس عن المسلمين وملكها الفرنج والامر لله فى ذلك»[1].

واستمرت أخبار مملكة غرناطة على هذا النحو تصل تباعا إلى مصر وتسجل فى كتابات ابن اياس، ففى احداث عام ٨٨٨هـ أورد ابن اياس خبرا يذكر فيه وفاة قاضى الجماعة الأندلسى الغرناطى، المالكى الذى وصفه بانه كان من أهل العلم والفضل وقد توفى فى غرناطة[2].

وفى شهر رجب من عام ٨٩٠ هـ ذكر ابن اياس انه «جاءت الأخبار بوفاة ملك الأندلس صاحب غرناطة، وهو الغالب بالله أبو الحسن على بن سعد بن محمد بن الأحمر، وكان من خيار ملوك الغرب، مشتهرا بالعدل، عارفا بتدبير المملكة، حسن السيرة، لابأس به»[3] ويسوق فى حوادث نفس العام اخبارا أخرى عن الأندلس انه «فى شهر شعبان عام ٨٩٠ هـ جاءت الأخبار بأن الفتن قائمة ببلاد المغرب بتونس وفاس وغير ذلك من البلاد، وأن الفرنج استولوا على مدينة مالقة» [4]ويكرر ابن اياس خبر سقوط مالقة فى احداث عام ٨٩٣ هـ[5].

وفى احداث شهر جمادى الآخرة من عام ٨٩١ هـ يذكر ابن اياس انه بلغه «وقوع فتنة كبيرة ببلاد فاس من أعمال الغرب، وقد حصل بين صاحب فاس والفرنج مالاخير فيه من الحروب وقتل العسكر، وأن صاحب غرناطة توجه إلى عمه

---

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ١٩٩ - محمد رزوق، الأندلسيون، ص ٦٣.

(٢) ابن اياس، البدائع، ج٣، ص ٢٠٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٢١٨

(٤) نفسه، ص ٢١٨ ومايليها

(٥) نفسه، ص ٢٥٢.

يسأله فى أن يرسل إليه نجده تعينه على قتال صاحب قشتالة، وأن الفتن هناك قائمة والأمر لله» . [1]ويشير ابن اياس فى حوادث ذى القعدة من عام ٨٩٢هـ إلى السفارة الغرناطية إلى مصر كما سبق أن ذكرنا ويذكر رد فعل السلطان المملوكى قايتباى ازاءها.[2] وفى احداث جمادى الآخرة من عام ٨٩٣ هـ يذكر ابن اياس انه بلغه نبأ استيلاء «الفنش صاحب قشتيلية على مدينة مالقة من بلاد الأندلس وكانت كارثة عظيمة وقعت هناك»[3] .

وفى صفر من عام ٨٩٤هـ، أورد ابن اياس خبرا مفاده أن صاحب فاس من بلاد الغرب، غزا الفرنج واستخلص منهم عدة بلاد كانت أخذت من يد المسلمين فأعادها لهم وقتل ولده فى المعركة[4] .

وفى ذى الحجة من عام ٨٩٥هـ (١٤٨٩م) يقول ابن اياس «وفيه جاءت الأخبار من ثغر الإسكندرية بأن الفرنج أستولوا على مدينة غرناطة، وهى دار ملك الأندلس، ووقع بسبب ذلك أمور شتى يطول شرحها وقتل من عساكر الغرب والفرنج مقتلة عظيمة. ثم بعد ذلك وقع الصلح بين أهل غرناطة والفرنج وقرروا للفرنج فى كل سنة شيئا من المال يردونه لهم[5] .

٤- علاقة الموريسكيين فى غرناطة بمصر عقب السقوط.

أ- السفارات المتبادلة بين مصر وأسبانيا.

بعد أن استولى الأسبان على المناطق المحيطة بغرناطة، بدأوا فى حصار المدينة واستمر هذا الحصار نحو سبعة أشهر، خسر خلالها أهل المدينة الكثير من فرسانهم ورجالهم الذين دافعوا عنها دفاعا بطوليا سجله التاريخ بسطور من نور، ولكنهم

---

(١) نفسه ، ص ٢٣٠ : ٢٣١.

(٢) نفسه، ج ٣، ص ٢٤٤.

(٣) نفسه ، ص ٢٥٢،.

(٤) نفسه، ص ٢٧٦.

(٥) نفسه ، ص ٢٧٦.

اضطروا فى نهاية الأمر، بعد أن فقدوا الرجال ولم يعد لديهم مايقوون به على الصمود وبعد أن تخلى الأصدقاء والاخوان عنهم، إلى قبول المفاوضات سعيا إلى حقن الدماء. وأسفرت هذه المفاوضات عن عقد معاهدة بين السلطان أبى عبد الله، وبين الملكين الكاثوليكيين فى ٢١ محرم سنة ٨٩٧هـ/ ٢٥ نوفمبر ١٤١٩م، تضمنت سبعة وستين بندا طبقا للمصادر العربية أو ستة وخمسين شرطا طبقا للمصادر القشتالية(١).

وتعهد الملكان الكاثوليكيان بمقتضى هذه المعاهدة، بأمور كثيرة، ضمانا لأمن وسلامة سكان غرناطة وحفاظا لحقوقهم. فقد كفلت للمسلمين حقهم فى ممارسة لغتهم وشعائر · ·م ونظمهم الشرعية وعاداهم الاجتماعية. ورغم أن الملكين أقسما بدينهم ·حرضهما على صيانة هذه المعاهدة إلى الأبد، الا أن التعصب الأعمى والكراهية العميقة للعرب والمسلمين، لم تسمح بتنفيذ هذه البنود، فلم يحافظ الأسبان على عهودهم ولم يفوا بقسمهم فأخذوا يصطنعون سياسة تقوم اساس على قمع واضطهاد مسلمي غرناطة، الذين اطلقوا عليهم اسم «الموريسكيين» والتنكيل بهم وارغامهم على التنصير. ويقسم المؤرخون تاريخ الموريسكيين فى الأندلس إلى ثلاث مراحل أساسية:

أ- المرحلة الأولى وهى مرحلة الملكين الكاثوليكيين، وهى التى حاول الأندلسيون خلالها مواجهة الاضطهاد الذى تعرضوا له رغم معاهدة التسليم التى تحفظ لهم حقوقهم وهى المرحلة التى يتناولها البحث بالدراسة بالذات.

٢- مرحلة الملكين شارل الخامس وفيليب الثانى، وتتميز باستمرار اصدار

---

(١) المقرى، نفح الطيب، ج٦، ص ٢٦٨ ومايليها - نبذة العصر، ص ١٢٠ ومايليها، عبد الواحد ذنون طه، حركة المقاومة العربية الإسلامية فى الأندلس بعد سقوط غرناطة، هيئة كتابة التاريخ، بغداد، ١٩٨٨، ص ٨ ومايليها، محمد عبده حتاملة، التنصير القسرى لمسلمى الأندلس فى عهد الملكين الكاثوليكيين، عمان ١٩٨٠، ص ١٤ ومايليها. وعن الخلاف فى تحديد تاريخ سقوط غرناطة فى يد العدو، ارجع إلى المقرى، أزهار الرياض، ج١، ص ٦٥ ومايليها.

القرارات الرامية إلى ادماج الموريسكيين فى المجتمع الاسبانى، ومن أهم وقائعها الجهاد البحرى الذى ساهم فيه الموريسكيون لانقاذ اخوانهم الذين قدر لهم البقاء فى أسبانيا.

٣- مرحلة الملك فيليب الثالث، وأهم ما اتسمت به قناعة الملك بفشل محاولات الادماج واقراره لسياسة الطرد النهائى لباقى الموريسكيين من الأندلس[١].

وفى المرحلة الأولى من مراحل تاريخ الموريسكيين وهى التى يعالجها موضوع هذه الدراسة، خرج السلطان المخلوع أبو عبد الله من بلاده إلى المغرب فهاجر معه عدد كبير من أهل غرناطة[٢]، وبذل الملكان الكاثوليكيان جهودا كبيرة لاغراء المسلمين بالرحيل مع ملكهم، غير أن عددا كبيراً منهم آثروا البقاء فى الأندلس بعد أن اشتروا أملاك من رحل بأرخص الأسعار وساد الهدوء النسبى غرناطة، بعد سقوطها فى أيدى الأسبان نحو سبع سنوات، وربما يرجع ذلك إلى اثنين من المسؤولين الاسبان ارتأيا أنه من الحكمة أن يتركوا الأمور تسير فى بادىء الأمر بهدوء وفقا لشروط معاهدة التسليم حتى تستتب لهم الأمور. هذا المسؤولان هما كونت دى تنديا من أسرة مندوزا De Tendilla الذى عين قائدا وحاكما عام على غرناطة، وهرناندو دى تالافيرا Hernando De Talavera الذى عين اسقفا لغرناطة. وقد حاول أهالى غرناطة التأقلم مع الوضع الجديد، على الرغم من المضايقات التى تعرضوا لها منذ دخول الأسبان إلى المدينة. ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل بعد وصول رئيس الكنيسة الاسبانية الكاردينال خيمينث دى سيسنيروس Francicsco Jimenez De Cisneros إلى غرناطة.

فقد كان هذا المطران خير من عبر عن تعصب رجال الكنيسة الاسبانية ضد البقية الباقية من المسلمين فى أسبانيا، لقد كان رجال الدين المسيحيين يرون فى

---

(١) محمد رزوق، الأندلسيون، ص ٥٠.

(٢) المقرى، أزهار الرياض، ج١، ص ٦٧ - ٦٨، نفح الطيب، ج٦، ص ٢٨٠ ومايليها، نبذة العصر، ص ١٢٨ - عبد الواحد ذنون طه، حركة المقاومة العربية، ص ١٣.

تكتل المسلمين فى منطقة غرناطة وبلنسية وسرقسطة وبعض مناطق من اراغون وقشتالة، خطرا على الكيان الاسبانى المسيحى[1].

لذلك بدأ الكاردينال خيمينث فى سياسة العنف والقمع ضد المسلمين الذين تمسكوا بدينهم، ناكثا بذلك نصوص معاهدة التسليم، واقتضى منه ذلك تفسيرها على هواه لصالح المملكة الاسبانية، فزالت حرمة أهل غرناطة وادرك الموريسكيين العذاب والهوان، وبدأ فى ممارسة سلسلة من الاضطهادات بالضغوط لإرغامهم على النصر، وقيل أن خمسين ألفا من المسلمين تنصروا لأول مرة فى سنة ٩٠٤هـ / ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م عندما اساء القساوسة اليهم، مما أدى إلى حدوث فتنة كبيرة بغرناطة. ورغم تنصرهم فقد كانوا موضع الريبة والشك دائما.[2] وقد ربط الكاردينال خيمينث بين تمسك الموريسكيين بدينهم وإقدامهم على الثورة وبين وجود بعض الفُقهاء الذين كانوا يدفعونهم إلى الثورة، فأمر بالقبض على كبار فقهاء المسلمين وسجنهم بسبب امتناعهم عن اصدار فتوى تبيح للمسلمين التخلى عن اسلامهم. ولما وجد خيمينث أن سياسته التبشيرية العنيفة لم تقابل بالنجاح، عمل على قطع ارتباط الموريسكيين بتاريخهم، فأمر عام ٩٠٥هـ / ١٤٩٩م موريسكى غرناطة أن يسلموا مالديهم من مخطوطات عربية ومصاحف. وقد حملت إلى ساحة المدينة العامة فى ميدان باب الرملة لحرقها. وكانت هذه الآلاف من الكتب تشمل مختلف العلوم والآداب والأحاديث أى خلاصة التراث العربى الأندلسى. ويقدر البعض عدد تلك المؤلفات التى احرقت بثمانين ألف مخطوط عربى فى حين يبالغ البعض الآخر فى عددها فيقدرونها بمليون وخمسة الآف كتاب [3]. وقد أدى هذا الموقف إلى ازدياد التوتر بين مسلمى غرناطة خاصة بعد

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذه الشخصيات الاسبانية، واحداث غرناطة فى عهودهم، ارجع إلى محمد عبده حتاملة، التنصير القسرى، ص ٦٢ ومايليها، على مظهر، محاكم التفتيش، ص ٧٥ ومايليها – جمال عبد الكريم، «الموريسكيون: تاريخهم وأدبهم» مجلة المؤرخ المصرى، جامعة القاهرة، العددان الخامس والسادس يناير ويوليو ١٩٩٠ ص ١٤ ومايليها – عادل سعيد البشتاوى، الأندلسيون المواركة، ص ١٠٨ ومايليها ، محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم، ص ٥٧ ومايليها.

(٢) على مظهر، محاكم التفتيش، ص ٧٥.

(٣) عبد الواحد ذنون طه، حركة المقاومة، ص ١٧ – ١٨

أن أعقب هذا الحادث محاولات خيمينث حمل الموريسكيين على التنصر بالاكراه، وأكثر من عانى من تلك الأوضاع سكان حي البيازين، الذين تحول مسجدهم الجامع إلى كنيسة باسم «سان سلفادور» واكرهت بناتهم على الاقتران باسبان مسيحيين، كما أجبر رجالهم على الزواج بمسيحيات بهدف القضاء النهائي على روح العروبة[1] والإسلام وقد كانت هذه الاجراءات سببا وراء انتفاضة أهالي حي البيازين سنة ٩٠٥هـ / ١٤٩٩م ومن بعدهم ثورة سكان منطقة البشرات Alpujarras الأولى سنة ١٥٠١م/٩٠٦هـ. وقد انتهت كلتا الثورتين بالفشل امام سياسة الارهاب التى اتبعها الاسبان، فعانى الموريسكيون بعد ذلك من الاضطهاد المتواصل مما دفعهم إلى طلب النجدة من اخوانهم فى بقية الأقطار الإسلامية كالمغرب ومصر والدولة العثمانية.

أما فيما يتعلق بمصر. فقد حاول موريسكيو غرناطة الاستنجاد بها، فأرسلوا كتبهم إلى سلطان مصر المملوكى (الغورى) يصفون له اكراه الأسبان لهم على التنصر، ويطلبون منه أن يتحرك دبلوماسيا بأن ينذر الملكين الكاثوليكيين بأنه سوف ينكل وينتقم من النصارى المقيمين عنده في مملكته. وقد استجاب سلطان مصر لطلبهم وارسل إلى فرناندو ينذره ويتوعده [2]، بأنه سيعامل رعاياه المسيحيين بمثل معاملته للموريسكيين فى غرناطة وانه سوف يجبرهم على اعتناق الإسلام غصبا وكرها[3].

---

(١) نفس المرجع، ص ١٧ ومايليها - محمد عبده حتاملة، التنصير القسرى، ص ٧٣، وارجع كذلك إلى عادل سعيد بشتاوى، الأندلسيون المواركة، ص ١١٠ - ١١١، محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٣١٦ ومايليها.

(٢) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٢٧٢ - ٣٢٤.

(٣) وفى ذلك يقول المؤرخ الأسبانى Luis Carciay Garcia:

Dicese que este amenaza de todos los cristianos para que renegando de la ley de Cristo, se abracen a Mahoma, el pretextoes que los pueblos granadions han abandonado a Mahoma porque les han

في تلك الاثناء أوحى جماعة من يهود غرناطة للملكين الكاثوليكيين، بايفاد سفارة إلى مصر للقاء سلطانها المملوكي. بهدف اقناعه بأن مسلمى الأندلس يلقون رعاية ورفقا كبيرين فى ظل الحكم الأسبانى[1] لدحض أية محاولة مملوكية لمساندة الموريسكيين. وقد بادر الملكان بايفاد هذه السفارة فى يونيو ١٥٠١م برئاسة حبر ايطالى الاصل هو بيترو مارتير دى انجلريا Pedro Martir De Angleria وبنظرة سريعة على ترجمة حياة هذا الحبر، ندرك تماما أى نتيجة ناجحة ستحرزها هذه السفارة الاسبانية.

وكان بيدرو مارتير من أصل ايطالى ولد سنة ١٤٥٥م، وكان أول اتصال له باسبانيا عندما وصل إليها فى ٢٩ أغسطس سنة ١٤٨٧م، برفقة سفير الملكين الكاثوليكيين بروما. وشهد بيدور سقوط مملكة غرناطة، وسعد لسقوطها مما قربه كثيرا من نفس الملكين الكاثوليكيين. وكان رجلا متعدد المواهب، فهو رجل حرب وسلام، وكذلك رجل فكر وأدب وسياسة، كما كان يمتاز بدهاء شديد وهى صفات لمحها فرناندو الكاثوليكى فأسند إليه فى سنة ١٤٩٥م، مهمة القيام بسفارة إلى ملك بوهيميا وهنغاريا، كما أرسله فى سنة ١٥١٨م فى سفارة إلى القسطنطينية زمن السلطان سليم الأول، بعد أن كان قد رأس سفارة مصر ١٥٠١ - ١٥٠٢م.

وقد رحب بيدرو مارتير بهذه المهمة لأنها وفرت له فرصة التعرف على مزيد من البلاد الشرقية وقد بدأت الرحلة بداية سيئة فقد اجتاح المنطقة القطلانية التى خرجت منها السفارة، وباء سقطت له ضحايا كثيرة منها ثلاثة أفراد من أصدقاء بيدرو ماريتر.

= obligado a ello por la violencia" Una Embajada de los reyes Catolicos a Egipto. Traduccion y notas de Luis Garcia y Garcia, Valladolid, 1947. p. 8.

(1) Una Embajada de los reyes Catolicos a Egipto, p.8.

ووصل أفراد السفارة إلى القاهرة (بولاق) فى ٣١ يناير ١٥٠٢م [١]، وقضوا الليلة فى مراكبهم، وتم ابلاغ السلطان المملوكى بوصولهم، وبينما يذكر الأستاذ محمد عبد الله عنان أن السلطان المملوكى فى ذلك الحين، كان الاشرف جانبلاط [٢]، يؤكد الأستاذ الدكتور محمد عبده حتاملة أن السلطان المملوكى كان قانصوه الغورى [٣]. ونحن نتفق مع الدكتور حتاملة فى أن قانصوه الغورى كان السلطان المملوكى الذى استقبل سفارة بيدرو ماريتر. فقد كان الأشرف جانبلاط قد خلع فى جمادى الآخرة سنة ٩٠٦هـ مابين ٢٣ ديسمبر ١٥٠٠م إلى ٢١ يناير سنة ١٥٠١م ونفى فى رجب ٩٠٦هـ / يناير/ فبراير سنة ١٥٠١م. وتولى سلطنة مصر بعده العادل طومان باى الذى حكم مدة ثلاثة أشهر وعشرة أيام [٤]، خلع بعدها فتسلطن قانصوه الغورى بعد أن وثب العسكر على العادل فى أول رمضان سنة ٩٠٦ هـ الموافق الأحد ٢١ مارس سنة ١٥٠١م، ومن الثابت أن بيدور مارتير تلقى الاذن بالخروج إلى مصر فى يونيو ١٥٠١م وخرج فى أغسطس من نفس العام، ووصل إلى مصر فى يناير من العام التالى ١٥٠٢م، مما لايدع مجالا للشك فى أن سلطان مصر كان قانصوه الغورى.

ومما يدل على تعاطف مصر المملوكية مع موريسيكى الأندلس، الرواية التى ذكرها بيدرو مارتير نفسه، وهى التى ذكر فيها أنه التقى بالشاب البلنسى «لويس دى برات» المسيحى الذى قبض عليه فى احدى السفن هو رفاقه، وسجن ثلاث سنوات فى مصر، وحكم عليه بالأشغال الشاقة خلال فترة سجنه، وارغم عن طريق الجوع على نبذ المسيحية، املا فى أن يعود إلى اعتناقها عند عودته لاسبانيا. وقد تحمل هذا الشاب حسبما يذكر بيدرو مارتير، تغيير اسمه، وحاول التقرب من

---

(١) المصدر نفسه، ص ٩٢.

(٢) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٢٧٢.

(٣) محمد عبده حتاملة، التنصير القسرى، ص ١٠٠.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٤٧٧.

السلطات المصرية ونجح إلى حد مابحيث انه عين مترجما لدى السلطان المملوكى عند مقابلته لبيدرو مارتير وأصحابه[1].

وفى أول فبراير عام ١٥٠٢م، سمح لبيدرو مارتير بالدخول إلى القاهرة. وفى يوم ٢ فبراير اذن له بالصعود إلى القلعة المقابلة للسلطان، وكان السلطان ملما بما كان للملكين الكاثوليكيين من قرارات ومكانة عالية. ويؤكد بيدرو مارتير، أنه كانت بالقاهرة جماعة من أهل غرناطة المطرودين وكذلك جماعات من اليهود[2]. وقدكانت تلك المقابلة قصيرة، اذ نقل إلى اسماع السلطان قانصوه الغورى، امتعاض الاندلسيين المنفيين إلى مصر وبعض السفراء المغاربة الذين كانوا فى زيارة لمصر، وانكارهم لمسلكه فى تكريم سفارة من قضى على الإسلام فى الأندلس، ونكل بالمسلمين وسامهم العذاب. لذلك أمر السلطان المملوكى السفير بيدرو مارتير بالانصراف خوفا من سوء العواقب. ويذكر بيدرو مارتير فى سرده لرحلته. أن تلك المقابلة الأولى أعقبتها مقابلتان أخريان، بعد أن نجح فى اقناع السلطان المملوكى التى فند فيها مايقال من انهما استوليا ظلما على غرناطة، واضطهد المسلمين واجبراهم على التنصر قهرا. ومن الواضح لمن يقرأ تفاصيل هذه السفارة انها حققت نجاحا كبيرا خاصة وان بيدور مارتير تمكن من انتزاع اعفاء من السلطان المملوكى، لمسيحى بيت المقدس من المغارم والفروض[3].

ومن ذلك يتضح أن موقف المماليك من مسلمى الأندلس، كان سلبيا إلى حد كبير، وربما يرجع ذلك كما سبق أن ذكرنا إلى بعد الأندلس واعتماد المماليك على القوة البرية دون البحرية وتطلع السلطان المملوكى فى سياسته الخارجية نحو الشرق الأدنى، حيث انبثق خطر قيام الدولة العثمانية الفتية بالعدوان على مصر والشام. ومع ذلك فاننا لانستطيع أن نعفى المماليك من المسؤولية،

---

(1) Una Embajada, p, 94.
(2) Ibidem., p. 100.
(3) Ibidem., pp. 100-110.

- ومحمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٢٧٣

ولانملك أن نعفى غيرهم من القوى الإسلامية التى تواجدت على المسرح السياسى فى ذلك الوقت، فلو أن المسلمين من أتراك - عثمانيين ومماليك، قد وحدوا قواهم ونظموها ونسقوا فيما بينها واهتموا جديا بنصرة أهل غرناطة لكانوا قد حالوا بين حدوث هذه الكارثة التى لاتزال سيرتها تمثل جرحا عميقا داميا فى نفوس كل المسلمين[1]، يؤلم ضمائرنا ويهز وجداننا ويوقظ من غفل منا على الاخطار المحيطة بنا.

ب- غرناطة فى كتابات ابن اياس غداة سقوطها:

عقب سقوط آخر صرح لدولة الإسلام فى الأندلس، استمر اهتمام مؤرخى مصر الذين كانوا يعبرون بلا شك عن نبض الشعب المصرى العربى المسلم. فقد استمرت كتابات ابن اياس تشمل الاهتمام أبناء المغرب الإسلامى. ففى حوادث عام ٩٠٣هـ/ ١٤٩٨م يتحدث ابن اياس عن انتصارات مسلمى المغرب على الفرنج[2]. وفى حوادث ذو الحجة من عام ٩٠٤هـ يذكر أنباء حدوث فتنة مهولة ببلاد المغرب بين ملوك الفرنج وملوك المغرب، ويحمد ابن اياس ربه، أن الفتنة انتهت بانتصار المسلمين[3]. وفى حوادث صفر من عام ٩٠٦هـ يورد ابن اياس خبرا يذكر فيه أنباء عامة ربما عن أحداث ثورتى البيازين والبشرات الأولى. وفى ذلك يقول «وفيه جاءت الأخبار من جهة المغرب، بأن الفرنج قد استولوا على غرناطة، التى هى دار ملك الأندلس، ووضعوا فى المسلمين السيف، وقالوا: من دخل فى ديننا تركناه ومن لم يدخل فى ديننا قتلناه فدخل فى دينهم جماعة كثيرة من المغاربة خوفا على أنفسهم من القتل، ثم ثار عليهم المسلمون ثانيا، وانتصفوا عليهم بعض شيء، واستمر الحرب بينهما ثائرا والامر لله[4].

---

(١) انطونيو دومينقير هورتز، تاريخ مسلمى الأندلس، الموريسكيون، حياة ومأساة أقلية، ص ٨٢٧.
(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٣٩٥.
(٣) المصدر السابق، ص ٤٢٤.
(٤) نفسه ، ص ٤٤٨

جـ- اندلسيون فى مصر بعد سقوط غرناطة:

يؤكد بيدرو مارتير عند زيارته لمصر، وجود عدد كبير من الغرناطيين فيها، وان كانت المصادر العربية لم تذكر اسماء بعض هؤلاء الوافدين الا فيما ندر. وربما ازداد عدد القادمين من الأندلس إلى مصر بعد اعلان قرار النفى الأخير ١٦٠٩م، فقد أكد المقرى إبحار الأندلسيين المنفيين إلى مصر والشام والقسطنطينية[١] وفيما يلى أسماء بعض الأندلسيين الذين أما عاشوا فى مصر أو زاروها بعد سقوط غرناطة.

فالمؤرخ نجم الدين الغزى يذكر فى كتاب «الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة» أن محمد بن يوسف بن عبد الله الأندلسى، قاضى القضاة المالكية، قدم إلى دمشق، وولى قضاءها، واعتضد أموره بمفتى المالكية هناك، ولكنه نفى بعد ذلك إلى قوص بمصر، وأقام بها فترة ثم تركها ورحل إلى بلاد التكرور حيث مات ٩٢٠هـ[٢].

هذا وقد كثرت زيارات الموريسكيين الذين أقاموا فى بلاد المغرب الإسلامى إلى مصر أثناء قيامهم باداء فريضة الحج، ومن هؤلاء رحالة وأديب موريسكى هو «حاج بيبوى منسون» الذى رحل إلى الحج من بلنسية إلى تونس فمصر فالحجاز، وذلك فى القرن العاشر الهجرى ١٦ ميلادى وقد وصف رحلته والديار المقدسة ووجد نصها الاسبانى مكتوبا بحروف عربية صعبة القراءة وغير واضحة، وقد نشر هذه الرحلة الموريسكية المستشرق مريانا دى بانو بحروف لاتينية[٣].

ومن العلماء الموريسكيين الغرناطيين الذين زاروا مصر فى القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى العالم، أحمد بن القاسم بن أحمد الفقيه قاسم بن

---

(١) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس ، ص ٤٠١.

(٢) نجم الدين الغزى، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، تحقيق جبرائيل سليمان جبور، ج١، بيروت، ١٩٤٥، ص ٧٣.

(٣) خالد بن عيسى البلوى، تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق، مقدمة وتحقيق العلامة الحسن السائح، ج١، طبعة صندوق أحياء التراث الإسلامية ، ص ٩٥.

الشيخ الحجرى المعروف بالشهاب الحجرى وكذلك بافوقاى[١] وافوقاى موريسكى من أحواز غرناطة، فر من الأندلس فى سنة ١٠٠٧هـ / ١٥٩٨م وقد روى لنا قصة فراره من أسبانيا فى خاتمة كتابه «**العز والمنافع**» ويشير الشهاب الحجرى فى كتاب المذكور إلى المقرى مؤرخ الأندلس وإلى كتابه «**نفح الطيب**» فقد التقيا فى مصر أثناء مرور الحجرى بها فى طريقه للحج، أو عند عودته من اداء الفريضة فيما يقرب من سنة ١٠٤٠هـ / ١٦٣١م أى قبيل وفاة المقرى بقليل.

ولأفوقاى كتاب «**ناصر الدين على القوم الكافرين**» وقام بتحقيقه الدكتور محمد رزوق وقد تحدث فيه الشهاب الحجرى (افوقاى) عن الشخصيات البارزة التى قابلها فى مصر ومنها الشيخ على بن محمد المدعو زين بن العلامة الشيخ عبد الرحمن بن الاجهورى المالكى ويعبر عن ذلك بقوله «وذكرت بعد ذلك حين وليت إلى مراكش شيئا من الحكايات والمناظرات والاجوبة، منى اليهم لبعض الأخوان،وطلب منى غير واحد من علماء المسلمين أن أعمل تأليفا بذلك، ولم يتفق العمل، إلى أن أمر بى شيخنا وبركتنا بمصر المحروسة بالله، وهو العلامة الشهير علمه وثناؤه فى الاقطار والبلدان: الشيخ على بن محمد المدعو زين أبو العلامة الشيخ عبد الرحمن ابن الاجهورى المالكى بأكثر مما طلبوا ، وجعلت التأليف رحلة سميتها برحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب، وذكرت فيها أولا بلاد الأندلس فى أى موضع هى من معمور الدنيا والأقطار المجاورة لها..[٢] ويتضح مما سبق ذكره أن أفوقاى دخل فى مناظرات علمية مع الاجهورى كما دخل فى مناظرة مع أحد الرهبان[٣]. ويبدو أن آفوقاى زار الأزهر حيث قابل بعض الهنود فى رواق الهنود[٤].

---

(١) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٥٠٢ ، ٥٠٣.

(٢) أحمد بن قاسم الحجرى، (أفوقاى) ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق محمد رزوق، ١٩٨٧، الدار البيضاء، ص ١٨.

(٣) المصدر السابق، ص ١٢٣ - ١١٥.

(٤) نفسه ، ص ٩٧.

ومن الجدير بالذكر أن افوقاى يشيد بمكانة مصر فى نفسه وفى ذلك يقول «وتقول النصارى أن أعظم مدن الدنيا القسطنطينية ثم مدينة بريش، ثم مدينة لشبونة ببلاد الأندلس، وكان من حقهم أن يذكروا مصر، الا أنهم يقولون لها القاهرة الكبيرة، واذا جمعا مع مصر، مصر العتيق، و،بولاق وقاية باى، لم ندر من هى أعظم بريش أو مصر بما ذكرنا[1].

وهذا الوصف يؤكد مدى العلاقة القوية التى ربطت بين أبناء مصر وأبناء الغرب الإسلامى، فمكانة مصر كانت لديهم كبيرة إلى حد أنهم كانوا يرونها تفوق باريس حسنا وجمالا ويؤكد ذلك ماذكره فى موضع آخر فى كتابه «فأما مُصر المحروسة بالله، فهى من أعظم مدن الدنيا، هى مثل بريش (باريس» بفرنصة، إذا اضيف إليها مصر العتيق، وبولاق، وهى تحتوى على اثنى عشر الف قرية ...[2].

أما الجبرتى شيخ مؤرخى مصر فى العصر الحديث فيزودنا بترجمة لعالم اندلسى يرجع بأصله إلى المرية، زار مصر فى القرن الثانى عشر الهجرى، وهى فترة متأخرة كثيرا عن سقوط غرناطة، ولكنها تؤكد استمرار الصلة العميقة التى طالما ربطت بين مصر من جهة وأبناء المغرب والأندلس من جهة أخرى، ذلك العالم هو الإمام الفقيه المحدث المتجر الشيخ أبو عبد الله محمد ابن الطالب بن سودة المرى الفاسى الذى ولد بفاس سنة ١١٢٨هـ، وتتلمذ على يد علمائها هناك مثل أبى عبد الله محمد بن عبد السلام الناصرى، شارح الاكتفاء والشفاء والشهاب أحمد بن عبد العزيز الهلالى السجلماسى، وكذلك الشهاب أحمد بن مبارك السجلماسى اللمطى الذى قرأ عليه المنطق والكلام والبيان والأصول والتفسير والحديث.

وفد الأمام أبو عبد الله محمد المرى إلى مصر فى سنة ١١٨١هـ، وغادرها فى سنة ١١٨٢م، وقد الف درسا حافلا بالجامع الأزهر برواق المغاربة، وقرأ الموطأ

---

(١) نفسه ، ص ٤٩.

(٢) نفسه ، ص ٩٦

بتمامه وحضره معظم الموجودين من العلماء ، وقد اجاد في تقريره ، وافاد وسمع عليه الكثير، وذهب إلى مكة، وعاد إلى مصر حيث اجتمع بكبار علمائها امثال الجوهري والصعيدي وحسن الجبرتي والطحلاوي والسيد العيدروس والشيخ محمود الكردي، وعيسى البراوي والبيومي وعطية الاجهوري وللإمام أبي عبد الله محمد المري تآليف كثيرة منها حاشية على البخاري في أربع مجلدات[1].

---

(١) الجبرتي، عجائب الأثار، ج٢، ص ٢٤٢.

قطر وموارد ثروتها الاقتصادية
في العصور الوسطي

قطر وموارد ثروتها الاقتصادية
في العصور الوسطي

تمهيد:

الأبعاد الجغرافية والتاريخية لقطر فى العصور الوسطى:

يعتقد الكثيرون أن اسم« قطر» ليس سوى مسمى حديثا لامارة برزت واستقلت سياسيا فى العصر الحديث. ولكن بالعودة إلى المصادر العربية التى ترجع إلى العصور الإسلامية الوسيطة نجد أن قطر شكلت كيانا طبيعيا وجغرافيا معروفا ومتميزا فى تلك العصور. فقطر بفتح القاف والطاء واسكان الراء، هى شبه جزيرة كبيرة تحيط بها مجموعة من الجزر الصغيرة وتقع جميعها على الساحل الغربى للخليج العربى[١].

ويعتبر **المسعودى** أول من أشار إلى ذلك فى كتابة **مروج الذهب**، فقد وصف قطر بأنها مجموعة من الجزائر التى تقع فى بحر فارس[٢]. وتبعه **الادريسى** فى ذلك فقد أكد فى كتابه **نزهة المشتاق** أن بحر قطر به عدة جزائر خالية من السكان[٣].

ويختلف الجغرافيون والمؤرخون العرب فيما بينهم حول تحديد الوضع الجغرافى والأبعاد الطبيعية والتاريخية التى كانت عليها قطر فى العصور الوسطى، فمنهم من يرى أن قطر كانت قصبة عمان وأنها كانت تابعة لكورتها ويأتى على رأس هذا الفريق **ابن خلكان** الذى وصف قطر فى كتابه **وفيات الاعيان** فى سياق حديثه عن قطرى بن الفجاءة بقوله «وقيل أن قطرى ليس باسم ولكنه نسبة إلى موضع بين البحرين وعمان وهو اسم بلد كان منه أبو نعامه المذكور «قطرى بن الفجاءة» فنسب إليه وقيل أنه هو قصبة عمان والقصبة هى كرسى الكورة[٤]».

وهناك من الجغرافيين العرب من أطلق اسم البحرين على المنطقة الواقعة على الساحل الغربى للخليج العربى، والممتدة من البصرة حتى عمان وهى المنطقة التى تشمل أراضى امارة الكويت حاليا ومنطقة الاحساء فى المملكة العربية السعودية

تشمل أراضى امارة الكويت حاليا ومنطقة الاحساء فى المملكة العربية السعودية ودولة قطر وسلطنة عمان وجزر البحرين، ومن الجدير بالذكر أن البحرين كانت تسمى قديما بأوال، كما كان اسم هجر بفتح الهاء والجيم يطلق على الاحساء وماحولها من بلاد، كذلك كان اسم الخط يطلق على ساحلها.[٥]

ويعتبر هذا الفريق أن كلا من القطيف والعقير وقطر كانت بمثابة قرى للبحرين[٦]. ومن هؤلاء **ياقوت الحموى** الذى وصف قطر فى **معجم البلدان** بقوله« فى أعراض البحرين على سيف الخط بين عمان والعقير قرية يقال لها قطر....». [٧] وكذلك يحدد البكرى موقع قطر بين البحرين وعمان ويعتبرها من بلاد البحرين[٨]. ويصفها البغدادى الذى نسب قطرى بن الفجاءة إلى قطر بأنها موضع بين البحر وعمان من بلاد البحرين[٩]. أما **ابن خرداذبة وقدامة بن جعفر** فقد اكتفيا بتحديد موضع قطر بين المراحل الممتدة على طول الطريق بين البصرة وعمان دون أن يحددا وضع قطر الادراى والطبيعى[١٠].

ويرى بعض المؤرخين أن بلاد قطر الحالية هى أصل بلاد البحرين القديمة بناء على ماورد من روايات فى كتاب **نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر**، وذلك خلافا لما يراه كل من ياقوت الحموى والبكرى[١١].

فهذه الروايات والنصوص تذكر أن البحرين سميت بهذا الأسم لأن هناك دخلة من الأرض فى البحر الكبير (المقصود به الخليج العربى) كالجزيرة، وبذلك فان هذه الدخلة البرية التى يمكن أن نطلق عليها «اسم شبه الجزيرة» طبقا للمصطلحات الجغرافية الحديثة، تكاد تقسم الخليج العربى إلى قسمين أو بحرين وهذا مايتفق الآن وشبه جزيرة قطر الحالية[١٢].

وبعد استعراض هذه الآراء المختلفة والمتناقضة نتبين أن اسم «قطر» كانت له خلال العصور الوسطى دلالته الجغرافية والطبيعية الخاصة به شأنه فى ذلك شأن اسم «البحرين» واسم «عمان» وأن قطر لم تكن مجرد قرية من قرى البحرين المغمورة كما ورد فى بعض الآراء أو قصبة عمان كما ورد فى البعض الآخر بل

كانت كيانا خاصا له قدر كبير من الاستقلالية والتميز إلى حد أن ابن منظور يصف قطر في لسان العرب بأنها مدينة وليست قرية تقع بين القطيف وعمان[١٣]. ويؤكد ذلك أننا نجد اشارات عديدة في المصادر العربية إلى درر قطرية واشخاص ينتسبون إلى قطر، فقطرى بن الفجاءة على حد قول ابن خلكان انتسب إلى قطر مسقط رأسه كذلك وصف الاصطخرى عبادان أنها كانت رباطا فيه محارس للقطرية اتباع قطرى بن الفجاءة[١٤]. كما يشير كل من **ابن رسته في الاعلاق النفيسة والمسعودى في مروج الذهب** إلى مدى شهرة قطر بمغاص اللؤلؤ الذى نسبه ابن رسته إليها بقوله «اللؤلؤ القطرى»[١٥]، بل ان المسعودى عندما تحدث عن اللؤلؤ الخاص بالبحر الحبشى ذكر أنه يستخرج من بلاد خارك وقطر وعمان وسرنديب فساوى بذلك بين هذه المسميات واعتبرها بلادا قائمة بذاتها وهو مايشير إلى وضع قطر في العصر الإسلامى، وينسب الادريسى مياه الخليج العربى المحيطة بقطر إليها ويسميها بحر قطر كما يطلق اسم قطر على احدى الجزر بالخليج العربى[١٦]، فلو كانت قطر مجرد قرية مغموره من قرى البحرين فلماذا نسبت اليها شخصيات وسلع ومنتجات ومواضع معينة، ولماذا لم نقرأ في المصادر العربية من ينتسب إلى القرى الأخرى، كالقطيفى أو العقيرى أو نقرأ عن بحر القطيف وبحر العقير مثلما قرأنا عن بحر قطر، وهذا يثبت بما لايدع مجالا للشك فى أن قطر كانت لها شخصية طبيعية وجغرافية على قدر كبير من الخصوصية والتميز عن سائر قرى البحرين والمواضع الخليجية الأخرى. وأستند فيما ذهبت إليه إلى الأدلة التالية:

أولاً: تجاهل **ابن حوقل** ذكر قطر بين قرى البحرين مما يؤكد وجود قدر من التميز والخصوصية الطبيعية والتاريخية لقطر فهو يقول «وأما البحرين ومدنها وهى هجر والاحساء والقطيف والعقير وبيشة والخرج وأوال وهى جزيرة...»[١٧].

ثانيا : رغم ما أورده **ياقوت الحموى** عند وصفه لقطر بأنها قرية فى أعراض البحرين كما سبق أن ذكرنا فأنه يعود فى نهاية تعليقه عن قطر ووصفه لموضعها فيقول «ومما يصحح انها (أى قطر) بين عمان والبحرين قول عبدة بن الطيب:

تذكر ساداتنا أهلهم فخافوا عمان وخافوا قطر

وهذه العبارة صريحة تماما وتؤكد عدول الحموى عما سبق أن ذكره عن تبعية قطر للبحرين وتأكيده أن قطر كيان قائم بذاته يقع بين كل من عمان والبحرين كذلك نراه ينص أثناء تعريفه لمنطقة يبرين، وهى التى كانت بأعلى بلاد بنى سعد تعيش فيها طيور النعام على أنها من أصقاع البحرين(١٨) بينما نجده فى موضع آخر من كتابه يؤكد على اصطياد الصيادين لبيضها من يبرين وقيامهم بنقله إلى قطر(١٩) فلو أن قطر كانت جزءا من البحرين وقرية من قراها لما نص الحموى على قيام الصيادين بنقل بيض النعام من يبرين فى البحرين إلى قطر باعتبار أن جميعها تتبع بلدا واحدا الا اذا كانت قطر بالفعل بلدا مختلفا عن البحرين.

كذلك ذكر ياقوت فى سياق تحديده لشقار أنها تقع بين أوال وقطر(٢٠)، ولما كانت أوال هى أحد الأسماء التى اطلقت على البحرين(٢١)، فان تفرقة ياقوت بين أوال وقطر تؤكد تأكيدا قاطعا على أن قطر لم تكن تابعة للبحرين (أوال) أو احدى قراها.

ثالثا: تأكيد الادريسى فى احدى النصوص التى اوردها فى نزهة المشتاق بما يشير إلى عدم تبعية قطر للبحرين والى اختلاف قطر كبلد وقطر عنها تماما. فقد أورد نصا استعرض فيه أهم المدن والمناطق التابعة لقطر بقوله « ومن جلفار(٢٢) وأنت نازل إلى البحرين تصير إلى مرسى السبخة وهو مرسى فيه عين نابعة عذبة ومنه إلى شقاب، وبوار، وبحر عويص صعب السلوك وتسمى هذه الأمكنة ببحر قطر، وفى هذا البحر عدة جزائر خالية لاعامر بها يأوى اليها أجناس من الطير البحرى والبرى... وليس على بحر قطر ساكن ولايأوى إليه أحد وهو مكان مخوف برأ وبحرا ومنه يسار إلى مرسى المفقود وهو مرسى جليل مكن من رياح شهتى وبه عين ماء عزيز عذب ومنه إلى ساحل هجر وهو أول بلاد البحرين ....»(٢٣).

ومما سبق عرضه، يتضح أن قطر تقع فى المنطقة الواقعة مابين جلفار فى عمان

وهجر التي وصفها الادريسي وحدد موقعها بأنها أول بلاد البحرين، وبهذا تكون قطر وكل أسماء المواضع التي وردت في النص في بحر قطر مدنا ومناطق تابعة لقطر ومطلة على بحرها، خارج نطاق البحرين.

واعتبر هذا النص غاية في الأهمية لأنه يجزم بعدم تبعية قطر لا لعمان ولا للبحرين.

ولعل هذا يذكرنا بلفظة قطراى Cataraei التي أوردها بيلينيوس والتي فسرها الكثيرون بأنها تعني سكان اقليم قطر منذ اقدم العصور، كما أن الجغرافي الشهير بطليموس المتوفى سنة ١٦٧م قد وضع خريطة لبلاد العرب جاء بها اسم قطراى التي رجح بعض المؤرخين أنها ربما تكون تعبيرا عن أسم قطر(٢٤).

واذا أعدنا استقراء بيت الشعر الذي أورده الشاعر عبدة بن الطيب*، فسوف يتأكد رأينا من أهمية قطر وتميزها طبيعيا وجغرافيا وتاريخيا، شأنها في ذلك شأن كل من البحرين وعمان فهو في قوله:

تذكر ساداتنا أهلهم ... فخافوا عمان وخافوا قطر

وخافوا الرواطي اذا أعرضت ... ملامس أولادهن البقر(٢٥)

قد ساوى في حقيقة الأمر بين عمان وقطر، وهذا يشير إلى مكانة قطر ووضعها الذي كانت عليه في العصور الوسطى، فلو كانت تابعة لعمان مثلما أشار ابن خلكان فيما بعد، أو مجرد قرية مغمورة من قرى البحرين مثلما أكد البكري وياقوت، لما كان هذا الشاعر المخضرم قد ساوى بين عمان كبلد معروف في التاريخ وبين قطر.

ولايعني استخدام كبار المؤرخين أمثال الطبري وابن الأثير مصطلح البحرين للدلالة على المنطقة الممتدة مابين كل من البصرة وعمان، انكار وجود كيان مستقل لقطر، فهذا الاستخدام أشبه باستخدامنا لبعض المصطلحات السياسية والجغرافية في العصر الحديث، فعندما نقول «الخليج العربي» فقط دون تحديد، فاننا

* أو ابن الطبيب كما ورد في عدة مصادر.

نعنى بهذا المصطلح فى واقع الأمر ستة دول خليجية هامة لكل منها كيان سياسى مستقل، وكذلك مصطلح «الشام» الذى يشمل ضمنا أربع كيانات سياسية قائمة بذاتها وأيضا مصطلح «المغرب العربى» ومصطلح «الشرق الأقصى» و «الشرق الأوسط» و «القرن الافريقى» فكل مصطلح من هذه المصطلحات يتضمن عدة دول مستقلة وقائمة بذاتها.

أما كلمة «الرواطى» فقد فسر ياقوت معناها بقوله «الرواطى ناس من عبد القيس لصوص»(٢٦) وهذا يؤكد أن قطر كانت مستقرا لقبائل عبد القيس شأنها فى ذلك شأن عمان، منذ فجر التاريخ العربى كما كانت مستقرا لتميم بن مازن الذى ينتمى اليهم قطرى بن الفجاءة. وكان المنذر بن ساوى ملكا على البحرين، وكان قد أعلن اسلامه بعد أن أرسل إليه النبى ﷺ، العلاء بن الحضرمى رسولا. وقد قضى المنذر بن ساوى نحبه بعد وفاة الرسول ﷺ بقليل(٢٧).

ونرجح أن قطر كانت خاضعة آنذاك للجارود بن عمرو بن حنش بن معلى فهو كما يذكر ابن الأثير ينتمى إلى عبد القيس(٢٨) وهى نفس القبيلة التى سبق أن أشرنا إلى أنها استوطنت منطقة قطر بناء على ماورد فى شعر عبدة بن الطيب(٢٩) كما استوطنت مناطق من البحرين وعمان. وكان الجارود قد قدم على النبى ﷺ وتفقه على يديه ثم عاد إلى قومه عبد القيس فترأس فيهم(٣٠). ولما مات الرسول ﷺ ومات المنذر بن ساوى ارتد أهل البحرين، ولم تحدد المصادر موقف قطر صراحة من الردة آنذاك. وفى تصورى أن قطر حافظت على اسلامها فقد اجمعت المصادر على ثبات عبد القيس وملكهم الجارود على مبادىء الاسلام وفى ذلك يقول الطبرى فقالت عبد القيس، لو كان محمد نبيا لما مات وارتدوا وبلغه ذلك فبعث فيهم فجمعهم ثم قام فخطبهم فقال يامعشر عبد القيس انى سائلكم عن أمر فأخبرونى به ان علمتمونى ولاتجيبونى ان لم تعلموا. قال سل عما بدا لك، قال تعلمون انه كان لله أنبياء فيما مضى قالوا نعم، قال تعلمونه أو ترونه قالوا: لابل نعلمه، قال: فما فعلوا، قالوا ماتوا، قال فان محمد ص ﷺ مات كما ماتوا وأنا

أشهد أن لاإله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله قالوا : ونحن نشهد أن لاإله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وانك سيدنا وأفضلنا، وثبتوا على اسلامهم...[٣١]. وكذلك أكد ابن الاثير على ثبات اسلام عبد القيس[٣٢] ونرجح أن تكون عبد القيس قد حافظت على اسلامها سواء من استوطن منهم في قطر أو البحرين لأن المصادر لم تفرق بين عبد القيس في كل منهما، في حين ثارت قبائل عربية أخرى كان تنزل في البحرين بخلاف عبد القيس مثل ربيعة وبكر بن وائل الذين توجهوا بعد تولى أبي بكر الخلافة إلى عاصمة فارس والتقوا بكسرى الفرس، وتم الاتفاق بين الطرفين على تنصيب المنذر بن النعمان بن المنذر أحد بقايا بيت المنذر ملكا على البحرين[٣٣].

وقد ابلت قطر بلاء حسنا عند هجوم الجيوش الاسلامية على فارس، وكان العلاء الحضرمي قد قام بمحاولة شخصية لفتح منطقة اصطخر فخرج دون اذن من الخليفة عمر بن الخطاب، وجعل الجارود بن المعلى على أحدى الفرق، وسوار بن الهمام على فرقة ثانية، وخليد بن المنذر بن ساوى على فرقة ثالثة، ثم عبروا البحر مع باقي المقاتلين الذين كان جلهم من عبد القيس كبرى قبائل البحرين وقطر إلى بلاد فارس ونزلوا اصطخر. واشتبك المسلمون مع الفرس، موقعة «الطاووس» التى أحرز فيها المسلمون نصرا كبيرا رغم استشهاد سوار والجارود وان كان القائدان الفارسيان شهرك والهربذا قد نجحا في تطويق الجيوش الاسلامية مما دفع كل من عتبة بن غزوان والاحنف بن قيس التميمي إلى التوجه للقاء خليد بن المنذر لانجاده على عجل[٣٤]. وشهدت قطر زمن الأمويين نفس الاحداث التى شهدتها المنطقة فقد ولى معاوية بن ابى سفيان زياد بن ابيه على البصرة وخراسان وسجستان وجمع له إلى جانب ذلك كل من الهند والبحرين وعمان[٣٥]. ونرجح أن قطر تعرضت لما تعرضت له البحرين أثناء خروج أبى فديك الخارجي على الدولة الأموية سنة ٧٢هـ. وقد غلب أبو فديك على البحرين وما حولها وقتل نجدة بن عامر الحنفى، في حين استولى قطرى بن الفجاءة على الأهواز، ثم احرز أبو فديك عدة انتصارات على الجيوش الأموية في بداية الأمر، ولكنه قتل سنة ٧٣هـ

بعد موقعة المشقر التى خاضها سنة ٧٣ هـ مع القائد الاموى عمر بن عبيد الله بن معمر الذى أرسله الخليفة عبد الملك بن مروان لمواجهته(٣٦).

وفى العصر العباسى خضعت قطر والبحرين والاحساء لدولة القرامطة وخلفهم آل مسلم(٣٧) على حكم قطر بعد زوال دولتهم. وفى منتصف القرن السادس الهجرى قامت فى عمان دولة النبهانيين، التى نجحت فى الاستيلاء على قطر فى القرن الثامن الهجرى وبقيت شبه الجزيرة القطرية خاضعة لحكم النبهانيين حتى سنة ٩٢٢هـ(٣٨). ونلاحظ أن المصادر العربية استخدمت المصطلح العام «بلاد البحرين» أثناء سردها للأحداث التاريخية التى مرت بها المنطقة عبر مختلف العصور الاسلامية، من نفس المنطلق الذى أوضحناه فى الصفحات السابقة. ويصعب علينا فى هذه الدراسة التمهيدية القصيرة . نتعرض بتفصيل واف لتاريخ منطقة شرق الجزيرة العربية السياسى، فهذا يحتاج منا إلى اعداد دراسات تاريخية قائمة بذاتها كما أن موضوع هذا البحث لايتعلق بالتاريخ السياسى بقدر مايتعلق بموارد الثروة الاقتصادية لقطر فى العصر الاسلامى الوسيط.

موارد الثروة الاقتصادية فى قطر فى العصر الاسلامى:

وصفت المصادر العربية منطقة «البحرين» وماحولها بأنها منطقة خصبة وغنية بشتى أنواع الثمار، من ذلك ماذكره **ابن حوقل** «وطريق مكة بعد اقطاع ما بالبحرين من الضياع بضروب ثمارها ومزارعها من الحنطة والشعير والنخل لأتباعهم المعروفين كانوا بالمؤمنين»(٣٩).

وقد أكد **ناصر خسرو علوى** على ثراء هذه المنطقة بالنخيل(٤٠)، كما أشار إلى أن الأهالى فى البحرين والاحساء كانوا يسمنون به مواشيهم لكثرته. وكذلك **الحميرى** الذى وصف بلاد خارك من البحرين بأنه يتوفر بها الكثير من الزروع والأرز والكروم والنخيل وأنها كانت كثيرة الاعشاب والعيون المائية. واذا كان كل من ناصر خسرو علوى وابن حوقل والحميرى قد تحدثوا عن أهم المزروعات

والمحاصيل الزراعية في بلاد البحرين ومنها الاحساء وخارك، ولم يذكروا قطر صراحة فاننا رغم ذلك نعمم ماذكروه على قطر أيضا حيث أنه من المسلم به أن المحاصيل الزراعية لاتنمو فى مناطق محددة محصورة وانما تنمو وتنبت فى اقاليم واسعة وممتدة، لأن الزراعة تتبع اقاليما مناخية معينة، لذا فان ماينبت فى كل من الاحساء والقطيف مثلا وهى مدن قريبة من حيث الموقع الجغرافى من قطر، لابد بداهة أن ينبت وينمو فى قطر لاشتراكها جميعا فى المناخ ونوع التربة، خاصة فيما يتعلق بزراعة النخيل الذى يشكل عادة مايشبه الغابات الممتدة فى أى منطقة ينبت بها.

ويؤكد رأينا هذا ماذكره **البكرى** فى كتابه **معجم ما استعجم** عن شهرة قطر بصناعة الخمر فالخمر تصنع اما من التمور أو من الكروم والاعناب مما يرجح اشتهار قطر أيضا بزراعة الأعناب. وبهذا تكون قطر قد تميزت عن غيرها من أقطار المنطقة بهذه الصناعة التى ترتبت على زراعة التمر والكروم. كذلك يتبادر إلى الأذهان ضرورة قيام أهالي قطر بطحن الحبوب استنادا إلى أن ناصر خسرو علوى يشير إلى انتشار هذه الحرفة والصناعة فى منطقة الاحساء القريبة من قطر(٤٣) كما يؤكد **الحميرى** على اهتمام أهالي خارك بطحن الغلال(٤٤).

واشتهرت قطر وتميزت بين اقطار الخليج العربى بصناعة المنسوجات والثياب القطرية التى أشار إليها ياقوت الحموى فى معجم البلدان فى سياق تفسيره لاسم قطر ومعناه فهو يقول: «أما قطر بالتحريك وآخره راء وروى عن ابن سيرين أنه كان يكره القطر وهو أن يزن جلة من تمر أو عدلا من المتاع أو الحب ويأخذ مابقى من المتاع على حساب ذلك ولايزن. وقال ابو معاذ القطر البيع نفسه.

قال أبو عبيد، القطر نوع من البرود وانشد:

كساك الحنظلى كساء صوف
وقطريا فأنت به تفيد

وقال البكرواى: البرود القطرية، حمر لها أعلام فيها بعض الخشونة وقال خالد بن جنبة هى حال تعمل فى مكان لا أدرى أين هو ....[٤٥].

ونستنتج من نص **ياقوت الحموى** حقائق غاية فى الأهمية منها:

أولا: اشتهار قطر بصناعة البرود أو الثياب الصوفية الخشنة حمراء اللون، مما يؤكد ضرورة اهتمام سكانها بتربية الأغنام والابل وتوفر المراعى الطبيعية اللازمة لتربية هذه القطعان. وبالعودة إلى نص الحميرى الذى أكد فيه انتشار العيون العذبة والأعشاب فى خارك من بلاد البحرين، فان هذا يدفعنا إلى ترجيح انتشار نفس الظاهرة فى قطر لقربها من خارك، ويؤكد رأينا هذا، النص الذى أورده ياقوت الحموى عندما تحدث عن الأعدان احدى ضواحى قطر وهى المنطقة التى نشأ فيها قطرى بن الفجاءة وترعرع، فالحموى أورد مايشير إلى ذلك عندما استعرض ماذكر به قطرى أخاه الماحوز. وكان من أصحاب المهلب – من تدافعهما على ثدى أمهما بالأعدان. وقد عرف الحموى هذا الموضع بقوله «والاعدان: ماء لبنى مازن بن تميم»[٤٦] مما يجزم بتوفر مياه العيون اللازمة لسقاية العشب والكلأ اللازم لتربية الأغنام والابل فى قطر.

ويؤكد استنتاجنا هذا ما أورده الادريسى صراحة فى نزهة المشتاق من انتشار العيون العذبة ببلاد بحر قطر وجزائره»[٤٧].

ثانيا: يؤكد نص ياقوت الحموى السابق، مدى الارتباط الوثيق بين قطر ككيان سياسى له خصوصيته وتميزه، وبين حرفة التجارة. فاذا كان الحموى قد فسر معنى اسم قطر بأنه البيع نفسه، سواء كان بيع التمر أو الحبوب أو المتاع، فان هذا يعنى شهرة أهالى قطر فى مجال التجارة منذ أقدم العصور إلى حد أن عملية البيع نفسها أطلقت على المنطقة للدلالة على المهنة التى كان يمتهنها سكان هذه المنطقة.

ثالثا: كذلك يأتى نص الحموى ليؤكد ترجيحنا السابق بتوفر محاصيل التمور

والحبوب فى قطر فكون الحموى يخص قطر عند تفسيره لاسمها بأنه يعنى البيع نفسه سواء كان بيع التمر أو الحب فان هذا يجزم بزراعة البلاد لهذا النوع من المحاصيل.

واذا كانت قطر قد ارتبطت بالتجارة منذ أقدم العصور، واهتم ابناؤها بتصدير التمور والحبوب والمنسوجات القطرية، وقامت بها الأسواق على حد وصف ياقوت الحموى، فان حدود تجاراتهم لم تقف عند هذا الحد بل تعدتها إلى الاتجار فى موارد ثرواتهم الحيوانية وماترتب عليها، فقد كانت الطيور من أهم الموارد الاقتصادية التى شكلت الذبول والفضلات المتبقية منها احدى الدعامات التجارية لقطر فى العصور الوسطى الاسلامية. وقد ذكر الادريسى فى سياق النص الذى سبق أن أوردناه والذى حدد فيه أسماء بعض المواضع والمراسى التابعة لقطر على وجه الخصوص، أن هذه المناطق قد كثر بها أنواع من الطيور البرية والبحرية التى شكلت فضلاتها جزءا من موارد قطر الاقتصادية وهو فى ذلك يقول «ومن جلفار وأنت نازل إلى البحرين تصير إلى مرسى السبخة وهو مرسى فيه عين نابعة عذبة ومنه إلى شقاب، وبوار وبحر عويص صعب السلوك وتسمى هذه الأمكنة ببحر قطر وفى هذا البحر عدة جزائر خالية لاعامر بها، يأوى إليها أجناس من الطير البحرى والبرى فيجتمع بها من ذبولها المقادير الكثيرة، فاذا طاب ماء هذا البحر للسفر قصدت اليها المراكب فتوسق تلك الزبول التى قد كومتها الطير فى تلك الجزائر وتصير بها إلى البصرة وغيرها فيبيعونها هناك بالثمن الكثير وتلك الزبول تصرف فى عمارات الكروم والنخل والجنات والبساتين...»(٤٨) ونفهم من النص السابق أن البصرة كانت من أكثر مدن العراق اهتماما باستيراد هذا النوع من الزبول التى استخدمت كسماد لتغذية أشجار الكروم والنخيل وسائر أنواع المزروعات. كذلك اشتهرت قطر بتربية نوع خاص من الطيور البرية، وهو النعام، فقد أشار ياقوت الحموى إلى ذلك عندما قال «قال الراعى فجعل النعام قطرية:

الأوب أوب نعـــــائم قطرية
والآل آل نحـــائص حـــقب

وأوضح الحموى فى نصه الوسائل التى اتبعها أهالى قطر لتربية هذا النوع من الطيور فقد كان النعام يكثر فى منطقة يبرين التابعة للبحرين، وكان الصيادون القطريون يقومون بصيد بيضه ونقلها لقطر نفسها وفى ذلك يقول «نسب النعام إلى قطر لاتصالها ببلد ورمال يبرين والنعام تبيض فيها فتصاد وتحمل إلى قطر(٤٩)».

كذلك اشتهرت قطر بمورد آخر هام من موارد الثروة الحيوانية وهو الجياد التى أشار إليها ياقوت الحموى فى المعجم من خلال وصف جرير:

لدى قطريات اذا مـــاتغـــولت
بها البيد غاولن الحزوم الفيافيا(٥٠)

وقد نسبت هذه الجياد إلى قطر فسمت القطريات.

هذا وقد أورد ابن فضل الله العمرى نصا فى مسالك الأبصار فى سياق حديثه عن الخيول التى أوضح أنها نوعان، عراب وبرادين، وذكر فيه أن كان «يجلب إلى الهند من جميع ماجاورها من بلاد الترك، وتقاد إليها العراب من البحرين وبلاد اليمن والعراق......(٥١) ونرجح أن تكون هذه الخيول القادمة من البحرين قطرية. على أن اللؤلؤ يعد من أهم موارد قطر الاقتصادية، وقد أشارت المصادر العربية إلى ذيوع شهرة اللؤلؤ القطرى، من ذلك ما أورده ابن رسته فى الأعلاق النفيسه(٥٢)، وكذلك كل من المسعودى والحميرى اللذين حددا أماكن الغوص على اللؤلؤ بقولهما أن مغاص اللؤلؤ تكثر فى بلاد خارك وقطر وعمان وسرنديب ، واضاف الحميرى انه لايوجد اللؤلؤ فى غير ذلك(٥٣).

وترتب على ذلك بلا شك ظهور حرفة هامة فى قطر وهى حرفة الغوص على اللؤلؤ التى تخصص فيها أشخاص عرفوا باسم «الغاصة» (٥٤)وقد عرف العرب هذه

الحرفة منذ أقدم العصور فكان سكان الخليج العربى يغوصون فى مياهه لاستخراج اللؤلؤ، وقد أشار كل من ميمون ابن قيس (الاعشى الكبير) والمسيب بن عباس والمخبل السعدى من شعراء الجاهلية المعروفين في اشعارهم (٥٥) إلى هذه الحرفة.

وقد حدثتنا المصادر العربية عن هذه الحرفة، من ذلك ماأورده **المسعودى** فى كتابه «مروج الذهب» **والادريسى** فى كتابه «نزهة المشتاق» **والحميرى** فى «الروض المعطار» وكذلك **ابن بطوطه** فى رحلته **والبيرونى** فى كتابه «الجماهر فى معرفة الجواهر».

ويحدد المسعودى الشهور التى كان يتم فيها الغوص على اللؤلؤ ويذكر أنها تبدأ من «أول نيسان» «ابريل» إلى آخر ايلول (سبتمبر) وماعدا ذلك من شهور السنة فلا غوص فيها(٥٦) فى حين يحدد كل من الادريسى ومن بعده الحميرى أشهر الغوص بشهرى اغشت (أغسطس) وشتنبر (سبتمبر)(٥٧)، أما ابن بطوطة فذكر أن بداية الغوص على اللؤلؤ يكون فى شهرى ابريل(٥٨) ومايو. وقد اختلف فى تكوين اللؤلؤ، ويرجح أغلب المؤرخين أنه يتكون من قطرات المطرحين تدخل فى الأصداف(٥٩)، وأن اللحم الذى فى الصدف هو حيوان يفزع على مافيه من اللؤلؤ والدر خوفا من الغاصة كخوف المرأة على ولدها. وكان الغاصة لايتناولون شيئا من اللحوم سوى الأسماك كما كانوا يتناولون التمور، ويذكر كل من المسعودى والحميرى أنهم كانوا يشقون أصول آذانهم لخروج النفس من هناك بدلا من الأنف(٦٠).

ويذكر الادريسى أن تجار اللؤلؤ كانوا يأتون فى سفنهم إلى جزيرة أوال (البحرين) حيث كان يتجمع الغاصة، وكانت أجورهم معلومة تتفاضل على قدر الغوص والأمانة وزمن الغوص وكان التجار يخرجون فى أكثر من مائتى سفينة وانه كان هناك سفنا مخصصة لهذه الحرفة سمى الادريسى الواحدة منها «بالدونج»(٦١) ووصفها بأنها كانت أكبر من الزروق. وكان التاجر يقسم الدونج إلى خمسة أقسام أو ستة وكل قسم به غواص له صاحب يعاونه فى عمله نظير اجر معلوم يقل عن

أجر الغطاس، ويسمى «بالمعاون المصفى». كذلك استأجر التجار إلى جانب الغاصة ومعاونيهم، الأدلاء المهرة الذين كانت لهم خبرة بمواضع اللؤلؤ وأصدافه لأن اللؤلؤ كان له مراعي خاصة يكثر بها.

ويؤكد الادريسي أن الغاصة كانوا يتجردون من ثيابهم ويقومون بالغطس في الماء اذا ما اخبرهم الأدلاء بموضع الاصداف، فان وجدوا مايرضيهم خرجوا وأمروا بحط قلاع الدونج والرسو. وكان الغواص يتجرد من كل ملابسه الا سترة عورته، ويقوم بوضع «الخلنجل» في أنفه، وفسر الادريسي معنى الخلنجل بقوله «وهو شمع مذاب بدهن الشيرج يسد به أنفه» ويأخذ الغواص معه سكينا ومشنة ليجمع فيها مايجده هناك من الصدف.

ويشير ابن بطوطة إلى الزمن الذى يستغرقه الغاصة لجمع الاصداف ويحدده مابين الساعة والساعتين[٦٢]. وتجمع المصادر على أن الغواص كان يحيط جسده بحبل، فاذا ماشعر بصعوبة في التنفس حرك الحبل. وقد انحصرت مهمة معاونه في الامساك بهذا الحبل فاذا أحس بحركة الغواص قام بجذبه ورفعه إلى الدونج ثم يبادر بتلقف المخلاة منه ... أما الصدف فكان يفتح ويقطع جوفه اللحمى بحديدة، فاذا ما باشر الهواء تجمد وتحول إلى جواهر[٦٣]. وبخلاف حرفة الغوص على اللؤلؤ والجواهر فاننا نرجح أن حرفة صيد الاسماك كانت من أهم الأنشطة الاقتصادية التى مارسها سكان قطر، وهذا الترجيح امر بديهى بالنسبة للجماعات التى تعيش فى جزر تحيط بها المياه.

كذلك عرف أهل قطر بمهارتهم الملاحية والبحرية مما يؤكد احترافهم الملاحة. ولعل الاشارات المتناثرة التى وردت فى المصادر فى هذا الصدد تؤكد ذلك فالاصطخرى أورد كما سبق أن أشرنا مايفيد بأن القطرية من اتباع قطرى بن الفجاءة كانت لهم محارسهم فى عبادان، وقد وصف ابن حوقل[٦٤] هؤلاء القطرية بأنهم من متلصصة البحر. ونرجح أن هؤلاء القطرية كانوا يهاجمون السفن التابعة للخلافة باعتبارهم اتباعا لقطرى بن الفجاءة وكانوا يؤمنون بضرورة الكفاح لفرض

مذهبهم ونشره وهم بذلك يختلفون عن المتلصصة، ولذلك فاننا لانوافق ابن حوقل على وصفه للقطرية بالمتلصصة. كذلك اشار الادريسى إلى جزيرة سماها «القطربة» ونرجح انها «القطرية» بالياء وليست القطرية بالباء وكانت تقع بين البحرين والبصرة، وكان أهلها يدينون بالمسيحية ويتكلمون اللغة العربية ويقطعون بالمراكب الطرق البحرية(٦٥). ونعلل اتجاه اهالى قطر إلى ممارسة حرفة الملاحة بحكم وعورة التضاريس فى المنطقة البرية التى امتدت مابين عمان والبحرين ولتنازع القبائل العربية فى هذه المنطقة وتقاتلهم فيما بينهم واغاراتهم على بعضهم البعض(٦٦).

الحواشـــــي:

١- سيف مرزوق الشملان، الغوص على اللؤلؤ في قطر، أحد البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، الدوحة، ١٩٧٦، جـ٢، ص ٥٥٤ - يوسف بن عبد الرحمن الخليفي، قطر، ماضيه وحاضره، من بحوث ندوة قطر، الدوحة، ١٩٧٦، جـ٢، ص ٥٣٩ - أحمد الشامي، العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الاقصي وأثر ذلك في بعض الجوانب الحضارية في العصور الوسطى، ندوة قطر، الدوحة، ١٩٧٦، جـ٢، ص ٣٣٠ ومايليها.

٢- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٥٨، جـ١، ص ١١٠.

٣- الادريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، طبعة القاهرة، بدون تاريخ، جـ١، ص ١٦٢.

٤- ابن خلكان، وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان، تحقيق د/ احسان عباس، بيروت، ١٩٧١، مجلد ٤، ص ٩٣.

٥- الادريسي، نزهة المشتاق، جـ١، ص ٣٨٦ أما ياقوت الحموي فقد سمى أكبر جزر البحرين باسم أوال، ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، ١٩٥٧، جـ١، ص ٢٧٤، سيف مرزوق الشملان، المرجع السابق، ص ٥٥٤.

٦- ويأخذ بهذا الرأى كل من الدكتور عصام سخنيني والدكتور حسين عطوان (عصام سخنيني، الانتشار العربي في الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية، البدايات وخصائص التطور، من أبحاث ندوة مكانة الخليج العربي، العين، ١٩٨٨، ص ٨٤ - حسين عطوان في بحثه، دراسة مقارنة بين وصف الاعشى ووصف الفرزدق لاستخراج اللؤلؤ، ندوة مكانة الخليج العربي، ١٩٨٨، العين، ص ٢٣٩.

٧- ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ٤، ص ٣٧٢. وهي بخلاف قطر بفتح القاف وسكون الطاء التي وصفها ياقوت بأنها موضع من جوانب البطائح بين البصرة وواسط (ياقوت، المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٧٢).

٨- البكري، معجم ما استعجم، الجزء الثاني، ص ٧٤١.

٩- عبد القادر البغدادى، شرح شواهد المغنى، تحقيق عبد العزيز رياح وأحمد يوسف الدقاق، دمشق، ١٩٧٤، جـ٣، ص ٣١٢. ولمزيد من التفاصيل عن نسب قطرى بن الفجاءة -ارجع إلى وليد قصاب، قطرى بن الفجاءة، دراسة فى السيرة والشعر والعين، ١٩٨٨، ص ٢٩٧.

١٠- ابن خرداذبة، المسالك والممالك، طبعة مكتبة المثنى ببغداد، بدون تاريخ، ص ٦٠ وارجع كذلك إلى قدامه بن جعفر، نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، طبعة مكتبة المثنى ببغداد ومؤسسة الخانجى بمصر، بدون تاريخ ، ص ١٩٣.

١١- ويأخذ بهذا الرأى الدكتور سعد زغلول عبد الحميد فى مقاله (البحرين وقطر، الأصول القديمة للمسميات الحديثة فى المكتبة الجغرافية العربية، أحد بحوث ندوة قطر، الدوحة ١٩٧٦، جـ١ ص٥١.

١٢- لمزيد من التفاصيل راجع، سعد زغلول ، المرجع السابق، ص ٥١ ومايليها.

١٣- عن ابن منظور ارجع إلى سيف مرزوق الشملان، المرجع السابق، ص ٥٥٥.

١٤- الاصطخرى، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحينى، القاهرة ١٩٦١، ص ٣١. ارجع كذلك للادريسى، نزهة المشتاق جـ١ ص ٦٥.

١٥- ابن رسته، الاعلاق النفيسة، طبعة مكتبة المثنى ببغداد، بدون تاريخ ص ٨٧، المسعودى، مروج الذهب، جـ١، ص ١٤٨.

١٦- الادريسى، نزهة المشتاق، جـ١، ص ١٦٢، ص ٦٥. وقد ورد اسم هذه الجزيرة فى نزهة المشتاق على أنها «القطربة» بالباء ولكننا نرجح أنها «القطرية» بالياء نسبة إلى قطر.

١٧- ابن حوقل، صورة الأرض، طبعة بيروت، بدون تاريخ، ص ٣٣.

١٨- ياقوت الحموى، معجم البلدان، جـ٥، ص ٤٢٧.

١٩- المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٧٢.

٢٠- نفسه، جـ٣، ص ٣٥٣.

٢١- الادريسى، نزهة المشتاق، جـ١، ص ٣٨٦ ، ٣٨٧، فهو يقول «وسميت البحرين بجزيرة أوال».

٢٢- احدى مدن عمان.

٢٣- الادريسى، نزهة المشتاق، جـ١، ص ١٦٣.

٢٤- سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ٥٥ - سيف مرزوق الشملان، المرجع السابق ص ٥٥٤.

٢٥- ياقوت الحموى، معجم البلدان، جـ٤، ص ٣٧٣.

٢٦- المصدر السابق، ص ٣٧٢، ٣٧٣.

٢٧- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، طبعة دار القاموس الحديث، بيروت، بدون تاريخ، جـ٣، ص ٢٥٥. وارجع كذلك إلى ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، بيروت، ١٩٦٥، جـ٢ ص ٣٦٨. وكان المنذر ابن ساوى ينتمى إلى قبيلة تميم. وينتمى إلى تميم كل من خباب بن الأرت التميمى، وهند بن أبى هالة ربيب رسول الله وابن السيدة خديجة رضى الله عنها، ومنهم أسلع بن شريك ورافع بن عمير وعياش بن أبى ربيعة (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى يحيى الجبورى، تميم وتحركها وسياستها فى العراق والخليج العربى فى صدر الاسلام، العين، ١٩٨٨، ص ٤٣ ومايليها).

٢٨- ابن الأثير، المصدر السابق، ص ٣٦٨.

٢٩- ياقوت الحموى، معجم البلدان، جـ٤، ٣٧٢ - لمزيد من التفاصيل عن استقرار قبائل عبد القيس فى اقطار الخليج العربى فى المنطقة الواقعة من البصرة إلى عمان والتى عرفت بخط عبد قيس، وصراع عبد قيس مع قبائل اياد والأزد ارجع إلى (محمد أرشد العقيلى، دور الخليج العربى فى الفتوحات الاسلامية، بحث من بحوث ندوة مكانة الخليج فى التاريخ الاسلامى، العين، ١٩٨٨، ص ١٤٩ ومايليها).

٣٠- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ٣، ص ٢٥٤، ابن الاثير، الكامل، جـ٢، ص ٣٦٨.

٣١- الطبرى، المصدر السابق، جـ٣، ص ٢٥٥.

٣٢- ابن الأثير، الكامل، جـ٢، ص ٣٦٨.

٣٣- لمزيد من التفاصيل ارجع إلى الطبرى، جـ٣، ص ٢٥٥ - ابن الأثير، الكامل، جـ٢ ص ٣٦٨-

السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، الاسكندرية، بدون تاريخ ص ١٦٩ - عصام سخنيني، الانتشار العربي، ص ٩٣. وكان يقاسم المنذر بن ساوى في حكم المنطقة الممتدة من البصرة إلى عمان عشية وفاة الرسول ﷺ زعيمان من عبد قيس هما الجارود بن المعلى والحطيم بين ضبعة العبدي. وعندما استفحلت الردة في هذه المنطقة كانت رئاسة المسلمين بعد وفاة المنذر قد آلت إلى الجارود في حين تزعم الحطم حركة الردة وانضمت اليه بكر بن وائل وعناصر غير عربية كالفرس والزط والسيابجة. وتمكن المرتدون من احتلال هجر والقطيف ودارين وحوصر المسلمون في بلدة جواثا ولكن قوات الجارود ومن انضم اليه من المدد الاسلامي بقيادة العلاء بن الحضرمي تمكنت بعد معارك ضارية من الانتصار على الحطم والتغلب على قواته (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى محمد ارشد العقيلي، المرجع السابق، ص ١٥٣).

٣٤- لمزيد من التفاصيل ارجع إلى ابن الأثير، الكامل، جـ٣، ص ٥٣٨ ومايليها. وعن دور تميم في الفتوحات الاسلامية ارجع إلى (يحيى الجبوري، تميم تحركها وسياستها في العراق والخليج العربي في صدر الاسلام ومايليها، ص ٢٣٠ ومايليها) وكانت قبائل خليجية من الأزد وتميم وبكر بن وائل وعبد القيس قد شاركت في معارك فتح العراق الأولى ومعارك الجسر والبويب والقادسية والمدائن وجلولاء ونهاوند وبرز من بين هذه القبائل اسماء قيادات عظيمة مثل القعقاع بن عمرو التميمي (الطبري، جـ٣، ص ٨٦ ومايليها، ص ١٨١ - المسعودي، مروج الذهب، جـ٢ ص ٢١٧ ومايليها - ابن الاثير الكامل جـ٢، ص ٣٨٥ - ارشد العقيلي، دور الخليج العربي، ص ١٥٤).

٣٥- الطبري، تاريخ الأمم والملوك جـ٦، ص ١٢٤. ولمزيد من التفاصيل عن ولاة عمان والبحرين في العصر الأموي والمناقشات التي درات حول هذا الموضوع، ارجع إلى (حسين المسرى، البحرين وعمان في العصر الاموي، العين، ١٩٨٨، ص ١١٢ ومايليها).

٣٦- الطبري، جـ٧، ص ١٧٥.

٣٧- يوسف بن عبد الرحمن الخليفي، قطر ماضيه وحاضره، الدوحة، ١٩ ص ٥٤٧.

٣٨- المرجع السابق ص ٥٤٧.

٣٩- ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٣.

٤٠- ناصر خسرو علوى، سفرنامة، تحقيق وتعليق يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٤٥، ص ٩٤.

٤١- الحميرى، الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس، بيروت، ١٩٨٣، ص ٢١٢.

٤٢- البكرى، معجم ما استعجم جـ٢ ص ٧٤١.

٤٣- ناصر خسر وعلوى، سفرنامة، ص ٩٤.

٤٤- الحميرى، الروض المعطار، ص ٢١٢.

٤٥- ياقوت الحموى، معجم البلدان، جـ٤، ص ٣٧٢.

٤٦- المصدر السابق، جـ١، ص ٢٢٠.

٤٧- الادريسى، نزهة المشتاق، جـ١، ص ١٦٢.

٤٨- المصدر السابق، جـ١، ص ١٦٣. وبوار في هذا النص هى بخلاف بوار التى ذكر ياقوت الحموى أنها بلد باليمن (ياقوت الحموى، معجم البلدان، جـ١، ص ٥٠٢).

٤٩- ياقوت الحموى، معجم البلدان، جـ٤، ص ٣٧٢.

٥٠- المصدر السابق، ص ٣٧٢.

٥١- ابن فضل الله العمرى، مسالك الأبصار في مسالك الامصار، الباب الأول في مملكة الهند والسند، تحقيق محمد سالم بن شديد العوفي، الرياض، ١٩٩٠، ص ١٢٢.

٥٢- ابن رسته، الأعلاق النفسية، ص ٨٧.

٥٣- المسعودى، مروج الذهب، جـ١، ص ١٤٨ - الحميرى، الروض المعطار ص ٢١٢.

٥٤- المسعودى، مروج الذهب، جـ١، ص ١٤٨ - الحميرى، الروض المعطار، ص ٢١٣.

٥٥- لمزيد من التفاصيل ارجع إلى (عبد القادر البغدادى، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجى، بدون تاريخ، جـ٣، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ - حسين عطوان، دراسة مقارنة بين وصف الأعشى ووصف الفرزدق لاستخراج اللؤلؤ، من أبحاث

ندوة الخليج العربى فى التاريخ الاسلامى العين، ١٩٨٨، ص ٢٣٣ - ٢٤٨- عبد الله أبو عزة، ملامح الحياة الاقتصادية لدولة قرامطة البحرين، من أبحاث ندوة العين، ١٩٨٨، ص ٢٠٧ ومايليها، سيف مرزوق الشملان، الغوص على اللؤلؤ فى قطر، ص ٥٦٠ ومايليها.

٥٦- المسعودى، مروج الذهب، جـ١ ص ١٤٨.

٥٧- الادريسى، نزهة المشتاق، جـ١، ص ٣٨٨ - الحميرى، روض المعطار، ص ٢١٣.

٥٨- ابن بطوطة، الرحلة، بيروت، ١٩٦٠، ص ٢٧٩.

٥٩- المسعودى، مروج الذهب، جـ١، ص ١٤٨ وعن البيرونى، ارجع إلى سيف مرورق الشملان، المرجع السابق، ص ٥٦١.

٦٠- المسعودى، نفسه، ص ١٤٨- الحميرى، نفسه، ص ٢١٢.

٦١- الادريسى، نزهة المشتاق، جـ١، ص ٣٨٨.

٦٢- ابن بطوطة، الرحلة، ص ٢٧٩.

٦٣- لمزيد من التفاصيل ارجى إلى الادريسى، نزهة المشتاق، جـ١، ص ٣٨٨ - الحميرى، الروض المعطار ص ٢١٣ - ابن بطوطه، الرحلة، ص ٢٧٩. وراجع أوصاف الفرزدق والاعشى لعملية الغوص على اللؤلؤ (لمزيد من التفاصيل عن ذلك ارجع إلى حسين عطوان، دراسة مقارنة بين وصف الاعشى ووصف الفرزدق لاستخراج اللؤلؤ، ص ٢٣٤ ومايليها).

٦٤- ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥٣.

٦٥- الادريسى، نزهة المشتاق، جـ١، ص ٦٥.

٦٦- نفس المصدر، ص ١٥٩.

موقف مدينة صور من أحداث الشام منذ منتصف القرن الخامس الهجري وحتي سقوطها في أيدي الصليبيين سنة ٥١٨ هـ



موقف مدينة صور من أحداث الشام منذ منتصف القرن الخامس الهجرى وحتى سقوطها فى أيدى الصليبيين عام ٥١٨ هـ

مقدمة:

تعتبر مدينة صور من أهم مدن الساحل الشامى بحكم موقعها المتميز ووضعها الجغرافى كشبه جزيرة تحيط بها مياه البحر الأبيض المتوسط من كل الجهات ما عدا جهة واحدة، فضلا عن ارتباطها جغرافيا بدمشق ارتباطا وثيقا، حيث تصل جبال عامل بين الجوف الشامى من جهة، والساحل من جهة أخرى، كذلك من خلال التبادل والمنفعة الاقتصادية.

وكانت صور من بين مدن الشام التى أخلصت للفاطميين وحافظت على ولائها لهم فى معظم الفترات التى استقلت فيها غيرها من مدن الشام، وإن كان هذا الجنوح إلى الإستقلال امتد اليها فى بعض الأحيان، فقامت بها دويلة بنى عقيل، كما حاول بعض ولاتها الفاطميين، الانتزاء بها.

ولكن يرجع السبب الحقيقى وراء اختيارى لدراسة تاريخ مدينة صور على وجه الخصوص، إلى الدور العظيم والكبير والمشرف الذى قامت به هذه المدينة ضد العدو الصليبى بعد نجاحه فى التسلل إلى بلاد الشام منتهزا فرصة التفكك السياسى والخلافات المذهبية والسياسية بين القوى الاسلامية الكبرى فى ذلك الحين، فقد اعتبرت صور احدى قواعد المقاومة الاسلامية ضد الصليبيين بحيث هددت وجودهم فاضطروا الى بناء القلاع والحصون لتساعدهم على اسقاطها، ومن هذه القلاع قلعة تبنين، وتل معشوقة وسكانداليون. وقد فشل الصليبيون فى اسقاط هذه المدينة الباسلة بعد أن حاصروها أكثر من مرة. وحتى فى حصارهم الأخيرّ الذى انتهى بسقوطها، وقفت صور وحدها تواجه الحصار الصليبى المطبق، وصمدت لعدوانهم واعتداءاتهم المتواصلة، ولم تتلق أى عون فى الشام سوى من دمشق التى

برز أحد ابطالها وهو طغتكين أتابك، وحاول أن يترفع عن كل الصغائر، فتغاضى عن موقف الفاطميين من الأتراك السلاجقة وتصدى لحماية صور.

وفى هذه اللحظات الأخيرة، عندما أدرك أهالي صور أنه لا مفر من النهاية المحتومة حاولوا أن ينقذوا ما يمكن انقاذه، وقاتلوا قتال الشرفاء حتى النهاية بعزة وإباء وكبرياء؛ وسجل التاريخ بشهادة المؤرخين اللاتين بطولات أبناء صور. المدينة الباسلة، الذين عاهدوا أنفسهم على الموت فى سبيل رفعة الاسلام.

لقد كان لهذا الموقف المشرف في تلك اللحظات الحاسمة أكبر الأثر فى اختيارى لهذا الموضوع، فإذا كان فى التاريخ عظات ودروس فلنتخذ من أحداث تاريخ بلاد الشام وصور قبيل مجئ الصليبيين، من تفكك المسلمين وصراعاتهم فيما بينهم سواء فى المشرق الاسلامى أو الاندلس درسا فى الحاضر والمستقبل.

موقف مدينة صور من أحداث الشام منذ منتصف القرن الخامس الهجرى وحتى سقوطها فى أيدى الصليبيين عام ٥١٨ هـ

(١) المسرح الجغرافى لصور: عرض لأهمية موقعها الاستراتيجى ودورها البحرى والتجارى الطليعى فى العصر الوسيط:

اشتهرت صور منذ أقدم حقب التاريخ بموقعها الجغرافى المتميز على صخرة ممتدة فى مياه البحر المتوسط[١]، بحيث تشبه الكف على الساعد، فالبحر يطوقها من جميع جوانبها باستثناء جانب واحد[٢]، وهو الجانب الذى ثبت فيه بابها، وهذا القطاع المتصل باليابس من قلعتها لا يزيد امتداده على حد قول ناصر خسرو علوى على مائة ذراع فى حين أن بقية القلعة كانت تحيط بها مياه البحر[٣]، مما يجعل هذه المدينة الحصينة تبدو كما لو كانت جزيرة من الجزر[٤] أو شبه جزيرة اذا تحرينا الدقة فى استخدام هذا المصطلح الجغرافى.

وتقع صور جنوبى مدينة صيدا، وتبعد عنها بنحو أربعين كيلو مترا، وكلتا المدينتان تقع فى سهل ساحلى شديد الخصوبة، وافر المياه، وان كان ضيقا ينحصر بين السفوح الغربية لجبال لبنان الجنوبية وبين البحر حيث يصل اتساعه الى ميلين[٥]، ورغم ضيق هذا السهل إلا أنه كان يمتد من صور نفسها، وإلى مسافات بعيدة مما أتاح الفرصة لأهالى صور فى العصور المختلفة أن يتزودوا بوفرة المحاصيل الزراعية[٦]، وهو ما ميزهم عن غيرهم من أهالى المدن الأخرى بثرائهم العريض[٧]. وتزخر أرض صور بعيون وينابيع وصهاريج جوفية وآبار من أشهرها عين الماء الواقعة عند مدخل بابها البرى، وكان يتم النزول اليها من خلال ادراج، هذا بخلاف الآبار والجبال المنتشرة داخل نطاقها حيث كانت لا تخلو دار منها[٨].

ويصف وليم الصورى هذه الينابيع والجداول بأنها كانت موجودة فى الأجزاء السهلية المنخفضة من المدينة ولكنها لا ترتفع الى قمم الجبال، ولذلك أقيمت بصور

أبنية حجرية أشبه ما تكون بجسور المياه الهدف منها رفع المياه حتى ارتفاع يصل إلى عشرة أقدام مما ساعد المزارعين على رى المناطق المرتفعة، كما أقيم خزان ضخم تتجمع أمامه المياه، ثم توزع عن طريق قنوات الى الحقول والبساتين المزروعة بأشجار الفاكهة وقصب السكر[٩] تيسيرا لريها.

ويتضح لنا من وصف وليم الصورى، وجود مناطق جبلية بصور أشهرها منطقة جبل عامل أو «بلاد بشارة الجبلية»[١٠].

وفيما يتعلق بحدود جبل عامل فقد أتفق عليها فيما عدا الحد الجنوبى الذى أثار خلافا فى الرأى بين المؤرخين فقد أجمع المؤرخون على تحديد جبل عامل شرقا بواحة الحولة إلى نهر الغجر ووادى التيم، وشمالا بنهر الأولى المعروف قديما بنهر الفراديس الفاصل مجراه بين مقاطعتي الشوف وجزين بالقرب من صيدا، وغربا بالبحر المتوسط.

أما فيما يتعلق بحدود جبل عامل الجنوبية فقد انقسم المؤرخون بشأنها إلى فريقين، الفريق الأول ويترأسه الشيخ على السبيتى مؤرخ جبل عامل فى كتابه «الجوهر المجرد» يؤكد أن بلاد بشارة (أو جبل عامل) تقع إلى الجنوب الشرقى من صور وأن أكثر أهلها من المتاولة وقاعدتها تبنين وأن بها قلعة بناها هيو صاحب طبرية سنة ٤٩٩ هـ (١١٠٥م) ليتخذ منها مركزا عسكريا أماميا لغزو صور وما يليها، لأن صور لم تكن آنذاك قد سقطت بعد فى أيدى الصليبيين وذكر أن أهم القرى التابعة لبلاد بشارة هى بنت جبيل وحداثا والطيبة وقانا والزريرية، كما يؤكد أن مرج العيون كانت تتبع بلاد بشارة[١١]. وقد اعترض هذا الفريق من المؤرخين على الفريق الثانى الذى يتزعمه فانديك الذى يخرج صور عن بلاد بشارة.

ويرى الشيخ على السبيتى أن اخراج صور عن حدود بشارة اجراء باطل بل أن هذا الفريق يأخذ بالروايات التى تعتبر أن قرية زبقين فى قضاء صور كانت مركز امارة جبل عامل[١٢]. ويجمع عدد كبير من مؤرخى لبنان أن صور تدخل فى نطاق

جبل عامل أما صيدا فمشكوك في دخولها منطقة هذا الجبل[١٣].

وقد نتج عن اندماج صور بجبل عامل أو على الأقل قطاعات منها فى منطقته، نتائج هامة منها ازدياد أهمية موقعها الاستراتيجي بالنسبة لكل من الفريقين الاسلامى والصليبى، لأن جبل عامل اصبح بمثابة همزة الوصل بين بلاد الشام الوسطى والشمالية، وبين المناطق الجنوبية منها[١٤]. وعلى هذا النحو يمكن تفسير اسباب اهتمام الصليبيين بفتح صور عقب استيلائهم على بيت المقدس، ومحاولاتهم المتكررة للاستيلاء عليها فى عامى ٥٠١ هـ (١١٠٧م)، ٥٠٥ هـ (١١١١م) إلى أن نجحت محاولتهم الثالثة فى عام ٥١٨ هـ (١١٢٤م)[١٥]، كما يفسر فى نفس الوقت مدى حرص القوى الاسلامية آنذاك سواء الفاطمية فى مصر أو السلجوقية فى دمشق، الحفاظ على صور من الوقوع فى أيدى الصليبيين لأن صور باتصالها بجبل عامل تصبح منفذا على كل الشام، وهذا يفسر أيضا استماتة صلاح الدين فى استرجاع صور عقب انتصاره فى حطين واسترداده لبيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧م).

كذلك أدى الارتباط بين صور وجبل عامل الى قيام صلة قوية ربطت بين دمشق من جهة ومدينة صور من جهة أخرى[١٦]، فقد اعتبرت صور بمثابة المنفذ البحرى الرئيسى لدمشق[١٧] مما جعل المسلمين يبذلون قصارى جهودهم للحفاظ على صور أطول فترة ممكنة ولهذا السبب تأخر سقوطها عن بقية مدن السواحل الشامية فيما عدا عسقلان التى سقطت سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣م) ومن المعروف أن طغتكين أتابك دمشق شارك فى الدفاع عن صور فى أيامها الأخيرة رغم تبعيتها للفاطميين لاحساسه بمدى الخطر الذى يتهدد دمشق إذا ما سقطت صور فى ايدى الصليبيين من جهة ولحرصة على الجهاد المقدس من جهه ثانية، وهو ما سنوضحه فى الصفحات التالية. .

ويقودنا الحديث عن الصلة القوية التى ربطت بين دمشق وميناء صور عبر

الجبال عامل الى الحديث عن الكورة التى كانت تتبعها صور، فقد كان الوضع الادارى لصور الاسلامية موضع خلاف فى المصادر العربية. فابن الفقيه ينقل رأيان فى كتابه «مختصر كتاب البلدان» فهو يذكر نقلا عن المدائنى أن سواحل دمشق كان بها ستة مدن هى صيدا وبيروت وطرابلس وعرقة وصور(١٨). ولكنه يؤكد فى موضع آخر من كتابه أن صور من كورة الأردن(١٩). كذلك يؤكد ابن خرداذبة فى المسالك والممالك هذا الرأى الأخير القائل بتبعية صورة لكورة الأردن(٢٠). ويذكر ابن حوقل مدينة صور فى سياق حديثه عن الأردن ومدنها(٢١). ومن المصادر العربية التى تحدد بوضوح انتماء صور إلى كورة الأردن اليعقوبى(٢٢) وابن شداد(٢٣) وياقوت الحموى(٢٤).

ويرى الدكتور نقولا زيادة أن صور كانت فى العصر البيزنطى فى تقسيم جستنيان عاصمة القسم الادارى الثالث من بلاد الشام وهو قسم «فينيقيا الساحلية» وكانت أهم مدن هذا القسم الادارى طرابلس وبيروت وصيدا وبطوليماوس «عكا». ولكنها بعد الفتح العربى ضمت مع عكا إلى الأردن حتى تضمن له منفذا بحريا(٢٥).

وإلى جانب اشتغال أهالى صور بالزراعة كما سبق أن أوضحنا، فإن نشاطهم الرئيسى كان يتركز فى التجارة، وهو ما اشتهروا به طوال العصور التاريخية مما ساعد على تكوين طبقة من الأعيان ذوى الثراء العريض فى هذه المدينة، وكان جلهم من التجار الذين حققوا أرباحا ومكاسبا لا حصر لها من خلال رحلاتهم التجارية الى معظم الأقاليم المطلة على حوض البحر المتوسط، وكان هؤلاء التجار يشتغلون فى العصر الاسلامى، وخاصة فى الفترة التى سبقت سقوطها فى أيدى الصليبيين مباشرة، بتجارة السكر الذى كانوا يستخلصونه من القصب الصورى أهم محاصيل صور الزراعية، وكذلك كان يصنع بصور نوع راق من الزجاج والفخار اشتهر وذاع صيته فى جميع أنحاء العالم(٢٦). وذاعت شهرة صور بنوع من الثيات الكتانية

القمص الخاص بها والذى تاجر فيها أهلها وحملوه الى الآفاق، فكانت المراكب بها لا تكف عن الحط والاقلاع حاملة(٢٧) هذه السلع النفيسة.

ومن الجدير بالذكر أن أهل صور ازداد ثراؤهم واكتظت المدينة بمن انتجعها من التجار الأغنياء عقب وصول الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام وما أعقبه من سقوط انطاكية وبيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ ومعظم موانى الشام الجنوبية فى أيدى الصليبيين، فكان تجار هذه المدن يلتمسون الأمان فى صور ولهذا كثر عدد سكانها فى الفترة من عام ٤٩٢ هـ (١٠٩٨م) وحتى سقوطها عام ٥١٨ هـ (١١٢٤م)(٢٨)، ونفسر اقبالهم عليها بهذه الصورة باعتقادهم أنها من الحصانة بحيث يمكنها الصمود أمام أى عدوان صليبى، وهذا يفسر السبب فى ازدهارها الاقتصادى خلال تلك الفترة(٢٩).

وفيما يتعلق بتحصينات مدينة صور فقد وصفتها لنا كل من المصادر العربية اللاتينية. ويتفق كل من الاصطخرى(٣٠) والمقدسى(٣١) وابن حوقل(٣٢) والادريسى(٣٣) وياقوت الحموى(٣٤) والحميرى(٣٥) على أن صور كانت من أمنع مدن الشام وأكثر ثغورها حصانة.

فقد أشار المقدسى وأسهب فى وصف تحصينات مدينة صور، فيذكر أنها كانت مزودة ببابين أحدهما فى البر والآخر فى البحر الذى يحيط بها من ثلاث جهات والقادم إلى صور من جهة البحر يدخل بين برجين، إلى ميناء المدينة الذى لم يكن له على حد وصف **الحميرى** مثيل فى المدن البحرية. ويواصل **الحميرى** وصفه لصور فيذكر أن سور المدينة كان يحيط بها من ثلاثة جوانب فى حين يحدق بها من الجانب الرابع جدار معقود بالجص. وتحدث عن السلسلة المنصوبة على مينائها ما بين البرجين ويذكر أن الهدف من تثبيتها منع الداخل والخارج، فلا مجال لمرور السفن وقت شدها. وبالإضافة إلى السلسلة فقد كان يحرس أبواب

المدينة حراس أمناء يقفون دائما على الأبواب لمنع الداخل والخارج إلا بإذنهم. وتنفرد عكا من بين مدن الشام فى تشابهها بمدينة صور فى المنعة والحصانة وإن كانت مدينة صور تفوقها(٣٧) مساحة واتساعا.

أما وليم الصورى فيفصل فى وصف هذه التحصينات، فيذكر أنها كانت محاطة عند الساحل بسور مزدوج وأبراج عظيمة الارتفاع منفصلة عن بعضها البعض بمسافات متساوية، وكانت مزودة من جهة الشرق بسور ثلاثى مزود بأبراج ضخمة شديدة الارتفاع ومتقاربة فيما بينها إلى حد أنها كانت تكاد تتلامس فى بعض الأحيان. كما كان يدور بها خندق واسع كان الأهالى يستطيعون الخروج منه الى البحر بسهولة من كلا الجانبين. أما مدخلها الشمالى فكان يدعمه برجان ويؤدى هذا المدخل إلى الميناء الداخلى الواقع داخل أسوار المدينة، وقد اكتسب هذا الموقع الجغرافى المتميز بين الجزيرة والبر نوعا من الحماية من الرياح والحصانة من أى عدوان بحرى(٣٨). وتشبه آنا كومنينا تحصينات صور التى تحيط بها بالسوار حول المعصم مما جعلها تصمد طويلا أمام الحصار الصليبى(٣٩). وبالاضافة الى تلك التحصينات، كان لصور دار صناعة بحرية ذكر اليعقوبى أنه كان يخرج منها مراكب السلطان لغزو الروم(٤٠). وقد أورد ذكرها كل من ابن خرداذبة(٤١) وابن شداد(٤٢) والحميرى(٤٣).

ويتضح لنا بعد عرض الأوضاع الجغرافية والاستراتيجية لمدينة صور مدى أهميتها كثغر من ثغور الاسلام فقد برزت أهميتها فى العصر الفاطمى كقاعدة بحرية هامة بالاضافة الى عكا، وستصبح من أعظم القواعد البحرية الفاطمية، وسنشهد فى الصفحات القادمة كيف كانت صور القاعدة البحرية التى تبحر منها السفن الفاطمية للدفاع عن مدن الشام(٤٤) الساحلية التى تحاصرها أساطيل الفرنج، فكانت لذلك مصدر ازعاج للصليبيين بحيث أنهم أكثروا من انشاء الحصون الداخلية لمواجهة نشاط صور البحرى مثل حصن تبنين Toron الذى شيد سنة

٤٩٩ هـ (١١٠٥م). كذلك أسس الصليبيون سنة ٥٠١هـ (١١٠٧م) حصنا على تل المعشوقة[٤٥]، وقلعة سكانداليون Scandalion أو أسد الحقل، التي كانت تقع على بعد خمسة أميال من صور فى الطريق الى عكا وفى الموضع الذى يأخذ فيه الطريق الساحلى الجانب الصخرى شديد الانحدار إلى الدرب المعروف بسلالم صور[٤٦]. وقد شيد بلدوين الأول هذا الحصن فى سنة ٥١١ هـ (١١١٧م) وكان قد شيد قبل ذلك بنحو عامين حصن منتريال عبر الأردن للتحكم فى طرق القوافل[٤٧]. ولهذا أصبح لزاما علينا عند تعرضنا للوضع الاستراتيجى لمدينة صور فى الفترة ما بين انطلاق الصليبيين فى الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق الأدنى الإسلامى واستيلائهم على انطاكية سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٨م) وبيت المقدس فى نفس العام، وبين سقوط صور سنة ٥١٨هـ (١١٢٤م)، الاشارة الى أن تلك القلاع أصبحت تشكل مراكز ارتكاز صليبية تنطلق منها الاعتداءات على هذه المدينة التى استمرت فى أيدى الفاطميين بعد سقوط بيت المقدس نحو ربع قرن من الزمان. ولولا حصانة صور ومناعتها الطبيعية لتمكنت الضربات الصليبية المتواصلة التى كانت توجه من تلك القلاع المؤسسة خصيصا لتطويق صور والحد من مقاومتها، لولا هذه الحصانة الطبيعية لكانت صور قد سقطت قبل عام ٥١٨ هـ بما يزيد على ١٥ عاما، فقد اصبحت هذه القلاع الصليبية بمثابة شوكة فى ظهر صور الإسلامية ونقطة الضعف الرئيسية فى استراتيجية هذه المدينة الحصينة.

وعلى هذا النحو يمكن القول بأن هذه القلاع الصليبية انما أقيمت واتخذت منطلقا لشن الهجمات على المدن الساحلية التى لم تخضع بعد للسيطرة الصليبية وظلت تواصل مقاومتها وتصديها للاعتداءات المتكررة على نحو ما حدث فى صور وعسقلان، كما كانت هذه القلاع الصليبية خطوطا دفاعية أمامية أمام هجمات المسلمين، ولم يكن ذلك الدافع الوحيد وراء تشييد الصليبيين لهذه القلاع، فقد أرادوا كذلك السيطرة على المضايق والمعابر الاستراتيجية التى تربط السواحل الشامية التى كانت فى حوزتهم بداخل البلاد، فأقاموا لذلك الغرض الحصون والقلاع على

المرتفعات وسفوح جبال الغربية المشرفة على السواحل(٤٨). وأشهر هذه القلاع وأكثرها خطرا قلعة تبنين التى استهدف الصليبيون من انشائها تطويق صور والضغط عليها وشل مقاومة أهلها تماما، وبوجه عام فإن تاريخ بناء معظم قلاع جبل عامل يرجع الى القرن الثانى عشر الميلادى بينما يرجع تاريخ بعضها الى القرن الثالث عشر الميلادى (٦-٧هـ).

وقلعة تبنين Toron من انشاء النبيل الفرنسى هيو دى سان أومر Hogh de Saint Omer حاكم طبرية، أسسها فى عام ٤٩٩ هـ (١١٠٥م) على الطريق الذى يربط بين صور وبانياس(٤٩) ودمشق، وعلى بعد ١٣ ميلا شرقى صور، لتكون معقلا يرتكز عليه فى شن الهجمات على صور التى لم تكن قد سقطت بعد فى أيدى الصليبيين وكذلك على نواحيها. واختار هيو دى سان أومر لبنائها موقعا مرتفعا وبارزا فى جبل عامل أو الجليل، ليشرف على ما حوله من سهول وبطاح وآكام، وتتوسط الموقع بقعة زراعية تكثر فيها مزارع الكروم والغابات وقد ذاعت شهرة هذا الحصن وأصبح من أعظم المراكز الادارية العسكرية الصليبية إلى حد أن أطلق اسمه على الأسرة التى حكمته ومنها «هنفرى دى تورون» الذى أصبح فى سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤م) رئيسا لديوان الملك بلدوين الثالث. وكانت امارة تبنين تضم إلى جانب اقطاعها الخاص اقطاع هونين ومارون وقلعة صبيب وبانياس(٥٠).

أما قلعة تل معشوقة فتقع قريبا من صور بظاهرها وقد وصفها الرحالة ادوارد روبنصن أثناء مروره فى هذه المنطقة، وكانت مجرد أطلال وخرائب فى القرن العاشر الهجرى(٥١). واختار بلدوين ملك بيت المقدس موقعها ليبنى عليه القلعة وتم انشاؤه لها فى سنة ٥٠١ هـ(٥٢). ويذكر أحد الباحثين الحديثيين أن قلعة تل المعشوقة هى نفسها قلعة سكانداليون كما يذكر أن المصادر العربية أخطأت فى تحديد تاريخ انشائها بسنة ٥٠١ هـ (١١٠٨م) لأن فوشيه دى شارتر حدد تاريخ بنائها بسنة ٥١١ هـ(٥٣).

وفى تصورى أن قلعة تل المعشوقة هى قلعة أخرى غير قلعة سكانداليون التى

بنيت فى فترة متأخرة عن تل المعشوقة وفى المنطقة الواقعة ما بين صور وعكا.

(٢) الأوضاع السياسية للخلافتين الفاطمية والعباسية وبلاد الشام فى مطلع القرن الخامس الهجرى حتى مجئ الحملة الصليبية الأولى:

شهد الشرق الأدنى الأسلامى منذ قيام الدولة الفاطمية بمصر خلافتين، الخلافة العباسية السنية فى بغداد، والخلافة الفاطمية الاسماعيلية فى القاهرة[٥٤]. واقترن قيام الخلافة الفاطمية فى المغربين الأدنى والأوسط سنة ٢٩٨ هـ بالصراع التقليدى بينها وبين الأندلس السنية ولكن هذا الصراع لم يلبث بعد أن انتقلت الخلافة الفاطمية إلى القاهرة أن تحول الى صراع بين العباسيين والفاطميين واتسم بأنه كان صراعا مذهبيا، سياسيا واقتصاديا وعسكريا. فعلى الصعيدين العسكرى والسياسى[٥٥]. نجد أن الخلافة الفاطمية قد نجحت فى ضم جنوب بلاد الشام الى مصر منذ عام ٣٥٩ هـ (٩٧٠م) وحتى بداية خلافة الحاكم بأمر الله، ولكن الفاطميين فشلوا فى بسط نفوذهم على شمالى الشام بسبب موالاة الحمدانيين فى بداية العصر الفاطمى للبيزنطيين، ومناوأة البيزنطيين للدولة الفاطمية[٥٦].

وكان تطلع الفاطميين بأنظارهم إلى جنوبى الشام أمرا طبيعيا ومنطقيا تماما لا سيما بعد أن وطد الفاطميون سلطانهم فى مصر، وذلك لعدة اعتبارات منها أن الشام امتداد جغرافى طبيعى لمصر، ولذلك رأى الفاطميون أن ضمهم للشام تأمين لمصر فى آن واحد من الخطرين البيزنطى والعباسى ثم أن سيطرة الفاطميين على سواحل الشام وموانيه، يحقق لهم السيادة البحرية على البحر المتوسط عسكريا واقتصاديا، كما أن الشام كانت تمثل بالنسبة للفاطميين القاعدة الأمامية للوثوب على العباسيين.

ورغم نجاح الفاطميين فى بسط نفوذهم على جنوبى الشام، إلا أن الشام ظل منذ الفتح الفاطمى له وحتى انفصاله عن تبعيته للفاطميين مصدر قلاقل واضطرابات وفتن[٥٧] وثورات فأصبح يشكل مركز معارضة للفاطميين لأن معظم سكانه كانوا من السنة المعارضين لمذهب الدولة الفاطمية وكان ذلك من العوامل

التى أدت إلى ضعف سلطان الفاطميين عليه خاصة فى مدينة دمشق. كما ساعدت المؤامرات التى كانت تحكيها الدولة البيزنطية للفاطميين على اضطراب وضعهم السياسى فى الشام فى أواخر القرن الرابع الهجرى ومطلع القرن الخامس، ومن أمثلة ذلك تورط الامبراطور البيزنطى بسيل الثانى(٥٨) ٣٨٦ - ٤١٦ هـ/ ٩٩٦ - ١٠٢٥م) فى تأييده للملاح العلاقة الثائر فى مدينة صور سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧م) على الحكم الفاطمى.

لقد كانت ثورة العلاقة فى صور من أخطر الثورات التى واجهت الفاطميين وكانت دليلا دامغا على تواطؤ الدولة البيزنطية مع الثوار على الدولة الفاطمية مما يمثل عدوانا واضح المعالم عليها وتآمرا خطيرا يهدف إلى ازالتها. اشتعلت ثورة العلاقة فى عصر الحاكم بأمر الله فى سنة ٣٨٧هـ (٩٩٧م) عندما شق أهل صور عصا الطاعة على الحكم الفاطمى ونصبوا عليهم، ملاحا يدعى العلاقة. ثم وثبوا على ممثلى الدولة الفاطمية من المغاربة فى صور وقتلوا عددا كبيرا منهم، واتفق فى نفس الوقت أن نزلت الجيوش البيزنطية فى اعداد كبيرة على حصن أفامية(٥٩)، فاضطر جيش ابن الصمصامة،والى الشام من قبل الدولة الفاطمية إلى ارسال جيش كبير بقيادة ابى عبد الله الحسين بن ناصر الدولة، وياقوت الخادم، وانضم الى هذا الجيش عدد كبير من عبيد الشرا لمنازلة صور واخماد حركة العلاقة. وفى نفس الوقت كتب ابن الصمصامة إلى على ابن حيدرة والى طرابلس يأمره بالتوجه فى أسطوله إلى صور، وإلى ابن شيخ والى صيدا يأمره بالسير إلى صور. وعلى هذا النحو طوق الجيش الفاطمى صور من البر فى حين أحاط الاسطول بصور من البحر، مما دفع العلاقة الى الاستنجاد بالامبراطور بسيل الثانى، ولم يتردد هذا الأخير فى انجاده إذ كان يعتقد أن نصرته له ستؤدى حتما الى كسر شوكة الفاطميين فى بلاد الشام، فأنفذ إلى العلاقة عدة مراكب فى البحر مشحونة بالمقاتلة واشتبكت هذه المراكب مع سفن الاسطول الفاطمى فى معركة بحرية عنيفة أسفرت عن هزيمة البيزنطيين، وانتهى الأمر بسقوط صور فى أيدى الفاطميين، وامتنع العلاقة واتباعه

في بعض الأبراج، ولكنهم لم يلبثوا أن استسلموا بالأمان فقبض عليهم وسيقوا جميعا إلى القاهرة حيث شهر بهم ثم قتلوا ومثل بالعلاقة ابشع تمثيل(٦٠). وعقب هذه الأحداث قلد الحاكم بأمر الله أبا عبد الله الحسين بن حمدان(٦١) على صور. وتبع هذا الانتصار الفاطمي على الاسطول البيزنطى في مياه صور، انتصار آخر أحرزه الفاطميون عند أفامية، ومنى الجيش البيزنطى بقيادة دميانوس دالاسينوس Damianos Dalassenos الذى يسميه ابن القلانسى الدوقس، بهزيمة نكراء وضعت حدا لأطماع بيزنطية في شمال الشام، وبادر بسيل الثانى الى السعى لعقد صلح مع الفاطميين يتيح له التقاط الأنفاس ويمكنه من مواجهة الخطر البلغارى الجاثم على حدود دولته(٦٢). واتفق كل من الفاطميين والبيزنطيين على أن تكون مدة الهدنة عشرة سنوات. واستغل الفاطميون هذه الهدنة للقضاء على حركة بنى جراح الطائيين في فلسطين، وعلى نفوذ الحمدانيين في حلب، ولكن هذه السيطرة لم تستمر طويلا، فسرعان ما بدأ النفوذ الفاطمي في التراجع منذ طليعة القرن الخامس الهجرى، وبالذات في خلافة العزيز بالله الفاطمي (٤١١ – ٤٢٧ هـ / ١٠٢٠ م – ١٠٣٥م) فقد اتفق العرب على تقسيم الشام فيما بينهم فأصبحت الرملة من نصيب حسان بن مفرج بن الجراح، وطبرية من نصيب أخيه محمد، ودمشق من نصيب سنان بن عليان أمير الكلبيين، بينما تمكن بنو مرداس الكلابيين بزعامة أميرهم أسد الدولة ابى على بن صالح بن مرداس الكلابى (٤١٤ – ٤٢٠هـ/ ١٠٢٣ – ١٠٢٩م) من تأسيس امارة لهم في حلب في عام ٤١٧ هـ (١٠٢٦م)(٦٣) مما تسبب في انتشار الفوضى في شمال الشام واضعاف النفوذ الفاطمي هناك الأمر الذى دفع الوزير الفاطمي الجر جرائى، إلى ارسال القائد منتخب الدولة أنوشتكين الدزبرى أعظم القادة الفاطميين بالشام(٦٤)، بعد جعفر ابن فلاح الكتامى، لاستعادة النفوذ الفاطمي هناك، ونجح الدزبرى في انزال هزيمة ساحقة بالتحالف العربى السابق ذكره في موقعة الأقحوانة التى دارت على مقربة من طبرية سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩م) واسترد الفاطميون على أثرها دمشق من أميرها

سنان بن عليان الكلبى[٦٥]، كما أوقعوا هزيمة أخرى بشبل الدولة أبى كامل نصر ابن صالح المرداسى (٤٢٠ - ٤٢٩هـ) على نهر العاصمة قرب شيزر فى عام ٤٢٩ هـ (١٠٣٧م) انتزعوا على أثرها حلب من يد هذا الأمير، وبذلك تمكن الفاطميون من اعادة سيادتهم على الشام كلها بما فيها حلب ودمشق[٦٦].

ومنذ هذا التاريخ سنة ٤٢٩ هـ وحتى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩م) تناوب كل من الفاطميين والمرداسيين السيادة على حلب، إلى أن تم استقلال حلب تماما عن الدولة الفاطمية فى ١٨ شوال سنة ٤٦٢ هـ، وذلك عندما أعلن عز الدولة تاج الملوك محمود بن نصر بن صالح المرداسى (٤٥٧ - ٤٦٧ هـ / ١٠٦٤ - ١٠٧٤م) الدعوة للخليفة القائم بالله العباسى وقطع الخطبة للفاطميين فى عاصمته حلب[٦٧].

وسنتوقف قليلا عند هذه السنة ٤٦٢ هـ لنتابع ما كان يجرى من احداث على المسرح السياسى فى مصر آنذاك.

نعمت مصر فى النصف الأول من عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله باستقرار سياسى ورخاء اقتصادى لم تشهده من قبل، وكان نفوذ الدولة الفاطمية فى هذه الفترة، يظلل وسط الشام وجنوبه والحجاز وصقلية والمغربين الأدنى والأوسط[٦٨]، كما اعترف الصليحى الشيعى فى اليمن بسلطان الخليفة المستنصر بالله سنة ٤٥٥ هـ[٦٩] (١٠٦٣م). وبلغ من سطوة الخلافة الفاطمية وامتداد سلطانها أن أقام البساسيرى القائد العباسى[٧٠]، الخطبة للمستنصر على منابر بغداد، غير أن هذا الرخاء لم يدم طويلا إذا سرعان ما انقطع ماء النيل وأهملت الزراعة وانتشرت المجاعات والأوبئة، وعم القحط أنحاء البلاد، وتعرض المصريون لشدة فاقت كل تصور وهى ما عرفت فى التاريخ باسم الشدة[٧١] المستنصرية. وساعد على هذه الشدة اندلاع المعارك والحروب الداخلية بين العناصر المختلفة التى كان يتكون منها الجيش الفاطمى[٧٢]، مما زاد من تأزم الحالة فى مصر، وتعاقبت الوزارات بعد مصرع الوزير أبى محمد اليازورى[٧٣] الذى حاول عبثا اصلاح الأوضاع الاقتصادية فى

مصر (٤٥٩ هـ/ ١٠٦٦م) حتى كثر عدد الوزراء الذين تولوا الوزارة فى أمد قصير. ولم يستطع الخليفة أو الوزراء كبح جماح الجند الأتراك والمغاربة والسودان والعرب الذين قاموا بكثير من أعمال السلب والنهب والعنف والشدة. وانقطعت الأقوات من أسواق القاهرة وانعزلت عن سائر البلاد، وازداد ضغط الجند على الخليفة المستنصر الذى أفلت الزمام من يده فتركهم ينهبون قصوره ويبددون ما تحتويه من ذخائر وكتب، وانفصل الصعيد عن القاهرة بعد أن سيطر عليه الجند السودانيون وقلت الأقوات وارتفع ثمن الكلاب وزاد الجوع بالناس حتى اضطروا إلى اختطاف بعضهم من الطرقات مما دفع كثيرا من أصحاب النفوذ والأعيان إلى الرحيل عن مصر إلى الشام والعراق[٧٤]، وفرت أم المستنصر نفسها إلى بغداد هربا من الطاعون تجنبا لأعمال العنف التى يقوم به الجند والعامة[٧٥]، وأمام هذه الظروف بدأت الامبراطورية الكبيرة التى اسسها المعز لدين الله الفاطمى ووطد العزيز بالله أركانها تنهار، فسقطت صقلية فى يد روجار النورمندى وأعلن المعز بن باديس فى المغرب انفصاله سياسيا ومذهبيا عن الفاطميين كما خلعت الحجاز طاعته سنة ٤٦٢هـ.

أما الخلافة العباسية السنية فكانت تعانى هى الأخرى من الضعف فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى، مما مكن القائد أبا الحارث ارسلان البساسيرى من خلع الخليفة العباسى القائم بأمر الله والدعوة على منابر العراق باسم الخليفة المستنصر بالله الفاطمى كما سبقت الاشارة عام ٤٥٠هـ (١٠٥٨م) واضطر الخليفة العباسى أمام ذلك الى الاستنجاد بالسلاجقة السنيين[٧٦] لانقاذ الخلافة العباسية. وتمكن زعيمهم طغرلبك من القضاء على حركة البساسيرى. وكان ذلك من أهم الأسباب التى دفعت السلاجقة إلى السعى لانتزاع الشام من أيدى الفاطميين، وشجعتهم على ذلك الظروف السيئة التى كانت تعانى منها الخلافة الفاطمية، والضعف السياسى والاقتصادى الذى أصاب الكيان الفاطمى فى الداخل والخارج، وبادر السلاجقة بالعمل على استراجع هيبة الخلافة العباسية فى العالم

الاسلامى، ونستطيع أن نقرر أنه بدخول طغرلبك بغداد أصبحت أملاك الفاطميين فى الشام مهددة بالخطر السلجوقى. ولما كان السلاجقة من أهل السنة المتعصبين لسنيتهم، فقد وضعوا نصب أعينهم استئصال المذهب الشيعى والقضاء عليه، واعتبروا ذلك نوعا من أنواع الجهاد المقدس، ولذلك فقد أعلن طغرلبك فى أول مناسبة عن استعداده للسير إلى الشام ومصر للقضاء على الخليفة المستنصر العلوى[٧٧]، ولكن الموت المبكر لم يمهله لتحقيق ذلك فقد توفى فى عام ٤٥٥ هـ (١٠٦٣م) وخلفه ابن اخيه الب ارسلان (٤٥٥ - ٤٦٦هـ/ ١٠٦٣ - ١٠٧٢م) الذى حذا حذو عمه فى سياسته المعادية للفاطميين والتى تستهدف استرجاع النفوذ العباسى القديم، فبدأ خطته باخضاع الشام للنفوذ السلجوقى. ولم تكن تلك المهمة بالعسيرة على السلاجقة، إذ أن الشام كان يموج بالفتن والاضرابات. وبدأ خطر السلاجقة على الشام[٧٨] عندما أرسل ألب أرسلان سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩م) إلى أمير حلب محمود بن نصر بن صالح المرداسى المعروف بابن الروقلية يطلب منه اقامة الدعوة العباسية بدلا من الدعوة الفاطمية، فاستجاب لطلبه وقطع الخطبة للفاطميين كما سبق أن ذكرنا.

ولم يكتف ألب ارسلان بذلك فقد سار بقواته لحصار حلب[٧٩] سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١م) ويرجح بعض المؤرخين أن سبب تلك الحملة السلجوقية أن ابن الروقلية أعاد الدعوة للفاطميين، فلما أدرك مدى خطأه خرج مع والدته معتذرا لألب ارسلان الذى أقره على ولاية الشام[٨٠]. ثم زحف ألب أرسلان بقواته إلى آسيا الصغرى واشتبكت هذه القوات مع قوات البيزنطيين فى موقعة ملازكرد الشهيرة[٨١]، وأحرزت انتصارا ساحقا عليها. وكان من[٨٢] أشهر قادته أتسز بن ابعد الخوارزمى أو التركمانى المعروف بالأقسيس[٨٣]. ومنذ ذلك الحين بدأ نجم أتسز يتألق فى منطقة فلسطين، فقد قام باجتياح جنوب الشام ومدن الساحل الفاطمى. ففى عام ٤٦٣ هـ (١٠٧٠م) افتتح مدينة الرملة، كما حاصر مدينة بيت المقدس، وتمكن من الاستيلاء عليها وطرد منها الحامية الفاطمية، كما

استولى على مدينة طبرية فى نفس العام (٤٦٣ هـ)[٨٤].

وعلى الرغم من صمت المصادر العربية عن ذكر ما يشير إلى اجتياج أتسز للسواحل الشامية إلا أننا لا نستبعد محاولته الاستيلاء على بعضها وفى مقدمتها يافا التى فشل فى الاستيلاء عليها بسبب شدة مقاومة حاميتها الفاطمية[٨٥] وصمودها القوى. ولم يتبق أمام أتسز سوى دمشق التى أحكم عليها الحصار سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١م) وشن عليها سلسلة من الهجمات استمرت على مدى خمسة أعوام خرب خلالها الضياع وأحرق المحاصيل وأنسف المزارع مما أدى إلى ضعف أهلها ونشوب الصراع بين القوى الموجودة داخلها، فاضطر واليها الفاطمى المعلى بن حيدرة الى الفرار منها، فنصب الأهالى عليهم رجلا يدعى انتصار بن يحيى المصمودى، زعيم المصامدة، وكان يعرف برزين الدولة، ولكن الصراع لم يلبث أن احتدم بين المصامدة وأحداث المدينة مما زاد من ضعف المدينة وساعد على ذلك نفاذ الأقوات وانتشار المجاعة، فاضطر أهل دمشق إلى الاستسلام، وتم تسليم دمشق لأتسز فى سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٦م) بعد حصار دام خمس سنوات[٨٦]. وباستيلاء أتسز على دمشق فقدت الدولة الفاطمية فى مصر أهم معاقلها فى الشام، وتم اسقاط الدعوة الفاطمية من منابرها ودعى للخليفة العباسى المقتدى بأمر الله (٤٦٧ هـ - ٣٨٧ هـ/ ١٠٧٤ - ١٠٩٤م) وفقد الفاطميون سيادتهم على دمشق للأبد.

وكان سقوط دمشق فى أيدى السلاجقة بمثابة ضربة قاصمة للنفوذ الفاطمى على جنوب الشام نظرا لأهمية موقعها بين الموصل وبيت المقدس من الوجهة الاستراتيجية العسكرية ولموقعها المتميز على الطريق التجارى المتجه من الفرات الى مصر، ونتيجة لذلك أصبح السلاجقة يتحكمون فى سياسة الشام، وعلى الأخص فى القسم الجنوبى منها.

ولم يكن سقوط دمشق والمدن الداخلية فى أيدى السلاجقة الكارثة الوحيدة التى تعرضت لها الدولة الفاطمية، فقد أخذ نفوذهم فى التقلص والانحسار عن مدن الشام الساحلية أيضا، فقد بدأ ظهور أنماط من الكيانات السياسية التى يسميها

د. سهيل زكار بالجمهوريات[٨٧] المستقلة فى كل من طرابلس[٨٨]، وصور[٨٩]، ودانت هذه الدويلات أو الجمهوريات المستقلة بالطاعة للسلاجقة فى الوقت الذى سعى فيه أتسز الى انتزاع بقية مدن الساحل الشامى ومن بينها عكا التى كانت تابعة لبدر الجمالى، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل. وظلت عكا خاضعة للفاطميين حتى سقوطها فى ايدى الصليبيين سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٤م)[٩٠].

وعلى هذا النحو لم تكن صور بمعزل عن الأحداث الجارية بالشام فى القرن الخامس الهجرى، وإذا كانت مدن الشام خرجت عن طاعة الفاطميين، فإن مدينة صور لم تكن استثناء فقد نبذت بدورها تبعيتها للدولة الفاطمية، وسندخل فى تفاصيل أحداث صور السياسية فى هذه الفترة الزمنية الهامة فى النقطة التالية، عندما خضعت صور لبنى عقيل لفترة طويلة، ولم تتمكن مصر الفاطمية من استعادة نفوذها عليها إلا فى عام ٤٨٢ هـ.

وخلال الفترة التى شغلت فيها صور بحوادثها الداخلية كانت الأحداث السياسية فى بقية مدن الشام تتطور سريعا، فبالنسبة لدمشق نجد أن أمير الجيوش بدر الجمالى لم يتركها، غنيمة باردة لأتسز فلم يلبث أن توجه لحصارها، وعندئذ أرسل أتسز إلى تاج الدولة أبو سعيد تتش بن ألب أرسلان، يستنجد به فأنجده وسار إليه بنفسه، فقد كان أخوه السلطان ملكشاه قد أقطعه الشام وما يفتحه فى تلك النواحى سنة ٤٧٠هـ (١٠٧٧/ ١٠٧٨م)، ولما سمع الفاطميون بقدوم تتش لانجاد أتسز التركمانى فى دمشق أنسحبوا بقواتهم، وخرج أتسز للقاء تتش ويبدو أنه أبطأ فى خروجه للقائه بعض الوقت واعتبر تتش تأخيره فى لقائه اهانة له، فعاتبه على ذلك، وعلى الرغم من اعتذار اتسز له بمبررات، فإن تتش لم يقبل منه اعتذاره وأمر بالقبض عليه فى الحال وقتله، وهكذا آلت دمشق سنة ٤٧١ / ٤٧٢ هـ إلى تتش السلجوقى[٩١] بعد أن تخلص من أتسز. ويرى بعض المؤرخين أن سبب مقتل أتسز كما أ. ‍نه بعض المصادر العربية كان حجة واهية وان قتله كان متفقا عليه مسبقا بين كل من ملكشاه وتاج الدولة تتش خاصة بعد محاولة أتسز الفاشلة لفتح مصر

سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٣م) وما ترتب على ذلك من اندلاع نار الثورة داخل مناطق نفوذ السلاجقة، وخروجها عن طاعتهم وما يتبع ذلك من قسوة أتسز فى اخماد تلك الثورات إلى حد تورطه فى ارتكاب مذابح دموية بشعة خاصة فى بيت المقدس[٩٢].

وعقب اغتيال أتسز خرج تتش بقواته الى بيت المقدس وحاصرها وتمكن من انتزاعها من ايدى نواب أتسز فى عام ٤٧٤ هـ (١٠٨١م) وأقطعها للأمير أرتق بن أكسب التركمانى، الذى أسس بها إمارة الأراتقة الشامية منذ سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦م)[٩٣].

أما مدن الساحل الشامى فقد بادرت بدفع اتاوة لتتش عند اقترابه منها[٩٤]، ولكن صور كانت لا تزال تحت سيادة بنى عقيل الخارجين على الدولة الفاطمية، ثم تحرك تتش بعد أن، وطد سلطانه فى دمشق وأعمال فلسطين إلى بانياس[٩٥] فاستردها فى عام ٤٧٥ هـ (١٠٨٢م) ولم يستطع أمير الجيوش بدر الجمالى أن يفعل شيئا أمام نشاط تتش العسكرى، إذا كان مشغولا بالقضاء على ثورة ابنه الأكبر الأوحد فى الاسكندرية سنة ٤٧٧ هـ (١٠٨٤م) بالاضافة الى الاضطرابات التى أثارها عرب قيس وسليم وفزاره على حدود برقة مما صرفه عن النظر فى شؤون الشام لاقرار الأوضاع السياسية فى مصر.

وقد شجعت تلك الظروف تاج الدولة تتش على أن يتوجه إلى الشام فى محاولة لاستعادة حلب ونجح فى ذلك فى عام ٤٧٨ هـ فى قول[٩٦] وفى سنة ٤٧٩ هـ[٩٧] فى قول آخر، ولكن السلطان ملكشاه الذى بدأ يخشى من نفوذ أخيه تتش، قرر اقطاعها الى قسيم الدولة[٩٨] أق سنقر بعد أن هزم أخاه تتش فى معركة دارت بينهما.

ومن الواضح أن انتصارات تتش فى الشام أثارت مخاوف أخيه السلطان ملكشاه، وبدأ السلاجقة ينقسمون على أنفسهم، وتفتت قوتهم، مما جعل بدر الجمالى

الذى كان يراقب بحرص وحذر حوادث بلاد الشام، يفكر فى انتهاز فرصة اشتعال تلك الخلافات السلجوقية لاستعادة النفوذ الفاطمى عليها، وبدأت المحاولات الفاطمية بارسال حملة برية بقيادة ناصر الدولة الجيوشى، يساندها اسطول فاطمى ضخم لاستنزال بنى عقيل فى صور كما سنوضح بالتفصيل فيما بعد، ونجح بدر الجمالى فى استرجاع النفوذ الفاطمى عليها. كذلك تمكنت حملة ناصر الدولة الجيوشى من استرجاع صيدا وعكا وجبيل وبيروت واستولت على ذخائر تتش بتلك(٩٩) المدن الساحلية كما استعادت الحملة الفاطمية مدينة حمص سنة ٤٨٣ هـ(١٠٠)، وقضت على ثورة ابن معروف فى عسقلان، واستعادت المدينة. وكان لافتقار السلاجقة لأسطول بحرى أكبر الأثر فى نجاح الفاطميين فى استعادة السيطرة على مدن الساحل الشامى بفضل قوتهم البحرية، وازاء تلك الانتصارات الفاطمية حاول السلاجقة توحيد جهودهم لمواجهة خصومهم، فتجمعت القوات السلجوقية، وتمكنت من استعادة مدينة عرقة، وكذلك استولت على أفامية سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩١م)(١٠١). ولكن الحلف السلجوقى لم يلبث أن انهار عند اقدامهم على حصار طرابلس وفشل السلاجقة فى انتزاعها من يد صاحبها ابن عمار.

وفى عام ٤٨٦ هـ (١٠٩٣م) تجددت الثورة فى مدينة صور بتحريض من تتش بن ألب أرسلان ولكن بدر الجمالى بادر بإرسال جيوشه لاخمادها، وتمكن بالفعل من قمعها كما سنوضح بمزيد من التفصيل فى الصفحات التالية(١٠٢).

وتوفى بدر الجمالى فى عام ٤٨٧ هـ (١٠٩٤م) وقد اقتصر النفوذ المصرى فى بلاد الشام على الشريط الساحلى الممتد من عسقلان جنوبا حتى طرابلس شمالا، فى الوقت الذى دب فيه الخلاف من جديد بين أمراء السلاجقة، فقد نشب نزاع بين تتش وابن أخيه بركيا روق بن ملكشاه (٤٨٥ – ٤٩٨هـ/ ١٠٩٢ – ١١٠٤م) سنة ٤٨٦ هـ، وقد أدى هذا الخلاف إلى صراع مسلح

بينهمـا، واسفرت هذه الحرب التى اندلعت سنة ٤٨٨ هـ بين الأخوين، عن انكسار تتش ومصرعه فى المعركة، تاركاولدين هما فخر الملوك رضوان الذى استقل بمملكة حلب، وشمس الملوك أبو نصر دقاق الذى استقل بمملكة دمشق[١٠٣]. أما رضوان فقد توفى سنة ٥٠٧ هـ بينما توفى دقاق فى سنة ٤٩٧ هـ[١٠٤]، وخلف دقاق على دمشق ظهير الدين أبو منصور طغتكين، وكان أتابكه[١٠٥].

ولم تلبث الثورات أن تجددت ضد الفاطميين فى المدن الساحلية وعقب وفاة بدر الجمالى، فقد ثارت صور للمرة الثالثة بزعامة الكتيلة سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦م)[١٠٦] الذى كان يتولاها من قبل الفاطميين، وكذلك اندلعت الثورة فى صيدا ولم يتردد الأفضل فى مواجهة تلك الثورات وتمكن من اعادة السيطرة الفاطمية عليهما. وفى خضم هذه الأحداث بدأت طلائع الحملة الصليبية الأولى تظهر فى الأفق وبدأت جحافلهم تصل الى مشارف بلاد الشام، وقد انتهز هذا العدو القادم من كل أقطار أوروبا، طمعا فى ثروات المشرق الاسلامى، اضطراب الأحوال والأوضاع السيئة التى كان يعيشها العالم الاسلامى الذى كانت تحكمه خلافتان متعاديتان فى بغداد والقاهرة، واستحكمت بينهما الصراعات الدموية وطحنتهما الحروب والمعارك، واختلطت عليهما الأمور. ففقدتا البصيرة فى التضامن أمام الخطر المشترك والذب عن الاسلام واقتصر اهتمامهما على المصلحة الفردية فى سيطرة كل منهما[١٠٧] على أراضى الآخر.

ونختتم هذه المرحلة بتعليق للمؤرخ **هولت** على الأحوال السياسية المتدهورة للعالم الاسلامى وقت وصول الحملة الصليبية الأولى بقوله «عندما تقدمت الحملة الصليبية الأولى نحو سوريا فى خريف سنة ١٠٩٧، كان المشاركون فيها يتقدمون نحو منطقة تمزقت أراضيها إلى أجزاء صغيرة، وكان حكام هذه البلاد ضيقى الأفق، تعوزهم الخبرة السياسية، وكان يحرك هؤلاء الملوك المتفرقين (اسماهم ملوك

الطوائف Petty Princes) قوتان رئيسيتان، الأتراك السلاجقة، والدولة الفاطمية، وكلاهما كان[١٠٨] فى مرحلة انهيار...».

(٣) الأحداث السياسية فى مدينة صور منذ منتصف القرن الخامس الهجرى وحتى وصول الحملة الصليبية الأولى:

بعد هذا العرض السريع للوضع السياسى السيئ الذى كانت عليه بلاد الشام منذ طليعة القرن الخامس الهجرى وحتى وصول الصليبيين، من تنافس حقير بين الخلافتين العباسية فى بغداد والفاطمية فى مصر، وحركات استقلالية وانتزاءات فى بعض المدن الساحلية الشامية مثل مدينة صور وطرابلس وعسقلان، ويجدربنا أن نصور بالتفصيل وضع مدينة صور السياسى، موضوع البحث منذ منتصف القرن الخامس الهجرى حتى دخول الصليبيين مسرح الأحداث.

وقبل أن نشرع فى هذه الدراسة التفصيلية علينا أن نشير إلى بعض الملامح السياسية لصور منذ أواخر القرن الرابع الهجرى ومطلع القرن الخامس.

تميزت صور فى هذه الفترة بأن معظم أهلها من الشيعة[١٠٩]، وكانت منذ بواكير الفتح الفاطمى للشام، وأثناء الصراع بينهم وبين القرامطة، مركزا بحريا فاطميا وقاعدة تخرج منها الحملات الفاطمية الموجهة لبسط النفوذ الفاطمى على القواعد التى خرجت عن طاعة الدولة. ومن أمثلة ذلك الحملة البحرية الفاطمية التى تمكنت فى أواخر سنة ٣٦١ هـ من استرداد يافا، ومنذ هذا التاريخ لم تتوقف السفن الحربية الفاطمية عن الإقلاع من تنيس ودمياط والاسكندرية الى صور وطرابلس لحفظ حصون الشام والدفاع عنها[١١٠]. وظلت صور موالية للفاطميين إبان هذا الصراع، وكانت تمثل الملاذ الآمن للقوات الفاطمية فى حالة انهزامها وتراجعها، وخط رجعة ونقطة ارتكاز عسكرية، فعندما هاجم افتكين التركى مدينة صيدا سنة ٣٦٥ هـ، وأنزل الهزيمة بقوات ابن الشيخ وفيهم ظالم بن موهوب

العقيلى[١١١]، وأخذتهم سيوف الأتراك، فر ظالم بن موهوب إلى مدينة صور[١١٢].

وفى سنة ٣٨١ هـ ولى الفاطميون بزعامة القائد منجوتكين، الأمير هارون الأرسلانى، على صور التى ظلت موالية للفاطميين[١١٣]. وفى عام ٣٨٨ هـ (٩٩٨م) تولى صور من قبل الفاطميين أبو الحارث فحل بن اسماعيل بن تميم ابن فحل الكتامى[١١٤].

وفى عام ٤٠٥ هـ (١٠١٤م) منح الحاكم بأمر الله مدينتى صور وصيدا اقطاعا للفتح القلعى، مولى مرتضى الدولة أبى نصر منصور بن لؤلؤ صاحب حلب، عوضا عن حلب، وفى العام التالى ٤٠٦ هـ (١٠١٥م) أسند الفتح القلعى الملقب بمبارك الدولة وسعدها، ولاية صيدا وصور وبيروت لمرتضى الدولة بعد أن أخرجه من حلب وسلمها لسديد الدولة أبى الحسن على وفى رجب سنة ٤٠٦ هـ - [١١٥] وفى سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٤م) أبحرت المراكب الحربية الفاطمية إلى صور وطرابلس واتخذت منها قاعدتين بحريتين بهدف التدخل السريع للحفاظ على النفوذ الفاطمى على بلاد الشام (١١٥ ب).

ومن الملاحظ أن صور كانت من بين مدن الشام القليلة التى حافظت على ولائها للفاطميين بل أنها أصبحت ملاذا يلجأ إليه المنهزمون من قادة الفاطميين أو معتقلا لخصوم الدولة الفاطمية. ومن أمثلة ذلك اقدام والى دمشق الجديد، بهاء الدولة مظفر الخادم الصقلبى على اعتقال أميرها ناصر الدولة بن حمدان وحمله إلى صور[١١٦] حيث أقام فترة ثم نقل إلى الرملة كذلك قبض مظفر الخادم بدمشق على راشد بن سنان بن عليان أمير بنى كلاب واعتقله بصور[١١٧] كما اعتقل

معهما في صور أمير الغرب التنوخي «شجاع الدولة عمر بن عيسى» وصودر كما نفى المستنصر بالله الفاطمي وزيره الجرجرائي إلى صور في سنة ٤٤١ هـ[١١٨]، ثم أفرج عنه سنة ٤٥٦ هـ، واستدعاه المستنصر بالله من صور الى مصر فقدم اليها وولي الوزارة في رجب من نفس العام[١١٩].

كما أرسل إلى صور محمد الماسكي أحد وزراء المستنصر بالله سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢م) معزولا من الوزارة وأقام بصور عدة سنين، ثم رجع الى مصر حيث عمل مشارفا على اعمال متولي الديون بالاسكندرية[١٢٠]. وفي سنة ٤٥٨ هـ ١٠٦٥م) تولي بدر الجمالي صور والشام بأسره[١٢١]. وكما لاذ ظالم بن موهوب العقيلي بصور سنة ٣٦٥ هـ بعد هزيمته مع والي صيدا من قبل الفاطميين على يد افتكين التركي، لاذ بها أيضا المعلي بن حيدرة والي دمشق من قبل الخليفة المستنصر بالله سنة ٣٦٨ هـ (١٠٧٥)[١٢٢]، وبعد استيلاء أتسز عليها كما سبق أن ذكرنا، ولكن صور كانت في هذه الفترة دويلة مستقلة عن الدولة الفاطمية يتولاها بنو عقيل، وسوف يحمل معلي بن حيدرة من صور إلى مصر حيث يسجن حتى نهاية عمره.

وأيا ما كان الأمر فإننا نرجح أن السبب في بقاء صور على ولائها للفاطميين منذ ظهور الفاطميين الأول مرة في بلاد الشام في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، واستمرارها في أداء دورها كقاعدة بحرية فاطمية وملاذا آمنا للقادة الفاطميين ومعتقلا سياسيا لخصوم الدولة الفاطمية، أنما يرجع الى اشتراك أهل صور مع الفاطميين في المذهب الشيعي. وإذا كانت صور قد حافظت على ولائها للفاطميين في الفترة الواقعة ما بين النصف الثاني من القرن الرابع الهجري وحتى منتصف القرن الخامس الهجري، فإننا نلاحظ أنها بدأت بعد هذا التاريخ تتأثر بالتيارات السياسية المحيطة بها، فقد جنح أهلها الى الاستقلال اقتداء بغيرهم من أهالي المدن التي تمردت على السلطات الفاطمية في النصف الثاني من القرن

الخامس الهجرى، خاصة بعد تدهور الأوضاع الداخلية فى مصر الفاطمية كما سبق أن ذكرنا. ويذكر الدكتور السيد عبد الغزيز سالم أن سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩) كانت سنة مشئومة على الفاطميين فقد حلت بهم فى هذه السنة العديد من النكبات اذ اعلنت دمشق وصور وأكثر مدن فلسطين استقلالها فى هذا التاريخ(١٢٣). فقد ثار بصور قاضيها عين الدولة أبو الحسن ابن ابى عقيل سنة ٤٦٢ هـ، واستمرت هذه الثورة عشرين عاما إلى أن تمكن بدر الجمالى من القضاء على هذه الأسرة واسترجاع صور من سنة ٤٨٢ هـ (١٠٨٩م).

وتتفق معظم المصادر العربيةعلى أن ابن عقيل قد بدأ ثورته فى سنة ٤٦٢ هـ(١٢٤). فى حين انفرد ابن شداد بذكر خبر مفاده أن ثورة عين الدولة ابن عقيل قاضى صور، على الخليفة المستنصر الفاطمى كانت فى سنة ٤٥٥ هـ(١٢٥).

ولاتفصح المصادر التاريخية عن الأصول القبلية التى انحدر منها بنو ابى عقيل كما أننا لا نعرف شيئاً عن «أبى عقيل» الجد الأعلى لهذه الأسرة، وإن كان كل ما وصلنا من خلال المصادر العربية يؤكد أن هذه الأسرة العريقة التى برز أفرادها فى مجال القضاء تعتبر من أشهر البيوتات الشامية.

وآخر من عرفنا أسماءهم من ولاة صور قبل أسرة بنى ابى عقيل هو «ابو عبد الله الحسين بن ناصر الدولة بن حمدان» الذى برز اسمه من بين اسماء القادة الذين اخمدوا ثورة العلاقة سنة ٣٨٧هـ هناك كما سبق أن أشرنا اذ يذكر ابن شداد أن الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ندبه إلى أهالى صور هو وياقوت الخادم وجماعة من عبيد الشرا لمنازلة العلاقة، وقد تولى الحسين بن ناصر الدولة أمر المدينةبعد مقتل هذا الثائر(١٢٦)، ويبدو أن ولده ابو محمد الحسن بن الحسين الحمدانى قد تولى على صور بعد وفاته طبقاً لما ورد فى المقفى الكبير ثم انتقل الى دمشق سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤٢م)(١٢٧).

وأهم ما وصلنا من أخبار عن عين الدولة على بن عياض بن أبى عقيل قاضى صور، الخبر الذى أورده ناصرخسرو علوى عند زيارته للمدينة سنة ٤٣٨هـ (١٠٤٧م)[١٢٨]. كذلك الخبر الذى أشار اليه المقريزى فى حوادث سنة ٤٤٢ هـ (١٠٥١م) ويذكر فيه أن قاضى صور هو «على بن عياض» وأنه هو الذى سعى فى الصلح بين الخليفة المستنصر بالله الفاطمى وثمال بن صالح صاحب حلب ونظراً لاخلاصه فى خدمة الدولة الفاطمية فقد منح لقب[١٢٩] «عين الدولة» وكرر المقريزى الاشارة اليه فى أخبار سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦٠م) عندما اختير على بن عياض للوساطة بين الوزير الفاطمى اليازورى وثمال بن صالح فى حلب ونجح القاضى على ابن عياض فى مهمته، فقد سلم ثمال بن صالح عقب هذه الوساطة حلب لمكين الدولة الحسن بن على الوالى الفاطمى[١٣٠].

كما أورد داعى الدعاة هبة الله الشيرازى فى حوادث سنة ٤٤٨ هـ (١٠٧٥م) مايؤكد فيه أن صاحب صور هو القاضى على بن عياض[١٣١].

هذا إلى جانب نص أورده «ابن العديم الحلبى» يجمع فيه بين «على بن عياض» وابنه «عبد الله» وهذا النص يوضح منصب كل منهما إذ يصف علياً بأنه صاحب صور وقاضيها، وعبد الله بأنه قاضى صور[١٣٢]. وهذا النص يتماشى مع ما ذكره المقريزى عندما وصف على بن عياض بقوله «وندب لذلك رجلاً من أهل صور له بها رئاسة ووجاهة يقال له عين الدولة على بن عياض، قاضى صورفساس الأمر[١٣٣] وأحكم التدبير..» ونستنتج من هذه النصوص أن كل من على وابنه عبد الله كان يحمل لقب القضاء وهى رتبة دينية مرموقة فى الدولة الفاطمية وأن عليا كان يجمع بين الرئاسة والقضاء فهو رئيس صور أو صاحبها وقاضيها معاً، أما ابنه عبد الله فكان يعاونه فى حكم صور[١٣٤].

وفى سنة ٤٤٨ هـ (١٠٧٥م) شارك عين الدولة بن عقيل مشاركة فعالة فى احداث بلاد الشام وذلك عندما تعرضت طرابلس لحملة الأسطول البيزنطى، فطلب

قاضيها أمين الدولة بن عمار المساعدة من عين الدولة فأنجده بقوات كثيرة من البر والبحر مما يدل على حسن العلاقة بن بنى عمار وبنى ابى عقيل كما يدل على قدرة صور فى ذلك الوقت على أن ترسل قوات كبيرة فى البر والبحر لمساعدة طرابلس مع أن صيدا وبيروت أقرب إلى طرابلس منها(١٣٥).

أما «أبو محمد عبد الله بن على بن عياض» فيتضح من سيرة ابيه أنه كان مساعداً له فى حكم صور وهو قاضيها(١٣٦)، وكان يتلقب بعين الدولة شأنه فى ذلك شأن والده، وكان قد توجه مع والده على بن عياض إلى صيدا للصلاة على قاضيها ابى مسعود صالح بن أحمد الميانجى الذى توفى فى ١٩ من شهر ربيع الأول سنة ٤٢٩ هـ(١٣٧)، وقد وصفه ابن تغرى بردى بأنه كان رجلاً نبيلاً جليلا، كما يُذكر أنه تولى القضاء بصور، وسمع الكثير وقد خرج له أبو بكر الخطيب فوائد فى أربعة أجزاء وقرأها عليه بصور. وتوفى أبو محمد فجأة فى الزيب فى شوال من عام ٤٥٠ هـ، أى أنه توفى فى حياة أبيه على ابن عياض(١٣٨).

وقد خلفه ابنه المكنى بأبى الحسن وهو الذى ثار على الفاطميين بصور. وفى حين تتفق المصادر العربية على كنيته فهى تختلف فيما بينها على اسمه فابن حجر العسقلانى يسميه «القاضى الناصح ثقة الثقات عين الدولة أبو الحسن محمد بن عبد الله بن عياض بن ابن عقيل»(١٣٩)، أما المقريزى فيسميه بأبى الحسن على الملقب بالناصح ذى الرئاستين فى أحد مواضع كتابه اتعاظ الحنفا(١٤٠) وبأبى الحسن محمد الملقب بصمصام الدولة القاضى الأعز، الأجل، سند الحكام جلال الدولة وعمادها ذا المعالى صفى أمير المؤمنين القاضى الناصح ثقة الثقات عين الدولة فى موضع آخر من نفس الكتاب(١٤١). ويبدو من خلال تعدد هذه الألقاب أبن أبا الحسن بن أبى عقيل. قد نال حظوة ومكانة كبيرة، لدى الخليفة المُستنصر الفاطمى وذلك قبل أن يستقل بصور.

ويشير بعض المؤرخين إلى امتداد نفوذ أبى الحسن بن عقيل الى مدينة صيدا

فقد عيّن عليها قاضياً من أهل طرابلس هو محمد بن على بن محمد ابى الحسن الجمعى الأطرابلس كان ينوب عنه فى حكمها والقضاء بهاو كان سنى المذهب مثله، واستمر على ذلك الحال حتى وفاته سنة ٤٦٠ هـ ويمكن سرعان ما استعاد القائد الفاطمى مدينة صيدا(١٤٢) .

ولما اعلن القاضى عين الدولة أبو الحسن بن عقيل الثورة بصور على الحكم الفاطمى، بادر بدر الجمالى بالقضاء عليها، وكان المستنصر بالله قد فوض اليه فى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٥م) ولاية الشام كلها مثل (عكا وصيدا وصور) . وهذا يفسر مبادرة بدر الجمالى بمحاصرة صور فور سماعه بخبر هذه الثورة. وقد أحكم بدر الجمالى حصاره حول المدينة وارغم صاحبها ابن عقيل على الاستنجاد بالأمير قر لو مقدم الأتراك الواردين من العراق والمقيمين فى بعض نواحى الشام، فأجابه قرلو الى طلبه واسعفه وسار بعسكره منجداً له، ووصل إلى صيدا ونزل عليها فى ستة الاف فارس فى رأى(١٤٣) وفى اثنى عشر ألف فارس فى رأى آخر(١٤٤) .

وحاصرها حصاراً شديداً ليرغم بدر الجمالى على فك حصاره عن صور خشية ان تقع صيدا التى كانت حتى ذلك الحين من بين المدن القليلة التى لا تزال تحت قبضة الفاطميين، فى يد الأتراك الموالين للعباسيين. ومن الجدير بالذكر أن قرلو نجح فى خطته، فقد بادر بدر الجمالى برفع الحصارعن صور فور علمه وصول الأتراك الى صيدا، وشروعهم فى حصارها، وعلى هذا النحو ارغم بدر الجمالى على رفع الحصار عن صور مؤقتاً وهو ينوى أن يعود اليها بعد أن يرحل قرلو عن صيدا(١٤٥) .

ويذكر بعض المؤرخين ان بدر الجمالى تمكن أثناء حصاره لصور من استمالة بعض أهلها الى جانبه(١٤٦) .

وقبل أن نستطرد فى سرد بقية احداث ثورة القاضى ابن عقيل،يجدر بنا أن نعمق النظر إلى الأوضاع الداخلية فى صور، فهذه الثورة التى قام بها عين الدولة لم

تنبثق عن ميول استقلالية بقدر ما عبرت عن ميل هذا القاضى السنى إلى الأتراك السلاجقة وولائه للخلافة العباسية، مستنداً فى ثورته على محبة أهل صور له ولاسرته وتعلقه بهم لحسن سيرتهم وعلو مكانتهم. وقد سهل ذلك من التفافهم حوله وتأييده في نبذ الطاعة للفاطميين، والانضواء تحت لواء السلاجقة والعباسيين. ولكن على الرغم من هذا التأييد وهذه المساندة التى تلقاها القاضى ابن عقيل من أهل صور فقد انحازت جماهير من اهالى صور الشيعة إلى جانب الفاطميين وعليهم اعتمد بدر الجمالى اثناء حصاره الفاشل لصور. ومع ذلك فلم يشأ بدر الجمالى أن يخوض معركة يعلم انها خاسرة فقرر رفع الحصار عنها لفترة موقوته ثم عادلحصارها فى نفس، وضيق عليها الحصار هذه المرة براً وبحراً، واستمر يحاصرها حوالى عام كامل حصاراً شديداً أدى إلى انقطاع الوارد والصادر فعلت الأسعار لنفاذ الأقوات، ووصل ثمن رطل الخبز نصف دينار ولكن المدينة رغم قسوة الحصار وطول امده واصلت الصمود مما أدى إلى احساس الجمالى باليأس، فقرر رفع الحصار والرحيل عنها دون أن يحقق أمله فى الاستيلاء عليها.

واستمرت دولة بنى عقيل فى صور مدة عشرين عاما، تولاها خلالها ابناء القاضى ابى الحسن بن عبد الله بن على بن عياض بعد وفاته سنة ٤٦٥ هـ وعلى رأسهم ولده نفيس وأخواه الحسن وأبو البركات عبد الرحمن المعروف بالقاضى[١٤٧].

وفى عهد نفيس تعرضت صور لحمله قام بها «أتسز بن أوق الخوارزمى التركمانى» الذى كان قد ملك الرملة والقدس وحاصر يافا فهرب صاحبها رزين الدولة ومن كان فيها من أهلها إلى مدينة صور، فهدم أسوارها، ثم حاصر دمشق سنة ٤٦٣ هـ ودخلها فى أواخر سنة ٤٦٨ (١٠٧٦م) وقطع الخطبة للمستنصر. وبعد أن استقر له الأمر بدمشق خرج منها فى جمع عظيم قاصداً الساحل، فنازل طرابلس فى أوائل سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٧م) ولكن صاحبها جلال الملك ابن

عمار نجح في الدفاع عن المدينة فتحول أتسز إلى صور ونازلها ولما لم يتمكن من دخولها عقد مع صاحبها نفيس هدنة مشروطة بأن لا يسمح للغز بدخول صور فيبيعون ويشترون ولا يقيمون فيها(١٤٨).

ويبدو أن أبناء القاضي أبي الحسن بن عقيل لم يكن يتوفر لديهم من الصبر على المكاره والجلد الذي عرف به والدهم، ما يمكنهم من الصمود أمام الحصار الفاطمي، فعندما أحسوا بشدة الحصار ووطاته عليهم أعلنوا استسلامهم وتمكن بدر الجمالي من استرداد مدينة صور بعد نحو عشرين عاما من استقلال بني عقيل بها.

ولم تضع عودة صور إلى دائرة النفوذ الفاطمي حدا لمشاكلها، إذ سرعان ما تجددت الثورة في صور بعد استرجاع بدر الجمالي لها نحو أربع سنوات، ففي عام ٤٨٦هـ (١٠٩٣م) استقل بمدينة صور واليها منير الدولة الجيوشي، وهو الذي كان المستنصر بالله الفاطمي قد ولاه عليها(١٤٩)، فيما يقال فور استرجاعه لها سنة ٤٨٢هـ(١٥٠).

وعاودت الدولة الفاطمية مرة أخرى توجيه قواتها للقضاء على ثورة منير الدولة. وفي هذه المرة بادر أهلها بتسليم المدينة فور سماعهم بوصول القوات الفاطمية وتخلوا عن مساندة منير الدولة. وتختلف تفسيرات مؤرخي العرب حول موقف أهل صور السلبي من ثورة منير الدولة فكل من ابن ميسر والمقريزي يعلل ذلك الموقف بأن أهالي صور كانوا يخشون إذا ما قاتلوا مع منير الدولة الجيوشي أن ينتقم منهم الفاطميون فيبطشون بهم وأن تسليم مدينتهم(١٥١) انما كان نابعا من مخاوفهم من تنكيل الفاطميين بهم وليس عن حب وميل للدولة الفاطمية.

أما ابن القلانسي فينص صراحة على أن أهالي صور منذ البداية كانوا كارهين مخالفة منير الدولة لسلطانه أمير الجيوش، وبادروا بعصيانه واعلان شعار المستنصر بالله وفيما يلي نص رواية ابن القلانسي «وكان أهل صور أنكروا عصيانه وكرهوا خلفه

لسلطانه أمير الجيوش بدر، عرف ذلك من نياتهم فحين اشتد القتال عليها نادوا بشعار المستنصر أمير الجيوش[١٥٢].

وقد نقل عنه ابن الأثير ما يشير الى رفض أهل صور منذ البداية ثورة منير الدولة على الفاطميين وأنكروا عليه خروجه عن الطاعة ميلا منهم إلى الفاطميين، ويعبر عن ذلك بقوله «فعصى على المستنصر وأمير الجيوش، وامتنع بصور، فسيرت العساكر من مصر اليه، وكان أهل صور قد أنكروا على منير الدولة عصيانه على سلطانه، فلما وصل العسكر المصرى إلى صور وحصروها وقاتلوها، ثار أهلها ونادوا بشعار المستنصر وأمير الجيوش وسلموا البلد[١٥٣].

ونميل إلى الأخذ برواية كل من ابن القلانسي وابن الأثير استنادا إلى أن معظم أهل صور كانوا من الشيعة، وكان ذلك هو السبب فى موالاة صور الفاطمين وأنه إذا كانت قد وقعت بعض المحاولات الفردية للاستقلال عن الخلافة الفاطمية، فإن ذلك يرجع إلى ما كان يتمتع به بنو عقيل من علو المكانة فى مدينة صور علميا وسياسيا الأمر الذى جعل أهل صور الشيعة يتغاضون عن الاختلاف المذهبى ويدينون للسلاجقة السنة بالطاعة.

واقتحمت القوات الفاطمية المدينة فانتهبتها وقبضوا على منير الدولة وجماعة من اتباعه، وأرسلوا إلى أمير الجيوش بدر الجمالى، فقتلهم جميعا، كذلك أمر بدر الجمالى بفرض غرامة مالية ثقيلة قدرها ستون ألف دينار على أهل صور[١٥٤].

وفى سنة ٤٩٠هـ (١٠٩٦م) أعلن الكتيلة والى صور من قبل الفاطميين، نائب الأفضل شاهنشاه فيها، عصيانه للخليفة الفاطمى المستعلى بالله والخروج عن طاعته، فسير إليه الخليفة الفاطمى قوة من عساكر الفاطميين، حاصرت مدينة صور، وضيقت على أهلها ونجحت فى النهاية فى فتح المدينة عنوة بالسيف وقتلت

بها أعدادا كبيرة من الناس، ونهبت أموالهم وسيق الوالى أسيرا بغير أمان إلى مصر حيث قتل[١٥٥].

ويذكر بعض مؤرخى العصور الوسطى أمثال رينيه جروسيه والدكتور سعيد عاشور أن الأفضل شاهنشاه استرجع صور فى عام ٤٩٠/ ٤٩١ هـ (١٠٩٧م) من ايدى الأراتقة[١٥٦]. ويرجع الدكتور سعيد عاشور ذلك الخبر إلى ابن ميسر فى كتابه أخبار مصر، ويدرجه فى أحداث سنة ٤٩٠ هـ. وبالرجوع إلى ابن ميسر لم نجد أى ذكر لسقوط صور فى أيدى الأراتقة فابن ميسر يذكر فى أخبار ذلك العام «وفى شهر ربيع الأول ندب أمير الجيوش الأفضل عسكرا له عدة وافرة إلى ثغر صور، فمضى اليها وحاصرها حصارا عنيفا حتى أخذها بالسيف ودخلها العسكر فقتل منها خلقا كثيرا وقبض على نائبها وحمل إلى الأفضل فقتله وسبب ذلك أنه كان نائبا عن الأفضل فعصى عليه»[١٥٧].

ومن المعروف أن الأراتقة لم يحكموا من مدن جنوبى الشام سوى بيت المقدس التى تولاها أرتق بن اكسك من قبل السلاجقة، وعندما وفاته خلفه ولداه ايلغازى وسكمان، وظلا ببيت المقدس حتى سنة ٤٩١ هـ، عند استردها الأفضل قبيل سقوطها فى أيدى الصليبيين مباشرة، فرحلا إلى الشام ومنها إلى ديار بكر حيث أسسا دولة الأراتقة، كما سبق أن ذكرنا وبخلاف ذلك لم يستول الأراتقة على أى من مدن الشام الساحلية وبخاصة صور[١٥٨].

وفى تلك الأثناء كانت طلائع الصليبيين فى حملتهم الأولى على وشك الوصول إلى بلاد الشام لتغير تماما من مجرى الأمور وهذا ما سوف نتعرض له فى الصفحات التالية.

(٤) موقف صور من الصليبيين منذ وصول الحملة الصليبية الأولى وحتى عام ٥١٨ هـ (١١٢٤م):

استغل الصليبيون أثناء اجتيازهم آسيا الصغرى فى طريقهم إلى الشام، الخلافات

القائمة بين سلاجقة الروم، فأنزلوا بهم الهزائم المتتالية التى أسفرت فى النهاية عن انتزاعهم لأنطاكية من يد أميرها ياغى سيان[١٥٩] سنة ٤٩١ هـ. (١٠٩٨م) وفى هذه الأثناء انتهز الأفضل شاهنشاه وزير الخليفة الفاطمى المستعلى بالله (٤٨٧ - ٤٩٥هـ) تلك الفرصة ليعيد من جديد النفوذ الفاطمى على جنوبى الشام ووسطه خاصة وأن سلاجقة الروم لم يظهروا كثيرا من التعاون مع أبناء عمومتهم من سلاجقة الشام، فخرج الأفضل شاهنشاه بنفسه إلى إقليم فلسطين وجنوبى الشام الذى كان لا يزال فى أيدى سكمان وايلغازى ولدى ارتق، اللذين كانا يعترفابسيادة دقاق بن تتش أمير دمشق عليهما[١٦٠].

وفى شعبان سنة ٤٩١ هـ (يوليو ١٠٩٨) خرج الأفضل لحصار بيت المقدس، واستمر يحاصرها مدة أربعين يوما، ضرب خلالها أسوار المدينة بالمنجنيقات مما أجبر حاكميها الأرتقيين وأهلها على تسليمها[١٦١] فى أواخر رمضان أو شوال سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٨م)[١٦٢] وفى عام ٤٩٢ هـ (١٠٩٩م)[١٦٣] فى قول آخر. وقد أكرم الأفضل وفادة الأخوين، ابنى أرتق وخلع عليهما وأخلى سبيلهما، وتركهما يرحلان فانسحبا برجالهما إلى دمشق ومنها توجها إلى ابناء عمومتتهما فى ديار بكر حيث كونا دويلة الأراتقة.

ولم يتوقف الأفضل منذ تلك الحين عن بسط النفوذ الفاطمى على مدن الساحل الشامى، ويؤكد ذلك العملات الفاطمية التى عثر عليها فى معظم مدن الساحل وتحمل اسم الخليفة[١٦٤] المستعلى بالله وفى تلك الأثناء التى كانت فيها بلاد الشام جمرة تحتدم بالصراعات بين مختلف القوى الاسلامية[١٦٥]، كانت جيوش الحملة الصليبية الأولى التى دعا إليها البابا أو ربان الثانى (١٠٨٨ - ١٠٩٩م/ ٤٨١ - ٤٩٢ هـ) فى خطبته الشهيرة بكلير مونت تخترق آسيا الصغرى وتنزل الهزائم المتلاحقة بجيوش السلاجقة الروم فى نيقية[١٦٦] ودور بليوم[١٦٧]، وهى الانتصارات التى فتحت الطريق أمامهم إلى انطاكية بوابة سوريا

الشمالية، وضربوا الحصار حولها تمهيدا لاسقاطها.

وعلى الرغم من وصول الصليبيين إلى دار الإسلام، ورغم ما فى هذا الحدث الجلل من خطورة على المسلمين وعلى الدين الاسلامى نفسه، إلا أن حكام المسلمين لم يتفهموا فى بداية الأمر الأهداف الحقيقية من الحملة الصليبية، وتصوروا أنها شبيهة بالحملات البيزنطية على ديار الاسلام، واعتقدوا أن الصليبيين انما قدموا بناء على استصراخ الكسيس كومنين بهم لضرب السلاجقة(١٦٨) فحسب، وساعدهم على تلك التصور محاولات زعماء الصليبيين لطمأنة حكام المسلمين وايهامهم عن طريق الشائعات بأن هدفهم الوحيد هو استعادة الأراضى البيزنطية المفقودة فى آسيا الصغرى. وكان أكثر حكام المسلمين استهانة بهذا الخطر الصليبى، الأفضل شاهنشاه الذى بادر بإرسال سفارة فاطمية إلى الصليبيون أثناء حصارهم لانطاكية(١٦٩) مستهدفا من ورائها اقناع الصليبيين بأن يقتسموا معه بلاد الشام فيقنع الصليبيون بشمال الشام بما فى ذلك انطاكية فى حين تكون بيت المقدس وجنوب الشام من نصيب مصر.

ورد الصليبيون على هذه السفارة الفاطمية بسفارة صليبية يرأسها يوحنا الخادم الذى كان أحد رجال الدين الجنويين باعتبار أن الجنويين كانت تربطهم بمصر علاقات اقتصادية وثيقة(١٧٠). ومن الجدير بالذكر أن السفارة الفاطمية تلقت أثناء لقائها بالصليبيين هدية من الفرنجة عبارة عن ثلاثمائة رأس من رءوس القتلى الشهداء من الأتراك هدية للخليفة الفاطمى فأبدى أفراد السفارة الفاطمية سرورهم البالغ مما يعبر عن التعصب الأعمى الذى أبداه ممثلوا الأفضل تجاه السلاجقة وعن اسفاف وجهل وحمق اتسم به حكام المسلمين آنذاك وعن طبيعة العلاقات المتردية بين(١٧١) هؤلاء الحكام.

لم ير الفاطميون اذن فى الانتصارات الصليبية على سلاجقة الروم أية خطورة، ولم يستشعروا مدى الكارثة التى حلت بلاد الشام التى ستحل بهم فيما بعد، ولم

يدركوا أن دورهم قد حان، بل أن الأفضل كان يتصور أن مجئ الصليبيين إلى الشام كان بمثابة حركة انقاذ للدولة الفاطمية لتخليص الشرق الأدنى كله من سيطرة الأتراك الذين سادوا قرابة نصف قرن من الزمان، وتصوروا أن ساعة الانتقام من الأتراك قد حانت(١٧٢).

ويعلق أحد المؤرخون الحديثين على تلك بأن السفارة الفاطمية إلى الصليبيين فى انطاكية كانت خطئا كبيرا إذ أنها اكسبت أولئك المعتدين وضعا سياسيا معترفا به. وكان هذا الموقف الفاطمى من الحملة الصليبية الأولى، دافعا وراء اتهام المصادر الاسلامية السنية للفاطميين بالخيانة، وبأنهم هم الذين كاتبوا الفرنج ودعوهم إلى الشام لتخليصهم من السلاجقة(١٧٣).

وفى ٢٥ ذى الحجة سنة ٤٩١ هـ (٥ نوفمبر ١٠٩٨م) وعقب سقوط انطاكية لتحديد خط سير الحملة وتقرير مصير المدينة، عقد قائد الفرنج اجتماعا فى كاتدارائية القديس بطرس بأنطاكية لتحديد خطر سير الحملة وتقرير مصير المدينة، وفيه عزم الصليبيون على مواصلة السير نحو بيت المقدس للاستيلاء عليها، ولكن سحب الخلاف فى الرأى والانقسام بين صفوف الصليبيين بدأت تتجمع، حول الطريق الذى كان عليهم أن يسلكوه إلى القدس، وكان الفريق الأعظم يؤيد فكرة السير بحذاء الساحل حتى يتمكنوا من الحصون على كل ما يحتاجونه من مؤن وأقوات وما يطلبونه من امدادات من جزيرة قبرص ومن أراضى الدولة البيزنطية بفضل الأساطيل الأوروبية التى اتخذت من السويدية واللاذقية قواعد لها.

ولكن اتخاذ هذا الطريق الساحلى كان يستلزم الاستيلاء على مدن الشام الساحلية التى كانت لا تزال فى أيدى الفاطميين مثل صيدا وصور وعكا بالاضافة إلى جبلة وطرابلس وبيروت ولاشك أن تحقيق هذا الاجراء سيكون باهظ

الثمن وسيكلفهم تضحيات وأموال كثيرة مما يعوق وصولهم سريعا إلى بيت المقدس، ويرى أصحاب الرأى الآخر سلوك، الطريق الداخلى مباشرة للوصول الى بيت المقدس تجنبا للمشاكل السابقة فإذا ما تحققت لهم السيطرة على بيت المقدس تيسر لهم الطريق إلى الساحل لمحاصرة مدنه والاستيلاء عليها[١٧٤]. أما الرأى المتفق عليه فيقضى بالمبادرة بالزحف والأستيلاء عل كل ما يقابلهم من مدن ومراكز عمرانية ولذلك قرروا عدم الابطاء أثناء مرورهم أمام المدن الساحلية[١٧٥]، والعبور عليها سريعا والاستيلاء على كل ما يتمكنون الاستيلاء عليه منها ضمانا لتوفير امدادتهم لأطول فترة ممكنة.

وهكذا تحرك الصليبيون فى رجب سنة ٤٩٢ هـ (مايو ١٠٩٩م) بحذاء ساحل البحر المتوسط واقتربوا من بيروت وعسكروا أمامها، فدب الذعر فى نفوس أهلها، وخرج اليهم واليها والتقى الصليبيون وقدم لهم بعض الهدايا والأموال والمساعدات فى مقابل وعدهم له بعدم اضرارهم بالمدينة وبساتينها المحيطة بها، كما تطوع بارشاد الجيش الصليبى إلى الطريق الموصل إلى صيدا[١٧٦]. ولكن أهالى صيدا ورجال حاميتها رفضوا التعاون مع الصليبيين مما دفع الصليبيين إلى احراق الحدائق والمزارع المحيطة بصيدا قبل رحيلهم عنها إلى بيت المقدس[١٧٧].

ويذكر ستيفن رانسمان أن الصليبيين عندما تعرضوا لهجوم حامية صيدا كانوا يعسكرون على شاطئ نهر الأولى، فقاموا برد هذا الهجوم، وتحركوا بكل ما لديهم من عدد وآلات إلى المناطق القريبة من مدينة صور على صور حيث أقاموا يومين، ليلحق بهم بلدوين وجماعة من الفرسان من انطاكية والرها التى كان قد تم سقوطها. وفى تلك الأثناء التزمت حامية صور الصمت، وتحصنت وراء أسوار المدينة ولم تناجز الصليبيين العداء ثم رحل الصليبيون فى ٢٣ مايو، فاجتاز الجيش دون مشقة الممر المعروف بمرتقى صور، ومرتفعات الناعورة حتى بلغ ظاهر عكا فى ٢٤ مايو من نفس العام، فحذا واليها حذو والى بيروت وهادى الفرنج بنفيس الهدايا وفى مقابل ذلك تلقى وعدا بعدم تعرضهم للضياع الخصيبة الواقعة حول المدينة[١٧٨]،

ثم تابع الصليبيون مسيرتهم نحو بيت المقدس مرورا بحيفا وقيسرية ثم اتجهوا إلى الرملة ومن هناك توجهوا نحو بيت المقدس فاستولوا عليها فى رمضان سنة ٤٩٢ هـ (يوليو ١٠٩٩م).

ويذكر بعض المؤرخين الغربيين أن صور وعكا بادرت بمد العون إلى القوات الصليبية استمالة لهم واتقاء لشرهم بعكس مدينة صيدا التى قاومت الصليبيين عند مرورهم بأرضها لأول مرة[١٧٩]. واعتقد أن ما ذكروه بشأن صور يستلزم منا مناقشته إذ أن ما ورد فى المصادر العربية يؤكد تماما أن مدينة صور كانت تمثل أهم مراكز المقاومة ضد الصليبيين، فكانت السفن تبحر من قاعدتها لتساهم فى مساندة المدن الساحلية الشامية التى يحاصرها الصليبيون، ومنها كانت تشن الحملات وتوجه الغارات ضد الصليبيين إلى حد أن نفس المصادر الغربية تؤكد هذا الدور القتالى والدفاعى بدليل أن الصليبيين أقاموا حصونا أمامية لتكون نقاط ارتكاز هجومية ضد صور التى أقضت بغارات حاميتها، مضاجع الصليبيين وأزعجتهم بصمودها البطولى طويل الأمد، وكان انشاء هذه القلاع والحصون ضرورة عسكرية لاضعاف مقاومة صور، ومع ذلك فقد استمات أهل صور فى الدفاع عن مدينتهم وتفانوا فى مدافعة الفرنج، ووفقوا أكثر من مرة فى رد عدوانهم المتواصل، وأرغموهم على رفع الحصار عنها إلى أن سقطت فى النهاية سنة ٥١٨ هـ بعد مقاومة رائعة، أبدى أهلها خلالها الكثير من البطولات التى سجلها لهم التاريخ.

صور أهم مراكز المقاومة والتصدى للعدوان الصليبى:

بعد سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين وبعد المذبحة المروعة التى راح ضحيتها آلاف المسلمين داخل المدينة، تكشفت للأفضل حقيقة نوايا الصليبيين وأدرك أنه كان مخطئا عندما فكر فى التحالف معهم، وأحس بمدى تخلفه السياسى وسوء تدبيره، فبدأ يغير من سياسته تجاه الفرنج، وفى هذه الفترة تمكن تنكريد من الاستيلاء على اقليم الجليل، أو اقليم السهول الوسطى بفلسطين (الذى كان موضع صراع وتنافس بين دقاق أمير دمشق والفاطميين قبل وصول الصليبيين).

وكان هذا الأقليم أعزل بمعنى أنه كان يخلو من القلاع أو الأبراج العسكرية التي توفر له الحماية مما جعله فريسة سهلة المنال فقد تمكن تنكريد النورمندى من اجتياحه بجيشه الصغير، ثم احتل طبرية عاصمة الاقليم بكل يسر بعد فرار أهلها إلى دمشق. وبذلك تمكن تنكريد من اضافة امارة جديدة لمملكة بيت المقدس هي امارة الجليل أو أمارة ما وراء نهر الأردن وأصبحت هذه الامارة الصليبية الجديدة بمثابة دولة حاجزة بين مدن الساحل التابعة للفاطميين، والمناطق الداخلية لاقليم ما وراء نهر الأردن مما جعلها تحول دون قيام التعاون الكامل بين سلاجقة دمشق، وفواطم القاهرة(١٨٠). وتبين للأفضل حقيقة الأوضاع المتردية في جنوبي الشام، ولم يتردد في المبادرة ببذل العون للمدن التي لم تكن قد سقطت بعد في أيدى الصليبيين، والاستجابة الى نداءات أهلها فكان يبعث أساطيل مصر مزودة بالمؤن والعدد والأقوات تقوية لهم ودعما لمقاومتهم ومساندة لصمودهم البطولي(١٨١).

وقد لعبت مدينة صور دورا هاما لحماية مدن سواحل الشام من السقوط في يد الصليبيين من ذلك ما حدث في سنة ٤٩٥ هـ (شتاء ١١٠٢م) عندما وصلت ٤٠ سفينة تحمل حجاجا من الفرنج إلى السواحل الشامية، قذفت بهم العواصف في مواضع مختلفة بعضها بالقرب من عسقلان والبعض الآخر ما بين صور وصيدا، فوقعوا أسرى في أيدى سكان هذه المدن، وقتلوا أو بيعوا في اسواق النخاسة(١٨٢). وما حدث في جمادى الآخرة سنة ٤٩٥ هـ (ربيع سنة ١١٠٢م) عندما عزم بلدوين على فتح عكا ومدن الساحل مستغلا وجود اسطول انجليزى عدته ستة عشر قطعة بحرية، فزحف على عكا وضرب حولها حصارا شديدا، ونصب المنجنيقات. وكادت عكا تسقط في يد - الصليبيين لولا المساعدات التي كانت تصلها من صيدا وصور، فقد أرسلت هاتان المدينتان اثنى عشر غرابا، وحمالة ضخمة تحمل خمسمائة من خيرة مقاتلة المسلمين، وآلات قذف النار اليونانية ونجح المسلمون في ارغام بلدوين على فك الحصار والرحيل عن عكا بعد أن احرقوا منجنيقاته وأبراجه وسفنه(١٨٣).

ويذكر كل من ابن القلانسي والمقريزى أنه في سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦/ ١١٠٧م) خرج الأمير عز الملك متولى صور، فأوقع بالفرنج على تبنين وهو الحصن الذى كان الصليبيون قد ابتنوه سنة ٤٩٩ هـ (١١٠٥م) تمهيدا للاستيلاء على صور التى كانت لا تكف عن شن غاراتها على الصليبيين، ولعل هذه الغارة الناجحة التى قام بها عز الملك، خير دليل على نشاط صور وكفاحها ضد الصليبيين. فقد تمكن متولى صور من قتل عدد كبير من قوات الفرنج وأسر جماعة منهم ثم عاد مظفرا إلى صور[١٨٤].

وفي صفر من نفس هذا العام (أكتوبر ١١٠٦م) فاجأت حامية صور مع الجيش الاسلامى الكبير الذى كان يتألف من حاميات عسقلان وبيروت وصور، بالاغارة على معسكر الحجاج الفرنج فيما بين يافا وأرسوف، مستغلين فرصة انشغال بلدوين الأول ببعض المشاكل فى الجليل، وتمكن المسلمون من تدمير المعسكر وابادة حاميته. وكان هذا الجيش المشترك يتكون من سبعة آلاف فارس من الحاميات الفاطمية، وعلى أثر هذه الغارة واصل المسلمون طريقهم حتى الرملة حيث قتلوا قوة استطلاعية مكونة من بعض الفرسان الصليبيين ثم امتد نشاطهم حتى وصلوا الى المنطقة الواقعة ما بين يافا وبيت المقدس وقتلوا أربعين من الصليبيين خارج أبواب يافا، كما هاجموا قلعة أقامها الصليبيون على مقربة من بيت المقدس، كان الملك بلدوين لم يفرغ من بنائها بعد هى قلعة Chastel Arnaud وكان بلدوين يهدف من تشييدها حماية الطريق المؤدى إلى بيت المقدس. ثم تراجعت القوات الاسلامية المشتركة إلى قواعدها عندما بلغتها الأخبار بخروج بلدوين على رأس قوة عسكرية لمقاتلتهم[١٨٥].

وعندما توفى هيو دى سانت أومر Hugh de Saint Omr صاحب طبرية فى سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧م) متأثرا بجراحه عقب عودته من أحدى الغارات التى تعرض فيها رجاله لهجوم مضاد قام به عسكر من دمشق، وساد الاضطراب سائر

أنحاء المملكة اللاتينية، انتهز أهالى عسقلان التى كانت لا تزال تحت الحكم الفاطمى هذه الفرصة، وأرسلوا وفودا من قبلهم، إلى المدن الساحلية الاسلامية ومن بينها صيدا وصور وبيروت لاستنفار أهلها بهدف تكوين قوة اسلامية مشتركة تستطيع أن تهاجم الفرنج بالأراضى المقدسة، وقد لقت هذه الدعوة التى وجهها أهل عسقلان استجابة كبيرة من مسلمى هذه المدن الساحلية، فشاركوا جميعا فى حملة تكونت من سبعة آلاف محارب مسلم اشتبكت فى ربيع الأول سنة ٥٠١ هـ (أكتوبر ١١٠٧م) مع الصليبيين فى معركة كبيرة دارت بالقرب من دمشق، أحرز فيها المسلمون انتصارا ساحقا، وتكبد الصليبيون خسائر جسيمة وقتل عدد كبير من خيرة فرسانهم، فى حين لم يفقد المسلمون سوى خمسمائة مقاتل فقط[١٨٦].

وكان لمساهمة صور بحاميتها واسطولها فى تلك الغارات والهجمات أسوا الأثر فى نفوس الصليبيين فى بلاد الشام الذين أدركوا مدى ما تمثله لهم من خطورة باعتبارها من أهم القواعد البحرية الفاطمية، فقد كانت السفن المصرية تخرج اليها من تنيس أو الاسكندرية لتكون على أهبة الاستعداد لمهاجمة الصليبيين أو لمدافعتهم. وأصبحت صور بذلك مرتكز مقاومة اسلامية، ونقطة انطلاق الجيوش البرية والأساطيل البحرية الاسلامية[١٨٧] على السواء. ويزودنا فوشيه دى شارتر بنصوص تتضمن ما يشير إلى استشعار الصليبيين بالخطر القادم من مدينة صور التى كانت منطلقا للغارات المتواصلة الموجهة ضد الصليبيين والتى يسميها فوشيه دى شارتر بأعمال القرصنة ضد الحجاج المسيحيين الوافدين لبيت المقدس والساحل[١٨٨].

وكانت صور قد اكتظت بمن لجأ إليها من مدن الساحل التى سقطت فى أيدى الفرنج. وكان هؤلاء اللاجئين إليها إما من الفرسان المقاتلين والشباب المجاهد، أو من كبار التجار والأعيان، أما المقاتلون فقد جعلوا من صور مقرهم الجديد، منطلقا للجهاد ضد الصليبيين، وقد أزعجت غاراتهم الصليبيين وأقضت مضاجعهم، وأما الأعيان وكبار التجار والموسرين فقد ازدادوا فى مقامهم الجديد بصور ثراء على

ثرائهم ونمت مكاسبهم وازدهرت تجاراتهم، وكان طبيعيا أن تتحول صور بفضل هؤلاء المجاهدين وكبار التجار إلى مدينة عظمى لها أهميتها الاقتصادية والعسكرية، واستثارت لذلك مطامع الصليبيين فى الاستيلاء عليها وحركت شهية بلدوين فى ضمها إلى مملكته ليحقق باستيلائه عليها أكثر من هدف، فاستحواذه عليها سيؤدى حتما إلى حرمان الفاطميين من ثرواتها الطائلة كما أنها بحكم قربها من إمارة طغتكين فى دمشق ستمكنه جغرافيا واستراتيجيا من غلق منفذ هذه الامارة البحرى. وعلى الصعيد العسكرى فإن سيطرته عليها ستخلصه من أعظم قاعدة بحرية فاطمية تناوئه وتهدد الكيانات الصليبية فى بلاد الشام، كما أنه بذلك سيتمكن من تحجيم القوى الفاطمية واصابتها بالشلل.

ولهذه الأسباب، بادر بلدوين بمهاجمة مدينة صور فى سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧م) وأحكم عليها الحصار، واستمر يحاصرها مدة شهر، أنشأ خلاله حصنا على تل المعشوقة، ليكون بمثابة نقطة ارتكاز عسكرية[١٨٩] صليبية لتوجه مزيدا من الضربات إلى مدينة صور.

ولكن سعد الدولة كمشتكين الأفضلى، والى صور، استمات فى الدفاع عنها، وتصدى للحصار الصليبى بكل طاقة يملكها، كذلك استبسل أهالى المدينة فى الدفاع عن مدينتهم مما أرغم بلدوين أمام هذه المقاومة، وأمام افتقاره الدعم البحرى إلى رفع الحصار بعد أن قبل عرض والى صور بدفع اتاوة قدرها سبعة آلاف دينار[١٩٠]. وعندئذ رحلت قوات بلدوين عنها واتجهت إلى صيدا فى نفس العام ٥٠١ هـ (١١٠٨م) حيث نزلت عليها، وحاصرها بلدوين برا وبحرا مستغلا وصول ملاحين مغامرين قدموا من مدن ايطالية مختلفة من بيزة وجنوه والبندقية وأمالفى، وأمام هذا الخطر الجاثم استنجد والى صيدا بطغتكين أتابك دمشق، فى نفس الوقت الذى بادرت الأساطيل المصرية بالابحار إلى صيدا والدفاع عنها فقد وصل

إلى مياهها اسطول يتجاوز عدد سفنه خمسين سفينة، واشتبكت هذه السفن مع سفن الجنوية والصليبيين فى موقعة دارت فى مياه صيدا أسفرت عن هزيمة نكراء منى بها الفرنج، وفى الوقت نفسه بلغ بلدوين أن ظهير الدين طغتكين أتابك، صاحب دمشق قد سير عسكره التركمان إلى صيدا للدفاع عنها فرأى السلامة فى الانسحاب واضطر إلى رفع الحصار عنها(١٩١).

ونلاحظ هنا أن المصادر العربية باستثناء المقريزى، لم تحدد الجهة التى قدمت منها الأساطيل المصرية، ونعتقد أن تكون بعض تلك السفن قد قدمت من قاعدة عسقلان البحرية استنادا إلى رواية(١٩٢) المقريزى وأن بعضها الآخر أقبل إما من طرابلس(١٩٣) أو من صور أو من القاعدتين فى آن واحد. ونميل إلى ترجيح قدومها من صور، فالمصادر العربية واللاتينية نصت على أن الأساطيل المصرية رست فى صور عند حصار(١٩٤) الصليبيين الأخير لصيدا وهو الحصار الذى أسفر عن سقوطها سنة ٥٠٤ هـ، وحدث نفس الشئ عند حصارهم لطرابلس فقد أبحرت السفن الفاطمية من مصر إلى صور لتقيم بها بعد سقوط المدينة(١٩٥) سنة ٥٠٢ هـ، وكذلك رابط الأسطول الفاطمى فى صور بعد حصار الصليبيين لبيروت(١٩٦) سنة ٥٠٣ هـ.

وفيما يتعلق بحصار الفرنج الأخير لمدينة طرابلس وهو الحصار الذى انتهى بسقوطها فى أيديهم، والذى شغل الفترة ما بين أول شعبان سنة ٥٠٢ هـ، و ١١ ذى الحجة من نفس السنة (١١٠٩م) فإننا نلاحظ أن صور لم تؤد خلالها دورها المعهود فلم تبادر سفنها بالابحار إلى طرابلس ومساعدة أهلها، وفى تصورى أن أسطول صور ظل راسيا بمينائها ينتظر وصول السفن المصرية القادمة من مصر محملة بالامدادات والمؤن والغلال لامداد صور ببعضها قبل أن تتجه إلى طرابلس التى شدد عليها الفرنج الحصار، وكان أهلها قد بعثوا إلى الوزير الأفضل شاهنشاه يسألون أن يمدهم بالأقوات والمؤن والسلاح والرجال.

وظلوا ينتظرون هم وأهالى بقية المدن الساحلية مثل صور وبيروت وصيدا،

وصول الأسطول المصرى، ولكن الشهور مضت دون أن تصل أية امدادات إلى طرابلس، ضعفت خلالها مقاومة الأهالى، والحامية بسبب انعدام الأقوات، فلما يئس والى طرابلس من وصول النجدة المصرية، عزم على التسليم، وتم استيلاء الفرنج على المدينة فى ١١ من ذى الحجة سنة ٥٠٢ هـ (١٢ يوليو ١١٠٩م)، وللأسف وصلت السفن الفاطمية بعد سقوط طرابلس بثمانية أيام، وكانت مشحونة بالرجال والأموال والمؤن والغلال التى كانت تكفى لامداد أهالى طرابلس مدة سنة كاملة، فرست فى صور بعد أن تبين لقادتها عدم جدوى توجههم إلى طرابلس.

وفى صور تم توزيع الغلال والذخائر على أهالى المدينة، وكذلك على أهالى صيدا وبيروت. وقد تمسك الأهالى فى كل من صور وبيروت وصيدا بهذا الأسطول وألحوا فى استبقائه معهم حماية لهم، وشكوا إلى القادة الفاطميين ضعفهم وسوء أحوالهم ولكن القادة الفاطميين لم يبالوا بذلك وأقلعوا عائدين إلى مصر عند استقامة الريح[١٩٧].

ويعلق الدكتور السيد عبد العزيز سالم على هذا التصرف الشائن من قبل قادة البحر الفاطمين بأنه كان فى امكان هذا الأسطول انقاذ بيروت وصيدا من الحصار الصليبى الوشيك وبعودته دون أداء هذه المهمة تكون السلطات الفاطمية فى مصر قد ساهمت فى ضياع مدن الساحل السورى كله[١٩٨] فبعد سقوط طرابلس انتهز بلدون فرصة قضاء بعض السفن الجنوية البيزية فصل الشتاء بالشام فى رجب سنة ٥٠٣ هـ (فبراير ١١١٠م) وقرر حصار بيروت والاستيلاء عليها، وساعده فى ذلك جوسلين كورتناى صاحب تل باشر، وتقدم الفرنج واحكموا الحصار عليها برا وبحرا، وساعدتهم فى ذلك السفن البيزية والجنوية وكان عددها أربعون سفينة، إلا أن حامية المدينة وأهلها، استبسلوا فى الدفاع عنها ونجحوا فى تدمير البرج الذى أقامه الصليبيون على أسوار المدينة[١٩٩].

بادر الأفضل هذه المرة بإرسال تسعة عشر مركبا حربية قادمة من صيدا وصور

زودوها بالميرة والسلاح والرجال لانجاد بيروت حتى لا يتكرر ما حدث فى طرابلس بسبب تقاعسه وابطائه فى إنجادها.

وتمكنت هذه السفن الفاطمية من اقتحام الحصار الفرنجي البحرى، والسفن البروفنسية والجنوية والبيزية، وألحقت هزيمة منكرة بالسفن الصليبية واستولت على بعضها ورغم استبسال السفن الفاطمية فى الدفاع عن بيروت إلا أن تقدم السفن الجنوية واستخدامهم الأبراج الخشبية المتحركة التى صنعوها من أخشاب الغابات الصنوبرية المجاورة للمدينة قد حال بين السفن الاسلامية وبين الوصول إلى بيروت المحاصرة كما أسفر ذلك عن اشتباك جديد استشهد فيه مقدم الأسطول الفاطمى، ورغم ضراوة القتال وصمود السفن الفاطمية التى شاركت معها السفن القادمة من صور، فقد اضطر والى بيروت إلى الاستسلام للصليبيين بعد أن حصل منهم على الأمان(٢٠١).

وفى عام ٥٠٣ هـ (١١١٠م) تكررت محاولة بلدوين انتزاع مدينة صيدا، فتوجه عليها وضرب الحصار حولها، ولكن افتقار بلدوين للعون البحرى، بالاضافة إلى ما بلغه من اخبار باقلاع أسطول مصرى نحو صور، القاعدة الرئيسية للفاطميين، من أجل الدفاع عن صيدا، واستبسال حامية المدينة فى المقاومة، اضطره إلى فك الحصار عن صيدا خاصة بعد أن تلقى بلدوين نحو ستة آلاف دينار، مقابل انسحابه، فرحل عن صيدا إلى بيت المقدس، وفشلت محاولته هذه للاستيلاء على المدينة(٢٠٢).

ولم يمض عام على ذلك حتى أعاد الفرنج الكرة، وكرروا محاولتهم لاسقاط مدينة صيدا والاستيلاء عليها، فقد انتهز الصليبيون فرصة وصول أسطول صليبى من الحجاج النرويجيين الى ميناء عكا بقيادة الملك النرويجي Sigurd Jeroslafror of Nor Ways الذى كان يشترك مع أخويه فى حكم النرويج، تحميه حوالى ستين سفينة حربية مشحونة بالرجال والذخائر(٢٠٣)، فى صيف عام ٥٠٣ هـ (١١١٠م) وشاركوهم فى مهاجمة مدينة صيدا برا وبحرا فى ربيع الآخر فى عام

٥٠٤ هـ (اكتوبر ١١١١م) وقد اشترك معهما فى هذا الهجوم برتران كونت طرابلس. ولم يتردد الأسطول الفاطمى الراسى فى صور فى الدفاع عن صيدا، واشتبكت وحداته مع السفن النرويجية فى قتال عنيف وكادت السفن النرويجية أن تلقى هزيمة ساحقة على أيدى المسلمين، واتفق فى هذه الفترة وصول أسطول بندقى كبير يقوده دوق البندقية نفسه Ordelafo Valerii Doge of Venice، فانضم إلى أسطول الفرنج لاحكام الحصار عليها بحرا وتسبب فى إشاعة الذعر فى نفوس المقاتلين المسلمين(٢٠٤)، وعندئذ رأى مقدم الأسطول الفاطمى أنه لا سبيل أمامه إلا الانسحاب بأسطوله الصغير إلى صور والبقاء فيها تجنبا للهزيمة أمام الفرنج وحقنا الدماء المسلمين خاصة بعد أن تبين استحالة اختراق الحصار الصليبى المحكم حول صيدا لتوصيل بعض المؤن والامدادات التى قد تعين أهل صيدا على الصمود.

وأدى انسحاب الأسطول المصرى إلى صور مرة أخرى، إلى تسرب روح اليأس فى نفوس أهل صيدا(٢٠٥)، فبادروا بارسال قاضيهم وكبار شيوخهم إلى بلدوين طالبين الأمان، واستسلمت صيدا بعد حصار استمر ما يقرب من سبعة وأربعين يوما فى ١٩ جمادى الأولى عام ٥٠٤ هـ ورأى قادة الصليبيين بعد استيلائهم على صيدا ان استمرار بقاء صور تابعة للفاطميين يمثل خطرا جسيما على كيانهم واستقرارهم السياسى، ولذلك كانت الخطوة التالية الأكثر أهمية بالنسبة لهم هى الاستيلاء على صور أهم قاعدة بحرية فاطمية وقاعدة النضال الاسلامى ضد قوى الصليبيين.

وهكذا تقرر فتحها وأعد بلدوين العدة للاستيلاء عليها، فجهز الجيوش والأساطيل، وتوجه لحصارها برا وبحرا فى جمادى الآخرة من عام ٥٠٥ هـ (فبراير ١١١١م) وقد شارك يوستاش جارنييه بارون صيدا Eustach Garnier فى حصاره لصور(٢٠٦). وتؤكد آنا كومنينا فى الالكسياد أن أسطولا بيزنطيا مكونا من اثنى عشر سفينة بيزنطية بقيادة القائد البيزنطي بوتو ميتس Boto metes شارك فى الحصار البحرى الصليبى لصور، طمعا فى الحصول على مساعدة عسكرية صليبية لاستعادة

أملاك بيزنطة فى شمال الشام والتى كان أمراء انطاكية النورمانديون قد استولوا عليها. ولكن بلدوين تردد فى الالتزام بذلك مما جعل البيزنطيين يكتفون بامداد الصليبيين بالمؤن والعتاد فقط دون المشاركة فى الحصار البحرى(٢٠٧).

ويرجح أحد المؤرخين الحديثين أن الأسطول الذى قام بحصار صور بحرا، كان أسطولا جنويا وبندقيا وبيزنطيا مشتركا(٢٠٨).

وكان الصليبيون يدركون تماماً مدى حصانة صور اذ سبق لهم محاصرتها سنة ٥٠١ هـ ، وأيقنوا آنذاك بمناعتها وحصانتها، وكان عليهم أن يقتحموا حصونها الخارجية التى كانت تحيط بها للوصول إلى أسوار المدينة، ولكنهم فشلوا فى تحقيق هذا الهدف، ولم يكن أمامهم عندئذ سوى صنع المزيد من الأبراج وسلالم التسلق واستخدام الآلات المخصصة لتلك الأسوار(٢٠٩).

وكان عز الدين انوشتكين الأفضلى والى صور قد أبدى الكثير من ضروب الشجاعة والاستبسال فى الدفاع عن مدينتة كما استماتت حاميتها فى مواجهة الهجوم الصليبى، ولما استشعر انوشتكين واهالى صور بالحركة والجلبة فى المعسكر الصليبى، أدرك ببعد نظره أن الفرنج يعدون العدة لجولة جديدة، ويعملون على تشييد مزيد من الأبراج لاقتحام تحصينات المدينة. فبادر بمخاطبة الأفضل شاهنشاه يستمده ويستنضر به، ولكن مصر كانت تعانى آنذاك من وباء، راح ضحيته ستين ألف شخص(٢١٠)، شغل الأفضل عن انجاد صور، بالاضافة إلى تباطئه الذى عرف به فى انجاد السواحل الشامية واستهانته بتقدير حجم الخطر الصليبى حق قدره، فلما طال انتظار أهالى صور وواليها وحاميتها للنجدة المصرية وادركوا عدم جدوى الانتظار، فلم يجدوا أمامهم سوى أن يستصرخوا بطغتكين(٢١١) أتابك دمشق، الذى عرف بشهامته ونجدته، واستبساله فى قتال الصليبيين وكانت له أياد بيضاء فى مجال الجهاد المقدس ضد الفرنج، فاستجاب لندائهم وبادر بانفاذ قوة كبيرة من الأتراك زودهم بالعدد الكاملة، وكان يتجاوز عددهم مائتى فارس(٢١٢).

ومن الجدير بالذكر أن القوة التى أرسلها طغتكين لمساندة حامية صور وانجادها كانت تتألف من جماعة من مقاتلة جبل عاملة أو الجليل وأحواز صور مع رجال من دمشق[٢١٣]، ولم تكن هذه الفرقة التى أرسلها هى الفرقة الوحيدة إذ اتبع ذلك بفرقة أخرى[٢١٤].

ولما بلغ بلدوين اتفاق أنوشتكين وظهير الدين طغتكين أتابك دمشق، وبادر بقطع الأشجار المحيطة بصور والنخيل، وبنى بيوتا للاقامة عليها[٢١٥]. وحاول طغتكين ارغام بلدوين على فك حصاره لصور وذلك بشن سلسلة من الغارات على قلاعه وحصونه القريبة من صور، وتذكر المصادر العربية أنه خيم ببانياس وثبت سراياه «ورجاله الحرامية» فى أعمال الافرنج، وأطلق لهم النهب والقتل والسلب والتخريب والحرق ازعاجا لهم ورغبة فى ارغامهم على الانسحاب عنها، وحاول ادخال العدة الثانية فى هذه الأثناء الى صور، ولكنه لم يتمكن من ادخالها[٢١٦]، فاستمر فى سياسته الرامية الى ترويع الفرنج وارغامهم على الرحيل عن صور فاقتحم حصن الحبيس[٢١٧]، أحد الحصون العامة القريبة من دمشق[٢١٨]، واستولى عليه عنوة وقتل كل من فيه، غير أن الفرنج الذين أدركوا هدف الأتابك طغتكين لم يحفلوا بما يفعل، وواصلوا تنفيذ مخططاتهم لبناء أبراج اضافية لتسهل عليهم اقتحام أسوار المدينة.

وكان الصليبيون فى تلك الأثناء قد تمكنوا من بناء برجين على حد قول بعض المؤرخين[٢١٩] العرب واللاتين[٢٢٠]، فى حين يذكر عدد آخر من المؤرخين أن تلك الأبراج التى بناها الفرنج كانت ثلاثة[٢٢١]. وحاول طغتكين الاشتباك فى قتال مع الفرنج لينشغلوا به، فيخرج عسكر صور فى هذه الأثناء لاحراق الأبراج، ولكن الفرنج تنبهوا إلى الهدف الذى يرمى إليه، فخندقوا على الأبراج من جميع الجهات، ورتبوا عليها المقاتلة لحمايتها، ولم يهتموا بغارات طغتكين ولا بحلول فصل الشتاء، إذ أنهم كانوا ينزلون فى أرض رملية صلبة بعكس الأتراك، وعندئذ عمد طغتكين وأصحابه إلى قطع الجسر الذى كان يصل بين صيدا وصور ليمنع

عليهم الأمدادات(٢٢٢) ، وعندما علم بوصولها الامدادات إليهم من صيدا(٢٢٣) ، لم يتردد فى مهاجمة مدينة صيدا والاغارة على أحوازها واغراق مراكب الفرنج الراسية على سواحلها كما قام بارسال الكتب إلى أهل صور يحثهم فيها على الصمود الاستبسال فى المصابرة على الفرنج(٢٢٤) .

وعلى الرغم من كل ذلك فإن الفرنج شرعوا فى تحريك الأبراج والكباش المثبتة فيها وأسند بلدوين مهمة تسلق الأسوار إلى يوستاس جارنييه(٢٢٥) ، وزحفوا بها فى العاشر من شعبان وقربوها من أسوار المدينة، واشتد القتال عليها حتى أول رمضان.

وتختلف المصادر فى ذكر ماتلا ذلك من أحداث فانا كومنينا تنفرد بذكر خبر مفاده أن الصليبيين تمكنوا خلال هذا الهجوم بالأبراج والكباش على أسوار المدينة من الاستيلاء على قطاعين من هذه الأسوار، ولم يتبق أمامهم سوى قطاع ثالث، لاسقاط صور، فلما تبين لأهل صور أنها على وشك السقوط لجأوا إلى الحيلة كسبا للوقت، فقام والى المدينة بارسال سفارة إلى بلدوين طالبا منه الاستسلام بشروط معينة، وكان يهدف من ذلك كسب مزيد من الوقت يتمكن خلاله من احراق الأبراج الصليبية وتمكين الدفاع عن مدينته(٢٢٦) .

ويرى بعض المؤرخين أن رواية آنا كومنينا يحيطها الشك فهى لا تستند على نص عربى أو لاتينى يؤيدها خاصة وان آنا كومنينا لم تكن شاهدة عيان، رغم معاصرتها للأحداث وانما استقت رواياتها من البحارة البيزنطيين الذين ساهموا فى مساعدة الفرنج أمام صور(٢٢٧) .

أما وليم الصورى فقد امتدح جهود المسلمين فى صور للدفاع عن مدينتهم(٢٢٨) ، وقد أسهبت بعض المصادر الاسلامية فى وصف دفاع أهل صور المستميت، فيشير كل من ابن القلانسي وأبو المحاسن بن تغرى بردى إلى أن أهالى صور خرجوا فى أول شهر رمضان بالنفط والحطب والقطران وآلات الحرق لتدمير

الأبراج الفرنجية، ولكنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى شئ فألقوا النار قريبا من البرج الصغير بحيث لم يتمكن إلفرنج من دفعها، فهبت ريح وألقت النار على هذا البرج فاحترق بعد محاولات جادة لانقاذه، واستولى المسلمون منه على زرديات كثيرة وطوارق وغير ذلك، واتسع نطاق النيران فامتدت ألسنتها إلى البرج الكبير مما أثار مخاوف الفرنج فأندفعت أعداد كبيرة منهم نحو الأبراج لاطفاء النيران، تاركين حرسة المدينة، وبذل الفرنج جهودا كبيرة لاطفاء الحرائق ونجحوا في ذلك، ثم عادوا لمواصلة الزحف فقربوا الأبراج من جديد إلى سور المدينة، ولكن أهالى صور أطلقوا نيرانهم إلى التعليقات التى بأبراج الفرنج، فاحترق التعليق وسقط وجه الحائط فى وجه البرج، فمنع من تقديمه إلى السور، فجره الفرنج إلى برج آخر وأتوا بغيره وقربوه من سور المدينة الذى هدموه بالكباش، فتزعزع سور المدينة وتساقطت بعض حجارته وأشرف أهالى المدينة على الهلاك(٢٢٩).

أما المقريزى فيؤكد على أن المسلمين استبسلوا فى الدفاع عن مدينتهم ويسوق وصفا تفصيليا لهذه الأبراج، فيذكر أنها كانت موضوعة على ما يسمى اسقلوس وهو فخذان ملقيان على الأرض، وفى كل برج من أسفله عشرون افرنجيا، كما يصف ستائر كل برج ومناجيقه بأنها كانت تبدو كأنها بلد يزحف، وقد خرج إليها من أهل صور ألف رجل لاحراقها(٢٣٠).

وعلى الرغم من مقاومة أهل صور المستميتة فإن نجاح الصليبيين فى اطفاء نيران الأبراج وتقدمهم من جديد إلى الأسوار، جعل اليأس يتسرب إلى نفوسهم. وتجمع معظم المصادر العربية على أن شيخا كبيرا من أهل طرابلس قد جاوز الثمانين من عمره(٢٣١)، كان من مقدمى البحرية(٢٣٢) العارفين بالصنعة تعهد باحراق تلك الأبراج، فجمع اليه طائفة من أهل صور بلغ عددهم ألف رجل، بأسلحتهم، ومع كل رجل قطعة خشب كبيرة، وقيل حزمة حطب، وخرجوا، وقاتلوا الفرنج حتى وصلوا إلى البرج الملتصق بالمدينة وأمرهم الشيخ أن يلقوا الخشب قريبا من البرج من سائر جهاته، وطرح النار فيها طرحا، فاحترقت الأخشاب، وعلقت النار

بالبرج ويذكر ابن الفرات أن هذا الشيخ الطرابلسى خاف أن يبادر الفرنج الذين بداخل البرج باطفاء النار، فيتخلصوا منها، فعمد إلى قذفهم بجرار كان قد اعدها مملوءة بالعذرة [٢٣٣] على حد قول المقريزى [٢٣٤] وبالزيت والقير والسراقة والقلفونية وقشر القصب على حد قول كل من ابن القلانسى [٢٣٥] وابن الأثير ليشغل الفرنج برائحة هذه المواد الكريهة عن اطفاء النار المشتعلة بالأبراج.

فلما سقطت تلك المواد الملوثة ذات الرائحة الكريهة على الصليبيين، شغلتهم عن اطفاء النيران التى تمكنت من البرج واتت عليه، فهلك كل من كان فيه، إلا عدد قليل تمكن من الفرار، فتناول المسلمون من رأس البرج بالكلاليب من قدروا عليه من سلاحهم ودروعهم فغنموا ثلاثمائة درع. [٢٣٦] وكان يوجد فى هذا البرج كبش من الحديد يبلغ طوله ماذة وخمسون ذراعا، وكان وزن رأسه وحدها مائة وخمسين رطلا فظفر به المسلمون أيضًا، ثم أخذ الشيخ الطرابلسى سلال العنب، وجعل ساقة الكتان مع الزيت والكبريت وألقاها جميعا على رأس البرج، وكان يتولاه رجلان فقتل أحدهما وانهزم الآخر، ونزل منه، فعلقت النار برأس البرج [٢٣٧]. وتمكنت من الطبقة الثانية من رأسه ثم تمادت إلى الوسطى، واشتعلت فى المواد الخشبية، وقهرت من كان حوله فى الطبقات وعجزا عن اطفائها، وهرب كل من فيه ومن حوله من الأفرنج ويذكر ابن الفرات أن الشيخ الطرابلسى لم يكتف بحرق هذا البرج فاشعل النار فى باقى الأبراج وعندئذ خرج أهل صور ونهبوا ما فيه وغنموا أعدادا هائلة من السلاح والعدد والآلات [٢٣٨].

ويذكر ابن الأثير أن أهالى صور حفروا سراديباً تحت الأرض ليسقط فيها الفرنج إذا ما زحفوا إليه ويتهاوى فيها أى برج، يقومون بتشييده [٢٣٩]، ويذكر ابن الفرات أن الفرنج علموا بأمر هذه السراديب فاحترزوا منها وساروا بعد ذلك وهم يحسبون ما بين أيديهم وأقدامهم بالمجاس، فإذا كانت أرضا صلبة اجتازوها وإن كانت رخوة صلبوها، كما عملوا على طمى الخندق الذى كان أمام المدينة للزحف عليها من جديد [٢٤٠].

وفى أثناء ذلك أرسل طغتكين نجدات جديدة إلى صور، وبخاصة[٢٤١] من رماة السهام وقد نجحت احدى هذه النجدات الدمشقية فى دخول المدينة مما أوقع الذعر فى قلوب الفرنج الذين اعتقدوا أن هذه النجدات ليست سوى مقدمة لجيوش كثيفة العدد فى طريقها[٢٤٢] إلى صور، وعاود أنوشتكين الأفضلى والى المدينة، طلب المساعدة من طغتكين بعد أن أستأذن من القصر الخلافى بالقاهرة مبررا الأسباب التى تدفعه إلى الاستنجاد بطغتكين.

وحدث أن سقطت الحمامة التى كانت تحمل رسالته الى طغتكين فى يد أحد البدو من المتواطئين مع الفرنج، فأنفذ بلدوين على أثر ذلك، رجالا متخفين تمكنوا من اسر رسل دمشق، وصدر الأمر باعدامهم، ومع ذلك فقد بلغت الأخبار طغتكين، فاستجاب لطلب والى صور ورحل إليها. وفى أثناء ذلك باغت الجماعة من الفرنج كانوا يسعون للحصول على العلف وحاصر الفرنج[٢٤٣] فى معسكرهم، وهكذا أدرك الصليبيون فى نهاية الأمر أنه لا جدوى من حصار صور بعد احتراق أبراجهم وآلات حصارهم، ففكوا الحصار عنها ورحلوا. وهكذا أثبت أهل صور بتصديهم للصليبيين وصمودهم المشرف أنهم أبطالا يشهد لهم بذلك اللاتين والبيزنطيون[٢٤٤].

وتذكر المصادر الاسلامية أن أهل صور قد أوفوا بعهدهم لطغتكين فى مقابل مساعدته الكبيرة لهم[٢٤٥]، وعبروا عن شكرهم له لنصرته لهم وأبدى طغتكين من جانبه استعداده للدفاع عنهم دون مقابل وعدهم ببذل العون والمساندة متى أرادوها ثم عاد إلى بلده[٢٤٦] دمشق. لقد كانت صور على شفا الضياع بل أنها أوشكت على الاستسلام للفرنج ولكنها قاومت بكل ما لدى أهلها من قوة وعزم وساعد على إخفاق الصليبيين فى الاستيلاء عليها انجاد الأتابك التركى طغتكين لها وتزويده اياها بالعدد والرجال والأقوات، وقد تناسى الأفضل وطغتكين الخلاف المذهبى القائم بين الفاطميين والسلاجقة ولم يتردد الأفضل فى السماح لوالى صور طلب النجدة من طغتكين الذى بادر على الفور ببذل كل إمكاناته لنصرة الإسلام

فى صور، ويجدر بنا أن نقدر بسالة أهل المدينة وصبرهم على حصار طويل الأمد، وإذا كان التاريخ عظة وعبرة فان صمود صور أمام العدوان الصليبى، وتعاون السنة والشيعة نموذج للتعاون والتضامن بين عناصر اسلامية مختلفة من حيث المذهب، ومثل حى لما تحققه الوحدة بين هذه العناصر المتنافرة من قوة وبأس أرهبت الصليبيين. ولم يكن هدف طغتكين أتابك دمشق بدفاعه المشرف عن صور، تحقيق كسب مادى أو أدبى أو زعامة ورئاسة، وإنما كان يبتغى نصرة الإسلام والجهاد فى سبيل الله، ويجدر بنا ألا نغفل الدور البطولى الذى قام به عز الملك أنوشتكين الأفضلى، والى صور، فى الدفاع عن مدينته، وكذلك أهالى المدينة أنفسهم ومن أنضم إليهم من سكان المدن التى كانت قد سقطت فى أيدى الفرنج، شأن الشيخ الطرابلسى الطاعن فى السن الذى تصدى للفرنج غير مبال بنيرانهم، ولم يدخر كل تجاربه لاحراق أبراج الصليبيين. كذلك كان من عوامل فشل الفرنج أمام صور افتقارهم إلى أسطول صليبى قوى يتمكنوا بفضله من تطويق المدينة، من البحر على نحو ما حدث فى بيروت وصيدا، فالسفن البيزنطية والايطالية القليلة التى كانت راسية فى مياه صور لم تكن تقوى على أداء دورها لاحكام هذا الحصار بحرا.

لقد كان دفاع أهالى صور عن مدينتهم رائعا، واستماته أتابك طغتكين فى حمايتها من السقوط ملحمة اسطورية ومثل أعلى للصمود.

وعندما تحقق الصليبيون من فشلهم فى حصار صور فى هذا [٢٤٧] العام سنة ٥٠٥ هـ، شرعوا فى الرحيل عنها وأقدموا على حرق الدور الذى كانوا قد عمروها لسكناهم، كما أحرقوا الكثير من سفنهم الراسية فى مياه صور لأنهم كانوا قد انتزعوا منها صواريها وارجلها وآلاتها للأبراج، وكان عددها يقرب من مائتى مركب كبار وصغار منها ثلاثون مركبا حربية شحنوا بعضها بما خف حمله من أثقالهم وأبحروا قاصدين عكا.

وبلغ عدد من استشهد من أهالي صور أربعمائة رجل في حين خسر الصليبيون ألفي نفس(٢٤٨). ورغم هذه الهزيمة النكراء التى منى بها الفرنج أمام أسوار صور، إلا أنهم عاودوا التفكير في الاستيلاء عليها بعد رحليهم عنها بنحو عام. ففي عام ٥٠٦ هـ(١١١٣م) عزم بلدوين على منازلة صور مرة أخرى(٢٤٩). فلما وصلت تلك الأنباء إلى مسامع أهالي صور تجددت مخاوفهم من وصول الفرنج إليهم، فأجمعوا بالاتفاق مع واليهم عز الملك الأفضلي أنوشتكين على مراسلة ظهير الدين طغتكين أتابك دمشق ودعوته لتسلم المدينة وتولى الدفاع عنها، فلم يكونوا قد نسوا بعد ما بذلوه من جهود في العام السابق لاستنفاذ صور من السقوط في أيدى الصليبيين، ثم أن صور كانت شديدة الارتباط بدمشق باعتبارها المنفذ البحرى لأتابكية دمشق ولهذا ارتبطت مصالحهما الاقتصادية والأمنية معا ارتباطاوثيقا.

ولم يتردد ظهير الدين طغتكين أتابك دمشق في قبول طلب والى صور وأهلها، فأمر سيف الدين مسعود بن سلار، واليه على بانياس وابنه (أي ابن طغتكين) تاج الملوك بورى نائبه في دمشق بأن يتسلما(٢٥٠) صور نيابة عنه، لأنه كان قد رحل إلى حماة لاقرار الأوضاع فيما بينه وبين فخر الملوك رضوان صاحب حلب، وذلك كسبا للوقت، واشفاقا على أهالي مدينة صور من التعرض لخطر سقوط مدينتهم قبل أن يعود طغتكين من حماة لو بادر الفرنج بمهاجمة المدينة مرة(٢٥١) أخرى في فترة انتظار وصول النجدات في صحبة طغتكين. كما اصدر طغتكين أو امره بارسال فرقة من الأتراك لتدعيم الدفاع عن صور، ووصلت الفرقة بالفعل إلى المدينة واستقرت بها، كما بعث طغتكين إلى أهلها من يحمل إليهم الأقوات والمؤن من دمشق مما طيب نفوس أهل المدينة(٢٥٢).

وإذا كان بعض المؤرخين الغربيين يعتقدون أن طغتكين بتصرفه المذكور(٢٥٣) قد انتزع مدينة صور من أيدى الفاطميين، فاننا نرد على هذا الزعم بأن طغتكين كان متعففا عن بسط نفوذه عليها، فرغم مذهبه السني استمر مبقيا على الخطبة

على منابر صور باسم الخليفة الفاطمى، كما ظلت السكة تحمل اسم الخليفة الفاطمى فهو لم يغير شيئاً من رسوم الفاطميين[٢٥٤]، وهذا ينهض دليلا على أن طغتكين كان زاهدا فى السيطرة وأنه لم يخطر بذهنه فى تلك الظروف الحرجة من تاريخ الإسلام أن يحرز مكاسب ذاتية بل كان يهدف إلى انقاذ ما يمكن انقاذه من أراضى المسلمين، بدليل أنه بادر بارسال مبعوث من قبله الى مصر الفاطمية، حاملا رسالة، يفسر فيها طغتكين للأفضل شاهنشاه سبب تصرفه، موضحا له أن هدفه الوحيد هو الأبقاء على صور، اسلامية عن طريق تقويتها بالرجال ويبلغه فيها أن بلدوين قد جمع وحشد للنزول على صور وأنه أى طغتكين على أتم استعداد لاجلاء قواته عنها واخراج نوابه منها، حتى وصول من يتولى أمرها من مصر، والدفاع عنها وحمايتها، ثم أوصى فى نهاية رسالته بألا يهمل أمرها، وأن يرسل الأسطول بالغلة إليها والتقوية لها[٢٥٥].

وقد أقام مبعوث طغتكين إلى الأفضل شاهنشاه بمصر حتى ذى الحجة من سنة ٥٠٦ هـ، وخلال فترة اقامته بالقاهرة، استطاع أن يصور للأفضل حقيقة الأوضاع فى صور موضحا له ما يتهددها من أخطار من قبل الفرنج، ودور طغتكين فى الدفاع عنها، فحمد الأفضل لطغتكين ما قدمه لصور من معونات ورد عليه بكتاب عبر فيه عن شكره العميق له على ما فعله واستصوب رأيه فيما اعتمده[٢٥٦].

ويذكر ابن القلانسى أن بلدوين حين علم بدخول الأمير مسعود والأتراك الى صور من قبل الأتابك طغتكين، رحل من بيت المقدس إلى عكا ليعترض طريقهم ولكنه لم يحقق بغيته إذ سبقه الأتراك فى دخول صور، فأقام بعكا، وأخذ يغير على القوافل بقية هذا العام[٢٥٧]. أما الأفضل شاهنشاه فقد شرع فى تجهيز الأسطول المصرى وحمله بالغلة والميرة ومال النفقة فى الأجناد والعسكرية وما يباع على الرعية من الغلات[٢٥٨].

وأقلع الأسطول الفاطمى من مصر فى أوائل سنة ٥٠٧ هـ (١١١٣م) بالغلات والرجال متجها إلى صور، وأسند الأفضل قيادة هذا الأسطول إلى الأمير

شرف الدولة بدر بن أبى الطيب الدمشقى، والى طرابلس السابق زمن سقوطها فى أيدى الصليبيين.

وقد وصل الأسطول إلى صور فى صفر سنة ٥٠٧ هـ، وبوصوله صور وانزاله الشحنات رخصت الأسعار في المدينة، فتحسن حالها وانتعشت ظروف أهلها.

وهكذا أفسد، تعاون طغتكين مع الأفضل شاهنشاه خطط الفرنج وأبعد خطرهم وكان الأفضل قد عهد إلى شرف الدولة بدر بن أبى الطيب الدمشقى مقدم الأسطول المصرى بتقديم هدية إلى ظهير الدولة طغتكين، وكانت عبارة عن بعض الخلع الفاطمية الفاخرة برسمه ورسم ولده تاج الملوك بورى وخواصهما، وكذلك برسم سيف الدولة مسعود نائب ظهير الدين فى صور، فقدمت إليهم بين مظاهر البهجة التى عمت نفوس المسلمين بسبب هذا التقارب بين الأفضل وطغتكين، وبقى الأسطول المصرى فى صور فترة لحمايتها من جهة وحتى تعتدل الرياح من جهة أخرى، ثم رحل منها فى العشر الأخير من شهر ربيع الأول من سنة ٥٠٧ هـ. وفى نفس الوقت، لجأ بلدوين إلى عقد هدنة مع الأمير مسعود والى صور فأجابه الأمير مسعود والى المدينة، وأنعدقت الهدنة بينهما واستقامت أحوال صور وأمنت الوافدين عليها من التجار والمسافرين من جميع الأقطار[٢٥٩].

ويذكر وليم الصورى أن صور كانت منذ دخول الأمير مسعود نائب طغتكين اليها خاضعة لحاكمين، فقد احتفظ خليفة مصر لنفسه بقسمين فيها، كحاكم أعلى لها، ومنح الجزء الثالث إلى صاحب دمشق، لأنه كان قريبا منها، وكان قد وثق ثقة تامة بطغتكين أتابك دمشق. ونواياه الصادقة فى حماية صور والدفاع عنها دون أن يطمع فى السيطرة عليها بل كان متأكدا من مساندته[٢٦٠] لسكان صور إذا ما تعرضوا لأى عدوان.

وقد كان لرواية وليم الصورى أثر كبير لدى بعض المؤرخين الحديثين، دفعهم إلى ترجيح قيام نوع من الادارة الثانية أو حكم فاطمى/ دمشقى مشترك بمدينة صور

وهو ما يعرف باسم Condominium[٢٦١].

ورغم الهدنة المعقودة بين الفرنج والأمير مسعود فى صور إلا أن العظيمى يؤكد على أن بلدوين خرج فى قواته لمنازلة صور فى عام ٥٠٨ هـ (١١١٤م) وأنه حاصرها برا وبحرا ونجح فى أسقاطها. ولكن المصريين على حد قوله تمكنوا من استعادتها بعد الحصار الشديد لها من البر والبحر، ويذكر أيضا أنه فى عام ٥١١ هـ (١١١٧م) عاود بلدوين حصار صور، من البر، بعد إغارته على منطقة قريبة من البحر الأحمر[٢٦٢].

ويورد المقريزى فى اتعاظ الحنفا، خبرا مشابها لما اورده العظيمى مفاده أنه فى عام ٥١١ هـ ملك الفرنج حوران وملكوا من أعمال حلب بزاغة وخربترت وملكوا مدينة صور[٢٦٣] هذا وكان قد ورد فى كتاب الالكسياد ما يشير إلى أن صور سقطت فى أيدى الصليبيين عام ١٠٩٧م (٤٩١ هـ) ثم استردها المسلمين بعد ذلك[٢٦٤].

وعلى أى حال فإن هذه الروايات التى تشير إلى سقوط صور سواء فى سنة ٤٩١ هـ كما ورد فى كتاب الألكسياد أو سنة ٥٠٨ هـ كما ذكر العظيمى أو سنة ٥١١ هـ كما ذكر المقريزى، لا تتفق تاريخيا مع واقع الأحداث، إذ أن نفس المقريزى قد عاد ليذكر لنا فى احداث سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢م) وهى السنة التى تلت وفاة الأفضل شاهنشاه[٢٦٥]، أنه فى هذه السنة من عهد الآمر بأحكام الله، كانت العملة تضرب باسمه فى ست مواضع هى القاهرة[٢٦٦] ومصر وقوص وعسقلان وصور والاسكندرية[٢٦٧] مما يتعارض مع النص السابق الذى أورده والذى يشير إلى سقوط صور فى أيدى الفرنج فى سنة ٥١١هـ.

كذلك تؤكد الأحداث التالية عدم صحة ما ورد من روايات بشأن سقوط صور فى السنوات سالفة الذكر.

ولما قتل الأفضل، خلفه على الوزارة المأمون البطائحى الذى لم يكن رغم

شجاعته على مستوى الأفضل من حيث الحنكة السياسية والقدرة على التصرف، فما كاد يتولى الوزارة، ويستبد بأمور البلاد حتى عزم على ازالة نفوذ طغتكين من صور، كما قرر عزل الأمير مسعود الذى كان يتولى المدينة من قبل طغتكين.

وفي بداية سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢م) أرسل المأمون الأسطول المصرى إلى ثغر صور بقيادة وحشى ابن طلائع مشحونا بالرحالة البحرية والجنود، ومحملا بكميات كبيرة من الغلال تقدر بخمسة عشر ألف أردب واقوات كثيرة. ولما وصل الأسطول المصرى إلى صور، خرج الأمير مسعود لاستقبال وحشى بن طلائع مقدم الأسطول، فطلب منه قائد الأسطول ان ينزل بسفينته فاستجاب مسعود لرغبته، ولكن ما كاد مسعود ينزل الى سفينة مقدم الأسطول حتى اعتقله وأقلع الأسطول عائدا إلى مصر بعد أن أنزل الجند على البر وأمرهم باحتلال صور. ولما وصل الأسطول الى مصر بالغت السلطات الفاطمية في أكرام مسعود وأنزل ضيفا على مصر في احدى الدور وزود بكل ما يحتاج إليه(٢٦٨).

ويعلل كل من ابن القلانسي وابن الأثير هذا التصرف بأن الأمير مسعود قد أساء إلى أهالي صور واضر بهم فكثرت شكاياتهم منه وتتابعت الى الآمر بأحكام الله ووزيره المأمون فأصدر المأمون قراراً باعتقاله.

ولما علم الصليبيون بأمر هذا الانقلاب الذى تم فى صور على يد المأمون البطائحي، تحركت أطماعهم من جديد فانتهزوا فرصة الخلافات التى أشعلها المأمون البطائحي مع نواب طغتكين فى صور، وبدأوا يعدون العدة لحصارها حصارا محكما من البر والبحر ومنع نفاذ أى عدد وأقوات تصل إليها تمهيدا لفتحها وأسقاطها هذه المرة.

٥- سقوط صور في أيدى الصليبيين سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤م)

عندما تنبه والى صور الجديد من قبل المأمون البطائحي بالتحركات الصليبية المريبة أخذ يعيد حساباته ويدرس وضع صور السياسي فأدرك مدى عجزه عن رفع

الخطر الصليبي الداهم، لقلة ما لديه من عدد وأقوات، فبادر بإرسال تقرير مفصل عن الأوضاع الاقتصادية والعسكرية في صور إلى الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله ليطلع على حقيقة الأمور بها.

وعندما بحث الخليفة ذلك مع كبار رجال الدولة قرر رد ولايتها الى ظهير الدين طغتكين أتابك دمشق، ليتولى حمايتها والذب عنها وعلى هذا النحو أصدر الخليفة الفاطمي منشور الولاية باسم طغتكين أتابك دمشق، مع حق مصر في الأشراف على المدينة وفرض سلطانها عليها وتم ذلك في جمادى الآخرة من سنة ٥١٧ هـ (يوليو / أغسطس (١١٢٣م)(٢٦٩).

ويذكر المقريزي أن الخليفة الآمر بالغ في تعظيم قدر طغتكين في المرسوم الخلافي الذي أصدره وأرسله إليه، وقد لقبه فيه «سيف أمير المؤمنين» وكانت الخلعة التي أرسلها اليه صحبة المرسوم تتألف من بدلة طميم منديلها طوله مائة ذراع شرب فيها ثمانية وعشرون ذراعاً مرقومة بذهب عراقي، وثوب طميم جميعه برقم ذهب عراقي، وثوب دبيقي وثوب سقلاطون داري، وثوب عتابي وشاسيه ديبقي ولفافة وغير ذلك من الكساوى برسم نسائه وأصحابه(٢٧٠).

ولم يتردد طغتكين في قبول هذه المسئولية الجسيمة ما دام ذلك يحقق له سعيه الجهادي، ولكنه ندب لتوليها، جماعة لم يكن لهم في مجال الحرب كفاية أو مهارة ففسد أمرها، مما زاد في طمع الصليبيين فيها(٢٧١).

ويذكر فوشيه دي شارتر أن الصليبيين اجتمعوا في عام ٥١٨ هـ (١١٢٤م) في بيت لحم وبيت المقدس للاحتفال بعيد ميلاد السيد المسيح، وفقا للتقاليد المرعية في تلك المناسبات الدينية، وحضر هذا الاحتفال دوج البندقية ورجاله، واحتفلوا مع الفرنج في خشوع ثم حلف الأعيان على حصار إما مدينة صور أو مدينة عسقلان بعد عيد الغطاس(٢٧٢). وكان الفرنج يفتقرون إلى الأموال، فقاموا بجمع مبالغ كبيرة من الناس، فردا فردا ليدفعوا للفرسان والمشاة والمأجورين، كما

اضطروا إلى رهن أنفس زخارف كنيسة القدس لدفع المال للرجال. ويؤكد فوشيه دى شارتر أن الفرنج والبنادقة وصلوا الى عكا، وهناك أعدوا خطتهم فى التوجه إلى صور ومحاصرتها، وكان ذلك يوم الخامس عشر من شهر مارس من ذلك العام[٢٧٣] ثم توجه الأسطول[٢٧٤] البندقى إلى داخل الميناء ورسا فى مكان آمن فى حين بدأت الجيوش الصليبية فى السيطرة على البساتين الواقعة بالقرب من صور، حيث أقاموا معسكرهم على شكل دائرة تطوق المدينة بحيث أغلقوا المنافذ أمام أهل المدينة للدخول إليها أو الخروج منها[٢٧٥].

وتكامل وصول القوات الصليبية إلى ظاهر مدينة صور فى شهر ربيع الأول[٢٧٦] من سنة ٥١٨ هـ، وفور وصولهم شرعوا فى سحب أسطولهم إلى اليابسة بالقرب من الميناء غير أنهم أبقوا سفينة واحدة فى عرض البحر لمنع أى سفينة للدخول للميناء، ثم حفروا خندقا حول المدينة، وبدأوا فى أعداد المواد اللازمة لانشاء الآلات الحربية[٢٧٧] والأبراج وقسموا أنفسهم إلى فريقين، وقد تولى قيادة الفريق الأول البطريرك ونبلاء المملكة وقد تمكن هذا الفريق من نصب برج كبير على سور المدينة، واشتبك عسكر هذا الفريق فى قتال عنيف مع المسلمين المدافعين على شرفات الأسوار، فى نفس الوقت الذى كانت منجنيقاتهم تدك الأسوار والأبراج مما أشاع الذعر والهلع فى نفوس أهالى صور.

وتولى قيادة الفريق الثانى، دوق البندقية وسريته، وبدأ ببناء آلات حربية مماثلة لآلات الفريق الأول، ونصبوها فى مواضع استراتيجية غاية فى الأهمية ثم توالت هجماتهم وغاراتهم. أما أهالى صور المدافعون عن مدينتهم فأدركوا عجزهم عن مواجهة هذا الهجوم العاتى ولم يعودوا قادرين على تحمل ما سببه من أضرار سواء من قبل الفريق الأول أو الثانى، وما أدى إليه من تخريب وتدمير، ومع ذلك فقد واصلوا صمودهم ولم يستسلموا أو ييأسوا بل قاوموا باستماتة وشرف وتمكنوا من بناء آلات حربية داخل صور، وبدأوا يقذفون صخورا ضخمة من مناجيقهم المنصوبة وراء أسوار المدينة، فتساقطت حجارتها على الأبراج الصليبية، مما أشاع الفوضى

والارتباك فى هذا القطاع.

ويذكر وليم الصورى أن هذا الجانب خضع لسيادة المسلمين بعد أن جبن الصليبيون عن البقاء فى هذه المنطقة، وفر الجنود الذين كان عليهم حراسة الآلات الحربية بعد أن تعرضوا لوابل من السهام، قذفهم بها عسكر المسلمين، فضلا عن سيل من الصخور الضخمة التى كانوا يقذفوها من داخل المدينة، وحالت بينهم وبين الأقتراب من الأبراج(٢٧٨).

غير أن الصليبيين سرعان ما استعادوا توازنهم وبدأوا يردون الضربة بضربة أشد ضراوة منها، كما شرعوا فى قذف كتل ضخمة من الحجر، مما أدى إلى تحطيم جانب كبير من أبراج المدينة وأسوارها، وأدى ذلك إلى اثارة كميات من الغبار الناتج من تفتيت الحجارة وتحلل الملاط الذى يربط بينها مما شكل ستار بين المقاتلين، حال بين المسلمين وبين رؤية اعدائهم، كما ارتطمت جميع القذائف المتطايرة والتى تجاوزت الأسوار والأبراج فى سور المدينةبالمنازل والأبنية فحالتها الى شظايا صغيرة.

وفى نفس الوقت اشتبكت جماعات من أهالى صور المسلمين خارج الأسوار مع مشاة وفرسان الفرنج فى معارك دامية، استبسلوا فيها واستماتوا خلالها للدفاع عن مدينتهم(٢٧٩).

ويعترف وليم الصورى بأن المعارك بين الجانبين كانت متعادلة، ولم ترجح كفة طرف على الآخر إلا بعد وصول بونز كونت طرابلس الذى كان من أمراء المملكة، فعندئذ فقط، تضاعفت قوة الصليبيين(٢٨٠)، وازدادت ضراوة هجومهم.

وتجمع المصادر الصليبية على أنه كان بداخل صور نحو سبعمائة من عسكر الدمشقيين لعبوا دورا كبيرا فى الدفاع عن صور وحمايتها. كما تجمع على أن أهالى عسقلان قد خرجوا لمهاجمة بيت المقدس مع حاميتهم الفاطمية كنوع من ممارسة الضغط على الفرنج لارغامهم على فك الحصار عن صور والتوجه لحماية

مملكتهم في القدس(٢٨١).

غير أن بعض الصليبيين الذى كانوا في بيت المقدس، انتظروا حتى بدأ أهالى عسقلان في الرجوع إلى مدينتهم، فتتبعوهم بحذر مسافة قصيرة ونجحوا في قتل اثنين وأربعين رجلا مسلما كما أسروا أربعة فرسان واستولوا على سبعة عشر جوادا ثم عادوا إلى القدس(٢٨٢).

وفي تلك الأثناء، كان الأعياء قد ظهر بوضوح على أهالى صور، وبدأوا يعانون من نقص في المؤن والأقوات فتداول الصوريون الأمر وقرروا ان يرسلوا الى كل من الخليفة الفاطمى الآمر باحكام الله وطغتكين أتابك دمشق، لكي يسرعا إلى نجدتهم ووصفوا لهم مدى الضعف الذى آلوا إليه وتفوق عدوهم عليهم، ويذكر وليم الصورى أن تلك المكاتبات التى أرسلوها قد شدت من أزرهم وشجعتهم على مواصلة الصمود(٢٨٣).

وتجمع المصادر الاسلامية والصليبية على أن هذه النداءات استنهضت حمية طغتكين وحماسه الجهادى فبادر بمغادرة دمشق في قوة كبيرة من الأتراك، وعدد كبير من الفرسان للدفاع عن صور. وبينما تتفق المصادر العربية على أنه اتجه إلى بانياس(٢٨٤)، يذكر وليم الصورى أن طغتكين استقر في منطقة مجاورة لصور تقع على ضفاف نهر يبعد عنها بنحو أربعة اميال»(٢٨٥)، كما يذكر أن أسطولا كبيرا ومجهزا بالعدد والأقوات والرجال كان قادما من مصر قدر وصوله إلى صور في غضون ثلاثة أيام، وأن خبر هذا الاسطول شاع في صور وأثار مخاوف قادة الفرنج فاجتمعوا للتشاور في اتخاذ الخطوات التالية ورأوا ضرورة تقسيم الجيش الصليبى إلى ثلاثة أقسام، القسم الأول منها يقوده، وليم دى برى كونت طرابلس، وكافل المملكة الذى عينه الملك واقتصرت مهمته على مواجهة جيش طغتكين أتابك دمشق. والقسم الثانى بقيادة دوج البندقية، وقد عهدوا إليه مهمة الابحار مع قواته في الشوانى لقتال المصريين عند وصولهم.

أما القسم الثالث فكان يتألف من طوائف مختلفة تجمعت من كافة الامارات الصليبية ومعظمهم من البنادقة، للمشاركة فى عمليات الحصار، وحراسة الآلات الحربية والأبراج المتحركة كما أسندت إليهم مهمة متابعة المهاجمين بالمجانيق والآلات والعدد(٢٨٦).

ويجدر بنا أن نأخذ رواية وليم الصورى بشأن وصول اسطول مصرى إلى صور بشئ من الحذر إذ أن المصادر الاسلامية لا تذكر أى خبر عن وصول أى نجدة من مصر إلى طغتكين فابن القلانسى يذكر أن ظهير الدين طغتكين توجه «فى العسكر إلى بانياس للذب عن صور ونفذت المكاتبات الىّ مصر باستدعاء المعونة لها، وتمادت الأيام بذلك إلى أن ضعفت النفوس وأشرف أهلها على الهلاك، وعرف أتابك جلية الأمر وتعذر تلافيها ووقع اليأس من المعونة لها فراسل الأفرنج بالملاطفة والمداهنة ....»(٢٨٧). وكذلك ابن ميسر الذى يذكر أنه «تقاصر المأمون عن نجدتهم فأغاثهم ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق ووصل إلى بانياس... (٢٨٨)». كما يذكر ابن الاثير أن طغتكين أرسل «إلى مصر يستنجدهم، فلم ينجدوه وتمادت الأيام وأشرف أهلها على الهلاك...»(٢٨٩). ويذكر ابن شداد أن طغتكين «كتب إلى مصر يسأل من أميرها معونة بمراكب فى البحر فلم يجبه إلى ذلك...(٢٩٠)».

أما المقريزى فقد أخذ بمقولة ابن ميسر فيقول «وتقاصر المأمون عن نجدتهم وأعانهم طغتكين صاحب دمشق ووصل إلى بانياس...(٢٩١)». فى حين يذكر ابن تغرى بردى أنه «ما أبقى أهل صور رحمهم الله تعالى ممكنا فى قتالهم مع الفرنج وثباتهم فى هذه السنين الطويلة مع عدم المنجد لهم من مصر...» وفى موضع آخر يقول «ولم تأت نجدة المصريين، ودام الأمر بين أهل صور والفرنج تارة بالقتال وتارة المهادنة الى أن طال على أهل صور الأمر ويئسوا من نصرة مصر...»(٢٩٢). وبات استسلام صور وشيكا ومع ذلك فإن أهل صور آثروا القتال حتى الموت ولم تعدم هذه المدينة من بطولات فردية سجلت بسطور من نور فى تلك اللحظات الأخيرة، وقد استقينا معلوماتنا عن هذه البطولات من نفس وليم الصورى الذى وصف لنا

كيف تعاهد شباب مدينة صور على الاستشهاد وأقسموا الايمان مع بعضهم البعض وصمموا على التسلل إلى داخل المعسكر الصليبى بهدف احراق الآلات الحربية والأبراج المتنقلة. ويعبر وليم الصورى عن هذا العمل الانتحارى الذى قام به هؤلاء الشباب بقوله «وأملوا أن يحصلوا بهذه الطريقة على تقدير أبناء مدينتهم وأن يحققوا شهرة أبدية فى عيون الأجيال القادمة...»(٢٩٣).

وقد تسللوا بالفعل إلى المعسكر وأضرموا النيران فى أحدى الآلات الحربية وأحرقوها ولكنهم قتلوا على أيدى الصليبيين، واستشهدوا تحت مرأى من أصدقائهم.

واستمرت المقاومة الاسلامية، داخل المدينة، فقد نصب الأهالى فى صور منجنيقا وبدأوا يصوبون قذائفهم على المعسكر الصليبى، ولكن الصليبيين اسكنوا هذا المنجنيق بفضل مقاتل أرمنى من انطاكية صوب قذائفه الحجرية الضخمة على المنجنيق فدمره.

وفى هذه اللحظات الحرجة التى كانت النفوس تتأرجح خلالها بين اليأس والرجاء التمس أهل صور النجدة من قائد مسلم شهير، وكان له نصيب كبير من جهاد العدو، وأعنى به بلك بن بهرام بن أرتق صاحب حلب، الذى ذاعت شهرته منذ أن تمكن من أسر بلدوين ملك القدس وجوسلين صاحب الرها، وما أن وصلت صرخات أهل صور له حتى تجهز لنجدتهم وعزم بصدق على مساندتهم بعد أن يفرغ من حصاره لمنبج، ولكن القدر لم يمهله إذ استشهد فى منبج، سنة ٥١٨ هـ مما اضاع الأمل الوحيد المتبقى لأهالى صور فى التغلب على عددهم(٢٩٤).

ومع ذلك فلم يفقد أهل صور الأمل فى استنقاذ مدينتهم، فقد أقدم جماعة من السباحين المهرة من أهل صور على السباحة إلى الميناء الخارجى ونجحوا فى الوصول الى السفينة التى كان الصليبيون قد تركوها لحماية الساحل من أى هجوم

قد تقوم به السفن الاسلامية الفاطمية، وقتلوا أحد حراسها بعد أن سحبوها إلى الميناء الداخلى[٢٩٥] .

كذلك تكرر هجوم أهالى عسقلان وحاميتهم الفاطمية على المناطق التابعة للصليبيين محاولين بذلك أن يصرفوا نظر الفرنج عن صور، وهذه المرة هاجم أهالى عسقلان ريف منطقة بيت المقدس وأحرقوا قرية يسميها فوشيه دى شارتر[٢٩٦] البيره فى حين يسميها وليم الصورى بيلين[٢٩٧] .

ولم تؤد هذه الغارة العسقلانية إلى تخفيف الضغط عن صور التى أنهكها الحصار واستفحلت فيها المجاعة. وحاول طغتكين أن يهادن الصليبيين، ولكن جهوده ضاعت عبثا ولم يتزحزح الفرنج عن مواقعهم إلى أن يستسلم لهم، وهذا ما حدث بالفعل فلم يعد امام أهلها سوى التسليم بعد أن طحنتهم المجاعة، وفتك الفرنج بقواتهم وأغلقت أمامهم أبواب النجاة[٢٩٨] .

ونجح طغتكين بعد مفاوضات أجراها مع قادة الفرنج فى انتزاع الأمان لكل أهالى صور واشترط لتسليمها أن يخرج منها كل من أراد الخروج من العسكر والرعية آمنا بما يستطيع حمله فى حين يبقى من يريد الاقامة بمدينته[٢٩٩] . وقبل القادة الفرنج والبنادقة شروط طغتكين، على الرغم من اشتداد ثائرة الجند والبحريين الذين كانوا يأملون فى نهب صور وهددوا بالتمرد والثورة، ولكن الشروط التى التزم بها قادتهم نفذت، ومنح أهالى المدينة الأمان[٣٠٠] . فخرجت منها حشود هائلة من أهلها أنفت المقام فى ظل الحكم الصليبى، ولم يبق بصور إلا كل ضعيف عجز عن الرحيل.

وتم سقوط صور فى أيدى الصليبيين فى ٢٣ جمادى الأولى من سنة ٥١٨ هـ الموافق ٧ يوليو ١١٢٤م[٣٠١] .

المصادر والحواشي:

(١) الاصطخرى، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحينى، القاهرة، ١٩٦١، ص ٤٥ - ناصر خسرو علوى، سفرنامة، نقله إلى العربية د. يحيى الخشاب، القاهرة، ١٩٤٥، ص ١٥ - غالب الترك، جنوب لبنان، بحث في ندوة لبنان في محافظاته، بيروت، ١٩٦١، ص ٨٩.

(٢) الادريسى، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، القاهرة، بدون تاريخ، جـ١، ص ٣٦٥ - ياقوت الحموى، معجم البلدان، بيروت ١٩٥٧، المجلد الثالث، ص ٤٣٣ - الحميرى، الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق . احسان عباس، بيروت، ١٩٨٤، ص ٣٦٩ - وارجع كذلك إلى ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق ونشر سامي الدهان، دمشق، ١٩٦٢، ص ١٦٣.

(٣) ناصر خسرو علوى، سفرنامة، ص ١٥.

(٤) وليم الصورى، تاريخ الحروب الصليبية، نقله إلى العربية د. سهيل زكار، طبعة مؤسسة دار الفكر، ١٩٩٠، جـ٢، ص ٦١٣. ويعلق وليم الصورى على وضع صور الجغرافى بقوله أن صور التى كانت محاطة بالماء من جميع الجهات باستثناء شريط برى طويل وضيق، كانت فيما مضى جزيرة منفصلة تماما عن البر الرئيسى مما جعل الملك الآشورى نبوخذ نصر يحاول توصيلها بالبر ليحكم حصارها إلا أنه لم يكمل هذا العمل ويذكر الاستاذ غالب الترك أن صور كانت مكونة فى العصر القديم من عدة جزر تفصل فيما بينها أقنية بحرية مثل مدينة البندقية، جمع فيما بينها الملك حيرام (ارجع الى غالب الترك، جنوب لبنان، ص ٩٠)، أما الاسكندر فقد ربطها بالبر ثم استولىّ عليها بقوة السلاح (ارجع إلى وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٦١٥) وارجع كذلك إلى

(Terence Wise, The wars of the Crusades, Ospery, 1978, P. 206.

(٥) الحميرى، الروض المعطار، ص ٣٦٩، منيرالخورى، صيدا عقب حقب التاريخ، بيروت، ١٩٦٦، ص ١٨ –

Frederick Carl Eislen, a study in Oriental history, New york, 1907, Pl-Dictionnaire de la Bible, Pub, Vigouroux T.V, Paris, 1928, P. 1704.

ومدينة صيدا مدينة ساحلية تقع شمالى صور، وتشغل بقعة من الأرض على شكل مثلث قاعدته إلى الداخل، ورأسه شبه جزيرة أو نتوء بارز فى البحر، يتقدمها عدد من الجزر الصخرية تحمى الخليج الصغير فى الشمال الشرقى من العواصف البحرية. وقد ازدهرت صيدا كميناء تجارى هام فى حقب التاريخ المختلفة. ويختلف المؤرخون فى تفسير اسم صيدا، فبعضهم ينسبها إلى «صيدون» الابن البكر لكنعان بن حام بن نوح، وبعضهم يرى أن اسمها مشتق من الجذر السامى «صيد» بمعنى صيد الأسماك، وهناك من يرى أن صيدون سميت باسم إله يحمل هذا الاسم، وقد ارتبطت صيدا بصور فى كثير من حقب التاريخ المختلفة، فقد ورثت صور عظمة صيدا وزعامتها منذ بداية القرن العاشر قبل الميلاد، وظلت صور تحتفظ لنفسها بالزعامة على سائر المدن الفينيقية حتى تعرضت سواحل فينيقيا لغزوات الآشوريين منذ أواخر القرن الثامن ق. م. فكان ذلك إيذانا بزوال نجم صور وأفوله وعودة صيدا لاسترجاع مكانتها (لمزيد من التفاصيل، ارجع إلى محمد غلاب، الساحل الفينيقى وظهيره فى الجغرافيا والتاريخ، بيروت، ١٩٦٩، ص ٣٥٩ – وعن اسم صيدا والآراء المختلفة ارجع الى الكتاب المقدس، العهد العتيق، بيروت، ١٩٦٠ : سفر التكوين ١٠ : ١٥، سفر اخبار الأيام الأول ١ : ١٣، السيد عبد العزيز سالم، دراسة فى تاريخ مدينة صيدا فى العصر الاسلامى، بيروت

١٩٧٠، ص ١٥ وما يليها - أسامة زيد زكى، صيدا ودورها فى الصراع الصليبى الاسلامى، الاسكندرية، ١٩٨١، ص ١٣- ١٥).

(٦) الحميرى، الروض المعطار، ص ٣٦٩ - وليم الصورى، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢، ص ٦١٣.

(٧) ناصر خسرو علوى، سفر نامة، ص ١٥ - وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٦١٧.

(٨) الحميرى، الروض المعطار، ص ٣٦٩ - وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٦١٢. وفيما يتعلق بعين المياه الذى كان يقع على مدخل باب المدينة البرى والذى ذكره الحميرى، فنرجح أنه هو نفسه الينبوع الذى وصفه وليم الصورى بأنه الينبوع الذى تحدث عنه النبى سليمان فى أغنيته فى نشيد الانشا «ينبوع جنات بئر مياه حية وسيول من لبنان». ويبدو أن هذه الآبار لم تكن صالحة للشرب أو جاهزة للإستخدام الآدامى وقت الحصار الصليبى الأخير سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤م) للمدينة، إذ أن ستيفن رانسمان يؤكد على أن مياه الشرب كانت تأتى إلى صور فى هذه الآونة عن طريق سقاية ممتدة من البر، ولم يكن بشبه جزيرة صور، بئر تستمد منه الماء، فلما جاء الفرنج وضربوا الحصار الأخير حول المدينة سدوا هذه السقاية، غير أن مياه الأمطار ملأت الجباب والصهاريج، فلم يحس الأهالى بوطأة العطش إلا بعد فترة طويلة (ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، بيروت، ١٩٦٨، جـ٢، ص ٢٧٠).

(٩) وليم الصورى، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢، ص ٦١٤، فى حين يذكر ناصر خسرو علوى أن المياه كانت تأتى إلى صور من الجبال (ناصر خسرو علوى، سفرنامة، ص ١٥).

(١٠) يرجع اسم جبل عامل إلى عاملة القضاعية وهى أم الحارث بن عدى الذى تنسب قبيلته إليها، وقد نزلوا بلاد الشام مع قبيلة جذام ولخم والأزد والغساسنة

فى رأى، وقيل أن عاملة هو ولد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وهى قبيلة هاجرت من اليمن على أطراف الشام قبل الميلاد بـ ٣٠٠ سنة بعد حادثة سيل العرم وانهيار سد مأرب فى رأى آخر، وقد تحرف الاسم وأصبح يسمى بجبل عامل بدلا من عاملة (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، بيروت، ص ١٩٦٣، ص ٢٥ - رضا السيد حسن، الصليبيون وآثارهم فى جبل عامل، بيروت، ص ١٩٨٧، ص ١٥، ١٦). ويعرف جبل عامل فى العصر الحديث بجبل بشارة، وكان يعرف فى المصادر العربية بجبل الخليل وجبل الجليل. أما شخصية بشارة الذى نسبت إليه هذه البلاد أو هذا الجبل، فقد كانت مثار مناقشات عديدة، فمن المؤرخين من يرى أنه حسام الدين بن بشارة بن أسد الدين بن مهلهل بن سليمان من سلامة العاملى من رهط عاملة بن سبأ، الذى شارك صلاح الدين يوسف بن أيوب فى فتح هونين فأقطعه بانياس، ومنهم من يرى أن المنطقة سميت كذلك نسبة إلى بشارة بن مقبل القحطانى (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى رضا السيد حسن، الصليبيون وآثارهم فى جبل عامل، ص ١٦). هذا وقد ذكر ابن عساكر فى كتابه تاريخ دمشق الكبير، جبل الخليل فى باب «فضل مواضع بظاهر دمشق وأضاحيها وفضل جبال تضاف اليها ونواحيها» باعتبار أن جبال بشارة أو الخليل كانت بمثابة همزة الوصل بين دمشق والمناطق الداخلية من جهة، والسواحل الشامية من جهة أخرى (ارجع الى ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، بيروت، ١٩٧٩، جـ١، ص ٢٣٨). ويتفق معه فى ذلك ابن شداد الذى أعتبر أن جبل الجليل وأهله قوم من عاملة» من كور دمشق (ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص ٣٧).

(١١) رضا السيد حسن، الصليبيون وآثارهم فى جبل عامل، ص ١٨، ١٩، ٢٠.

(١٢) لمزيد من التفاصيل، ارجع إلى المرجع السابق، ص ١٧، ٢٠، ٢١.

(١٣) ارجع الى محسن الأمين، خطط جبل عامل، بيروت، ١٩٨٣، ص ٤٩ -

٥١ - رضا السيد حسن، المرجع السابق، ص ٢١.

(١٤) رضا السيد حسن، نفسه، ص ٢٩.

(١٥) سنقوم بشرح تفاصيل هذه الأحداث على الصفحات التالية.

(١٦) رضا السيد حسن، نفسه، ص ٢٩، ٣٠.

(١٧) فوشيه الشارترى، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة د. زياد العسلى، عمان، ١٩٩٠، ص ٢١٢ (ارجع إلى تعليق د. زياد العسلى) وارجع كذلك إلى.

Jean Richard, The Latin Kingdom of Jerusalem, Pub by North Holland company, Amesterdam, New York, Oxford, 1979, V.I, P. 30.

(١٨) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ليدن، ١٣٠٢، ص ١٠٥.

(١٩) المصدر السابق، ص ١١٦.

(٢٠) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ٣٥٥.

(٢١) ابن حوقل، صورة الأرض، طبعة بيروت، بدون تاريخ، ص ١٦٠.

(٢٢) اليعقوبى، كتاب البلدان، ١٨٩٢، ص ٣٢٧.

(٢٣) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص ١٢٣.

(٢٤) ياقوت الحموى معجم البلدان، ص ٤٣٢ (مجلد ٣).

(٢٥) نقولا زيادة، التطور الادارى لبلاد الشام بين بيزنطية والعرب، أحد أبحاث الندوة الأولى من أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٦، ص ١١٨، ١٢٥، ويذكر أن الشام كان ينقسم فى العهد البيزنطى فى أواسط القرن السادس للميلاد إلى ثمانية أقسام هى:

١- سورية الأولى وهى تشمل شمال سورية من الساحل إلى الولاية الفراتية شرقاً

ومن أهم مدنها انطاكية واللاذقية وبيورية (حلب) وخلقيس (قنسرين).

٢- سورية الثانية وكانت تمتد من الساحل (جنوبى سورية الأولى عبر أواسط بلاد الشام إلى الصحراء تقريبا) وكانت أفامية مركزها الادارى وتضم لاريسا (شيزر) وأبيفامية (حماة) وارتوزا (الرستن).

٣- فينيقية الساحلية وعاصمتها صور وكانت تضم طرابلس وبيروت وصيدا وعكا.

٤- فينيقية اللبنانية أو الداخلية وكانت أكبر مدنها أميزا (حمص) ودمشق وهى العاصمة وبعلبك وتدمر.

٥- فلسطين الأولى وكانت تشمل السهل الساحلى من جنوبى جبل الكرمل حتى جنوبى رافيا (رفح) وأهم مدنها يافا وعسقلان وغزا وأريحا وايليا (القدس) ونابلس، وكانت عاصمتها قيسارية.

٦- فلسطين الثانية وكانت تتكون من مرتفعات الجليل ومنابع الأردن والجولان وعاصمتها بيسان وتضم بعض حلف المدن العشر مثل طبرية وصفورية واللجون.

٧- فلسطين الثالثة، وعاصمتها بصرى وكانت تشمل البلاد التى كانت تقع تحت حكم البتراء أى كانت جزءا من دولة الأنباط. وكانت أيلة (العقبة) مقر حاكمها ومن مدنها البتراء، وبئر السبع.

٨- العربية وتشمل المنطقة الواقعة إلى الشرق من فلسطين الأولى والثانية. (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى نقولا زيادة، المرجع السابق، ص ١٢٠).

(٢٦) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص ١٦٣ وليم الصورى، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢ ص ٦١٤، ٦١٧ - (ارجع إلى كذلك إلى فوشيه الشارترى، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة د. زياد العسلى ص ٢٠٨).

(٢٧) الادريسى، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، طبعة القاهرة، مكتبة الثقافة

الدينية، بدون تاريخ، جـ١ ، ص ٣٦٥ – الحميرى، الروض المعطار، ص ٣٦٩ وارجع كذلك إلى نعيم فرح، ثلاثة مصادر تلقى بعض الأضواء على جوانب من الحياة الاقتصادية، من أبحاث الندوة الأولى من اعمال المؤتمر الداولى الرابع لبلاد الشام، عمان، ١٩٨٦ ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

وقد شغلت صور مركزا تجاريا هاما فى العصور القديمة، وإن كانت صيدا قد تفوقت عليها حتى مجيء قبائل البلست P.L.S.T من كريت منذ سنة ١٢٠٠ ق.م واحتلالهم لأراضيها عنوة، هنا بدأت صيدا تفقد عظمتها وزعامتها التجارية، وبدأت صور تحل محلها وذلك منذ بداية القرن العاشر قبل الميلاد (أمين خليفة، تاريخ سوريا قبل الفتح الاسلامى، بيروت، ١٩٣٠ ، ص ١٠٧ –،محمد غلاب، الساحل الفينيقى، ص ٣٠٠). وكانت صور تتجر فى أخشاب الأرز وتبيعها لليهود لبناء الهيكل الذى شيده والى يهودا فى زمن كورش ملك فارس (السيد عبد العزيز سالم، دراسة فى تاريخ مدينة صيدا، ص ٣٠) كذلك عرفت صور فى العصور القديمة الصباغة القرمزية والحمراء والبنفسجية التى عرفت بالأراجوانية، وكان أهالى صور القدامى، يستخرجون هذه الصبغة من محارات الموريكس والباكسينيوم المشهورة التى كانت تكثر على السواحل فى مدينتهم صور، وكذلك صيدا. وقد وصل تجار صور إلى بلاد غالة وايطاليا ودلماسيا، وعثر على كتابات يونانية ولاتينية، تؤكد وجود تجار صوريين وصيدونيين وبيروتيين فى تلك المناطق فى العصر الرومانى (فوشيه الشارترى، تاريخ الحملة إلى القدس، ص ٢٠٨ – يوسف مزهر، تاريخ لبنان العام، طبعة بيروت، جـ١ ، ص ١٤٦).

(٢٨) وليم الصورى، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢ ، ص ٦١٧ .

(٢٩) ناصر خسرو علوى، سفرنامة، ص ١٥ – صلا ح الدين نوار، العدوان الصليبى على العالم الاسلامى (٤٩٠ – ٥١٥ هـ/ ١٠٩٧ – ١١٢١م، الاسكندرية، ١٩٩٣ ، ص ٢٩٧ .

(٣٠) الاصطخرى، المسالك والممالك، ص ٤٥ .

(٣١) المقدسى، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٠٦، ص ١٦٤ .

(٣٢) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٠ .

(٣٣)الأدريسي، نزهة المشتاق، ص ٣٦٥ .

(٣٤) ياقوت الحمرى، معجم البلدان، ص ٤٣٣ (مجلد ٣) .

(٣٥) الحميرى، الروض المعطار، ص ٣٦٩ .

(٣٦) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ١٦٤ .

(٣٧) الحميرى، الروض المعطار، ص ٣٦٩. وعن وصف تحصينات عكا فى العصر الاسلامى ارجع إلى المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ١٦٢، ١٦٣ – ناصر خسرو، سفر نامة، ص ٥٠ – أحمد مختار العبادى، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام، وبيروت، ١٩٧٢، القسم الأول الخاص بالدكتور السيد عبد العزيز سالم، ص ٥٠ .

(٣٨) وليم الصورى، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٦١٧ .

(٣٩) The Alexiad of Anna Comenena, London, 1979, P. 442.

(٤٠) اليعقوبى، كتاب البلدان، ص ٣٢٧ .

(٤١) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ٣٥٥ .

(٤٢) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص ١٧٣ . وهو يذكر أن دار الصناعة التى أنشأها معاوية فى الشام كانت فى عكا ولكن الخليفة هشام بن عبد الملك نقلها إلى صور.

(٤٣) الحميرى، الروض المعطار، ص ٣٦٩ وارجع كذلك إلى السيد عبد العزيز

سالم، تاريخ البحرية الاسلامية، ص ٥١.

(٤٤) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، بيروت، ١٩٠٨، ص ١٦٤، ١٧١، ٢٠٧ - ابن الأثير، الكامل فى التاريخ،بيروت، ١٩٦٦، جـ١٠، ص ٣٤٥، ٤٧٥، ٤٧٧، ٤٧٩ - المقريزى، اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء طبعة القاهرة، تحقيق د. محمد حلمى محمد أحمد، جـ٣، ص ٣٧، ٤٢، ٤٣، ٤٥ - ابن خلدون، العبر، جـ٩، القسم الخامس، ص ٤٠٨، ٤٠٩ - فوشيه الشارترى، تاريخ الحملة إلى القدس ص ١٤٨، ١٥٦ - سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى، القاهرة، بدون تاريخ، جـ١، ص ٣٠١، ٣٠٢ -

Jean Richard, The Latin Kingdom, of Jerusalem,V.I,p22-25.

ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، نقله إلى العربية الدكتور السيد الباز العرينى، بيروت، ١٩٦٨، جـ ٢، ص ١٦١، ١٥٥.

(٤٥) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص١٥٩- رضا السيد حسن- الصليبيون وآثارهم فى جبل عامل، ص٤٩.

(٤٦) ياقوت الحموى، معجم البلدان، حـ٢، ص١٤- وليم الصورى، حـ٢ ،ص٦٢٧

Jean Richard, the Latin Kingdon,p24,15 ، ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة د. السيد الباز العرينى، بيروت، ١٩٦٨ حـ٢ ،ص ١٦١,١٥٥.

(٤٧) عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس الصليبية، الاسكندرية، ١٩٨٥، ص ٨٩ فى حين يذكر جان رشارد أن قلعة سكانداليون قد تم بناؤها عام ٥١٠ هـ (١١١٦م) (Op. Cit., P. 26) ويتفق معه فى هذا الرأى كل من روبن فيدين وجون طومسون (ارجع Fedden and John Thomson,

.Crusader Robin Castles, London, 1957, P. 24)

وان كانا يذكران أن بناء قلعة تبنين كان قد تم فى عام ٤٩٧هـ (١١٠٣م) .(Op. Cit., P. 24)

(٤٨) رضا السيد حسن، الصليبيون وآثارهم في جبل عامل، ص ٩٧، ٨٩.

(٤٩) ياقوت الحموى، معجم البلدان، جـ٢، ص ١٤ وان كان ابن شداد قد ذكر فى كتابه الاعلاق الخطيرة أن حصنى هونين وتبنين قد بناهما الفرنج بعد الخمسمائة ويقعا بين جبل عوف وبين بانياس وصور (ص ١٥٢). ولكن سير الأحداث التاريخية يثبت أن حصن تبنين بنى قبل عام ٥٠٠ هـ إذ أن أهالي صور سيقومون بمهاجمته سنة ٥٠٠ هـ لأنه كان مركز انطلاق الغارات الصليبية على مدينتهم كما سنوضح بالتفصيل فى حينه.

وارجع كذلك إلى ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢، ص ١٥٥. وهو يذكر أن هيو سانت أومر قد شيد قلعة أخرى على التلال الواقعة إلى الجنوب الغربى من بحيرة طبرية أطلق عليها العرب اسم علعال. ويؤكد ستيفن رانسمان أن بناء الحصنين تبنين وعلعال قد اكتمل فى خريف سنة ١١٠٥م (٤٩٩ هـ) ويوافقه فى الرأى جان رشارد. (Jean Richard, The Latin Kingdom, P. 25). فى حين يؤكد الدكتور رضا السيد حسن بناء على ما أورده وليم الصورى أن حصن تبنين بنى فى سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧م) (أنظر رضا السيد حسن، الصليبيون فى جبل عامل، ص ١٠١). وعلى أى الأحوال فإن حصن علعال لم يطل تبعيته للصليبيين إذ أن قوات طغتكين اتابك دمشق تمكنت من الايقاع بهيو أثناء عودته إلى علعال بغنيمة ثقيلة بعد غارة موفقة، وقتل متأثرا بجراحه مما سهل المهمة طغتكين للاستيلاء على علعال (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى اسامة زيد زكى، صيدا ودورها فى الصراع الصليبى الاسلامى نقلا عن المؤرخ اللاتينى البرت دكس Albert d'Aix وارجع كذلك إلى:.

Jean, Richard, Op. Cit., P. 31.

(٥٠) لمزيد من التفاصيل عن حصن تبنين وآثاره ومحاولات صلاح الدين يوسف بن أيوب الاستيلاء عليه ارجع إلى رضا السيد حسن، الصليبيون وآثارهم في جبل عامل، ص ١٠٦ وما يليها،

Robin Fedden and John Thomson, Crusader Castles, P. 24.

Terene Wise, The Wars of the Crusades, 1096-1291, Ospery, 1978, P 200.

ويذكر تيرينس وايس أنّ تحصينات مشابهة لتبنين أقيمت فيما بين عامي (٥٣١ ، ٥٤٤ هـ) (١١٣٦ - ١١٤٩م) لاسقاط عسقلان ومنع الامدادات الفاطمية عنها.

(٥١) رضا السيد حسن، المرجع السابق، ص ١٤٢، ١٤٣.

(٥٢) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٥٩ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة صيدا، ص ٩٥.

(٥٣) صلاح الدين نوار، العدوان الصليبي، ص ٢٩٩.

(٥٤) وإلى جانب هاتين الخلافتين، وجدت خلافة ثالثة في الأندلس، بعد أن تلقب عبد الرحمن بن محمد الأموي في قرطبة بالناصر لدين الله، ولكننا لن نتعرض لها في دراستنا وسنتناول فقط خلافتي المشرق الاسلامي.

(٥٥) على **الصعيد الاقتصادي**، حاولت الدولة الفاطمية ضرب طريق الخليج العربي لتجارة التوابل للسيطرة على تلك التجارة، وتدعيم اقتصادها على حساب الدولة العباسية. وشجعت ذلك عن طريق نشر المذهب الاسماعيلي في اليمن وعمان والهند ونجحت في ذلك في كل من اليمن والهند أما عمان فظلت تتمسك بمذهبها الإباضي. وقد أشارت السجلات المستنصرية إلى

وجود دعاة اسماعيلية فاطميين فى تلك البلاد، وقد سمى الدعاة الفاطميون الذين ذهبوا إلى الهند على هيئة تجار باسم «البوهرا» نسبة لتجارتهم فى التوابل أو البهار، ولذلك أطلق فيما بعد على طائفة الشيعة الهنود اسم طائفة البهرة. وكانت نتيجة هذه المحاولات الفاطمية نجاحهم فى تعطيل نشاط الخليج العربى كطريق رئيسى لتجارة التوابل، واحيائهم وابرازهم طريق البحر الأحمر كمنافس خطير للخليج العربى وان لم يقضوا تماما عليه كما يذكر بعض المؤرخين (لمزيد من التفاصيل عن التنافس الاقتصادى بين الخلافتين العباسية والفاطمية ارجع إلى جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٢٤ وما يليها - عصام الدين عبد الرءوف، اليمن فى ظل الاسلام منذ فجره حتى قيام دولة بنى رسول، القاهرة ١٩٨٢، ص ١٤٥ - ١٨٠ السجلات المستنصرية، تحقيق د. عبد المنعم ماجد، القاهرة، ١٩٥٤، ص ٣٨ - ٤٢، ص ١٦٧، ١٦٩، ص ١٧٦ - ١٧٩، ص ١٩٠ - ١٩٣، ص ٢٠٣ - ص ٢٠٦ - عبد المنعم ماجد، سياسة الفاطميين فى الخليج مستمدة من السجلات المستنصرية، بحث مقدم إلى ندوة قطر ١٩٧٦ عن تاريخ شرق الجزيرة العربية، جـ١، ص ٢٦٧ وما يليها ولمزيد من التفاصيل عن هذا التنافس الاقتصادى فيما بين بغداد والقاهرة وآثاره على نشاط طريق الخليج العربى ارجع إلى سحر السيد عبد العزيز سالم، تجارة عمان فى الكارم وصداها على سياسةمصر حتى طليعة القرن السابع الهجرى، مجلة كلية الآداب، الاسكندرية ١٩٩١ - ١٩٩٢، العدد ٢٤ - وارجع كذلك
Sahar Abdel Aziz Salem, Head Light om the commercial Relation between India and Egypt during the Islamic period, Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria Egypt, 1991- 1992 - JJ. Saunders, A History of Medieval Islam, U.S.A.. 1972, P. 136.

(٥٦) صلاح الدين محمد عبد القادر نوار، تاريخ الشام السياسى خلال القرن

الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى، رسالة دكتوراه، أشراف د. السيد عبد العزيز سالم، د. جوزيف نسيم يوسف، الاسكندرية، ١٩٨٩ ، ص ١١٨ . وفيما يتعلق بتعاون الحمدانيين مع البيزنطيين، فاننا نجد أن الحمدانيين فى حلب لم يجدوا حرجا في التعاون مع البيزنطيين فاشتركوا معهم فى التصدى للفاطميين إلى حد أن سعد الدولة الحمداني وابنه سعيد الدولة أبا الفضائل لم يترددا فى قبول حماية البيزنطيين عليهم، وهذا يفسر كيف تطور الصراع فى شمالى الشام بين الحمدانيين والفاطميين إلى صراع بين الفاطميين والبيزنطيين (جمال الدين سرور، النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق خلال القرنين الرابع والخامس الهجرى – طبعة القاهرة، ١٩٧٥ ، ص ٤٩ – ٥٦ – صلاح الدين نوار، تاريخ الشام والسياسى، ص ١١٨).

(٥٧) بوجه عام، فإن وجود أنماط اجتماعية مختلفة وتيارات بشرية متباينة مع ما تحمله من طبيعة الماضى، لم يفسح المجال لكى تتسم بلاد الشام فى كثير من الأحيان، بالاستقرار السياسى وجعلته يموج بالاضطرابات (ارجع إلى سهيل زكار فى مقدمته لترجمة كتاب تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصورى، جـ١ ، ص ٢٥).

(٥٨) عن نشاط بسيل الثانى ضد الدولة الفاطمية ارجع إلى الفارقى (أحمد بن يوسف بن على الأزرق، تاريخ الفارقى، تحقيق د. بدوى عبد اللطيف، بيروت، ١٩٧٤ ، ص ١٠٩ .

(٥٩) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٥٠ ، ٥١ ، تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى، بيروت، ١٩٠٩ ، ص ١٨١ .

(٦٠) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٥٠ ، ٥١ – ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ص ١٦٤ – ابن الأثير، الكامل جـ ٩، ص ١٢٠ – المقريزى، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق د. محمد حلمى محمد

أحمد، القاهرة، ١٩٧١، جـ٢، ص ١٨.

وكان العلاقة قد سك فى صور نقودا نقش عليها «عزا بعد فاقة وشطارة بلباقة للأمير العلاقة» - وارجع كذلك إلى (السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام، ص ٩٩ - عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر، التاريخ السياسى، القاهرة، ١٩٦٨، ص ١٣٨ - محمد أحمد عبد المولى، بنو مرداس الكلابيون فى حلب وشمال الشام وسياستهم الخارجية مع دولتى الفواطم والروم (٤١٥٠ - ٤٧٢ هـ/ ١٠٢٦ - ١٠٨٠م) الاسكندرية، ١٩٨٥، ص ١٦، ١٧ -

G. Wiet, Histoire de la nation Egyptienne, t. I V: L'Egypte Arabe, Paris, 1937, P. 198 - 199).

وقد عصى فى نفس الوقت المفرج بن دغفل بن الجراح ونزل على الرملة وعاث فى البلاد فسادا (ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٥٠ - ابن الأثير، الكامل، جـ٩، ص ١٢٠).

JJ. Saunders, A History of Medieval Islam, U.S.A, 1972, P. 136).

(٦١) ابن شداد الأعلاق الخطيرة، ص ١٦٥.

(٦٢) Grousset (R), L'Emire du levant, Paris, 1946, P. 125.

(٦٣) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٧٢، ٧٣ - ابن الأثير، الكامل، جـ٩ ص ٢٣٠ - ولمزيد من التفاصيل عن حلف العرب وقيام الامارة المرادسية الكلابية بحلب (ارجع إلى تاريخ يحيى بن سعيد الانطلاكى، ص ٢٥٣ - محمد أحمد عبد المولى، بنو مرداس الكلابيون، ص ٢٤ وما يليها - وارجع كذلك إلى محمد محمد مرسى الشيخ، الامارات العربية فى بلاد الشام فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين، الاسكندرية، ١٩٨٠،

ص ٦٥ - ١٨٩).

(٦٤) يسميه ابن القلانسى أمير الجيوش التزبرى الجبلى (ذيل تاريخ دمشق، ص ٧١. وارجع كذلك إلى المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ ٢، ص ١٥١).

(٦٥) تعتبر موقعة الأقحوانة من المواقع الحاسمة فى تاريخ الفاطميين السياسى، إذ تحققت للفاطميين بعدها مكاسب خطيرة فقد مكنهم هذا الانتصار من القضاء نهائيا على نفوذ بنى الجراح الطائيين فى جنوب الشام. وفلسطين، ولم يرد لهم ذكر بعد ذلك فى المصادر العربية باستثناء خبر أورده ابن القلانسى فى الذيل ص ٩٣ ضمن احداث عام ٤٥٩ هـ فى زمن الخليفة المستنصر بالله عندما سأله ناصر الدولة بن حمدان اطلاق سراح حميد بن محمود بن الجراح وحازم بن على بن الجراح فأطلق سراحهما. كذلك ترتب على هذا الانتصار الفاطمى فى الأقحوانة سيطرة الفاطميين على البقاع الوسطى للشام وأصبح أنوشتكين واليا على دمشق (ولمزيد من التفاصيل عن موقعة الأقحوانة ونتائجها ارجع إلى الانطاكى، ص ٢٥٣ - عبد المنعم ماجد، الإمام المستنصر بالله الفاطمى، القاهرة، ١٩٦١، ص ٦٩ - صلاح الدين نوار، تاريخ الشام السياسى، ص ٢٤٨ - محمد أحمد عبد المولى، بنو مرداس الكلابيون، ص ٦٤ وما يليها). هذا وقد أثارت انتصارات الفاطميين مخاوف البيزنطيين فأرسلوا حملة بقيادة دوقس انطاكية ميخائيل سبوندريل على حصن قيبار سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩م). كما أشار الامبراطور أرمانوس الثالث نفسه على تبل سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠م) (ولمزيد من التفاصيل ارجع إلى محمد أحمد عبد المولى، بنو مرداس، ص ٦٥ وما يليها).

(٦٦) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٧٥.

(٦٧) المصدر السابق، ص ٩٨ - أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، وبيروت، ١٩٥٦، جـ٣ ص ١٠٤ - صلاح الدين نوار، سياسة الخلافة الفاطمية فى

الشام، ص ٢٦٦ . وان كان د. محمد أحمد عبد المولى يعتبر أن خضوع المرادسيين فى سنة ٢٦٣ هـ للسلاجقة قد أضعف من كيانها وساعد على ذلك اندلاع الحرب الأهلية بين بنى كلاب مما أسفر فى النهاية عن الاحتلال العقيلى لحلب فى ظل السيادة السلجوقية (٤٧٢ هـ/ ١٠٨٠ م) مما أدى الى انقراض دولة بنى مرداس بحلب وشمال الشام. وفى سنة ٤٧٥ هـ (١٨٠٢م/ انقطع ذكر المرادسيين تماما من اعمال حلب، فقد اعتقل شرف الدولة مسلم ٣٠٠ فارسا تركمانيا بقايا من كان يخدم بنى الروقلية (بنى مرداس) وفرقهم فى القلاع وكان ذلك آخر العهد بهم (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى محمد أحمد عبد المولى، بنو مرداس، ص ١٧٣ – ١٨٦ – خاشع المعاضيدى، دولة بنى عقيل فى الموصل، بغداد، ٨ ص١٠٧.

C.E. Bos worth,Islamic Surveys. The Islamic dynasties, Chicago, P. 55.58.

(٦٨) عبد المنعم ماجد، الامام المستنصر بالله الفاطمى، ص ٦٨.

(٦٩) عن سياسة الفاطميين فى اليمن والدعوة الاسماعيلية هناك وعلاقة التبعية والولاء التى ربطت الصليحيين بالخلافة الفاطمية ارجع إلى حسن ابراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٢٣٩ – محمد عبد العال أحمد، الأيوبيين فى اليمن، الاسكندرية بدون تاريخ، ص ٢٧ – ٦٧ – جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة ١٩٦٧، ص ٢٤ وما يليها. ومؤسس الدولة الصليحية باليمن هو على بن محمد الصليحى ابن القاضى محمد الصليحى، وكان شافعى المذهب فى بادئ الأمر، ثم نبذ هذا المذهب وأخذ بالمذهب الاسماعيلى الشيعى، الذى لقنه له الداعى الاسماعيلى باليمن سليمان ابن عبد الله الزواحى الذى خلف على الزواحى فى أمور الداعى الاسماعيلية هناك. وقد اتخذ الصليحى من صنعاء عاصمة له.

وعرف هذا الملك بالعدل والتسامح والقدرة السياسية الفائقة فقد تمكن من توحيد بلاد اليمن تحت قيادته، ولكن الأمور عادت إلى الاضطراب عقب وفاته سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٧ - ١٠٦٨). وحاول ولده وخليفته المكرم أحمد بسط نفوذه على البلاد والقضاء على العقبات ولكن سرعان ما أصيب بالفالج مما أعجزه عن مباشرة أمور الحكم ففوض زوجته الملكة أروى فى ادارة شؤون البلاد. وقد أوصى المكرم قبيل وفاته بأن يتولى بعده أبو حمير سبأ بن أحمد ابن المظفر بن على الصليحى. ويبدو أن المملكة أروى كانت تسعى لجعل الملك فى ابنها على فتكتمت نبأ وفاة زوجها، وأرسلت إلى الخليفة المستنصر تطلب تقليدا لولدها فأجابها المستنصر وأصدر المرسوم لولدها الذى تلقب بعبد المستنصر ولكن ولدها سرعان ما توفى فأصدر المستنصر بالله الفاطمى أمره بأن تتزوج السيدة أروى من أبى حمير سبأ لاقرار الأوضاع فى اليمن (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى عصام الدين عبد الرءوف، اليمن فى ظل الاسلام منذ فجره حتى قيام دولة بنى رسول، القاهرة، ١٩٨٢، ص ١٤٥- ١٨٠).

(٧٠) هو أبو الحارث ارسلان البساسيرى، مقدم الأتراك أيام الخليفة القائم بأمر الله العباسى، وبساسير بلد من بلاد فارس. وكان لنفوذه واستقلاليته ودعمه للطوائف الشيعية فى بغداد أن أثار استياء الخليفة والوزير الأول رئيس الرؤساء أبى القاسم على بن مسلمة فأرسل هؤلاء إلى طغرلبك السلجوقى يطلبون منه التوجه إلى بغداد فى قوة من عساكره لتحريرها من سيطرة البساسيرى. واشتبك طغرلبك بالبساسيرى وهزمه وقتله وأعاد الدعوة للقائم بعد أن انقطعت مدة عام (ارجع إلى ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٨٧ - ٩٠ - محمد بن على بن يوسف المعروف بابن ميسر، أخبار مصر تصحيح هنرى مَارسيه، القاهرة، ١٩١٩، ص ١١ - المقريزى، اتعاظ الحنفا جـ٣، ص ٢٣٢ - ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، طبعة وزارة الثقافة

والارشاد القومي، القاهرة، بدون تاريخ، جـ٥، ص ٢ وأرجع كذلك إلى صدر الدين على بن ناصر الحسيني، زبدة التواريخ، اخبار الامراء والملوك السلجوقية، تحقيق د. محمد نور الدين، بيروت، ١٩٨٥، ص ٥٩ - وابن الصيرفي، الاشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق عبد الله مخلص، طبعة القاهرة المعهد العلمي الفرنسي، ١٩٣٤، ص ٤٤، ٤٥ - محمد أحمد عبد المولى، استبداد البساسيرى مقدم الأتراك بالسلطة فى العراق وسقوط بنى بويه، الاسكندرية، ١٩٨٦ ص ٦ وما يليها - عبد المنعم ماجد، الامام المستنصر بالله الفاطمى، ص ٩٠ وما يليها.

Lane Poole, S, History of Egypt in the Middle Ages, London, 1914, P 138 - JJ Saunders, A History of Medieval Islam, P. 146.

هذا وكان الحاكم بأمر الله قد نجح فى استمالة قرواش ابن المقلد أمير بنى عقيل فخطب له بالموصل سنة ٤٠١ هـ وكذلك فى الأنبار والكوفة والمدائن (ابن الأثير، الكامل، جـ٩، احداث سنة ٤٠١ هـ - خاشع المعاضيدى، دولة بنى عقيل فى الموصل، ص ٨٥) غير أن قرواش ما لبث أن اعاد الخطبة للعباسيين وقطع الدعوة للفاطميين فى بلاده، فجازاه الخليفة العباسى على ذلك بثلاثين ألف دينار (ابن العميد، تاريخ المسلمين، ليدن، ١٦٢٥، ص ٢٥٧) أما فيما يتعلق بخطبة البساسيرى للفاطميين فقد استمرت فى بغداد للفاطميين سنة كاملة (بدأت فى سنة ٤٥٠ هـ وانتهت سنة ٤٥١ هـ) أنظر (خاشع المعاضيدى، دولة بنى عقيل، ص ٨٩).

(٧١) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٨٦ - ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٧ - ابن الأثير، الكامل، جـ٩، صور ٦١٤ - ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، طبعة بيروت، جـ٣ ص ٢٧٧ - ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ١٦ - عبد المنعم ماجد الأمام، المستنصر بالله، ص ١٥٦ وما

يليها – عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٥٦١ وما يليها.

(٧٢) كان الجيش الفاطمى يتكون من عدة طوائف أولها المغاربة وكان أغلبهم من الكتاميين وهم عصب الدولة الفاطمية وأساس قوتها. ومن أشهر زعمائهم أبو محمد الحسن بن عمار زمن الحاكم بأمر الله، وكذلك شكل السودانيون، فريقا كبيرا فى الجيش الفاطمى، وبدأ ظهورهم فى جيوش مصر الاسلامية منذ أيام كافور، وقد كثر عددهم فى عهد الخليفة الحاكم الذى استعان بهم ضد المصريين السنة. وفى أيام الخليفة الظاهر الذى جلب منهم عددا كبيرا ارضاء لزوجته السودانية. أما العنصر الثالث فى الجيش الفاطمى فكان من الأتراك بزعامة الذكز. JJ. Saunders, A history of Medival Islam, P. 150 P.
H. Holt, The age of the Crusaders the near east from the eleventh 1517, London and New York, 1986, P 11, 12.

(٧٣) ابن ميسر، اخبار مصر، ص ١٤.

(٧٤) المصدر السابق، ص ٢٠.

(٧٥) نفسه، ص ٢١. ويشك الدكتور صلاح الدين نوار فى صحة قصة فرار أم المستنصر إلى بغداد، ويرى أنها قصة مختلقة ومدسوسة روجها مؤرخو السنة. ويدلل على رأيه بأن العلاقات المذهبية والسياسية بين بغداد والقاهرة، كانت قد ساءت إلى درجة كبيرة لا سيما بعد حركة البساسيرى، كما أن الفرار إلى الشام كان مغامرة محفوفة بالأخطار لأن معظم بلاد الشام كان قد خرج عن طاعة الفاطميين (صلاح الدين نوار، سياسة الخلافة الفاطمية فى الشام فى عهد الوزير بدر الجمالى وابنه الأفضل (٤٦٦ – ٥١٥ هـ/ ١٠٧٥ – ١١٢١م) رسالة ماجستير، الاسكندرية، ١٩٨٤، ص ١١٨).

(٧٦) السلاجقة فرع من القبائل الغزية التي خرجت من سهوب التركستان واتجهوا إلى الأراضى الاسلامية فى الغرب، حيث سيطروا على الوادى الأدنى لسيحون واعتنقوا الدين الاسلامى على المذهب السنى وأصبحوا قوة رهيبة. وقد نزح الأتراك ومعهم زعيمهم سلجوق بن تقاق (دقاق) من سهول قرغيز إلى بلاد ما وراء النهر حيث استقروا على مقربة من بخارى. ويرجع الفضل إلى سلجوق فى توحيد تلك القبائل، ولكن قوتهم ازدادات فى عهد زعيمهم طغرلبك أبو طالب محمد بن ميكائيل السلجوقى فبدأوا فى عام ٤٢٠ هـ (١٠٢٩م) فى الاغارة على حدود فارس الشمالية والشرقية وتمكنوا من انتزاع فارس وخراسان من ايدى الغزنونين (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى محمد بن محمد بن حامد الأصفهانى، تاريخ دولة آل سلجوق، بيروت، ١٩٨٠ – الراوندى، راحة الصدور وآية السرور فى تاريخ الدولة السلجوقية، القاهرة، ١٩٦٠ – البندارى، تاريخ دولة آل سلجوق، القاهرة، ١٩٠٠ – المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٦، جـ١، ق ١، ص ٣٠ – فامبرى، تاريخ بخارى، ترجمة د. الساداتى، القاهرة ١٩٦٥ – عبد النعيم حسنين، سلاجقة ايران والعراق، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٩ وما يليها – زبيدة عطا، الترك فى العصور الوسطى، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٣٨ –٥٣.

J.J Saunders, A history of Medieval Islam, P. 146.

(٧٧) ابن الأثير الكامل، حـ٩، ص ٦١٢، ٦١٤.

(٧٨) صلاح الدين نوار، سياسة الخلافة الفاطمية فى الشام، ص ٢٢٠.

(٧٩) ابن ميسر، أخبار مصر، ص ١٩ – الأصفهانى، تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٣٩ – ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٦٣ – صلاح الدين نوار، سياسة الخلافة الفاطمية، ص ٢٢٠ – زبيدة عطا، الترك فى العصور الوسطى، ص ٥٠.

(٨٠) أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر، جـ٣، ص ٩٤

(٨١) P.M Holt. The Ages of the Crusades, P11· Chirstopher Brooke. Europe in the Central Middle Ages 262- 1154, Longman, London and New York, second edition, P. 298 · JJ. Saunders, A history of Medival History, P. 148, 149.

(٨٢) ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٢٠

(٨٣) يسميه ابن خلكان أتسز بن أوق بن الخوارزمى التركى (ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان، تحقيق د. احسان عباس، بيروت، بدون تاريخ، جـ١ ص ٢٩٥)

فى حين يذكر كل من ابن الأثير وابن خلدون أن الشاميين يطلقون عليه اسم اقسيس ولكن الصحيح أنه أتسز ابن أوق وهو اسم تركى (ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٦٨، ص ١٠٣ - ابن خلدون، العبر، طبعة دار الكتاب اللبنانى ١٩٨٣، جـ٩، م ٥، ص ٨). أما ابن ميسر فيسميه أتسز التركمانى ويصفه بأنه أسد دمشق(ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٢٤) ولكن المقريزى فى اتعاظ الحنفا يسميه باتسز بن أرتق المعروف بالأقسيس (راجع المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٣١٥). وهذا خطأ لأن أتسز لم يكن ابنا لأرتق، فقد كان لأرتق مؤسس الأراتقة، ولدان هما سكمان وايلغازى. وكان ارتق رجلا من التركمان تغلب على بيت المقدس من بلاد الشام ولم يملك دمشق وقد حكم القدس من قبل تتش رجلا من التركمان تغلب على بيت المقدس من بلاد الشام، ولم يملك دمشق وقد حكم القدس من قبل تتش السلجوقى، ولما توفى أرتق تولى بعده ولداه سكمان وايلغازى فى القدس حتى استولى عليها الأفضل شاهنشاه وانتزعها منهما سنة ٤٩٠

هـ كما سنوضح فى المتن، فتوجها إلى بلاد الجزيرة الفراتية، وملكا ديار بكر وماردين (ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١ ، ص ١٩١ ترجمة ٨٠).
وأطلق عليه أبو الفدا اسم يوسف بن ابق الخوارزمى (أبو الفدا، المختصر، جـ٣، ص ٩٥) أما ابن القلانسى فقد ذكر أنه أتسز ابن أوق (ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٨) ونرجح أن يكون المقريزى قد نقل الاسم محرفا من أوق أو أبق فجعله أرتق.

(٨٤) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٩ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ٦٨ - صلاح الدين نوار، بسياسة الخلافة الفاطمية، ص ٢٢٢ - سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، القاهرة، ١٩٦٣، جـ١ ، ص ١٠١ ، ١٠٢ وما يليها -

Setton K, A, History of the Crusades, Philadelphia, 1958, Vol. I. P. 94 - P.M Holt, The ages of the Crusades, P. 14 - J.J. Saunders, A history of Medieval Islam, P. 150.

(٨٥) صلاح الدين نوار، سياسة الخلافة الفاطمية، ص ٢٢٣.

(٨٦) لمزيد من التفاصيل عن سقوط دمشق فى يد أتسز التركمانى ارجع إلى: (ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٨، ١٠٨، ١٠٩ - ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٣٤ - ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، بيروت، ١٨٩٠، ص ٣٦٠، ٣٦١ - ابن الأثير ، الكامل، جـ١٠، ص ٦٤، ٩٩- ويذكر المقريزى أن حصار اتسز لدمشق دام ثلاث سنوات (المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٢ ، ص ٣١٥ - وارجع كذلك إلى ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ١٠١ ، صلاح الدين نوار، سياسة الخلافة الفاطمية، ص ٢٢٤ - محمد حلمى محمد أحمد، مصر والشام والصليبيون، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٦٠ وما يليها - مصطفى حسن محمد الكنانى، العلاقات بين جنوة والفاطميين

فى الشرق الأدنى، ٤٨٨ - ٥٦٧ هـ / ١٠٩٥ - ١١٧١م، الاسكندرية، ١٩٨١ جـ١، ص ٥٥ - ٥٩.

Lane Poole, Op. Cit., Vol. VI, P. 161.

(٨٧) أنظر إلى تعليق د. سهيل زكار فى ترجمته لكتاب وليم الصورى، تاريخ الحروب الصليبية، جـ١، ص ٢٣، ٢٩.

(٨٨) قامت بطرابلس امارة عربية مستقلة فى ظل أسرة بنى عمار، استمرت منذ عام ٤٦٢ هـ وحتى عام ٥٠١ هـ. ومؤسس هذه الامارة هو قاضى طرابلس أبو طالب الحسن بن عمار الذى انتهز فرصة الاضطرابات التى كانت تسود بلاد الشام منذ منتصف القرن الخامس الهجرى والضعف الذى كانت تمر به الدولة الفاطمية آنذاك، فأخذ يعمل من جهته على الافادة من هذه الظروف ليستقل بطرابلس ويحميها من الاضطرابات والفتن التى تموج بها البلاد. ولم يكن القاضى ابن عمار من الشخصيات البارزة فى طرابلس فحسب بل فى بلاد الشام كلها بدليل أنه قام فى عام ٤٥٩ هـ (١٠٦٦/ ١٠٦٧م) بالتوسط بين محمود بن نصر المرادسى بحلب المعروف بابن الروقلية وبين الخليفة المستنصر بالله الفاطمى (ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ٧٩). وفى هذا التاريخ لم يكن القاضى ابن عمار قد أعلن ثورته اذان الكثير من المؤرخين يحددون عام ٤٦٢هـ لاستقلاله بطرابلس (ابن القلانسى، ذيل تاريخ) دمشق ص ٩٧ وارجع إلى رأى د. عبد الكريم غرايبة الذى يحدد بداية استقلال طرابلس بسنة ٤٥٩ هـ، (العرب والأتراك، دمشق، ١٩٦١، ص ٢٤٠) فى حين يذكر جاستون فييت أنه لم يحدد تاريخ استقلال الحسن بن عمار، ويعقد سوبر نهايم بأن ذلك تم فى منتصف القرن الخامس الهجرى وان كان الذهبى قد أكد على أن سنة ٤٦٢ هـ هى السنة التى انتزت فيها طرابلس وكذلك أعلنت كل من دمشق وصور وفلسطين استقلالها ارجع إلى

Gaston Wiet, Une inscription d'un prince de Triopoli de la dy-

nastie des Banu Ammar dans Memorial Henri Basset, Puble. Par
l Institut des Hautes Etudes Marocaines, tXVIII, Paris, 1928, P 280).

وقد توفى أبو طالب بن عمار سنة ٤٦٤ هـ.

(المقريزى، أتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٣٠٧) وخلفه ابن اخيه جلال الملك أبو الحسن على بن عمار على الإطلاق واستمر بحكم وطرابلس من سنة ٤٦٤ - ٤٩٢ هـ (١٠٧١ - ١٠٩٨ك). كذلك برز من أفراد هذه الأسرة فخر الملك أبو على بن محمد بن عمار الذى خلف اخاه جلال الملك، وتولى من سنة ٤٩٢ هـ - ٤٩٥ هـ (١٠٩٨ - ١١٠١م) لمزيد من التفاصيل عن بنى عمار فى طرابلس ارجع إلى (السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام فى العصر الاسلامى، الاسكندرية بدون تاريخ، ص ٩٣ - ٩٧ - محمد محمد مرسى الشيخ، الامارات العربية فى بلاد الشام فى القرن الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين، الاسكندرية، ١٩٨٠، ص ١٨٩ - ٢٠٩ وارجع كذلك إلى.

Claude Cahen, la Syrie du Nord Al'Epoques des Croisades et la principaute Franque D'antioche, Paris, 1940, P 180.

(٨٩) ثار القاضى عين الدولة ابن عقيل بصور، واستقل بها عن الدولة الفاطمية، وسنقوم بشرح أحداثها بمزيد من التفاصيل على الصفحات التالية.

(٩٠) استطاع أحد القادة الأتراك التابعين، لاتسز وهو شكلى التركمانى، من فتح عكا عنوة ولكن الخلاف سرعان ما دب بين أتسز وشكلى وانتهى بقتل اتسز لشكلى، ففر والد شكلى بأولاده وحريمه إلى مصر، وسلم لبدر الجمالى مدينة عكا، وظلت عكا فى يد الفاطميين حتى سقوطها فى أيدى الصليبيين سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٤م) (ارجع إلى مؤرخ مجهول، تاريخ سلاطين

المماليك نشر زترشتين، ليدن، ١٩١٩، ص ٣٣١ وارجع كذلك إلى ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٢٣).

(٩١) ارجع إلى ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١١٢ - ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ١، ص ٢٩٥ - ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص ١٣١ - ابن الأثير، الكامل جـ١٠، ص ١١١ - أبو الفدا، المختصر، جـ٤، ص ١٠٣ - ابن خلدون، العبر، جـ٩، م ٥، ص ٧١. وانظر كذلك إلى صدر الدين بن على ناصر الحسيني، زبدة التواريخ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقيه، تحقيق د. محمد نور الدين، بيروت، ١٩٨٥، ص ١٤٨ - محمد حلمى محمد أحمد، مصر والشام والصليبيون، ص ٦٠ وما يليها - سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، جـ١، ص ١٠٢ وما يليها - عبد المنعم ماجد، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها، ص ٣٩٦، صلاح الدين نوار، سياسة الدولة الفاطمية، ص ٣٦ - السيد عبد العزيز سالم، دراسة فى تاريخ مدينة صيدا فى العصر الاسلامى، بيروت، ١٩٧٠، ص ٨٤.

J.J.Saunders, A History- of Mediev d Islam, P. 150.

(٩٢) راجع تحليل الد تتور صلاح الدين نوار ى المرجع السابق، ص ٢٣٦.

(٩٣) هو أرتق بن اكسب أو أكسك، وكان يلقب بظهير الدين، وينتمى إلى قبيلة الدقر Dogar التركمانية وهى احدى البيوت الكبيرة التى تنتمى إلى الغز، وكانت زعامتها قد انتهت إلى أرتق (ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ، ص ١٩١) وبينما يرى ابن خلكان أن أبا أرتق هو اكسب، وأنه كان يدعى احيانا اكسك، يؤكد ابن خلدون أن اكسك هو الأرجح (ابن خلدون، العبر، جـ٥، ص ٤٦١، ٣١٥). وقبيلة الدقر من القبائل التركمانية التى انتظمت فى صفوف القوات السلجوقية التى عمل الأتراك السلاجقة على استمالة

زعمائها بمنحهم الاقطاعات والاستقلال الذاتي داخل نطاقها. وتعتبر قبيلة الدقر من القبائل التركمانية العديدة التي ساعدت على بناء الكيان السلجوقي. أما أرتق فكان من مماليك ملكشاه بن ألب أرسلان، وقد بدأ حياته السياسية بتقديم خدمات عسكرية جليلة للسلاجقة، فحارب في آسيا الصغرى ضد البيزنطيين سنة ٤٦٥هـ (١٠٧٢م) كما توجه سنة ٤٧٠ هـ على رأس حملة عسكرية لقتال قرامطة البحرين (ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ١٠٦).

واستولى على منطقتي حلوان والجبل التي تقع جنوبي كردستان على الحدود الواقعة بين العراق وفارس وضمها إلى السلاجقة سنة ٤٧٢ هـ (١٠٧٩م) (ابن خلكان، وفيات الأعيان جـ١، ص ١٩١) فولاه السلاجقة عليها مكافأة له هي وما اليها من اعمال العراق. كما ساهم أرتق في حملة عسكرية أسفرت عن سقوط الموصل في أيدى السلاجقة (ابن الأثير، الكامل، جـ ١٠، ص ١٣٦ – أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي) الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية، نشر وتحقيق محمد حلمي، محمد أحمد، القاهرة، ١٩٥٦، جـ١، ق ١، ص ٥٩ – وقد توترت العلاقات بين أرتق وملكشاه، ولهذا عمد ارتق إلى تحسين علاقاته مع الفاطميين وأرسل بدر الجمالي وفدا مصريا اجتمع به في قرقيسيا على نهر الخابور قرب الرحبة، مما دفع ملكشاه إلى محاولة استرضاء أرتق عندما علم باتصالاته السرية مع الفاطميين، وكان همزة الصلة بين الفاطميين وأرتق، مسلم العقيلي شرف الدولة، وقد انقطعت هذه الاتصالات بوفاة مسلم العقيلي (مزيد من التفاصيل ارجع إلى عماد الدين خليل، الامارات الأرتقية في الجزيرة والشام «٤٦٥ – ٨١٢ هـ/ ١٠٧٢ – ١٤٠٩» أضواء جديدة

على المقاومة الاسلامية للصليبيين والتتر، بيروت، ص ١٥٧ وما يليها). وقد قام تتش بتوليه أرتق على القدس سنة ٤٧٩ هـ (١٠٦٨م) واستمر أرتق يتولى القدس وحتى وفاته سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١م) (ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ١١٥). ويعتبر أرتق صاحب الفضل فى تأسيس الكيان السياسى للأراتقة. ولم تبق القدس بأيدى ابنائه فترة طويلة بعد وفاته فقد استردها الأفضل شاهنشاه سنة ٤٩١ هـ، فأنتقلوا إلى ديار بكر وأسسوا امارتهم هناك (ارجع إلى عماد الدين خليل الامارات الأرتقية، ص ٦٩.)

C.E. Bos Worth, Islamic surveys, the Islamic Dynasties,P. 119.

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١، ص ١٠٥ وما يليها –

Holt, The ages of the Crusades, P28

(٩٤) صلاح الدين نوار، سياسة الخلافة الفاطمية، ص ٢٣٧.

(٩٥) مؤرخ مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، ص ٢٤٤.

(٩٦) ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٢٩٥.

(٩٧) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١١٩.

(٩٨) المصدر السابق، ص ١١٩ – أما أق سنقر قسيم الدولة فهو: جد ملوك الموصل ووالد عماد الدين زنكى وهو الذى أقطعه ملكشاه حلب (ابن الأثير الكامل، جـ١٠، ص ١٣٦) واسمه أبو سعيد آق سنقر بن عبد الله الملقب بقسيم الدولة المعروف بالحاجب وهو بخلاف أق سنقر البرسقى قسيم الدرلة (ارجع ترجمة كل منهما فى ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص١، ٢٤١، ٢٤٢). وكان آق سنقر هو مملوك السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان، ولما ملك تاج الدولة تتش امارة حلب سنة ٤٧٨ هـ استناب فيها آق سنقر ولكنه

شق عليه عصا الطاعة، فقصده تاج الدولة، وكان صاحب دمشق يومئذ فخرج لقتاله وجرت بينهما معارك ضارية انتهت بمصرع آق سنقر سنة ٤٨٧ هـ ودفن بالمدرسة المعروفة بالزجاجية داخل حلب (لمزيد من التفاصيل، ارجع إلى ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص ٢٤١، جـ١).

(٩٩) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢٠ - ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٢٨ - ابن الأثير، الكامل، جـ ١٠، ص ١٧٦ - ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ١٢٨ وان كان ابن شداد يحدد تاريخ استرجاع بدر الجمالي لصيدا في سنة ٤٧٢ هـ (ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص ٩٩).

(١٠٠) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢٠ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٢٠٢ - وإن كان ابن الأثير يذكر أن استيلاء تتش على حمص حدث في عام ٤٨٥ هـ.

(١٠١) وقد أورد ابن الأثير هذا الخبر في أحداث سنة ٤٨٥ هـ جـ ١٠، ص ٢٠٣، وارجع كذلك إلى صلاح الدين نوار، سياسة الخلافة الفاطمية، ص ٢٤٥، ٢٤٧.

(١٠٢) هي ثورة واليها منير الدولة الجيوشي (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢٤ - ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٢٩ - السيد عبد العزيز سالم، دراسة في تاريخ مدينة صيدا، ص ٨٥).

(١٠٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٢٩٥. وقد دار صراع بين الأخوين رضوان ودقاق فقد كان رضوان يطمع في انتزاع دمشق مع أخيه دقاق (لمزيد من التفاصيل ارجع الى ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص

١٣٠، ١٣١ وقد التقيا فى قنسرين حيث دارت معركة انتهت بهزيمة دقاق (ابن خلدون، العبر، جـ٩، مجلد ٥، ص ٣١٥) واتفق الأخوان بعدها عام ٤٨٩ هـ (١٠٩٥م) على أن تقام الخطبة باسميهما على منابر دمشق، (ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٢٤٦، ٢٤٧ - أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، جـ٤، ص ١٢٠)

P.M. Holt, The ages of the crusades, p 14, 15- J.J Saunders, A history of Medieval Islam, p 141.

(١٠٤) ابن خلدون، العبر، جـ٩، م ٥، ص ٣١٥.

(١٠٥) هو ظهير الدين أبو منصور طغتكين، وقيل فيه طغركين، وطغدكين، أتابك دقاق وزوج والدته. وكان أتابك دقاق بن تتش ملك دمشق، وقد خرج معه لحصار الرحبة واستوليا عليها ورجعا إلى دمشق، ولما توفى دقاق صاحب دمشق سنة ٤٩٧ هـ، استقل أتابكة طغتكين الذى يذكره ابن خلدون باسم طغركين، بالملك وخطب لنفسه سنة ثم قطع خطبته وخطب لتلتاش أخى دقاق الذى كان لا يزال صبيا، وخوفته أمه من طغتكين لزواجه أم دقاق، وأنه يميل الى ابن دقاق من أجل جدته، فاستوحش وفارق دمشق إلى بعلبك فى صفر سنة ٤٩٨ هـ، أما طغتكين فقد نصب الطفل ابن دقاق وخطب له ثم عزله، وكان طغتكين معروفا بعدالته وحسن سيرته (ابن خلدون، العبر جـ٩، م ٥، ص ٣١٥، ٣١٧ وقد ملك طغتكين بصرى أيضا سنة ٤٩٩ هـ (Holt The ages of the Crusades, P 26). وعن زواج طغتكين من أم دقاق ارجع إلى ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٩٦ وتوفى طغتكين سنة ٥٢٢ هـ، فتولى بعده بورى، الملقب بتاج الدولة وكان أكبر أولاده (ابن خلدون، العبر، جـ٩، م ٥، ص ٣٢٨، ٣٢٩ - وارجع كذلك إلى

الحسينى، زبدة التواريخ، ص ٣١٩). وكان طغتكين مجاهدا ضد الصليبيين، حكم مدينة صور ودافع عنها مرارا من الوقوع فى أيدى الصليبيين كما سنوضح على الصفحات التالية.

(١٠٦) يرى ابن القلانسى فى ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٣، ١٣٤ وابن ميسر فى أخبار مصر، ص ٣٨ وابن الأثير، جـ١٠، ص ٢٦٤ أن ثورة الكتيلة سنة ٤٩٠ هـ واسترداد الأفضل لصور كان فى سنة ٤٩٠. أما ابن تغرى بردى فيرى فى النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ١٥٩ أن استرداد الأفضل لصور وقضائه على الكتيلة تم فى عام ٤٨٩ هـ. أما ابن خلدون فيؤخره إلى سنة ٤٩١ هـ (ابن خلدون، العبر، جـ٤ ص ٦٦) ويأخذ كل من الدكتور السيد عبد العزيز سالم والدكتور صلاح نوار بالتاريخ الأول سنة ٤٩٠ هـ (السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة صيدا، ص ٨٥، صلاح نوار، سياسة الدولة الفاطمية، ص ٢٩٢).

(١٠٧) سهيل زكار فى تعليقه على ترجمة كتاب وليم الصورى، ص ٣١. وقد صور الدكتور سهيل زكار الوضع السياسى المفكك الذى كان عليه العالم الاسلامى فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى (١١م) عشية وصول الصليبيين إلى بلاد الشام كما يلى:

أ- فى الجزيرة:

(١) دولة عربية مستقلة فى الموصل عرفت باسم العقيلية.

(٢) دولة كردية مستقلة فى ميافارقين عرفت باسم الدولة المروانية.

(٣) دويلات عربية لنمير وقشير فى حران وقلعة جعبر.

ب- فى بلاد الشام

(١) دولة مستقلة فى حلب تدعى الامارة المرداسية.

(٢) أجزاء من شمال الشام وسواحله تحت الادارة البيزنطية مركزها انطاكية.

(٣) دولة شبه مستقلة فى طرابلس تحكمها أسرة آل عمار.

(٤) دولة شبه مستقلة فى شيزر وكفر طاب - قرب حماة - تدعى باسم الامارة المنقذية مع محاولات لتأسيس حكومات مستقلة فى حمص وحماة وأفامية.

(٦) عدد من الاقطاعيات والادارات شبه لمستقلة فى مناطق الساحل خاصة فى جبلة ومنطقتها الجبلية.

(٧) دمشق وفلسطين تحت حكم الخلافة الفاطمية المتأرجح (وقد قطعه التركمان وارجع كذلك إلى Claude Cahen, La Syrie du Nord, p 187.

(١٠٨) Holt, The Ages of the Crusades, p 15.

(١٠٩) ناصر خسرو علوى، سفرنامة، ص ١٥.

(١١٠) المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ١٣١ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الاسلامية، ص ٩٦.

(١١١) كان ظالم بن موهوب العقيلي واليا على دمشق وصرف عنها بعد انهزامه على أيدى القرامطة سنة ٢٦٢ هـ (٩٧٣ - ٩٧٤م) فتوجه للاقامة فى صيدا (ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٥ - السيد عبد العزيز سالم، دراسة فى تاريخ مدينة صيدا، ص ٧٣).

(١١٢) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٥ - ابن الأثير، الكامل، جـ٨، ص ٦٥٧ - المقريزى، الخطط المقريزية، طبعة لبنان، جـ٢، ص ٤١٣ .

(١١٣) الشدياق (طنوس بن يوسف) أخبار الاعيان في جبل لبنان، بيروت، ١٩٥٤، جـ٢، ص ٢٨٨ - ابراهيم الأسود، ذخائر لبنان، بعبدا، ١٨٩٦، ص ١٧٣ .

(١١٤) المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ١٧ .

(١١٥) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص ١٠٢ - السيد عبد العزيز سالم، دراسة فى تاريخ مدينة صيدا، ص ٧٨ .

(١١٥ب) المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ١٥٥

(١١٦) المقريزى، اتعاظ الخطط، جـ٢، ص ١٦٣ - اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٢٠١.

(١١٧) المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٢٠١. وكان راشد بن سنان بن عليان أحد الخارجين على الدولة الفاطمية، وقد فر من سجنه بصور، ونزل على دمشق واستولى على أكثر اعمالها، فلما وصل إلى حماة نهبت عساكره اعمال شيزر كما وصل إلى جبل جوشن ظاهر حلب (لمزيد من التفاصيل عنه ارجع إلى المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٢١٠). وارجع إلى عمر عبد السلام التدمرى، لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين، طرابلس، ١٩٩٤م.

(١١٨) المصدر السابق، جـ٢، ص ٢١٠.

(١١٩) نفسه، جـ٢، ص ٢٧٠ .

(١٢٠) نفسه، جـ٣، ص ١٣ . ويسميه ابن الصيرفى بالوزير الكامل الأوحد أبو عبد الله الحسن ابن سديد الدولة ذو الكفايتين (ارجع الى ابن مسجب

الشهير بابن الصيرفي، الاشارة الى من نال الوزارة، تحقيق عبد الرحمن مخلص، طبعة المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، ١٩٣٤، ص ٤٩) ويسميه ابن ميسر، سديد الدولة أبو عبد الله الحسين بن أبي الحسن على إبن محمد بن الحسن بن عيسى الماشلي (ابن ميسر، أخبار مصر، ص ١٣).

(١٢١) ابن ميسر، أخبار مصر، ص ١٤ - صلاح الدين نوار، سياسة الخلافة الفاطمية، ص ١٥٣ - عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها، ص ٣٩٢.

(١٢٢) ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٩٩ - وعن معلى بن حيدرة بن منزو، والى دمشق، وسوء سيرته وظلمه وجوره مع الجند والرعية فى هذه المدينة ارجع إلى (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٥ وما يليها). وكانت صور فى تلك الأثناء تحت حكم بنى عقيل، وكان معلى بن حيدرة صهرا لجلال الملك بن عمار صاحب طرابلس.

(١٢٣) استقل بطرابلس القاضى أبو طالب الحسين بن عمار كما سبق أن ذكرنا في حين استولى ابن حمدان على الرملة والساحل، ولم يبق لمصر الفاطمية سوى عكا وصيدا (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٧ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الاسلامية، ص ١٠٤)

(١٢٤) ناصر خسرو علوى، سفرنامة ص ١٥ - ابن ميسر، اخبار مصر، ص ٢٠ ابن القلانسي، ص ٩٦ - ابن الأثير الكامل، جـ١٠، ص ٦٠.

(١٢٥) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة، جـ٢، ص ١٦٥، وقد أخذ بهذا الرأى الدكتور عمر التدمرى. (عمر التدمرى، لبنان من السيادة الفاطميّة، ص ١١٩).

(١٢٦) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، جـ٢، ص ١٦٥.

(١٢٧) عمر التدمرى، لبنان من السيادة الفاطمية، ص ١٠٩ .

(١٢٨) أورد ناصر خسرو علوى اسمه على أنه «ابن ابى عقيل قاضى صور» ولم يحدد اسمه الأول (ناصر خسرو، سفرنامة، ص ١٥).

(١٢٩) المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٢ ، ص ٢١٣ .

(١٣٠) المصدر السابق، ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(١٣١) عنه ارجع الى عمر التدمرى، لبنان من السيادة الفاطمية، ص ١٠٨ .

(١٣٢) ابن العديم «زبدة الحلب فى تاريخ حلب» تحقيق د. سامى الدهان، طبعة المعهد الفرنسى دمشق، ١٩٤٥ ، ١٩٥١، جـ١ ، ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

(١٣٣) المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٢ ، ص ٢٥٩ .

(١٣٤) راجع تحديدا الدكتور عمر التدمرى، لبنان من السيادة الفاطمية ص ١٠٢ .

(١٣٥) لمزيد من التفاصيل ارجع إلى المرجع السابق، ص ١١٣ .

(١٣٦) ويذكر الدكتور عمر التدمرى نقلاً عن مخطوطة تاريخ دمشق أن أبا محمد عطية الله بن الحسين الصورى كان يخلفه فى مهمة القضاء بصور حتى توفى سنة ٤٤٥ هـ (عمر التدمرى، المرجع السابق، ص ١١٦).

(١٣٧) نفسه، ص ١٠٧ ، ١١٦ . ولمزيد من التفاصيل عن حياته العلمية ارجع إلى نفس المرجع، ص ١١٦ وما يليها.

(١٣٨) الزيب قرية بين عكا وصور (ارجع الى ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥ ، ص ١٣ .

(١٣٩) ابن حجر العسقلانى، رفع الأصر عن قضاة مصر، دار الكتب المصرية رقم ١٠٥ ، ١١٥ ، ورقة ٥٦ (ج) ويأخذ بهذا الاسم كل من الدكتور السيد عبد العزيز سالم، تاريخ صيدا، ص ٨١ والدكتور صلاح الدين نوار، سياسة

الخلافة الفاطمية، ص ١٥٨ والدكتور عمر التدمرى، لبنان من السيادة الفاطمية، ص ١١٩ وما يليها.

(١٤٠) المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص ٣٠٣.

(١٤١) هذا المكان بالأصل طيارة جاء فيها ذلك وأضافها المحقق إلى الحاشية رقم (١) ص ٤٧ من الجزء الثانى من اتعاظ الحنفا.

(١٤٢) لمزيد من التفاصيل راجع (عمر التدمرى، لبنان من السيادة الفاطمية، ص ١٢٠).

(١٤٣) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٨.

(١٤٤) ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٦٠.

(١٤٥) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٨ - ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٥٠ - ابن الأثير الكامل، جـ١٠، ص ٦٠ - المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٣٠٣. ويذكر ابن حجر العسقلانى خطئاً ان بدر الجمالى نجح فى اخراج ابن عقيل من صور (رفع الاصر، ورقة ٥٦ - السيد عبد العزيز سالم، فى تاريخ صيدا، ص ٨٢، وتاريخ البحرية الاسلامية، ص ١٠٤، ١٠٥ - صلاح الدين نوار، سياسة الدولة الفاطمية، ص ١٥٨ وما عليها - اسامة زكى زيد، صيدا ودورها فى الصراع الاسلامى الصليبى ص ٧٤).

(١٤٦) صلاح الدين نوار، سياسة الدولة الفاطمية، ص ١٥٨. ويذكر الدكتور عمر عبد السلام تدمرى أن هارون بن خان التركمانى الذى كان قد دخل مدينة طرابلس سنة ٤٥٦ هـ مع الأمير محمد بن نصر المرداسى صاحب حلب، كان مقيماً فى صور فى ذلك الوقت فى كنف صاحبها القاضى الناصح محمد بن أبى عقيل الذى أحسن الله ووصله واعطاه هو واصحابه الأتراك الغز بعد أن تخلى عنه الأمير محمود المرداسى ولكن

عندما جاء بدر الجمالي لحصار مدينة صور، انحاز «ابن خان» اليه وتخلى عن قاضي صور، ناكراً جميله وصنيعه مما دفع القاضي ابن ابي عقيل إلى التآمر عليه فأعزى اثنين من الغز بالمال لقتله فقتلاه وحملا رأسه اليه وطيف به في اسواق صور في تلك السنة (٤٦٢ هـ / ١٠٧٠م) ونتيجة لهذا الموقف المضطرب المشحون بالخطر، فارق جماعة من الغز مدينة صور ولحقوا ببدر الجمالي في حين بقي بعضهم مع القاضي صاحب صور (لمزيد من التفاصيل ارجع الى عمر عبد السلام تدمري، لبنان، ص ١٢١ وما يليها).

(١٤٧) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ص ١٦٥. وارجع كذلك إلى ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢٠ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ١٧٦ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ صيدا، ص ٨٤ - عبد المنعم ماجد، ظ[illegible]لافة الفاطميين، ص ٣٩٧ - عمر عبد السلام تدمري، لبنان، ص ١٢٢.

(١٤٨) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٩، ١٠٨ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٦٨، ٩٩ وعن تعرض صور لحملة أتسز بن أوق ارجع إلى مخطوط مرآة الزمان في تاريخ الاعيان لسبط ابن الجوزي، مصور بدار الكتب المصرية عن عمر التدمري، لبنان، ص ١٢٨ وما يليها. ويرجع الدكتور التدمري عهد دخول الأتراك الغز صور إلى سنة ٤٥٠ هـ فقد التقى المؤيد هبة الله الشيرازي بكتيبة منهم عند المدينة قادمة من بغداد مقاطعة للبساسيري وهي بقصد التوجه إلى مصر وكانت في عدة تشتمل على ١٣٠ غلاما وكان بصحبة المؤيد رجل محتشم من الأتراك أرسله البساسيري رسولاً إلى الخليفة الفاطمي، فبذل المؤيد جهده مع أفراد الكتيبة حتى أقنعهم بالعودة إلى حلب حتى لا يكونوا كلاً على الخلافة في مصر. وكان على قضاة صور وطرابلس أن يتقربوا من الأتراك

السلاجقة بعد استفحال خطرهم فى بلاد الشام، فعمدوا إلى مصانعتهم بالهدايا والملاطفات (ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١١٢) وقد أثمرت هذه السياسة إذ نجح قاضيا صور وطرابلس فى حماية استقلال بلادهما. (ولمزيد من التفاصيل ارجع إلى عمر عبد السلام تدمرى، لبنان من السيادة الفاطمية، ص ١٢٩ .

(١٤٩) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢٤ - ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ص ١٦٦ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة صيدا، ص ٨٤، ٨٥.

(١٥٠) ارجع إلى الحاشية رقم (٢) فى ص ٣١٥ من تعليق د. محمد حلمى محمد أحمد على اتعاظ الحنفا للمقريزى، الجزء الثانى.

(١٥١) ابن ميسر، اخبار مصر، ص ٢٤ - المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٣١٥.

(١٥٢) ابن القلانسى، الذيل، ص ١٢٤ .

(١٥٣) ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٢٢٣.

(١٥٤) ابن القلانسى، الذيل، ص ١٢٤ - ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٢٤ - ابن الأثير، الكامل جـ١٠، ص ٢٢٣ - المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٣١٥.

(١٥٥) ابن القلانسى، الذيل، ص ١٣٣ - ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٣٨ - ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ص ١٦٦ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٢٦٤ - ابن تغرى بردى ،النجوم، جـ٥، ص ١٥٩ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الاسلامية، ص ١٠٦ . Conder, The latin Kingdom of Jerusalem, London, 1897, P 488

(١٥٦) سعيد عبد الفتاح عاشور،الحركة الصليبية، جـ١ ، ص ٢٣٧ .

(١٥٧) ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٣٨.

(١٥٨) Holt, The Ages of the Crusades, P 28.

(١٥٩) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٥ – ابن ميسر، اخبار مصر، ص ٣٨ – ابن الأثير، الكامل، جـ١٠ ، ص ٢٧٢ ، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ ٥، ص ١٦١ – ولمزيد من التفاصيل عن سقوط أنطاكية فى أيدى الصليبيين ارجع إلى وليم الصورى، تاريخ الحروب الصليبية، جـ١ ، ص ٢٨٢ وما يليها– ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ١ ، ص ٣٢٧ وما يليها –

Holt, The ages of the Crusades, p 21- 22- Jean Richard, The LATIN Kingdom, V. A, P 11.

(١٦٠) ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١ ، ص ١٩١ – المؤرخ المجهول، سلاطين المماليك،ص ٢٢٩ – صلاح الدين نوار، تاريخ الشام السياسى، ص ٥٥١.

(١٦١) رفض ولدا أرتق تسليم بيت المقدس فى بداية الأمر، وكانا يأملان فى أن استحكامات وتحصينات المدينة تمكنها من مقاومة الأفضل، كما كانا ينتظر ان معونة عسكرية من دقاق ووصوله لنجدتهما، ولما لم يحدث ذلك اضطرا إلى تسليم المدينة أمام ضربات الفاطميين لأسوارها بالمنجنيقات (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى صلاح الدين نوار، تاريخ الشام السياسى، ص ٥٥١ وما يليها).

(١٦٢) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٥ – ابن ميسر، اخبار مصر، ص ٣٨ – ابن خلكان، الوفيات، جـ٢ ، ص ١٩١ .

(١٦٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مجلد ٢، ص ٤٥١.

(١٦٤) صلاح الدين نوار، تاريخ الشام السياسى، ص ٥٥٣، ويذكر أنه لم يحل خريف سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٨م) إلا وكان الأفضل قد أمن حدود الخلافة الفاطمية فى بلاد الشام حتى مجرى نهر الكلب على الساحل شمالى مدينة بيروت وحتى أرباض اللاذقية بالاضافة إلى سيطرته الاسمية على مدينة طرابلس.

(١٦٥) زاد من حدة انقسام بلاد الشام اختلاف عناصر السكان بها، فكان الأتراك السلاجقة هناك بمثابة الطبقة الاقطاعية الراقية، أما سائر الأمراء الصغار بها فكانوا من العرب مما أتاح الفرصة لظهور العديد من الامارات الصغيرة التى استقل بها امراؤها سواء من السلاجقة أو العرب الذين انسلخوا عن الحكم السلجوقى أو الفاطمى هناك أمثال بنى منقذ فى شيرز عام ٤٧٤ هـ (١٠٨٠م) وبنى عمار فى طرابلس، والأراتقة فى بيت المقدس وفلسطين وبنو صليحة فى جبلة وبنو محرز فى المرقب القدموس (صلاح الدين نوار، تاريخ الشام السياسى، ص ٥٥٤ – Claude Cahen, La Syrie du Nord, P 180)

(١٦٦) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ١٤٦ – عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس الصليبية، الاسكندرية، ١٩٨٥، ص ٤٧ – محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها ١٠٩٧ – ١١٤٤، الاسكندرية، ١٩٩٠، ص ٨٧ – چوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين، فى الحملة الصليبية الأولى، الاسكندرية، ١٩٦٣، ص ١٩٨ وما يليها – وارجع كذلك إلى ريموندا جيل؛ تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، نقله من الانجليزية إلى العربية د. حسين محمد عطية، الاسكندرية، ١٩٩٠، ص ٧٧ وما يليها. وارجع كذلك إلى The Alexiad of Anna Comnena p 333 - 338, Wise, The Crusades,

London, 1978. p 18.

(١٦٧) لمزيد من التفاصيل عن هذه الموقعة ارجع إلى عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس الصليبية، ص ٤٨ – چوزيف نسيم يوسف، العرب، والروم واللاتين، ص ٢٠٣ – صلاح الدين نوار، التاريخ السياسى، ص ٥٥٥ ستيفن رانسمان، الحروب الصليبية، جـ١، ص ٢٦٠.

Mayer H.E. The Crusads Oxford, 1972, p 51.

(١٦٨) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١، ص ٢٢٦ وما يليها – مصطفى الكنانى، العلاقات بين جنوة والفاطميين، جـ١، ص ١٢٤ – Cam-bell, G., The Crusades, London 1935, p 119-Grousset, Histoire des Croisades, Paris, 1934- 1935, Vol I, p 85.

(١٦٩) ويذكر بعض المؤرخين أن الصليبيين أثناء حصارهم لمدينة نيقية وجهوا سفارة من معسكرهم الذى أقاموه أمام المدينة إلى القاهرة، ومن أهدافها اقامة تحالف مع الفاطميين، وذلك بناء على نصيحة الكسيس كومنين أثناء وجودهم بالقسطنطينية، وقد أرخت هذه السفارة بتاريخ ٢٩ جمادى الثانية ٤٩٠ هـ (١٢ يونيو ١٠٩٧م) (صاحب هذا الرأى هو المؤرخ Pierre Tudebodus فى كتابه الحروب المقدسة Historia belli Sacri، ولمزيد من التفاصيل عن هذه السفارة المزعومة ورأى ستيفن رانسمان فيها ارجع إلى كتابه تاريخ الحروب الصليبية، جـ١، ص ٢٢٦ – وعن سفارة الفاطميين إلى الفرنج عند أسوار انطاكية ارجع إلى سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١، ص ١٩٧ – ١٩٩ – مصطفى الكنانى، العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص ١٢٤ – محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، ص ٩٠ –

Lane Poo;e, A History of Egypt, p. 164).

ويذكر د. صلاح نوار أن الفاطميين قد ارسلوا سفارة أخرى للصليبيين أثناء حصارهم لمدينة عرقة (ولمزيد من التفاصيل عن هذه السفارات والمفاوضات ارجع إلى صلاح الدين نوار، الذى استعرض كل الآراء التاريخية بشأنها فى كتابه العدوان الصليبى على العالم الاسلامى (٤٩٠ - ٥١٥ هـ / ١٠٩٧ - ١١٢١م) أضواء جديدة على الحروب الصليبية، الاسكندرية، ١٩٩٣، ص ٥٢ - ٨٣).

(١٧٠) مصطفى الكنانى، العلاقات بين جنوة والفاطميين، جـ١، ص ١٢٤.

(١٧١) المرجع السابق، ص ١٢٤.

(١٧٢) يذكر الدكتور محمد محمد مرسى الشيخ أن الجهل بمقاصد الحملة الصليبية الأولى، كان السمة الهامة التى اتسم بها كل حكام المسلمين فى ذلك الوقت، فكل من دقاق ورضوان لم يتحمسا لمقاومة الغزو الصليبى تحمسا كافيا نظرا لعدم تفهمهما لحقيقة الموقف فى شمال الشام وطبيعة الخطر الصليبى، وإذا كانا قد أرسلا جيوشا أو أن دقاق قد خرج بنفسه لانقاذ انطاكية، فإن ذلك كان بناء على الحاح شمس الدولة ابن ياغى سيان، مبعوث والده فى هذه المهمة. وليس أدل على جهل الحكام المسلمين وغفلتهم من مبادرة بعضهم بإقامة تحالف مع الصليبيين ضد بعضهم البعض، كما سارعت بعض الوحدات الصغيرة إلى طرح طاعة المسلمين ورفع راية العصيان وطلب المعونة من الصليبيين مثل مافعله أهل تل منسى القريب من معرة النعمان الذين كاتبوا الصليبيين يطمعونهم فى الشام (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٨٩). ويعبر ذلك عن مدى الضعف الذى أصاب نفوس المسلمين فى الشرق الاسلامى، على أن الخطأ الأكبر الذى وقع فيه المسلمون، يتمثل بحق فى موقف الفاطميين فى مصر الذين عبروا عن ترحيبهم وسعادتهم بمجئ الصليبيين، واعتبروهم حلفاء أقوياء لهم يمكن

أن يثقوا فى صداقتهم ومحالفتهم ضد عدوهم التقليدى، الأتراك السلاجقة.

(Lane Poole, A History of Egypt, p 164).

(١٧٣) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١، ص ١٩٩ – وارجع كذلك إلى رأى د. محمد محمد مرسى الشيخ المعارض لموقف الفاطميين (محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٨٩، ٩٠ وارجع إلى السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى، ص ٨٤). فى حين تصدى الدكتور صلاح الدين نوار للرد هذه الاتهامات عن الأفضل بن بدر الجمالى وهو يعتبر أن هذه الآراء تتحامل كثيرا على الأفضل والفواطم، ويرى أن الأفضل عندما عرض على الفرنج الاعتراف بفتوحاتهم فى شمال الشام وآسيا الصغرى كان يأمل من وراء استقرار الصليبيين فى هذه المنا[illegible] يمثلوا نوعا من التوازن السياسى مع السلاجقة أو يكونوا بمثابة قوة حاجزة أو مانعة بينه وبين السلاجقة (لمزيد من التفاصيل عن رأى د.صلاح الدين نوار و دفاعه عن سياسة الأفضل واستعراضه للآراء المختلفة، ارجع إلى كتابة العدوان الصليبى، ص ٨٢، ٨٣، ٦٨). وارجع إلى رأى ابن الأثير فى الكامل جـ١٠، ص ٢٧٣ واتهامه للفاطميين باستدعاء الفرنج والتواطؤ معهم وارجع كذلك إلى ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ١٤٩.)

(١٧٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١، ص ٢٢٨ – اسامة زكى زيد، صيدا ودورها فى الصراع الصليبى الاسلامى، ص ٧٦، ٧٧ – Holt, Op. Cit, P 31-32.

(١٧٥) يذكر ريموندا جيل أن أنصار الرأى القائل بالتوجه إلى بيت المقدس أولا، كانوا يتصورون أنه بعد استيلائهم على بيت المقدس، سيعمد سكان المدن

الأخرى التى تقع فى طريقهم مثل طرابلس وصور وعكا إلى الجلاء عنها خوفا من موجة الصليبيين القادمة من العالم المسيحى (ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص ١٨٢).

Louise and Jonathan Riley - Dmith, The Crusades, Idea and Reality, 1095 - 1274, London, 1981, p 13.

(١٧٦) أسامة زيد زكى، صيدا ودورها، ص ٧٧ - ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية جـ١، ص ٣٨٨ - Amin Maalouf, The Crusades throught Arabeyes, Cairo, 1990, p 47. ومن الجدير بالذكر أن الصليبيين استولوا على عدة مدن داخلية فى طريقهم من انطاكية إلى بيت المقدس قبل وصولهم بيروت من ذلك استيلائهم على معرة النعمان التى كانت بمثابة الحد الشمالى الشرقى لأنطاكية وارتكبوا بها مذبحة مروعة راح ضحيتها عدد كبير من سكانها (ارجع ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٦، ١٣٧ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٢٧٨ - ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ١٦١ - صلاح الدين نوار، العدوان الصليبى، ص ٧٢ - ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة، ص ١٦٣ وما يليها - وليم الصورى، تاريخ الحروب الصليبية، جـ١، ص ٣٧٩ - ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية جـ١، ص ٣٦٨ وما يليها - Amin Maalouf, The Crusades, p 37-55. وبعد استيلاء الفرنج على المعرة، توجهوا إلى كفر طاب التى تقع على مسافة ١٢ ميلا إلى الجنوب منها، وانتظروا بها مدة يسيرة، حتى يتاح لهم جمع المؤن اللازمة لعساكرهم، وفى هذا المكان لحق بهم سفراء من قبل أمير شيزر، عز الدين أبو العساكر سلطان ابن منقذ (٤٩١ - ٥٤٨ هـ / ١٠٩٨ - ١١٥٤ م) يعد الفرنج بعدم اعتراض طريقهم وتقديم المساعدات والامدادات والأدلاء لهم لارشادهم فى عبورهم اقليم نهر العاصى (الأورنت) (ابن

الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٢٧٨ أحداث سنة ٤٩١ هـ - ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ١، ص ٣٧٧). ويعلق د. محمد محمد مرسى الشيخ بأن الامارات العربية الصغيرة فى شيزر وحمص (راجع موقف صاحب حمص فى الكامل لابن الأثير، جـ١٠، ص ٢٧٨) وطرابلس (كان أميرها إذ ذاك جلال الملك أبو الحسن على بن محمد بن عمار) كان مسلكها تجاه الصليبيين يتسم بالمرونة والمسالمة مع الصليبيين لشك هذه البيوت العربية فى جدوى التصدى للصليبيين بالاضافة إلى جهلهم بطبيعة الغزو الصليبى وأهدافه (لمزيد من التفاصيل راجع محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٩٦، ٩٧). وكان الأمير (تنكريد) هو صاحب الرأى فى استخدام الطريق الداخلى للوصول إلى بيت المقدس، وأثناء سيرهم مروا بمصياف، وهناك تلقاهم أميرها العربى، وعقد اتفاقية مع ريمون دى سان جيل، ثم تابعوا السير إلى حصن الأكراد حيث عزم الصليبيون على الاستيلاء عليه (ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ ١، ص ٣٧٩). وأثناء اقامة الفرنج فى حصن الأكراد، قدمت اليهم رسل صاحبى حماة وطرابلس يبدون الترحيب بالفرنج، ثم حاصر الصليبيون عرقة الحصينة كما حاصروا جبلة، وكانت تابعة لبنى عمار فى طرابلس واستقل بها القاضى أبو محمد عبد الله بن منصور عن بنى عمار (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى صلاح الدين نوار، العدوان الصليبى، ص ٧٦ وما يليها). وأمام حصار الصليبيين لعرقة وصلت سفارة الأفضل الثانية إلى الفرنج. وعندما وصل الفرنج إلى طرابلس قابلوا ترحيباً من صاحبها.

(١٧٧) وليم الصورى، تاريخ الحروب الصليبية، جـ١، ص ٣٩٨ - اسامة زكى زيد، صيدا ودورها ص ٧٧ -

Amin Maalouf, The Crusades, p 47.

(١٧٨) ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ١ ، ص ٣٨٩.

(١٧٩) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١ ، ص ٣٨٥ - ستيفن رانسمان، المرجع السابق، جـ١ ، ص ٣٨٩، جـ٢ ، ص ١١٩. ويؤكد كاهين أن حكام عسقلان وصور وحماة وشيزر قدموا اتاوات ضخمة للفرنج. Cahen, Op. Cit., P 260

وراجع كذلك ما أورده د. أسامة زكى زيد بشأن هذا الموضوع، فى كتابه صيدا ودورها، ص ٧٩ وكذلك د. السيد عبد العزيز سالم فى كتابه دراسة فى تاريخ مدينة صيدا، ص ٩٢.

(١٨٠) صلاح الدين نوار، العدوان الصليبى، ص ١٦١، ١٦٢.

(١٨١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الاسلامية، ص ١٠٩.

(١٨٢) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤١ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة صيدا ص ٩٤ - ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢ ، ص ١٤٢ -

Grousset, Histoire des Croisades, t, I, p 239.

(١٨٣) ابن الأثير، الكامل، جـ١٠ ، ص ٣٤٥ - مؤرخ مجهول،تاريخ سلاطين المماليك - ص ٢٣٠ - ٢٣٢ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة صيدا، ص ٩٤ - سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١ ، ص ٣٠٢ - صلاح الدين نور نقلا عن البرت دكس Albert of Aix، العدوان الصليبى، ص ٢٥٠ - أسامة زكى زيد نقلا عن البرت دكس، صيدا ودورها، ص ٨١ - ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢ ، ص ١٤٢. غير أن بلدوين نجح فى شعبان سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٥م) فى فتح عكا بمساعدة عدد كبير من السفن الجنوية من جنوة يتجاوز التسعين سفينة مشحونة بالتجار والأجناد والحجاج.

(١٨٤) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٥١ – المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٣٧ – السيد عبد العزيز سالم، دراسة فى تاريخ مدينة صيدا الاسلامية، ص ٩٥ – صلاح الدين نوار، العدوان الصليبى، ص ٢٩٨.

(١٨٥) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١، ص ٣٠٦ – اسامة زكى زيد، صيدا ودورها ص ٨٣ – ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢، ص ١٤٧ –

The Latin Kingdom of Jerusalem, V.A p 23., Jean Richard

(١٨٦) اسامة زكى زيد، نقلاً عن البرت دكس، صيدا ودورها، ص ٨٦.

(١٨٧) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٤، ١٧١ – ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٤٧٦ – Jean Richard, The Latin Kingdom V.I, p 24 -26

(١٨٨) فوشيه دى شارتر، تاريخ الحملة إلى القدس، ص ١٥٨.

(١٨٩) وليم الصورى، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٦١٤، ٦١٧ – صلاح الدين نوار، العدوان الصليبى، ص ٣٩٧ Amin Maalouf, The Crusades, p 767, 86

(١٩٠) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٥٩ – ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٤٣ – وارجع كذلك إلى ابن الأثير، الكامل، جـ ١٠، ص ٤٥٦ – المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ ١٠، ص ٤٥٦ – المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٣٨ – السيد عبد العزيز سالم، دراسة فى تاريخ مدينة صيدا، ص ٩٥ – صلاح الدين نوار، العدوان الصليبى، ص ٢٩٩ – اسامة زكى زيد، صيدا ودورها فى الصراع الاسلامى الصليبى، ص ٨٧.

(١٩١) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٢ – ابن الأثير، الكامل،

جـ١٠، ص ٤٥٦ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة صيدا، ص ٩٦، اسامة زكى زيد، صيدا ودورها ص ٨٨ - Grousset, Op. cit., t. I, p 253.

(١٩٢) المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٤٣ - ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢، ص ١٤٩.

(١٩٣) كانت طرابلس قد خضعت الفاطميين سنة ٥٠١ هـ قبيل سقوطها فى يد الصليبيين سنة ٥٠٢ هـ، وكان صاحبها فخر الملك بن عمار قد تركها متوجها إلى بغداد لاستنفار الخليفة العباسى المستظهر وطلب امدادات عسكرية، تساعده فى مواجهة الصليبيين، فانتهز ابن عمه أبو المناقب فرصة غيابه وأعلن الثورة عليه وخلفه ونادى بشعار الأفضل شاهنشاه (ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦١ - ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٤٣ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٤٥٢) وان كان ابن الفرات يشير إلى عدم مناداة أبا المناقب بشعار الأفضل، وان نادى به هو أهالى طرابلس (ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، تحقيق د. قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، بيروت، ١٩٣٩، جـ٨، ص ٧٨ - ولمزيد من التفاصيل ارجع الى السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام فى التاريخ الاسلام، ص ١٠٩ - ١١٣).

(١٩٤) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٧١- ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٤٧٩، فوشيه دى شارتر، تاريخ الحملة إلى القدس، ص ١٤٨.

(١٩٥) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٤.

(١٩٦) المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٤٥.

(١٩٧) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٤ - ابن الأثير، الكامل،

جـ١٠، ص ٤٧٦، ٤٧٧ المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٤٤- ابن خلدون، العبر، ق ٥، ص ٤٠٨، ٤٠٩. وعن أسباب تأخر الأسطول المصرى ارجع إلى المصادر السابقة، وكذلك إلى أبو الفداء، المختصر، جـ٤، ص ١٤٣ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ١٧٩ - صلاح الدين نوار، العدوان الصليبى، ص ٢٧٥ - ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢، ص ١١٣ وما يليها. ويندد ابن تغرى بردى بعدم اكتراث مصر للفرنج، ويصور استهانة الفاطميين بأداء واجبهم نحو طرابلس بأنه ناتج عن ثلاثة أمور أولها تقاعسهم عن السير مدة طويلة وثانيها ضعف العسكر الذى أرسلوه مع الأسطول، وثالثها عدم خروج الأفضل بنفسه للدفاع عن طرابلس. ويورد ابن الفرات رواية تتضمن سخرية لاذعة على الفاطميين وهى أن أهل طرابلس لما طال بهم الحصار وهم ينتظرون نجدة من المصريين، رأوا سفينة مصرية قادمة، فلما وصلت كان بها رسول من الخليفة الفاطمى يخبر أهل طرابلس المحاصرة أنه سمع أن بمدينتهم جارية حسناء الصورة، فأمرهم بارسالها إليه (ابن الفرات، جـ٨، ص ١٨٩) وقد تصدى الدكتور صلاح الدين نوار للدفاع عن الفاطميين راجع كتابه، العدوان الصليبى، ص ٢٨٠ وما يليها وارجع كذلك إلى

J.J. Saunders, A history of Medieval Islam, p 161.

(١٩٨) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة صيدا، ص ٩٧ - تاريخ البحرية، ص ١١٣، ١١٤.

(١٩٩) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٨ - المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٤٥.

(٢٠٠) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ صيدا، ص ٩٨ - سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١، ص ٣٠٩ - صلاح الدين نوار، العدوان الصليبى، ص

٢٨٥ – ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢، ص ١٤٩.

Stevenson (W.B) ,The Crusades in the East, Cambridge, 1907, p 59.

(٢٠١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٧ – فوشيه دى شارتر، ص ١٤٥ – وليم الصورى، جـ١، ص ٣٥٨ وما يليها. ويرى د. صلاح نوار أن هذه السفن الفاطمية هي جزء من الأسطول الفاطمي الذى كان عليه انجاد طرابلس ولكنه قد وصل متأخرا بعد سقوطها، فرسى فى مدينة صور. أما الدكتور محمد حلمى محمد أحمد فيقول أن السفن السابقة القادمة من مصر قد وزعت على المدن الساحلية الشامية فكان نصيب بيروت هذه المراكب التسعة عشر (اتعاظ حنفا، جـ٣، ص ٤٥). وعن مقاومة المدينة (بيروت) ارجع كذلك إلى ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٨ – المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٤٥. ولمزيد من التفاصيل عن استسلامها ارجع إلى صلاح نوار، العدوان الصليبى، ص ٢٨٦ وما يليها – السيد عبد العزيز سالم، صيدا، ص ٩٨ وارجع كذلك إلى الشدياق (طنوس بن يوسف)، أخبار الأعيان فى جبل لبنان، بيروت، ١٩٥٤، جـ٢، ص ٢٩٥.

Stevenson, p 59, Grousset, t. I, p 254.

ولمزيد من التفاصيل عن تلك الظروف ارجع إلى

Lammens La Syrie, Precis historique, Beyrouth, 1921, p 215.

(٢٠٢) عن محاولة الفرنج فتح صيدا سنة ٥٠٣ هـ ارجع إلى ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٩٠ وعن تقدم الأسطول الفاطمى إلى صور ودور صور فى اطلاق السفن للدفاع عن صيدا ارجع إلى صلاح الدين نوار

نقلا عن البرت دكس Albert of Aix ، العدوان الصليبي، ص ٢٩١ . ويذكر ابن القلانسي أن بلدوين اضطر لفك الحصار عن صيدا بعد أن وصلته استغاثة أمير الرها الصليبي، لأن الجيش السلجوقي المتحد بقيادة شرف الدين مودود أتابك الموصل، ونجم الدين ايلغازى بن ارتق قام بحصار الرها لاسقاطها مما دفع بلدوين على رفع الحصار عن صيدا لانقاذ الرها (ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٩ ، ١٧١).

(٢٠٣) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٧١ – وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، جـ١ ، ص ٥٤٠ – وارجع إلى أسامة زكي زيد نقلا عن البرت دكس، صيدا ودورها ص ٩٢ – ستيفن رانسمان، الحروب الصليبية، جـ٢ ، ص ١٥٠ – ويذكر د. عبد العزيز سالم أنه بذلك أصبح أول ملك متوج يقدم فى أسطول كبير لزيادة مملكة بيت المقدس وقد وصل هذا الأسطول النرويجي الى يافا عقب استيلاء بلدوين على بيروت مباشرة (السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة صيدا، ص ١٠٠) وارجع كذلك إلى صلاح الدين نوار، العدوان الصليبي، ص ٢٩١ .

(٢٠٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١ ، ص ٣١٠، ٣١١ – السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة صيدا، ص ١٠١ – ستيفن رانسمان، جـ٢ ، ص ١٥٠، ١٥١ – Stevenson, the Crusades 60- Grousset, t. I, p 256 - Deschamps (Paul),La Defense du Röyaume de Jerusalem, Paris, 1939, p 224.

ويؤكد هايد استنادا على ما ورد

فى المدونات الصليبية أن البنادقة اسهموا فى حصار صيدا بدليل تنازل بلدوين لكنيسة سان ماركو بالبندقية، وللدوق أورد يلافو عن بعض الحقوق فى عكا -W. Heyd, Histoire du Commerce du levant, t. I, Leip

zig, 1946, p 142- 143.

(٢٠٥) لمزيد من التفاصيل عن حصار صيدا وسقوطها فى أيدى الصليبيين واستخدام الصليبيين الأبراج المتطورة لاسقاط المدينة، وارجع إلى ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٧١ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٤٠٩، ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢، ص ١٥١ - Grousset, t.I, p 257 السيد عبد العزيز سالم، تاريخ صيدا، ص ١٠٢، ١٠٣، البحرية الاسلامية، ص ١١٦ - Stevenson p 60 - سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١، ص ٣١١ - اسامة زيد، صيدا ودورها، ص ٩٣ صلاح نوار، العدوان الصليبى، ص ٢٩٢.

(٢٠٦) وليم الصورى، ص ٥٤٥ - اسامة زيد نقلا عن البرت دكس، ص ١٧١.

(٢٠٧) Anna Comnena, The Alexiad, p 440 - Cahen, op. cit., p 255.

صلاح الدين نوار، العدوان الصليبى، ص ٣٠٠ - ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢، ص١٥٢.

(٢٠٨) يذكر الدكتور صلاح نوار أن بلدوين كان قد اتفق مع الجنويين فى عام ٥٠٢ هـ (١١٠٩م) على أن يساعدوه فى حصار طرابلس، الاستيلاء عليها وإلى جانب مساعدته فى اسقاط بيروت وصيدا وصور وعسقلان مقابل بعض الامتيازات (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى كتابه العدوان الصليبى، ص ٢٧٣). ويذكر أنه لا يملك دليلا قويا يؤكد اشتراك الجنوية فى حصار صور، إلا أن الأبراج وآلات الحصار التى استخدمت فى حصارها كانت تشبه الى حد كبير الأبراج والآلات التى اشتهر الجنويون بصنعها لاسقاط من الساحل الفاطمى.

Anna Comnena, The Alexiad, p 442.

(٢٠٩) وارجع كذلك إلى وليم الصورى، جـ١، ص ٥٤٦.

(٢١٠) إبن القـلانسى، ذيل تاريخ دمـشق، ص ١٧٨ - ابن الأثيـر، الكامل، جـ١٠، ص ٤٨٨، ٤٨٩ - المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٤٨ - ابن خلدون، العبـر، م ٥، ص ٤١٣ - ٤١٤ - ابن تغـرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ١٨٠.

(٢١١) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص ١٦٧. ويعتبر طغتكين أتابك، صاحب دمشق من أعظم قادة المسلمين الذين تصدوا للصليبيين ونذروا حياتهم للجهاد ضدهم فى بلاد الشام. ومن أمثلة بطولاته ضد الفرنج الحرب التى جرت بينه وبين الفرنج سنة ٥٠٢ هـ وسببها أن طغتكين سار إلى طبرية، وقد وصل إليها ابن أخت بلدوين ملك القدس، فتحاربا وتقاتلا، وكان طغتكين على رأس جيشه الذى كان يتكون من ألفى فارس وحشد كبير من الرجالة، أما ابن أخت بلدوين، فكان جيشه يتكون من ألفين من المشاة وأربعمائة فارس، ولما اشتد القتال انهزم المسلمون، فترجل طغتكين ونادى بالمسلمين وشجعهم فعاودوا الحرب وكسروا الفرنج وأسروا ابن اخت الملك بلدوين، ولما حمل الى طغتكين عرض عليه الاسلام فامتنع وبذل فى فداء نفسه ثلاثين ألف دينار واطلاق خمسمائة أسير، فلم يقنع طغتكين منه بغير الاسلام فلما رفض قتله طغتكين بيده، وأرسل الأسرى إلى الخليفة والسلطان السلجوقى (ابن الأثير، الكامل، جـ١٠ ص ٤٦٧ - ابن خلدون، العبر، جـ٩، م ٥، ص ٤٠٧، ٣٢٢ كما أورد ابن خلدون فى العبر، نفس الجزء ص ٣١٨ مثالا آخر يعبر عن بطولاته، عندما استولى على حصن أحد القمامصة الفرنج الواقع على بعد مرحلتين من دمشق، ردا على غارات صاحبه المتكررة على مدينة دمشق، ثم سار بعد حيازته لهذا الحصن إلى حصن رمة من حصون الشام وكان قد ملكه الفرنج فحاصره حتى ملكه وقتل أهله من الفرنج وكذلك دفاعه عن دمشق سنة ٥٢٠ هـ عندما هاجمها الفرنج (لمزيد من التفاصيل ارجع الى ابن

خلدون، نفس المصدر، ص ٣٢٨، وكذلك أمثلة أخرى فى نفس المصدر، ص ٤٩٨، وارجع كذلك إلى ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٠، ٢٠١ لتوضيح أمثلة من بطولات طغتكين).

(٢١٢)ابن خلدون، العبر، جـ٩، م٥، ص ٤١٣، ٤١٤.

(٢١٣) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٧٨ - ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ١٨٠ - رضا السيد حسن، الصليبيون وآثارهم، ص ٥١ - صلاح نوار، العدوان الصليبى ص ٣٠١.

(٢١٤) ابن القلانسى، الدليل، ص ١٧٨.

(٢١٥) ابن شداد، الأغلاق الخطيرة، ص ١٦٧

(٢١٦) ابن القلانسى، الذيل، ص ١٧٨ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ١٨١.

(٢١٧) ابن القلانسى، الذيل، ص ١٧٨ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٤٩٠ - ابن خلدون العبر، جـ٩، م ٥، ص ٤١٣، ٤١٤.

(٢١٨) ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ٧٨.

(٢١٩) ابن القلانسى، الذيل، ص ١٧٨ - ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص ١٦٧ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ١٨١.

(٢٢٠) فوشيه الشارترى، تاريخ الحملة إلى القدس، ص ١٥٠ - وليم الصورى، جـ١، ص ٥٤٦ وقد وصف لنا كل من ابن القلانسى وابن تغرى بردى هذين البرجين، فذكر أن طول الأكبر منهما يزيد على خمسين ذراعا، وطول الأصغر يتجاوز الأربعين ذراعا (ابن القلانسى، الذيل، ص ١٧٩ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ١٨١.

(٢٢١) ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٤٨٨ حيث ذكر أن طول البرج كان

يبلغ سبعين ذراعا وفى كل برج ألف رجل (ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، مخطوط دار الكتب المصرية، جـ١ ، م١ ، لوحة رقم ٥٦) فى حين لم يحدد المقريزى عدد تلك الأبراج وانما وصفها بأنها «أبرجة خشبية، طول البرج سبعون ذراعا، يسع كل برج ألف رجل (المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٤٨ ، وكذلك ابن خلدون الذى ذكر فى العبر، جـ٩ ، م ٥ ، ص ٤١٣ ، ٤١٤ أن الفرنج نصبوا الأبراج والمجانيق على صور. ولمزيد من التفاصيل ارجع إلى صلاح الدين نوار، العدوان الصليبى، ص ٣٠٢ – اسامة زيد، صيدا ودورها ص ١٧١ .

(٢٢٢) ابن القلانسى، الذيل، ص ١٧٨ – ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥ ، ص ١٨١.

(٢٢٣) ابن خلدون، العبر، جـ٩ ، م٥ ، ص ٤١٣ ، ٤١٤ .

(٢٢٤) ابن القلانسى، الذيل، ص ١٧٨ – ابن الأثير الكامل، جـ١٠ ، ص ٤٩٠ – ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ١٨١ .

(٢٢٥) اسامة زيد نقلا عن البرت دكس، ص ١٧١ .

(٢٢٦) Anna Comnena, The Alexiad, p 442.

(٢٢٧) صلاح الدين نوار، العدوان الصليبى، ص ٢٠٣ .

(٢٢٨) وليم الصورى، تاريخ الحروب الصليبية، جـ١ ، ص ٥٤٦ ، ٥٤٧ .

(٢٢٩) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٧٩ – ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ١٨١ .

(٢٣٠) المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣ ، ص ٤٨ .

(٢٣١) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، جـ١ ، م١ ، لوحة ٥٦ .

(٢٣٢) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٧٩ .

(٢٣٣) يوجد بياض بعد كلمة مملوءة فى أصل النص وأكملناه بما ورد فى المصادر الأخرى من معلومات (ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، جـ١ ، م١ ، لوحة ٥٦).

(٢٣٤) المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٤٨ .

(٢٣٥) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٠ (وقد اسهب ابن القلانسى فى وصف جهود هذا الشيخ الطرابلسى لاحراق الأبراج، راجع ما ورد فى كتابه من تفاصيل) - وان الأثير، الكامل، جـ١٠ ، ص ٤٨٨ .

(٢٣٦) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك لوحة ٥٠ ب - ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص ١٦٨ ، وارجع كذلك إلى ما ورد فى المقريزى بشأن الغنائم التى غنمها المسلمون، فى اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٤٨ .

(٢٣٧) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، لوحة ٥٠ ب.

(٢٣٨) ابن القلانسى، الذيل، ص ١٨١ - ابن تقزى بردى، النجوم، حـ٥ ، ص ١٨١ ، ١٨٢ .

(٢٣٩) ابن الأثير، الكامل، جـ١٠ ، ص ٤٨٩ ارجع إلى أقوال المؤرخين اللاتين والبيزنطيين فى أسلوب مقاومة المسلمون للأبراج الصليبية، وليم الصورى جـ١ ، ص ٥٤٦ - Anna Comnena, The Alexiad, p 442- 443.

(٢٤٠) ابن الفرات تاريخ الدول والملوك، م١ لوحة ٥٦ (ب)، لوحة ٥٧ (أ).

(٢٤١) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، لوحة ٥٧ (أ).

(٢٤٢) ابن الأثير، الكامل، جـ١٠ ، ص ٤٨٩ - ابن الفرات، المصدر السابق، لوحة ٥٧ (أ) ولمزيد من التفاصيل ارجع إلى صلاح الدين نوار، العدوان الصليبى، ص ٣٠٤.

(٢٤٤) فوشيه الشارترى، ص ١٤٩ وليم الصورى، جـ١ ، ص ٥٤٥ وما يليها -

Anna Comnena, The Alexiad, p 442 - 442.

(٢٤٥) ابن الأثيـر، الكامل، جـ١٠، ص ٤٨٩، ٤٩٠ – ابن الفـرات، تاريخ الدول والملوك، لوحة ٥٧.

(٢٤٦) ابن القلانسي، الذيل، ص ١٨١.

(٢٤٧) استمر حصار الصليبيون لصور أربعة أشهر ونصف (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٠ – ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، لوحة ٥٧ (أ) – فوشيه الشارترى ص ١٥٠.

(٢٤٨) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨١.

(٢٤٩) المصدر السابق، ص ١٨٢ – ابن شداد، الاعلاق الخطيرة. ص ١٦٨ – المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٥١.

(٢٥٠) ابن القـلانسي، ذيل تاريخ دمـشق، ص ١٨٢ – ابن شـداد، الأعـلاق الخطيـرة، ص ١٦٨ – ابن الأثيـر، الكامل، جـ١٠، ص ٦٢٠ – المقريزى اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٥٠، ٥١، ٩٦ – ابن خلدون، العبر، جـ٩، م ٥، ص ٤٢٣، ٤٢٤ – السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الاسلامية، ص ١١٧ – صلاح نوار، العدوان الصليبى، ص ٣٠٦، ٣٠٧.

(٢٥١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٢.

(٢٥٢) المصدر السابق، ص ١٨٢ – المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٥١.

(٢٥٣) أشهر من نادى بهذا الرأى السير هاملون جب Gibb (ولمزيد من التفاصيل عن آرائه ارجع إلى كتاب العدوان الصليبى للدكتور صلاح نوار، ص ٣٠٨).

(٢٥٤) ابن القـلانسي، ذيل تاريخ دمـشق، ص ١٠٢ – ابن شـداد، الاعـلاق

الخطيرة، ص ١٦٨ - المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٥١ - ابن خلدون، العبر، جـ٩، م٥، ص ٤٢٣، ٤٢٤.

(٢٥٥) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٢ - ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص ١٦٨، ١٦٩ - المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٥١ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الاسلامية ص ١١٧ - صلاح الدين نوار، العدوان الصليبى، ص ٣٠٨، ٣٠٩.

(٢٥٦) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٨.

(٢٥٧) المصدر السابق، ص ١٨٣.

(٢٥٨) نفسه، ص ١٨٨ - المقريزى اتعاظ الحنفا جـ٣، ص ٥١ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية، ص ١١٨ - صلاح الدين نوار، العدوان السياسى، ص ٣٠٨.

(٢٥٩) ابن القلانسى، الذيل، ص ١٨٨ - ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص ١٦٩ - المقريزى اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٥٢ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية، ص ١١٨.

(٢٦٠) وليم الصورى، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢، ص ٦١٧.

(٢٦١) صلاح نوار، العدوان الصليبى، ص ٣٠٨. حيث يذكر أنه يرجح استمرار وجود عز الملك أنوشتكين الأفضلى على سدة الحكم في صور، بناء على صمت المصادر الاسلامية عن الحديث عنه وعدم ذكرها ما يشير إلى خروجه من طرابلس عند وصول طغتكين اليها.

(٢٦٢) ارجع إلى صلاح نوار، الذى نقل هذا الخبر عن العظيمى فى كتابه العدوان الصليبى، ص ٣٠٩.

(٢٦٣) المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٥٦.

(٢٦٤) ارجع الى حاشية رقم (٥) فى كتاب الالكسياد ص ٤٤٢.

Anna Comnena, The Alexiad, p 442.

(٢٦٥) اغتيل الأفضل فى ليلة عيد الفطر سنة ٥١٥ هـ (١١٢١م) بعد أن كان قد أمعن فى الحجر على الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله، كما أظهر ميلا للمذهب السني وأبطل العمل بالأعياد الفاطمية فاتفق الخليفة الآمر مع المأمون البطائحى على اغتيال الأفضل، وبعد التخلص منه، وعد المأمون بتولى الوزارة.

(٢٦٦) بعد بناء القاهرة اصطلح على تسمية الفسطاط والعسكر وبقايا القطائع اسم مدينة «مصر».

(٢٦٧) المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٩٤.

(٢٦٨) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٧ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٦٢٠، ٦٢١ - المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٩٦ - ستيفن رانسمان، الحروب الصليبية، جـ٢، ص ٢٧.

(٢٦٩) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١١ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٦٢١ - المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ١٠١، ١٠٢.

(٢٧٠) المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ١٠١، ١٠٢.

(٢٧١) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١١ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ٦٢١.

(٢٧٢) يذكر ستيفن رانسمان أن بعض سادة اليهود أيدوا شن الهجوم على عسقلان فى حين أصر سادة الجليل على مهاجمة صور، وأيدهم فى ذلك البنادقة لأن ميناء صور يعتبر من أهم الموانئ الواقعة على البحر المتوسط كما كان الميناء الذى ترد إليه خيرات دمشق (ارجع إلى تاريخ الحروب

الصليبية، جـ٢، ص ٢٦٧).

(٢٧٣) فوشيه الشارترى، تاريخ الحملة إلى القدس، ص ٢٠٦ - ستيفن رانسمان، جـ٢ ص ٢٦٧.

(٢٧٤) لمزيد من التفاصيل عن الاتفاقية التى عقدت فى عكا، بين البنادقة والبطريرك جورمون لتحديد المقابل لمعاونة البنادقة، الفرنج فى فتح صور وعسقلان والتى تبلغ ثلث كل منهما ارجع إلى ستيفن رانسمان، الحروب الصليبية، جـ٢، ص ٢٦٨ -

Holt, the Ages of the Crusades, p 25.

(٢٧٥) وليم الصورى، جـ٢، ص ٦١٧.

(٢٧٦) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١١ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٦٢١.

(٢٧٧) وليم الصورى، جـ٢، ص ٦١٨ - ستيفن رانسمان جـ٢، ص ٢٧٠ وكانوا قد سدوا السقاية التى توصل الماء من البر إلى صور.

(٢٧٨) وليم الصورى، جـ٢، ص ٦١٨.

(٢٧٩) فوشيه الشارترى، ص ٢١٣ - وليم الصورى، جـ٢، ص ٦١٨.

(٢٨٠) وليم الصورى، جـ٢، ص ٦١٨.

(٢٨١) فوشية الشارترى، ص ٢١٤ - وليم الصورى، جـ٢، ص ٦٢٠ - ستيفن رانسمان، جـ٢ ص ٢٧١.

(٢٨٢) وليم الصورى، جـ٢، ص ٦٢٠.

(٢٨٣) نفس المصدر، ص ٦٢١.

(٢٨٤) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١١ - ابن الأثير، الكامل،

جـ١٠، ص ٦٢١ – المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ١٠٧.

(٢٨٥) وليم الصورى، جـ٢، ص ٦٢١.

(٢٨٦) المصدر السابق، ص ٦٢١، ٦٢٢.

(٢٨٧) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١١.

(٢٨٨) ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٦٤.

(٢٨٩) ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٦٢١.

(٢٩٠) ابن شداد، الأعلاق، الخطيرة، ص ١٧٠.

(٢٩١) وأن المقريزى نفسه قد ذكر فى الخطط المقريزية جـ٢، ص ٣٧٦ أن أسطولا خرج لانجاد صور ولكنه تعرض لهجوم من بعض السفن البندقية أدت إلى هزيمته (ارجع إلى الدكتور السيد عبد العزيز سالم، دور الاسطول الفاطمى فى مصر والشام فى دعم المقاومة الاسلامية للحصار الصليبى على الثغور الشامية، بحث مقدم لندوة تاريخ بلاد الشام منذ منتصف القرن الخامس الهجرى فى القرن السابع) وعن الاشتباك بين الاسطولين المصرى والبندقى ارجع إلى ابن القلانسى، الذيل، ص ٢٠٩ – ابن الأثير، الكامل جـ٨، ص ٣١٤.

(٢٩٢) ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ١٨٢ – وارجع كذلك إلى ستيفن رانسمان، جـ٢، ص ٢٧١.

(٢٩٣) وليم الصورى، جـ٢، ص ٦٢٣.

(٢٩٤) ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٦١٩ – وليم الصورى، جـ٢، ص ٦٢٣ – ستيفن رانسمان، جـ٢، ص ٢٧٢.

(٢٩٥) وليم الصورى، جـ٢، ص ٦٢٥.

(٢٩٦) فوشيه الشارترى، ص ٢١٤، ٢٠٧.

(٢٩٧) وليم الصورى، جـ٢، ص ٦٢٥ - ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢، ص ٢٧١. ويذكر ستيفن رانسمان أنها تسمى كذلك المسجد La Mahomerie وهى على مسافة بضعة أميال إلى الشمال من بيت المقدس.

(٢٩٨) وليم الصورى، جـ٢، ص ٦٢٥.

(٢٩٩) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١١ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٦٢١ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ١٨٢ - المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ١٠٦.

(٣٠٠) ستيفن رانسمان، جـ٢ ص ٢٧٢.

(٣٠١) عن سقوط صور فى أيدى الصليبيين ارجع إلى:

ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١١ - ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٦٤ - ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ص ١٧٠ - ١٧١ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٦٢٠، ٦٢١ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ١٨٢- المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ١٠٦ - فوشيه الشارترى، ص ٢٠٧، ٢١٣، ٢١٤ - وليم الصورى، جـ٢، ص ٦١٦ - ٦٢٦ - وما يليها.

J.J. Saunders, A history of Medieval Islam, p 161, Holt, the Ages of the Crusades, p 25- Jean Richard, the Latin Kingdom, p 22-23.



Aspectos Objetivos Y negativos en el Matrimonio mixto en el Al-Andalus (Un estudio politico, literario, social)*

Aspectos Objetivos Y negativos en el Matrimonio mixto en el Al-Andalus (Un estudio politico, literario, social)*

Al Hablar de la mujer andalusi es logico empezar a hablar sobre el matrimonio mixto en la sociedad hispanomusulmana. Desde la conquista musulmana del al - Andalus, se divulgó el matrimonio mixto, quiero decir el casamiento de los elementos arabes y beréberes con sénoras espanolas de religion cristiana recien convertidas al Islam.

Abdel Aziz hijo de Musa fué el primero que realizó el matrimonio mixto, se casó con Egilona, viuda del último rey godo Don Rodrigo. [1]. Le imitarón los caudillos militares árabes y beréberes, tal Como Ziyad hijo del Nabigha al-Tamimi [2], Ziyad hijo de Udhra al Balawi y , Habib hijo de Abi Abda, Menosa el bereber, y más tarde Abd al - Gabar hijo de Nazir [3] quien se casó con la hija de Teodemiro, gobernador de la curia de Teodemiro llamada en el periodo del Emirato la cora murciana e 'Isa hijo de Muzahem quien se casó con Sara

* شاركت المؤلفة بهذا البحث وألقته فى المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى اطار اعمال المؤتمر الدولى عن المرأة فى حوض البحر المتوسط الذى عقد فى مدريد ١٩٩٥.

La Goda, nieta de Witiza. [4]. Esta clase de matrimonio mixto fué desde entonces un hábito muy divulgado en al Andalus tanto entre el súbdito como entre los dirigentes del pais. Las madres de la mayoria de los emires y califas omeyas eran espanolas.[5]. Lo que me importa más es saber la respuesta de lo siguiente :

- Es que el matrimonio mixto fué la única manera de casarse?? Como los conquistadores árabes y beréberes entrarón Espana, solos y fueron obligados más tarde a casarse localmente para establecerse ó acompanados con sús esposas y descendientes y Formaron familias de su raza??

Para contestar podemos dividir los investigadores en dos grupos: el primero dirigido por Don Julian Ribera y el prof. Hussein Monis [6] , creen que los musulmanes conquistaron Espana solos como individuos, y esto les dió el derecho de casarse localmente. Su casamiento con mujeres espanolas tuvo como consecuencia la creación de una clase social descendiente de padres musulmanes y madres cristianas de origen espanol que suelen llamarse Muladies. Este grupo de investigadores se apoyan en un texto sacado del libro "Al Gamhara" de Ibn Hazm en el que menciona que entre las mujeres árabes establecidas en al-Andalus, las de la tribu Baley بلي son las únicas que no hablan el Romance اللطينية , es decir que la mayoria de mujeres árabes saben hablar el

Romance. [7] Apoyando a este texto, afirman que la mayor parte de las mujeres árabes en Espana hablaban el romance y preguntan : Comó estas mujeres pueden hablar perfectamente el romance mientras que solián quedarse en sus casas según las costumbres árabes, y salian raramente?? Esto conduce a la respuesta lógica de que eran espanolas.

El segundo grupo de investigardores dirigido por Pièrre Guichard, [8] cree que los conquistadores árabes y bereberes entraron en Espana en grupos familiales, es decir acompanados con sus mujeres y hijos. En su opinion el decir que ellos entraron como individuos aislados no es correcto. Guichard sostiene demostrando su hipotesis sobre multiples textos árabes que confirman que los vencedores entraron con sus familias y establecieron así en las regiones territoriales que en ellas favorecieron establecerse, en donde conservaban sus ordenaciones de tribus. Algunos tribus que, partenecían à la misma genealogia se agruparon y se aliarón entre si para afrontar el poder central ó el de las otras agrupaciones de tribus enemigas. Es imposible según dice Prof. Guichard , para cualquier organizacion tribual apoyarse sobre un solo sexo masculino. Para sostener, su tesis. Prof. Guichard da unos ejemplos de casas ámplias edificadas en Basra para albergar a las mujeres y hijos quienes acompanaron los combatientes durante la conquista del Iraq. Los árabes que participaban en la

conquista de Ifriquia افريقية hicieron lo mismo en Kairawan قيروان [9] Cuando el califa Osman llamó a los arabes para participar en la expedición militar dirigida por al Harith hijo de al - Hakam para Conquistar Ifriquia en el año 27 de Hégira, se incorporarón en ella una multitud de combatientes formando así un ejercito , el califa consagró para la expedición mil camellos para llevar los pobres ضعفاء المسلمين [10]. Guichard cree que el sentido de Duafá ضعفاء no se refiere ni a los enfermos, ni a los débiles ó los hombres viejos para combatir, en un ejercito porque no es lógico dejar a enfermos o viejos combatir, sino se refiere a las mujeres, ninos quienes acompanaron el ejercito. Guichard se refiere a un texto sacado del Kamel de Ibn Al Athir, en el que alude que 'Oqba hijo de Náfi' عقبة بن نافع quisó fundar una ciudad en la cual los árabes se establecen con sus familias. Refiere a un otro texto al Athir informando que Abu Al sacado igualmente de Ibn Aswad al Fihri ابو الاسود الفهرى hijo de Yusof gobernador de al-Andalus combatió contra el Emir Abdel Rahman [11] . Se refiere tambien a un texto de AJbar Magmoa, que afirma que al-Sumeil acmpano con él su mjuer y sus dos hijas [12]. Ocurió lo mismo con Musa hijo de Nusayr caundo traspasó el estrecho de Gibraltar en su expedición militar contra los Godos.[13] Tenemos en nuestros manos un texto que alude a los habitantes de Aquitania اقطانية y Provincia tubieron el temor al ver los

musulmanes invadiendo su pais acompanados con sus mujeres y ninos la trasera del ejercito [14]

He participado de mi parte, en el debate afin de resolver el problema definitivamente. Creo que este fenómeno matrimonial que ocurria en al-Andalus entre Musulmanes y españolas fué adoptado intimamente con el otro fenómeno que favorece el casamiento con mujeres musulmanas arabes o bereberes. Uno de los factores que favorecían la divulgación de estos dos especies de matrimonio fué el consentimiento por los musulmanes del principio de la poligamía según permite el Islam, aunque dentro de un marco restrictivo. En este caso creo que los vencedores musulmanes pasaron en al-Andalus a la vez como individuos y con sus familias : los unos combatieron individualmente y los otros llevaron sus mjueres y hijos con ellos para establecerse de modo que el ejercito musulman parecia como si fué compuesto de grupos de tribus ó de tribus enteras o parciales movibles. En los casos de las expediciones militares del Invierno y del verano contra los reinos cristianos, los combatientes musulmanes solian dejar sus familias en los centros urbanos en donde se habían establecidos . Como ejemplos, menciono los Fihriés establecidos en varias zonas del Al-Andalus occidental tal como Mérida, Badajoz, Evora, Medellin y también en Toledo. Estos Fihriés se casaban en la mayoria de los casos entre sí, quizás para [15] poder conservar a

un cierto limite la pureza de sangre. Esto afirma que ellos entraron en al-Andalus con sus familias o sea como tribus. Hay otros ejemplos tal como Sara la Goda, quien se casó con Isá hijo de Muzahim y despues de la muerte del ultimo se casó por segunda vez con Umayr hijo de Said. (16) Sara no era la única entre las mujeres godas de España que se casó con un árabe puesto la siguieron una multitud de mujeres. En cuanto a los Bereberes, es bien sabido que ellos establecieron desde la conquista musulmana de al-Andalus en forma de grupos de tribus, ségun manifiestan los topónimos en donde establecieron los elementos bereberes y según llevando los nombres de sus tribus. Generalmente la tribu se compone de hombres, mujeres y hijos. De estos nombres citamos los topónimos siguientes: Nepza: (citada en el chronicon Albeldense) derivado del nombre Nefza.نفزة

Mestanza: esta dérivado del nombre Mestase مسطاسة

Azuaga : un núcleo urbano situdao muy cerca de Badajoz derivado del nombre bereber de Zuagha .زواغة

Gineta : derivado del nombre bereber Zinata زناتة

Maguila : derivado del nombre bereber de Maguila مغيلة

Un historiador iraqui, Dr. Zenoun Taha publicó hace unos anos un estudio muy valioso sobre los centros urbanos de tribus bereberes en al-Andalus(17) El eminente arqueólogo

Juan Zozaya ha publicado también una investigación que trata de la divulgación de algunos especies de cerámica popular de tipo bereber descubiertos en el oeste y el noroeste de al-Andalus, lo cual confirma que unos grupos de tribus considerables de Bereberes establecieron en estos lugares con sus familias (18) Es bién sabido que el hallazgo de piezas de ceramica ayuda mucho en conocer el elemento resídente en el sitio y lo consideran como fuente esencial para distinguir entre los elementos de la populación en las zonas en que los descubren, puesto que son considerados de los utensilios de la vida diaria de los individuos.

A base de estos datos, deducimos que el fenómino del matrimonio mixto siguia una linea paralela en el mismo tiempo con el matrimonio con musulmanas: árabe ó bereber, es decir con mujeres de la misma raza y religión.

Entre las conclusiones que podemos sacar de lo que hemos mencionado, los siguientes datos :

I - La aparición de la clase de población conocida bajo el nombre de Muladiés المولدون tuvo unos efectos tanto objetivos como negativos.De los primeros atribuimos la rapidez con que el Islam se divulgó , y la participación muladi en la vida intelectual y económica en al-Andalus. y sobre todo en la literatura. En este campo destacamos los Banu al

Capturno, una familia de literatos quien alcanzaron el rango de ministros en el reino de Badajoz bajo los Aftasiés (19) , y los Banu Jatab de Murcia quienes desempenaron un papel muy importante en la vida politica y cientifica. Entre los pensadores muladiés citamos el nombre de Abu Bakr Mohamad hijo de la Goda que fué un historiador y literato muy célebre. Era un nieto de Sara la Goda de su marido "Isa hijo de Muzahim'. Citamos tambien el nombre de Ibn Pascual el autor del libro del Sila, Arib hijo de Saad, uno de los bótanicos muy conocidos en al-Andalus, el médico Yehya hijo de Ishaq que fué ministro del califa al Nasir, Ahmad hijo de Qasi قسي quien se alzó contra los almorávides con algunos caudillos Muladiés,Ibn Mardenish cuyo nombre se deriva de Martinez y otros más. Anadimos a los objectivos la mixtura de las tradiciones locales con las orientales y la formación de una cultura preeminente. De los efectos negativos de los Muladiés, atribuimos su alineacion hacia los reinos cristianos y por consiguiente su partidismo contra los Arabes y Bereberes que podemos traducir con el sentimiento shubiya. Bajo el emirato de Abdallah hijo de Abdel Rahman II los Muladiés se levantaron contra el poder central y se apoderaron de la mayor parte de al-Andalus creando así unos estados pequenos independientes de los cuales destacamos los Banu Hafsun en Bobastro, los Banu Meruan el Gallego en Badajoz y Merida, Daysam hijo de Ishaq en Murcia y otros más.

Notamos que algunos pensadores contemporaneos tal como Claudio Sanchez Albornos [20], Henri Pérès [21] y Charles Obron [22] al tratar la civilización andalusi atribuyen la libertad y el respeto de que gozaba la mujer musulmana a las tradiciónes espanolas locales preeminentes.

Al lado de esta valiosa opinion, las tradiciones Magrebiés traidas con los Beréberes ayudaron mucho a destacar el papel desempenado por la mujer andalusí. No debemos olvidar que la mayor parte de los primeros conquistadores del al Andalus que establecieron en diferentes regiones de la Peninsula y especialmente en Extramadura y en la parte meridional de la Peninsula eran Bereberes. Es bien sabido que la mujer berber gozaba de mucha libertad al compararla con otras mujeres musulmanas orientales. La sociedad medieval en el Maghreb respetaba la madre y la maternidad hasta el punto de adorarla . La mujer alli ocupaba un lugar eminente sobre todo en el periodo de los Almorávides solía salir descubierta de cara mientras que el hombre tapaba su cara con un velo.

Muchos caudillos almoravides se llaman con nombres de sus madres tal como el hijo de Aysha ابن عائشة , de Fátima ابن فاطمه de Gania ابن غانيه ó de al Sahrawiya ابن الصحراويه [23]. Esta míxtura de tradicions occidentales con las orientales se manifiestan claramente en la sociedad andalusí en la

celebración de las fiestas islámicas tales como la del fin de Ramadan, la del sacrificio o del nacimiento del profeta [24] así como en las fiestas cristianas como la de San Juan y de las navidades. Las cronicas árabes nos dan una descripción detallada de los festivales celebrados por los Andalusiés en estas días. Entre los aspectos de las costumbres mixtas el considerar el Domingo como vacacion semanal oficial en el que se cierran las tiendas mercantiles, las escuelas y los círculos públicos(25). El estudio de las Fiestas en al- Andalus lleva una importancia como aspecto de la historia social y confirmación de la convivencia mutua entre tradiciones locales y orientales, consecuencia del matrimonio mixto. En muchas ocasiones la mujer anadalusí salía en las calles sin velo (26) y dejando muchas veces su largo mono. La mujer musulmana andalusi trabajaba en varias profesiones : en la jurisprudencia, ensenanza literatura y en algunas industrias. La madre del poeta Abu Bakr de Denia preparaba y vendía productos lácteos y uno de sus hijos poeta muy célebre, se llama el hijo de la lechera [27] ابن اللبانة

Al Maqqari nos relata que cuando murío Bakar el Marwani que fué un combatiente por la fé su mujer fué obligada a trabajar para mantener su familia (28) . Como consecuencia del matrimonio mixto, se divulgó en al-Andalus entre los Andalusiés un lenguaje cuotidiano conocido bajo el nombre de

la lengua romance اللاطينية [29], mientras que el arabe clásico continuó siendo la lengua oficial empleada en la prosa, la poesía clásica y en la ensenanza. El latino se redujó a los rezos en iglesias [30]. Apareció, gracias a la cultura mixta, y como consecuencia del matriomonio mixto una poesia popular llamada [31] Muwaššaha en la cual usaban palabras del romance.

Nos queda por deçir que la convivencia mutua entre musulmanes y españolas debida al Matrimoni mixto entre ambos elementos étnicos creó en realidad una fusión de tradiciones y pensamientos, una cultura muy elevada y una civilizatión preeminente.

(1) El Sayed Abdel ʿAziz Salem, Tarīkh Al Muslimin Wa Atharehem Fī Al Andalus, Beirut, 1981, p.128.

(2) Ajbar Magmuä Fi Fath Al Andalus, Madrid, 1968, p 20.

(3) Al "Udri, Nosus ʿAn Al Andalus, Madrid, 1965, p 10 - Ibn Al Abbar, Al Takmila li Kitáb Al sila, Madrid, 1886, T.I, p 279 - Sahar "Abdel Aziz Sálem, Banú Jattab Ibn Abdel Gabbar Al Todmiri, Osra Min Al Mowalladin bi Murcia Fi Al "Asr Al Islàmi, Alejandria, 1989, p 12..

(4) Ibn Alqutia, Tárīj Iftitáh Al Andalus, Madrid, 1926, p 6.

Ch. E. Dufourq, La vie quotidienne dans l'Europe médiévale sous la domination arabe, collection Hachette, Paris, 1978, p 202 - 211 - Sanchez Albornoz, La Espaṉa Musulmana, T.I, p 63 - Guichard (Pierre), Al Andalus, Estructura antropologica de una sociedad islamica en Occidente, Barcelona, 1976, p 108.

(5) Hussein Monis, Fagr Al Andalus, El Cairo, 1959, p 376.

Ribera y Tarrago (Julian), El Cancionero de Aben Cuzman en Disertaciones y oposculos, Madrid 1928, p10.

(6) Mo'nis, Fagr Al Andalus, p 376 - 377, Ribera, El Cancionero, p 34.

(7) Ibn Hazm, Gamharat Ansāb Al Arab, ed. Abdel Salām Haroun, p 443.

(8) Guichard, op. cit. p 197 - 198.

(9) Ibn Al Atir, Al Kāmel Fi Al Tārīj, Beirút, 1965, T. 4, P.105.

(10) Ibn Idhari , Al Bayán Al Moghreb Fi Ajbár Al Andalus wal Maghrib, T.I. p. 9.

(11) Ibn Al Atir , Al Kámel , t. 6, p 79. Ibn Idhárí, Al Bayan t. II, p 57.

(12) Ajbar Magmúa , p 77.

(13) Ibn Al qutia , op. ùt, p 16.

(14) Ajbár Magmúa, p 167 - Guichard, op. cit, p 200 - 201.

(15) Ibid, p 72, 96 - Guichard, op. cit, p 216, Ibn Idharí, AlBayán, t. II, p 50.

(16) Ibn Al qutia, op. cit., p 6 - Dufourq, La vie quotidienne, p 202 - 211.

(17) "Abdel Wáhid Zenoun Táha, Esteqrar Al qabael Al Barbariya Fi Al Andalus, Awraq, vol 4, 1981, p 43 - 44 - Albarran (Manuel Torron) , El solar de los Aftasies, Badajoz, 1953, p 48.

(18) Juan Zozaya , "Red painted and glazed pottery in western Europe from the VIII to the XII th century, ed. by j.G Hurst S in Medieval Archaelogy, T. III, 1969, p 134, 134 - Guichard, op. cit, p 306.

(19) Por mas detailles, Al Fath Ibn Jāqān, Kalaed Al "Iqyān ed. Mohammed Al Inabí, Tunis, p 169 - Ibn Bassám, Al Dhajira Fi Mahásen Ahl Al Gazira, Beirut, 1979, Vol. Ii, p. Ii, p 756 - 754.

Ibn Said, Ráyát Al Mobrizin wā Ghāyat Al Momayazin,El Cairo, 1975, p 59, P 59 - Sahar Salem, Hadárat Batalyaws wa Gharb Al Andalus, Tesis Doctoral, T.I, p 528.

(20) Sanchez Albornoz, La España Musulmana, T.I, p 63.

(21) Henri Pérès, La poésie Andalouse en arabe classique au XIe siecle, Paris, 1937, p 8 - 15.

(22) Charles Aubrun, La femme an moyen âge en Espagne, T. II, p 185 - 186.

(23) Sobre estas opiniones, Charles E. Dufourq, La Berberie et Iberie medievales, un problème de rupture, Revue Historique, 1968, p 317, 318.

(24) E. Lévi Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane, T. III, p 235 , Fernando De la Granja, Fiestas cristianas en al

Andalus , Materiales para un estudio, Al Durr Al Munazzam de Al "Azafi, Al Andalus, Vol XXXIV, 1969 , Fasc, A., p 1 - Ahmed Mojtar Al Abbádí, Al Islam Fi Ard Al Andalus, Alám Al Fikr, 1979, p 390.(25) Ibn Simák Al "Ameli, Al Zahrát Al Manthura Fi Nakt Al ajbar Al Mathūra, ed. Mahmoud Ali Mekki, Madrid, 1984, p 73 - Ibn Hayán, Al Moqutabas, ed Mahmoud Ali Mekki, p 138, 519.

(26) Henri Pérès, La poesie, p 390, 405.

(27) Ibn Bassám, Al Dhajira, Vol III, P II, p 667.

(28) Al Maqqari, Nafh Al Tib Fi Ghosn Al Andalus Al Ratíb, ed. Mohye Al Din "Abdel Hamid , Vol 4, p 314 - 315.

(29) Ibn Hazm, Gomharat Ansáb Al "Arab, p 443 .

(30) Lévi Provençal, Histoire, Vol III, p 231.

(31) Sayed Gházi, Fi Usul Al Tawshih, Alejandria, 1976, p 10 - Meqdad Rahim, Na thariat Nashat Al Mowashahat Al Andalusia Bayna Al Arab wa Al Mostashriqin , Bagdad, 1986, p 7.

ترجمـــة مقـــال

(الدكتورة راشيل آرييه «رحالة من المغرب إلى المشرق» أحد مقالات كتاب «الأندلس والبحر المتوسط» ، غرناطة ، ١٩٩٥م) .



ترجمـــة مقـــال:

Rachel Arie "Viajeros De Occidente a Oriente" Al-Andalus Y El Mediterraneo, Granada, 1995

مـــن كتـــاب

Al-Andalus Y El Mediterraneo, Espana, 1996, P 169-185.

ترجمـــة مقـــال:

الدكتورة راشيل آرييه "رحالة من المغرب إلي المشرق" أحد مقالات كتاب "الأندلس والبحر المتوسط" غرناطة، ١٩٩٥م.

تميز العصر الوسيط بوجود تبادلات ثقافية بين مسلمي الأندلس ومعاصريهم من المشرق في ظل الخلافة العباسية. وأكثر تلك الصلات الروحية عمقا تتمثل في الحج للأراضي الإسلامية المقدسة، مما حمل الكثير من الأندلسيين إلى المشرق.

وكان الفقهاء الأندلسيون ينتقلون من بلادهم طلبا للمعرفة، مدفوعين بدافع الرغبة في المشاركة والحضور في مجالس شيوخ المشرق المشهورين للحصول على اجازاتهم وطمعا في اثراء مكانتهم العلمية بين أقرانهم ومواطنيهم.

وكان طلاب العلم والحجاج الأندلسيون يبدأون رحلة طويلة كانت تنتهي بهم إلى بلاد العرب (الحجاز) ليعودوا بعد ذلك في النهاية إلى موطنهم الأم.

وكانوا يتغربون طوال أشهر وأحيانا سنوات عديدة مجتازين البحر المتوسط مواجهين مخاطر الملاحة كما كانوا يجتازون برا طريقا لانهاية له متموجا بسبب تعرجات سواحل افريقية ثم بعد ذلك خلال صحارى ليبيا حتى يصلوا إلى ضفاف النيل الخضراء. وابتداء من القرن الثاني عشر شهد الغرب الاسلامي ظهور نوع أدبي

أصيل يتمثل فى أدب الرحلة. وكانت روايات الرحالة تخضع للتقاليد المشرقية وعلى الأخص إلى الرصيد الثقافى القديم الذى كان يسود فى الساحل الشرقى من حوض البحر المتوسط وكانت كتابات البحريين بوجه خاص لها أثر عميق على تطور الأدب الجغرافى خلال القرن العاشر. ومع ذلك فعلى تراب الأندلس نشأت الرحلة وبصفة خاصة عندما تحققت وحدة الغرب الإسلامى بفضل المرابطين والموحدين وكانت مادة الرحلة تقوم على طلاب العلم الذين يتوجهون للأراضى الإسلامية المقدسة للحج ولطلب العلم والاستزادة على يد علماء فى الحواضر المشرقية الكبرى مثل بغداد والقاهرة ودمشق مسجلين انطباعاتهم فى الرحلة يوما بعد يوم وأحيانا ساعة بعد أخرى على هيئة يوميات حيث يصفون المفاجأت والصعوبات التى حدثت لهم أثناء رحلتهم. ويمثل أبو حامد الغرناطى (١٠٨٠ – ١١٦٩ – ١١٧٠م) النموذج الأول للرحالة المغاربة وقد ترك موطنه وهو فى حوالى الثلاثين من عمره ولم يعد إلى بلاده أبدا[١]. وعاش فى القاهرة ودمشق وبغداد لسنوات طوال ودفعه حب المغامرة للوصول إلى الحدود القصوى لأراضى الإسلام وفى عام ١١٣٠م وجدناه فى ايران وبعد ذلك وصل إلى مصب نهر الفولجا. وسيزور بعد ذلك بقليل المجر حيث أقام لمدة ثلاث سنوات حتى عام ١١٤٣م، ثم اجتاز بلاد الصقالبة ولحق بخوارزم ومن هناك توجه إلى بخارى، مرو، نيسابور، الرى، اصفهان والبصرة، حتى ادرك بلاد العرب لأداء الحج ثم تابع رحلته وأقام فى بغداد والموصل، وختم حياته فى دمشق بسوريا. وفى بغداد وبعدها فى الموصل ألف أبو حامد كتابين آخريين تلبية لرغبة صنائعه ومريديه العراقيين، هما كتاب (المعرب عن بعض عجائب المغرب) وكتاب تحفة الألباب (أو الأحباب) ونجعة (*)الاعجاب) اللذين يحتويان على كثير من الحقائق الهامة والارشادات القيمة الدقيقة عن مواضع وشخصيات قابلها فى جولاته[٢].

ويغلب على رواياته فى الرحلة الطابع الخيالى وبعض العجائب مماجعل الاستاذ سيزار دوبلر يقدر من جانبه فى أبى حامد تشبعه بالعاطفة الانسانية وابتعاده عن

(*) صحتها نخبة.

الغطرسة الشخصية التى تحوله إلى «عالم غريب للاجناس والفنون الشعبية فى عصره» وهو يصفه بقوله: «أبو حامد رحالة متجول، اتصف بالبساطة، كما كان واعظا فى بعض الأحيان على قدر من الثقافة وليس عالما متبحراً، كان يبدو بشوشا مع الآخرين له مكانة عالية بين الناس وكان على علاقة طيبة بالجميع سواء كانوا من الشخصيات الرفيعة أو أفراد الشعب البسطاء وكان يوجه محبه صادقة نحو الشعوب والاشخاص الاسيو/ افريقيين الذين كان يطوف بهم، تعمقت خلال مايقرب من عشرين سنة عن طريق علاقات عديدة أسرية وعاطفية. وكانت تقديراته تتسم بالاضافة إلى الرؤية الواضحة للموصوف فى حد ذاته بالفهم الانسانى الذى تبحث عنه عبثا فى شخص آخر لايملك القوة الفعالة لمؤلفنا. لقد كانت كتاباته الوصفية سهلة ذات طابع متحرر ورائع وكانت تهتم بوجه خاص بكل غريب وعجيب، ولاتجعلنا نراه يمثل عالما متعمقا بعلمه وانما رجلا متفهما ذو رؤية واسعة. وفى نفس الوقت متعمقة فى التفاصيل غنية بالمعرفة الانسانية[٣]».

أما رواية الرحلة عند ابن جبير فقد ارتبطت بأستاذه الأول (١١٤٥ – ١٢١٧)[٤] وهذا الأديب البلنسى تلقى علومه فى شاطبة حيث كان والده يعمل كاتبا لدى الموحدين. وتلقى التعليم التقليدى شأنه شأن مثقفى وعلماء الأندلس. كما اطلع على مبادىء العلوم الدينية والآداب واكتسب الوسائل لاستخدام ملكته الشعرية. وقد اختاره الامير الموحدى أبو سعيد عثمان ابن الخليفة عبد المؤمن حاكم سبتة كاتبا خاصا له، وبعد ذلك رافقه فى منصبه التالى عندما اسندت إليه ولاية غرناطة. ثم التحق ابن جبير فى خدمة أمير موحدى آخر وهو الذى حثه على شرب الخمر وقد أقسم كاتبنا ان يذهب للحج فى نفس هذا العام تكفيراً عن خطئه هذا. وحاز شهرته بفضل رواياته الشيقة عن رحلته إلى مكة المكرمة.

وغادر ابن جبير غرناطة فى ١٩ شوال سنة ٥٧٨هـ (١٥ فبراير ١١٨٣م) ووصل إلى سبته عن طريق طريف، وركب سفينة جنوية فى طريقه إلى الاسكندرية مرت بجزيرة سردابنا وصقلية، وأقريطش، ولذا فقد تأخر لمدة شهر فى الوصول إلى الميناء الذى يهدف إليه. وروى لنا ابن جبير بكل مصداقية المضايقات التى تعرض لها فى الديوان الجمركى المصرى.

وقد زار القاهرة أثناء توجهه إلى البحر الأحمر للوصول إلى جدة، وبقى فى مكة مايزيد عن تسعة أشهر بعد أدائه فروض الحج ثم انتقل بعد ذلك إلى المدينة وتابع رحلته عبر الصحراء حتى الكوفة، واستكمالا للرحلة سار حتى بغداد والموصل وحلب، Alepo وحماة وحمص ودمشق حيث أقام شهرين ونصف ثم تابع رحلته إلى صور ومن هناك إلى عكا وبعدها ركب فى رجب ٥٨٠هـ (أكتوبر ١١٨٥م) فى سفينة جنوية متجهة إلى صقلية بنية العودة إلى الأندلس. وعندما أدرك مسينا بعد اجتياز صعب انتهى الامر بغرق السفينة وبقى فى صقلية لمدة ثلاثة أشهر ونصف حتى ركب سفينة من جديد فى ترابانى ووصل إلى قرطاجنة فى سنة ١١٨٥م فى شرق الأندلس.

وعند عودته إلى غرناطة، نعم بسلطة روحية كبيرة فقد أصبح استاذا للحديث والعلوم الدينية التقليدية وأيضا للصوفية. واستمر بعيدا عن العامة ولكنه قام بدور المفتى والحكم. وعن رحلته الثانية إلى المشرق التى استمرت من ١١٨٩ - ١١٩١ / ١١٩٢م لم يترك أى شاهد أو اثبات اطلاقا. وقد رحل من جديد فى سنة ١٢١٧م. واستقر بالاسكندرية حيث انكب على التعليم. وبعد شهور رحلته، توفى هناك فى ٢٧ شعبان ٦١٤هـ/ ٢٩ نوفمبر ١٢١٧م. وكانت رحلة ابن جبير نموذجا احتذاه حجاج آخرون ومؤلفون كثيرون متأخرون. ولقد عرف كيف يسجل ملاحظاته اليومية ويصف البلدان التى كان يجتازها ويعدد الآثار التى كان يزورها، وكان حبه للرحلات البحرية المثيرة يقدم لنا مدى احترامه للبحر مصدر الهامه. وهكذا يذكر فى مذكراته رحلته البحرية الأولى والتى بدأت «على متن البحر بمقابلة جبل شلير فى ٢٥ مارس سنة ١١٨٣م. وبعد أربعة أيام من الركوب فى طريق تجاه قصر مصمودة (القصر الصغير) وبعد اجتياز بحرى يسره الله تيسيرا عجيبا والحمد لله، استكملوا الرحلة إلى سبتة حيث الفوا بها مركبا للروم الجنويين مقلعاً إلى الإسكندرية بحول الله عز وجل فسهل الله علينا فى الركوب فيه «ويمضى فى روايته قائلا من سبته[٥] :-

«وكان طريقنا فى البحر محاذيا لبر الأندلس وفارقناه يوم الخميس ٣. مارس عندما حاذينا دانيه. وفى صبيحة يوم الجمعة (٤ مارس) قابلنا بر جزيرة يابسة ثم يوم السبت بعده قابلنا بر جزيرة ميورقة ثم يوم الأحد بعده قابلنا جزيرة منورقة... وفارقنا بر هذه الجزيرة المذكورة، وقام معنا بر جزيرة سردانيا أول ليلة الثلاثاء.... (وهو الثامن من مارس دفعة واحدة على نحو ميل أو أقل.... فكان قطعا مستغربا فى السرعة وطرأ علينا من مقابلة البر فى الليل هول عظيم عصم الله منه بريح ارسلها الله تعالى فى الحين من تلقاء البر فأخرجنا عنه والحمد لله على ذلك. وقام علينا نوء هال له البحر صبيحة يوم الثلاثاء المذكور وبقينا مترددين بسببه حول بر سردانية إلى يوم الأربعاء بعده فاطلع علينا فى حال الوحشة وانغلاق الجهات بالنوء فلما نميز شرقا من غرب، مركبا للروم قصدنا إلى أن حاذانا، فسئل عن مقصده، فأخبر انه يريد جزيرة صقلية وأنه من قرطاجنة عمل مرسية. وقد كنا استقبلنا طريقه التى جاء منها من غير علم فأخذنا عند ذلك فى اتباع أثره والله الميسر لارب سواه.... إلى أن وصلنا طرفا من البر المذكور يعرف بقوسمركة ...... وفى مدة مقامنا بالمرسى المذكور جددنا فيه الماء والحطب والزاد، وفى الثلاثاء الخامس عشر من مارس فارقنا بر سردانية المذكورة، ويسر الله علينا فى التخلص من بحرها لأنه أصعب مافى الطريق والخروج منه يتعذر فى أكثر الأحيان والحمد لله على ذلك. وفى ليلة الأربعاء بعدها من أولها عصفت علينا ريح هال لها البحر وجاء معها مطر ترسله الرياح ويضيف ابن جبير: «وترسله الرياح بقوة كأنه شابيب سهام فعظم الخطب واشتد الكرب وجاء بالموج من كل مكان أمثال الجبال السائرة فبقينا على تلك الحال الليل كله واليأس قد بلغ منا مبلغه وارتجينا مع الصباح فرجة تخفف عنا بعض ما نزل بنا، فجاء النهار وهو يوم الاربعاء التاسع عشر من ذى القعدة بما هو أشد هؤلاً وأعظم كربا وزاد البحر اهتياجا واربدت الآفات سوادا واستشرت الرياح والمطر عصوفا حتى لم يثبت معها شراع فلجىء إلى استعمال الشرع الصغار فأخذت الريح احدها ومزقته وكسرت الخشبة التى ترتبط الشرع فيها وهى المعروفة عندهم بالقرية......

واقمنا على تلك الحال النهار كلة فلما جن الليل فترت الحال بعض فتور وسرنا فى هذه الحال كلها بريح الصوارى سيرا سريعا وفى ذلك اليوم حاذينا بر جزيرة صقلية.

وفى صبيحة يوم السبت ٢٥ مارس اطلع الله علينا البشرى بالسلامة بظهور منار الإسكندرية على نحو العشرين ميلا وبالاضافة إلى خبرته بالبحر، كان ابن جبير كما وصفه موريس جودفروى ديمومبينس(٦) عارفا بخطط المدن ولديه حس بالعمران. وقد امتدح الموصل وحدائقها واعجب بنواحى نصيبين التى كانت تتعارض مع بدوية المدينة. أما اوصافه لحلب ودمشق فلم تكن بالتفاهات الأدبية، كذلك لم يكن غير مكترث أمام عظمة الطبيعة ولاالهواء الحيوى لنجد بعد خروجه من جحيم الحجاز، ويبدو أن ذلك ايقظ فيه الرغبه التى كان يحس بها أسلافه عند اجتيازهم أراضى الاستبس الفسيحة.

وعن السكان الذين عاش بينهم ابن جبير فانه يقدم لنا معلومات فى رحلته اعتبرت من المصادر الرئيسية عن تاريخ الحروب الصليبية وعن الأوضاع السياسية والاجتماعية فى المناطق التى اجتازها وعن الحج فى مكة والاخطار الملاحية التى تمر بهم أثناء عبورهم فى البحر المتوسط فى العصور الوسطى.

وقد تميز ابن جبير باحساسه القوى وروحه المتزنة للغاية والمنطلقة للمعرفة. أما حساسيته الدينية فقد لمحت فى فقرات معينة، ظهر خلالها مدى انزعاج المستشار السابق للحاكم الموحدى لغرناطة من تقدم المسيحيين فى سورية وصقلية وهو الذى كان لديه ثقة مطلقة فى الرسالة العالمية لأسرة الموحدين.

ولم يكن اهتمامه بأحوال الشعوب والمزارعين فى المشرق الإسلامى عميقا، ومع ذلك فان أسلوبه كان سلسا ومركزا ومهتزا فى الفقرات التى صور فيها الأحداث على النحو الذى يمتثله الجوالة المحدثون. ويعتقد ريجيسى بلاشير أن ابن جبير «كلما حدد ملامح حشد حركى أو جمع حيوى، كان يعرف كيف يصفه على نحو صادق وشخصى للغاية وثابت كما رأته عيناه الثاقبة والمدققة»(٧).

وكان أسلوب ابن جبير زاخرا بالمحسنات فقد لجأ إلى استعمال النثر المقفى في وصفه للمدن والظواهر العامة لكل بلد. أما شعره فكان يميل إلى طابع الحكم والأمثال وهو تقليدى وبرهن على بساطة في الاحساس والتجربة.

وقد اتخذت يوميات والرحلة إلى الأراضي المقدسة الإسلامية شكلا جديدا في النصف الأول من القرن الثالث عشر بفضل محمد العبدرى أحد الأدباء المغاربة(٨). ونجهل تاريخ مولده ووفاته ولكننا نعلم أن يرجع بالنسب إلى أصول عربية بعيدة وانه كان ينتمى إلى قبيلة حاحة التى كانت تنزل بالقرب من المدينة المغربية الحالية الصويرة التى كانت تسمى من قبل بموجادور، ونشأ فى بيئة أسرية. ولعله عاش فى مراكش. وقد ترك أرضه فى ذى القعدة سنة ٦٨٨هـ (١٠ ديسمبر ١٢٨٩م)، وقرر الارتحال عبر الطريق البرى، وزار تلمسان Tremecen حيث عقد روابط روحية مع فقهائها وعلمائها المحليين وذلك قبل انتقاله إلى مليانةMiliana، وبجاية Bugia وقسنطينة وبونة وباجة وتونس حيث اجرى مناقشات طويلة مع علماء افر يقية. ورحل إلى القيروان حيث اجتذب مسجدها الجامع اعجابه، ومن هناك انتقل إلى قابس وطرابلس. وتابع رحلته مجتازا الصحراء إلى أن وصل إلى الإسكندرية حيث أتاح له منار الإسكندرية الفرصة ليصفه، ومن هناك لحق بالقاهرة ومن العقبة دخل الحجاز حيث أتم الحج فى مكة والمدينة، وفى العودة تخير طريق فلسطين ليزور حبرون والقدس عائدا بعد ذلك عبر القاهرة والاسكندرية. وقد غير قليلا فى طريقه بعد أن اجتاز اقليم طرابلس، فقد سار من قابس إلى سوسة، وبعد ذلك تابع طريقه بمحاذاة الساحل حتى تونس. ووصل إلى بجاية عبر مليانة ووهران وتلمسان وفى المغرب وطنه كانت فاس ومكناس وازمور هى آخر محطاته. وتنتهى رحلته بقصيدة طويلة. وفى رحلة العبدرى نجد أن الاوصاف الفخمة للمدن الشهيرة ليست سوى أسلوب أدبى معتنى به وأسلوبه فى ذلك يكاد يكون دائما مفتعل، فان سرده للرحلة كان مملوا بابيات انشدها جماعة من المتصلين بالمؤلف.(٩)

ان الاهتمام بدراسة فكر الفقهاء يركد على الغايات الصوفية للعبدرى فهو يقدم حقائق كثيرة عن الحالة التى كان عليها الفكر الإسلامى.

أن مؤلفي المقال الذي كتب عنه في دائرة المعارف الإسلامية رقم ٩ يرون أن نيته الاخلاقية كانت «تهدف إلى ابراز مدى الفقر المادي والروحي لافريقيا والمغرب الأوسط في عصره» ولهذا السبب فان رحلته تعتبرا اسهاماً رئيسيا في التاريخ الثقافي لشمال افريقيا.

وعلى نفس نسق الطابع الأدبي الذي شرع فيه العبدري ينتمي كتاب، لفقيه اندلسي مغربي لايمكن فصل حياته ولاكتابه عن تاريخ الأدب في مملكة غرناطة واعني به ابن رشيد الذي ولد في سبته سنة ١٢٥٩ م حيث درس العلوم النقلية والنحو[١٠].

وفي عام ١٢٨٤م قرر الرحيل إلى المشرق للحج والتوسع في علومه. وركب سفينة في المرية حيث اجتمع معه ابن الحكيم الرندي وزير البلاط النصري فيما بعد[١١].

وخلال ثلاثة أعوام طاف كلاهما بافريقية، مصر، سورية، والحجاز متابعين دروسهما على يد أشهر شيوخ العلم في المشرق وشمال أفريقيا. وعند العودة إلى سبتة امضى ابن رشيد عدة سنوات لانعرف فيها شيء عنه، ورحل بعد ذلك إلى مملكة بني نصر في سنة ٦٩٢هـ (١٢٩٢ / ١٢٩٣م) معتمدا على العون الذي قدمه إليه رفيق رحلته القديم المدعو ابن الحكيم. ومن بين وظائف أخرى عديدة تولى منصب إمام وخطيب بغرناطة. وبعد اغتيال حاميه في مارس ١٣٠٩م عاد ابن رشيد إلى المغرب حيث عهد اليه عثمان بن أبي يوسف السلطان المريني بادارة خطبة الجامع القديم بمراكش. وتوفي في ٢٣ محرم سنة ٧٢١ / ٧٢٢هـ (فبراير ١٣٢١م) في فاس مقدراً من الجميع...

وتحتفظ مكتبة دير الاسكوريال بالجزء الأكبر من روايته لرحلته على هيئة قطع مخطوطة بعنوان «ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة» حيث يحكي عن اقامته في تونس ودمشق والقاهرة. وتحتوي هذه الرحلة على معلومات جغرافية نادرة وبعد فان المصادر اجمعت على الثناء عليه وعلى اتساع معرفته فقد تخصص في تسجيل القضايا التي عالجها وناقشها مع المثقفين الذين التقاهم في طريقه.

أما خالد البلوى فهو من بين الحجاج الاندلسيين الدين رحلوا فى القرن ١٤ فى قوافل إلى مكة، وقد كتب يوميات رحلته إلى الأراضى المقدسة «تاج المفرج فى تحلية علماء المشرق» وقد نشر فى الرباط مند عدة سنوات[١٢] وينحدر البلوى من أسرة من الأدباء ترتقى إلى أصول عربية يمنية وولد فى قنطورية (المرية). وتلقى البلوى فى غرناطة ثقافة أدبية وفقهية راسخة.

وفى أكتوبر ١٣٣٥م عندما بلغ الثالثة والعشرين، ركب سفينة فى المرية ووصل حتى هينن Hunayn وبعدها رحل إلى تلمسان والجزائر وبجاية وقسنطينة وبونة حتى وصل إلى تونس حيث بقى أكثر من ثمانية أشهر ثم أبحر إلى الإسكندرية. وفى هذه المرحلة التقى بحاج اندلسى آخر هو الشاعر ابن حاج نميرى ابن رجل غرناطى سامى المقام[١٣]، وبعد شهر وصل البلوى إلى القاهرة حيث بقى خمسة عشر يوما خصصها للدراسة.

وكان يحكم هناك آنذاك محمد بن القلاوون السلطان المملوكى الذى كانت له بعد ذلك بقليل مراسلات رسمية مع غرناطة النصرية. وقد جاز كاتبنا بعد ذلك كل من غزة وحبرون حتى وصل إلى بيت المقدس حيث قضى شهرين. كما مر بالكرك والعلا ووادى القرى حيث وصل إلى المدينة ومن هناك وصل إلى مكة فى ذى الحجة سنة ٧٣٧هـ (يوليو ١٣٣٧م). أما رحلة العودة فقد أدت به إلى القدس والرملة وعسقلان حتى وصل إلى القاهرة والاسكندرية ومن هناك رجع إلى تونس جاعلا من طبرق محطة له فى برقة.

وبعد أن طاف بالمغرب الأدنى والأوسط وصل إلى هنين Hunayn حيث أبحر أخيراً فى اتجاه المرية. ومن جديد وطئت أقدامه أرض الأندلس، وكان ذلك فى يونيو من عام ١٣٤٠م بعد غيبة خمسة أعوام وتولى قضاء قنتورية وبعدها برشانة وعلى نهر المنصورة أكمل محطات رحلته حتى أنجز كتابه فى ربيع الأول سنة ٧٦٨هـ (نوفمبر / ديسمبر ١٣٦٦م)

أما لسان الدين بن الخطيب الوزير والمؤلف النصرى، فقد ترك لنا صورة طريفة للبلوى. وقد صاحب ابن الخطيب السلطان يوسف الأول فى زيارته التفتيشية على الأراضى الشرقية لغرناطة سنة ١٣٤٧م، وقد صور لنا قاضى برشانة فى صورة طريفة وذلك عندما خرج لاستقبال الركب الملكى فوصفه لنا كرجل لطيف فى ترحابه، مختال ومزهو بثقافته الأدبية مقلد فى تكلف شديد وجدية تامة للهجات المشارقة. وبدأ ابن الخطيب فى هجائه، اذ كان مخدوعا بمظهره كحاج بين رجال ادارته. وكان يضع طيلسانا ابيضا على عادة أهل الحجاز كما ترك طرفا من عمامته ينسدل على جبهته تماما مثل الجمل بلجامه على انفه على حد وصف ابن الخطيب[١٤].

وقد جاء أكثر هجاء وذم ابن الخطيب على قاضى برشانة على هيئة نثر مقفى مأخوذ من كتاب البرق الشامى[١٥] للكاتب المشرقى عماد الدين الاصفهانى موهما بأنها أبياته. وفى القرن ١٧ كرر المقرى التلمسانى اتهام ابن الخطيب بانتحال الأبيات كما علق على هجائه للبلوى بأنه كان عنيفا[١٦]، ولم يكن يهدف البلوى فى كتابه عن رحلاته معالجة جادة تاريخية أو جغرافية، وكذلك لايتسم وصفه لكل من الاسكندرية والقاهرة بالمصداقية والأصالة وملاحظاته عن ديوان الاسكندرية والمضايقات التى تعرض لها كثير من الرحالة المغاربة المسلمين أوردها كل من ابن جبير وابن رشيد.

وكذلك نجد أن وصفه لمارستان القاهرة والاهرام يذكرنا بما أورده ابن جبير. أما فى الفقرات الكبيرة التى خصصها البلوى لوصف القرافة والمساجد القاهرة فهى تنم عن تعصبه الدينى وعن مشاعره الحية التى أظهرها فى مناسبات عديدة، مثلما كتب عن النصوص الجنائزية وشواهد القبور فى تلك الأماكن والتى طالما أثارت اعجابه، ولم يأت بروايات غريبة فى سياق حديثه عن الرحلة لاسيما عند عرضه لأخطار الطريق واستدعائه للأحداث والخطوب التى ألمت به فى طريقه الطويل.

وقد أفاد البلوى من اقامته فى كل من المغرب والمشرق لمتابعة الدروس التى تلقاها على يد أكبر العلماء فى عصره وللحصول على اجازاتهم. كذلك قدم لنا

بأسلوب فخيم، مختصرات للمناقشات التى درات بينه وبين علماء المشرق والمغرب الاسلامى، ونقل لمواطنيه الأندلسيين بعض النصوص الشعرية والنثرية التى لاتزال مفقودة وغير معروفة حتى الآن.

وتندرج روايته للرحلة ضمن حلقات سلسلة العلاقات، والروابط الثقافية بين الأندلس وباقى أراضى العالم الاسلامى.

وفى القرن الرابع عشر أيضا يظهر رحالة اخر، ليعطينا بعداً جديداً فى نسيج أدب الرحلة ذلك هو ابن بطوطة الذى ولد فى طنجة فى سنة ٧٠٣هـ (١٣٠٤م) حيث تلقي علوما فقهية قوية(١٧).

وفى سنة ١٣٢٥م عندما بلغ احدى وعشرين عاما رحل إلى المشرق عبر تونس ومصر والشام لأداء فريضة الحج فى مكة لأول مرة، ثم رحل بعد ذلك إلى شرق افريقيا ومصر والشام وآسيا الصغرى وأدرك الهند وقد أقام بعض السنوات فى دلهى على نهر الجانج حيث أسند إليه قضاء المذهب المالكى. وقد كلفه محمد بن تغلق سلطان دلهى بالقيام بسفارة إلى الصين فرحل ابن بطوطة إلى قندهار على ساحل الدكن الغربى وابحر حتى قاليقوط والمالديف حيث عمل كقاضى لمدة ثمانية عشر شهرا، ثم ذهب بعد ذلك إلى الصين.

وفى سنة ١٣٤٧م رجع عبر سومطرة إلى الهند ومنها إلى جنوبى شبه جزيرة العرب ثم صعد مرة أخرى ساعيا إلى عبور الخليج الفارسى ليزور فارس والعراق والشام ومصر، ومن جديد اتجه إلى مكة واتم حجته الأخيرة.

وفى ابريل من عام ١٣٤٩م اتخذ القرار بالعودة إلى المغرب فأبحر من الاسكندرية حتى أدرك تونس وتابع بحرا حتى وصل تنس ومن هناك ركب برا حتى تلمسان ومنها تابع إلى فاس وكان ذلك زمن السلطان أبو عنان المرينى (أواخر شعبان سنة ٧٥٠هـ/ أكتوبر ١٣٤٩م). وبعد اقامة قصيرة فى فاس قام بزيارة مملكة غرناطة زمن السلطان يوسف الأول، وطاف بين أهم مدنها مثل رندة ومالقة وغرناطة

حيث ترك لنا انطباعات واشارات قيمة – وجاز من جبل طارق بحرا إلى سبته، وعقب رحلته الجديدة عبر بلاد المغرب، قرر التجول فى «بلاد الزنج» ووصل إلى سجلماسة حيث أمضى أربعة أشهر، وهناك اقتنى جمالا والتحق بقافلة من التجار الذين رحلوا في محرم من سنة ٧٥٣هـ (فبراير ١٣٥٢م). وقد عاد إلى فاس بعد أن أقام مدة عامين في مالي وتمبكتو، ويبدو أنه لم يترك المغرب حتى وفاته سنة ١٣٧٢ وتسمى رحلة ابن بطوطة بتحفة النظار فى عجائب الأمصار وهى ليست مكتوبة بقلمه. وقد كلف ابن جزى القائم بالكتابة فى ديوان غرناطة والذى كان قد عمل ليوسف الأول المرينى ومن بعده أبا عنان بكتابة رحلة ابن بطوطة فى بلاط فاس الذى أملاه نصها بنفسه وتحت توجيهاته.(١٨) وقبل أن نتصدى لمناقشة محتوى رحلة ابن بطوطة فاننا نتفق على تقرير أنها أثارت نوعا من الحساسية لدى كتاب غرناطة. فابن الخطيب الذى لم ير الرحالة الشهير مطلقا قد خصه فى موسوعته الخاصة بتراجم الرجال «الاحاطة عن تاريخ غرناطة» بملاحظات ليست كلها مديح متشهدا بشيخه أبى البركات قائلاً:(١٩) «هذا رجل لديه مشاركة يسيرة فى الطب، رحل من بلاده إلى بلاد المشرق يوم الخميس الثانى من رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة (١٤ يونيو ١٣٢٥م). فدخل بلاد مصر والشام والعراق وعراق العجم وبلاد الهند والسند والصين، وصين الصين وبلاد اليمن. وحج عام ستة وعشرين وسبعمائة (١٣٢٦م) ولقى من الملوك والمشايخ عالما وجاور بمكة. واستقر عند ملك الهند فحظى لديه وولاه القضاء، وأفاده مالا جسيما وكانت رحلته على رسم الصوفية زيا وسجية. ثم قفل إلى بلاد المغرب ودخل جزيرة الأندلس فحكى بها أحوال المشرق فكذب وقال: لقيته بغرناطة...

وحدثنا فى تلك الليلة وفى اليوم قبلها عن البلاد الشرقية وغيرها. فأخبر أنه دخل الكنيسة العظمى بالقسطنطينية العظمى، وهى على قدر مدينة مسقفة كلها، وفيها اثنى عشر ألف اسقف. ويضيف ابن الخطيب نفسه معلومات خاصة بملاحظته الشخصية معلقا على أوصاف ابن بطوطة فيما يتعلق بالقسطنطينية

(٢٠)
«واحاديثه فى الغرابة أبعد من هذا». ولم يكن ابن خلدون أكثر مديحا له من معاصريه فهو قد اتهم الرحالة المغربى فى مقدمته بأنه شوه الحقيقة «أن رجال الحاشية المرينيين فسروا هذه الروايات الغريبة وعللوا ذلك بأن الرحالة روى أكاذيب».

ونصنف رحلة ابن بطوطة تحت نوعية الكتابات غير متصلة العناصر. وقد عرفنا من ابن جزى كاتب النص أن ابن بطوطة اقتصر فى املائه على وصف البلدان التى زارها والطرف والحوادث التاريخية التى استطاع أن يتذكرها بالاضافة إلى أن الرحالة نفسه (ابن بطوطه) أخبرنا عند حديثه عن بخارى أنه تعرض فى البحر للقراصنة الهنود، وفقد عندئذ كل الملاحظات التى أخذها عن رحلاته السابقة، وهذا يفسر عدم وجود اشارات أو دليل المسافر فى كتابه. أن أدلة المسافرين وعلم تسلسل التواريخ تطرح أشكاليات مثلما ذكر السير هاملتون جب بوضوح الذى (٢١) وضع مصداقية تأكيدات ابن بطوطة موضع شك متخذا مشكلة رحلة ابن بطوطة إلى المراكز التجارية ببلاد البلغار فى الفولجا الوسطى كمثال وفى بعض فقرات كتابه المتعلقة بجنوب شرق فارس، خلط بين مارآه فى الرحلة وبين ماحدث خلال رحلة أخرى فى مناسبة أخرى. ولكن بلاشك فانه توجد فى هذا العمل مادة تاريخية وتراجم وفيرة عن مصر وسوريا والحجاز، تسهل للباحثين المتميزين تنسيق ذلك بالمادة العلمية المستقاة من مصادر أخرى، كذلك توجد روايات اسطورية أخرى تنسجم مع ماهو خارج عن المألوف بالاضافة إلى توصيفات متكررة إلا أن الملاحظات الشخصية للمؤلف حول المراحل والأحوال الطبيعية (طبيعة الأراضى والمزروعات والمناخ) والمحاصيل ومايتعلق بالأفراد، وكل ذلك يثير الاهتمام. ويؤكد ابن جزى أنه كان يسجل كل ماكان يقصه الرحالة (ابن بطوطه) دون اضافة شيء أو اغفال شيء، وأنه كان يروى قصصا ونوادر دون أن يتحقق عن مصداقيتها مما يفسر التناقضات التى لايغفل عنها أى ناقد، ويتتبع ابن جزى الكاتب فى كتابته القواعد الخاصة باللغة العربية الفصحى ولكن فى بعض المواضع يستخدم الدقة الضرورية فى كتابة أسماء الأعلام مما يجعل من المتعذر قراءتها بالعربية واليه أيضا يمكن نسبة الاقتباسات الكثيرة لابن جبير التى تتداخل فى نص كتا الرحلة.

وقد نظم الصياغة النثرية لابن بطوطة وفقا للذوق الأدبي آنذاك وكان يقطع خط الرواية بأبيات شعرية وباختصار فان رحلة ابن بطوطة تعتبر واحدة من المصنفات الممثلة لأدب المشاهدة والمعاينة. ويتخلل الكتاب لون من ألوان الاثارة، وذلك عندما يبدأ المصنف روايته بالنسبة للغات الأجنبية لاسيما بالنسبة للشعوب غير العربية فى العالم الإسلامى، فوصفه لآسيا الوسطى مرصع بكلمات وتعبيرات تركية فارسية. أن ابن بطوطة يتجاوز ابن جبير بكثير فى أصالة أخباره حول البلاد البعيدة فيما يتعلق بمجال المؤسسات والتقنيات الخاصة بالحياة الاجتماعية والاقتصادية فان ماأورده يعتبر مادة هامة. ومن العجيب أنه رغم عدم تكوين ابن بطوطة العلمى فقد وجه نظراته إلى آفاق أكثر بعدا مما سبقوه وكما يعبر اندرى ميكل فان بطوطة استطاع فى النهاية الارتفاع بالرحلة إلى لوحة تصويرية صادقة للعالم.

الحواشـــى.

١ - حوله انظر مقال بدائرة المعارف الاسلامية، الطبعة الثانية لليفى بروفنسال، جـ١، ص ١٢٥، ١٢٦

٢- نظر فرائد التحفة فى الجريدة الآسيوية سنة ١٩٢٥ ١-١٤٨، ٤٩٥-٣٠٣ وقام دبلر بنشر وترجمة جزء من المعرب: أبو حامد الغرناطى وروايته للرحلة فى البلاد الأوربية الآسيوية، مدريد، ١٩٥٣ وكذلك الأبحاث الحديثة: أبو حامد الغرناطى (ت٥٦٥هـ) (١١٦٩م) تحفة الألباب تقديم وترجمة أ.راموس، مدريد، ١٩٩٠، المعرب عن بعض عجائب المغرب، تقديم ونشر وترجمة بيخارانو مدريد، ١٩٩١.

٣- دبلر، المرجع السابق، ص ١٧٤، ١٧٥

٤- مقال شارل بلا فى دائرة المعارف الاسلامية، الطبعة الثانية، مجلد ٣، ص ٧٧٧، ٧٧٨.

٥- أشير الآن إلى الترجمة التى قام بها مايو سالجاد وعنوانها «ابن جبير عبر المشرق» برشلونة، ١٩٨٨، ٤٨-٥٠.

٦- فى مقدمة ترجمته الفرنسية: ابن جبير - الرحلات، جـ١، باريس - ١٩٤٩، ص ٥٩.

٧- رينيه بلاشير ودار مون: الجغرافيون العرب فى العصور الوسطى، نصوص مختارة مع التعليق عليها، باريس، ١٩٥٧، ص ٣٤٠.

٨- حول مقال محمد بن شنب ووليم هونرباخ فى دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الثانية، مجلد١، ص ٩٨،٩٩، الرحلة المغربية، تحقيق وتقديم محمد الفاسى الرباط، ١٩٦٨.

٩- ابن شنب، نفس المرجع، ص ٩٩.

١٠- انظر مقال راشيل آريبه فى دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثانى- الطبعة الثانية، المجلد الثالث، ص ٩٣٣، ٩٣٤. قطع من رحلته المخطوطة رقم ١٧٣٦ بمكتبة الاسكوريال، نشرها بلخوجة فى تونس

١١- حوله انظر ماريا خيسوس روبيرا «ذو الوزارتين، ابن حكيم الرندى» الأندلس، مجلد ٣٤، ١٩٦٩، ص ١٠٥-١٢١

١٢- لايوجد مقال فى دائرة المعارف الاسلامية، الطبعة الثانية، مخصص للبلوى. طبعة الرباط بدون تاريخ عنوانها «تاج المفرق لحسن السائح».

١٣- ج. س. فادت، دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية، م٣، ص ٨٠٣: كانت شخصية ابن الحاج النميرى الذى ولد فى غرناطة فى سنة ٧١٣هـ (١٣١٣م) موضع دراسة قام بها ج. ف. ب هوبكنز بعنوان «ابن الحاج، شاعر اندلسى من القرن ١٤» فى مجلة مدرسة اللغات الشرقية (Bulletin) مجلد ١٤، ١٩٦١، ص ٥٧ - ٦٤. أن الرحلة التى قام بها ابن الحاج فى صحبة السلطان المرينى أبو الحسن سنة ٧٤٥هـ (١٣٤٤م) عبر شمال المغرب كانت موضع تحليل قام به أ.ل دى بريمار بعنوان «ملاحظات عن رحلة أبى اسحاق ابراهيم بن الحاج النميرى الأندلسى فى عام ٧٤٥هـ/١٣٤٤م «مجلة تاريخ وحضارة المغرب، الجزء التاسع، ١٩٧٠، ص ٣١-٣٧، والمغرب والأندلس فى القرن ١٤، ملاحظات عن رحلة أندلسى للمغرب، فى ١٣٤٤ - ١٣٤٥، ليون، ١٩٨١.

١٤- هذا مسجل فى كتاب «خطرات الطيف فى رحلة الشتاء والصيف» من كتاب مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادى، الاسكندرية، ١٩٥٨، ص ٣٦، ٣٧.

١٥- حول هذا المصنف للأصفهانى (ت٥٩٧ / ١٢٠١م): ن. ايليسيف، نور الدين أمير مسلم عظيم، دمشق، ١٩٦٧، جـ١، ص ٢٩، ٣٠.

١٦- نفح الطيب، طبعة القاهرة، ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٩م، جـ٣، ص ٢٨٥، ٢٨٧.

١٧- أ. ميكل، نفس المرجع، ص ٧٧٩. ونشرت رحلة ابن بطوطة وحققت وترجمت إلى الفرنسية على يد دفرمرى، وب . ر. سانجنيتى بعنوان «رحلات ابن بطوطة» باريس ١٨٥٣، ١٨٥٩، الطبعة الرابعة، باريس، ١٩٦٨ مع مقدمة وتعليقات لمونتيل ويستحسن الرجوع إلى الترجمة الانجليزية مع تصحيحاتها اللازمة لجيب بعنوان رحلات ابن بطوطة، كامبردج، ١٩٥٨، ١٩٧١، وتوجد ترجمة بالاسبانية بعنوان ابن بطوطة عبر الإسلام لسيرافين فنخول، وفيدريكو أربوس، مدريد، ١٩٨١، الطبعة الثانية، ١٩٨٧

١٩- وفقا لترجمة ليفى بروفنسال، انظر «رحلة ابن بطوطة فى مملكة غرناطة سنة ١٣٥٠» وذلك فى كتاب «دراسات لتكريم وليم مارسيه «باريس»، ١٩٥٠، ص ٢١٣، ٢١٤

٢٠- المقدمة، ترجمة دى سلان، جـ١، ص ٣٧٠، ٣٧١، فقرة نقلها ليفى بروفنسال فى الهامش رقم ١٩، ص ٢١٤ من مقاله الأخير.

٢١- ملاحظات حول رحلات ابن بطوطة فى آسيا الصغرى وروسيا، مقال نشر فى الدراسات المشرقية المخصصة فى ذكرى ليفى بروفنسال، باريس، ١٩٦٢، جـ١، ص ١٢٥ - ١٣٣.

تعليق المترجمة:

تحدثت المؤرخة راشيل آريه عن تميز العصر الوسيط بوجود تبادلات ثقافية بين مسلمى الأندلس ومعاصريهم من المشرق فى ظل الخلافة العباسية وأشارت إلى أن الدافع الدينى كان الدافع الرئيسى وراء رحلة هؤلاء الأندلسيين إلى المشرق كما ألحت إلى دافع آخر وهو شغف الأندلسيين بطلب العلم وأصول المعرفة على شيوخ المشرق المعروفين.

واهتمت الباحثة آريه بالرحلة البحرية وأشارت فى عجالة إلى الطريق الذى اعتاد المسافرون الأندلسيون سلوكه بحرا، كما أكدت على أثر كتابات هؤلاء البحريين فى تطور الأدب الجغرافى، ثم انتقلت مباشرة إلى الحديث عن أشهر الرحالة الأندلسيين.

ومن الملاحظ أن المقدمة التى مهدت بها المؤرخة آريه لبحثها جاءت مختصرة للغاية ومبتسرة، فالرحلة كانت لها آثار أخرى أكثر عمقا وفعالية فى الحضارة الإسلامية، فقد كانت من أهم عوامل الربط والتواصل بين أنحاء العالم الإسلامى فى عصور القوة، فضلا عن أنها كانت من أبرز خصائص المجتمع العربى الإسلامى فى عصور الازدهار الحضارى[١]، فأزالت الحواجز والموانع بين أقطار العالم الإسلامى رغم الخلافات السياسية أو المذهبية القائمة بينها فكان تجار الأندلس يرحلون إلى الهند والسند كما كان بعض التجار المشارقة يرحلون إلى الصين أو يقصدون المغرب والأندلس[٢]. مما ساعد على انتشار الإسلام فى الشرق والغرب عن

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، الإسكندرية، ١٩٨٧، ص ٢١١.

(٢) ارجع إلى ما أشار اليه المقرى نقلا عن ابن حيان من أن تجارا من الشرق من عدن كانوا يفدون إلى قرطبة زمن المنصور بن أبى عامر (المقرى، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، القاهرة، ١٩٤٩، جـ١، ص ٣٨٨ كما نستدل من شواهد القبور التى كشف عنها البحث الأثرى فى المرية على أن تجارا من مصر والشام وبغداد كانوا يشتغلون بالتجارة فى المرية (لمزيد من التفاصيل راجع عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٢١٢) كما اشتهرت أسرات عراقية كاملة عملت بالتجارة فى مصر (لمزيد من التفاصيل عن بنى الكويك التكريتيين راجع سحر سالم، العراقيون فى مصر فى القرن السابع الهجرى، الاسكندرية، ١٩٩٠، ص ٦٠ ومايليها.

طريق الاحتكاك السلمى، فضلا عن شيوع وحدة ثقافية وفكرية إسلامية سادت من مشرق العالم الإسلامي إلى مغربه مما زاد من توثق عرى الوحدة الإسلامية.

وقد تعددت دوافع الرحلة فقد رحل الناس للتجارة بين الأقطار الإسلامية المختلفة في المشرق والمغرب أو للتجسس مثل الجغرافي والرحالة الشهير ابن حوقل، أو للقيام بمهمة أو للسفارة[1] أو للحج وطلب العلم مثلما أشارت الباحثة آرييه.

ولايعتبر هذا الموضوع جديدا، فقد سبق آرييه عدد كبير من مؤرخينا قاموا بالتصدى لدراسته بمزيد من الاهتمام والتفصيل ولعل أهم هذه الكتابات العربية المصنف القيم الذى ألفه الدكتور حسين مؤنس بعنوان «تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس» والذى تناول فيه تطور علم الجغرافية في الأندلس وأهم الجغرافيين والرحالة المغاربة والأندلسيين وكتبهم ورحلاتهم إلى المشرق الإسلامى ومن هؤلاء أبو حامد الغرناطي وابن جبير وابن سعيد والعبدرى وابن الخطيب، كما عالج تطور أدب الرحلة في الأندلس، وقد فات المؤرخة آرييه أن ترجع إلى هذا المصنف الهام الذى يعد من أقيم ماكتب فى هذا المجال خاصة وأنها قد رجعت فى هذا المقال إلى بعض المصادر والمراجع المكتوبة باللغة العربية، كما فاتها الرجوع إلى عدد من البحوث الهامة التى تناولت علم التأريخ ومنها على سبيل المثال الدراسة الجادة التى أصدرها الدكتور شاكر مصطفى عن علم التاريخ وكتاب «التاريخ والمؤرخون العرب» للدكتور السيد عبد العزيز سالم. وقد فرق الدكتور سالم فى كتابه هذا بين الرحالة والجغرافي فهو يرى أن الرحالة لايتجاوز فى كتاباته وصف مشاهداته أثناء الرحلة أما الجغرافي فيعمل على تغطية كل الأقليم الذى يتناوله بالبحث فيسأل ويتقصى ويجمع المعلومات من الحجاج وطلبة العلم والمغامرين والتجار والملاحين وليس من الضرورى فى رأيه أن يكون الجغرافى رحالة[2].

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق ص ٢١١

(٢) المرجع السابق ص ٢١٤

واذا كانت الدكتورة آريبه اعتبرت أبا حامد الغرناطى نموذجا ممثلا للرحالة المغاربة فان الدكتور حسين مؤنس يرى أن كتاب «ترتيب الرحلة للترغيب فى الملة» الذى كتبه ابن العربى والذى يتضمن رحلته المشرقية وما درسه فيها وما أفاده من هذا الدرس ومن لقى من العلماء والأعيان، هو النموذج الأول للرحلة الأندلسية وأول وصف لرحلة يكتبها أندلسى كما أكد فى كتابه «تاريخ الجغرافية والجغرافيين» على أن أبا بكر بن العربى هو مبتكر هذا الفن فى الأندلس، ويرى أن أبا حامد الغرناطى كتب شيئا قريبا من «ترتيب الرحلة» ولكنه لم يصف رحلته ولم يعين مراحلها أو «مراتبها» بحسب مصطلح ابن العربى فى كتابه. ويختتم الدكتور مؤنس رأيه فى رحلة ابن العربى بقوله «نعم انه لم يصل فى ذلك إلى شأو ابن جبير ولكنه دون شك، السابقة التى سيحتذيها أمثال ابن رشيد والعبدرى[(1)].

وفيما يتعلق بما أوردته المؤرخة آريبه عن أبى حامد الغرناطى يتضح انها اعتمدت كثيرا على ما أورده سيزار دوبلر فى مقدمة مانشر من «المغرب من عجائب المغرب» فهى لم تأت بكثير عند حديثها عنه فلم يتجاوز ماذكرته عن سير رحلته الذى تناولته باختصار شديد سوى مقتطفات من آراء وأوصاف سيزار دوبلر لأبى حامد الغرناطى كما وردت فى مقدمة المعرب. وقد أخطأت آريبه عندما أوردت اسم أحد كتابى أبى حامد الغرناطى الذى ألفهما فى الموصل وهو «تحفة الألباب ونخبة الاعجاب» فقد أوردته على أنه «تحفة الألباب أو (الأحباب) ونجعة الاعجاب» كما لم تشر إلى سبب عدم عودته من رحلته المشرقية إلى الأندلس مرة أخرى رغم أن سيزار دوبلر قد علل ذلك بسقوط بلده أقليش فى أيدى النصارى[(2)]. كذلك لم تشر راشيل آريبه إلى زيارة أبى حامد الغرناطى إلى الإسكندرية وزيارته لمنارها ودقة وصفه لها رغم أهمية ذلك للمهتمين بدراسة هذا المنار والتعرف على التطورات التى تعرض لها كذلك لم تشر إلى وصف معبد السرابيوم بالإسكندرية.

---

(١) حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس، مدريد، ١٩٦٧، ص ٤١١ - ٤١٢.

(٢) لمزيد من التفاصيل راجع حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص ٣٠٦، حاشية رقم ١.

وقد ألف أبو حامد الغرناطى كتابه الأول «المعرب عن بعض عجائب المغرب» فى بغداد سنة ٥٥٦هـ وذلك عندما زارها للمرة الثانية، تلبية لطلب صديقه الوزير عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة الذى استضافه وأحسن إليه. وقد أفرد الدكتور حسين مؤنس حيزا كبيرا من كتابه للحديث عن هذا المصدر الهام، أشار خلاله إلى أهم محتوياته وحللها تحليلا علميا دقيقا(١).

ويعتبر المعرب أول مؤلفات أبى حامد الغرناطى، أما تحفة الألباب فقد دونه أبو حامد فى الموصل استجابة لرجاء الشيخ معين الدين أبى حفص عمر بن محمد بن خضر الاردبيلى مؤلف كتاب «وسيلة المتعبدين»(٢).

أما فيما يتعلق بابن جبير فلم توضح آريبه صراحة فى سياق حديثها عن رحلته أنه قام بثلاث رحلات إلى المشرق الإسلامى، فقد تحدثت عن انطباعاته ومشاهداته اجمالا وذكرت ضمنا مايشير إلى رحلتيه البحريتين الأولى والثانية. والواقع أنه رحل إلى المشرق ثلاث مرات وأن كتابه «تذكرة الأخبار» تسجيل لرحلته الأولى التى بدأها فى شوال سنة ٥٧٨هـ وانتهى منها بعودته إلى الأندلس فى ٢٢ محرم سنة ٥٨١هـ. ويعتقد د/ عبد العزيز سالم أنه كتب أخبار هذه الرحلة فيما يقرب من عام ٥٨٣هـ عندما شاعت فى الآفاق أخبار انتصارات صلاح الدين يوسف بن أيوب واسترداده لبيت المقدس ثم دفعه الحنين للمشرق إلى رحلته الثانية إلى هناك سنة ٥٨٥هـ عاد بعدها إلى غرناطة فى سنة ٥٨٧هـ ثم استقر فى سبته وتزوج بها. وعندما توفيت زوجته عاتكة أم المجد بنت أبى جعفر الوقشى، رحل إلى المشرق الإسلامى للمرة الثالثة فى سنة ٦١٤هـ ونزل بالإسكندرية وظل مقيما بها حتى وافته المنية ودفن بها، ومن المرجع أنه دفن فى الموضع المعروف اليوم بسيدى جابر(٣).

(١) نفس المرجع، ص ٣٢٦ ومايليها.

(٢) لمزيد من التفاصيل راجع حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص ٣٢٣ وراجع السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ص ٢٣١.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ص ٢٢١. وارجع إلى ماورد فى ابن الخطيب، الاحاطة فى أخبار غرناطة، القاهرة، ١٣١٩هـ، جـ٢، ص ١٦٩

وقد اعتمدت آريبه فى وصفها لرحلة ابن جبير الثانية فى البحر على ما أورده هو نفسه من وصف الأخطار التى تعرض لها أثناء رحلته فنقلت نصوصا على لسانه فى مقالها بعد أن ترجمتها إلى اللغة الاسبانية ووضعتها بين قوسين. وقد تصرفت راشيل آريبه فى النصوص باستبدالها التواريخ الهجرية الواردة فى النص الأصلى بالتواريخ الميلادية واختصارها لبعض الأحداث، وقد قمنا عند ترجمتنا لمقال آريبه إلى العربية بالرجوع إلى نص رحلة ابن جبير الأصلى، ونقلنا ماورد فيه حرفيا حرصا على الأمانة والدقة العلمية طالما وضعته راشيل آريبه بين قوسين.

واعتقد أن ما أورده ابن جبير من صور حية عن التعايش السلمى بين الصليبيين والوطنيين فى مملكة بيت المقدس الصليبية رغم الحروب التى كانت قائمة بينهما، شهادة حية على التسامح والاستنارة اللذين اتسم بهما الفكر الإسلامى.

واذا كانت آريبه قد وصفت ابن جبير بالاحساس القوى والتدين الذى تمثلت مظاهره فى فقرات معينة من كتابه فقد وصفه الدكتور حسين مؤنس بأنه كان ذا احساس عميق بوحدة الوطن الإسلامى فهو يقوم برحلته الثانية إلى المشرق احتفالا باسترداد صلاح الدين لبيت المقدس وهو يوضح فى رأيى مدى عمق الروابط الفكرية والمعنوية ومدى توحد المشاعر الإسلامية بين أطراف العالم الإسلامى رغم المسافات الطويلة والخلافات السياسية والمذهبية، كذلك وصفه الدكتور مؤنس بأن كان رجلا ذا قلب انسانى كبير فقد هاجر فى أواخر أيامه إلى المشرق ليتعزى عن مصابه فى زوجته عاتكة للتأسى والنسيان وزيارة البيت الحرام[1].

ولم تشر راشيل آريبة إلى قيمة ما أورده ابن جبير من اشارات هامة عن البحر والسفن وأحوال الملاحة فى البحرين المتوسط والاحمر فى القرن السادس الهجرى ولا عن ملاحظاته الجغرافية التى كانت غاية فى الدقة والصدق.

---

(١) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص ٤٣٨.

أما العبدرى فقد ذكرت آريبه أنه رجع بالنسب إلى أصول عربية بعيدة وانه كان ينتمى إلى قبيلة حاحة التى كانت تنزل (الصويرة حاليا) بموجادور. وقد يبدو ماذكرته راشيل آريبه متناقضا فى بداية الامر اذ كيف يرجع العبدرى إلى أصول عربية وينتمى إلى قبيلة حاحة البربرية فى ذات الوقت؟؟.

وفى حقيقة الامر فان العبدرى عربى الاصل، قرشى يرجع إلى بنى عبد الدار ابن قصى[1] وكان أصل بيته من بلنسية ثم هاجر به أهله وهو صغير إلى المغرب حيث استقروا فى الاقليم الذى ينسب إلى قبيلة حاحة المصمودية التى كانت تضرب حول مدينة الصويرة الحالية[2].

وقد تحامل العبدرى على مصر والمصريين وسب أهلها، لاسيما عند وصفه لما لاقاه على ايدى مفتشى المكوس، فى حين نراه يمدح تونس وأهلها مدحا شديدا.

ولم يكن هذا هو شأن العبدرى وحده، فابن سعيد صور مدينة الفسطاط تصويرا سيئا وتهكم على أهلها[3] مما دفع بعض المؤرخين إلى اعتبار أن ذم أهل مصر أصبح موضوعا تقليديا لدى الرحالة المغاربة[4].

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخين العرب، ص ٢٢٤.

(٢) لم يكن اسم الصويرة واردا فى العصر الوسيط وانما استعمل زمن السلطان محمد بن عبد الله الذى بادر ببنائها واتخاذها كميناء أول لمبادلات المغرب التجارية مع الخارج وذلك ابتداء من عام ١٧٧٣م، وفتحها للأجانب وخصها بامتيازات جمركية مما جعلها تتفوق على غيرها من الموانىء المغربية (محمد زنيبير، اطلاله على منطقة الصويرة فى العصر الوسيط، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، اكادير، ١٩٩٠، ص ٧٧) وقد اختلف المؤرخون فى أصل الصويرة، ويجمع بعض المؤرخين على أن موقع الصويرة هو أمكدول مرسى حاحة وسوس (زنيبير، المرجع السابق، ص ٨٠) فى حين يرى البعض الآخر أن الصويرة الحالية بخلاف الصويرة القديمة وأن الصويرة الحالية هى مرسى أكوز أو قوز الذى ذكره البكرى (عبد القادر زمامة، الصويرة واقليمها فى ذاكرة التاريخ مجلة كلية الآداب، اكادير، ١٩٩٠ ص ٩٥ ومايليها).

(٣) ابن سعيد، المغرب فى حلى المغرب، تحقيق زكى محمد حسن، وشوقى ضيف، وسيدة كاشف، القاهرة، ١٩٥٣، جـ١، ص ٦٥٢.

(٤) سعد زغلول عبد الحميد، ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة فى القرنين السادس والسابع الهجرى مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مجلد ٨، ١٩٥٤، ص ١٠٨.

وأفضل مافي بحث راشيل آرييه حديثها عن البلوى وابن بطوطه فقد تناولت رحلتيهما بشيء من النقد والتحليل بخلاف دراستها السابقة لأبى حامد الغرناطى وابن جبير والعبدرى وابن رشيد التى اقتصرت على مقدمة كتبهم المنشورة. وكنت أتمنى لو ختمت دراستها بالاشارة إلى رحلة أبى الحسن على بن محمد القلصادى القرشي البسطى المتوفى سنة ٨٩١هـ. وقد ولد القلصادى فى مدينة بسطة الواقعة شمال شرقى غرناطة والتابعة لكورة جيان، وبها نشأ وتلقى علومه الأولى على أيدى شيوخها أبى بكر البياز، وأبى عبد الله محمد بن محمد البيانى وأبى أحمد جعفر ابن أبى يحيى، وأبى الحسن على اللخمى القرياتى. وكان خلال اقامته ببسطة يتردد على غرناطة عاصمة المملكة. وقد بدأ القلصادى رحلته الحجازية سنة ٨٤٠هـ فزار تلمسان وتلقى العلم على اعلامها وقضى نحو ثمان سنوات أثناء ذهابه يضاف إليها ثمانية أشهر فى طريق عودته للأندلس. أما تونس فكانت المركز العلمى التالى الذى حل به وأقام بها مدة سنة كاملة، وعمل أثناء اقامته بها بالتأليف فقد صنف آنذاك كتابه «كشف الجلباب عن علم الحساب» وكتابه «القانون فى الحساب» وكتابه «الكليات فى الفرائض» ثم مضى فى طريقه إلى القاهرة عبر جربة فطرابلس الغرب فالإسكندرية وكانت اقامته بالقاهرة قصيرة نسبيا اذ لم تتجاوز الستة أشهر الا بقليل، ثم رحل إلى الأراضى المقدسة وهناك صنف كتابا فى الفرائض وهو «شرح فرائض ابن الحاجب المراغي» الذى أجاز القلصادى فى أسانيده على كتب الأحداث. وقد شغلت هذه الرحلة خمس عشرة سنة رحل بعدها القلصادى إلى غرناطة حيث استقر، وتواصل عطاءه العلمى، واشتغل بالتأليف والتدريس رغم الاضطراب السياسى الذى كان يجتاح مملكة غرناطة فى هذه الفترة الحرجة. وعندما أحس القلصادى بالاخطار تحيط ببلاده، رحل إلى باجة أفريقية حيث واصل نشاطه العلمى، وكانت باجة من أكثر المراكز العلمية بتونس ازدهارا وكانت بها جالية أندلسية ومغربية.

بنو سراج وزراء بني نصر

بين الحقيقة التاريخية والقصة الشعبية

بنو سراج وزراء بنى نصر
بين الحقيقة التاريخية والقصة الشعبية

أولاً- بنو سراج فى المصادر التاريخية:

بنو سراج، أصلهم وبداية ظهورهم:

يقترن اسم بنى سراج بحوادث مملكة غرناطة فى ايامها الأخيرة، فقد كانوا من اشرف بيوتاتها، وتولى بعضهم الوزارة لسلاطين بنى الأحمر ولعل أبرزهم، «يوسف بن سراج» الذى تولى الوزارة للسلطان أبى عبد الله محمد بن نصر المعروف بالأيسر(1). وفى عهد هذا السلطان قام بدور كبير فى توجيه سياسة السلطنة، فقد كان هذا الوزير النابه، واسطته الوحيدة للاتصال بشعبه وكبار رجال دولته، ومنذ ذلك التاريخ ظهر بنو سراج بغرناطة كأنداد للسلاطين، والمحركين لخيوط الأحداث على المسرح السياسى. وكان بأيديهم الحل والربط فى جميع مناحى الحياة الأدبية والمادية. وبنو سراج من أعرق الأسرات الأندلسية العربية التى نزلت الأندلس فى تاريخ غير معروف على وجه الدقة، ولكن اسمهم ورد أول مرة مرتبطا ببجانة، فقد ذكر **الحميرى فى الروض** المعطار فى سياق وصفه لهذه المدينة أنها «مدينة بالأندلس كانت فى قديم الدهر من أشرف قرى أرش اليمن، وآنما سمى الإقليم أرش اليمن لأن بنى أمية لما دخلوا الأندلس أنزلوا بنى سراج القضاعيين فى هذا الإقليم وجعلوا اليها حراسة مايليهم من البحر حفظ الساحل...»(2).

ويذكر المؤرخون أن بنى سراج القضاعيين استمروا يقومون بحماية الساحل فتمتعوا فى مقابل ذلك باستقلال جزئى، كما أصبح لهم الحق فى استغلال وادى أندرش الذى كان يعرف فى العصر الإسلامى باسم وادى بجانة، وظلوا على ذلك الحال فأقاموا لهذا الغرض برجا للحراسة بالقرب من مصب وادى بجانة فوق المرتفع الذى تقوم عليه قصبة المرية فى الوقت الحاضر باعتبار ان هذا المرتفع كان أصلح المواقع لهذا الغرض، وسموا هذا المحرس باسم «مرية بجانة»، واتخذها العرب رباطا وابتنت فيها محارس للرباط(3).

ويتضح لنا من ذلك النص ان **الحميرى** يرجع اصل بنى سراج الى قبيلة قضاعة

اليمنية، ويتفق معه في ذلك المقرى الذى ذكر نقلا عن ابن غالب ان بنى سراج كانوا من أعيان أهل قرطبة، وأرجعهم بدوره الى أصول يمنية، وان كان قد نسبهم الى مذحج وطئ[٤]، بينما يرجعهم ابن بسام في الذخيرة الى كلاب بن ربيعة، ويذكر انه أصاب سلفهم سباء قديم صيرهم أولا في ولاء بنى أمية بالمشرق فكانوا في مقدمة الموالى المروانيين وصدرا في عظمائهم، ثم اتصلت نباهتهم بالأندلس، كما ذكر ان جدهم الأول الذى ينتمون اليه هو سراج بن قرة الكلابى صاحب الرسول (ﷺ)، مما اكسبهم شرفا ومجدا وسؤددا عبر التاريخ الإسلامى كله[٥]. ويتفق ابن حزم مع ابن بسام في هذا النسب فقد أورد مايشير الى ان سراج بن قرة ينتمى الى بنى عبد الله بن كلاب[٦]. وعلى هذا النحو نجد أنفسنا امام فريقين يختلفان في نسب بنى سراج أما الأول فيرجعه الى أصول يمنية إما الى إلى قضاعة على حد قول الحميرى او الى مذحج وطئ كما يذكر المقرى. واما الثانى فينسبهم الى بنى كلاب بن ربيعة الذى يرجعون أساسا الى مضر ويدخلهم في ولاء بنى أمية بالشام وهو ما ذكره كل من ابن حزم وابن بسام. ونميل الى الأخذ برأى الفريق الثانى الذى يرجع اصل بنى سراج الى كلاب للأسباب التالية:

١- ان رأى الحميرى الذى ينسب بنى سراج الى أصول يمنية من قضاعة لايستند على أسس قوية لأن نفس نسبة قضاعة الى اليمنية مشكوك فيها، فقضاعة هم قضاعة بن عدنان في قول، وقضاعة بن حمير في قول اخر[٧]، وقد أشار ابن حزم الى هذه الحقيقة في اكثر من موضع من كتابه «جمهرة أنساب العرب» فهو يذكر ان قضاعة بن معد بن عدنان أو قضاعة بن مالك بن حمير، وينهى حديثه بعبارة «والله أعلم»[٨]. وفي موضع اخر يقول ابن حزم «ولد مضر الياس بن مضر، وقيس عيلان مضر، أمهما أسماء بنت سود ين أسلم بن الحارث بن قضاعة»[٩].

٢- يتفق الخبر الذى أورده كل من ابن حزم وابن بسام من ان بنى سراج ينتسبون الى سراج بن قرة الكلابى صاحب رسول الله (ﷺ) وأنهم دخلوا في ولاء

بنى أمية فأصبحوا من الموالى المروانيين، مع الأحداث التاريخية والأدلة المنطقية، فكون بنى سراج قد دخلوا فى ولاء بنى أمية بالشام يفسر قول الحميرى ان الأمويين أنزلوا بنى سراج القضاعيين على السواحل لحمايتها، فالأمويون فى هذه الحالة، كانوا يثقون فى بنى سراج اولا لمقدرتهم البحرية بعد دخولهم فى ولاء بنى أمية بالشام منذ فترات طويلة، تمرسوا خلالها على حياة البحر وثانيا لثقتهم فى اخلاصهم. وربما اختارهم بنو أمية لحراسة السواحل الأندلسية مع بنى الأسود اليمنيين لإيجاد نوع من التوازن القبلى فى هذه السواحل.

٣- من الثابت تاريخيا فى المصادر ان بنى سراج سيظهرون فى قرطبة زمن الخلافة وسيبرزون هناك فى كافة المجالات وخاصة فى الحياة الأدبية كما سنوضح على الصحفات التالية وهذا مايذكره المقرى نفسه(١٠)، ثم نجدهم ينتقلون الى غرناطة عند سقوط قرطبة فى ايدى القشتاليين(١١). ونتساءل لماذا آثر بنو سراج التوطن فى غرناطة بالذات بعد رحيلهم من قرطبة، دون اى مدينة اخرى من مدن الأندلس التى كانت لاتزال فى حوزة المسلمين؟؟ ونستند فى الأجابة على هذا التساول الى نص أورده المقرى نطالع فيه «ان كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بغرناطة كثير(١٢). وهذا الخبر يتفق تماما مع رأينا فى نسبة بنى سراج الى كلاب، فهم قد اختاروا الموضع الذى كانت تنزل فيه كلاب التى ينتسبون اليها بدافع من الإعتزاء بعصبية الإنتماء الى هذه القبيلة. كذلك أورد المقرى فى موضع آخر من كتابه خبرا نقله عن الشقندى مفاده ان غرناطة كان يطلق عليها اسم «دمشق الأندلس» لتشابه طبيعتها الجغرافية مع دمشق ولنزول جند دمشق بها فسموها باسمهم لتشابهها مع بلدهم فى القصر والنهر والزهر والغوطة وغزارة الأمطار وكثرة الأشجار(١٣). وهذا الخبر يتفق مع ما أورده ابن بسام من نسبة بنى سراج الى كلاب الموالين لبنى أمية فى الشام فبطبيعة الحال مال بنو سراج الذين كانوا موال للأمويين فى بلاد الشام الى غرناطة أو دمشق الأندلس.

وعلى هذا الأساس تصبح نسبة بنى سراج الى كلاب بن ربيعة على حد قول ابن بسام، وابن حزم اكثر قبولا من نسبتهم الى أصول يمنية من مذحج وطئ وهو ماذكره المقرى، ونعتبر فى هذه الحالة ان قضاعة التى ينسبهم اليها الحميرى عدنانية. ومن الجدير بالذكر ان رجالا يتسمون باسم «السراج» أو ينتمون الى أشخاص يحملون الإسم قد جاء ذكرهم فى حوادث الأندلس فى العصر الأموى، فابن حيان يورد خبرا يقع فى احداث عام ٢٧٨هـ (٨٩١م) يذكر فيه انه فى عهد الأمير عبد الله، دخلت جيوشه الأميرية الى جيان وأخذوا منها الثائر المعروف «بالسراج» من أصحاب عمر بن حفصون وحملوه الى قرطبة حيث صلب[١٤]، ثم تكرر ذكر ثائر آخر يحمل هذا النسب ثار سنة ٢٨٥هـ (٨٩٨م) على الأمير، هو «أبو على السراج» المعروف بالزاهد[١٥]. واستفحل خطره فيما بعد فقد انضم الى ابن القط الثائر القرشى بغرب الأندلس فى سنه ٢٨٨هـ (٩٠٠م). وكان ابو على السراج الزاهد هو الذى يدعو لابن القط ويحرضه على الثورة ضد الحكومة المركزية بقرطبة[١٦]، وكان ابو على السراج يتردد على مناطق الثوار ثم يعود الى قرطبة مرة آخرى[١٧].

واذا توقفنا قليلا امام حركة ابن القط القرشى، نجد ان هذا الثائر هو «ابو القاسم احمد بن معاوية بن محمد المعروف بالقط الذى يرتفع نسبه الى الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل، وكان من المهتمين بالعالم وخاصة علم الفلك والنجوم، وقد خرج على الأمير عبد الله داعيا بالمعروف ناهيا عن المنكر ومطالبا بالجهاد فى سبيل الله[١٨]، ونفسر انضمام «ابى على السراج» الى حركته الى رابطة الولاء القديم التى كانت تربط بين بنى السراج او سراج وبين الأسرة الأموية، ولعل هذا التحالف بين ابن القط والسراج يساعد على ترجيح نسبة بنى سراج الى كلاب ودخولهم من ولاء بنى أمية. ويذكر **ابن الخطيب فى أعمال الأعلام ان الخليفة** هشام المؤيد ولّى على قضاء الجماعة سنة ٣٦٦هـ (٩٧٦م) القاضى «سراج بن عبد الله بن سراج» أحد أفراد هذه الأسرة البارزة[١٩].

ونستنتج مماذكره **ابن بسام فى الذخيرة** ان بنى سراج واصلوا الإحتفاظ زمن الفتنة بمكانتهم السامية، يقول ابن بسام «بل اقتصروا على مكاسبهم الطبية، وترقيح رفيع معايشهم من فاشى ضياعهم المنتشرة المغلة، مقتعدين غارب الوقار والتجلة ايام الصلاح وزمان الجماعة ثم استمروا على طريقتهم تلك فى مدة الفتنة وأمد المحنة عند تقلص الأموال وذهاب الأحوال وفشوا الإحتلال، لم يفارقوا مع تزلزل الأقدام وتقلب الأيام وذهاب السلطان، وتضعضع الأركان مركزهم من الصيانة، ولاأخلوا بكريم عادتهم من التحلى بها والتزين بياهر رونقها...»[٢٠]. وقد برز عدد من ابناء هذه الأسرة فى مجالات السياسة والأدب نذكر من أبرزهم الإمام الفقيه «سراج بن عبد الله بن سراج» الذى ظلت رواياته وعلومه تدرس فى المغرب والأندلس حتى ان الشيخ القاضى أبا الفضل بن عياض أخذ عنه وعن رواياته. أما ولده الوزير الفقيه «ابو مروان عبد الملك بن سراج» فكان من ألمع وأشهر أفراد هذه الأسرة.

وقد ولد هذا الفقيه فى ربيع الأول لاثنتى عشر ليلة خلت منه سنة ٤٠٧هـ (١٠١٦م) وتوفى سنة ٤٨٩هـ (١٠٩٥م) [٢١]. وقد وصفه ابن بسام بأروع الصفات من ذلك أنه «فذ العصر وعلم الفخر، وبقية حسنات الدهر، ونخبة أهل التقدم فى شرف النصاب وكرم الأحساب...»[٢٢]. وقد أحيا ابو مروان عبد الملك بن سراج كثيرا من الدواوين الشهيرة الخطيرة التى أحالتها الرواة الذين لم تكمل لهم الأداة ولا استجمعت لديهم تلك المعارف والالات، واستدرك فيها أشياء. مما نسيها مؤلفوهم ككتاب «البارع» لأبى على البغدادى، وشرح «غريب الحديث» للخطابى وقاسم بن ثابت السرقسطى، وكتاب «أبيات المعانى» للقتبى، وكتاب «النبات» لأبى حنيفة، وكتاب «الأمثل» للأصبهانى وغير ذلك[٢٣]. ووصفه ابن الخطيب فى الإحاطة بأنه كان ثقة صدوقا، وأنه كان من أساتذة الوزير أحمد بن خلف بن عبد الملك الغسانى القليعى، وزير ابن بلقين صاحب غرناطة[٢٤]. كما درّس للفقيه أبى جعفر محمد بن حكم بن محمد بن احمد بن باقى الجذامى من أهل سرقسطة الذى استوطى غرناطة زمنا ثم تركها الى فاس[٢٥]، وكان من تلاميذه

المقرئ الفقيه أبو الحسن على بن محمد بن درى الخطيب بجامع غرناطة والمتوفى فيها في رمضان سنه ٥٢٦هـ (١١٣١م) وكان قد أخذ عنه وعن ولده سراج من بعده[٢٦].

وعندما توفى الوزير «ابو مروان بن سراج» صلى عليه ولده الوزير الفقيه «ابو الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج» الذى وصفه ابن بسام بأنه «تاليه في الفضل وكرم الخلال مع سرى الخصال وجائز ميراث مفاخره الجمة...»[٢٧].
وأثارت وفاة عبد الملك بن سراج الحزن في اوساط العامة والخاصة على السواء، ورثاه عدد كبير من كبار الشعراء في الأندلس أمثال الشيخ فقيه أبو بكر بن خازم، والوزير الفقيه ابو عبد الله جعفر بن محمد بن مكى بن ابى طالب القيسى، ومما جاء في قصيدة نظمها الأخير في رثائه:

أودى سراج المجد وابن سراجه ... فلنور شمس المكرمات أفول
لو كان علم الدين يبكى ميتا ... لبكى الحديث عليه والتنزيل
كم من حديث للنبى أبانه ... فبدت له غرر ترى حجول[٢٨]

كما ابنه الوزير الكاتب «ابو محمد عبد المجيد بن عبدون»، والوزير «ابو بكر محمد بن ذى الوزارتين، الكاتب ابى مروان بن عبد العزيز» والكاتب أبو الوليد احمد بن عبد الله بن طريف» ورثاه الأديب «ابو العباس احمد بن محمد الكنانى» احد تلامذته الآخرين عنه بقصيدة اولها:

رزد تطلبت فيه الصبر فامتنعا ... ورمت دمعى على التسكين فاندفعا

وقال فيها:
حديث صدقى نعى الناعى الي ضحى ... فزعت فيه الى التكذيب حين نعى
صبرا سراج فما يبقى الردى احدا ... كل سيجرعه من كأسه جرعا[٢٩]

أما ابنه سراج فقد ورد اسمه في كثير من المصادر العربية على انه من بين الشيوخ الذين درسوا للقاضى عياض بن موسى بن عياض السبتى[٣٠]. ولكننا

نلاحظ ان المصادر العربية تختلف في ذكر كنيته فهو في قول ابن الخطيب «ابو الحسن سراج بن عبد الملك بن سراج» كما ورد في اكثر من موضع من كتابه الإحاطة[٣١]، بينما كنّاه كل من ابن خاقان وابن بسام والمقرى «بأبي الحسين»[٣٢]. ونميل من جانبنا الى ترجيح كنيته بأبي الحسين لأن ابن خاقان كان صديقا له ولوالده وروى عنه كثيرا من الحكايات. وكان ابن خاقان يلتقي مع والده ابي مروان في منزل الوزير ابي عامر بن شهيد[٣٣]. ويروى ابن **خاقان** كثيرا من الأخبار عن ابي الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج فيذكر منها انه كثيرا ما كان يلقاه مع الوزير ابن شهيد ويقصد بعض اخباره فيقول كنا «نحضر مجلس شرابه ولانغيب عن بابه، وكان له بباب الصومعة من الجامع لايفارقه أكثر نهاره ولايخليه من نثر درره وازهاره...» وروى عنه حكاية طريفة فقال «فعقد منه ليلة سبع وعشرين من رمضان في لمة من اخوانه وأئمة سلوانه وقد حفوا به ليقطفوا نخب أدبه وهو يخلط لهم الجد بهزل ولايفرط في انبساط مشتهر ولاانقباض جزل، واذا بجارية من اعيان أهل قرطبة معها من جواريها من يسترها ويواريها، وهي خائفة ممن يرقبها مترقبة وأمامها طفل لها كأنه غصن أس أو ظبي يمرح في كناس، فلما وقعت عينها على ابي عامر ولت سريعة وتولت مروعة، خيفة ان يشبب بها او يشهرها باسمها فلما نظرها قال قولا فضحها به، وشهرها» وقد أورد ابن خاقان بعض ابيات من الشعر في ذلك[٣٤]. وتوفي ابو الحسين[٣٥]، سنه ٥٠٨هـ (١١١٤م) وهو في التاسعة والستين من العمر. كذلك يورد **ابن خاقان** خبرا عن ابي الحسين سراج عند ترجمته للأديب ابي بكر عبد المعطي بن محمد بن المعين، فيذكر ان ابا الحسين سراج كان يأتي لأبي بكر بكل مايبغي «خيفة من لسانه ومحافظة على احسانه، ولما خرج الى اقليش خرج معه وجعل يساير من شيعه فلما حصلوا بفحص سرادق وهو موضع توديع المفارق للمفارق قرب منه ابو الحسين بن سراج لوداعه وأنشده في تفرق الشمل:

هم رحلوا عنا لأمـــر لهم عنا   فـمـا احـد منهم على احـد هنا
ومـا رحلوا حـتى اسـتـقـادوا نفـوسنا   كـأنهم كـانوا احق بهـا منا
فـيـا سـاكن نجـد لتبـعـد داركم   ظننا بكم ظنا فـأخلفـتم ظنا[٣٦]

ويصفه ابن بسام بأنه اسم «وافق سماه ولفظ طابق معناه فانه سراج علم وأدب وبحر علم لغة لسان العرب واليه في وقتنا هذا بحضرة قرطبة شد الاقتاب وانضاء الركاب في الاقتباس منه، ثم انه في هذا الفن الذى نحى في اقامة اوده زمامه وخطامه في يده ولنظمه ونثره ديباجة رائعة وهو القائل:

لما تمكن من فـــؤادى منزلا   وغـدا يسلط مـقلتـيـه عليـه
ناديتـه مـسـتـرحـمـا من عـبـرة   أفـضت بأسـرار الضـمـيـر اليـه
رفـقـا بمنزلك الذى تحـتـله   يا من يخـرب بيـتـه بيـديه»[٣٧]

وممن قرأ على أبي الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج، محمد بن ابراهيم بن محمد بن ابراهيم البلفيقى ابن الحاج[٣٨]، وروى عنه الفقيه النحوى الأديب، ابو الحسن محمد بن احمد بن محمد بن أبي خيثمة الجبائي بعد ان صاحبه صحبة مؤاخاة[٣٩]، وأبو جعفر احمد بن عبد النور بن احمد بن راشد[٤٠]. وأبو القاسم احمد بن عمر بن يوسف بن ادريس بن عبد الله بن ورد المعروف بابن ورد[٤١]، وعبد الرحمن بن عبد الله بن احمد بن فتوح الخثعمي المقرئ المجرد المحقق المتوفى بمراكش سنة ٥٨١هـ (١١٨٥م)[٤٢]. وممن روى الحديث عنه الفقيه الكبير محمد بن عبد الله بن يحى بن عبد الله بن فرج بن الجد الفهرى الذى وصفه **ابن الخطيب** بأنه «جليل اشبيلية وزعيم وقته زمن الموحدين»[٤٣]. ويورد المقرى نماذج من أشعار احد بنى سراج النابهين وهو الشاعر «ابو عبد الله بن السراج» الذى كانت بينه وبين الشاعر ابى الحسن بن الغليظ المالقى اجازة، وفي ذلك يقول المقرى «قال ابو الحسن بن الغليظ المالقى، قلت يوما للأديب ابى عبد

الله بن السراج المالقى(٤٤). ونحن على خرير ماء أجز: شربنا على خرير ماء كأنه خريره فقال مبادرا: بكاء محب بان عنه حبيب...(٤٥). كما كتب ابو على الحسن بن الغليظ الى صاحبه ابى عبد الله بن السراج وقد قدم من سفر:

يامن أقلب طرفي في محاسنه فلا ارى مثله في الناس انسانا

لو كانت تعلم ما لقيت بعدك ما شربت كأسا ولا استحسنت ريحا

فرد عليه من حينه وقال:

أردت مجاوبتك فخفت ان أبطئ وصنعت الجواب في الطريق(٤٦). وفي القرن الثامن الهجرى برز من بنى سراج الشيخ الفقيه «ابو زكرياء يحى ابن السراج» الذى كتب فهرسة تضمنت تراجم أهم علماء عصره، ومن بينهم القاضى على بن محمد بن عبد الله النباهى المالقى. وقد وصف ابن سراج النباهى فى فهرسته بأنه «الشيخ الفقيه، الراوية، قاضى الجماعة بالأندلس وخطيبها»(٤٧). كما ذكر اساتذته ومن أخذ عنهم وانه قدم رسولا لفاس عامى ٧٦٧هـ، ٧٨٨هـ (١٣٦٥م). (١٣٨٦م).

وقد كتب الإمام يحى بن السراج، نسخة من كتاب «الشفاء» بخطه وتلقى علومه على الشيخ العارف محمد بن عباد(٤٨). ووصلنا من أبناء هذه الأسرة اسم طبيب شهير هو الطبيب «عبد الله بن سراج» من اعلام القرن الثامن الهجرى وقد تتلمذ على يديه ابو عبد الله محمد بن على بن فرج القربليانى المعروف(٤٩) بالشفرة. وفى القرن التاسع الهجرى برز الشيخ ابو عبد الله محمد بن محمد بن يحى السراج، حفيد الفقيه ابى زكرياء يحى بن سراج. ومن أبرز ما رواه ابو عبد الله محمد بن سراج، حديثا للرسول ﴿ﷺ﴾ بشأن مدينة سبتة رواه عن ابن عمر ومفاده «مدينة بالمغرب سمعت رسول الله ﴿ﷺ﴾ يقول انها على مجمع بحرى المغرب، وهى مدينة بناها سبت بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام، واشتق لها اسما من اسمه، فهى سبته، ودعا لها بالبركة والنصر فلايريد احد بها سوءا إلا رد الله دائرة

السوء عليه»[٥٠]. وممن برز من بني سراج في هذا القرن الفقيه «أبو القاسم بن سراج الغرناطي» ويذكر المقرى ان ابا عبد الله بن مرزوق المعروف بالحفيد، الذى أدرك القلصادى في رحلته، كتب عدة تأليف من بينها كتابه «المعراج الى استمطار فوائد الأستاذ ابن سراج» في كراسة ونصف، وأجاب به أبا القاسم بن سراج الغرناطي على مسائل نحوية ومنطقية[٥١].

وما دمنا قد تقصّينا اصل بنى سراج، وأبرز من تسمّى او تنسب باسمهم، فعلينا ان نتوقف قليلا لمعرفة حقيقة نسبهم، هل ينتسبون الى السراج بفتح السين وتشديد الراء ام الى سرّاج بتشديد الراء او سراج بفتح الراء. والواقع ان المصادر العربية استخدمت هذه الصور الأربعة للإسم فالمقرى مثلا يذكر ابو الحسين سراج ابن عبد الملك في ازهار الرياض على انه «ابن سراج»[٥٢]. دون اضافة (أل) تعريف او تشديد الراء ولكنه في مواضع اخرى من كتابه يذكر اسم ابى زكرياء يحى احد افراد هذه الأسرة على انه «ابن السراج»[٥٣]. كما ذكر منهم الشاعر «ابا عبد الله بن السرّاج»[٥٤]. بالتشديد واضافة أل التعريف؛ في حين انه ذكر «ابا القاسم بن سراج» دون التعريف او تشديد الراء[٥٥]. ويذكر ابن الخطيب اسم ابى مروان عبد الملك بن سراج في اكثر من موضع من الإحاطة دون حرفى الألف واللام للتعريف، ودون تشديد الراء[٥٦]. ولكنه عندما يتحدث عن ولده أبي الحسين يذكره في بعض الأحيان على انه» سراج بن سراج[٥٧]. وفي أحيان اخرى على انه «ابن السرّاج»[٥٨]. وكان ابن حيان كما سبق ان ذكرنا قد أورد أسماء الثوار من هذه الأسرة، على الأمير عبد الله على أنهم من بنى «السّراج» باضافة أداة التعريف مع التشديد على حرف الراء[٥٩]. أما ابن بسام وابن خاقان فيذكر ان الإسم مجرداً من «ال» للتعريف ومن الشدة فوق الراء[٦٠].

هذا وقد عثر على شاهدى قبر لفارسين من بنى سراج سنتحدث عنهما بالتفصيل في الصفحات التالية، نقش عليهما اسم السّراج بتشديد الراء مع اضافة التعريف[٦١]. كما ان المصادر الإسبانية تذكر الإسم على انه "Abencerraje"

كترجمة للإسم العربى «سرّاج» بتشديد الراء وذلك وفقا لما ورد فى قصة ابن سراج التى دونت فى غرناطة بعد سقوطها فى أيدى الملكين الكاثوليكيين بسبعين عاما، وكما ورد فى كتاب Ginez Perez De Hita الموسوم ب Guerras Civiles De Granada. ويذكر كل من لويس سيكودى لوثينا وراشيل أرييه بنى سراج مضافا اليه حرفى «أ» و «ل» للتعريف مع ازدواج حرف "R"، وفسرا المعنى بأنهم ابناء صانعى السروج(٦٢). ومنه اشتق الإسم الإسبانى Abencerrajes. ونميل من جانبنا الى الأخذ بالصورة التى أوردها كل من ابن بسام وابن خاقان للإسم وهو «بنو سراج» دون التعريف والتشديد دون التعريف والتشديد، اذ أخذنا فى الإعتبار ان ابن خاقان كان معاصرا لإثنين من ابناء هذه الأسرة كما سبق ان ذكرنا، هما ابو مروان عبد الملك ابن سراج، وابنه سراج بن عبد الملك فهما اقرب الى هذه الأسرة من أى مصدر آخر، وتضيف الى ذلك ان الجد الأول لهذه الأسرة هو «سراج بن قرة»، وعلى هذا الأساس يصبح اسم الأسرة المرجح فى تصورنا هو «بنو سراج» وليس السرّاج بن قرة»، وعلى هذا الأساس يصبح اسم الأسرة المرجح فى تصورنا هو «بنو سراج» وليس «السّراج» وربما يكون حرفا «ال» للتعريف والتشديد على الراء قد أضيفا تسهيلا على عامة الناس فى النطق.

بنو سراج وزراء سلاطين غرناطة:

مرت مملكة غرناطة الإسلامية فى الفترة مابين عامى ٧٦٠ - ٧٦٣ هـ (١٣٥٤-١٣٦٢م) بأزمات سياسية واقتصادية عنيفة جعلتها عرضة لانقلابات متعددة، ومن أشهر هذه الإنقلابات ثلاثة متتابعة راح ضحيتها عدد من الملوك والقادة والأمراء. وقد حدث الانقلاب الأول فى ٢٨ رمضان سنة ٧٦٠هـ (٢١ اغسطس ١٣٥٩م) وانتهى بخلع السلطان محمد الخامس الغنى بالله (ابى عبد الله محمد بن ابى الحجاج يوسف بن نصر) ونفيه الى المغرب، وتولية اخيه ابى الوليد اسماعيل الثانى. اما الإنقلاب الثانى فقد وقع فى ٨ شعبان سنة ٧٦١ هـ (٢٤ يونيو ١٣٦٠م) وانتهى بمقتل السلطان ابى الوليد اسماعيل الثانى، واعتلاء قاتله

الرئيس ابى عبد الله محمد الغالب بالله عرش السلطنة[٦٣] أما الإنقلاب الثالث فينتهى بعودة السلطان المخلوع محمد الخامس الغنى بالله بعد مقتل السلطان الغالب بالله المغتصب، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٧٦٣هـ (١٦ مارس ١٣٦٢م)

وقد رفضت كبار الشخصيات الغرناطية التعاون مع السلطان المغتصب ابى عبد الله محمد، الغالب بالله، ففرت اعداد كبيرة من تلك الشخصيات البارزة من غرناطة هربا من بطشه نذكر منهم الأمير أبا الوليد اسماعيل بن نصر عم السلطان محمد الخامس وصهره، الذى فر الى بلاد المغرب، والشيخ المغربى يحى بن عمر بن رحو بن عبد الحق شيخ الغزاة المغاربة بغرناطة الذى فر الى البلاط المرينى بفاس كذلك يشير ابن الخطيب الى فرار زعيم غرناطى شهير يدعى «ابراهيم السرّاج» الى بلاط ملك قشتالة[٦٤] ويعلق الدكتور احمد مختار العبادى على ذلك بأنه لايعرف عن هذا الزعيم شيئا، ويفترض ان يكون من أسرة بنى سراج Abencerrajes المعروفة فى الأندلس[٦٥] ونلاحظ ان اسم بنى سراج سيرتبط بدءا من هذا التاريخ ارتباطا وثيقا بحوادث مملكة غرناطة خاصة بعد وفاة السلطان محمد الخامس عام ٧٩٣ هـ (١٣٩١م) عندما تعاقب على عرش غرناطة عدد من السلاطين الضعاف، فقاست المملكة كثيرا من جراء الدسائس والفتن والمؤامرات حول العرش[٦٦] وفى عام ٨٢٠هـ (١٤١٧م) توفى السلطان يوسف الثالث بعد حكم دام نحو تسعة اعوام فتوالى على عرش غرناطة بعده عدد من السلاطين الضعاف أولهم ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالأيسر، الذى كان صارما قاسيا بعيدا عن الإهتمام برعيته ومصالحهم[٦٧]. وعندئذ بدأ نجم بنى سراج السياسى يتألق على المسرح السياسى فى غرناطة، فالسلطان الأيسر قد اتخذ من بين ابناء هذه الأسرة وزيرا له هو «يوسف بن سراج» وكان بنو سراج قد ساعدوا الأيسر منذ البداية فى الظفر بالسلطنة[٦٨] وقام يوسف بن سراج بدور كبير هام فقد كان يعتبر الوسيط الوحيد بين السلطان الأيسر وشعبه وكبار رجال دولته، فكان يعمل ببراعة تامة ورقة على تلطيف حدة السخط العام على سلطانه الأيسر

ولهـذا السبب يبـدأ دور بنى سراج منذ ان اعتلى الأيسر دست السلطنة فى الظهور والتقدم على القادة والزعماء الذين يحركون الأحداث السياسية بأعظم نصيب ورغم محاولات الوزير الشهير «يوسف بن سراج» المتواصلة لتهدئة الأمور. إلا انها لم تثمر فى تخفيف سخط الأهالى على الأيسر بل على الضد من ذلك فقد احترمت نيران الثورة عليه ولم يلبث ان خلع من السلطنة ثم استرجعها اكثر من مرة، من ذلك ماحدث سنة ٨٣١هـ (١٤٢٨م) عندما انتهز أهالى غرناطة فرصة غزو القشتاليين لبسائط وادى آش، فقاموا بثورة عارمة انتهت بخلع الأيسر ومبايعة الأمير محمد بن محمد بن يوسف الثالث الملقب بالزغير(٦٩). مما اضطر الأيسر الى الرحيل مع اهله الى تونس فنزل ضيفا على السلطان أبى فارس الحفصى(٧٠).

وفشل الأمير محمد الزغير فى القضاء على الدسائس والفتن المستمرة رغم فروسيته وقدراته العالية، وكان السبب وراء فشله هذا يرجع الى «بنى سراج» ألد خصومه واكثر الموالين من بيوتات غرناطة للسلطان المخلوع، الأيسر، لذلك قام الزغير بمطاردة هذه الأسرة العريقة وعمل على سحقهم واستئصال نفوذهم القوى المستشرى فى جميع أنحاء المملكة مما دفع الوزير يوسف بن سراج الى مغادرة غرناطة مع عدد كبير من أفراد أسرته هربا من بطش «الزغير». رحل بنو سراج بادئ ذى بدء الى ولاية مرسية ومن هناك انتقلوا الى اشبيلية وكان يتقدمهم يوسف بن سراج الذى لاذ بحماية خوان الثانى ملك قشتالة. وانتهز خوان الثانى هذه الصراعات ليتدخل فى شؤون السلطنة، ويحرز مكاسب جديدة، فأبدى ترحيبه ببنى سراج وأكرم وفادتهم، واتفق مع يوسف بن سراج على العمل لرد السلطان الأيسر الى عرشه. وبالفعل استدعى بنو سراج، الأيسر فى تونس فاستجاب لدعوتهم، وعاد الى الأندلس مزودا بفرقة من الفرسان الحفصيين، وتوجه الى المرية ومنها تمكن بمساعدة بنى سراج من استعادة عرشه، وقبض على الزغير وتخلص منه(٧١).

وهكذا سيطر الأيسر على غرناطة من جديد سنة ٨٣٣هـ (١٤٣٠م) واهتم باعادة تنظيم مملكته. وكانت اولى الخطوات التى اتخذها من اجل ذلك، اعادة «يوسف بن سراج» الى الوزارة، ويلى ذلك تجديد الهدنة مع قشتالة، ولكن الملك القشتالى اشترط على الأيسر دفع اتاوة باهظة، والاعتراف بطاعة قشتالة فرفض الأيسر تلك الشروط المجحفة مما أدى الى هجوم القشتاليين على الثغور الغرناطية فى غارات مدمرة مما أوقع البلاد فى محنة جديدة، وأفسح المجال لانقسام المملكة الى شيع وأحزاب متنافسة ووجد النصارى فى ذلك فرصة مواتية لاذكاء نيران الفتن وبسط سلطانهم على مملكة غرناطة. وكان خصوم الأيسر قد التفوا حول أمير ينتمى الى بيت الملك عن طريق أمه هو الأمير ابو الحجاج يوسف بن المول الذى تسميه المصادر الإسبانية (Abenalmao)[٧٢]. وكان ابن المول يتمتع بتأييد الملك القشتالى خوان الثانى لأنه تعهد ان يحكم غرناطة باسمه وان يدخل فى طاعته كما تعهد بحضور مجلس الكورتس (الأعيان) معترفا بولائه لملك قشتالة، وان يحارب معه ضد اعدائه وان يؤدى له إتاوة سنوية لو ساعده فى الإرتقاء الى دست السلطنة، وعلى أساس تلك الشروط عقدت معاهدة بين الجانبين[٧٣]. ولم يتردد يوسف بن المول فى السير الى غرناطة تسانده قوات قشتالة وتمكن من الإستيلاء على عدة قواعد دانت له بالطاعة ومنها رندة ولوشة وحصن اللوز وغيرها، وأعلن خوان الثانى انحيازه الى يوسف ونودى به ملكا، و وتوجه ابن المول الى غرناطة نفسها فتصدى له جنود الأيسر بقيادة وزيره «يوسف بن سراج» الذى انهزم فى تلك المعركة ولقى مصرعه، وعلى إثر ذلك دخلت قوات ابن المول غرناطة، فهرب الأيسر مع أسرته الى مالقة التى ظلت موالية له، فى حين تربع ابن المول على عرش السلطنة فى سنة ٨٣٦هـ (١٤٣٢م) وبعد أقل من سنة توفى ابن المول فاتفقت الأحزاب فى غرناطة على رد السلطان الأيسر مرة اخرى[٧٤].

وفور عودة السلطان الأيسر الى عرش غرناطة للمرة الثالثة بادر بعقد معاهدة صلح مع ملك قشتالة فعقدت هدنة بين الطرفين لمدة عام، ورغم ذلك أغار

القشتاليون على أراضى غرناطة الشرقية فردهم المسلمون بقيادة ابن عبد البر زعيم بنى سرّاج والوزير الجديد للأيسر الذى خلف يوسف بن سراج ثم أوقعوا بهم هزيمة ثانية[٧٥]. عند مدينة أرشذونة وقتلوا وأسروا منهم عددا كبيرا (٨٣٨ هـ/ ١٤٣٤م). وفى العام التالى سار السلطان الأيسر لقتال القشتاليين فى أحواز غرناطة ووادى آش وانتصر عليهم اكثر من مرة، ولكن القشتاليين عاودوا الإغارة على بعض الحصون المجاورة وزحفت قوة كبيرة منهم بقيادة حاكم لبلة على ثغر جبل طارق، ولكن أهالى الثغر تصدوا لهم، فجدد القشتاليون غاراتهم على مقربة من كازورلا والتقى المسلمون بقيادة ابن الوزير (ابن عبد البر) مع القشتاليين فى معركة ضارية انتهت بانتصار المسلمين. ورغم انتصار المسلمين فى موقعة كازورلا الا ان قائدهم ابن سراج سقط شهيدا فى هذه المعركة فحزنت غرناطة لفقده، لحسن بلائه ولما اتصف به من فروسية وشجاعة[٧٦]. وعلى الرغم من تصدى الأيسر للقشتاليين وانتصاره عليهم عدة مرات الا انه لم يسلم من مؤامرات خصومه له، وكان فريق من خصومه من السّادة الفرسان يلوذون بحماية ملك قشتالة وعلى رأسهم الأمير يوسف بن احمد حفيد السلطان يوسف الثانى وابن عم الأيسر وهو المعروف فى المصادر القشتالية بابن اسماعيل، فى حين ناصر فريق آخر من زعماء المرية الأمير محمد بن نصر بن محمد الغنى بالله المعروف بالأحنف. ونجح الأحنف فى دخول غرناطة فى سنة ٤٨٥ هـ/ ٨٤٦ هـ (١٤٤١ - ١٤٤٢م) ونادى بنفسه ملكا[٧٧]. ولكن بنى سراج وعلى رأسهم الوزير ابن عبد البر، لم يكفوا عن معارضة الأحنف، وكان ابن عبد البر بن سراج يقيم فى ذلك الوقت فى حصن مونتى فريو الواقع شمال غربى غرناطة، وكان يؤيد الأمير يوسف (بن اسماعيل) المقيم فى بلاط قشتالة.

وتعتبر هذه الفترة من تاريخ غرناطة اكثر الفترات غموضا واضطرابا وتعقيدا فقد اختلف فى سرد تفاصيلها كل من تصدى للكتابة عنها وأهمهم الأستاذ **محمد عبد الله عنان** والأستاذ الدكتور **احمد الطوخى**، والأستاذ **يوسف شكرى فرحات**، ولايهمنا من كل ذلك سوى تتبع دور بنى سراج، فهذا كله يخرج عن دائرة

موضوعنا. ويتفق المؤرخون على ان الصراع الذى دار بين «ابن اسماعيل»[٧٨]، و «الأحنف» اللذين تبادلا الجلوس على عرش غرناطة عدة مرات قد انهك قوى الأهالى وأضعف من قوة المسلمين في الأندلس، وانتهى ذلك الصراع بتولى السلطان سعد بن محمد حفيد السلطان يوسف الثاني خلفا للسلطان الأحنف الذى استمر في الحكم حتى سنة ٨٦٣ هـ (١٤٥٨م) في قول[٧٩]، فى حين يرى فريق آخر من المؤرخين ان الأمير سعد هو ابن اسماعيل، ابن شقيق السلطان الأيسر وانه تولى عرش غرناطة بعد الأحنف مباشرة[٨٠].

وبتولى السلطان سعد عرش غرناطة ازدادت الإضطرابات فى البلاد لأنه حاول ان يتخلص من «بنى سراج» الذين كانوا يناصبونه العداء، فعمد الى قتل بعض زعمائهم ومن بينهم وزيره مفرج (٨٦٦هـ/ ١٤٦٢م) فهرب ولداه محمد وعلى من بنى سراج الى مالقة وبايعا اميرها يوسف النصرى الذى أعلن استقلاله فى مالقة، وزحف الى غرناطة[٨١]، ثم مات يوسف النصرى سنة ٨٦٨ هـ (١٤٦٤م) فتنفس سعد لوفاته الصعداء ولكن الى حين، ذلك ان بنى سراج اتصلوا بابنه أبى الحسن وحرضوه على الثورة على أبيه. ونحن نستقى هذه الأخبار من رواية **المؤرخ المصرى عبد الباسط بن خليل الحنفى** الذى زار المغرب والأندلس فى هذه الفترة المضطربة، وقد روى لنا كل مشاهداته في مؤلفه المسمى «كتاب الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم»[٨٢]. ويذكر عبد الباسط بن خليل ان سلطان الأندلس فى سنة ٨٦٧ هـ (١٤٦٢ - ١٤٦٣م)، كان سعد بن محمد بن يوسف المستعين بالله المعروف بابن الأحمر، وأنه ما كاد يجلس على العرش حتى ثار عليه ولده ابو الحسن بتحريض بنى سراج، وأخرجه من غرناطة وامتلكها، فسار سعد الى مالقة وحكم ابو الحسن مكانه. ولما اشتد ضغط النصارى على الأندلس، عاد أبو الحسن فعقد الصلح مع أبيه وأطلق سراحه، واختار سعد الإقامة فى المرية فلم يعترض ولده، ولم يلبث ان توفى الأب فى أواخر هذا العام وعندئذ خلص العرش لأبى الحسن[٨٣]. وقد عانت مملكة غرناطة الى جانب الصراع الدموى العنيف بين أفراد

البيت النصرى من اجل الوصول الى العرش والحفاظ عليه، صراعا آخر اضطرم واشتعل بسبب التنافس بين الأسرات النبيلة القوية، وعلى رأسها «بنى سراج» وبنى الثغرى (Zigris) وبنى أضحى[٨٤]. للظفر بالوزارة. وكان عهد أبى الحسن على بن سعد مثلاً حيا للفوضى الضاربة أطنابها فى أنحاء سلطنة غرناطة، التى نتجت عن الصراعات التى نشبت بين أفراد الأسرة الحاكمة. فأبو الحسن بن سعد نجح فى الظفر بعرش غرناطة بعد صراع مرير ضد والده السلطان سعد ابن الأحمر كما سبق ان ذكرنا، ورغم انتهاء هذه المعركة لصالحه إلا ان الصراعات ظلت متواصلة لم تتوقف، ذلك أنه كان لأبى الحسن اخوان ينافسانه على السلطنة هما ابو عبد الله المدعو بالزغل (El Zagal) اى الشجاع، وابو الحجّاج يوسف الذى توفى فى سنة ٨٧٢/٨٧١هـ (١٤٦٧م) بسبب الطاعون وأدى تطلب الزغل الى السلطنة الى نشوب صراع دموى عنيف بين أبى الحسن وبين أخيه الزغل. ولم يكن ذلك الصراع بين الأخوين هو الصراع السياسى الوحيد للظفر بدست السلطنة، فقد امتد الصراع واتسع نطاقه فى البيت الحاكم بحيث أدرك أبناء السلطان أبى الحسن. وقصة هذا الصراع الأخير تتلخص فى ان أبا الحسن على كان قد تزوج من ابنة عمه الأميرة عائشة ابنة السلطان محمد الأيسر[٨٥]. وقد أثمر هذا الزواج عن ثلاثة أبناءهم على التوالى، ابو عبد الله محمد الذى حرفت المصادر الإسبانية كنيته فجعلتها (Boabdil) وأبو الحجاج يوسف، وعائشة. واتفق ان أغار المسلمون فى احدى معاركهم ضد الإسبان على أرض قريبة من قرطبة وعادوا مثقلين بالغنائم والسبى، وكان بين السبى فتاة بارعة الجمال بيعت فى غرناطة بيع الرقيق، هذه الفتاة هى ايزابيل دى سوليس (Isabel de Solis)، كانت ابنة القائد الفارس دون سانشو خيمينث دى سوليس (Don Sancho Ximenez De Solis) الذى لقى مصرعه فى احدى المعارك التى خاضها ضد المسلمين[٨٦]، وألحقت ايزابيل وصيفة بقصر الحمراء، واعتنقت الإسلام وتسمت باسم ثريا أو كوكب الصباح ولم تلبث أن وقعت موقعا حسنا عند السلطان أبى الحسن على فتسرى بها وتزوجها وآثرها

على زوجته عائشة التى تلقبت منذ ذلك الحين «بالحرة» تمييزا لها عن ثريا الإسبانية، وقد أثمر هذا الزواج الأخير عن ثلاثة ابناء اكبرهم كان يسمى سعد والثانى نصر أما الثالث فقد توفى فى أحد الأوبئة[٨٧].

ويعلق المؤرخ المجهول صاحب نبذة العصر على تلك الأحداث بقوله «فمن جملة انهماكه أنه اصطفى على زوجته رومية اسمها ثريا وهجر ابنة عمه وأولادها منه فأدرك ابنة عمه من الغيره مايدرك النساء على أزواجهن ووقع بينهما نزاع كثير وقام الأولاد محمد ويوسف مع أمهما وغلظت العداوة بينهم[٨٨]...». ومن هذا النص يتضح لنا ان حربا خفية غير معلنة بدأت تشتعل بين الزوجتين الحرة، وأم الولد ثريا، وأصبحت كل منهما تنافس الأخرى من اجل اسناد ولاية العهد الى ولدها دون الأخرى، وأدى ذلك الى اضطراب الأوضاع فى قصر الحمراء، وهز كيان البيت الحاكم وعجل بانحلال مملكة غرناطة ومهد لسقوطها. وقد نجحت ثريا الإسبانية فى السيطرة على زوجها السلطان أبى الحسن تماما فأقنعته باقصاء السيدة عائشة الحرة وولديها عن كل عطف ورعاية، ونجحت فى اقناع زوجها باعتقال زوجته الأولى فزج بها مع ولديها فى برج قمارش أمنع أبراج قصر الحمراء، وعاملهم جميعا بمنتهى القسوة والعنف. وقد أثار تصرف السلطان أبى الحسن هذا غضب البيوتات الأندلسية الكبيرة التى كانت تؤثر السلطانة الشرعية وولديها بالعطف والتأييد. وتصف المصادر العربية «السيدة عائشة الحرة» بأنها شجاعة وصلبة كالرجال، فلم تستسلم الى مصيرها التعس بل عملت على الإتصال بأنصارها وعلى رأسهم «بنى سراج» أقوى أسر غرناطة لتخليصها من الأسر، ودبروا لها وسيلة للفرار من القصر، وتشير المصادر العربية الى نجاح الأميرين فى الفرار من القصر دون أمهما الى وادى آش، فى حين تؤكد الرواية القشتالية فرارهم جميعا بمساعدة بنى سراج[٨٩]. ولم يغفر السلطان أبو الحسن هذا الموقف لبنى سراج أبدا، وكان ذلك الموقف المساند لولديه من السيدة عائشة الحرة، الدافع الأساسى وراء نكبة رؤساء هذه الأسرة الذين انتهى أمرهم بالقتل فى أحدى قاعات

قصر الحمراء. وكانت هذه النكبة من البشاعة والقسوة بحيث أصبحت مجالا خصبا لروايات وأقاصيص شعبية سنتحدث عنها فى الصفحات التالية. بدأ بنو سراج، ومنذ فرار الأميرين من قصر الحمراء، يتخذون موقفا جديدا فى سياسة غرناطة، يتمثل فى تأييد الأمير أبى عبد الله محمد المعروف فى المصادر الإسبانية باسم (Muley Baudili أو Beaudili-Baudili أو Boabdil) ضد والده السلطان ابى الحسن على. ولسنا هنا فى مجال شرح تفاصيل الصراع الذى نشب بين أبى الحسن على، وأخيه الزغل، ولاتفاصيل الصراع بينه وبين ولده ابى عبد الله محمد، وما يهمنا توضيحه هو أنه فى هذا الوقت الذى كان أفراد البيت الحاكم فى غرناطة يتقاتلون ويتناحرون كانت ايزابيلا ملكة قشتالة قد تزوجت من فرديناند الرابع ملك أراجون فتوحدت اسبانيا المسيحية[٩٠]. وازدادت قوتها وبدأت تخطط لتصفية الإسلام نهائيا من الأندلس، أما حكام غرناطة فبدلا من ان يتداركوا الموقف الخطير، ويلوذوا بالوحدة فقد اقبلوا على التحالف مع ملوك المسيحية الواحد ضد الآخر.

وتمكن الأخير ابو عبد الله محمد بن مولاى ابى الحسن من انتزاع عرش غرناطة سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢م) بمساعدة بنى سراج[٩١]. ولاذ ابوه ابو الحسن على الى أخيه الزغل بمالقة الذى كان قد عقد هدنة معه بعد صراع طويل. وحدث ان انهزم الأمير ابو عبد الله محمد أمام الجيوش القشتالية فى ظاهر قلعة اللسانة Lucena سنة ٨٨٨هـ (١٤٨٣م) ووقع اسيرا فى يد الإسبان ولكن الملكين الكاثوليكيين وافقا على اطلاق سراحه بشرط ان يبذل لهما الطاعة ويدفع جزية سنوية ويتعهد بالإفراج عن أربعمائة من الرهائن النصارى فى غرناطة. وكانت هذه المعاهدة بمثابة حجر الأساس فى القضاء على مملكة غرناطة، وزاد من تعقيد الأمور، احتدام الصراع بين ابناء الأسرة الواحدة، فقد تولى الزغل حكم غرناطة خلال فترة اسر ابن أخيه ابى عبد الله محمد، واشتد الصراع بينه وبين الأمير يوسف ابى الحجاج بن ابى الحسن شقيق ابى عبد الله محمد، فلما اطلق الملكان الكاثوليكيان

سراح ابى عبد الله، تجدد الصراع بينه وبين عمه الزغل، وكان ربض البيازين فى الشمال الشرقى من غرناطة مسرحا لهذا الصراع، واستغل العدو هذه الفرصة، وازداد تكالبه على التهام ما بقى من دولة الإسلام فى الأندلس[٩٢]. فتساقطت فى يده معاقل غرناطة الواحد بعد الآخر بدءا بالحامة سنة ٨٨٧هـ (١٤٨٢م) وحصنا قرطبة وذكوين وعدة حصون أخرى فى الشمال الغربى من مالقة سنة ٨٩٠هـ (١٤٨٥م)، وتمكن العدو من عزل مدينة رندة لم تلبث ان سقطت بدورها فى جمادى الأولى من نفس العام ٨٩٠هـ، وبسقوطها انهارت المقاومة فى المنطقة الغربية من مملكة غرناطة ففى سنة ٨٩١هـ (١٤٨٦م) استولى العدو على لوشة كما انتهز فرناندو الرابع احتدام الصراع بين الزغل وابن أخيه ابى عبد الله سنة ٨٩٢هـ (١٤٨٦م) فهاجم مدينة بلش مالقة (Velez Malage) واستولى عليها. ولما كان الملكان الكاثوليكيان قد عقدا معاهدة مع ابى عبد الله محمد، تكفل بمقتضاها لهما ببذل الطاعة والتبعية فقد آثرا عندئذ مهاجمة القواعد الشرقية والجنوبية التى كان يحكمها الزغل الذى كان مسيطرا على وادى آش واعمالها، ولم تلبث المدن الخاضعة له ان تساقطت فى ايدى العدو الواحدة بعد الأخرى الى ان سقطت وادى آش آخر معاقله فى أوائل صفر سنة ٨٩٥هـ (١٤٨٩م) بعد ان أدرك الزغل عدم جدوى[٩٣]. المقاومة. وهكذا لم يتبق أمام الملكين الكاثوليكيين سوى غرناطة، الصفحة الأخيرة التى كان عليهما ان يطوياها طى الكتاب ليختتما بذلك ثمانية قرون استغرقتها حركة الإسترداد المسيحى التى بدأت منذ الفتح الإسلامى للأندلس. وفى سنة ٨٩٥هـ أرسل الملكان الكاثوليكيان الى السلطان ابى عبد الله محمد يطلبان منه تسليم مدينة الحمراء وقصور صاحبت مقر السلطان والحكم، وسمحوا له بأن يقيم فى غرناطة تحت طاعتهما وحمايتهما. وأبدى السلطان الغرناطى رفضه لهذا الطلب واضطر الى القتال، ولكن انتصاراته الهزيلة فى أندرش وشلوبانية لم تفت فى عضد الملكين الكاثوليكيين اللذين حطا بقواتهما بكل عدتها وعتادها على مدينة غرناطة، واضطر سلطان غرناطة فى نهاية الأمر الى

التسليم بعد ان عقد مع الملكين الكاثوليكيين معاهدة أقسما باحترامها دون أى تغيير فى بنودها، ولكنهما لم يحترما هذا القسم كما أثبتت الأيام وأكد التاريخ(٩٤).

وقبل ان نختتم هذه الفترة التاريخية نود ان نشير الى فارسين من أشهر قادة فرسان بنى سراج، بخلاف يوسف بن سراج وابن عبد البر بن سراج. هذان الفارسان تعرفنا عليهما من خلال النقوش المحفورة على شاهدى قبريهما. أما النقش الأول فهو محفور على شاهد قبر للفارس «ابى اسحق ابن الشيخ الوزير الجليل المعظم أبى عبد الله بن السرّاج» المتوفى فى ١٣ محرم سنة ٧٦٦هـ (١٣٦٤م)، وكان قائدا من أفضل القواد بمدينة رندة. ويذكر اميليو غرثية جومث أن هذا الشاهد، عثر عليه ليڤى بروفنسال، وكان لايعدو مجموعة من القطع الرخامية المفتتة، لم تتح لليڤى بروفنسال ان يتمكن من قراءة النقش الجنائزى لتناثر القطع، ثم آلت هذه القطع الى دون بيدرودى الپا فأرسلها بدوره الى احد قادة الجيش بالجزائر الذى اعطاها لسكرتيره العربى فقرأها له ونص النقش المحفور على الشاهد كل يلى:

«بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله. هذا قبر الشيخ القائد الوزير الجليل، المجاهد، الأمضى، الأسعد، الأصعد، الأحفل الأفضل، الأكمل، المعظم، الموقر، ذى الهمم الأبية والشيم الزكية المترقى بمكارمه وحسن مذاهبه الى الرتب السنية، المقدّس المرحوم أبى اسحق بن الشيخ الوزير، الجليل، المعظم، الماجد، الحسيب، الأصيل، الأحفل الأفضل، المبرور، المرحوم ابى عبد اله بن السرّاج (قدّس الله روحه وبرد ضريحه). كان رحمه الله صدرا من صدور القواد، مستعدا للجهاد بارتباط الجياد. لم يزل على ذلك ان قبضه الله اليه، واختار له مالديه بمدينة رندة (حرسها الله) قائدا على قصبتها مثاغرا لحوزتها بتاريخ الثالث عشر لمحّرم، من عام ستة وستين وسبعماية. ونقل الى الحضرة العلية غرناطة، يحرسها الله تعالى منشأ قراره وأصل داره فدفن بهذه الجبانة من خارجها (تلقاه الله

بالتحية والرضوان وجدد عليه الرحمة بتجدد الأحيان، وكل من عليها فان فسبحان وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل محمد وصحبه وسلم تسليما كثيرا﴾(٩٥).

ونستنتج من هذا النقش بعض الحقائق، منها ان بنى سراج لم يتولوا الوزارة للملوك بني الأحمر بداية من عهد الأيسر فحسب، بل ان منهم من كان يتولى منصب الوزارة قبل عهد الأيسر، فمن هذا النقش نكتشف وجود وزيرين أولهما الأب ابى عبد الله بن السراج، وثانيهما الابن ابى اسحق بن ابى عبد الله بن السراج، واذا كان الإبن أبو اسحق قد توفى سنة ٧٦٦ هـ (١٣٦٤م) فنفترض انه تولى الوزارة في عهد احد ثلاثة سلاطين من بنى الأحمر، إما السلطان أبو عبد الله محمد بن ابى الوليد اسماعيل الذى تولى (٧٢٥ - ٧٣٣هـ) او أخوه السلطان ابو الحجاج يوسف بن ابى الوليد اسماعيل (٧٣٣ - ٧٥٥هـ) او السلطان محمد الخامس (٧٥٥ - ٧٦٠) او اسماعيل الثانى سنة ٧٦٠هـ او فى الإمارة الثانية لمحمد الخامس (٧٦٢ - ٧٤٩هـ). أما والده الوزير ابو عبد الله بن السراج فنرجح انه كان وزيرا لأحد سلاطين بنى الأحمر فى الفترة من ٦٥٠ هـ - ٧٠٠هـ، ونرجح ان يكون ذلك فى عهد محمد الفقيه الثانى (٦٧٢ - ٧٠١هـ/ ١٢٧٣ - ١٣٠١م) وان لم تكن المصادر قد اوردت اى اشارة لبنى سراج كوزراء فى هذه الفترة. أما النقش الثانى الذى درسه ليفى بروفنسال فى مجموعته تحت رقم ١٨٠ فيتعلق بقائد من بنى سراج هو ابو جعفر احمد بن عبد الله بن السراج المتوفى فى سقطة لجواد فى ٢ شوال سنة ٨٠٦هـ (١٤ افريل ١٤٠٤م). وقد ظهر هذا النقش فى مجموعة دون ماريانو الونسو فى غرناطة، وبفضل وثيقة محفوظة من مكتبة فرانشكو كوديرة التى تحتويها اليوم مكتبة ميجيل آسين استطاع اميليوغرثية جومث اعطاء مقاسات شاهد القبر كما تتبع اللوحة الجنزية(٩٦).

بنو سراج بعد سقوط غرناطة:

بعد رحيل السلطان ابى عبد الله محمد من غرناطة الى بلاد المغرب، رحل معه عدد كبير من المسلمين في حين آثر السواد الأعظم عدم مبارحة غرناطة مصدقين الوعود الزائفة التى سجلها الملكان الكاثوليكيان في بنود المعاهدة التى وقعاها مع السلطان المخلوع ابى عبد الله واثقين بأنهما لن ينكثا بقسمهما وتعهدهما بتنفيذه، الا ان التعصب الأعمى والكراهية الشديدة للإسلام دفعتهما الى النكث بعهودهما والعمل على القضاء على الإسلام فى اسبانيا قضاء مبرما وفى سبيل تحقيق ذلك الهدف اصطنع الإسبان سياسة التنكيل بالعناصر المسلمة واضطهادها ودفعها الى التنصر(٩٧)، بحيث عرفوا بالموريسكيين أو متنصرة المسلمين.

وما دمنا بصدد الحديث عن فترة ما بعد سقوط غرناطة، فمن الواضح ان تاريخ الموريسكيين فى اسبانيا قد مر بثلاثة مراحل أساسية:

أ- **مرحلة الملكين الكاثوليكيين**، وهى التى حاول الأندلسيون خلالها مواجهة الإضطهاد الذى تعرضوا له وتمسكوا بتنفيذ معاهدة التسليم التى تحفظ لهم حقوقهم، وكان معظم الإضطهاد موجها اليهم من قبل رئيس الكنيسة الإسبانية الكاردينال خيمينث دى سيسنيروس (Jimenez De Cisneros Francisco) الذى أرغم اكثر من خمسين ألفا من المسلمين على التنصر سنة ٩٠٤ هـ / ٩٠٥ هـ (١٤٩٩م) كما أمر بالقبض على كبار فقهاء المسلمين والزج بهم فى غياهب السجون. وفى سنة ٩٠٥ هـ (١٤٩٩م) أصدر أمره بأن يسلم الموريسكيون كل مالديهم من مخطوطات عربية ومصاحف واحراقها فى ساحة المدينة العامة عند باب الرملة، ويقدر بعض المؤرخين هذه المؤلفات التى أحرقت بثمانين الفا فى حين يبالغ البعض فى عددها فيقدرونها بمليون وخمسة آلاف كتاب، كما أجبر الرجال من سكان ربض البيازين الذى تحول مسجدهم الجامع الى كنيسة سان سلفادور على الزواج من مسيحيات كما أجبرت الفتيات المسلمات على الزواج من اسبان

مسيحيين بهدف القضاء النهائى على الإسلام، وكانت هذه الإجراءات السبب الرئيسى وراء انتفاضة أهالى البيازين سنة ٩٠٥ هـ (١٤٩٩م) ثم ثورة سكان البشرات Alpujarras الأولى سنة ٩٠٦هـ (١٥٠٠/١٥٠١م) وقد انتهت كلتا الثورتين بالفشل أمام سياسة القمع والإرهاب التى اتبعها[٩٨] الإسبان.

ب- مرحلة الملكين شارل الخامس وفيليب الثانى: وتتميز باستمرار اصدار القرارات التى تستهدف ادماج الموريسكيين فى المجتمع الإسبانى عن طريق ارغامهم على التنصر بكل الوسائل الوحشية.

جـ- مرحلة الملك فيليب الثالث: وهى المرحلة الأخيرة من تاريخ الموريسكيين التى انتهت باصدار قرار الطرد النهائى لباقى الموريسكيين من الأندلس[٩٩]. وفى هذه المراحل الثلاثة قامت البقية الباقية من بنى سراج فى الأندلس ممن أثروا البقاء فى بلدهم ولم ينزحوا فى جملة من نزح منهم الى تونس او المغرب بدور كبير، لاسيما فى المرحلة الثانية التى تواكب عصر الملك فيليب الثانى (١٥٢٧ – ١٥٩٨م) وهو العصر الذى تجدد فيه سنة ٩٧٥ هـ (١٥٦٧م) القانون القديم الصادر فى عهد الإمبراطور شارل الخامس سنة ٩٣٣ هـ (١٥٢٦م) ضد الموريكسيين ويقضى بتحريم اللغة والثياب الإسلامية، وكان ذلك القانون بمثابة الضربة الأخيرة التى وجهت للغة الموريسكيين وتقاليدهم العربية، اذ كان يعطى للموريسكيين الفرصة لتعلم اللغة القشتالية خلال ثلاث سنوات، لايسمح بعدها لأحد ان يتكلم او يكتب او يخاطب أحدا باللغة العربية كما منع هذا القانون النساء الموريسكيات من التحجب، وأرغمهن على ارتداء المعاطف والقبعات كما حرم انشاد الأغانى القومية او اقامة حفلات الزمر (الرقص العربى) أو الطرب بآلات عربية او استخدام العادات والتقاليد الموريسكية وتحريم الخضاب بالحناء واستخدام الحمامات للإستحمام واستعمال الأسماء والألقاب[١٠٠]. العربية. وللأسف لم تسعفنا المصادر العربية المعاصرة لتلك الأحداث بأى تفاصيل عن ذلك، وكل ما وصلنا عن هذه الإجراءات القهرية يعتمد على ما زودتنا به الروايات الإسبانية

«المسيحية» التى اوردت مايشير الى انه بخلاف موريسكى بلنسية الذى كان يتزعمهم كوزمى بن عامر المقرب من البلاط، لم يتمكن احد من الموريسكيين من الإفلات من تنفيذ هذا القانون[١٠١]. وفى غرناطة بلغ اليأس بالموريسكيين أشده فاتفقوا فيما بينهم على الثورة دفاعا عن الذات قبل ان تنقطع بينهم وبين ماضيهم كل الصلات.

ولتصوير هذه الأوضاع اعتمد الاستاذ **محمد عبد الله عنان على مارمول** Marmol فى كتابه Historia de la rebliÓn y castiogo de los moriscos en el reino de Granada كما اعتمد الدكتور **محمد عبده حتاملة** على أهم المصادر الإسبانية المعاصرة كما اعتمد على كتاب لمؤلف موريسكى مجهول بالإسبانية، حول الثورة الموريسكية وتهجير الموريسكيين وآثار ذلك التهجير فى جميع أنحاء شبه الجزيرة الإيبيرية Historia del Alzamiento de los Moriscos. Su EspulsiÓn de España y sus consecuencias en todas las provisiones del Reino فزودنا بمادة علمية وفيرة عن رد فعل الموريسكيين فى عام ١٥٦٧م أمام هذا القانون الجائر. أما الدكتور **عبد الله جمال الدين** فقد اعتمد عند تأريخه لهذه الحقبة على بيريث دى هيتا وروايته الحروب الأهلية فى غرناطة.

ويذكر **الدكتور محمد عبده حتاملة** انه قبيل نهاية شهر ديسمبر من عام ١٥٦٧م (٩٧٥هـ) وهو الموعد المحدد لكى نتخلى فيه الموريسكيات عن ألبستهن الحريرية[١٠٢]، وازيائهن الإسلامية وبالزام الأطفال الموريسكيين بتعليم اللغة الإسبانية والدين المسيحى بدلا من اللغة العربية والإسلام، وبمنع المسلمين من استخدام الحمامات، هرعت وفود موريسكية الى الرئيس ديسا[١٠٣]، يتقدمهم اسبانى كان يتمتع بنوع من التقدير فى الأوساط الموريسكية هو خوان انريكيث، وبصحبته اثنان من كبار الموريسكيين هما خوان فرناندث من اعيان غرناطة، وفرناندو الحبقى من أعيان وادى آش، محاولين تعطيل تطبيق القانون الجديد، ولكن كل جهودهم باءت بالفشل أمام مقابلة ديسا المهينة لهم، بل ان ديسا كتب تقريرا

مفصلا يوحى فيه بتطبيق القانون الجديد بكل عنف وقسوة. فلما استبد اليأس بالموريسكيين ظهر من بينهم شاب كان يعمل صباغا يدعى فرج بن فرج من أسرة بني سراج، أشرف بيوتات غرناطة، ساءه ان يعامل الموريسكيون بمثل هذه القسوة، وعز عليه ان يرغم قومه على التخلى عن تقاليدهم الموروثة بكل وسائل القهر فاتصل بمن استطاع من الموريسكيين في غرناطة عام ١٥٦٨م (٩٧٦هـ)(١٠٤). وكان فرج بن فرج بحكم تردده في معظم الأحيان على أنحاء البشرات وثيق الصلة بأهلها فاتفق معهم على ان تقوم قوة كبيرة منهم بالزحف الى غرناطة لمفاجأة الحامية الإسبانية وسحقها.

ولما كانت الحرب خدعة فقد رأى ابن فرج ان يرسل ثلاثة من اكثر الموريسكيين أمانة وثقة ليبلغوا اخوانهم خارج غرناطة بنيتهم، كما تقدموا بطلب الى الحكومة الإسبانية يذكرون فيه ان غايتهم جمع الأموال لبناء مستشفى خارج غرناطة للمرضى الفقراء واللقطاء المسيحيين تمويها على الإسبان، وبهذه الحجة تمكن الموريسكيون الثلاثة من الحصول على ترخيص الحكومة الإسبانية، فخرجوا والتقوا باخوانهم وأبلغوهم ان يتخذوا مراكز لهم على السواحل التى يمكن ان تنزل اليها التعزيزات الإسلامية، لاسيما من المغاربة والعثمانيين الأتراك، ثم عادوا لغرناطة لتنظيم صفوفهم والإعداد لتنفيذ مخططهم واتفقوا فيما بينهم على تحديد يوم الخميس المقدس الموافق ليوم ١٤ افريل ١٥٦٨م وهو احد اعياد المسيحيين الذى يتواجدون فيه فى الكنيسة موعدا لاشعال نار الثورة. ولكن الخيانة لعبت دورا كبيرا عندما أقدم بعض عملاء الحكومة الإسبانية ببيع مصلحة دينهم ووطنهم فأبلغوا السلطات بتفاصيل الخطة، وانتهى الأمر بالقبض على عدد من وجهاء الموريسكيين مما ترتب عليه التوقف عن تنفيذها وتأجيل ذلك الى فرصة آخرى مواتية، وتوجه فريق منهم الى المحقق دون بيدرو ديسا يعلنون ولاءهم فى الظاهر، وهم فى داخلهم ينتظرون اليوم الذى ينتقمون فيه لأنفسهم وكرامتهم وعرضهم.

واتفق بعض رؤسائهم على الإجتماع في بيت بائع شمع مسلم يدعى عدل (Adelet) وقرروا ان تبدأ الثورة في اليوم الأول من شهر جانفى عام ١٥٦٩م (٩٧٧هـ) وابلغوا الموريسكيين في بقية أنحاء غرناطة بالاستعداد لحمل السلاح، فتجند مايقرب من ثمانية ألاف شخص، وتم الإتفاق على ان تقوم الثورة في ثلاثة مواقع في البيازين في وقت واحد، يحمل الموريسكيون فيها اعلاما يفترض ان يقوم كل حاملى علم بمهمة محددة. فحاملوا العلم الاصفر يحتلون ساحة باب البنود، وحاملو العلم الأحمر يحتلون باب فجالونا، وبعده يتجهون من باب سرى في اتجاه المستشفى الملكى ثم يسيطرون على محكمة التفتيش ليخلصوا المسلمين المعتقلين هناك، أما حاملو العلم الأزرق فكانت مهمتهم تقتضى البحث عن الرئيس ديسا لقتله على ان تلتقى الفرق الثلاثة في ساحة باب الرملة حيث يمكنهم بمساعدة المتطوعين الذين يبلغ عددهم ثمانية آلاف الدفاع عن المدينة(١٠٥).

وفى هذه الأثناء خرج جماعة من حراس غرناطة الى قرية بقيرة ومعهم خمسون جنديا اسبانيا، لقضاء عيد الميلاد، فهاجمتهم جماعات الموريسكيين الثوار؛ وفى اليوم المحدد بعث على باشا والى الجزائر العثمانى امتدادات الى الموريسكيين نزلت على سواحل المرية ومربلة ثم توجهت الى الأماكن المحددة لها. ولكن هذه الثورة لم يتح لها ان تنفذ كما خطط لها اذ هطلت ثلوج غزيرة على جبل شلير (Sierra Navada) فانسدت الطرق الى غرناطة ولم يتمكن ثوار البشرات والمتطوعون من الوصول في الموعد المحدد. ويرجع سبب ذلك الى ان فرج بن فرج بن سراج لم يحسب حسابا للبرد والثلج بل انه توجه على رأس مائتى مقاتل من الموريسكيين من بينوس (pinos) وثنيس (Cenes) الى اسوار غرناطة وأخبر أهالى البشرات ان اهل البيازين سينضمون الى الثورة، واعلن اهل البيازين ان ثمانية آلاف مسلم من لكرين (Lecrin) سينضمون اليهم، وتقدم فرج بن فرج بمن معه الى أسوار غرناطة وهم يكبرون ويهتفون بعبارة «لاإله إلاالله، الله أكبر، الله أكبر» ولكن اهل البيازين لما رأوا قلة المهاجمين اغلقوا عليهم أبوابهم مما أغضب الثوار، كما ان

الأهالي والمتطوعين القادمين من المغرب لم يلحقوا بهم فباءت خطتهم بالفشل، واضطروا الى الإعتصام بالجبال المغطاة بالثلوج حماية لأنفسهم من بطش السلطات الإسبانية بهم، وبهذا تراجع فرج بن فرج حتى وصل الى البشرات(١٠٦) . ومع ذلك فإن اليأس لم يتسرب الى قلوب الموريسكيين الذين عادوا للاجتماع من حديد لمتابعة الجهاد، في معركة الحياة او الموت، معركة المصير، واعلنوا استقلالهم وبدأوا يفكرون في اختيار زعيم لهم بخلاف فرج بن سراج، فقد كانوا يسعون الى اختيار زعيم يكون رمزا لملكهم القديم تتوفر فيه روح الشجاعة والاقدام وينتسب في ذات الوقت الى احدى البيوتات الحاكمة للأندلس في العصور الماضية، فوقع اختيارهم على شاب من اهل البيازين يدعى دون فرناندودى ڤالور وفي بعض الأحيان دى سمردويا او قرطبة، وكان هذا الإسم الإسباني المسيحي يخفي وراءه حقيقة هذا الزعيم الجديد، فدى ڤالور كان يرجع بجذوره الى بني أمية، اى كان سليل خلفاء قرطبة، وكان اسمه الحقيقي الذى أعلنه عندما قام بالثورة هو محمد ابن أمية(١٠٧) .

وكان لابن أمية مهابة كبيرة في نفوس الموريسكيين والإسبان على السواء، فقد كان قد اختير المستشار الرابع والعشرين لبلدية غرناطة، ولكن بالرغم من ذلك كان موضع شك وريبة من قبل السلطات الاسبانية لاسيما في الفترة التي سبقت الثورة حتى أنهم اودعوه السجن. وظل ابن أمية في السجن حتى قام فرج بن فرج بن سراج بثورته المعروفة في ليلة ٢٤ ديسمبر ١٥٦٨م، فتمكن من تخليصه مع خادمه من سجنه، فانطلق ابن أمية الى أقاربه في برذنار (وادى لكرين) (Béznar) حيث أجمعوا على مبايعته ونادوا به ملكا في ٢٧ ديسمبر ١٥٦٨ ، وأقرته مناطق عديدة حددها الدكتور **محمد عبده حتاملة** في كتابه(١٠٨)، ويذكر مارمول (Marmol) ان محمد بن أمية كان في العشرين من عمره يمتاز بوسامته ونبل طلعته، واحتفل الموريسكيون بتنصيبه وتتويجه في ٢٩ ديسمبر ١٥٦٨م احتفالا متواضعا حيث فرشوا الأرض بالأعلام الإسلامية ذات الأهلة فصلى عليها ابن أمية متجها صوب

مكة وقبّل اتباعه الأرض امامه رمزا للخضوع والطاعة، وأقسم الأمير ابن أمية ان يموت فى سبيل دينه وأمته[١٠٩].

ويذكر د. حتاملة نقلا عن المؤلف الموريسكى المجهول ان اختيار الموريسكيين لمحمد ابن امية وتنصيبهم له اميرا عليهم أصاب فرج بن فرج بن سراج بالإستياء لأنه كان يعتبر نفسه أكثر خبرة فى مجال الحرب والقتال، فضلا عن أنه كان أول من دعا الموريسكيين لمحاربة الإسبان، وأنه من أسرة بنى سراج العريقة، ولكن ابن أمية رأى ان يكسبه ويأتلفه ويتخذه حليفا فاختاره كبيرا للوزراء Alguacil Mayor) وهى أعلى رتبة عرفها الموريسكيون[١١٠].

وفى ٣١ ديسمبر ١٥٦٨ سار فرج بن فرج على رأس خمسمائة فارس موريسكى فى محاولة لايقاظ رُوح الثورة فى جميع أنحاء مملكة غرناطة من سواحل بيرة (Vera جنوب قرطاجنة) الى جبل طارق وانضم اليه العديد من الموريسكيين وهم يهتفون بالعبارات الاسلامية ويكبرون فأحرقوا الكثير من الكنائس التى كانت يوما مامساجد لهم ونكلوا بالعديد من القساوسة الذين طالما ذبحوا المسلمين وعذبوهم. وأساء ابن فرج التصرف فقد أقدم على الفتك بعدد كبير من النساء والأطفال والشيوخ مما أثار استياء ابن أمية وغضبه فعزله عن قيادة الجيش[١١١]. وعين بدلا منه عمه ابن جوهر. وأثارت هجمات ابن فرج الشرسة وانضمام الموريسكيين فى ثورتهم تحت راية ابن أمية الرعب فى نفوس سكان غرناطة ونواحيها. ويذكر د. عبد الله جمال الدين أن الثورة الموريسكية قد تميزت بملحمين أساسيين أولهما الرئيسى وهو الطابع الدينى الذى سبق ان ذكرناه من قبل ثم طابع الرغبة فى احياء كل مظاهر الثقافة الإسلامية ومن مظاهر احياء الطابع الدينى، قتل وتعذيب المسيحيين الذين كانوا فى الأصل من المسلمين ثم تنصروا قسرا، وتحطيم الكنائس وما فيها من صور وتماثيل مرتبطة بالعبادة المسيحية أما عن مظاهر احياء الثقافة والهوية الإسلامية فتمثلت فى احياء رسالة المسجد واقامة الشعائر الإسلامية بكل فخر واعتزاز لاسيما فى منطقة أو جيخر والعودة الى استخدام الزى والعادات الإسلامية[١١٢].

ولكن بعزل ابن امية لفرج بن سراج يختفى ذكره عن مسرح الأحداث، وتنتهى بذلك سيرة بنى سراج فى تاريخ الأندلس بينما تمضى ثورة ابن أمية ما بين الجهاد والخيانة الى ان انتهت كل جهود الموريسكيين بالفشل. واذا كانت ثورات الموريسكيين قد انتهت فى القرن السادس عشر إلا انهم استمروا يمارسون الاسلام فى اسبانيا خلال القرن ١٧، بل والثامن عشر كله، ويؤكد ذلك تاريخ محاكم التفتيش التى ارتبطت ارتباطا وثيقا بسياسة تعذيب المسلمين والتمثيل بهم[١١٣]. ولم تكن حياة الموريسكيين الدينية رغم ماكانوا يتعرضون له من تعذيب تختلف فى جوهرها عن الحياة الدينية للشعوب الإسلامية او لغيرهم من الشعوب التى كانت او مازالت تدين بالإسلام[١١٤]. فقد استمر الموريسكيون يعتزون بالهوية الإسلامية، ولدينا قصيدة رومانثية عنوانها «العربية المخدوعة» حيث تقول الفتاة الموريسكية:

أنا عـــربيـــة عـــروب
عـــربيـــة من نسل ابن قطر
مـــسيـــحى جـــاء لبـــابى
جـــاء يبـــغى لى الخطر
حـــدثت بلغـــتى الحـــبيـــبـــة
كـــأنه من أهل طيـــبـــة
افتحى الباب ياعربية...[١١٥].

وقبل ان نختتم حديثنا عن تاريخ بنى سراج تجدر الإشارة الى ان كثيرا من المؤرخين تشككوا أصلا فى وجود بنى سراج لكثرة الأساطير التى احيطت بهم وقلة الآثار الدالة عليهم فى نفس الوقت[١١٦]. فاعتبروهم ضربا من الوهم والخيال. غير ان النصوص التاريخية التى اعتمدنا عليها فى دراستنا تؤكد الدور الكبير الذى قاموا به بالاضافة الى الشواهد الأثرية وتتمثل فى النقوش الجنائزية التى تسجل وفاة بعضهم وآثار قصر منسوب إليهم: ففى حدود عام ١٩٦٥م، وقع زلزال بجنوب اسبانيا، اثر على المناطق الواقعة بجوار السور الرئيسى لقصر الحمراء بين باب

العجلات وبرج الرؤوس (Las Cabezas)، وقد كشف هذا الزلزال عن وجود آثار عديدة لقصر بنى سراج حيث انه حتى نهاية القرن الثامن عشر، لم يكن ظاهرا منه الا بضعة جدران غير كاملة، وهذه الاثار رغم قلتها تؤكد فى حد ذاتها وجود هذه الأسرة كحقيقة تاريخية[١١٧]. وقد أشار مانويل جومث مورينو (Manuel Gomez Moreno) الى هبة قدمها الملكان الكاثوليكيان الى دون خوان شاكون Juan Don ChacÓn سيد قرطاجنة، تتمثل فى دار لبنى سراج[١١٨].

ويؤكد كل من الأثريين Maria Olmeda و Jesus Pareja على ان هذا ينهض دليلا قاطعا على ان بعض بنى سراج كانوا يعيشون فى قصور الحمراء، وأنهم كانوا يؤدون وظائف سامية ويمارسون أعباء إدارية هامة فى السنوات الأخيرة من حكم السلطان ابى عبد الله محمد. وربما يكون قصر سراج قد انتقل الى ملكية احد القضاة فى غرناطة فى العصور التالية لسقوط غرناطة فالأب (Juan De Echeverria) يشير الى نقش كان مسجلا فى القرن الثامن عشر على الباب الخارجى للبناء، يؤكد ان هذا القصر الذى كان يملكه بنو سراج هو قصر القاضى كما أنه وجد اشارة بين الوثائق تؤكد ذلك[١١٩].

ونستنتج من وجود آثار لهذا القصر أنه كان لايختلف فى بنيانه وفى زخارفه عن قصور بنى نصر، وأنه كان مزودا بصحن داخلى وواجهة حافلة بالزخارف، ولا نستبعد انه يتوسط فناءه بركة صناعية وانه كان يشتمل على مرافق متعددة تضمن اسطبلات ومخازن. وهناك وثيقة مؤرخة بتاريخ مارس سنة ١٥٠٢م، تصف قصر دون خوان شاكون أو قصر بنى سراج، ورد فيها ذكر عدد من البرك، ومطبخ وبيوت صغير ممايعبر عن ان قصر بنى سراج كان كبير المساحة وأنه كان يشتمل على ملحقات كثيرة. أما الواجهة فكانت تزدان من أعلى بنقش يمثل كفا مبسوطا ومفتاحا على غرار نظيره على باب الشريعة فى مدخل قصر الحمراء، ويبدو ان الثراء الزاخر فى البوابة يجعل من هذا القصر صورة مصغرة من قصور الحمراء[١٢٠].

اما وثائق الحمراء فى القرن ١٦م فتسمى قصر بنى سراج (بيت الحاسب) وهذا يدل على ان هذا القصر تحول الى شخص آخر بمعنى انه لم يعد يعيش فيه دون خوان شاكون وانما دون ردريجو داڤالوس (Don Rodrigo Davalos) الحاسب الخاص لكونت دى تنديللا (Conde de Tendilla)(١٢١). وفى سنة ١٥٤٥م طالب ميجيل دى شاكون بحقه فى ملكية هذا القصر باعتباره وريثا لدون خلوان شاكون(١٢٢). وسنورد فى البحث وثيقة تتضمن قضية آثارها دون ميجيل دى شاكون ضد الحاسب، المالك الجديد للقصر وآخرين حول قصر بنى سراج.

ثانياً- بنو سراج فى الأسطورة والقصص الشعبى:

نكبة بنى سراج والأساطير التى دارت حولها:

تعرضنا فى سياق حديثنا عن «بنى سراج» فى المصادر التاريخية عن علاقتهم بسلاطين غرناطة وأوضحنا كيف انهم كانوا يحركون خيوط الأحداث السياسية خاصة منذ عصر السلطان الأيسر. وقد تعرضنا فى دراستنا لشرح موقف بنى سراج من السلطان أبى عبد الله (الصغير) او الزغير الذى اغتصب العرش من السلطان الأيسر مما تسبب فى هرب هذا الأخير الى تونس فى حين آثر بنو سراج البقاء فى الأندلس للسعى فى تقويض دعائم حكم السلطان الزغير، واعادة الأيسر الى عرشه المغتصب، وقد شرحنا كيف هرب الوزير يوسف بن سراج الى ملك قشتالة واستنصر به لاعادة الأيسر، وكيف تكللت جهوده فى نهاية الأمر بالنجاح، فاسترد الأيسر العرش السلطانى بعد ان تخلص من الزغير. ولانشك فى ان الزغير، كان طوال فترة حكمه يستشعر الخطر من قبل بنى سراج فكان يطاردهم. وتمكن من النيل من بعض أفرادهم ففر بقية أفراد الأسرة الى اشبيلية التماسا للنجاة من مكائد الزغير. ويذكر الأمير شكيب أرسلان بأن هذه الأحداث السياسية التى عاشتها أسرة بنى سراج زمن الأيسر وابى عبد الله الزغير، كانت مجالا خصبا لبعض الأغانى الشعبية، فقد أشارت بعض الأغانى المتعلقة بفتح قلعة الحامة(١٢٣). الى واقعة مقتل افراد من

بنى سراج زمن الزغير[١٢٤]. فى حين تذكر **راشيل آرييه** ان قصيدة «آه من حامتى» الرومانسية الخاصة بموضوع بنى سراج قد ألفت بمناسبة سقوط الحامة فى أيدى القوات القشتالية بقيادة مركيز قادس وهى القوات التى انضمت اليها أجناد اشبيلية ونجحت فى النهاية فى الإستيلاء على مدينة الحامة الصغيرة الواقعة على جانب من الحادة التى تربط غرناطة بمالقة، واستؤنفت بعدها حركة الريكونكيستا وهى الحرب التى انتهت بسقوط غرناطة خلال عشرة سنوات. وتبدأ القصيدة الرمانسية باعلان نكبة الحامة التى استشعرها أهل غرناطة بعمق، وذلك بذكر الدور الأول منها فى المقطع الذى تندب فيه سقوط الحامة «آه من حامتى» والتى تتردد مرات، وهو مقطع يلوم فيه عالم غرناطى ملتحى بلحية شيباء سلطان غرناطة بعنف لأخطائه، وينسب اليه تبعة سقوط الحامة بسبب اصداره الأمر بقتل أفراد من أسرة بنى سراج الذين كانوا الزهرة اليانعة فى طبقة المحاربين النبلاء بمملكة غرناطة[١٢٥]. ويذكر **لويس سيكودى لوثينا** ان هذه القصيدة من حيث تكوينها الموزون ومن حيث الموضوع الذى تدور حوله لايمكن ان تكون سوى من أداء مسلم أندلسى، وربما صيغت فى نهاية القرن الخامس عشر او الثلث الأولى من القرن السادس عشر، وان السلطان الذى تدور حوله هو السلطان ابو الحسن على، ونحن نتفق مع دى لوثينا وآرييه فى هذا الرأى لأنه يتفق مع المنطق والتاريخ فالحامة قد سقطت فى زمن ابى الحسن على ولايعقل ان تؤلف قصيدة «آه من حامتى» التى ورد فيها ذكر بنى سراج تخليدا لذكراهم بعد مقتلهم زمن الزغير، كما يذكر الأمير شكيب ارسلان، وانما الأقرب الى المنطق ان تكون القصيدة المعاصرة لأبى الحسن على تشير الى نكبة بى سراج فى عصره، خاصة وان الأحداث التاريخية تؤكد ذلك، وكنا قد ذكرنا فى الصفحات السابقة مايؤكد ذلك وأوضحنا كيف ان بنى سراج ساعدوا الأميرة عائشة الحرة على الفرار من ولديها من اضطهاد زوجها السلطان أبى الحسن على لهم، بتحريض من زوجته الجديدة «ثريا» أو ايزابيل دى سوليس، وقد أوضحت آنذاك ان السلطان أبا الحسن على لم يغفر لبنى سراج أبدا

مساعدتهم لعائشة الحرة، وتأييدهم لولده الأكبر ابى عبد الله محمد فى معركته ضده، فانتقم منهم شر انتقام. ويؤكد رأينا هذا العبارات التى وردت فى القصيدة، فنحن نطالع هذه العبارة عدة مرات «قتلت بني سراج الذين كانوا زهرة غرناطة (Mataste los Bencerrajes que eran la flor de Granada). كما توجد اشارات على وفاء بنى سراج للسلطانة عائشة ولوالدها الراحل لذلك فقد نكبهم السلطان أبو الحسن وقتل عددا كبيرا منهم أما من نجا منهم فقد لجأوا الى قشتالة ونزلوا بأسرة دوق مدينة شذونة (Medina Sidonia) ببعض المدن القشتالية المجاورة للحدود(١٢٦). وكانت هذه الأحداث موضوعا للروايات والأساطير الشعبية التى حرفت الحقيقة التاريخية فخلطت بين السبب الحقيقى الذى دفع أبا الحسن على الى الإنتقال من بنى سراج وهو سبب سياسى كما ذكرنا فجعلت وراء هذه النكبة التى حلت بهذه الأسرة العريقة قصة عاطفية رقيقة. تقول الاسطورة او الرواية التى وردت فى الأغانى الإسبانية والتى أشار اليها الوزير محمد بن عبد الوهاب الغسانى سفير ملك المغرب الى ملك اسبانيا فى أواخر القرن السابع عشر فى رحلته نقلا عن التواريخ(١٢٧). الإسبانية، ان عميد هذه الأسرة، محمد بن سراج الذى كان من أبرز الفرسان وأشهرهم فى غرناطة فى زمنه، هام بحب اميرة من الأسرة المالكة اسمها «الفاهمة» مما أثار عليه غضب السلطان فى ذلك الوقت، فقرر سحق الأسرة كلها، فدبر مؤامرة لقتلهم. وكانت خطته تقضى بأن يدعو أكابرهم لحضور حفل فى القاعة المواجهة لبهو السباع بقصر الحمراء، وكلما يدخل واحد من أفراد اسرة بنى سراج بادره حراس السلطان بالقتل ذبحا على حافة الحوض الرخامى الذى يتوسط هذه القاعة حتى قتل جلة فرسان هذه الأسرة التى فقدت من جراء هذه المؤامرة خيرة أنجادها وسميت هذه القاعة منذ ذلك الحين باسم «قاعة بنى سراج» وتقول الأسطورة أنه ماتزال توجد آثار بقع دامية داكنة فى قاع الحوض الذى سالت فيه دماء بنى سراج وأنها لن تمحى قط، وتضيف الأسطورة على ذلك بأنه لاتزال تسمع فى تلك القاعة فى بعض الليالى أنات وقرقعة سلاح، وان كثيرا من حراس

قصر الحمراء لمحوا جنودا مسلمين فى ألبستهم العربية يقطعون بهو السباع جيئة وذهابا[١٢٨]. ويرفض **الأمير شكيب ارسلان** هذه الروايات الاسطورية ويربط بين هذه الأسطورة وبين قصة العباسة مع جعفر البرمكى وما أدت اليه من نكبة هارون الرشيد للبرامكة[١٢٩]. أما **واشنطن ايرڤيينج** فقد ذكر فيما يتعلق بهذه الأسطورة ان السلطان أبى عبد الله محمد آخر سلاطين غرناطة، كان السلطان المقصود من أسطورة مصرع بنى سراج، وقد ناقش هذه الرواية الشعبية وذكر أنها مجرد حكاية خرافية وأنه اذا كان علينا أن نتقبل بعض جوانب من هذه الروايات، فان الأقرب الى الحقيقة التاريخية ان يكون السلطان أبو الحسن على هو المشار اليه وليس ولده ابو عبد الله لأن بنى سراج كانوا يناصرون الإبن على أبيه كما أشار الى لدور بنى بنيغش فى نكبة بنى سراج[١٣٠].

رواية «ابن سراج»:

كتبت رواية «ابن سراج» بعد سقوط غرناطة بحوالى سبعين عاما أى بعد ان كانت قضية الصراع الدينى قد حسمت لصالح المسيحيين[١٣١]. وهى ترجمة أرغونية مجهولة المؤلف لأقصوصة عنوانها «جزء من تاريخ ولى العهد الشهير دون فرناندو (١٥٥٠ - ١٥٦٠م)» ومهداه الى بارون باربولس خيرونيمو أمبون (Barboles Jeronimo Jiménez Embun) وهو اقطاعى عرف بدفاعه المتواصل عن الموريسكيين أمام سلطة محاكم التفتيش، وقد ظهرت هذه الرواية قبل انتفاضة البشرات الأخيرة التى قادها فرج بن فرج ابن سراج فى البداية ثم تبعه فى ذلك محمد بن أمية، أى قبل تلك الفترة القاسية التى عاشها الموريسكيون فى اسبانيا[١٣٢]. ويذهب لوبث استرادا فى طبعته النقدية لهذه الرواية الى القول بأنه بعد سقوط غرناطة اشتد الصراع بين المطالبين بطرد الموريسكيين من اسبانيا، والراغبين فى بقائهم. ويبدو أن الفريق الثانى الداعى الى بقائهما[١٣٣]. أوحى الى الأدباء بإظهار الموريسكيين فى صورة مثالية. وكان من المنطق ان يؤثر هذا الموقف على الفريق المتشدد ليخفف من تعصبه ولكنه تسبب فى مزيد من التشدد وفى تشويه صورة الموريسكى الذى اعتبروه عدوا لدودا[١٣٤].

وأبرز عملين أدبيين فى المرحلة المعاصرة لسقوط غرناطة هما رواية «ابن سراج» التى تمثل التيار المعتدل تجاه الإسلام، والثانية رواية بيريث دى هيتا «الحروب الأهلية فى غرناطة Guerras civiles De Grananda» وهذه الرواية الأخيرة تجمع بين الإعتدال والتعصب ضد الإسلام، وسنتناولها بالتحليل فى الصفحات التالية.

أما رواية «ابن سراج» التى تحمل بين طياتها تعاطفا مع بطلها الشريف المسلم ابن درايث Abin darraéz وهو اخر ذرارى هذه الأسرة الباقين فى اسبانيا، فتروى ان هذا الشريف من بنى سراج، بينما كان يمضى فى طريقه للقاء محبوبته شريفة الجميلة(١٣٥)، اعترض طريقه فرسان مسيحيون مسلحون فاشتبك معهم ابن سراج، وقتل ثلاثة منهم بينما فر الرابع طالبا النجدة من القائد، الذى لم يتردد فى نصرته، وتقدم لمطاردة ابن سراج ومبارزته وينجح فى التغلب عليه اذ كان قد أصيب بجراح أثناء المعركة، فتوجه ابن سراج للقائد المسيحى قائلا له انه لم ينتصر عليه لتفوقه فى القتال والفروسية وانما لأن الله أراد ان يحول بينه وبين محبوبته، ثم أخذ ابن سراج يقص على القائد المسيحى قصة حبه لشريفة، وانه كان فى الطريق اليها وتذكر الرواية ان القائد الإسبانى تعاطف مع ابن سراج فأطلق سراحه لمدة ثلاثة أيام يعود بعدها اليه، وينصرف ابن سراج ليلتقى بمحبوبته ويتزوجها ويعود بعد ثلاثة أيام ومعه زوجته الى ذل الأسر، ويدهش القائد من وفاء الشريف المسلم بوعده، فيطلق سراحه بلا فدية، ويتوجه الزوجان الى بلدهما ويرسلان الى القائد الإسبانى هدية عبارة عن مجموعة أسلحة وجياد وعملات ذهبية، وتشير الرواية الى ان القائد المسيحى قبل الجياد والسلاح بينما رد اليهما العملات الذهبية شاكرا، معلنا قيام صداقة بينه وبين ابن سراج المسلم دامت مدى الحياة، كما أرسل القائد المسيحى رسالة الى سلطان غرناطة يعبر فيها عن حسن ظنه بابن سراج. ومن الجدير بالذكر ان المؤلف المجهول لرواية ابن درايث من بنى سراج يتحدث بلسان بطله مادحا أسرة بنى سراج المشهورة فيقول (انا من بنى سراج الغرناطيين الذين سمعت كثيرا عنهم. لقد كان

بغرناطة أسرة من الفرسان يسمونهم بنو سراج كانوا زهرة هذه المملكة لأنهم بلطف أشخاصهم ومظهرهم وقوتهم كانوا يعلمون الأخرين هذه المزايا ولم يكن بينهم ابدا اى خائن أو جبان».

وابن درايث بن سراج بذلك يرسم صورة بنى سراج باعتبارهم فرسانا ببلاط غرناطة، ثم يروى بعد ذلك ان سلطان غرناطة كان يظن بسبب الدسائس والوشايات ان بنى سراج كانوا يرغبون فى القضاء عليه وتقسيم ملكه وعندئذ امر بقتل اثنين منهم ثم اتبعهم بعشرة فى ليلة واحدة كذلك نلاحظ ان تمجيد بنى سراج فى هذه الرواية يتمثل فى عبارة «بنو سراج الذين كانوا زهرة غرناطة» وهى نفس العبارة التى وردت فى القصيدة الرومانسية «آه يا حامتى»(١٣٦). والرواية كما نرى فيها اشادة بكرم المسيحى وسمو أخلاقه، وفيها أيضا مدح لوفاء المسلم لعهده ورده الجميل لمن أحسن اليه(١٣٧).

وتطرح الدكتورة **لوثى لوباث بارالت** سؤالا يعبر عن مدى تعجبها من وجود أدب مناصر للعرب فى اسبانيا فى هذه المرحلة التاريخية العصيبة بالنسبة للموريسكيين والتى أسمتها بعصر «محاكم التفتيش» وتذكر ان الموقف المعتدل للمسلمين من خلال رواية «ابن سراج» والتعاطف المسيحى نحوه لحبه الصادق لشريفة المسلمة يعد لغزا من الألغاز المطروحة فى الأدب الإسبانى، اذ انه من التناقض ان يمجد الأدب الإسبانى صورة المسلم ويبرزه فى أحسن مظهر واعمق جوهر فى الوقت الذى كان فيه الموريسكى يمنع المسلم من هويته الثقافية وينكل ويمثل به ويحرق حيا(١٣٨). وقد ساهم عدد من المتخصصين فى الرد على هذا التساؤل ومن أبرز هذه الآراء رأى الناقد الإسبانى مرثيلينو **مننداث اى بلايو** (Marcelino M. Pelayo) الذى فسر هذا التناقض بأنه صورة من الصور التى تبرز الصراع التقليدى بين الأدب والتاريخ(١٣٩)، فى حين اكتفى الناقد الفرنسى **چورج سيرو** (Georges Cirot) بابداء الدهشة تجاه الهوة التى تفصل بين الأدب المناصر للعرب والتاريخ المعاصر له(١٤٠). أما **كلاوديو جيين** (Claudio Guillen) فقد كان أكثر دقة فيما

سجله من آراء في مقاله الشهير «الأدب كتناقض تاريخي - ابن سراج رواية موريسكية» فقد اعتبر هذا الأدب أقرب الى الواقع منه الى الخيال اذهو وصف ضمني لمدى البؤس الذى كان شائعا في ذلك العصر، ويعتقد ان رواية «ابن سراج» هذه ماهي إلاتعبير عن الرغبة من التعايش السلمي والإبتعاد عن الحروب الدينية والنزاعات العرقية(١٤١)، وتوافقه في هذا الرأى الباحثة **ماريا سوليداد كراسكو**(١٤٢).

وقبل ان نختتم الحديث عن هذه الرواية أود أن أذكر بدورى رأيا فيما يتعلق بهذه القصة «قصة ابن سراج» التي كتبت عقب سقوط غرناطة بحوالى سبعين عاما عندما كان الموريسكيون وهم في صميم محنتهم يتعرضون لأقصى انواع التعذيب والبطش والتنكيل، **وفي تصورى** ان الصورة الطيبة للمسلم التي عبر عنها كاتب هذه الرواية ربما كانت نوعا من **الإسقاط النفسى**، وكأن الإسبانى المسيحى يريد ان يرى نفسه بعيدا عن كراهيته وتعصبه، يريد ان يشعر ذاته بأنه أولا وأخيرا انسان، يسعى الى دفع الظلم واقامة العدل حتى ولو كان هذا السلوك الإنسانى العادل على الورق فحسب وفى الروايات والقصص بمعنى ان هذا الموقف المعتدل تجاه الإسلام ربما كان رد فعل لضمير الإنسان الإسبانى ازاء المسلم المضطهد أو مجرد صحوة للضمير المسيحى الدينى فى نفسه فالمسيحية دين السلام، تكره العنف وترفض سفك الدماء. وقد يكون نوعا من التعمية لايهام الأجيال المقبلة بالحرص على التسامح وتطبيق العدالة وهو فى الواقع قناع زائف يخفى الوجه القبيح للحكم الإسبانى فى ذلك العصر، ورغبة من الكاتب فى تجميل صورة الواقع المسخ أمام التاريخ، وفى نفس الوقت لاأتفق مع كلاوديو جيين وماريا كراسكو فى ان الغرض من التعاطف مع المسلم فى هذه الرواية تم بدافع الرغبة فى التعايش السلمى، واستشهد بما ذكره كل من المؤرخ الإسبانى **انطونيو دومينقيز هورتز والفرنسى برنارد بننشت** فى كتابهما «الموريسكيون حياة ومأساة أقلية تحت عنوان نهاية زمن التعايش السلمى» كان المسلم والنصرانى يتعايشان منذ زمن طويل فى اسبانيا، وكان كل واحد منهما سيدا على ارضه ويتعامل مع الأخر المثل بالمثل. ولكن منذ الثانى

من جانفى عام ١٤٩٢م، وهو تاريخ دخول الملكين الكاثوليكيين غرناطة، أصبح المسلم فى أى مكان من اسبانيا مهزوما، وان كان الظاهر من الناحية القانونية مازال يتمتع بنفس حقوق المواطنة، لكنه فى الحياة الواقعية العامة بدأ ضغط وقهر المنتصرين يشتد يوما بعد يوم حتى وصل الى التفكير بانهاء وجود الأقلية. أما النصوص القانونية التى عكست بتسامحها ميراث المعايشة السلمية والإحترام المتبادل فقد انتهكت يوما بعد يوم...»(١٤٣).

لقد عبر هذان المؤرخان برأيهما فى قصة «ابن سراج والحسناء شريفة» ونظرة التعاطف التى وردت فى ثناياه تجاه المسلمين بقولهما «ان التفاهم والتعاطف نحو العالم الموريسكى كان ميراثا لأقلية مثقفة جدا ومحدودة العدد... يجب ان نتوقف عن استخراج نتائج مبالغ فيها من هذه الظاهرة الأدبية، فبين المسلمين المقدمين بصورة مثالية فى العصور الوسطى وبين الموريسكيين المطاردين فى القرن السادس عشر يوجد تلك الهوة التى تفصل بين المثالية الخالصة وبين الحقيقة الصماء (الوضع الإجتماعى) السيء، ان فراى لويس دى ليون احد كبار الرهبان له انتاج أدبى هام كما يعتبر من أهم رجال التصوف المسيحى الذى مدح المسلم، كان يحس بعداوة ليس لها حدود نحو الموريسكيين كما أوضح ذلك أزورين... ان محاولات الدفاع التى اظهرتهابعض المدن فى صالح الموريسكيين ولتجنب طردهم كان سببها الخوف من الأضرار الإقتصادية التى سيعانون منها أكثر من كونه مدفوعا بمشاعر من الخير... واذا استثنينا بعض الحالات الخاصة جدا فان مشاعر الكراهية والمقت كانت عامة، وفى القرى مختلطة السكان فإن الوشاية والإستهزاء والنكات السخيفة كانت جزءا من الحياة اليومية...»(١٤٤). ولسنا بصدد التعمق فى دراسات أدبية، وكل ما نريد استخلاصه من رواية ابن سراج تاريخيا هو **الحقائق التاريخية التالية:**

١- تدلنا الرواية بالدليل القاطع على اخلاص بنى سراج لدينهم وتمسكهم بعقيدتهم بعد سقوط غرناطة بدليل ما ورد فى هذه القصة الشعبية عن الفارس

المسلم «ابن سراج» مما يؤكد عظمة هذه الأسرة واحتفاظها بهويتها الإسلامية بعكس أسرة بينغش مثلا Los Venegas التى ارتدت عن الاسلام بعد سقوط غرناطة وتأتى الأحداث التاريخية التالية مؤيدة لما ورد فى هذه الرواية الشعبية ففى عام ١٥٦٨/١٥٦٧م هب الموريسكيون فى غرناطة والبشرات فى ثورج عارمة تزعمها احد أبناء هذه الأسرة الشريفة وهو فرج بن سراج كما سبق ان ذكرنا، غيرة على دينه ووطنه وهويته.

٢- تؤكد الرواية على حقيقة تاريخية أخرى وهى بقاء جزء كبير من أسرة بنى سراج فى الأندلس بعد سقوط غرناطة بدليل اقامة ابن سراج بطل هذه الرواية بالقرب من غرناطة وزواجه من شريفة الفتاة المسلمة وعودته معها الى بلدهما بعد ان عفا عنهما القائد المسيحى، وهذه الرواية تنفى بذلك فكرة رحيل بنى سراج بأجمعهم الى تونس او المغرب وهذا يتناقض مع ماذكرته راشيل آربيه(*). ويؤكد رأيى هذا قيام فرج من بنى سراج بثورته فى القرن ١٦م.

٣- يؤكد اختيار كاتب هذه الرواية لأحد أفراد بنى سراج بطلا لروايته ورمزا للوفاء بالعهد والحفاظ على شرف الكلمة ورد الإحسان لصاحبه، دون اى شاب آخر من الأسرات الموريسكية التى تبعث فى اسبانيا بعد سقوط غرناطة على علو مكانة بنى سراج ورفعة شأنهم واحترامهم بين الناس مسلمين كانوا أم مسيحيين.

كتاب «الحروب الأهلية فى غرناطة» : Guerras Civiles De Granada :

ومؤلف هذا الكتاب هو خينيث بيريث دى هيتا (Gines Perez De Hita)، صدر كتابه فى القرن السادس عشر الميلادى. وبيريث دى هيتا اسبانى. وتذكر (Paula Balnchard-Demouge)(١٤٥)، انها لاتعرف على وجه التحديد مكان مولده الحقيقى ولكنها ترجح أنه ولد فى مرسية لوجود وثائق تعميد باسم شخص يدعى (Ginez Perez) فى نفس الفترة الزمنية التى عاش فيها مؤلفنا فى كنيسة

سان ميجيل دى مولا، ولم تحدد الوثيقة يوم مولده أو أسماء الآباء الذين قاموا بتعميده ولااسم والديه. وبعد سلسلة من التساؤلات، ترجح باولا بلانشار أن خينيث بيريس دى هيتا ولد فى مرسية سنة ١٥٤٤م[١٤٦].

وكانت تربط دى هيتا صلات شخصية ببعض ذرارى أسرات موريسكية كانت تقيم فى ذلك الحين فى منازل أجدادهم، رووا له التاريخ الإسلامى وعرّفوه على تقاليدهم مع الإهتمام بذكر النتائج السيئة لهزيمة بنى نصر[١٤٧]. ويزعم دى هيتا أنه عثر على كتاب لمؤلف عربى يدعى ابن أمين، فيه مزيج من الوقائع التاريخية المحرفة وكثير من القصص الخرافية، وأنه قام بترجمته الى اللغة الإسبانية[١٤٨]. وتعلق باولا بلانشار (Paula Blanchard) فى معرض حديثها عن أهم المصادر التى استقى منها دى هيتا De Hita مادة كتابه بأنه لم يرجع الى المؤرخ المسلم ابن أمين وحده وانما رجع الى شخص آخر اسمنه أبن آحطين (Aben Ahatin)، وهى ترجح أنه هو نفسه ابن الخطيب[١٤٩]. ويعلق البعض على هذا الزعم بأن دى هيتا يهدف بذلك اضفاء الواقعية على كتابته، وان هذا الإدعاء ليس سوى حيلة طالما استخدمها الكتاب الإسبان حتى يكتبوا مايريدونه عن الإسلام والمسلمين دون حرج بحجة ان المصدر الذى استقى منه مادته مسلما[١٥٠]. وكتاب بيريث دى هيتا أو روايته عن حروب غرناطة يتضمن موضوعات شتى عن تأسيس مدينة غرناطة وعن ملوكها المسلمين كما يفصل فى ذكر حوادث غرناطة الأخيرة ومعاركها الأهلية وبلاطها، وما كان يقع فيه من دسائس ومؤامرات. وفى نطاق ذلك يرد ذكر بنى سراج كثيرا خاصة عند حديثه عن الإحتفالات التى كانت تقام بغرناطة فى عصر بنى نصر، فقد كان فرسان غرناطة وعلى رأسهم بنو سراج يلتمسون اعجاب السيدات فكانوا يخرجون كأبطال اسطوريين مزينين ليحظوا باعجاب النساء وتصفيقهن لهم. وكانت تلك الإحتفالات تعقد عند باب الرملة من أبواب غرناطة[١٥١]. كذلك ورد ذكرهم عند حديثه عن اضطراب الظروف السياسية فى المملكة وعن صراعاتهم مع بنى الثغرى وغيرهم من أنجاد غرناطة.

ويذكر دى هيتا ان الثغريين (Zegris) هو اسم محرف من ثغرى أى المقيم على الحدود للجهاد(١٥٢). وتعلق (Rachel Arié) على ما أورده دى هيتا فى هذا الصدد بقولها «يتصور بيريث ديب هيتا قيام خصومة حقيقة بين بنى سراج الذى وصفهم وصفا رائعا كفرسان خيّرين وبين الثغريين، الإسم المحرف من ثغرى اى المقيم على الحدود للجهاد. ومعنى ذلك ان الأجناد الثغرية الإفريقية التى كانت فى خدمة سلاطين غرناطة قد توقفوا عن أداء دور سياسى فى غرناطة فى الثلث الأخير من القرن ١٤م، ولم تستطع على الإطلاق الدخول فى نزاع مع أسرة بنى سراج التى ظهر نفوذها منذ عام ١٤١٩ ...»(١٥٣). وقد اهتم دى هيتا بإبراز أهم مراحل وأدوار هذا الصراع المرير، وكان الجزء الأول من روايته قد ظهر فى سرقسطة سنة ١٥٩٥م بعنوان «تاريخ الثغريين وبنى سراج فرسان غرناطة المسلمين» Historia de (los vados de Zegriés y Aben cerrajes Caballeros moros de Granada ثم طبع القسم الثانى سنة ١٦١٩م ولم يكن لهذا القسم علاقة كبيرة بالقسم الأول(١٥٤). ومن مظاهر هذا الصراع كما ورد فى كتاب دى هيتا ما أشار اليه من قيام قتال بين الثغريين (الذين وصفهم دى هيتا بأنهم فرسان شجعان ولكنهم يتسمون بالغيرة والحقد) وبين بنى سراج، ويقول دى هيتا فى هذا الإطار:

«ونجح أحد فرسان بنى سراج من طعن أحد الثغريين وحضر عشرون من بنى الثغرى الذين أمسكوا بالأسلحة فهب بنو سراج للدفاع عن أنفسهم، وانضم الى الثغريين بعض الفرسان من حلفائهم وكان عددهم نحو عشرين رجلا، وكانت حصلية المعركة ان مات خمسة من الثغريين وخمسة من حلفائهم أما بنو سراج فلم يقتل منهم أحد فى حين جرح حوالى عشرة وقد قطع ذراع أحدهم...»(١٥٥).

ويروى بيريث دى هيتا فى كتابه أن السلطان أبا عبد الله محمد (بوعّابديل) هو الذى نكب بنى سراج بعد ان صّور له الثغريون اعداء بنى سراج بأنهم يدبرون مؤامرة للإطاحة بعرشه، لذلك انتقم ابو عبد الله من أقوى وأبرز شخصية من هذه

الأسرة، وهى شخصية ابن حامد (Aben Hamet). ويستطرد دى هيتا ذاكرا ان ابا عبد الله تحايل على استقدام بنى سراج فى كمين نصبه لهم فى بهو السباع، وكان أول ضحايا هذا الكمين هو ابن حامد، قتل فى بيلة ضخمة من الرخام en un ataza alabastro muy grande واعقب ذلك مقتل ستة وثلاثين من بنى سراج فى نفس البهو، قتلهم رجال كلفهم السلطان بذلك. ويؤكد بيريث دى هيتا ان السلطان ابا عبد الله أصدر بعد ذلك مرسوما بنفى بنى سراج الذين نبذوا الإسلام واعتنقوا المسيحية فور التجائهم الى قشتالة(١٥٦). ونلاحظ هنا تأثر بيريث دى هيتا الى حد كبير بما ورد فى قصيدة «آه يا حامتى» خاصة عندما وردت عبارة «بنى سراج هم زهرة غرناطة» كذلك نلاحظ ان بيريث دى هيتا قد جانبه الصواب عندما اعتبر ان قاتل بنى سراج هو ابو عبد الله محمد، فقد خلط بين هذا السلطان وبين أبيه مولاى أبى الحسن(١٥٧)، ولاشك إن واشنطن ايرفيينج قد اعتمد على رواية دى هيتا الخاطئة كما سبق أن ذكرنا فقد اعتبر مثله ان أبا عبد الله هو المتسبب فى نكبة بنى سراج وعلى هذا الأساس فنحن لانوافق دى هيتا فيما يتعلق بتنصر بنى سراج وقد أوضحنا فى النقطة السابقة رأينا مفصلا فيما يتعلق بهذا الموضوع.

وتتساءل راشيل آريبه عن السبب الذى دعا بيريث دى هيتا الى اختيار قاعة تحمل اسم بنى سراج حتى اليوم لتكون مسرحا لمذبحة بنى سراج المشهورة؟؟ وتجيب قائلة «مما لاشك فيه انه كان على دراية بما كان يجرى فى هذه القاعة الرائعة من وقائع مأساوية مشابهة لنكبة بنى سراج طوال عصر بنى الأحمر»(١٥٨). وهى فى نفس الوقت تتشكك فى واقعية ما أورده دى هيتا بشأن الصراع الدامى بين الثغريين وبنى سراج وتقول «لو ان بنى سراج كان لهم خصوم فانهم على الأقل سيتركزون فيمن عرفوا باسم (Les Venegas) وهى أسرة من البلاط النصرى ونتساءل لماذا اختار بيريث دى هيتا الثغريين ليكونوا خصوما لبنى سراج مع أنهم (أى الثغريين) لم يرد ذكرهم كثيرا فى المصادر العربية والقشتالية...»(١٥٩).

وعلى أية حال فإن ما رواه دى هيتا يعبر عن مدى ماكان لبنى سراج من عظمة ومكانة بحيث انهم سيطروا وتفوقوا على كل الأسرات الغرناطية الكبيرة فى ذلك العصر. ويختلف الباحثون حول تقييم رواية بيريث دى هيتا وانقسموا الى فريقين، أما الفريق الأول فيرى أن رواية «الحروب الأهلية فى غرناطة» ليست سوى نموذجا يعبر عن روح التعصب الإسبانية ضد الموريسكيين، فدى هيتا عندما أوجز تاريخ ملوك غرناطة المسلمين ذكر أنهم كلهم ماتوا على أيدى مسلمين مثلهم، اما بالسم أو بالقتل او بالخيانة، المسلم كما صوره دى هيتا فى بعض المواضع من روايته انسان يحب المال وطبيعته الغدر[١٦٠]، كذلك أبرز بعض الصفات السلبية عند المسلمين فهو يصور المسلمات فى أبشع صورة، فلم يكن يشغلهن فى رأيه سوى الحب والخيانة، فإذا كانت فاطمة على حد قول دى هيتا تحب موسى فإن موسى دراجة، ودراجة تحب ابن عمار[١٦١] ...الخ. كما ان المسلمين قد عرفوا بالجبن فإذا تعرض فارس مسلم يسير مع اخته لهجوم بعض المسيحيين بقصد التهجم عليها فإنه يتركها لهم ويفر هاربا[١٦٢]. ويرى دى هيتا ان المسلمين اذا كانوا قد وصلوا الى هذا المستوى الأخلاقى المتدنى، فإن دينهم هو وحده المسؤول عن ذلك.

ويعلق أنصار هذا الفريق بأن بيريث دى هيتا بذلك التعصب ضد المسلمين قد مهد الطريق لتتحول روايته الى أدب تبشيرى فهو عندما يشير الى مثالب المسلمين ويعدد من محاسن المسيحيين يؤكد على أن هذا انما هو رأى المؤرخ المسلم ابن أمين نفسه. ويؤكد د. **جمال عبد الرحمن** ان دى هيتا عندما تعرض لذكر ثورة الموريسكيين بعد سقوط غرناطة فى ايدى الملكين الكاثوليكيين، قد أشار الى أن الأحداث قد رواها له قائد مسيحى، ويعترف بأنه شاهد بعض هذه الوقائع بنفسه ثم يزداد تهجمه على المسلمين لدرجة انه يبتعد عن لغة الأدب الرفيع، كما أنه حاول ان يفرق بين العقيدة الاسلامية والهوية الإسبانية، فالإسبانى فى رأى دى هيتا يجب ان يكون مسيحيا ويذكر فى روايته ان مسلما تحدى اسبانيا وكأن المسلم ليس

اسبانيا(١٦٣)، ويذكر مثالا آخر اورده دى هيتا عن شاعر مسلم من جاليرا يناجى بلدته فى قصيدة شعرية قائلا: حماك الله من الاسبان الذين يريدون ان يغزوك، ويشير دى هيتا الى ان الشاعر قد ذكر فى القصيدة ان أجداده غرباء عن اسبانيا التى حكموها قرابة ألف عام(١٦٤)، وفى نهاية روايته يصف دى هيتا المسلمين بأنهم يتصفون بالغدر والخيانة(١٦٥).

أما الفريق الثانى ويضم الدكتورة **لوثى لوباث بارالت والدكتورة راشيل آريبه والباحثة الشهيرة ماريا سوليداد كراسكو**، فيرون أن بيريث دى هيتا قد نحّى التعصب والتحيز لبنى جلدته جانبا فأخذ يناصر بنى سراج ويمجد صورتهم وهم من المسلمين، فأبرزهم فى أحسن مظهر وأفخم لباس وأجمل سلاح كما فصّل فى وصف اخلاقياتهم وفروسيتهم النبيلة(١٦٦).

واختتم دراستى لرواية «دى هيتـا» **بتعليق شخصى** على تلك الرواية وعلى مؤلفها فالمؤلف يخلط فى دراسته مجموعة من القصص الخرافية التى تتداخل فيها اسماء عربية أعتقد ان جزءا كبيرا منها مختلفا مع بعض الوقائع التاريخية المحرفة، أما دى هيتا نفسه فقد صور الفرسان المسلمين فى غرناطة بأنهم لاهم لهم إلا الحب والمنافسة على المحبوبات الى حد الصراع الدامى وحتى نكبة بنى سراج التى ذكر أنها حدثت فى عهد السلطان الأخير ابى عبد الله محمد، فقد اختلق لها دى هيتا سببا عاطفيا وهو حب السلطانة غير الشرعى لإبن حامد من بنى سراج(١٦٧).

لقد حاول دى هيتا تصوير المجتمع الإسلامى فى غرناطة بأنه كان مجتمعا خاويا زائفا يعيش أفراده فى حب وسعادة ومتعة وهو بذلك قد جرّد هذا المجتمع من مقوماته الحقيقية، وحتى عندما أسرف فى وصف محاسن بنى سراج ونسبهم نسبا طيبا، فقد ذكر فيما بين سطور كتابه كما سبق أن ذكرت، ان بنى سراج قد ارتّدوا عن الإسلام وتنصروا بعد نكبتهم، وهذا الرأى سبق لى أن ناقشته فى الصفحات الماضية وأثبت عدم صحته وقد أورد دى هيتا فيما بعد أمثلة عديدة تشير الى تنصر

بنى سراج وميلهم للنصارى فقد ذكر ان بنى سراج كانوا يعطون الصدقات للمسيحيين فلما تعرضوا للمساءلة من أقرانهم المسلمين رد فارس من بنى سراج قائلا «نعم نفعل فى حب الله ونعطى الصدقة للمحتاج سواء كان مسلما او مسيحيا...» ثم أعقب دى هيتا هذا الرد بعبارة يقول ان ابن سراج ذكرها «لأن المسيحيين أيضا يعطون الصدقات لفقراء المسلمين...»(١٦٨). فدى هيتا عندما حاول اظهار موضوعيته وحياديته وتعاطفه مع بعض الفرسان المسلمين، اختار بنى سراج، وهو بذلك يكون قد ربط بين مثاليتهم وبين تنصرهم وارتدادهم عن الإسلام، وذلك بلاشك يحمل التعصب الشديد المقنع ضد الإسلام والمسلمين، لذلك فنحن نميل الى الأخذ برأى الفريق الأول فيما يتعلق بنقد تلك الرواية الإسبانية.

قصة «آخر بنى سراج» للفيكونت دوشاتوبريان:

تحول بنو سراج فرسان غرناطة وأشهر انجادها بفضل الروايتين السابقتين «ابن سراج» و «حروب أهلية» الى مايشبه الأسطورة، وأصبحوا مصدر إلهام ووحى لكثير من الكتابات الغربية الأوروبية منذ القرن السادس عشر الى حد أننا نجد تاريخ ابن درايث من بنى سراج مسجلا فى أشعار الرومانسيرو الموريسكى دى تيمونيدا (De Timoneda) وكذلك لوكاس رودريجث (Lucas Rodrigues) ثم اصطنعه لوبى دى بيجا (Lope De Vega) فى قصيدته El Remedio en la desdicha. لقد حظيت رواية بيريث دى هيتا على وجه الخصوص بنجاح عظيم فى اسبانيا فكان لها مايقرب من تسع وثلاثين طبعة مجددة حتى نهاية القرن السابع عشر حتى بعد ان آثارت رواية «دون كيشوت» التى ألفها ثرفانتس (Cervantes) السخرية من روايات الفروسية. وفى منتصف القرن الثامن عشر مثلت على المسرح الإسباني قصة غير معروفة المؤلف عنوانها «موت بنى سراج والشريفة المفضوحة». كما تابع الإيطالى جيرو لامو جراتزيانى عن قرب رواية بيريث دى هيتا المتعلقة بمصرع بنى سراج فنظم قصيدة ملحمية عنوانها فتح غرناطة (il conquisto di Granada) وفى

فرنسا ايضا انتشرت اسطورة بنى سراج واشتهرت كذلك قصة ابن درايث وشريفة المسلمة بين رجال الأدب منذ طليعة القرن ١٧م بفضل الترجمة الفرنسية لديانا دى منتميور (Diana De Montemayor). وفي سنة ١٦٨٣م ترجمت رواية بيريث دى هيتا للمرة الثانية على يد الآنسة (De la Roche Guilhen)، كما اتخذ الأدب الفرنسي في صالون مدام دى رمبويه (Madame De Rambouillet) من التقاليد الرفيعة التى عالجها دى هيتا بغرناطة الإسلامية انموذجا. وتسمّى فانسان فواتير (Vincent Voiture) الذى كان شديد الإعجاب بالرومانثيرو المرسى باسم الملك الصغير (el Rey chiquito) كما زعم الشاعر اسحق دى سراد أنه احد أبناء اسرة بنى سراج.

وصدرت فى عام ١٦٦٠م أول رواية مستوحاة من الأندلس فى فرنسا. وفى سنة ١٦٧٠م صدرت رواية أخرى على نُسق رواية دى هيتا اسمها «فتوح الإسبان لغرناطة» لجون ديدن (John Dyden)، وطبعت سنة ١٦٧٢م وفيها نشهد الصراع طويل الأمد بين بنى سراج والثغريين. وفى ختام هذه الجولة الطويلة نشهد فى بداية القرن ١٩ رواية عن مأساة بنى سراج سجلها الكاتب الفرنسى الشهير الفيكونت شاتو بريان، وقد ظهرت روايته هذه فى سنة ١٨٢٦م ونجد ان وقائعها تدور بعد سقوط غرناطة بثلاثين سنة تقريبا(١٦٩). وبطل قصة شاتو بريان هو الفارس «ابن حامد» من بنى السراج وهو ابن الفارس السراجى «ابن حامد» (على حد قول شاتو بريان) الذى اتهمه بنو الثغرى بعشق السلطانة وهو ماتسبب فى نكبة بنى سراج كما ورد فى رواية دى هيتا. وكان البطل ابن حامد يبلغ من العمر اثنين وعشرين عاما عندما قرر الرحيل من تونس (حيث يشير شاتو بريان أن بنى سراج قد استقروا بها) الى اسبانيا لزيارة بلاد اجداده فأبحر من تونس حتى وصل قرطاجنة الأندلس، ومن هناك توجه الى غرناطة وهناك فى غرناطة التقى ابن حامد، بفتاة اسبانية حسناء، اسمها أدماء، هام بها حبا وسمعها ذات يوم تغنى زجلا قشتاليا فى تاريخ

بنى سراج وبنى الثغرى[١٧٠]. ويذكر شاتوبريان فى قصته أن ابن حامد قد اكتشف ان حبيبته الإسبانية هى من سلالة آل بيغار الذين ينحدر منهم السيد القنبيطور بطل رواية الشاعر كورنايل فاتح بلنسية[١٧١].

وقد تنزه الحبيبان فى قصر الحمراء، وكان ذلك مجالا لأن يصف شاتو بريان هذا القصر ويذكر شاتو بريان أن ابن حامد بن سراج قد عزم على التزوج بحبيبته ادماء ولكنها اشترطت عليه ترك الاسلام فرفض، وهنا نؤكد مرة أخرى أن الروايات والقصص الشعبية اثبتت الى جانب الوقائع التاريخية تمسك بنى سراج باسلامهم بخلاف ما أورده دى هيتا عن تنصرهم. واذا عدنا الى أحداث رواية شاتوبريان نجد ان كتابا يصل الى ابن حامد من تونس يعلمه بأن والدته على شفا الموت، فودع ابن حامد محبوبته وعاد لرؤية والدته. وبعد فترة يرجع ابن حامد للأندلس وفى ذلك الوقت كان الفارس الإسبانى الدون كارلوس شقيق ادماء محبوبة ابن سراج، يصر على تزويجها من الفارس الفرنسى الشهير لوترك، ولكن أدماء صممت على الارتباط بحبيبها ابن حامد شرط ان يتنصر. ولما عرف ابن حامد ان أدماء هى من سلالة السيد عدو اجداده، وعرف دون كارلوس أن ابن سراج هو آخر بنى سراج، عدل ابن حامد عن فكرة زواج أدماء، ورحل عائدا الى افريقية وانقطع خبره فى حين بقيت أدماء بدون زواج متيمة بحبيبها العربى هائمة فى أكثر الأحيان فى جبال مالقة تنظر الى البحر الذى كان يأتى منه.

وينهى شاتوبريان قصته بتصوير مقبرة آخر فارس من بنى سراج فى تونس بقوله «عند خروجك من تونس من الباب المؤدى الى أطلال قرطاجنة تجد مقبرة وتجد فى زاوية تلك المقبرة شجرة نخل تحتها ضريح قد أرشدت اليه يقال له هناك قبر آخر بنى سراج، ليس فيه شئ يستحق الوصف سوى ان فى وسط حجر الضريح الأملس نقرة صغيرة محفورة حسب عادة مدافن المسلمين...

وقد أورد بعض أبيات شعرية منها:

اقـــصـــر ســـراج لاعـــزاء لمغـــرم ولاقـــصـــر عن دمع وان كـــان من دم
امن كل عـــام لاتزال مـــروعـــا بـفـــــذ نعى تارة او بـتـــــوأم
مـــضى أهلك الأخـــيـــار إلا أقلهم وبادوا كـــمـــا بادت أوائل جـــرهـم

ومنها:

فكل له قـــبـــر غـــريب ببلدة فـمن منجد نائى الضريح وقتهم
قـــبـــور بأطراف البـــلاد كـــأنما مـــواقـــعـــهـــا منهـــا مـــواقع أنجم
بتـونس الخـضـراء قـبـر ابن حـامـد بعيدا عن الباكين فى كل مأتم(١٧٢)

الحواشي

(١) الأمير محمد الأيسر: هو محمد بن الأمير يوسف الثالث بن الأمير يوسف الثاني. وقد تولى الأيسر حكم مملكة غرناطة عدة مرات، وتخللت فترة حكمه ثورات وفتن أما المرة الأولى فتمتد من عام ٨٢٠هـ (١٤١٧م) عندما ثار عليه محمد الزغير أو الصغير، فاضطر الأمير الى الفرار الى تونس. واحتمى بسلطانها الحفصى ابى فارس. وما لبث الأيسر أن استرد ملكه مرة أخرى، وتمكن من هزيمة الزغفر، واستعاد عرشه بمؤازرة خوان الثانى ملك قشتالة سنه ٨٤٣هـ (١٤٣٠م). وحكم الأيسر ثانية من آخر عام ٨٣٣هـ (١٤٢٩م) الى عام ٨٣٥هـ وفى هذه السنة ثار عليه الأمير يوسف بن المول الذى نجح بمعاونة القشتاليين من انتزاع عرش غرناطة فانتحى الأيسر الى مالقة التى ظلت على ولائها له، ولم يلبث يوسف بن المول أن توفى وعندئذ استعاد الأيسر سلطنة غرناطة مرة ثانية واستمر سلطانا منذ سنة ٨٣٦هـ (١٤٣٢م) الى سنة ٨٤٥هـ (١٤٤١م) التى خلع فيها وتولى بعده محمد الاحنف بن نصر بن محمد الخامس. وفى عام ٨٥٢هـ (١٤٤٨م) عاد محمد الأيسر الى الحكم للمرة الرابعة. (لمزيد من التفاصيل ارجع الى نبذة العصر فى انقضاء دولة بنى نصر لمؤلف مجهول، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، دمشق، ١٩٨٤، ص٤٦ حاشية ٦ - محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، القاهرة ١٩٦٦، ص١٥٥ وما يليها - أحمد محمد محمود الطوخى، مظاهر الحضارة فى مملكة غرناطة، رسالة دكتوراة، الإسكندرية ١٩٧٨، ص ١٦ - يوسف شكرى فرحات، غرناطة فى ظل بنى الأحمر، بيروت، ١٩٨٢، ص٥٣، ٥٤ - وانظر عبد العزيز الأهوانى، «سفارة سياسية من غرناطة الى القاهرة فى القرن التاسع الهجرى سنة ٨٤٤هـ»، فى مجلة كلية الاداب، المجلد السادس عشر، الجزء الأول، مايو، ١٩٥٤، القاهرة

١٩٥٤، ص ١١٣ وما يليها: Luis Seco De Lucena, Las campanas de
.Castilla contra Granada en el ano 1431, pp. 79-120)

(٢) الحميرى، الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق د. احسان عباس، بيروت ١٩٧٤، ص ٧٩- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس، الإسكندرية، ١٩٨٤، ص٢١- أحمد الطوخى، مظاهر الحضارة فى مملكة غرناطة، ص ١٦.

(٣) العذرى، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، تحقيق د. عبد العزيز الأهوانى، مدريد، ١٩٦٥، ص ١٦- السيد عبد العزيز سالم تاريخ مدينة المرية، ص٢٢
CionGonzalez Palencia, Miscelanea de textos, Apendice a la edi-
Provençal, Codera de la Takmila, Madrid, 1915, p. 432 - Ibn al
Zubayr, Silat as-Sila ed- Levi, Rebát, 1938, p. 24.

(٤) المقرى، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، طبعة القاهرة، ج أ، ص ١٤٠ ويأخذ بهذا النسب الأستاذ محمد عبد الله عنان، نفس المرجع، ص ١٥٥، الأستاذ شكيب ارسلان، ارجع الى شاتو بريان. آخر بنى سراج، ترجمة وتعليق الأمير شكيب ارسلان، القاهرة ١٩٢٥، ص ٦٦.

(٥) ابن بسام، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الثانى، تحقيق د. احسان عباس، بيروت، ١٩٧٨، ص ٨٠٨ ومايليها.

(٦) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون، القاهرة. ١٩٧١، ص ٢٨٨.

(٧) المصدر نفسه. ص ٤٤٠.

(٨) المصدر نفسه، ص٨.

(٩) المصدر نفسه، ص١٠.

(١٠) المقرى، نفح الطيب، الطبعة الأولى. ج ١، ص١٤٠.

(١١) شكيب أرسلان، آخر بنى سراج، ص٦٦.

(١٢) المقرى، نفح الطيب، الطبعة الأولى، ج١، ص١٣٨.

(١٣) المصدر نفسه، طبعة محى الدين عبد الحميد، ج١، سنة ١٦٤، ج٤ ص ٢٠٤.

(١٤) ابن حيان، المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس، تحقيق انطونية، باريس ١٩٣٧، ص ١٠٢.

(١٥) المصدر نفسه، ص ١٢٧.

(١٦) المصدر نفسه، ص ١٣٣.

(١٧) المصدر نفسه، ص ١٣٨.

(١٨) عن ابن القط وحركته، نفس المصدر، ص ١٣٧ ومايليها، وعن جمال ابن القط وحسن صورته والأشعار التى قيلت فيه ارجع الى ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، ١٩٦٣، ج٢، ص٣٦٨ - ولمزيد من التفاصيل عن ابى على السراج ارجع الى Lévi Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, t. I, P. 382. وعن حركة ابن القط ارجع الى سحر السيد عبد العزيز سالم، التاريخ السياسى لبطليوس الإسلامية وغرب الأندلس فى العصر الإسلامى، الإسكندرية، ١٩٨٩، ح ١، ص ٢٩٨ ومايليها.

(١٩) ابن الخطيب. اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملك الإسلام، بيروت، ١٩٥٦، ص٤٩.

(٢٠) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، م٢، ص ٨١٠.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٨٠٨. ٨١٢.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ٨٠٨.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٨١٢.

(٢٤) ابن الخطيب، الإحاطة فى أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة. ١٩٧٤، ج١، ص ١٤٧.

(٢٥) المصدر نفسه، ج٣، ص ٧٢.

(٢٦) المصدر نفسه، ج٤، ص ١٠١.

(٢٧) ابن بسام، الذخيرة، ق أ، م ٢، ص ٨١٢.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٨١٢ ومايليها.

(٢٩) المصدر نفسه.

(٣٠) ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٤٤٤ - وارجع كذلك الى المقرى، أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض، تحقيق سعيد أحمد اعراب، محمد بن تاويت، المحمدية، ١٩٧٨، ج٥، ص ٨٠، حاشية ١٧٣.

(٣١) أبن الخطيب، الإجاطة، ج ١، ص ١٦٩، ١٧٠. ١٩٦، ج٢، ص ٣١٥، ج٣، ص٨٩، ص٤٧٧، صـ٢٤٨، ج٤، ص ٢٤٤، ٢٥٠.

(٣٢) ابن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح التانس فى ملح أهل الاندلس دراسة وتحقيق محمد على شوابكة، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٩١ . ٣٨٠ - ابن بسام، الذخيرة، ق ١.م ٢، ص ٨١٢، ٨٢١ - المقرى، أزهار الرياض، ج٥، ص٩٩.

(٣٣) ابن خاقان، مطمح الأنفس ص ١٩١ - المقرى، أزهار الرياض، ج٥، ص٩٩ - شكيب أرسلان آخر بنى سراج، ص ٦٦. وقد قام الأستاذ محمد على شوابكة محقق كتاب مطمح الأنفس بتصحيح كنية سراج بن عبد الملك بن سراج على أنها «أبى الحسن» بدلا من أبى الحسين، ولكن جانبه الصواب فى ذلك.

(٣٤) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص ١٩١ ومايليها.

(٣٥) يذكر الأستاذ محمد على شوابكة محقق كتاب مطمح الأنفس أن سراج بن عبد الملك بن سراج ولد سنة ٤٣٩هـ (١٠٤٧م). وهو بذلك لم يعاصر ابن شهيد المتوفى سنة ٤٢٦هـ (١٠٣٤م) ويفسر هذه الرواية التى رواها ابن خاقان بأنه ربما قصد بهذه الرواية أباه أبا مروان عبد الملك بن سراج وليس سراج نفسه. أما شارل بيلا جامع ديوان ابن شهيد فيعتقد ان الكاتب (ابن خاقان) أتى بخبر كاذب انتحله انتحالا وافتعله افتعالا. أما الشعر فصحيح النسبة مشهور (مطمح الأنفس، ص١٩٢ ومايليها) وأعلق بدورى على هده القصة مفترضة الصدق فى ابن خاقان وأفسر ذلك اللبس بأنه ربما كان ابن خاقان وابى الحسين سراج قد التقيا بالفعل فى دار ابن شهيد كما ذكر، ولكن بعد وفاته كنوع من اللقاء الأدبى فى منزله احياء لذكراه مثلا فى جلسه أدبية. وتذكر راشيل آرييه ان أبا الحسين بن سراج كان يعيش فى القرن ١٣م وقد أخطأت بذلك لأنه كان من أهالى القرن ١٢م فقد توفى فى بداية القرن السادس الهجرى فى سنة ٥٠٨هـ الموافقة ١١١٤م (Rachel Arié, Le Royaume Nasride de Granade realité de légende, dans Awraq, N. .4, 1981. P 156)

(٣٦) المصدر السابق، ص ٣٨٠.

(٣٧) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، م٢، ص٨٢١.

(٣٨) ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص٢٤٨.

(٣٩) المصدر نفسه، ج٢، ص٣١٥.

(٤٠) المصدر نفسه، ج١. ص ١٩٦. ص٢٠١

(٤١) المصدر نفسه، ج ١، ص١٦٩. ١٧٠.

(٤٢) المصدر نفسه، ج٣. ص٤٧٧.

(٤٣) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٨٩ وكان مولد ابن الجد الفهرى سنة ٤٩٦هـ ووفاته باشبيلية فى شوال سنة ٥٨٦.

(٤٤) مما يؤكد ان ابا عبد الله بن السراج هذا كان يعيش فى مدينة مالقة.

(٤٥) المقرى. نفح الطيب، ج٤، ص ٢٥٢، (طبعة محيى الدين عبد الحميد).

(٤٦) نفس المصدر، ص٣٦٨.

(٤٧) المقرى، ازهار الرياض، ج٢، ص ٦.

(٤٨) المصدر نفسه، ج٤، ص٢٨٠.

(٤٩) ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣. ص ١٧٩، وتسميه راشيل آرييه، بأبى عبد الله محمد ابن ابراهيم بن السراج وتذكر أنه عاش فى بداية القرن ١٤م (Rachel Arié, Le Royaume, P. 156).

(٥٠) المقرى، أزهار الرياض، ج٢، ص٢٥٦.

(٥١) المقرى، نفخ الطيب، ج٧، ص ٣٤٨ – شكيب ارسلان، آخر بنى سراج، ص٦٨.

(٥٢) المقرى، أزهار الرياض، ج٣، ص١٦٠.

(٥٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٥٦.

(٥٤) المقرى، نفح الطيب، ج٤، ص٢٥٢.

(٥٥) المصدر نفسه، ج٧، ص٣٤٨.

(٥٦) ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٤٧، ج٣، ص٧٢، ج٤ ص١٠١.

(٥٧) المصدر نفسه، ج١، ص ١٩٦، ١٧٠، ج٤ ص ٢٢٤، ج٢، ص٣١٥

(٥٨) المصدر نفسه، ج٣، ص ٤٧٧، ص٨٩.

(٥٩) ابن حيان، تحقيق انطونية، ص ١٣٣، ١٢٧، ١٠٢.

(٦٠) ابن بسام، الذخيرة، ق١، م٢، ص٨٢١ - ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص١٩١.

(61) Emilio Garcia GÓmez, Sobre los Epitafios de Dos Caballeros Abencerrajes, Al Andalus, 1942, Madrid, pp.284 - 289.

(62) Rachel Arié, Le Royaume, p. 156.

(٦٣) أحمد مختار العبادى، فترة مضطربة فى تاريخ غرناطة، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية، ١٩٦٥، مدريد، ص٤٣- أما الرئيس أبو عبد الله محمد السادس الغالب بالله فهو أحد أبناء عمومة محمد الخامس وزوج شقيقته، وتسميه المصادر الإسبانية بابى سعيد البرميخو Bermcjo أى صاحب اللون البرتقالى الضارب للحمرة نسبة للون شعره ولحيته (ابن الخطيب، اعمال الإعلام، ص ٣٠٨).

(٦٤) ابن الخطيب، نفاضة الجراب فى علالة الإغتراب، تحقيق د. احمد مختار العبادى، طبعة القاهرة، بدون تاريخ، ص١٨ . ١١٨.

(٦٥) لمزيد من التفاصيل عن هذه الفترة المضطربة ارجع الى احمد مختار العبادى. فترة مضطربة، ص٥٠-٥١.

(٦٦) احمد الطوخى، مظاهر الحضارة، ص١٦.

(٦٧) محمد عبد الله عنان، نهاية... نفس المرجع، ص ١٥٤ - يوسف شكرى فرحات، غرناطة فى ظل بنى الأحمر، ص٥٣.

(٦٨) احمد الطوخى، مظاهر الحضارة، ص١٦.

(٦٩) هي كلمة عامية أصلها الصغير، وهو ابن أخي الأيسر في رواية وولده في رواية ثانية وأحد أبناء عمه في رواية ثالثة (لمزيد من التفاصيل ارجع الى عنان، نهاية الأندلس، ص ١٥٥، يوسف شكرى فرحات، ص٥٣).

(70) Luis Seco De Luccna Paredeo, Más Rectificaciones a la historia de los últimos Nasries, un sultan llamado "El chiquito", Al Andalus, vol XXIV, Madrid,1959, P. 284- José Francisco de Luque, Historia de Granda y sus contornos, Granada, 1858, P. 125.

(٧١) يذكر المؤرخ الإسباني خوسيه فرنثيسكو دى لوكي José Francisco De Luque تفاصيل هذه الأحداث في كتابه Historia de Granada y sus contornos فيقول أن يوسف بن سراج خرج مع اربعين من رجاله الى لورقه فاستقبله بعض أصحابه واستضافوه، ثم انتقل الى مرسية، ومن هناك توجه للقاء الملك القشتالي وتوسل اليه ان يساعده في اعادة الأيسر الى السلطنة، ويذكر De Luque أن يوسف بن سراج ذهب بنفسه الى تونس حاملا رسائل من الملك القشتالي الى الأيسر، وهناك استقبله سلطانها الحفصي بكل ترحاب ووافق على عودة الأيسر الى بلاده (لمزيد من التفاصيل ارجع الى José Francisco De Luque, op. cit., p. 125) أما واشنطن ايرفيينج فقد أورد في كتابه عن قصر الحمراء مايشير الى أن الملك خوان الثاني ملك قشتالة أرسل رسولا من قبله ليرافق يوسف بن سراج، وليحمل رسالة الملك القشتالي بنفسه الى سلطان تونس يدعوه الى ارسال الأيسر للأندلس مرة اخرى (واشنطن ايرفيينج، قصر الحمراء في الأدب والتاريخ، ترجمة اسماعيل العربى، بيروت ١٩٨٤، ص ١٤٧- وارج كذلك الى (Rachel Arié, Op. cit., p. 156) وتذكر الروايات ان الأيسر قد قبض على الزغير عند دخوله غرناطة وقطع رأسه، وفي رواية اخرى أنه اعتقله مع أخيه ابى الحسن على بن يوسف في قلعة

شلوبانية. (محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص١٥٦ وارجع الى بحث Luis Seco De Lucena, Las campanas de Castilla contra Granada el ano 1431 المنشور فى مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الرابع، ص٨٠).

(٧٢) احمد الطوخى، مظاهر الحضارة، ص١٧، ١٨.

(٧٣) محمد عبد الله عنان، «وثيقة أندلسية قشتالية من القرن التاسع الهجرى»، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية، مدريد العددان ١ - ٢، ١٩٥٤، ص ٣٨ - ٤٥ - أحمد الطوخى، مظاهر الحضارة، ص١٧ ومايليها - يوسف شكرى فرحات، غرناطة L. Suaraz (Fernandez), Juan II y la Frontera de Granada,Valladolid, 1954, pp. - 54, 39-42.

(٧٤) يوسف شكرى فرحات غرناطة، ص٥٥.

(٧٥) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس. نفس المرجع ص ١٦١.

(٧٦) عن La Fuenta Alcantara ارجع الى محمد الله عنان، نفس المرجع، ص ١٦١ ويذكر الاستاذ اسماعيل العربى مترجم كتاب واشنطن ايرڤيينخ ان الوزير الجديد للأيسر من بنى سراج هو «عبد البر بن سراج» وأنه ابن الوزير السابق يوسف بن سراج، وأنه أبلى بلاء حسنا فى المعارك التى خاضها الأيسر مع القشتاليين عقب مهاجمة هؤلاء لأراضى غرناطة الشرقية وقد هزمهم بقيادة عبد البر، ثم هزمهم عند مدينة ارشذونة وقتل وأسر منهم عددا كبيرا (٨٣٨هـ/١٤٣٤م). وفى السنة التالية سار الأيسر لقتال النصارى عند وادى آش وهزمهم فى عدة معارك. وفى سنة ٨٤٠هـ (١٤٣٦م) نشبت معركة بين المسلمين والقشتاليين على مقربة من كازورلا أصيب فيها الطرفان بخسائر جسيمة وانتهت بانتصار المسلمين، وهنا يذكر الاستاذ اسماعيل العربى أن المسلمين رغم انتصارهم فقدوا وزيرهم عبد البر ورجع الى La Fuente

Alcantara ، ولكن بالرجوع الى الاستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابه، **نهاية الأندلس**، نجده يستقى معلوماته من نفس المصدر الإسبانى لافونتى القنطرة، فيذكر أن الذى توفى هو ابن الوزير «ابن عبد البر» وليس هو شخصيا بدليل أنه سيظهر فى الأحداث التاريخية فيما بعد هذه المعركة (ارجع الى كتاب قصر الحمراء فى الأدب والتاريخ. ص ١٥١ حاشية (١)، والى محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص١٦٣).

(٧٧) تدل على ذلك وثيقة عربية تتمثل فى خطاب موجه منه الى ملك قشتالة فى ذى القعدة سنة ٨٤٦هـ (مارس ١٤٤٣م) يشير فيه الى بعض المشاكل القائمة بين البلدين وقد نشر هذا الخطاب مع صورته الفوتوغرافية فى كتاب نبذة العصر، المنشور بعناية معهد فرانكو بتطوان، ص ٧٦ - ٧٨.

(٧٨) يذكر واشنطن ايرفيينج أن خلافا نشب بين الأيسر وبين بنى سراج، فتخلوا عن مساندته واعتبروه غير صالح للحكم، ولجأوا الى مونت فريو، ومن هناك بدأ بنو سراج يساندون «ابن اسماعيل» وكاتب أبن عبد البر، ابن اسماعيل الذى كان فى ذلك الوقت ملتجئا عند ملك قشتالة يدعوه للإلتحاق بمعسكره ويعرض عليه مساندته ولم يتردد ابن اسماعيل فى الإستجابة السريعة، فرحل من قشتالة ووصل الى مونت فريو حيث بايعه ابن عبد البر بن سراج، وانصاره، وكان معظمهم من بنى سراج ملكا على غرناطة. كما أشار ايرفيينج الى صراع شديد دار بين بنى سراج وأسرة بنى بنيغيش Los Veneges وهى أسرة نصرانية الأصل دخلت الإسلام، وعاد بعض أفرادها الى النصرانية عقب سقوط غرناطة. ومن أشهرهم الوزير «ابو القاسم بن رضوان بينيغش الذى كان أبوه على خلاف مع الوزير ابن عبد البر بن سراج، أما ابو القاسم فقد تنصر هو ومعظم أفراد أسرته عند دخول الإسبان غرناطة، وقد اشتهرت هذه الأسرة فى تاريخ اسبانيا وأنجبت عددا من القادة والأحبار (ايرفيينج قصر الحمراء، ص ١٥٠ ومايليها - نبذة العصر. ص٦٤ حاشية (١) - عنان، ص ١٩٥).

(٧٩) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ١٤٦ .Seco De Lucena
"RectificaciÓn a la historia de los ultimos Nasries". in. Al Andalus, vol XVII. Fasc I.

(٨٠) يوسف شكرى فرحات، غرناطة، ص ٥٥، في حين يذكر أ. د. أحمد الطوخي أنه في بداية عام ٨٥٢هـ (١٤٤٨م) عاد الأيسر الى الحكم خلفا للسلطان الأحنف للمرة الرابعة، كذلك أن اضطراب الأوضاع الداخلية فى غرناطة بلغ درجة كبيرة الى حد أنه قد تعاقب على عرشها خلال القرن التاسع الهجرى (١٥م) اثنى عشر سلطانا كان بعضهم يتولى العرش اكثر من مرة (احمد الطوخي، مظاهر الحضارة، ص١٨) أما أ. د. محمد عبده حتاملة فيذكر أن السلطان محمد الأيسر تولى الحكم فى غرناطة فى فترات مختلفة حددها بالفترة مابين عامى ٨٢٢ - ٨٣١هـ (١٤١٩ - ١٤٢٧م) والفترة من عام ٨٣٣ - ٨٣٥هـ (١٤٢٩-١٤٣١م) والفترة من عام ٨٣٥-٨٤٨هـ (١٤٣١ - ١٤٤٤م) كما يذكر أنه خلفه على العرش السلطان سعد بن على الذى تشير اليه المراجع الإسبانية بلقب Ciriza واحيانا أخرى بلقب «ابن اسماعيل» والمراد به هو الملك اسماعيل الأول ابن فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر (ارجع الى محمد عبده حتاملة، محنة مسلمى الأندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها، عمّان، ١٩٧٧، ص٩).

(81) Rachal Ariė, Op. cit, p. 158.

(٨٢) توجد نسخة مخطوطة وحيدة من هذا الكتاب بمكتبة الفاتيكان الرسولية برقمى ٧٢٨ ، ٧٢٩ فى مجلدين وقد نقل العلامة المستشرق Della Vida .() ما ورد فى كتاب هذا الرحالة المصرى من اخبار الأندلس، ونشره مجتمعا فى مقال عنوانه: "Il Regno De Granata nel 1463-66 nei recordi un viagia ttero egiziano" in. Al Andalus. vol- I. 1933. Fasc 11.

(٨٣) عنان، نهاية الأندلس، ص ١٦٧. ويذكر الأستاذ يوسف شكرى فرحات أن السلطان سعد توفى فى سجنه سنة ٨٦٨هـ (١٤٦٤م) (ارجع الى غرناطة فى ظل بنى الأحمر، ص٥٦) أما د محمد عبده حتاملة فقد أورد فى كتابه «محنة مسلمى الأندلس» رواية المؤرخ الرحالة المصرى عبد الباسط ابن خليل كما أورد رواية أخرى هى ماوردت لدى Hernando De Baeza المؤرخ الإسبانى المعاصر للأحداث ويذكر د. حتاملة أن الرواية الإسبانية تذهب الى أن أبا الحسن المعروف لديهم باسم مولاى الحسن Muley Hacen أقدم على خلع أبيه سعد عن عرش غرناطة فى سنة ٨٦٦هـ (١٤٦١م) ليحل محله، وانه نفى والده الى شلوبانية Salobreña حيث توفى بعد قليل فنقل جثمانه الى غرناطة ودفن فى المقبْرة الملكية (محمد عبده حتاملة، نفس المرجع، ص٧).

(٨٤) يرى الأستاذ محمد عبد الله عنان أن آل الثغرى كانوا من البربر من قبيلة غمارة (عنان، نهاية الأندلس، ص١٦٦)، كما نقل لنا رأى المستشرق الإسبانى جاينجوس الذى يرى فى ترجمته لنفح الطيب أن الثغريين هم الذين نزحوا من أراجون أو الثغر الأعلى (مملكة سرقسطة) الى غرناطة بعد سقوطها فى أيدى الإسبان. أما الأمير شكيب أرسلان فيعتقد أن اسم «الثغرى» ماهو إلا تحريف من بنى الزغبى نسبة الى قبيلة زغبة. أما بنو «أضحى» أو ضحى فهم من سادة غرناطة، وكانوا قد لعبوا دورا هاما فى التاريخ الأندلسى ومن أشهرهم «ابو الحسن على بن عمر بن ضحى» أحد ثوار الأندلس البارزين فى أواخر العصر المرابطى وكان قد ثار بغرناطة فى سنة ٥٣٩هـ ولكنه لم يستطع الصمود ضدهم فاعتصم بالقصبة وتوفى سنة ٥٤٠هـ (١١٤٥م). وكان الشاعر محمد بن عيسى بن عبد الملك الزهرى قد امتدحه عندما دخل غرناطة (ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٢، ص ٤٩٤، ٥٠٤) وكذلك الشاعر ابو بكر المخزومى الأعمى المورورى (المدورى) الذى التقاه بغرناطة عندما كان ابن

أضحى يتولى قضاءها (المصدر السابق، ج١، ص٤٢٧). أما الفقيه عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمى فقد امتدحه عندما دخل غرناطة ووصفه ابن الخطيب عند دخول هذا الفقيه الى غرناطة بأنه كان قاضيها وريسها (المصدر نفسه، ج٣، ص٤٧٩). كما عرف ابو الحسن بن أضحى بتفوقه فى مجال الفقه، ومن تلاميذه الذين أخدوا عنه الفقيه محمد بن ابراهيم بن عبد الله بن أبى زمنين المرى (المصدر نفسه، ج٣، ص١٦٢). وربما انتسبوا الى محمد بن أضحى بن عبد اللطيف الهمدانى زعيم العصبية العربية فى غرناطة بعد مصرع سعيد بن سليمان بن جودى فى ذى القعدة سنة ٢٨٤هـ (ابن حيان، تحقيق انطونية، ص٦١).

(٨٥) نبذة العصْر، ص٤٦. أما الأميرة عائشة زوجة السلطان أبى الحسن على، فقد تشكك المستشرق الإسبانى لويس سيكودى لوثينا Luis Seco De Lucena فى بحثه القيم الذى نشره فى مجلة الأندلس "La Sultana Madre de Bo Abdil" in, Al- Andalus, vol XII, 1947، ص٣٥٩-٣٩٠ فى حقيقة اسمها وافترض أنها فاطمة بنت محمد الأحنف مستندا فى ذلك الى رسوم بيع ملكية نشر نصوصها بالمجلة المذكورة. وقد وافقته على هذا الرأى المؤرخة راشيل آريه التى استخدمت اسم «فاطمة» عند حديثها عن أم السلطان ابى عبد الله محمد آخر سلاطين غرناطة، وذلك فى بحثها عن بنى سراج بين الواقع التاريخى والأسطورة الشعبية (ارجع الى.Rachel Arié, op. cit., p 158). ولكن الأستاذين محمد عبد الله عنان والدكتور محمد عبده حتاملة رفضا هذا الإحتمال بعد ان ناقشاه ومالا الى ترجيح ان اسمها هو الإسم المعروف والشهير «عاشة» (لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع ارجع الى محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص١٩٧ - محمد عبده حتاملة، محنة مسلمى الأندلس، ص٨) ولعل بقاء الإسم فى الوقت الحاضر على منظرة بقصر قمارش وهى منطرة دار عايشة Daraja ينهض دليلا على ذلك».

(٨٦) يرى البعض أن والدها كان يشغل منصب قائد صخرة مرتش Alcaide de la Peña وعن تفاصيل المعارك بين المسلمين والقشتاليين فى ذلك الوقت ارجع الى J. Condé, Historía de la Dominacion de los Arabes En España, T.III.

(٨٧) نبذة العصر، ص ٤٩ - محمد عبده حتاملة، محنة مسلمى الأندلس، ص١٤، وقد أشارت راشيل آرييه اشارة بسيطة الى أن سعد ونصرا ولدى أبى الحسن على من ثريا قد بقيا فى اسبانيا بعد سقوط غرناطة وارتدا الى المسيحية وعرفا بدون فرناندو، ودون خوان أميرى غرناطة (Rachel Arié, Le Royaume, P. 158) فى حين ان د. محمد عبده حتاملة أفرد لهما جزءاً من كتابه «محنة مسلمى الأندلس» للحديث عن مصيرهما وأهم المناطق التى انعم الملكان الكاثوليكيان بها عليهما وأهم عقاراتهما كما تحدث عن السيدات الإسبانيات اللاتى تزوج منهن كل من سعد ونصر وأنسابهن (لمزيد من التفاصيل، ارجع الى محمد عبده حتاملة، محنة مسلمى الأندلس، ص٧٧-٩٠) وقد اعتمد فى دراسته القيمة على وثائق ومصادر اسبانية معاصرة لتلك الأحداث.

(٨٨) نبذة العصر، ص ٤٩، وارجع كذلك الى Julio Caro Baroja, Los Morisos del Reino de Granada, Madrid, 1991, p. 39.

(٨٩) نبذة العصر، ص ٦٠ - محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٢٠١ - احمد مختار العبادى، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الاسلامية فى حوض البحر المتوسط، ج٢، الاسكندرية بدون تاريخ، ص ٣٦٦.

(٩٠) فرديناند الكاثوليكى أو فرناندو الرابع، هو ابن خوان الأول ملك نبرة، الذى عرف فيما بعد بالملك خوان الثانى ملك أرغون. وقد ولد فرديناند سنة ٨٥٦هـ (١٤٥٢م) من زوجة خوان الثانية، خوانا انريكيث ابنة امير بحر

قشتالة تولى فرديناند عرش مملكة أرغون منذ عام ٨٤٤ - ٩٢٢ هـ (١٤٧٩ - ١٥١٦م) كـمـا إعـتلى عـرش مملكة نابلى منذ عـام ٩١٠ - ٩٢٢هـ (١٥٠٤ - ١٥١٦م) وصـقليـة (٨٧٣ - ٩٢٢هـ) (١٤٦٨-١٥١٦م) وقـشـتـالة من ٨٧٩ - ٩١٠هـ (١٤٧٤ - ١٥٠٤م)، ثم تزوج من زوجـتـه ايزابيـلا الأولى ملكة قـشـتـالة سنة ٨٧٩هـ (١٤٧٤م). وقـاد الحـرب ضـد المسلمين فى مملكة غرناطة حتى سقـوطها سنة ١٤٩٢م. وعند وفاة زوجـتـه ايزابيلا الكاثوليكية عام ١٥٠٦م تزوج من الفرنسية خيرمانا دى فوا ولمزيد من التفاصيل عن حياته واعماله ارجع الى (محمد عبده حتاملة، التنصير القسرى لمسلمى الأندلس فى عـهـد الملكين الكاثوليكين، عـمّـان. ١٩٨٠، ص١٤.
(Luis Suarez Fernandez, Historia de España, Madrid, 1970, capt XL VIII, pp. 681-682).

أما ايزابيلا فقد ولدت فى مدريغال دى التاس تورس عام ١٤٥١م. وكانت ابنة خوان الثانى ملك قشتالة، وامها هى ايزابيلا البرتغالية، ابنة حفيد خوان ملك البرتغال. تزوجت من فرديناند أمير ارغون وصقلية سنة ١٤٦٩م. وعرفنا عندئذ بأميرى قشتالة. وعندما تولى شقيقها الملك انريكى الرابع عام ١٤٧٤م. عرفت هى وزوجها بملكى قشتالة وارغون (لمزيد من التفاصيل ارجع الى محمد عبده حتاملة. التنصير القسرى، ص١٦ T. De Azcona, Isabel la Catolica, Madrid, 1946.

(91) Rachel Arié, Le Royaume, p. 158.

(٩٢) لمزيد من التفاصيل عن تلك الأحداث الأخيرة فى عهد مملكة بنى الأحمر، والحروب الأهلية التى تخللتها ارجع الى المقرى، نفح الطيب ج٦، ص ٢٥٨ ومايليها - نبذة العصر، ص ١٥، ٣١، ٣٢، ٩٤- ابن اياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ١٩٦٣، ج٣، ص١٩٩،

٢١٨، ٢٣٠، وقد اتهم مؤلف نبذة العصر الزغل وشك في ولائه للإسلام (ص٣٣) ولكن الأستاذ محمد عبد الله عنان دافع عنه مشيرا الى انه لم يكن باستطاعته ان يضع حد لأسباب ضعف السنين التى سبقته (نهاية الأندلس، ص٢٨٨)، كما دافع عن ابى عبد الله الصغير ووصف بطولاته الأخيرة (ص٢٨٤ ومايليها).

(٩٣) عن هذه الأحداث الأخيرة لغرناطة قبيل السقوط ارجع الى عنان، ص ١٨٨-٢٧١، فون شاك، الفن العربى فى اسبانيا وصقلية، ترجمة د، الطاهر احمد مكي، القاهرة، ١٩٨٥، ص١٢٠ ومايليها، يوسف شكرى فرحات، غرناطة، ص٥٦ ومايليها، عبد الواحد ذنون طه، حركة المقاومة العربية الإسلامية فى الأندلس بعد سقوط غرناطة، بغداد، ١٩٨٠، ص٨-٩ Julio Caro Baroja, Los Moriscos, pp. 40-41.

(٩٤) عن معاهدة التسليم وأهم بنودها ارجع الى نبذة العصر، ص١٢٠ ومايليها - محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٢٤٥ ومايليها - محمد عبده حتاملة، محنة مسلمى الأندلس، ص٥٣-٥٦- عادل سعيد بشتاوى، الأندلسيون المواركة، القاهرة، ١٩٨٣، ص١٠٥. وعن سقوط غرناطة ودخول الملكين الكاثوليكيين فيها ارجع على Josep Lozana, "Els moriscos un mon a descubrir", Awraq, N.1, Madrid, 1993, p.88، وعن عدم وفاء الملكين الكاثوليكيين بالتزاماتهما وعهودهما ونقضهما لمعاهدة التسليم ارجع الى نور الدين الصغير، «مأساة غرناطة وأثرها فى الوعى التاريخى العربى والإسلامى»، من اعمال المؤتمر العالمى الخامس للدراسات الموريسكية، سيرمدى، زغوان، ١٩٩٣، ص١٤١، عادل سعيد بشتاوى، المرجع السابق، ص١٠٧.

(95) Emilio García Gomez, Sobre los epitafios de dos Abencerrajes, Al-Andalus, 1942, p. 287-288.

(٩٦) عن شاهد القبر الثانى ارجع الى Emilio García Gomez, Epitafios, p. 289- Rachel Arié, le Royaume, p. 156.

(٩٧) المقرى، أزهار الرياض، ج ١، ص ٦٧، ٦٨ - نفح الطيب، ج٦، ص٢٨٠ ومايليها - نبذة العصر، ص١٢٨ - عبد الواحد ذنون طه، حركة المقاومة العربية، ص١٣-١٨.

(٩٨) عن هذه الأحداث ارجع الى محمد عبده حتاملة، التنصير القسرى، ص٦٢ ومايليهما - عبد الواحد ذنون طه، حركة المقاومة، ص١٧-١٨- على مظهر، محاكم التفتيش، القاهرة، ١٩٤٧، ص٧٥ ومايليها - جمال عبد الكريم، «الموريسكيون: تاريخهم وأدبهم»، مجلة المؤرخ المصرى، جامعة القاهرة، العددان ٥-٦ يناير ويوليو ١٩٩٠، ص١٤ ومايليها - عادل بشتاوى الأندلسيون المواركة، ص١٩٨٩، ص٥٣، وارجع الى بحثى: «علاقة مصر المملوكية بغرناطة قبيل وعقب سقوطها»، فى اعمال المؤتمر العالمى الخامس للدراسات الموريسكية، زغوان، ١٩٩٣، ص١١٣ ومايليها. وارجع كذلك الى بلقاسم درارجة، الأندلسيون المسلمون ومحاكم التفتيش، بحث من اعمال المؤتمر العالمى الخامس للدراسات الموريسكية الأندلسية، ج٢، زغوان، ١٩٩٣ ص٧٣ ومايليها. ويذكر لوى كارديناك أن المسيحيين بعد فشل ثورة البشرات كانوا يعيشون تحت خوف تجدد الثورة الموريسكية وقد تناقل الناس انهم لاينتظرون لهذا الأمر إلا وقته المناسب وأنهم ساعون لجمع الأسلحة (لوى كارديناك، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، المجابهة الجدلية ١٤٩٢-١٦٤٠م تعريب د. عبد الجليل التميمى، زغوان، ١٩٨٩، ص٢٩).

(٩٩) محمد رزوق، الأندلسيون، ص ٥٠ وارجع كذلك الى انطونيو دومينقير هورتز وبرنارد بنثنت، تاريخ مسلمى الأندلس، الموريسكيون، حياة ومأساة أقلية، ترجمة عبد العال صالح طه، قطر، ١٩٨٨، ص ١٩ ومايليها.

(١٠٠) لمزيد من التفاصيل على هذا القانون ارجع الى محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٣٦، ويذكر د. محمد عبده حتاملة أنه سبق هذا القانون سلسلة من الإجراءات والقوانين الجائرة أصدرها الملك فيليب الثانى منذ عام ١٥٦٠م وحتى عام ١٥٦٦م (لمزيد من التفاصيل ارجع الى محمد عبده حتاملة، التهجير القسرى، ص١٨-٢٧).

(١٠١) يذكر الأستاذ محمد عبد الله عنان أن موريسكى بلنسية أنفسهم لم يتميزوا عن غيرهم من الموريسكيين إلا بتخفيف العقوبة فى حالة عدم تنفيذهم لهذا القانون (عنان، نهاية الأندلس، ص ٣٦١).

(١٠٢) يعتبر تغيير الملابس واللغة أولى خطوات تغيير الهوية المميزة لأى شعب من الشعوب وقد أثر ذلك فى هوية المسلمين فى الأندلس، ارجع الى Rachel Arié, "Acerca del Traje musulmán en España desde la Caída de Granada hasta expulsion de los Moriscos" مقال فى مجلة المعهد المصرى بمدريد، ١٩٦٥، ١٩٦٦، ص١١٥. وقد أشارت الى ارتداء الثوار المسلمين وعلى رأسهم محمد بن أمية ملابس اسلامية كرمز لنبذ طاعة الإسبان.

(١٠٣) هو المحقق دون بيدروديسا Pedro Deza أحد اعضاء المجلس الذى شكله الملك فيليب الثانى لدراسة أوضاع الموريسكيين (حتاملة، التهجير القسرى، ص٣١).

(١٠٤) عن المؤلف الموريسكى المجهول ارجع الى (حتاملة، التهجير، ص٣٣) وقد أشار الدكتور عبد الله جمال الدين الى ثورة فرج بن فرج اشارة سريعة دون الدخول فى تفاصيل (عبد الله جمال الدين، المسلمون المنصرون أو الموريسكيون الأندلسيون، القاهرة، ١٩٩١، ص٨٥، ٨٨) وعن ثورة فرج بن فرج بن سراج ارجع كذلك الى Julio Caro Baroja, los moriscos del Reino de Granada, p.174.

(١٠٥) عن المؤلف الموريسكى المجهول ارجع الى (حتاملة، التهجير القسرى، ص٣٥).

(١٠٦) المصدر نفسه، ٣٨.

(١٠٧) عن مارمول ارجع الى محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٣٦٥، وعن تفاصيل الثورة ارجع كذلك الى عادل سعيد بشتاوى، الأندلسيون المواركة، ص١٥٠ ومايليها. ويذكر د. عبد الله جمال الدين ان احد ابناء بنى أمية وهو «ابراهيم بن أمية» قاد ثورة الموريسكيين سنة ١٥٠٠م وقد تمكنوا بفضله من السيطرة على عدة حصون ساحلية فى البشرات قبل ان يتغلب عليهم الإسبان (عبد الله جمال الدين المسلمون المنصرون، ص٣٦. كما يؤكد د. عبد الله جمال الدين أن محمد بن أمية يرجع بأصله الى عبد الرحمن الداخل نفسه (المرجع نفسه، ص٨٧) ولمزيد من التفاصيل عن ثورة ابن أمية ارجع (الى Baroja, Los Moriscos, pp. 173-185).

(١٠٨) لمزيد من التفاصيل ارجع الى محمد عبده حتاملة، التهجير القسرى، ص٤٠، ٤١.

(١٠٩) عنان، نهاية الأندلس، ص٣٦٥– انطونيو دومينقير هورتز، برنارد بنثنت، تاريخ مسلمى الأندلس، الموريسكيون حياة ومأساة أقلية، ص٤١.

(١١٠) حتاملة، التهجير القسرى، ص٤١.

(١١١) المرجع نفسه، ص٤٢، فى حين يذكر كل من الأستاذ محمد عبد الله عنان والدكتور عبد الله جمال الدين نقلا عن مارمول أن ابن امية كان قد اختار عمه ابن جوهر (فرناندو الصغير) قائدا للجيش منذ البداية (نهاية الأندلس، ص٣٦٥ – المسلمون المنصرون، ص٨٨) ولكننا نرجح رواية د. حتاملة لأن مصدره فى ذلك مؤرخ مسلم موريسكى فى حين ان الاستاذ عنان يعتمد على رواية قشتالية لمارمول فى حين يعتمد د. عبد الله جمال الدين

على كل من Vincent (Bernard), Historia de los moriscos، كذلك على كتاب Baroja, los moriscos del Reino de Granada.

(١١٢) عبد الله جمال الدين، المسلمون المنصرون، ص٩٤.

(١١٣) سرى محمد عبد اللطيف، «الهوية الإسلامية للموريسكيين من خلال أدب الالخميادو»، فى اعمال الملتقى العالمى الخامس للدراسات الموريسكية، ج٢، زغوان، ١٩٩٣، ص١٥١.

(١١٤) المرجع نفسه، ص ١٥٢.

(١١٥) صلاح فضل، ملحمة المغازى الموريسكية، القاهرة، ١٩٨٩، ص٢٨.

(116) Jesús Bermúdez Pereja, Mariía Angustias Moreno Olmedo, El palacio de los Abencerrajes", cuadernos de la Alhambra, n.5, Granada, 1969, p.55.

(١١٧) تعتبر الدراسة القيمة التى قام بها لويس سيكودى لوثينا من أهم الدراسات التى سلطت الضوء على بنى سراج وميزت بين ماهو حقيقى وماهو وهمى (ارجع الى Luis Seco De Lucena, Los Abencerrajes, Leyenda, Historia, 1960- Granada,

Jesús Bermudez Pareja, María Angustias Moreno, El palacio, p. 55, Rachel Arié, Le Royaume, pp. 150-170.

(118) Manuel Gomez Moreno, Guía da Granada, Granada, 1892, pp. 151-152.

(119) Padre Juan de Echeverría, Paseos por Granada, por los años de 1764 y ahora nuevamente impresos, Granada, 1814, T. I, pp. 333-335- Jesus Bermudez, op. cit., p. 56.

(120) Jesus Bermudez, op. cit., p. 56-57

(121) Ibid., p. 57.

وكونت دى تنديللا De Tendilla هو القائد لويث دى مندوسا الذى عينه فرناندو الكاثوليكى حاكما عسكريا لغرناطة (عن مارمول ارجع الى عنان. نهاية الأندلس، ص ٢٦٦).

(١٢٢) اورد دون خيسوس باريدا قائمة عبارة عن اسماء كل أفراد أسرة دون خوان شاكون (Ibid., pp. 58-59).

(١٢٣) الحامة أو الحمة Alhama، تقع على بعد أربعين كيلومترا جنوب غربى غرناطة وسميت بهذا الإسم لتفجر العيون الحارة بها وقد أورد صاحب نبذة العصر أخبارا عن سقوطها فى ايدى النصارى سنة ٨٨٧هـ (١٤٨٢م) (نبذة العصر، ص٥٠، ٥١) ولمزيد من التفاصيل عن سقوطها وجهود السلطان ابى الحسن علي للدفاع عنها (ارجع الى محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص٢٠١، ٢٠٢).

(١٢٤) شكيب أرسلان، آخر بنى سراج، ص٦٤.

(125) Rachal Arié, Le Royaume, pp. 154) 156.

(126) Ibid., p. 158.

(١٢٧) رحلة الوزير فى افتكاك الأسير، للوزير محمد بن عبد الوهاب الغسانى، العرائش، ١٩٤٠، ص٣٤ ومايليها.

(١٢٨) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص٣٠٢، Bachel Arié, Le Royaume, p. 155.

(١٢٩) شكيب أرسلان، أخر بنى أخر بنى سراج، ص٦٤.

(١٣٠) واشنطن ايرفيينج، قصر الحمراء، ص١٥٨، ١٥٩.

(١٣١) جمال عبد الرحمن، «صدى سقوط غرناطة الإسلامية فى الأدب الإسبانى» من اعمال المؤتمر العالمى الخامس للدراسات الموريسكية الأندلسية، زغوان، ١٩٩٣، ج٢، ص١٩٥ ومايليها

(١٣٢) لوثى لوباث بارالت، أثر الإسلام فى الأدب الإسبانى من العصور الوسطى الى الوقت الحاضر، تعريب د. محمد نجيب بن جميع، تقديم ومراجعة د. عبد الجليل التميمى، زغوان، ١٩٩٠، ص٤٩ ومايليها.

(١٣٣) لم يكن انصار هذا المبدأ يرغبون فى ابقاء الموريسكيين حبا فيهم أو بدافع الإشفاق عليهم وانما رغبة فى تسيير الأمور فى بلادهم اذ كان الموريسكيون هم الذين يشتغلون بالزراعة والأعمال الحرفية (ارجع الى انطونيو دومينقير هورتز، برنادر بنثنت، نفس المرجع، ص١٩٣). ولمزيد من التفاصيل عن آثار طرد الموريسكيين الطرد لنهائى على اقتصاد اسبانيا (ارجع الى المرجع السابق، ص ٢٥٦ ومايليها). وعن المهن التى كان يعمل بها الموريسكيون وعن ابعادهم عن شغل الوظائف الحكومية ارجع (الى عادل سعيد بشتاوى، الأندلسيون المواركة، ص١٤٤ ومايليها).

(134) AnÓnimo: El Abencerraje, EdiciÓn de Lopez Estrada, Madrid, 1982, pp. 84, 85.

(135) Rachel Arié, Le Royaume, p. 157.

(136) Ibid., p. 157.

وقد أوردت المؤرخة الكبيرة راشيل آريبه كل الروايات والقصائد الشعبية التى تعرضت لبنى سراج، وذكرت كل ماجاء فيها من أخبار مختلطة مع بعضها البعض، دون تدخل منها أو تعليق أو تفنيد لها فجاءت المعلومات كلها مختلطة ومضطربة ونلاحظ أن مؤلف رواية «ابن سراج» قد تأثر الى حد كبير بما عرف فى العصور العربية القديمة عن المنذر بن امرئ القيس المعروف بابن ماء

السماء (٥١٨-٥٥٤م) فقد عرف عنه أنه كان قد حدد أياما عرفت باسم «أيام البؤس» يقتل فيها من يقابله المنذر ليطلى بدماء القتيل برجين كان يملكهما... ابن ماء السماء. وتذكر الروايات التى وردت فى المصادر العربية ان ابن ماء السماء قد التقى فى احد أيام البؤس الشاعر حنظلة بن عفراء فأمر بقتله، ولكن حنظلة استسمحه ان يمهله عاما يرجع فيه الى أهله يؤدى مهمته ثم يرجع اليه لتنفيذ حكم القتل فيه. ووافق المنذر بن ماء السماء على هذه المهلة، ولما انتهى الأجل المحدد، عاد حنظلة، محافظا على وعده الى المنذر ليطبق فيه حد القتل، فعجب المنذر من وفاء حنظلة بعهده وسأله عن دينه، فأجابه حنظلة بأنه النصرانية فكان ذلك سببا من أسباب تنصر المنذر وكل أهل الحيرة.

ونحن نميل الى الاعتقاد بتأثر رواية ابن سراج بقصة حنظلة مع المنذر بن ماء السماء (لمزيد من التفاصيل عن قصة حنظلة بن عفراء ارجع الى ياقوت الحموى، معجم البلدان، مادة غريان - ابن قتيبة، كتاب المعارف، القاهرة ١٣٠٠هـ، ص ٢١٩ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الاسلام، الإسكندرية، ١٩٧٣، ص١٦٤-١٦٥).

(١٣٧) جمال عبد الرحمن، نفس المرجع، ص١٩٦.

(١٣٨) لوثى لوباث بارالت، أثر الإسلام، نفس المرجع،ص٤٩.

(139)Marcelino M. Pelayo, "Orígenes de la novela" t.I, CSIS, Santander, 1943, pccc LXXXVI.

(١٤٠) لوثى لوباث بارلت، نفس المرجع، ص٥٠.

(١٤١) المرجع نفسه، ص٥٠.

(١٤٢) المرجع نفسه، ص٥١ María Soledad Carrasco, The Moorish Novel "Abencerraje" and Pérez de Hita, Twayne publishers, Boston, 1976.

(١٤٣) انطوينو دومينقير هورتز، برنارد بنثنت، الموريسكيون، ص٢٠، ٢١.

(١٤٤) المصدر نفسه، ١٩٣.

(*) تذكر راشيل آرييه أن بنى سراج قد باعوا للسلطان ابى عبد الله محمد آخر سلاطين غرناطة أملاكه التى كان يملكها فى غرناطة ثم لحقوا به فقد كرهوا أن يعيشوا فى اسبانيا فهاجروا جميعا الى المغرب سنة ١٤٩٣م (Rachel Arié, Le Royaume, p.159).

(١٤٥) هى التى قامت بنشر الرواية وقدمت لها سنة ١٩١٣، وقد طبعت هذه الرواية عدة طبعات وقد رجعنا فى هذا البحث الى طبعتين احداهما طبعة سنة ١٩١٣ والأخرى حديثة وهى طبعة مدريد ١٩٧٥.

(146) Ginés Pérez De Hita, Guerras Civiles De Granada, P. I, pub. Paula Blanchard-Demauge, Madrid, 1913, pp. 8-30.

(147) Rachel Arié, Le Royaume, p. 159.

(١٤٨) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٣٠٣ - جمال عبد الرحمن، صدى سقوط غرناطة، ص ١٩٧ Ginés Pérez De Hita, Guerras Civiles De Granada, Madrid, 1913, P. 30- Rachel Arié, Le Royaume, p. 159.

(149) De Hita, op. cit., p. 30 - 31.

ولكننا لانميل الى الأخذ بهذا الرأى لأن ابن الخطيب لم يكن معاصر للفترة الأخيرة من مملكة غرناطة زمن السلطان الأخير أبى عبد الله محمد اللهم إلا اذا كان قد اعتمد عليه كمصدر فيما يتعلق بالفترة الأولى من تاريخ مملكة غرناطة التى عاصرها ابن الخطيب.

(١٥٠) جمال عبد الرحمن، صدى سقوط... نفس المرجع، ص١٩٧.

(151) De Hita, Guerras Civiles, Madrid, 1913, p. 78 - Rachel Arié, Le Royaume, pp. 159- 160.

(152) De Hita, Guerras Civiles, Madrid, 1913, p. 135.

(153)Rachel Arié, Le Royaume, p; 159.

(154) Ibidem.

(155) De Hita, Guerras Civiles, Madrid, 1913, p. 153.

(156) Ibid., p 170.

(157) Rachel Arié, Le royaume, p. 160.

(158) Ibid., p. 160.

(159) Ibid., p. 160.

(160) Peréz De Hita, Guerras Civiles De Granada, Madrid., 1975, pp. 22-23.

(161) Ibid., p. 73.

وفى طبعة مدريد ١٩١٣ فى ص٧٦.

(162) Peréz De Hita, Guerras Civiles, Madrid 1975, p.58.

(163) Ibid., p. 160.

(164) Ibid., p. 199.

(١٦٥) جمال عبد الرحمن، صدى سقوط.. نفس المرجع، ص٢٠٠.

(١٦٦) لوثى لوباث بارالت، أثر الإســـلام، ص ٥٠ – ٥١ Rachel Arié, Le Royaume, pp. 159-160.

وتذكر ماريا سوليداد كراسكو أن ظاهرة تمجيد العرب في الأدب الإسباني في كل من رواية «ابن سراج» وفى «الحروب الأهلية بغرناطة» لدى هيتا، كانت ترمى الى الرفع من شأن الفئة المسلمة المضطهدة وبعث روح الوفاق والتصالح بين المسلمين والإسبان، وتدلل ماريا سوليداد كراسكو على رأيها بأن بيريث دى هيتا قد أهدى الجزء الثاني من كتابه «الحروب الأهلية الى أحد النبلاء الموريسكيين «دون الافانتادو» Duque De Infantado الذى ناضل من أجل حماية المدجنين فى مرسية (ارجع الى María Soledad Carrasco, The Moorish Novel El Abenverraje and Perez De Hita, Boston, 1976 – لوثى لوباث بارالت، المصدر نفسه، ص ٥٠.

(167) Rachel Arié, Le Royaume, p. 160.

(١٦٨) جمال عبد الرحمن، ص ١٩٨ De Hita, Guerras, Madrid 1975, p. 62.

(169) Rachel Arié Le Royaume, pp. 161-163.

(١٧٠) شاتو بريان، أخر بنى سراج، ص١٦ .

(١٧١) المرجع نفسه، ص١٧ .

(١٧٢) يذكر الأمير شكيب أرسلان أن الأبيات للبحترى وأن فيها بعض الفاظ توافق المقام (نفس المرجع، ص ٥٨) .

26. 25 noviembre 1544, Dueñas.
Juramento de testigos e información de los mismos. (Fol. 76 v.° al 78 r.)

27. 4 diciembre 1544, Dueñas.
Fecha en que fueron sacados los traslados de las escrituras originales. (Fol. 75 r. y v.°)

28. 8 diciembre 1544, Calabazanos.
Probanzas hechas en Calabazanos a petición de don Miguel Chacón. (Fol. 79 al 80 r.)

29. 14 enero 1545, Dueñas.
Carta de poder de don Miguel Chacón a Diego Sánchez de Sevilla y Baltasar Ramírez, padre e hijo, vecinos de Granada. (Fol. 82 r. y v.° y 83 r.)

30. 2 julio 1545, Alhambra.
Presentación de la demanda hecha por don Miguel Chacón al contador Maldonado y a otros vecinos que vivían en su casa de los Abencerrajes. (Fol. 84 r.)

31. 4 agosto 1545, Alhambra.
Vista la petición de don Miguel Chacón y las escrituras presentadas por éste, el conde de Tendilla mandó que se notifique a las personas que viven en la casa de los Abencerrajes. (Fol. 84 v.°)

32. 8 agosto 1545, Alhambra.
Notificación a Charles de Ripa y a Barrionuevo, los cuales pidieron traslado (Fol. 84 v.°)

33. 9 setiembre 1545, Alhambra.
Notificación de la demanda al contador Rodrigo Maldonado, el que pidió traslado. (Fol. 84 v.°)

34. 10 octubre 1545, Alhambra.
Vista la petición de don Miguel Chacón del 5 del mismo mes y año en Granada, en el pleito que trata con Charles de Ripa y consortes, mandó se le notifique a las otras partes. (Hoja complementaria del cuaderno que constituye el L-3-7.)

35. 2 noviembre 1545, Alhambra.
Notificación a Francisco de Barrionuevo. (En el mismo folio anterior.)

36. 7 noviembre 1545. En la cuesta del Alhambra.
Notificación al contador Maldonado. (Igual.)

Casa de los Abencerrajes

Don Miguel Chacón contra el contador Maldonado e Barrionuevo y otros, año de 1545.

En la villa de Dueñas a veynte e quatro dias del mes de nobienbre, año del nasçimiento de nuestro Salvador Ihesus Christo de mill e quinientos e quarenta e quatro años. Ant'el muy noble señor licenciado Leal, alcalde mayor en la dicha villa y en presencia de mi Andrés Rodriguez, escribano de sus Magestades e del número de la dicha villa e de los testigos de yuso escritos, pareció presente el muy magnifico señor don Miguel Chacón, vezino de la villa de Calabazanos, hijo legitimo del señor don Juam Chacón, Adelan-

صورة من الوثيقة التي قام خيسوس بيرمودز باريخا بنشرها في بحثه عن قصر بني سراج El Palacio de los Aben Cerrajes, Cuadernos de la Alhambra, N 5, Granada, 1969)

tado de Murçia y capitán mayor, y de la señora doña Ynés Manrique, su legitima mujer, que aya santa gloria. E dixo qu'él tennia la neçesidad y le conbenia enbiar ansi fuera d'estos Reinos como a otras partes lejos d'esta tierra, çiertas escrituras signadas d'escribanos públicos, de las quales ant'el dicho señor alcalde hizo presentaçión y por ser como son escrituras escritas escritas (sic) en papel e son las mesmas originales y por ventura yendo camino con ellas a donde tenia neçesidad de las enbiar se podrian rasgar o pereçer, ansi por agua o fuego o robo o por otro caso y ocasión y no podrian despues sacar las dichas escrituras a causa que los que las otorgarón e hiçierón o signarón son falleçidos d'esta presente vida y d'ello se le podria seguir mucho daño e mucha perdida: Por tanto que pidia al dicho señor Alcalde Mayor que biese las dichas escrituras e vistas no estar rotas, ni viçiosas, ni lugar d'ellas sospechosas, ni en parte d'ellas chançilladas, salbo tales quales de derecho debian estar, mandase a mi el dicho escribano que las saque letra por letra de berbo a verbo sin anadir ni menuyr letra alguna d'ellas, todas en linpio e se las mande dar signadas en publica forma en manera que agan fee, a las quales dichas escrituras, que ansi fueren sacadas, mande poner (fol. 1 v.°) en ellas su autoridad e decreto judicial por tal manera que, agan fee y prueba y ansi sacadas las dichas escrituras le mendé bolber los memos (sic) originales para lo qual inploró su noble ofiçio y pidió cunplimiento de justiçia, estando presentes por testigos, Juan Gutierre e Juan de Palençia y Fernando de Castro Mocho, vecinos de la dicha villa de Dueñas.

Yten la carta de pago de las duçientas mill maravedís que otorgó el dicho convento y el testamento de la señora doña Ynés, que aya gloria. (fol. 2 v.°) Cuyo tenor de las dichas escrituras una en pos de otra de berbo ad berbun es este que se sigue:

En el Alhanbra de Granada, de la grnde e nonbrada çibdad de Granada, tres dias del mes de março año del nasçimiento de nuestro Salbador Iheсu Christo de mill e quinientos e dos años, ant'el muy magnifico señor don Iñigo Lopez de Mendoça, conde de Tendilla, señor de la villa de Monderes, Alcalde e Capitán General de la dicha çibdad e su alanbra, e Fortalezas por el Rey e la Reina, nuestros señores, e del su cosejo y en presençia de mi Alfonso Hernandez de Sevilla, escrivano del Rey y de la Reyna, nuestros señores e escrivano de la dicha Alanbra y de los testigos de yuso escritos, pareçió Rodrigo Dávalos, contador de capitania del dicho señor conde, a nonbre del muy magnifico señor don Juan Chacón, adelantado de Murçia o por virtud de su poder vastante, que para ello presentó e leer fiço por mi, el dicho escrivano, al dicho señor conde, una çéoula del Rey e de la Reyna, nuestros señores e firmada de sus reales nonbres e refrendada de Gaspar de Guiçio, su secretario, su tenor de la qual todo es este que se sigue:

Yo don Juan Chacón, adelantado y capitán mayor del Reyno de Murçia, señor de la ciudad de Carta Agena (sic), contador mayor del consejo del Rey e de la Reyna, nuestros señores, do y otorgo todo mi poder conplido, libre, llenero, vastante, sigund que lo yo e y tengo e de derecho se requiere e mejor e mas e conplidamente lo puedo e dobo dar e otorgar de derecho, a Rodrigo Dávalos, contador de la gente de la capitania del muy magnifico señor conde de Tendilla, qu'es ausente como si fuese presente para que por mi y en mi nombre (fol. 3) e para mi podades tomar e apreender e continuar la tenençia e posesión real, corporal, abtual bel casi, de unas casas con sus corrales e alberca de agua que son en el Alanbra de la çibdad de Granada, sobre el adarbe de la dicha Alanbra,

con sus entradas y salidas de que me fué fecha merçed por el Rey e Reyna, nuestros señores, e fuerón de los Avençerraxas, segúm e como, en la dicha merced, que d'ellas me hiçierón, se contiene, con todas sus entradas e salidas, e derechos, e pertenençias, e para que tomando e aprehendiendo la dicha posesión podades lanzar e sacar d'ellas a qualquier o qualesquier, que en ellas estén e morén e poner a ellos a otros e la usar corporal e autualmente *servatis servanda la,* la dicha posesión e quan grande e complido poder yo e y tengo para todo lo que dicho es e para cada cosa e parte d'ello otro tal e a tan complido, ese mesmo lo otorgo e doy a vos el dicho Rodrigo Dávalos, con todas sus incidençias e dependençias, emarrençias, aucridades e conexidades, rebelando bos si nescesario es? de toda carga de sastidaçión e de toda cauçión e fiaduría, so aquella clausula dicha en lotín, *judicibus isti judicatum solbi,* con todas sus clausulas acostumbradas, e prometo e otorgo de todo ello lo aver por firme e no yr ny benir contra ello so obligaçión, que fago de mi persona e bienes muebles e rayces presentes e foturos, e por firmeza de la qual firmé esta de mi nombre e otorguela ante escribano e testigos yusos escritos. Fecha e otorgada en la cibdad de Sevilla a veynte siete dias del mes de diçiembre, año del nasçimiento de nuestro Salvador Ihessu Christo de mill e quinientos e dos años. Testigos que fuerón presentes e vierón firmar aquí su nonbre al dicho señor (fol. 3 v.º). Adelantado, el camarero Fernando de Gamarra e Velastigui, camarero del dicho señor Adelantado, e Fernando de Varçe, su secretario, e Cristobal Enebro, escribano de Cámara del Rey y de la Reyna, nuestros señores, presente fuí quando el dicho señor Adelantado otorgó el dicho poder e lo firmó de nonbre e lo escribí e fiçe aquí este mi signo a tal en testimonio de verdad, Christobal Enebro, el adelantado don Juan Chacón.

El Rey e la Reina

Por haçer bien e merced a vos don Juan Chacón, Adelantado de Murçia, contador mayor e del nuestro consejo, acatando los señalados seviçios que nos aveys fecho e faceys de cada en alguna emienda e renume-raçion d'ellos por la presente hos açemos merced gran e donaçion pura e perfeta e no rebocable qu'es dicha entre bibos, de unas casas nuestras que solian ser de los Avençerrages que son en esta Alanbra ençima del adarve d'ella que an por linderos, de la una parte, las casas de don Alvaro de Luna, nuestro capitán e de la otra la calle Mayor con su portada e corral e albercas y con la casa donde agora está vuestra despensa e con los establos que en ellas ay, açebto de la torre que sale fuera del muro que a de quedar para haçer d'ella lo que nuestro serbiçio fuere, para que las dichas casas sean vuestras y de vuestros subçesores y de aquel o aquellos que de vos o d'ellos obiere titulo causa o razón con todas sus entradas y salidas e perteneçias usos e costumbres quantas an e aver debe e perteneçen e perteneçer deve, pueden e deben en cualquier manera o por ra (fol. 4) zón qualquier que sea para que las podades e pueda vender, dar, donar, trocar y canbiar y enagenar e hacer d'ellas y en ellas lo que quisieredes e por vien tobieredes como de cosa vuestra propia, libre, quieta e desenbargada, avida e adquirida por justo e derecho titulo. E mandamos a los alcaldes e alguaziles e a otras justiçias que qualesquier d'esta dicha Alhanbra, que agora son o serán d'aquí adelante e a cada uno d'ellos que luego que con esta nuestra Çésula fueren requeridos por vos o por quien vuestro poder oviere vos dén y entreguen la posesión de las dichas casas e vos anparen e defiendan en ella e no consientan ni den lugar que

d'ellas seades quitado ni molestado en tienpo alguno ni por alguna manera fasta tanto que seades sobre ello llamado a juyçio e oydo e vençido por derecho. E los unos ni los otros no fagades ni fagán ende al. Fecha en la çibdad de Granada a veynte dias del mes de octubre de mill e quinientos e un años. Yo el Rey, yo la Reyna. Por mandado del Rey e de la Reyna, Gaspar de Griçio.

E la dicha Cédula de sus Altezas ansi presentada e leyda por mi el dicho escribano, el dicho señor conde tomó la dicha Cédula de sus Altezas en sus manos en la besó e puso ençima de su caveza e dixo que la vedeçia (sic) e obedeció con la reberençia devida ansi como a carta e mandado de sus Rey e Reyna e señores naturales a quien Dios nuestro señor dexe bibir e reynar por muchos e largos tiempos a su santo serviçio como por sus altezas es deseado e que en quanto al cumplimiento d'ella que mandava e mandó al honra do Pedro Doro, su alcalde mayor de la dicha Alanbra que diese y entregasa aldicho Rodrigo de Avalos e nonbre del dicho señor Adelantado, la posesion autual, corporal, real vel casi d'ellas dichas casas e de todo lo demás contenido (fol. 4 v.º) en la dicha Cédula según e de la forma e manera que sus Altezas por la dicha Cédula lo mandan, para lo qual le dió poder complido con todas sus yncidençias e dependencias e luego el dicho alcalde poniendo en efeto el mandamiento del dicho señor conde fué a las casas prinçipales contenidas en la dicha Cédula de sus Altezas e fiso salir fuera d'ellas a todos los vezinos que en ellas estavan e posavan e tomó por la mano al dicho Rodrigo de Avalos e dixo que le ponia e puso e nonbre del dicho señor Adelantado en la posesión de las dichas casas autual, corporal, real vel casi e el dicho Rodrigo de Avalos luego echó fuera al dicho alcalde e a otras personas que end'estavan e se quedó dentro d'ellas y en señal de posesión çerró las puertas prinçipales de las dichas casas por de dentro e luego yncontinente asi de la mano lo trajo el dicho alcalde andando e paseando por el dicho corral dende el arco e las dichas albercas e establos e despensa e coçina e por todo lo otro contenido en la dicha Cédula, e le dió la posesión de todo ello según e de la forma e manera que en la dicha Cédula de sus Altezas se contiene e deslinda a el dicho Rodrigo de Avalos entró en todos los dichos establos e coçina e otras casillas que están en el dicho corral, echó de todas ellas a los moradores que en ellas avia e çerró las puertas de todo ello por dentro en señal de posesion de todo lo qu'el dicho Rodrigo de Avalos enonbre (sic) del dicho señor Adelantado de Murçia se dió e otorgó por contento, entregado a toda su voluntad... e mandó ser dado el dicho testimonio de la dicha posesión firmado e signado en manera que faga fee e firmado de su nonbre al dicho Rodrigo de Avalos en el dicho nonbre según que le hera pedido, a lo qual todo e a dar y entregar de la dicha posesion fueron presentes por testigos Xorge de Avalos e Gomez Muños Salar, escuderos estantes en esta Alanbra e Juan Vazquez, zapatero, e yo el dicho Alfonso Fernandez de Sevilla, escrivano del Rey e de la Reyna, nuestros señores e su escrivano e notario público en la su corte y en todos los sus reynos e señorios e escribano de la dicha Alanbra en uno con el dicho alcalde e parte e testigos presente fuí a dar y entregar la dicha posesion e doy fee qu'el dicho alcalde aquí firmó su nonbre e lo escrebí e fiçe aquí este mio signo en testimonio de verdad, Alonso Fernandez, notario público, Pedro de Oro.

Demanda Muy illustre señor

En nonbre de don Miguel Chacón vezino de la villa de Calabazanos digo que tenien do e poseyendo don Juan Chacón padre de mi parte unas casas que son en esta Alhan bra que eran de los Abençerrajes en que an bibido e biben el contador Rodrigo Maldo nado e su muger e hijos y otra casa que solia ser despensa del dicho don Juan Chacón en que bibe al presente Charles de Ripa, por arrendamiento que d'ella le hizo su herma na [illegible] de Sazedo, boticario difunto, que son enfrente las otras, por merçed de los seño res Reyes Católicos don Hernando y doña Ysabel, el dicho don Juan Chacón falleçió y pasó d'esta presente vida, y perteneçiendo las dichas dos pares de casas a mi parte, como a hijo y heredero del dicho don Juan Chacón, su padre y de doña Ynés Manrique, su madre cuyas heran las herençias de los quales mi parte tiene açebtadas y si es neçesario de nuevo las açebta con benefiçio de ynventario, nuevamente a venido a notiçia de mi parte que los dichos contador Maldonado y su muger y hijos y Charles de Ripa y la dicha su hermana y Françisco de Barrionuevo, se an entrado en ellas y al presente las habitán y morán, aunque algunos d'ellos con liçençia y por mandado de vuestra seño ria y del señor marques de Mondejar, y por que de derecho perteneçen a mi parte, por los dichos titulos y son suyas a vuestra señoria pido e suplico por aque remedio que me jor de derecho lugar aya y a la justiçia de mi parte convenga, le mande entregar la po sesion de de las dichas dos pares de casas con todo lo a ellas anexo y perteneçiente y an pararle en ella, condenando y conpeliendo a las personas suso dichas las dexen y entre guen a my parte, libres y desenbaraçadas ya que le dén y paguén los alquileres que jus tamente an mereçido de todo el tiempo que en ellas an bivido y bibierén hasta que real mente las entreguen a my parte, para lo qual su muy illustre ofiçio ynploro y pido justiçia y costas y juro a Dios y a esta cruz † en anima de mi parte que no lo pido de maliçia.

Otro si digo, que para en prueva de su yntinción de mi parte, hago presentaçión de todas estas escrituras, que van ynsertas en este quaderno, y asi mismo d'estas dos ynfor maçiones y provanças, todas las quales presento en quanto por mi parte hazen y no en más ny allende. El dotor Sanchez.

Presentaçión.

En el Alhanbra a dos dias del mes de julio de mill e quinientos e quarenta e çin co años presentó esta petiçión e çiertos testigos Baltasar Ramirez en nonbre del dicho don Miguel e pidió (roto)

Traslado.

En la Alhanbra a quatro dias del mes de agosto de mill e quinientos y quarenta y çinco añoñs, vista esta petiçión e las dichas escripturas, por el muy ilustre señor don Yñi go Lopez de (sic) Mendoça, conde de Tendilla señor de la villa del Prado, capitán general del Reyno de Granada, ecetera, mi señor, mandó que se notifique a las personas que bi ben en las dichas casas y que respondan a ella si tienen que dentro de sehis? dias.

Notificaçión a Charles.

En la Alhanbra a ocho dias del mes de agosto de mill e quinientos e quarenta e cinco años y [illegible] dicho escrivano [illegible] dicho [illegible] el [illegible]

qual pidió traslado, testigos Martín de la Serna, escudero en la conpañia de Gil Gonzales de Quesada.
A Barrinuevo.
Este dicho dia lo notifiqué a el dicho Françisco de Barrionuevo, testigo Pedro de la Parra e el dicho Martín de la Serna.
Al contador Maldonado.
En la Alhanbra a nueve dias del mes de setiembre del dicho año de mill e quinientos e quarenta e çinco años y del dicho escribano notyfiqué la dicha demanda a el dicho contador don Rodrigo Maldonado, el qual pidió traslado, testigos Antonio (o Alonso) de Valdés, alcalde mayor de esa Alhanbra e Cristobal de Arze, alguacil mayor d'ella.
Don Miguel Chacón.
Que se notifique e que responda dentro de onçe dias.
En Granada a çinco de octubre de 1545 años la presentó Baltasar Ramirez, en nonbre de su parte.
Muy illustre señor
Baltasar Ramirez, en nonbre de don Miguel Chacón, en el pleito que trata con Charles de Ripa y los otros su consortes, respondiendo a la petiçión por parte de dicho Charles de Ripa presentada, digo que sin enbargo de todo lo por ella dicho y alegado, Vuestra Señoria debe mandar hazer lo por mi parte pedido, por lo dicho e alegado y por que la prescripçión en que la parte contraria se funda, no a corrido ny podido correr contra mi parte, porque a estado absente y a sido menor de veynte y çinco años y las partes contrarias no an tenido titulo ny buena fe, antes sabiendo las dichas casas perteneçian a mi parte, se entrarón en ellas, por lo qual e por otras causas que en la presecuçión d'esta causa protestó dezir y alegar la dicha prescripçión no a corrido contra mi parte, por que pido y suplico a V. S.ª mande hazer en todo se provea? que tengo pedido, para lo qual su muy illustre ofiçio inploro y pido justiçia y costas y concluyo sin enbargo. El dotor Sanchez.
En la Alhanbraa diez dias del dicho mes de otubre del dicho año. Vista la dicha petiçión por su señoria mandó que se notifique a las otras partes e que respondan a ellas.
En la Alhanbra a dos dias del mes de noviembre de mill e quinientos e quarenta e çinco años, notifiqué lo suso dicho al dicho Françisco de Barrionuevo e pidió traslado, testigos Cristobal de Arze, alguazil mayor d'esta Alhanbra e Bartolomé...
En la questa del Alhanbra a cyete diaas del dicho mes de novienbre, notyfiqué lo suso dicho al dicho contador Maldonado, el qual dixo que él ni posee las dichas casas que le demandan ni ay por que se le pidan a él, que las demanden a quien vieren que les conviene, testigos Antonio de Vergara, vedriero, veçino del Alhanbra.

دور الطراز في الأندلس
في عصر دولة بني أمية

دور الطـــراز فى الانـــدلس
فى عصر دولة بنى أمية

يرجع الفضل الأعظم فى تمصير قرطبة وتجميلها ، وتنظيم شئون الادارة والحكم فى الأندلس الى الأمير عبد الرحمن معاوية المعروف بالداخل (١٣٨ - ١٧٢هـ) ، فهو الذى دون بها الدواوين "ورفع الأواوين وفرض الأعطية ، وعقد الألوية ، وجند الأجناد ، ورفع العماد ، وأوثق الأوتاد ، فأقام للملك آلته ، وأخذ للسلطان عدته (١) "فشهد له ألد خصومه ببعد مرقى همته ومضاء عزيمته ولقبه أبو جعفر المنصور بصقر قريش (٢) : فقد عمل عبد الرحمن على احاطة نفسه بهالة من فخامة الملوك وأبهة الخلفاء وحاول أن يجدد ما طمس لبنى أمية فى المشرق من معالم الخلافة ويسترجع ما انقرض من آثارها (٣) . ويذكر ابن حيان أنه أول من أنشأ دار البرد بالأندلس (٤) ، ونعتقد أن دار البرد المذكورة كانت تختص بحياكة البرود ، ثم أضيفت اليها دار الطراز فى عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط ، فاتسعت بذلك مرافقها (٥) ، وكان الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨هـ) رجلا على مستوى عال من الثقافة والعلم، عالما متبحرا فى علوم الشريعة والفلسفة ، وكان من أعظم أمراء بنى أمية فى الأندلس الذين وضعوا الأسس الأولى لحضارة الأندلس التى بلغت ذروة تقدمها فى عصر الخلافة ، فقد خص أهل العلم والأدب والفن برعايته وكان مكرما لاهل الادب والفن والصناعات ممن ضاق المشرق بمواهبهم ، فأدناهم اليه ورفع منازلهم ، كما كان مولعا بالتمصير والانشاء والتعمير ، فهو الذى أضاف الى جامع قرطبة زيادتين متتابعتين ، وأقام القصور والمتنزهات ، وأسس مدينة مرسية ، ورتب رسوم الملكة وأول من

فخم السلطنة بالأندلس وأحدث الطرز ، واستنبط عملها (٦) ، كما أحدث بقرطبة دار السكة ، وضرب النقود باسمه ، ولم يكن فيها ذلك منذ أن اقتحمها المسلمون . واليه يرجع الفضل الأعظم فى فتح أبواب الأندلس على المشرق بعد أن كانت موصدة فى وجهه ، وأهم ما أنجزه فيما يتعلق بالصناعات قيامه بانشاء دار الطراز الخاصة بقرطبة ، وكانت الأندلس قبله تعتمد فى ذلك على ما كان يجلب اليها من المنسوجات المشرقية من مصر والعراق والشام . والغريب أن ابراهيم بن حجاج الذى استقل باشبيلية وقرمونة وما والاهما فى عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٧٥ - ٣٠٠هـ) اتخذ طرازا باشبيليه "يطرز فيها على اسمه كفعل السلطان اذ ذاك" (٧) . وظلت دار الطراز باشبيليه تنافس دار قرطبة الى أن سقطت دولة بنى حجاج على يد عبد الرحمن الناصر فى سنة ٣٠١هـ .

كان يتولى دار الطراز زمن الأمير عبد الله ريان الفتى (٨) وفى سنة ٣١٣هـ ولى خلف الفتى الكبير الطراز (*) ثم تولى بدر مولى عبد الرحمن الناصر خطة البرد بالاضافة الى الحجابة والوزارة وخطة الخيل منذ اليوم الذى بويع فيه عبد الرحمن بالامارة فى سنة ٣٠٠هـ (٩) . وأسند الناصر ولاية الطراز سنة ٣١٣ الى خلف الفتى الكبير (١٠) . ويبدو أن تسميته دار الطراز مرة بالطراز ومرة بدار البرد أو خطة البرد ظل قائما الى أن ضمت التسميتان معا بعد أن تعرضت دار البرد الملاصقة لقصر الخلافة بقرطبة لحريق حدث فى ٢٠ شعبان سنة ٣٢٤هـ ، فأتت النيران عليها ، وعندئذ بادر الخليفة عبد الرحمن الناصر بتجديد عمارتها فأمر باعادة دار البرد على رسم رسمه ، دل على فضل معرفته ، ومغاص حكمته ، فسما بناؤها ، ونصبت أبوابها على ما حد ، ورفعت فوقها عليه توفى عليها ، ويؤمن معها الاضرار بها" (١١) ونستدل من رواية ابن الخطيب فى أعمال الأعلام أن دار الطراز والبرد اتسعت اتساعا كبيرا وشملت العديد من المرافق وأصبحت تشبه بما أضيف اليها من منشآت المدينة . يقول ابن الخطيب "ومن آثاره التى ضربت بها الأمثال ، وقضيت منها العجائب ، حال الطراز ببابه لنسج ما يحتاج اليه من الخلع والكسى وملابس الحرم وغير ذلك . فقد كان (أى دار الطراز) على عهده مدينة تشتمل على آلاف من الخلق . قد

اتخذت فيها المرافق والمساجد والحمام والسوق ، ولو تتبعنا أصنافهم وما كانوا يحاولونه من صناعاتهم ويناغون به المشرق من بضائعهم ، ومقدار جراياتهم ونفقاتهم لضاق عنه الكتاب (١٢) .

واستمرت هذه الدار على هذا النحو من الاتساع حتى ضاقت بها السوق الكبرى المجاورة للقصر الخلافى الى أن كانت أيام الحكم المستنصر با لله بن الناصر ، الذى أمر بنقلها فى المحرم سنة ٣٦١هـ من موضعها الى دار الزوامل بالمصارة بالطرف الغربى من قرطبة ، وأقام فى الموقع الذى كانت تشغله دار الطراز أو دار البرد حوانيت للبزازين ليتسع بها سوقهم ، فى حين نقلت دار الزوامل من موضعها الذى احتلته دار الطراز الى الدار الواقعة على مقربة من المحبس عند قصر الناعورة (١٣) وأصبحت دار البرد والطراز القديمة بذلك قيسارية للتجار توسعت بها السوق (١٤) .

وهكذا أصبحت لدار الطراز ودار البرد خطه بهذا الاسم أسند الحكم المستنصر با لله ولايتها الى فائق النظامى الفتى الكبير الصقلى (١٥) الذى ارتفعت مكانته لدى الحكم، فنقله من داره الى دار الحاجب جعفر بن عبد الرحمن الصقلى الذى توفى فى سنة ٣٦٠هـ(١٦) ، وكانت تعرف آنذاك بخطة الطراز والبرد ، وظل فائق النظامى يتولاها فى حياة الحكم الى أن توفى الحكم فى ٤ صفر سنة ٣٦٦هـ ، وكان فائق وقت وفاة الخليفة على رأس جميع الصقالبة ، وكان يليه فى المرتبة صاحبه جؤذر صاحب الصاغة والبيازرة(١٧) .

ومن المعروف أن دار البرد والطراز هذه هى الدار الخاصة بالخليفة الأموى ، أى أن انتاجها قاصر على استخدام الخليفة ومن يخلع عليهم من كبار رجال الدولة أو عظماء الوافدين على الحضرة القرطبية من أمراء المغرب الموالين له ، ويتميز انتاج هذه الدار بأنها تحمل فى نسيجها نقوشا كتابية تشتمل على أدعية للخليفة أو تحمل اسم من أهديت اليه فى بعض الأحيان اذا كان من الشخصيات الهامة من ذلك الملابس السنية والكسى الفاخرة التى هادى بها عبد الرحمن الناصر محمد بن خزر فى سنة ٣١٧هـ ، فقد نسج عليها اسم

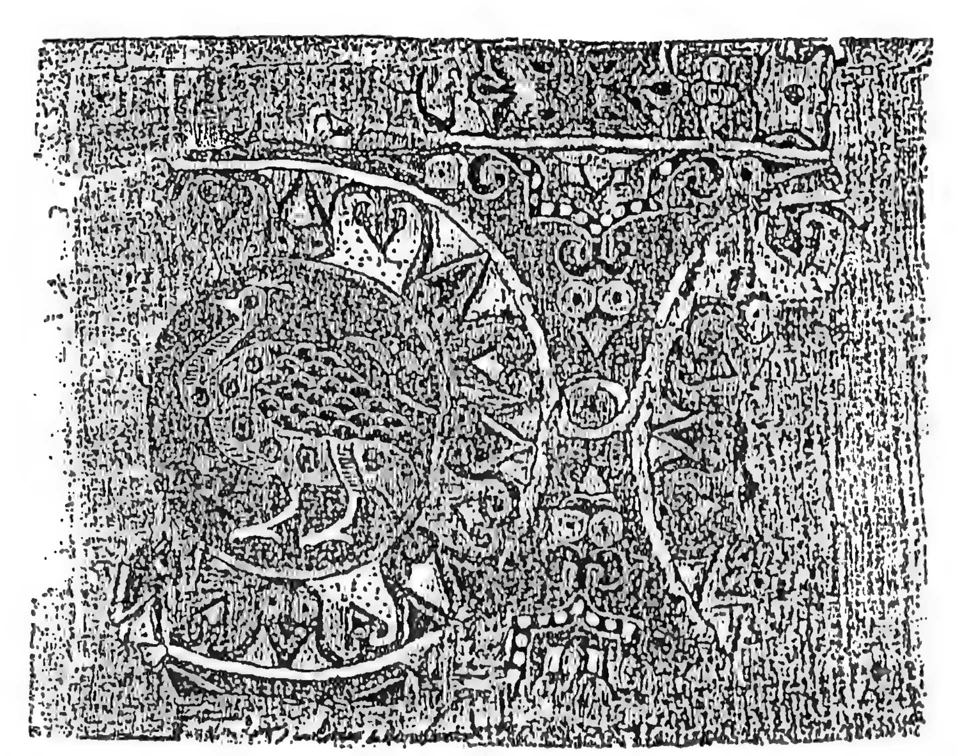
محمد بن حزر تقدير لشخصه ويعلق ابن حيان على ذلك بقوله "وكان الذى اختصه به فى تطريزه لما اصطنعه من خاص هديته هذه من الملابس فى طرازه الخاص باسم محمد بن حزر أعظم قدرا من ذلك اذ كان شيئا لم يتقدم للملك قبله الى ولى من أوليائه ، قد اعتد به عليه الناصر لدين الله إنافة قدر المنزلة فى الجواب النافذ اليه اذ قال فى فصل منه جرده آخر الكتاب

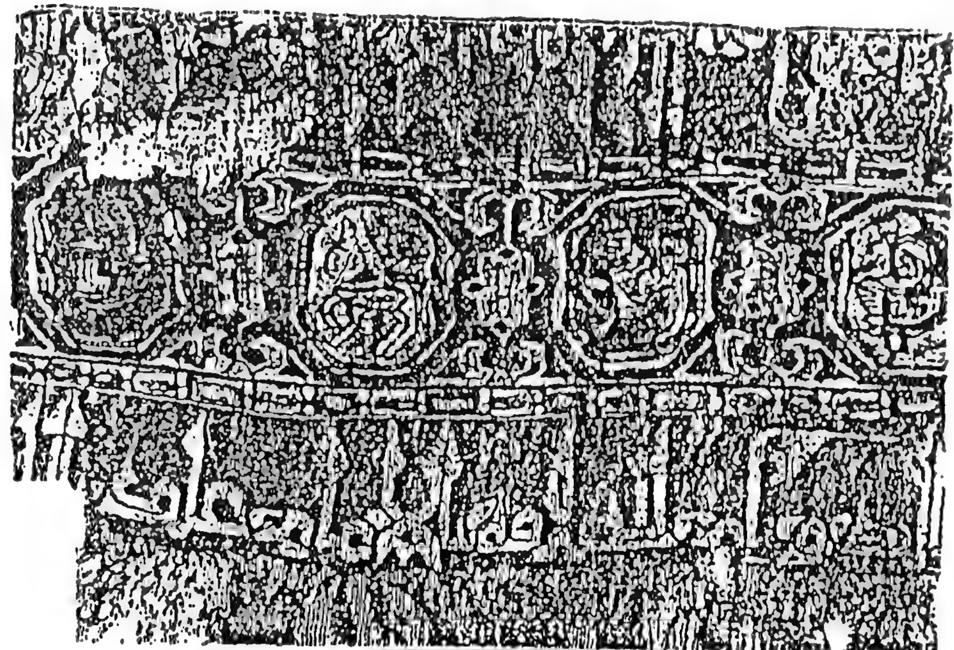
ولما حللت من حسن رأى أمير المؤمنين المحل الذى حللته ، ونزلت من نفسه المكان الذى نزلته ، ذهب ألا يهاديك من لبوسك الا بما استعمله لنفسه فى طرازه الخاص على اسمك، وهذا أمر لم يفعله من تقدم من الاعاظم بالمشرق والمغرب بأخذ قرب وعظم محله . فخصك من ذلك بعشر قطع مختلفة الأجناس مما استعمل لكسوته الخاصة من عتيق الخز العبيدى وغريبه وبديعة فى التأليف والصنعة مطرزة باسمك . لم يعمل قط مثلها فى طرز بنى العباس وهذا ما يبقى لك فخره ويتلد لك ولعقبك سناؤه وذكره ، ما بقيت لكم باقية ، وثواب الله خير عقبى"(١٨)

وهكذا كانت دار الطراز الخاصة بالخليفة مخصصة لاهداء الخلع الى المقربين اليه ، ومن بين الهدايا التى أنعم بها الناصر على الوافدين اليه من زعماء المغرب هديته الى موسى بن أبى العافية سنة ٣١٩هـ وكانت تشتمل على الكسى الرقيقة من الخز مختلف الأجناس ما بين شقة وعمامة وبرنس ما يقدر عدده بخمس وعشرين قطعة ومن اللبود الطرازيه الأرجوانية عشر قطائع (١٩) وكان الحكم المستنصر بالله يهادى أمراء البربر بالعدوة كثيرا من فاخر الكسوة(٢٠) كما كان المنصور محمد بن أبى عامر يهادى ملوك أسبانيا المسيحية والقوامس المعاهدين وكذلك من حسن بلاؤه من المسلمين فى الحروب والغزوات بفاخر المنسوجات والكسى من انتاج دار الطراز بقرطبة ، ويذكر ابن عذارى أنه وزع فى غزوته الثامنة والأربعين الى شنت ياقب سنة ٣٨٧ "ألفين ومائتين وخمسا وثمانين شقة من صنوف الخز الطرازى ، وواحدا وعشرين من صوف البحر (٢١) ، وكسائين عنبرين ، وأحد عشر سقلاطونية (٢٢) ، وخمس عشرة مربشات ، وسبعة أنماط ديباج . وثوبى ديباج رومى وفروتنك" (٢٣) ويعلق ابن الخطيب على هذه الهدية النفيسة بقوله "وبلغت كسى

المنصور في هذه الغزاة الى ألفي كسوه وهـذا شيء يضيق عنه سـحه الملوك الدس دون ملوك بني مرين أعزهم الله بنصره فقد كانت الكسى لأول هده الدولة التي رفع الوزير المعظم معتمدنا بهذا الكتاب لواء الوفاء لها والكـذب عنها مذكـرة بهـده العهـود ومحدده لشأنها بحيث تتهم الحكاية ويقصر الوصف" (٢٤) وكان المنصور بن أبي عـامر يستدعي أجناد البربر الى الاندلس ، فيخلع على الرجل منهم بلباس الخـز الطرازى بدلا من لباسه الخلق (٢٥) .

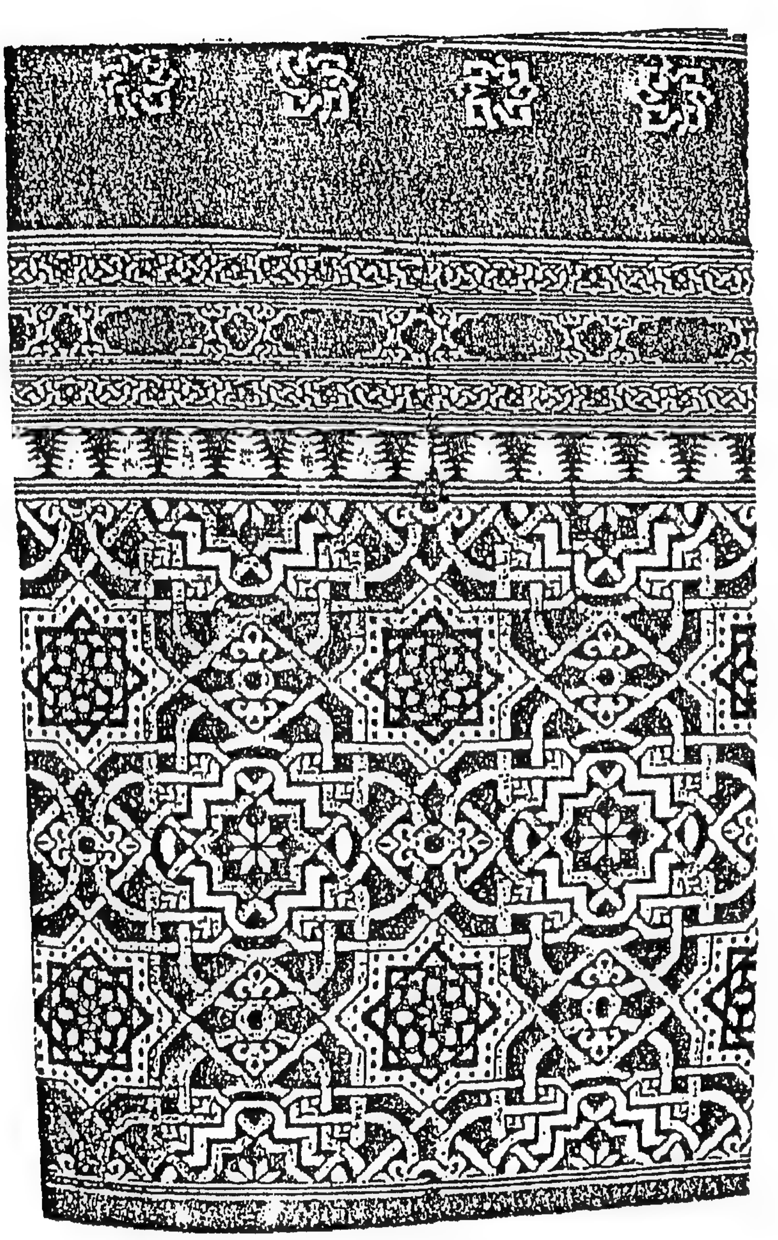
ولم يتبق من انتاج الطراز بقرطبة سوى قطعة من النسيج الرقيق تعرف بطـراز هشـام المؤيد بـالله عثر عليهـا فـي سـانت استيبان دى جورماث (غورماج) . وتحتفـظ بهـا اليـوم الأكاديمية التاريخية بمدريد ، وهي غشاء أصفر اللون من الكتان الرقيق يزدان بشريط عريض أبيض اللون يميل الى الاصفرار ، ينقسم الى ثلاثة مناطق ، الوسطى منهـا تشغلها ١٣ جامـة مثمنة الشكل على أرضية مذهبة ، تتصل فيما بينها بأشكال نجمية ، وبداخل الجامات صـور أشخاص متربعين في جلستهم يمسك أحدهم بقنينه . أو صـور حيوانـات تعورهـا الرشـاقة أحدها يمثل أسدا مجنحا، أما المنطقتان العليا والسفلى فيشغلهما نص كتـابي منسـوج بـالخط الكوفي ، تميل رؤوس السيقان في حروفها مـن أعلـى الى الداخـل . ونطـالع فيـه مـا يلـى (بسم الله الرحمن الرحيم البركة مـن الله واليمن والـدوام للخليفـة الامـام عبـد الله هشـام المؤيد بالله أمير المؤمنين) (٢٦) وتشبه الرسوم المنسوجة على هده القطعة نقوشا تزدان بهـا بعض العلب والصناديق العاجية من صناعة مدينة الزهراء في عصـر الخلافـة ومـن الجديـر بالملاحظة أن بقية أجزاء القطعة منسوجة من الخز وتزدان بألوان بيضـاء وزرقـاء وخضـراء وصفراء ووردية بين خطوط سوداء (٢٧) ويتجلى في هـده القطعـة بوضـوح أثـر التقـاليد الفنية العراقية ، ومن المعروف أن التأثيرات العراقيه بدأت تتدفق علـى الأندلـس منـد عهـد الأمير عبد الرحمن الأوسط الذى لم يكن يتحـرج مـن اتخاذ الثيـاب العراقيـه رغـم العـداء السياسى القديم بين بغداد وقرطبة منذ قيام دولة بني أمية في الأندلس ويـدل على ميـل هذا الأمير لارتداء الثياب العراقية المجلوبه من بغداد من نص اورده بن القوطيه ... الشاعر عبد الرحمن بن الشمر دخل على الامير عبد الرحمن يوما ، عليه ... في عصـر





قطعة من النسيج طراز هشام المؤيد صناعة دار الطراز بقرطبة

من القرن الرابع الهجرى



قطعة من النسيج طراز غرناطة

(القرن التاسع الهجرى)

عراقية (٢٨) . ويؤكد هذه الحقيقة قطعة من النسيج المعروف بنسيج الفيلة محفوظة بكنيسه سان ايسيدرو بليون تزدان بدوائر بداخل كل منها صورة فيلين متقابلين بينهما شجرة الحياة، ويعلو ظهر كل من الفيلين أسد يفترس الفيل ، وعلى ظهر الأسد صفران رأساهما متدابران . ونسج حول كل دائرة طراز من الكتابة الكوفية نصها : (البركة من الله واليمن... لصاحبه أبى بكر مما عمل فى بغداد) نسجت طردا وعكسا (٢٩) . لقد كانت للمنسوجات العراقية سوق رابحه فى الأندلس ، اذ كانت الموصلية والعتابية البغدادية والجرجانية من النسيج المستطرف عند أهل الأندلس تعبر عن الأناقة والفخامة فى آن واحد، ولهذا اتخذت نموذجا احتذاه الطرازون فى مدينة المرية فى عصر المرابطين كما سنوضح فيما بعد . وكانت هذه المنسوجات العراقية المجلوبة من العراق وخراسان فى عصر الخلافة من بين الهدايا التى قدمها الوزير أحمد بن شهيد الى الخليفة عبد الرحمن الناصر ، ومن بينها سبعة أفرية بيض من نفيس الفنك خراسانية ، وستة مطارف عراقية خاصة له ، و٤٨ من الملاحف البغدادية لزينة الخيل مصنوعة من الحرير المذهب، وستة من السرادقات العراقية (٣٠) .

وبالاضافة الى دار الطراز الخاصة بقرطبة ودار الطراز الخاصة التى اتخذها ابراهيم ابن حجاج باشبيلية تعددت دور الطراز العامة التى خصصت لأهل الأندلس ، وكانت موزعة على معظم مدن الأندلس بالاضافة الى بعض التجمعات العمرانية القروية التى كانت لديها أنوال لنسج المنسوجات الكتانية أو القطنية أو الحريرية . فكانت بالمرية وبجانة ومالقة ومرسية وغرناطة واشبيلية وقرطبة وبطليوس وشنترين ولشبونة وغيرها من مدن الأندلس دور طراز عامة. واختصت بعض هذه المدن بنوع معين من المنسوجات ، فقد ذاعت شهرة بجانة فى صناعة الحرير ، الى أن ظهرت المرية فانتقلت اليها هذه الصناعة (٣١) ، كما ورثت المرية أيضا شهرة قرطبة فى صناعة الوشى والديباج (٣٢) وذلك بعد سقوط الخلافة الأموية وقيام الفتنة البربرية ، فقد ذكر ياقوت أنه كان يعمل بقرطبة "الوشى والديباج فيجاد عمله، وكانت أولا تعمل بقرطبة ، ثم غلبت عليها المرية ، فلم يثقف فى الأندلس من يجيد عمل الديباج احادة أهل المرية" (٣٣) واشتهرت اشبيلية بصناعة نوع من النسيج لا يتأثر بماء

المطر (٣٤) ، كما عرفت بنسج القطن الذى ينبت فى أرضها ويحسن ويزكو فى بقعتها(٣٥). واشتهرت بجانة بصناعة الحرير (٣٦) ، ويذكر ابن حوقل أن أردية أهل الأندلس المصنوعة فى بجانة كانت تحمل الى مصر ومكة واليمن وغيرها (٣٧) واحتفظت بجانة بهذه الشهرة حتى فاقتها المرية فى هذه الصناعة ، فانتقلت اليها صناعة الخز والحرير والحلل الموشية والديباج اليها . ويذكر ابن سعيد نقلا عن ابن فرج قوله : "حدث فيها (أى المرية) من صنعة الوشى والديباج على اختلاف أنواعه ومن صنعة الخز وجميع ما يعمل من الحرير ما لم يبصر مثله فى الشرق ولا فى بلاد النصارى" (٣٨) ، وهو ما أكده الرازى فى قوله : "المرية مفتاح الرزق والكسب ، وموطن الحذاق من أصحاب الصناعات .... وفيها يصنع أيضا الحلل الموشية النفيسة" (٣٩) . وذاعت شهرة مرسية فى عصر الدولة الأموية "وبالطراز العجيبة والصناعة الغريبة للوطاء والبسط"(٤٠)، كما اختصت سرقسطة بصناعة السمور وفى ذلك يقول العذرى : "ولأهلها فضل الحكمة فى صنعة السمور والبراعة فيه بلطيف التدبير ، يقوم فى طرزها بكداها منفردة بالنسج ، وهى الثياب المعروفة بالسرقسطية، لا تدانى تلك الصنعة ولا تحكى فى أفق من الآفاق" (٤١) . وتقدمت بسطة واشتهرت بصناعة الحرير وكان يتوفر فيها من شجر التوت مالا يحصى (٤٢) . وكان ببسطة الطرز الشريفة (٤٣) .

واستمرت دار الطراز الخاصة بقرطبة تباشر عملها فى عصر الفتنة ، فقد ذكر ابن بسام أن المستظهر با لله أقر على مراتب الخدمة طوائف منهم خدمة الطراز (٤٤) .

هوامش البحث

([1]) المقرى ، نفح الطيب ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، ج١ ، القاهرة ١٩٤٩ ص ٣١٠ - محمد محمد مرسى الكحلاوى ، مراكز صناعة الحرير فى الأندلس من خلال النصوص التاريخية مع تطبيقات على بعض من منسوجاتها الحريرية ، مجلة كلية الآثار ، العدد الرابع ١٩٩٠ ، القاهرة ص ٢٠٢ .

([2]) أخبار مجموعة فى تاريخ الأندلس ، لمؤلف مجهول ، نشره دون لافونتى القنطرة ، مدريد ، ١٨٦٧ ، ص١١٩ ابن عذارى ، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، نشره ليفى بروفنسال وكولان ، ليدن ، ج٢ ، ١٩٤٨ ، ص ٥٩ ، ٦٠ .

([3]) المقرى ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ٣٠٨ .

([4]) يقول ابن حيان فى المقتبس : "كانت هذه الدار البردية (يقصد دار البرد أو دار الطراز كما شاعت تسميتها فيما بعد) من بنيان الأمير الداخل عبد الرحمن بن معاوية رحمة الله عليه" ، "المقتبس، تحقيق د. عبد الرحمن الحجى ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ٦٦) كما يذكر أنها كانت تقع بغربى قصر قرطبة وفى صدر سوقها العظمى .

([5]) السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة فى الاندلس ، ج١ ، الاسكندرية ، بدون تاريخ ، ص٢١٥.

([6]) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج٢ ، ص ٩١ .

([7]) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٢٧

([8]) ابن عذارى ، نفس المصدر ، ج٢ ، ص١٤٨ وقد توفى ريان الفتى صاحب الطراز فى سنة ٢٩٨هـ .

([*]) ابن عذارى ، ج٢ ص ١٩١ .

([9]) ابن عذارى ، نفسه ، ج٢ ص ١٩١ .

([10]) نفس المصدر ، ص ١٩١ .

([11]) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق د. شالميتا ، وكورينطى وصبح ، مدريد ، ١٩٧٩ ، ص ٣٨٣

([12]) ابن الخطيب ، كتاب أعمال الأعلام ، تحقيق وتعليق ليفى بروفنسال ، بيروت ، ١٩٥٦ ، ص ٤٠

([13]) ابن حيان ، المقتبس ، القسم الخاص بالحكم المستنصر ، تحقيق د. الحجى ، ص ٦٦ .

([14]) ابن حيان ، المقتبس القسم الخاص بعبد الرحمن الناصر ، تحقيق شالميتا ص ٣٨٣

([15]) ابن حيان ، تحقيق الحجى ، ص ٣٠

([16]) نفس المصدر ، ص ٦٦

([17]) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج٢ ص ٢٦

(١٨) ابن حيان ، تحقيق شالمينا ، ص ٢٦٨

(١٩) نفس المصدر ، ص ٣٠٨ .

(٢٠) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٣٤٧

(٢١) هو نوع من الوبر الصوفى يجمع بين لين الخز وبريق الذهب يتساقط من حيوانات بحرية على ساحل شنترين وفى ذلك يقول الاصطخرى "وتقع بشنترين فى وقت من السنة من البحر دابة تحتك بحجارة على شط البحر فيقع منها وبر لين الخز ، ولونه لون الذهب لا يغادر منه شيئا ، وهو عزيز قليل ، فيجمع وينسج منه ثياب ، فتتلون فى اليوم ألوانا ، ويحجر عليها ملوك بنو أمية ، ولا ينتقل الا سرا ، وتزيد قيمة الثوب عن ألف دينار لعزته وحسنه "(الاصطخرى ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحينى ، القاهرة ، ١٩٦١، ص ٣٥ - المقدسى ، احسن التقاسيم فى معرفة معرفة الأقاليم ، تحقيق دى غويه ، ليدن ١٩٠٦ ، ص٢٤٠)
وكان هذا الحيوان البحرى يعرف بأبى قلمون (المقدسى ، ص٢٤٠)

(٢٢) سقلاطونية صفة من كلمة سقلاطون ، وهو مصطلح من أصول يونانية Ciclation أطلق فى الغرب الأوروبى وكان يعرف فى اللغة الفرنسية القديمة باسم Siglaton Blachere
Extraits des principaux geographes arabes du Moyen age , Paris - Beyrouth , 1932 , pp. 197 - 198)
وقد أطلق هذا الاسم فى الغرب الأوروبى على نسيج من الحرير مطرز بالذهب ، اختصت بغداد بصناعته، وأعتقد أنه سمى بذلك الأسم بسبب رسومات الدوائر التى تحملها المنسوجات البيزنطية والساسانية والاسلامية
(Marques de Lozoya, Historia del arte Hispanico, t. I. Barcelona , 193 , p. 268)

(٢٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج٢ ص ٢٩٦ . هذا وقد عرفت قرطبة بصناعة الفنك من فراء السمور (المقرى ، نفح الطيب ، ج١ ص ١٨٤)

(٢٤) ابن الخطيب ، كتاب أعمال الأعلام ، ص ٦٨ .

(٢٥) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٢٧٩ .

(26) Levi - Provencal . Insdriptions arabes d'Espagne . Paris , 1931 , p. 127 .

(٢٧) جومث موريمو ، الفن الاسلامى فى اسبانيا ، ترجمة د. أحمد لطفى عبد البديع ، والدكتور السيد عبد العزيز سالم ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٤١١ - محمد عبد العزيز مرزوق ، الفنون الاسلامية فى المغرب والاندلس ، بيروت ص ١٠٧

(٢٨) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، نشر خليان ريبيرا ، مدريد ١٩٢٠ ص

(٢٩) السيد عبد العزيز سالم ، فى تاريخ وحضارة الاسلام فى الأندلس ، الاسكندرية ، ١٩٨٥ ، ص ٢٧٨ - محمد الكحلاوى ، المرجع السابق ، ص ٢٢٠ .

(٣٠) المقرى ، نفح الطيب ، ج١ ص ٣٣٥ .

(٣١) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، نشره ليفى بروفنسال، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٣٨ - لمزيد من التفاصيل عن صناعة الحرير فى الاندلس ارجع الى محمد محمد الكحلاوى ، المرجع السابق ، ص ٢٠٨ وما يليها .

(٣٢) كانت دار الطراز الخاصة تنتج ثياب الخلفاء من الحرير المختم المرقوم بالمذهب المختلف الألوان (ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج٤ طبعة بولاق ، ١٢٨٤هـ ، ص ١٣٨ - المقرى ، نفح الطيب، ج١ ص ٢٣٤) . وذكر الرازى ان من بين المنسوجات التى تنتجها قرطبة فى عصر الدولة الأموية بالأندلس الأقمشة الناعمة والمنسوجات الحريرية السميكة وغير ذلك

(Levi - Provencal , La Description d'Al - Andalus de Razi, al- Andalus , vol. XVIII, 1953 , p. 65 .

(٣٣) ياقوت ، معجم البلدان ، المجلد الخامس ، ص ١١٩ .

(٣٤) ابن حوقل ، صورة الأرض ، تحقيق كرامرز ، ليدن ، ١٩٣٨ ، ص ١١٤ .

(٣٥) العذرى ، نصوص عن الأندلس ، تحقيق د. عبد العزيز الأهوانى ، مدريد ، ١٩٦٥ ، ص ٩٦ وأنظر ابن غالب ، قطعة من كتاب فرحة الأنفس ، ص ٢٩٢ .

(٣٦) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٣٨ - محمد الكحلاوى ، المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

(٣٧) ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ١١٤ .

(٣٨) ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق الدكتور شوقى ضيف ، ج٢ ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ٩٣ وما يليها .

(39) Levi - Provencal . La Description d' Al-Andalus , Op cit , p. 67 .

(٤٠) العذرى المصدر السابق ، ص ٩ . وذكر الحميرى أن لأهل مرسية حذق بصنعة البسط الرفيعة الشريفة وتجديدها لا يبلغه غيرهم (الحميرى ، ص ١٨٢) ويطلق المقرى على هذه البسط اسم التنتالية نسبة الى تنتاله من عمل مرسية (المقرى ، ج١ ص ١٨٧) ولعلها حجاله الواقعة شكمالى مرسية (الحميرى ، ص ٦٧) .

(٤١) نفس المصدر ، ص ٢٢ والسمور حسب ما ذكره المقرى عن الحجارى حيوانٌ يعمل من وبره الفراء الرفيع (المقرى ، نفح الطيب ، ج١ ، ص ١٨٤) ، وقارن بما ذكره محمد الكحلاوى المرجع السابق

(42) مجهول ، ذكر بلاد الاندلس ، تحقيق لويس مولينا ، ص ٧٦ .

(43) ابن غالب ، قطعة من كتاب فرحة الانفس ، تحقيق د. أحمد لطفي عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ١٩٥٦ ، ص ٢٨٤ – محمد الكحلاوى ، المرجع السابق ، ص ٢١٤ .

(44) ابن بسام الشنتريني ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق د. احسان عباس ، ج١ قسم١ ، ص ٥١ .

من جديد حول برغواطه هراطقة المغرب

في العصر الاسلامي

من جديد حول برغواطة هراطقة المغرب في العصر الإسلامي

يعتبر قيام برغواطة في اقليم تامسنا [1] من المغرب الأقصى ، في القرن الثاني للهجرة ، حادثة خطيرة ، ويسجل مرحلة حاسمة في تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، فقد ارتبط قيامها في تلك البقعة النائية من المغرب الاسلامي بعقائد غريبة ومتطرفة ، أثارت اهتمام الباحثين وجعلت برغواطة مثار مناقشات عديدة ، دارت حول أصول الفكر العقائدي عند البرغواطيين بل وتجاوزت ذلك إلى الخوض في أصل برغواطة ، وتعريف كيانها . ويرى الجمهور الاعظم من الباحثين القدامى منهم والمعاصرين ، أن برغواطة دولة خارجة عن تعاليم الإسلام الى حد أن الكثيرين منهم وصموها بالهرطقة والوثنية [2] ، بينما تصدت فئة قليلة منهم للدفاع عنها وعن عقيدتها وعن نسبتها للإسلام [3] .

وفي تصوري أن الفكر العقائدي لبرغواطة كان يجمع بين أفكار ومذاهب وأديان متعددة ، بدءاً من الفكر السني الى الخارجية المتطرفة ، والتشيع [4] ، وكذلك جانباً من الدوناتية [5] وبعض الأفكار اليهودية ، بل يمكننا أن نلمح في فكرهم العقائدي بعض التقاليد البربرية المحلية والوثنية الامر الذي يجعل من البرغواطية فكراً خارجاً عن الدين الاسلامي الحنيف .

وسنوضح في بحثنا استناداً على النصوص والادلة التاريخية كيف كان هذا الكيان البرغواطي يشكل خطورة شديدة على الاسلام في المغرب طوال العصور الوسطى ، خاصة وأن دولة برغواطة امتدت جغرافياً في بقعة متسعة وغنية اقتصادياً من المغرب الاقصى ، كما امتدت زمنياً فترة طويلة استمرت حتى بداية عصر الموحدين .

١ - أصل برغواطة ، ومنازلها فى المغرب الاسلامى :

قبل أن نتعرض لاصل برغواطة يجدر بنا أن نوضح من البداية أننا نهدف الى الفصل بين الاصل الاجتماعى لبرغواطة كقبيلة بربرية وبين أصل «بنى طريف» حكامها الذين أسسوا كيانها السياسى . ويكتنف الحديث عن برغواطة باعتبارها قبيلة بربرية غموض يتعذر معه التوصل الى حقيقة أصل هذه القبيلة بسبب الاختلاف الشديد فيما أوردته المصادر والمراجع بشأن هذه القبيلة .

فإذا رجعنا الى المؤلف المجهول صاحب كتاب مفاخر البربر نجد انه ينسب برغواطة إلى زناتة ويعبر عن ذلك بقوله "وكان ظهور برغواطة فى سنة ١٢٧ هـ فى خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان ، واستقر ملكهم آخراً بتامسنا ، وهم فى الاصل من زناتة .. (٦)" . وقد أخذ بتلك الرواية ابن الخطيب فى موضع من كتابه أعمال الاعلام (٧) ، وتابعه فى ذلك عدد من الباحثين المعاصرين على رأسهم الدكتور حسين مؤنس (٨) والدكتور الطالبى (٩) .

أما ابن خلدون فقد كذب الرأى القائل بنسبة برغواطة الى زناتة بقوله "وقد يغلط بعض الناس فى نسب برغواطة هؤلاء فيعدهم فى قبائل زناتة .... وليس القوم من زناتة ، ويشهد لذلك كله موطنهم وجوارهم لاخوانهم المصامدة ." (١٠) ويؤكد ابن خلدون فى أكثر من موضع من كتابه «العبر وديوان المبتدأ والخبر» نسبة برغواطة الى مصمودة ، ففى أحد المواضع يقول "وأما المصامدة وهم من ولد مصمود بن يونس بن برير فهم أكثر قبائل وأوفرهم ، من بطونهم ، برغواطـة ، وغمارة ، واهل جبل درن . ولم تزل مواطنهم بالمغرب الأقصى منذ الاحقاب المتطاولة . وكان المتقدم فيهم قبيل الاسلام وصدره برغواطة . ثم صار التقدم بعد ذلك لمصامدة جبال درن الى هذا العهد .." (١١) .

وفى موضع آخر يؤكد ابن خلدون نسبة برغواطة لمصمودة فى سياق حديثه عن غمارة المصمودية وصلتها ببرغواطة (١٢) .

وقد أخذ برواية ابن خلدون كل من الدكتور حسن محمود (١٣) ، ود. محمد الناسى والمستشرق هريك (١٤) ، و د . محمد ولد داداه (١٥) ، والدكتور ابراهيم حركات ، والاستاذ ميلود عشاق (١٦) ، والاستاذ تراس (١٧) .

وفى نفس الوقت يرى بعض مؤرخى العرب أن برغواطة لم تكن قبيلة واحدة وإنما كانت أخلاطاً بربرية لقبائل كثيرة لا يجمعها اصل واحد ، ولا تنتمى إلى أب واحد ولا الى أم واحدة ، ومن هؤلاء ابن ابى زرع [١٨] ، وابن الخطيب [١٩] والسلاوى الناصرى . [٢٠] وقد قام بعرض هذا الرأى كل من الاستاذين محمد عبد الله عنان [٢١] والدكتور احمد مختار العبادى [٢٢] .

والارجح فى تصورى أن برغواطة تنتسب إلى مصمودة استناداً الى رواية ابن خلدون الجديرة بالثقة ، ولأن عصبية برغواطة زادت فى عصر دولة الموحدين المصامدة .

وكانت برغواطة تقيم فى اقليم تامسنا الذى يمتد ما بين وادى نهر أبى الرقراق ووادى ام الربيع [٢٣] . وهذه المنطقة كانت تخضع قبل الفتح الاسلامى لنفوذ يليان حاكم سبتة [٢٤] .

وكان أول احتكاك مباشر لبرغواطة بالاسلام عندما اغار عقبة بن نافع على بلاد تامسنا بالسوس الادنى فى ولايته الثانية على المغرب وانتهت غارته السريعة بوقوفه على ساحل البحر المحيط عند ايغيران يطوف ودخوله بفرسه فى مياه المحيط حتى بلغ الماء بطن الفرس [٢٥] . ولكن حملة عقبة كانت سريعة ولم تسفر عن انتشار الاسلام فى هذه النواحى التى قدر لها أن تتعرض لحملة موسى بن نصير فيما يقرب من عام ٨٧ هـ ، وفيها خرج موسى على رأس جيش كثيف يتألف من وجوه العرب ، وبعض البربر ، لفتح منطقة السوس الاقصى والادنى ، وقد انتهت هذه الحملة بالنجاح ، وأسفرت عن فتح بلاد درعة القريبة من منازل برغواطة . ومن هناك اتجه موسى بجيوشه الى طنجة فافتتحها وترك عليها طارق بن زياد ، وعهد اليه بتعليم بربر برغواطة بعمارة الإسلام ، فترك لهم من العرب سبعة عشر رجلاً من العرب يعلمون البربر القرآن وشرائع الدين الاسلامى [٢٦] .

وليس من السهل أن تحدد بكل دقة منازل برغواطة على خريطة المغرب ونرصد خطوط حدودها الجغرافية على وجه التحديد [٢٧] ، فقد كانت حدودها تتذبذب انكماشاً واتساعاً تبعاً لازدياد نفوذ الدولة على المناطق المجاورة أو

انحسار ذلك النفوذ .

ويذكر الحسن بن الوزان ، المعروف بليون الافريقى الحدود التقريبية لتامسنا فيقول "تامسنا اقليم تابع لمملكة فاس ، يبتدئ غرباً عند ام الربيع ، وينتهى الى ابى رقراق شرقاً ، والأطلس جنوباً ، وشواطىء البحر والمحيط شمالاً ."(٢٨) بحيث يبلغ طول إقليم تامسنا من الغرب الى الشرق ثمانين ميلاً ، ومن الجنوب الى الشمال نحو ستين ميلاً .

وكان اقليم تامسنا يضم نحو اربعين مدينة تشتمل على نحو ثلثمائة قصر (٢٩) أهمها مدينة شالة *Cella* التى يرجع إنشاؤها إلى الفينيقيين فى رأى (٣٠) ، والرومان فى رأى آخر (٣١) ، وتقع بالقرب من نهر ابى الرقراق على بعد نحو ميلين من البحر وميل واحد من مدينة الرباط . وكانت شالة مركزاً تجارياً هاماً فى زمن الرومان كما كانت آخر القواعد العسكرية الرومانية الممتدة شمالاً على سواحل المحيط الاطلسى حتى العاصمة طنجة *Tingis* ، التى كانت تربطها بشالة طريق رومانية قديمة (٣٢) . ومن الجدير بالذكر ان دولة برغواطة اتخذت من شالة حاضرة لها فى كثير من الاحيان (٣٣) ، غير انها تأثرت عمرانياً بالحروب المتتالية التى دارت بين برغواطة ، والقوى الاسلامية المعاصرة لها فى المغرب ، كدولة الأدارسة ودولة المرابطين ، ويرجع الفضل الاعظم الى المنصور الموحدى فى إعادة بنيان اسوارها كما زودها بزاوية عظيمة ، وقصر لجنوده ، ومسجد جامع أضيفت إليه قاعة بلغت الغاية فى الروعة والجمال ، وأوصى المنصور بأن يدفن فيها ، فنقل جسده بعد وفاته من مراكش اليها ، ودفن فيها ، واحتفظ خلفاء الموحدين من بعده بهذا التقليد ، وتابعهم فى ذلك من بعدهم سلاطين بنى مرين . وتقع شالة قبالة مدينة سلا التى لا يفصلها عنها سوى نهر ابى الرقراق ، ولذلك عرفت شالة بشالة سلا . (٣٤) ويلى شالة فى الاهمية مدينة تكيت التى تقع على ضفة وادى ام الربيع فى مجاز الطريق المؤدية من تادلا الى فاس ، وكانت مركزاً تجارياً عامراً ، وسوقاً لبيع القمح ، غير انها دثرت فى اعقاب الحروب الطويلة ضد برغواطة (٣٥) ، اما ادندون فكانت بلدة صغيرة فى نطاق اقليم تامسنا اسست مبانيها بين التلال ، وتقع على بعد نحو خمسة عشر ميلاً من ساحل المحيط الاطلسى ، ولم يتبق للاسف

من آثار هذه المدينة إلا القليل يتمثل فى اسس جدارية وبعض السوارى المتكسرة . وقد حل الخراب بهذه المدينة من جراء حروب برغواطة مع غيرها من القوى الاسلامية فى المغرب [٣٦] . ومن بين مدن تامسنا كذلك زرفة التى كانت تقع فى منطقة سهلة تتفجر فيها العيون وتجرى فيها الجداول ، وقد تخربت هذه المدينة ودثرت تماماً ولم يبق لها أى أثر [٣٧] ، ومنها ايضاً مدينة انفا ، التى يرجع الفضل فى تأسيسها الى الرومان . وتطل هذه المدينة على المحيط الاطلسى ، وتبعد عن آزمور بنحو ستين ميلاً [٣٨] . ومدينة تاغية الواقعة ايضاً على المحيط الاطلسى [٣٩] .

اما آزمور فمدينة تقع على مصب نهر ام الربيع [٤٠] على حدود تامسنا ولكن الحسن بن الوزان يدخلها فى نطاق اقليم دكالة [٤١] . ومن الملاحظ أن حدود دولة برغواطة اتسعت فى كثير من الاحيان لاسيما فى بداية القرن الخامس الى ماوراء حدود تامسنا ، فقد امتدت حدودها الجنوبية جنوبى شالة على طول سواحل المحيط الاطلسى حتى شملت دكالة وعبدة وبلاد الحوز [٤٢] جنوبى آسفى ونواحى مراكش ، مما ترتب عليه خضوع السكان المسلمين المقيمين فى هذه المناطق لملوك برغواطة والتدين بدينهم . أما حدود برغواطة الشمالية فقد امتدت الى شمال الرباط ، وتمكن ملوكها من انتزاع مدينة المعمورة من ايدى بنى يفرن الزناتيين اصحاب سلا ، الذين طالما ناوأوا ملوك برغواطة ، ويعتبر الحسن بن الوزان مدينة المعمورة من بين مدن اقليم تامسنا [٤٣] .

وبلغ سلطان دولة برغواطة حتى سبتة وطنجة زمن اسرة سقوت البرغواطى كما سنوضح فيما بعد . وكانت لبرغواطة قوة بحرية قاعدتها ثغر فضالة [٤٤] .

٢ - الكيان السياسى لبرغواطة :

يختلف المؤرخون فى تحديد طبيعة كيان برغواطة فى العصر الاسلامى ، وتوضيح ما إذا كانت مجرد قبيلة عظمى من قبائل البربر ام دولة تحتفظ بكل خصائص الدول المستقلة . فإذا سلطنا الاضواء على كل الظروف المحيطة ببرغواطة ، فإننا نجد ان برغواطة قبيلة اتاحت لها الظروف ان تصبح دولة قوية مستقلة ، حافظ أبناؤها على استقلالها بفضل ثرواتها الاقتصادية الهائلة ،

وإمكاناتها العسكرية الوفيرة ، وقدرات اهلها العالية بل ان برغواطة فى تصورى لم تكن مجرد دولة عادية بل كانت دولة قوية منذ قيامها ، خطيرة فى تطلعاتها واهدافها ، خرجت عن تعاليم الاسلام ، وتمكنت من البقاء حتى العصر الموحدى رغم محاولات القوى الاسلامية المتعاقبة فى بلاد المغرب ، التخلص منها لخروجها عن الاسلام ومروقها .

لقد بلغت برغواطة من القوة والبأس الى الحد الذى وصفتها به المصادر العربية بأنها مملكة (٤٥) ، فهى على هذا النحو لم تكن مجرد قبيلة أو حتى إمارة صغيرة بل كانت دولة مستقلة ، يتولاها ملوك اقوياء الامر الذى يدعونا الى مقارنتها بدولة الادارسة أو دولة الرستميين ، فى مجال التاريخ السياسى للمغرب الاسلامى ، فقد أدت دوراً سياسياً هاماً على مسرح أحداث المغرب لفترات طويلة من التاريخ الاسلامى . وإذا كان الغموض يكتنف تاريخها ، وإذا كانت معظم المصادر العربية قد اغفلت الحديث عنها (باستثناء البكرى وابن خلدون وابن ابى زرع وابن الخطيب) ، فإننى أعزى ذلك التجاهل لمروقها وخروج ملوكها عن تعاليم الاسلام .

لقد بلغت برغواطة درجة كبيرة من الاهمية والسطوة والسلطان الى حد أن بعض المستشرقين يبالغ فى وصفها بأنها "امبراطورية كاملة" (٤٦) ، ولقد هيأت الظروف الطبيعية والثروات الاقتصادية لبرغواطة الفرصة لكى تصبح دولة تتوفر لها عوامل الاكتفاء الذاتى والحماية الطبيعية (٤٧) : فالجبال المحيطة بتامسنا كفلت لها الحماية الطبيعية ، وذلك أن سهول تامسنا كانت تقع بين جبال الاطلس وبين سلسلة اخرى من الجبال ، اما جبل مسطاسة فيمتد من الشرق الى الغرب ويتاخم غرباً سهل ادخسان المصاقب لتامسنا (٤٨) ، هذا بخلاف مجموعة من التلال تخترق ارض تامسنا .

وكانت قمم هذه الجبال تتوج فى فصل الشتاء بالثلوج ، وكان هذا من حسن طالع برغواطة ، إذ اتاح لهذه الثلوج ان تذوب فى فصل الصيف وتتحول الى مجارى مائية تتدفق لتغذى الجداول والروافد التى امتلأ بها بسيط تامسنا ، والتى كانت تنحدر من جبال الاطلس لتصب فى المحيط الاطلسى . لقد بلغ

عدد هذه الروافد نحو المائة من اهمها وادى ماسنات ، ووادى وانسيفين الذى كان يلتقى مع نهر سلا (ابى الرقراق) جنوبى الرباط (٤٩) . وقد كان لهذه النهيرات والروافد اثرها فى ازدهار الزراعة فى سهـول تامسنـا ذات التربة الزراعية الخصبة (٥٠) . وكان ذلك من اهم العوامل التى جعلت برغواطة ، دولة زراعية من الطراز الاول ، فكانت تنتج الحبوب ولاسيما القمح الذى اشتهرت به مدينة تكيت على وجه الخصوص ، فكان جميع سكان المناطق المتاخمة لبرغواطة يفدون الى هذه المدينة لشرائه (٥١) ، كما اشتهرت بزراعته مدينة النخيلة التى كانت تقع فى وسط تامسنا وفى قلب سهلها . وتذكر كتب التاريخ ان قمحها كان من الكثرة بحيث ان النـاس كانوا يستبدلون احياناً بغلين ، بحمـل جمـل كبير من القمح (٥٢) ، وكانت مركزاً من اهم مراكز بيعه . كذلك كانت تنتج الشعير الذى كان يشكل الغذاء الرئيسى لسكان تامسنا فى معظم اوقات العام . كما اشتهرت برغواطة بزراعة الفواكه بأنواعها المختلفة ، كالتين والكرز والنبق ، فى مدينة زرفة (٥٣) ، والكروم بالنخيلة (٥٤) ، وأنفا التى اشتهرت بزراعته وزراعة الخيار والبطيخ كذلك (٥٥) . أما القطن فكان يزرع فى سلا . هذا بالاضافة الى الثروة الخشبية التى تميزت بها برغواطة بفضل الغابات (٥٦) التى كانت تغطى آزمور وزعير والنخيلة وكريفلة . وبالاضافة الى هذه الثروات الزراعية لم تكن برغواطة تخلو من الثروات المعدنية ، فقد كانت غنية بمناجم الحديد (٥٧) ، كذلك اشتهر اقليم تامسنا بالثروة الحيوانية وانتاج العسل (٥٨) .

ولقد اتاحت هذه الثروات الاقتصادية المتنوعة لبرغواطة ان تقيم علاقات تجارية مع بعض الدول الاخرى . ويؤكد المستشرق *J. Devisse* أن برغواطة ارتبطت تجارياً مع الاندلس بروابط غاية فى الوثاقة والقوة (٥٩) ، وتنافست بذلك سجلماسة ، ومن ثم اقدم البرغواطيون على مناوءة سجلماسة واعتراض قوافلها التجارية الامر الذى دفع سجلماسة الى تغيير طرقها التجارية كلية تجنباً للخطر البرغواطى على تجارتها .

ويشير ابن حوقل إلى النشاط الاقتصادى واسع النطاق الذى شهدته برغواطة بحيث كانت منتجعاً لاقوام من اهل سجلماسة وأغمات والسوس الذين كانوا يفدون اليها بالتجارة (٦٠) مما ترتب عليه استقلال برغواطة بمقوماتها الاقتصادية

الذاتية فكانت على حد قوله بلداً مستقلا «عن الحاجة إلى ما في سره .... »[٦١] .

وخير دليل يعبر عن ازدهار الاحوال الاقتصادية في تامسنا وبلاد برغواطة ما ذكره ابن خلدون في سياق حديثه عن سكان جبل درن من المصامدة من برغواطة وغمارة وعوالم من صنهاجة ومطغرة وأوربة بقوله "يسير الراكب فيها معترضاً من تامسنا وسواحل مراكش الى بلاد السوس ودرعه من القبلة ثماني مراحل وأزيد تفجرت فيها الانهار ، وجلل الارض خمز الشعراء ، وتكاثفت بينها ظلال الادواح ، وزكت فيها مواد الزرع والضرع ، وانفسخت مسارح الحيوان ومراتع الصيد ، وطابت منابت الشجر ، ودرت افاويق الجباية ، يعمرها من قبائل المصامدة أمم لا يحصيهم إلا خالقهم ، قد اتخذوا المعاقل والحصون ، وشيدوا المباني والقصور ، واستغنوا بقطرهم منها عن اقطار العالم فرحل إليهم التجر من الآفاق . واختلفت إليهم النواحي والامصار ، ولم يزالوا منذ أول الإسلام وما قبله معتمرين بتلك الجبال قد اوطنوا منها أقطاراً بل اقاليم تعددت فيها الممالك والعمالات بتعدد شعوبهم وقبائلهم ، وافترقت اسماؤها بافتراق أحيائهم . »[٦٢]. ومما ساهم في دعم الكيان البرغواطي ارتباط برغواطة بأحلاف مع مجموعة من القبائل البربرية ، نجحت برغواطة في تحويلها عن الاسلام الصحيح ، ودفعتها الى اعتناق عقائدها الخارجة عن الاسلام ، وتستند في ذلك على رواية للبكري الذي يزودنا بأسماء القبائل التي تحالفت مع برغواطة ودانت بعقيدتها الخارجة عن الاسلام . يقول البكري «وان قبائل برغواطة الذين يدينون لهم ، وهم على ملتهم جراوة ، وزواغة ، والبرانس ، وبنو أبي ناصر ، ومنجصة ، وبنو ابي نوح ، وبنو واغمر ، ومطغرة ، وبنو بورغ ، وبنو دمر ، ومطماطة ، وبنو وزكسينت ، وعددهم ينتهي ازيد من عشرة الاف فارس..»[٦٣] .

ويضيف البكري الى هذه القبائل التي تبعت هراطقة برغواطة اسماء عدد كبير من القبائل البربرية التي حافظت على اسلامها الصحيح رغم تبعيتها لبرغواطة وخضوعها لها ، فيقول "وممن يدين لهم من المسلمين وينضاف الى مملكتهم : زناتة الجبل ، وبنو يليت ، وغمالته ، وبنو واوسينت ، وبنو يفرن ،

وبنو ناغيت ، وبنو النعمان ، وبنو افلوسة ، وبنو كونة ، وبنو يسكر ، وأصاده ، وركانة ، وايزمين ، ومنادة ، وماسينة ، وورصانة ، وترارتة ، ومبلغ عددهم نحو إثنى عشر الف فارس . "(٦٤) .

وفى كثير من الاحيان كانت برغواطة ترتبط فى حلف مع غمارة المسمودية التى كانت تنزل على مقربة من تامسنا ، ويتصل قبيلها بسكان برغواطة المستقرين بريف المحيط الأطلسى (٦٥) ولم يكن ارتباط برغواطة بغمارة امراً غريباً ، فمن المعروف ان حلف مصمودة الذى كان يضم قبائل وفيرة العدد كان من اهم الاحلاف القبلية فى المغرب الاقصى ، ولهذا لا نعجب اذا تشابهت مظاهر الحياة عند المصامدة بنظائرها عند البرغواطيين ، فقد كانوا زراعاً مستقرين ينزلون بالمدن والقرى ويلتصقون بالارض ، كذلك التقت غمارة مع برغواطة (٦٦) فى كثير من الامور الدينية الخارجة على الاسلام كما سنوضح على الصفحات التالية .

وتعتبر دكالة من القبائل التى ألفت مصمودة السهول وارتبطت ببرغواطة ، وكانت منازل دكالة فى جنوب وادى ام الربيع ، وكذلك ارتبطت بها رجراجة التى توطنت المناطق المطلة على وادى تنسيفت (٦٧) .

٣ - قيام دولة برغواطة :

قلد الخليفة الاموى هشام بن عبد الملك عبيد الله بن الحبحاب عاملا من قبله على المغرب كله لما عرف عن حزمه وكفايته فى ادارة شئون مصر من قبل وامتثل ابن الحبحاب لامر الخليفة ورحل إلى المغرب بعد ان ترك ولده القاسم على مصر . وفى المغرب ، اسند ابن الحبحاب ولاية السوس بما فى ذلك منطقة تامسنا الى ولده اسماعيل ، فى حين ولى عمر بن عبد الله المرادى على طنجة وما يليها من المغرب الاقصى ، وعرف عمر بشدة تعصبه للعرب على البربر (٦٨) . وأساء السيرة مستثيراً بذلك مشاعر الاهالى الامر الذى دفع هؤلاء الى الخروج عليه ، فسير اليهم ابن الحبحاب حبيب بن ابى عبدة بن عقبة بن نافع سنة ١١٦ هـ ، على رأس جيش كبير لتأديبهم وردهم الى الطاعة . ونجح هذا الجيش العربى فى اداء مهمته ، فقد اكتسح السوس الاقصى والادنى كله بما فى

ذلك تامسنا حتى وصل الى ارض السودان [٦٩] . ويرى بعض المؤرخين أن السبب في إنفاذ هذه الحملة الى تلك المناطق النائية من بلاد المغرب الاقصى ، ربما يرجع إلى ارتداد القبائل القاطنة هناك عن الاسلام [٧٠] . ولكننا نعتقد ان هذه القبائل ظلت محافظة على إسلامها حتى هذه اللحظة بسبب تقبلها للمذهب الصفرى الخارجى ، كما ستوضح الاحداث التاريخية ذلك فيما بعد ، وإن كان ذلك لا يعنى أن تفهم هؤلاء البربر للإسلام وأصوله كان صحيحاً ، أو أن إسلامهم كان صادقاً ، فخروج برغواطة على الدين الاسلامى وتعاليمه بعد فترة وجيزة من تلك الاحداث ، وتشريع ملوكها لعقائد جديدة هى مزيج من اديان ومذاهب مختلفة يؤكد فقر الفكر الاسلامى الصحيح عند سكان تلك المناطق وسطحية ما كانوا يعرفونه عنه ، وعدم تعمقهم فى فهم الشريعة الاسلامية ، بسبب حداثة عهدهم بالاسلام وضحالة ما تعلموه على فقهاء المسلمين فى اصوله وقواعده . وفى ذلك الوقت ، كان الخوارج قد شرعوا فى التسلل الى عمق بلاد المغرب لبعدها عن دائرة نفوذ الخلافة الاموية فى المشرق الاسلامى [٧١] ، وبدأوا يبثون تعاليمهم التى تدعو إلى المساواة بين جميع الاجناس وبين العناصر البربرية المضطهدة ، مستغلين فى ذلك العداء القائم بين العرب والبربر المغرب ، والنزاعات العصبية بين العرب القيسية والعرب اليمنية .

وهكذا وجد الخوارج فى ارض المغرب تربة صالحة لغرس مبادئهم المنادية بالمساواة فى المجتمع الإسلامى بين سائر افراده فى نفوس بربر المغرب ، فانتشر المذهب الإباضى المعتدل فى المغرب الاوسط والقسم الشمالى من المغرب الاقصى . أما المذهب الصفرى ، وهو مذهب معتدل فى المشرق الاسلامى ، متطرف فى المغرب الاقصى ، فقد لقى قبولاً واسع النطاق عند بربر القسم الجنوبى من بلاد المغرب [٧٢] ، أى فى المناطق الممتدة من السوس الادنى الى جبال درن حيث قبائل برغواطة ، وغمارة ، ومكناسة ، وزناتة كما تسلل إلى قلوب الافارقة والسودان [٧٣] .

وبرز من بين الشخصيات البربرية التى انضوت الى الخوارج وتقبلت الفكر الخارجى ، رجل من مطغرة هو ميسرة المطغرى [٧٤] ، أحد طلاب العلم الخارجى ، وكان قد خرج مع بعض اصحابه الى دمشق ليفضى الى الخليفة

الاموى هشام بن عبد الملك بشكوى قومه من بغى عماله على المغرب ، وما يلقاه البربر من ظلم صارخ على أيديهم ، ولكن الابرش الكلبى حاجب الخليفة لم ييسر لهم مهمتهم ، فلما يئسوا من مقابلة الخليفة تركوا رقاعاً بأسمائهم وقفلوا عائدين الى بلادهم ، وقد اعتزموا شق عصا الطاعة على الدولة الاموية ، والقيام بثورة عارمة فى المغرب للتخلص من الحكم الاموى المس .د ، وتحرير البربر من الظلم والعسف الذى كانوا يعانونه على أيدى عمال الدولة الاموية فى المغرب ، ومن الواضح ان ميسرة خرج من اعتداله وتحول الى الصفرية المتطرفة ، وقاد جماهير البربر الصفرية فى ثورة عاتية ضد العرب انضم إليه فيها بربر برغواطة بزعامة رجل يدعى طريف ، وولده صالح [٧٥] ، وكانوا على المذهب الصفرى كما سبق أن أوضحنا ، كما انضم إليه بربر مكناسة وطائفة من سكان طنجة بزعامة عبد الأعلى ابن جريج ، ودان له المغرب الاقصى كله مما شجعه على الوثوب بعمر بن عبد الله المرادى [٧٦] والى طنجة وقتله ، وإسناد ولايتها الى حليفه عبد الاعلى بن جريج ، ثم سار ميسرة الى السوس فى حشود ضخمة من برغواطة وغيرها من القبائل ، وأوقع بقوات اسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب وقتله ، مما وضع العرب فى موقف لا يحسدون عليه .

وقعت هذه الاحداث بسرعة خاطفة دفعت عبيد الله بن الحبحاب المقيم فى القيروان الى أن يبعث فى طلب حبيب بن أبى عبدة من صقلية ، ودارت المعركة بين العرب والبربر على مقربة من طنجة ، وانتهت بهزيمة مخزية منى بها العرب ، قتل فيها أشرافهم وكماتهم وعرفت الوقعة لذلك بوقعة الاشراف . ويبدو أن ميسرة كان يسعى قبل أن يشتبك العرب مع البربر فى القتال إلى طلب السلم حقناً للدماء أو أنه تراجع عند بداية الاشتباك ، فأقدم قومه على قتله ونصبوا مكانه خالد بن حميد الزناتى المعروف بتطرفه وإن كان هناك من المؤرخين من ينكر ذلك ويعزون اقدام قومه على قتله بأنه أساء الى اتباعه بعد الانتصار الذى احرزه البربر على العرب وأنه ادعى الخلافة وتسمى بها [٧٧] ، فثاروا عليه وقتلوه وولوا مكانه خالد بن حميد الزناتى (١٢٢ هـ) الذى قدر له أن يتغلب على جيوش العرب الشامية والبلدية فى بقدورة ، ويبدو ان طريف صاحب ميسرة المطغرى وحليفه أبدى استياءه لمقتل صاحبه وانقلاب اتباعه عليه ،

فاعتزل الثورة وتراجع الى اقليم تامسنا ، وبدأ فى غمرة غضبه يرسى قواعد دولة مستقلة فى هذا الاقليم من المغرب الاقصى متناسياً المبادىء السابقة التى كان قد اعتنقها ، ودوره الثورى الذى قام به ، وركز اهتمامه على تأسيس ملك قوى له ولابنائه ، من بعده ، لاسيما انه كان يتولى الرئاسة من قبل ميسرة على زناتة وزواغة كما ان ميسرة كان قد أوصى به اهل تامسنا (٧٨) . وربما كان هذا المرقف من طريف فى اعقاب مصرع ميسرة ، وحرصه على تأسيس دولة له فى تامسنا ينهض دليلاً على صحة رأى فريق من الباحثين يرون أن الدافع الرئيسى لثورة البربر فى المغرب الاقصى ، سياسى ، خاصة وان هذه الثورة البربرية كانت من العنف وصحبها من السلوكيات ما يتنافى مع مبادىء المذهب الاباضى السمحة وهو مذهب معتدل يتفق فى كثير من اصوله وفروعه مع مذهب اهل السنة ، كما ان المذهب الصفرى من المذاهب الخارجية المعتدلة (٧٩) . وفى نفس الرقت يناقض قيام طريف بتأسيس دولة برغواطة الرأى القائل بأن برغواطة كانت تستهدف الإبقاء على مذهبها الصفرى (٨٠) طوال العصر الاسلامى والانضواء بذلك فى فلك الدول الاسلامية الخارجية ، فخروج طريف إلى تامسنا عقب مقتل ميسرة حليفه السابق ، لم يدفعه الى اعتزال الثورة الصفرية فحسب ، بل إلى الشروع فى نبذ تعاليم الاسلام كلها ، من خلال الاعلان بقيام دولته التى سيصبح لها فى عهد ولده صالح مبادىء غريبة هدامة للاسلام ، واعتقد ان اعتزال طريف الثورة ضد العرب حدث نتيجة لمقتل حليفه ميسرة ، وبدافع من حرصه على تحقيق امل كان يحدوه بصرف النظر عن أى اعتبارات دينية أو مذهبية .

وسيتأكد رأيى هذا عند حديثنا على الصفحات المقبلة عن تفاصيل عقيدة برغواطة التى تجمع بين العديد من الافكار والمبادىء الدينية .

ونصل بذلك الى نقطة البداية لدولة برغواطة ككيان سياسى مستقل له حكام ارتفعوا الى مصاف الملوك ، واولهم طريف الذى اثار قضايا عديدة حول اصله . فلقد اختلفت آراء المؤرخين وتعددت بشأن أصله ، وسنقدم فما يلى عرضاً لاهم هذه الآراء ثم ندلى برأينا مستندين على النصوص المستقاة من المصادر التاريخية لنتوصل الى حقيقة هذه الشخصية التى احدثت بأفكارها ومبادئها

انقلاباً فى المغرب الاقصى ، وشغلت المسرح السياسى فى المغرب لفترات طويلة .

يرى **الفريق الاول من الباحثين** أن طريف حليف ميسرة ، ومؤسس دولة برغواطة هو نفسه طريف الذى عبر الى الاندلس فى سنة ٩١ هـ على رأس حملة استطلاعية سبقت عبور جيش طارق بن زياد . وانه هو نفس طريف الذى تسمت جزيرة طريف باسمه . ويتمثل هذا الفريق فى جملة من كبار الباحثين فى تاريخ الاندلس هم ، الدكتور محمود اسماعيل [٨١] ، والدكتور سعد زغلول عبد الحميد [٨٢] ، والدكتور حسين مؤنس [٨٣] ، والدكتور احمد مختار العبادى والدكتور رجب محمد عبد الحليم [٨٤] . وعلى الرغم من إجماعهم على هذا الرأى إلا أنهم اختلفوا فيما بينهم حول تحديد اصل طريف هذا ، فبينما يرى أ .د . محمود اسماعيل ان طريف واسمه طريف بن شمعون كان بربرياً يرى د. رجب محمد عبد الحليم أن طريف مؤسس دولة برغواطة الذى هو نفسه طريف بن مالك ، كان بربرى الاصل مغربى المولد ، فى حين يرى كل من أ.د. سعد زغلول و أ. د . حسين مؤنس وأ . د . أحمد العبادى أن طريف كان يدعى طريف بن مالك أو ملوك ، وأنه عربى الاصل .

أما **الفريق الثانى** فيرى أن طريف ، قائد الحملة الاستطلاعية على جنوب الاندلس عربى الاصل من معافر او النخع اليمنية ، وأن جزيرة طريف نسبت اليه . ولم يجد انصار هذا الرأى ما يدفعهم الى الربط بين طريف صاحب الحملة الاستطلاعية الى الاندلس ، وبين طريف مؤسس دولة برغواطة .

وأنصار هذا الرأى أ.د. السيد عبد العزيز سالم [٨٥] ، ود. محمد عبد الحميد عيسى [٨٦] .

أما **الفريق الثالث** من الباحثين فيرى أن طريف حليف ميسرة ومؤسس الدولة البرغواطية اسمه طريف بن شمعون بن اسحق بن يعقوب ، وانه كان يهودياً من مدينة برباط التابعة لكورة شذونة بالاندلس ، وأنه اعتنق الاسلام .

ويأخذ بهذا الرأى الاستاذ محمد عبد الله عنان [٨٧] ، والدكتور حمدى عبد المنعم حسين [٨٨] . وباستطلاع آراء هؤلاء الباحثين وبالرجوع الى المصادر

العربية التى استندوا عليها نجد أنها تتناقض جميعاً فيما بينها بحيث يصبح من المتعذر التوصل الى حقيقة شخصية طريف مؤسس دولة برغواطة .

وأميل إلى الاعتقاد بأن طريف مؤسس دولة برغواطة شخص آخر غير طريف الذى قاد الحملة الاستطلاعية الى جزيرة لاس بالوماس لعدة اسباب [*] منها :

أولاً : من الطبيعى أن يكون قائد هذه السرية التى سيرها موسى بن نصير للاستيثاق من صدق نوايا يليان صاحب سبتة ، عربى الاصل وموضع ثقة موسى بن نصير لكى يعتمد عليه فى هذه المهمة ويقدم تقريراً صادقاً الى موسى بن نصير عن احوال الاندلس السياسية والعسكرية قبل ان يغامر موسى بجيش المسلمين فى بلاد يفصلها عن بلاد المغرب بحر شديد الاهوال [٨٩] .

ثانياً : ان معظم المصادر العربية تؤكد أن طريف قائد الحملة الاستطلاعية الى الاندلس فى سنة ٩١ هـ هو طريف بن مالك أو ملوك المعافرى أو النخعى (وهو فى كل من النسبين عربى الاصل) وأنه يكنى بأبى زرعة ، وكان من موالى موسى بن نصير .

ومن بين الروايات التى تنص على أن طريف عربى الاصل رواية للرازى ذكر فيها أن صاحب الحملة الاستطلاعية الى الاندلس هو ابو زرعة طريف بن مالك المعافرى [٩٠] .

ومنها رواية وردت فى كتاب "اخبار مجموعة" نطالع فيها «فبعث (موسى) رجلاً من مواليه ، يقال له طريف ، ويكنى بأبى زرعة فى أربعمائة ومعهم مائة فرس فى أربعة مراكب حتى نزل بمراكبه جزيرة يقال لها جزيرة الاندلس التى هى معبر مراكبهم ودار صناعتهم ، يقال لها : جزيرة طريف ، سميت به لنزوله فيها»[٩١] .

ورواية اخرى لابن الكردبوس تنسب طريف الى قبيلة معافر اليمنية ، والنص الذى اورده ابن الكردبوس كما يلى : «ثم اجتمع ناس من البربر نحو ثلاثة آلاف راجل وقدموا عليهم أبا زرعة طريف بن مالك المعافرى ، وجاز بهم ، فحل فى جزيرة سميت طريفاً فثبت لها هذا الاسم الى اليوم ... » [٩٢] .

أما الحميرى فقد اورد الخبر على النحو التالى «فبعث موسى عند ذلك رجلاً من مواليه من البربر إسمه طريف بن مالك المعافرى ، يُكنى أبا زرعة فى أربعمائة رجل يغير بهم ، ونزل فى الجزيرة المنسوبة إليه ، ثم اغار على الجزيرة الخضراء»(٩٣) .

ونلاحظ ان الحميرى بينما يذكر فى الشطر الاول من روايته أن طريف كان بربرياً فإنه فى الشطر الثانى ينسبه الى قبيلة معافر اليمنية ، وفى ذلك ما يشير إلى أنه قد يكون عربياً أو أنه كان مولى من موالى قبيلة معافر فنسب اليها وألحق بها .

ومن الروايات التى تنسب طريف الى النخع رواية لابن خلدون يسميه فيها طريف بن مالك النخعى (٩٤) .

ثالثاً : ومما يؤكد رأيى السابق كذلك ويرجحه ما اورده كل من ابن خلدون والسلاوى الناصرى فيما يتعلق بكنية طريف مؤسس دولة برغواطة ، فبينما يذكر ابن خلدون ان طريف أول ملوك برغواطة كان يدعى ابو صالح (٩٥) ، يذكر السلاوى انه كان يكنى بأبى صبيح (٩٦) .

ونميل من ناحيتنا الى ترجيح كنية ابى صبيح التى كناه بها السلاوى ، إذ ان إسم ابا صالح الذى ذكره ابن خلدون لا يشير الى كنية ، ذلك لان طريف كان له بالفعل ولد إسمه صالح ، شارك معه فى ثورة ميسرة المطغرى ، وسيخلف هذا الابن والده فى حكم برغواطة ، وسيكون له الدور الاعظم فى إرساء دعائم عقيدة برغواطة الخارجة عن الدين الاسلامى ، ولذلك فمن الطبيعى أن يقال أن طريف هو ابو صالح .

ويتضح لنا مما سبق عرضه أن طريف صاحب الحملة الاستطلاعية الى الاندلس سنة ٩١ هـ ، ويكنى بأبى زرعة كان شخصاً اخر غير طريف مؤسس دولة برغواطة الذى كان يكنى بأبى صبيح .

رابعاً : أن المصادر التاريخية التى تضمنت نصوصاً تشير الى ان طريف صاحب الحملة الاستطلاعية على جزيرة طريف هو نفس طريف اول ملوك برغواطة ، وتتمثل فى كل من روايتى البكرى ، وابن عذارى ، تناقض نفسها

وتخالف بذلك المنطق .

فالبكرى يورد رواية على لسان زمور البرغواطى رسول برغواطة الى الخليفة الاموى الحكم المستنصر بالاندلس أثناء زيارته له سنة ٣٥٢ هـ يذكر فيها «أن طريفاً أبا ملوكهم من ولد شمعون بن يعقوب بن اسحق ، وانه كان من اصحاب ميسرة المطغرى المعروف بالحقير ، ومغرور بن طالوت ، والى طريف نسبت جزيرة طريف ، فلما قتل ميسرة وافترق اصحابه ، احتل طريف بلد تامسين ، وكان إذ ذاك ملكاً لزناتة وزواغة ، فقدمه البربر على انفسهم وولى امرهم ، وكان على ديانة الاسلام ..» (٩٧) . ونخرج من هذه الرواية ان طريفاً المذكور هو نفس طريف صاحب ميسرة وأنه هو نفسه طريف صاحب الحملة الاستطلاعية على جزيرة طريف ، وأنه من ولد شمعون بن يعقوب (أى أنه يهودى الاصل) وأنه كان على ديانة الاسلام .

ثم يسوق فى موضع آخر رواية تتضمن ما يفيد بأن أصل هذه الاسرة «من شذونة من وادى برباط» بالاندلس (٩٨) .

وأتساءل كيف يكون طريف من برباط بالاندلس ، وملكاً على بربر زناتة وزواغة ، وفى نفس الوقت من ولد شمعون بن يعقوب (وهو اسم ليهودى) ، وعلى ديانة الاسلام ؟ ومن الممكن أن نخرج من النصين سالفى الذكر بأن يكون طريف من أصل يهودى ، ولكنه اعتنق الإسلام بعد الفتح الإسلامى للأندلس مثلاً ، وفي هذه الحالة لا يمكن أن يكون طريف هذا هو نفس طريف بن مالك صاحب الحملة الإستطلاعية على جزيرة لاس بالوماس التى سميت باسمه ، فمن المنطقى ألا يثق موسى بن نصير على الإطلاق فى مصداقية رجل يهودى الأصل ، أندلسى الوطن ، يعهد إليه بقيادة الحملة الإستطلاعية إلى الأندلس .

وهناك ملاحظة ثانية تتمثل فى أن ما أورده البكرى من أخبار عن طريف إنما أوردها على لسان زمور البرغواطى . ومن الطبيعى أن يحاول زمور البرغواطى أن ينسب لملوك برغواطة ، أصولاً تاريخية عريقة ، وبطولات مجيدة ، عندما يسأله الحكم المستنصر عن أحوال بلاده وماضيها ، فيربط بين طريف أول ملوك برغواطة ، وبين البطل الإسلامى الشهير الذى سبق أن أثبتنا أنه عربى الأصل ، وليس من أصول يهودية أندلسية ، ولا بربرية .

أما ابن عذارى فيذكر فى الجزء الثانى من كتابه «البيان المغرب» أن موسى بن نصير أرسل «رجلاً من البربر يسمى طريفاً ويكنى أبا زرعة فى مائة فارس وأربعمائة رجل» على رأس حملة إستطلاعية إلى الأندلس ، وأن اسم طريف قائد هذه الحملة أطلق على الجزيرة التى نزل بها [٩٩] .

ثم يذكر فى الجزء الأول من نفس الكتاب أن طريف مؤسس برغواطة «من ولد شمعون بن إسحق عليه السلام ....» [١٠٠] . وفى موضع آخر من نفس الجزء الأول يورد الرواية التى سبق أن أوردها البكرى على لسان زمور «أن طريفاً كان أبا ملوكهم ، وهو من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحاق ـ عليهم السلام ـ قال : وكان طريف من أصحاب ميسرة ملك المغرب الذى تقدم ذكره ، فلما قتل ميسرة وافترق أصحابه ، احتل طريف ببلاد تامسنا ، فقدمه البربر على أنفسهم فولى أمرهم ، وكان على دين الإسلام ، وإليه تنسب جزيرة طريف ...[١٠١]» .

ونخرج من الرواية التى ساقها ابن عذارى بأنه خلط بين جميع الروايات التى أوردها من سبقه من المؤرخين ، فقد اقتبس نتفاً من رواية البكرى ، على لسان زمور ، باستثناء ما يتعلق بأصل طريف الذى يجعله ابن عذارى بربرياً وليس أندلسياً كما أشار البكرى ، وربما اعتمد فى ذلك على ابن حوقل . وأياً ما كان الأمر فإن طريف حتى لو كان بربرياً من أصول يهودية ، ودان بالإسلام ، فإن موسى بن نصير ، لم يكن ليرضى أن يسند إليه قيادة الحملة الإستطلاعية للأندلس ، وواضح كما سبق أن أشرت أن زمور كان يحاول تفخيم أصل ملوك برغواطة .

خامساً : يذكر د. محمود إسماعيل أحد الباحثين من الفريق الأول أن طريف ، هو طريف بن ملوك ، وكنيته أبو صالح وأنه كان يتمتع بشهرة طيبة بين بربر المغرب الأقصى لبلائه فى افتتاح الأندلس ، إذ تولى قيادة البرغواطيين فى الحملة التى أنفذها موسى بن نصير بقيادة طارق بن زياد ، وأن إطلاق إسم طريف على إحدى جزر الأندلس قد خلد هذه الشهرة [١٠٢] .

ويستند دكتور محمود إسماعيل فى ذلك على ما أورده كل من ابن عذارى

وابن خلدون ، فبالنسبة إلى ابن عذارى فقد سبق أن ناقشنا روايته فى هذا الموضوع . أما فيما يتعلق بابن خلدون فإنه لم يشر إطلاقاً إلى وجود ثمة صلة بين طريف صاحب الحملة الإستطلاعية إلى الأندلس ، وبين طريف ملك برغواطة بل أن ابن خلدون ذكر صراحة فى الجزء الرابع من كتابه «العبر» أن طريف الذى عبر إلى الأندلس هو طريف بن مالك النخعى أى أنه عربى كما سبق أن أوضحنا وهذا لا يتفق مع ما وصف به طريف حاكم برغواطة ، ففى الجزء السادس من كتاب العبر يصف ابن خلدون طريف حاكم برغواطة بأنه بربرى من مطغرة «وكان كبيرهم لأول المائة الثانية من الهجرة طريف أبو صالح ، وكان من قواد ميسرة الحقير ، طريف المطغرى القائم بدعوة الصفرية ، ومعهما معزوز بن طالوت ثم انقرض أمر ميسرة والصفرية ، وبقى طريف قائماً بأمرهم بتامسنا [١٠٣] ...» وفى موضع آخر من نفس الجزء يصف ابن خلدون طريف ملك برغواطة بأنه بربرى من برغواطة المصمودية . يقول ابن خلدون «وإنما نسب الرجل فى برغواطة وهم من شعوب المصامدة معروف ... [١٠٤]» . وإذا كان ابن خلدون ينسبه فى النص الأول إلى مطغرة ، رغم تأكيده فيما بعد فى أكثر من موضع على نسبته لمصمودة ، فإن سبب ذلك يرجع فيما يبدو إلى الحلف القوى الذى كان يربط بين مطغرة وبرغواطة منذ اشتعال ثورة ميسرة المطغرى الصفرى على العرب ، واستمر هذا الحلف قائماً طوال العصر الإسلامى [١٠٥] .

ولم يذكر ابن خلدون مطلقا أن طريف قاد البرغواطيين فى الحملة الإستطلاعية التى قادها إلى الأندلس ، وإنما ذكر فى سياق حديثه عن غمارة من بطون المصامدة : «وللمسلمين فيهم أزمان الفتح ، وقائع الملاحم وأعظمها لموسى بن نصير ، وهو الذى حملهم على الإسلام ، واسترهن أبناءهم ، وأنزل منهم عسكراً مع طارق بطنجة ، وكان أميرهم لذلك العهد يليان ، وهو الذى وفد عليه موسى بن نصير ورغبه فى غزو الأندلس . وكان منزله سبتة كما نذكره ، وذلك قبل استحداث نكور ...» [١٠٦] .

سادساً : ليس من المنطقى أن تربط بين طريف صاحب الحملة الإستطلاعية إلى الأندلس سنة ٩١ هـ ، وبين طريف مؤسس دولة برغواطة الذى ظهر كحاكم سياسى فيما يقرب من عام ١٢٧ هـ لمجرد اشتراكهما فى نفس الإسم ، فقد يتفق

أكثر من شخص فى حمل اسم طريف فى فترة زمنية متعاصرة أو متقاربة ، وليس بالضرورة أن ينفرد شخص واحد بحمل إسم طريف خلال فترة زمنية تبلغ نحو ثلث القرن .

ويتضح لنا من ذلك كله أن طريف إسم لشخصين مختلفين .

أما طريف مؤسس دولة برغواطة فأعتقد أنه كان أندلسياً من أصل يهودى ومن برباط بالذات وأنه اعتنق الإسلام منذ بداية الفتح الإسلامى للأندلس ثم تحول نسبه البرباطى على لسان البربر إلى النسب البرغواطى ، وذلك استناداً إلى بعض النصوص التى استقيتها من المصادر العربية وعلى كثير من الأدلة التاريخية والمنطقية ، من ذلك الرواية التى أوردها الجغرافى البكرى المعاصر لدولة برغواطة على لسان زمور والتى تحدثنا عنها فى الصفحات السابقة والرواية التى وردت فى موضع آخر من كتابه وذكر فيها أن أصل أسرة طريف من شذونة من وادى برباط (١٠٧) بالأندلس .

وقد يتساءل البعض لماذا نأخذ فقط بهذا النص الذى ساقه البكرى على لسان زمور البرغواطى دون بقية النص الذى يدعى فيه أن طريف ملك برغواطة هو نفسه صاحب الحملة الإستطلاعية إلى الأندلس ؟؟

ونرد على هذا التساؤل بأنه ليست هناك أى مبالغة فيما ذكره زمور البرغواطى عن النسب اليهودى لطريف ، بل أنه كان من الأفضل لزمور أن يتجاهل هذا الأصل اليهودى لطريف فى سياق حديثه مع خليفة الأندلس عن نسب ملوكه . وربما أحس زمور ببعض الحرج فى ذكره للأصل اليهودى لبنى طريف وأن ذلك قد يثير مشاعر خلفاء الأندلس عليه فتدارك الأمر وبادر بنسج هالة تاريخية وبطولة زائفة حول شخصية طريف ، أول ملوك برغواطة ، ليزيل الشكوك والشبهات التى قد تكون قد تولدت عند المستنصر ، فادعى أن طريف البرغواطى هو نفسه طريف القائد الإسلامى الشهير (*) .

كذلك يذكر ابن أبى زرع أن أصل طريف ملك برغواطة «لعنه الله من برناط (يقصد برباط) حصن عمل شذونة من بلاد الأندلس ، فكان يقال من تبعه ودخل فى ديانته برناطى ، فعربته العرب ، وقالوا برغواطى ، فسموا برغواطة ،

وكان صالح بن طريف الذى ادعى فيهم النبوة رجلاً خبيثاً يهودى الأصل من ولد شمعون بن يعقوب عليه السلام ، نشأ ببرباط من بلاد الأندلس ثم رحل إلى المشرق ...» [١٠٨] .

وجاء فى كتاب نبذ من مفاخر البربر ما يؤكد ذلك ويتمثل فى رواية نطالع فيها ما يلى «وأصل أمامهم الذى شرع لهم ديانتهم وهو صالح بن طريف من وادى برباط من الأندلس ، فقيل لكل من دخل فى ديانته برباطى ، فأحالته العرب بألسنتها فقالت برغواطى ، وكان ظهور برغواطة فى سنة ١٢٧ هـ فى خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان واستقر ملكهم آخراً بتامسنا وهم فى الأصل من زناتة ....[١٠٩]» .

ويورد السلاوى نصاً يتفق مع ما أوردته المصادر السابقة فيذكر أن صالح ابن طريف «يهودى الأصل من سبط شمعون بن يعقوب عليه السلام ، نشأ ببرباط ، حصن من عمل شلونة من بلاد الأندلس ...[١١٠]» .

ولكن ابن الخطيب يقف من ذلك موقفاً حيادياً ، فقد أورد كل الآراء التى جاءت فى نسب طريف دون أن يبدى رأيه . فيذكر أن صالح بن طريف هذا كان مصمودى الأصل ثم يضيف بقوله «وقيل إسرائيلى الأصل ، نشأ بقرية برباط من الأندلس ... [١١١]» .

أما المصادر التى اعتبرت طريف أول ملوك برغواطة من البربر ، فأهمهم : ابن حوقل ، وابن عذارى ، وابن خلدون .

أما ابن حوقل فيذكر أن صالح كان إبناً لرجل اسمه عبد الله ، وليس لطريف ، وأنه كان «بربرى الأصل ، مغربى المولد ، مضطلعاً بلغة البربر يفهم غير لسان من ألسنتهم ، فدعاهم إلى الإيمان به ... [١١٢]» .

ومن الواضح أن ابن حوقل غير دقيق فيما أورده عن نسب صالح بن طريف ، فقد أخطأ فى اسم طريف ، ربما لأن ابن حوقل جغرافى قبل أن يكون مؤرخاً ثم أنه مشرقى لا يعتد بما يسوقه من أخبار تاريخية عن المغرب والأندلس ، ولهذا السبب فإننا لا نثق كثيراً برواياته التاريخية .

أما ابن عذارى فقد أورد اسم طريف كما سبق أن ذكرنا على أنه من نسل يعقوب عليه السلام أى أنه يزعم أنه يهودى الأصل ، وفى نفس الوقت يذكر أن طريف بربرى ، وقد سبق أن ناقشنا رأيه وأثبتنا أن روايته تتضمن بعض التناقض الواضح .

وأما ابن خلدون فقد رفض الرأى القائل بنسبة طريف صاحب برغواطة إلى الأندلس وأرجعه إلى برغواطة نفسها أى أنه من مصمودة ، وكانت حجته فى ذلك أنه لا يتم الملك والتغلب على النواحى والقبائل فى المغرب لدخيل أو غريب [113] .

ونحن نرى أن ابن خلدون قد جانبه التوفيق فى هذا الحكم إذ أن وقائع التاريخ تثبت لنا أن كثيراً من الغرباء من العرب والفرس قد وفدوا إلى المغرب من مناطق نائية من المشرق ، وأنهم بدأوا يجتذبون حولهم الأتباع من البربر ويؤسسون دولاً فى بلاد المغرب ، ومن الأمثلة الدالة على ذلك دول قامت على أكتاف قادة من العرب أو دعاة من المشرق ومنها دولة الأغالبة فى تونس ، ودولة الأدارسة فى فاس ، والدولة الفاطمية فى رقادة والمهدية ، ودولة الرستميين فى تاهرت التى أسسها عبد الرحمن بن رستم الفارسى [114] .

ومما يؤكد رأيى فى أن طريف يرجع إلى أصول يهودية قبل أن يقدم على اعتناق الإسلام أنه استوطن المغرب الأقصى فى تامسنا من إقليم فاس الذى كان معروفاً بكثرة العناصر اليهودية والمجوسية والمسيحية التى تعيش فيه ، أكثر من غيره من بلاد المغرب ، يؤكد ذلك النص الذى أورده ابن أبى زرع عند حديثه عن بناء مدينة فاس ، فهو يقول «قيل كان يسكن مدينة فاس قبيلتان من زناتة وزواغة ، وبنويرغش ، وكانوا أهل أهواء مختلفة منهم على الإسلام ، ومنهم على النصرانية ومنهم على اليهودية ، ومنهم على المجوسية ، وهم بنو يرغش ، وكانوا يسكنون بخيامهم بحومة عدوة الأندلس ... [115]» .

ويؤكد ابن أبى زرع فى موضع آخر من كتابه عند وصفه لفاس بعد تأسيسها فيقول «فاجتمع بها (فاس) خلق كثير من اليهود ممن رغب فى العافية ، فأنزلهم بناحية أغلان إلى باب حصن سعدون ... [116]» . وكان

عدد اليهود بإقليم فاس يقدر بالألوف ، وقد استنتجنا ذلك من خلال ما أورده ابن أبى زرع فى معرض حديثه عن هجوم الأمير أبى الكامل تميم بن زمور الزناتى اليفرنى ، أمير بنى يفرن ، على فاس سنة ١٢٤ هـ فيقول «فأوقع فيها باليهود وسبى نساءهم فقتل منهم خلقاً كثيراً يزيدون على الستة آلاف يهودى ، وأخذ أموالهم وسبى نساءهم .... (١١٧)» . وكذلك قوله فى سياق سرده لفتوح إدريس بن عبد الله بن الحسن ، فى إقليم السوس الأدنى «ثم فتح بعدها سير بلاد تامسنا ثم سار الى تادلا ففتح معاقلها وحصونها وكان أكثر هذه البلاد على دين النصرانية واليهودية .... (١١٨)» .

ويتفق ابن خلدون مع ابن ابى زرع فى توفر العناصر اليهودية والمجوسية والمسيحية فى تلك المناطق فيذكر أنه «لما استوثق أمر إدريس وتمت دعوته زحف إلى البرابرة الذين كانوا بالمغرب على دين المجوسية واليهودية والنصرانية مثل فندلاوة وبهلوانه ومديونه ومازار ، وفتح تامسنا ومدينة شالة وتادلا وكان أكثرهم على دين اليهودية والنصرانية ، فأسلموا على يديه طوعاً وكرهاً ، وهدم معاقلهم وحصونهم .... (١١٩)» .

ومن المعروف أن تحول المغرب كله الى الإسلام ، لم يتم إلا فى القرن الرابع الهجرى إذ ظلت بعض المناطق والمدن تحتفظ بأعداد كبيرة من التجمعات المسيحية واليهودية ، كما كانت لا تزال توجد أعداد قليلة من التجمعات البربرية فى المناطق الجبلية المتطرفة على عقائدها البربرية القديمة (١٢٠) . وكان هؤلاء جميعاً يعيشون فى عزلة عن المجتمع المغربى ، وساعدهم على ذلك وبصفة خاصة اليهود فى السوس الاقصى والادنى والطبيعة الجغرافية ، حيث أن جبال أطلس كانت تحيط بسهول تلك المنطقة مما جعلهم يعيشون فى مناطق معزولة ومحمية طبيعياً (١٢١) . وقد عملت أقلية من هؤلاء اليهود بالتجارة .

ويبدو أن مؤسس هذه الدولة ، وهو طريف بن شمعون انتقل من الأندلس إلى المغرب قبل الفتح الإسلامى مباشرة لأمر ما لا نعرفه ، ربما (١٢٢) لاضطهاد القوط لليهود فى الأندلس ، أو بعد الفتح الاسلامى مباشرة ، ونزل فى المغرب الأقصى فى منطقة تامسنا مقر المصامدة ، ثم اعتنق الإسلام فى ولاية موسى

ابن نصير على المغرب ، وعندما احتدمت نيران ثورة البربر على العرب فى المغرب الأقصى اعتنق المذهب الصفرى شأن غيره من خوارج المغرب طلاب العلم أمثال ميسرة المطغرى وعبد الرحمن بن رستم الاباضى ، وشارك فى الثورة ، والظاهر أن ميسرة الحقير المطغرى استوزر ابنه صالح فى المغرب الأقصى كما يذكر ابن الخطيب (١٢٣) . لما عهدوه من ذكائه الخارق وقدراته العالية فى السيطرة على عقول البربر وما أثبته من مهارة فى السحر والحيل (١٢٤) .

ذلك هو فى تصورى السبب فى أن أهل المغرب لم يترددوا فى أن ينسبوه إليهم أو ينتسبوا هم إليه ، بعد أن أثبت أنه أهل لرئاستهم ، فشاع عنه منذ ذلك الحين أنه مصمودى فى نفس الوقت الذى عرفوا فيه بأنهم «برغواطيين» تحريفاً من «برباطيين» (١٢٥) .

والظاهر أن جماعة من البرغواطيين المصامدة أتباع بنى طريف بن شمعون انتقلوا فى بداية عصر الدولة الأموية إلى أشونة (١٢٦) إحدى مدن جنوب الأندلس وتقع على مقربة من شلونة وبرباط ، وهى البلدة التى أشارت بعض الروايات التاريخية أنها مسقط رأس طريف مؤسس دولتهم ، وقدر لهم أن يصبحوا أمراء أشونة ، وهم الذين أسسوا مدينة سالم (١٢٧) *Medinaceli* ، فى الأندلس . هذا وقد ارتبطت دولة برغواطة فى المغرب بعلاقات طيبة مع دولة بنى أمية فى الأندلس فى عصر الإمارة ، بدليل أن صالح بن طريف أوصى ولده الياس بموالاة صاحب الأندلس من بنى أمية (١٢٨) . كل ذلك يدعونا إلى الاعتقاد بالأصل الأندلسى لبنى طريف ملوك برغواطة .

٤ - ملوك برغواطة : سياستهم الخارجية وملامح من فكرهم العقائدى

قبل أن نبدأ باستعراض أهم ملامح الفكر العقائدى لبرغواطة علينا أن نوضح أن هذا الفكر قد مر بمراحل مختلفة منذ أن تأسست الدولة على يد طريف ابن شمعون الى أن سقطت ككيان سياسى مستقل على أيدى المرابطين . وعلى الرغم من إزالة المرابطين لهذه الدولة إلا أن وميضاً من نارها ظل باقياً تحت الرماد ، وأوشك هذا الوميض أن يضطرم فى عصر الموحدين ، وذلك عندما تمردت طائفة من بقايا برغواطة على دولة الموحدين ، وشاركوا فى ثورة الماسى

والصحراوى . غير أن تلك الحركة لم تكن سوى صحوة الموت فقد تمكنت السلطات الموحدية من إخمادها سريعاً . لذلك رأيت أن أتتبع عهود أشهر ملوك برغواطة وحكامها حتى بداية عصر دولة المرابطين ثم أنتقل بعد ذلك إلى دراسة أهم مناحى الفكر الدينى لبرغواطة وتطوره حتى خمود حركتهم .

أ - أهم ملوك برغواطة حتى بداية العصر المرابطى:

(١) طريف بن شمعون

انسحب طريف بن شمعون من طنجة بعد مصرع صاحبه ميسرة المطغرى على أيدى المتطرفين من ثوار البربر سنة ١٢٢ هـ ، وربما تم ذلك قبل وقوع موقعة الأشراف احتجاجاً على غدر أصحاب ميسرة بزعيم من كبار زعمائهم الخوارج ، ولهذا نرجح أنه آثر الإنزواء والإعتزال بعيداً عن الأنظار ، ربما لتنفيذ خاطر خطر له أو خطة أعدها ، ونميل إلى الإعتقاد بأنه لم يشترك مع خالد بن حميد الزناتى فى موقعة الاشراف أو حتى فى موقعة بقدورة التى دارت بعد ذلك وانتهت بهزيمة تكراء للعرب الشاميين والبلديين (*) ، واختار طريف لإقامته إقليم تامسنا الذى كان يتولاه صالح بن طريف من قبل ميسرة ، فقد كان ميسرة قد استوزر صالح ولد طريف فى هذا الإقليم «وكتب له كتاباً إلى أهل تامسنا وقومه من زناتة البربر يوصيهم به ويصف فضله وعلمه ... (١٢٩)» .

وجد طريف أن مهمته فى تأسيس دولة له ولأبنائه من بعده فى هذا الإقليم مهمة سهلة ، فقد كان أهل تامسنا قد ارتبطوا نفسياً وروحياً به وبولده صالح . ويكتنف هذه المرحلة التأسيسية الأولية لدولة برغواطة ستار من الغموض ، إذ أن المصادر العربية تضطرب فى سرد أحداثها وتخلط بين دور طريف بن شمعون فى تأسيس هذه الدولة وتشريع عقائدها ، وبين دور ولده صالح .

ويذكر كل من البكرى وابن عذارى (١٣٠) ، وابن خلدون (١٣١) أن طريف بن شمعون ، أبو صالح انسحب إلى تامسنا عقب مقتل ميسرة وكان ذلك فى سنة ١٢٢ هـ ، حيث كانت قبائل البربر تعانى من الجهل الشديد ، فقام فيهم ، ودعا الى نفسه ملكاً ، فبايعه أبناء تلك المنطقة وقدموه على أنفسهم ، فانتهز ثقتهم به ، وبدأ يشرع لهم الشرائع الجديدة .

ولم يحدد المؤرخان المغربيان العام الذى توفى فيه طريف ، وإن كان ابن عذارى يذكر أنه «مات بعد مدة ، وخلف من الولد أربعة ...» [١٣٢] .

(٢) صالح بن طريف

ولا نستطيع أن نقرر على وجه الدقة ، العام الذى توفى فيه طريف ، ويخلفه فيه ابنه صالح على حكم برغواطة ، إذ أن ابن الخطيب يرى أن صالح تولى حكم برغواطة سنة ١٢٢ هـ ، وإنه استمر فى ملكه نحواً من ست سنين إلى أن توفى فى عام ١٢٨ [١٣٣] هـ . ويذكر ابن الخطيب أن صالح بن طريف هو الذى شرع الشرائع لدولة برغواطة وأنه خرج بها عن تعاليم الإسلام ، وكانت بداية ظهور هذه التشريعات فى عام ١٢٥ هـ [١٣٤] ويتفق معه ابن أبى زرع فى ذلك [١٣٥] .

فى حين يذكر ابن خلدون أن عام ١٢٧ هـ يسجل بداية ظهور صالح فى خلافة هشام بن عبد الملك [١٣٦] . ويتفق معه فى ذلك صاحب نبذ من مفاخر البربر [١٣٧] . ويؤكد ابن خلدون [١٣٨] أن صالح استمر يحكم برغواطة ٤٧ عاماً ، فتكون نهاية حكمة بذلك عام ١٧٤ هـ .

وفى نفس الوقت ينسب كل من البكرى [١٣٩] وابن الخطيب [١٤٠] وابن أبى زرع [١٤١] ، وصاحب نبذ من كتاب مفاخر البربر [١٤٢] الى صالح بن طريف بن شمعون الفضل الأول فى اعلان قيام دولة برغواطة وفى تشريع شرائعها المتطرفة . ويؤكد أقدمهم وهو البكرى أن طريف بن شمعون ، أبا ملوكهم وأول من ولى أمرهم ، كان يدين بالاسلام [١٤٣] .

ويتبين لنا مما سبق اختلاف الآراء حول «مؤسس دولة برغواطة هراطقة المغرب الاسلامى» هل هو طريف بن شمعون أم ابنة وخليفته صالح ؟؟ وللتوفيق بين كل هذه الآراء المختلفة نرجح أن يكون طريف بن شمعون هو المؤسس الحقيقى للدولة برغواطة وواضع حجر الأساس فى عقائد هذه الدولة وتشريعاتها وفقاً لما ذكره ابن خلدون وابن عذارى ، والمعروف عنه أنه كان مسلماً وأنه اعتنق الفكر الخارجى الصفرى . فلم يذكر أى من المصادر باستثناء ابن خلدون[١٤٤] أنه تنبأ أما بقية المصادر فتجمع على أن ولده صالح هو الذى تنبأ ، وقياساً على ذلك

يكون طريف هو المؤسس الأول لهذه الدولة الذى أرسى دعائمها وشرع قوانينها . ويبدو أن العمر لم يطل به، فخلفه ولده صالح الذى كان الساعد الايمن لأبيه منذ أن اشتركا معاً فى ثورة ميسرة المطغرى ضد العرب لما اتسم به من ذكاء وعلم، وأصبح صالح بذلك ثانى ملوك هذه الدولة، وأميل الى اعتباره المشرع الحقيقى لشرائعها، والمخطط لفكرها العقائدى، كما أن من الثابت ادعاءه النبوة كما سنوضح بالتفصيل عند تعرضنا لذكر عقيدة برغواطة فى الصفحات التالية .

ومما يؤكد دور طريف بن شمعون فى ارساء دعائم دولة برغواطة أن ملوك برغواطة نسبوا اليه هو ، ولم ينسبوا الى ابنه صالح فعرفوا ببنى طريف [١٤٥] وخلف صالح على حكم برغواطه ولده الياس .

وقبل أن تسدل الستار على عهد صالح بن طريف نجد لزاماً علينا معالجة قضية هامة تتلخص فيما يلى :

تذكر معظم المصادر العربية، واهمها البكرى [١٤٦] ، وابن عذارى [١٤٧] ، وابن خلدون [١٤٨] ، وابن الخطيب [١٤٩] أن حكم صالح لبرغواطة ينتهى نهاية غامضة، فقد رحل إلى المشرق في أواخر عهده بعد أن أوصى ولده الياس بموالاة حاكم الأندلس من بنى أمية، وبأن يحافظ على عقيدة برغواطة، ولايظهرها إلا إذا أحس بقوته ، ووعد صالح ولده الياس بأنه سوف يرجع من غيبته فى دولة السابع من ملوكهم، وزعم لولده الياس أنه المهدى الذى يكون فى آخر الزمان لقتال الدجال ، وأن عيسى عليه السلام، سيكون من رجاله يصلى خلفه. ومنذ ذلك الحين اختفى صالح ولم يعد أحد يعرف عنه شيئاً. وتبين لنا من خلال النصوص التى أوردتها هذه المصادر، وضوح التأثيرات الشيعيه والدرزيه فى فكر برغواطه العقائدى فى هذه المرحله .

ويثير د. محمود اسماعيل فى بحثه «حقيقة المسألة البرغواطية» قضية هامة للمناقشة ، فهو يرفض تماماً ماجاء فى هذه المصادر، خاصاً باختفاء صالح برحيله إلى المشرق فى أواخر عهده ، ويرى أن رحلته إلى المشرق حدثت فى عهد أبيه طريف، ويستند د. محمود اسماعيل فى ذلك على نص أورده ابن حوقل [١٥٠] ، وعلى رواية لأبى العباس فضل بن مفضل بن عمرو المذحجى

أوردها البكرى [١٥١] عن رحيل يونس حفيد صالح بن طريف من ملوك برغواطة الى المشرق، غير أنه استشهد بهذه الرواية بعد أن عدل فيها، فذكر أن المنحجى التبس عليه الأمر ، وخلط بين يونس وجده صالح، وأن المنحجى كان يقصد صالحاً وليس يونس فى الرحلة إلى المشرق، وحجته فى ذلك أن المنحجى أورد مايدل على أن يونس أخذ على غيلان الدمشقى فى المشرق، وأن غيلان لم يكن على قيد الحياة فى عهد يونس ، ومن ذلك يستنتج الدكتور محمود اسماعيل أن رحلة صالح الى المشرق حدثت قبل أن يتولى حكم تامسنا، فذهب الى الشام، وسمع من غيلان الدمشقى ثم رحل الى العراق ، وفقاً لما ذكره ابن حوقل، وتبحر فى علوم الخوارج، ثم عاد إلى تامسنا ليحكمها على المذهب الخارجى الصفرى، وأنه ظل يحتفظ بهذا المذهب الصفرى، ولم يرتد عن الاسلام [١٥٢] .

وأعتقد أن ماذكرته المصادر بشأن خروج صالح الى المشرق الاسلامى واختفائه فى أواخر عهده صحيح، لاجماع معظم المصادر عليه، ولأن هذه المصادر ذكرت أن السابع من ملوك هذه الأسرة الحاكمة وهو أبو منصور عيسى، ظل ينتظر عودة صالح . وفى نفس الوقت لاترفض رأى الدكتور محمود اسماعيل فيما يتعلق برحيل صالح الى المشرق فى بداية حياته للدراسة والعلم اى قبل أن يتولى حكم برغواطة ، فيكون صالح بذلك قد رحل الى المشرق مرتين، مرة فى بداية حياته، ومرة فى أواخر عهده. وتوصلنا لهذا الرأى لاينفى مايلى :

(١) صحة رواية المنحجى التى أوردها البكرى بشأن سفر يونس حفيد صالح إلى المشرق حيث أنها وردت فى معظم المصادر العربية الأخرى مثل البيان لابن عذارى [١٥٣] والعبر لابن خلدون [١٥٤] . واذا كان غيلان الدمشقى قد توفى قبل أن يتولى يونس أمر برغواطة فإن هذا لايتعارض مع ماذكره المنحجى من أن يونس «طلب علم النجوم والكهانة والجان، ونظر فى الكلام والجدال وأخذ ذلك عن غيلان» ، فمن المحتمل أن يكون يونس قد أخذ العلم عن غيلان من كتاباته أو عن طريق تلاميذه وليس بالضرورة عنه شخصياً، فالمنحجى لم ينص على لقاء يونس لغيلان شخصياً .

(٢) يذكر د. محمود اسماعيل أن رحيل صالح الى المشرق تم فى حياة أبيه وإبان توليه برغواطه ، ويذكر «أنه درس شيئاً من النجوم وعمل التقاويم والمواليد وأصاب فى أكثر أحكامه ثم عاد الى تامسنا ليتقلد الحكم بعد والده الذى يمتد به العمر طويلاً» ويرى بناء على ماذكره ابن الخطيب [(١٥٥)] أن طريف توفى فى عام ١٢٢هـ، وهو نفس العام الذى أسس فيه دولة برغواطه على حد قول ابن حوقل .

وأعتقد أن رحيل صالح إلى المشرق فى المرة الأولى، حدث قبل أن يؤسس والده طريف دولة برغواطة سنة ١٢٢ هـ بمرحلة طويلة، بل قبل أن يشرع ميسرة فى ثورته، اذ ينص كل من البكرى وابن عذارى وابن خلدون وابن الخطيب على أن صالح اشترك فى الثورة الصفرية مع والده طريف وحليفه ميسرة [(١٥٦)] .

واذا كان طريف بن شمعون قد توفى فى نفس العام الذى أسس فيه دولته (١٢٢هـ) كما يذكر د. محمود اسماعيل ، فمتى رحل صالح اذن الى المشرق ؟؟ وهو الذى شارك فى كل مراحل ثورة ميسرة الذى لقى مصرعه فى سنة ١٢٢هـ ؟؟ وأرجح أن يكون صالح قد رحل الى المشرق طلباً للعلم بعد انتقال أبيه من الأندلس واستقراره فى المغرب ، واستند فى ذلك على رواية لكل من ابن أبى زرع، وابن الخطيب أرجحها على رواية ابن حوقل الجغرافى المشرقى ، فابن أبى زرع يقول «وكان صالح بن طريف الذى ادعى فيهم النبوة رجلاً خبيثاً، يهودى الأصل، من ولد شمعون بن يعقوب عليه السلام، نشأ ببرباط من بلاد الأندلس، ثم رحل إلى المشرق فقرأ على عبيد الله المعتزلى القدرى ، واشتغل بالسحر، فجمع منه فنوناً كثيرة، وقدم المغرب، فنزل تامسنا ، فوجد بها قبائل من البربر جهالاً، فأظهر لهم الاسلام، والزهد والورع، فأخذ بعقولهم، واستمالهم بسحره ولسانه، وأراهم من نوارصه وتمويهاته، فاستهواهم بذلك، وأقروا بفضله، واعترفوا بولايته» [(١٥٧)] .

وتتفق هذه الرواية مع النصوص التى أوردها ابن عذارى وابن خلدون وابن لخطيب التى تفيد بأن قبائل تامسنا البربرية كانت من السذاجة بحيث تيسر صالح القادم من بلاد المشرق، بعد تعلمه فنون التأثير على البسطاء من الناس،

السيطرة على عقولهم، واستهوائهم بمعسول القول .

أما ابن الخطيب فيقول «وكان صالح هذا مصمودى الأصل، وقيل كان اسرائيلى، نشأ بقرية برباط من الأندلس، ورحل إلى المشرق، فقرأ على عبيد القدرى المعتزلى، واشتغل بالسحر، فمهر فيه، وقدم المغرب، فاستمال من لقيه بما أظهر من الاسلام والزهد والورع، فاستهواهم بالنيرجات والحيل والسحر، فأقروا بفضله، واعترفوا بولايته، فولوه على أنفسهم .... » [158] .

(٣) أعتقد أن صالح بن طريف بتعاليمه التى شرعها لبرغواطة، لم يعد مسلماً ، فقد تنبأ كما سنوضح فى الصفحات القادمة ، وبذلك تكون برغواطة قد خرجت من بين صفوف الدول الصفرية فى المغرب عن الاسلام ، بل ، اعتبر البرغواطيون ابتداء من عهده من هراطقة المغرب فى ذلك العصر .

(٣) الياس بن صالح البرغواطى

خلف الياس والده صالح بن طريف بن شمعون فى حكم دولة برغواطة ، وكان من أفضل ملوكهم وأزهدهم وأكثرهم عدلاً. وفى عهده دخل فى طاعته عدد كبير من أبناء زناته [159] . وطالت مدة حكمة الى خمسين عاماً [160] . وخلف بعد وفاته عدداً كبيراً من الأبناء، وكانت وفاته وفقاً لما أورده ابن الخطيب [161] سنة ١٧٦ هـ ووفقاً لما أورده ابن عذارى سنة ١٧٣ هـ [162] .

(٤) يونس بن الياس البرغواطى

خلف الياس على دولة برغواطة ولده يونس، وتشير المصادر إلى أنه رحل كما سبق أن ذكرنا الى المشرق، وأنه أدى هناك فريضة الحج، وكان بذلك أول وآخر ملوك برغواطة، يؤدى هذه الفريضة [163] .

والظاهر أنه أدى فريضة الحج تظاهراً بالاسلام، وتستراً على نواياه الخبيثة، فقد طاف فى بلاد المشرق متردداً على مشاهير العلماء فى علم التنجيم والكهانة والجان والجدل والكلام. وكان يصحبه فى هذه الرحلة الى المشرق، جماعة من أصحابه بعضهم من الخارجين على الاسلام، وهم كما يقول البكرى نقلاً عن المذحجى « عياس بن ناصح، وزيد بن سنان الزناتى صاحب الواصلية، وبرغوث

ابن سعيد التراري، وجد بني عبد الرزاق، ويعرفون ببني وكيل الصفرية، ومناد صاحب المنادية المنسوب اليه القلعه المعروفه بالمنادية، قريباً من سجلماسة، وآخر ذهب عنى اسمه (كما يذكر المذحجى) فاربعة منهم فقهوا في الدين، وادعى ثلاثة منهم النبوة، منهم يونس صاحب برغواطة ... » . [١٦٤] ثم عاد يونس الى قومه فى المغرب، وتظاهر بادئ ذى بدء بالتقى والورع، بعد أن أدى فريضة الحج، ولكن سرعان ماكشف النقاب عن وجهه الحقيقى، وبدت نواياه التى تمثلت فى تلك الفترة أولاً فى توسيع رقعة دولة برغواطة سياسياً عن طريق بسط نفوذه على المناطق المجاورة ، وثانياً الاعلان عن ميوله الحقيقية فى الخروج عن تعاليم الدين الحنيف. وفى ذلك يقول ابن عذارى « فولى ابنه يونس بن الياس، وذلك بعدما وصل من المشرق، وحج، ولم يحج أحد من أهل بيته ، فأظهر ديانة جده ودعا اليها ... » [١٦٥] وربط هذين الهدفين بعضهما ببعض فأعلن النبوة [١٦٦] ، ونجح فى السيطرة على زناته الذين كانوا قد دخلوا فى فلك الدولة البرغواطية زمن والده الياس، ويبدو أن يونس كان يسعى الى استغلال العلاقة الطيبة التى كانت تربط بين أمراء الأندلس الأمويين وبين ملوك برغواطة منذ عهد صالح بن طريف بأن ينشر أفكاره الهدامة هناك، وأغلب الظن أنه لم يوفق فيما ذهب إليه ، لأن الأندلس كانت تخضع آنذاك للأمير هشام الرضا (١٧٢ - ١٨٠ هـ) ابن عبد الرحمن الداخل الذى كان معروفاً بورعه وتقواه ، كما أن الفقهاء المالكية شغلوا مكانة كبيرة فى عهده [١٦٧] .

لذلك صرف يونس جهوده فى نشر عقائده الهدامه فى زناته وبربر برغواطه بتامسنا، وفى ذلك يقول البكرى «وكان يونس شرب دواء الحفظ فلقن كل ماسمع وحفظه، وطلب علم النجوم والكهانه والجان ، ونظر فى الكلام والجدال، وأخذ ذلك عن غيلان ، ثم انصرف يريد الأندلس ، فنزل بين هؤلاء القوم من زناته ، فلما رأى جهلهم استوطن بلدهم ، وكان يخبرهم بأشياء قبل كونها مما تدل عليه النجوم عندهم فتكون على ما يقول أو قريباً منه ، فعظم عندهم ، فلما رأى ذلك منهم وعرف ضعف حلومهم وسخافة عقولهم ، أظهر ديانته ودعا الى نبوته ... » [١٦٨] .

ويبدو أن يونس البرغواطى أحكم سيطرته على أهالى تامسنا ، وأثر فى

نفوسهم تأثيراً عميقاً بحيث أصبح يطلق على كل من تبعه «برباطى» وهو نفس لقب أسرة طريف ثم تحرفت الكلمة كما سبق أن ذكرنا الى برغواطى فأطلق اسم الأسرة على القبيلة كلها [١٦٩] .

واتسم عهد يونس بن الياس بالاستبداد والعنف الشديد ، فكان يونس بعد أن تنبأ وأظهر دينه الجديد ، يقدم على قتل من لايقبل اعتناقه حتى أنه «أخلى ثلاث ماية مدينة ، وسبعا وثمانين مدينة حمل جميع أهلها على السيف لمخالفتهم اياه ، وقتل منهم بموضع يقال له تاملوكاب، وهو حجر نابت عالى فى وسط السوق سبعة الاف وسبع مائة وسبعين قتيلاً ، وقتل من صنهاجة خاصة فى وقعة واحدة ألف وغد ، والوغد عندهم ، المنفرد الوحيد الذى لا أخ له ولا ابن عم ، وذلك فى البربر قليل ، وانما أحصوا الأقل ليستدل به على الاعظم الأكثر ... » [١٧٠] ومع أن الأرقام الواردة فى النص مبالغ فيها إلا أنها تعبّر الى حد كبير عن جبروته وتسلطه . وقد توفى يونس بن الياس فى أواخر القرن الثانى وطليعة الثالث على وجه التقريب ، بعد أن حكم أربع واربعين سنة فى قول البكرى ، وأربعين سنة فى قول ابن عذارى ، وتسعة عشرة سنة فى قول ابن الخطيب ، الذى يذكر أنه توفى سنة ١٩٥ هـ .

ونستطيع أن نتبين من هذا العرض بداية اتساع رقعة دولة برغواطة منذ أن تولاها الياس ، وبلغت فى عهد يونس أقصى اتساع لها لتشمل المناطق والمدن المجاورة لها ، وكان يونس يتخذ من ديانته الجديدة ستاراً لبسط نفوذه على ماكان يجاوره من أقاليم . وكانت شاله على وادى النبط من أسمير ، قاعدة مُلك يونس [١٧١] .

واتفق فى هذه المرحلة من تاريخ برغواطة أن نجح ادريس بن عبد الله بن الحسن فى الافلات من أيدى العباسيين والنجاة بنفسه فى أقصى بلاد المغرب ، ونزل فى وليلى سنة ١٧٢ هـ عند اسحق بن عبد الله الأوربى أمير أوربه وكبيرهم فى ذلك الوقت ، والتف حوله جموع كبيره من البربر لقرابته من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) واجتمعت عليه قبائل أوربه ومغيلة وصدينة وتبعتها زناته وزواوة ولواتة وسدراتة ونفزة ومكناسة وغمارة ، وبايعته

بالإمامة [١٧٢] ، ويبدو أن تنافساً على السيادة فى المناطق الممتدة مابين تامسنا والسوس الادنى حدث بين الياس بن صالح ملك برغواطة ، وربما ولده يونس ، وبين ادريس الأول الحسنى ، خاصة بعد أن نجح الياس فى بسط نفوذ برغواطة على خلق كثير من زناتة على حد قول ابن الخطيب ، استكمله ابنه يونس كما سبق أن أوضحنا ، الأمر الذى دفع ادريس الى الاغارة على أراضى تامسنا وحصونها ، فافتتح شاله وامتد نفوذه حتى شمل تادلا ، وفى ذلك يقول ابن خلدون : «ولما استوثق أمر ادريس وتمت دعوته ، زحف الى البرابرة الذين كانوا بالمغرب على دين المجوسية واليهودية والنصرانية مثل فندلاوة، وبهلوانة ومديونة، ومازار، وفتح تامسنا ، ومدينة شالا وتادلا ... » [١٧٣] .

ويذكر ابن أبى زرع أن ادريس خرج غازياً «الى بلاد تامسنا ، فنزل أولاً بمدينة شالة ففتحها ثم فتح بعدها سائر بلاد تامسنا ، ثم سار الى بلاد تادلا ... » [١٧٤] .

ولانعرف على وجه التحديد اسم ملك برغواطة فى هذه الفترة ، بسبب اختلاف المصادر فى تحديد سنى حكم كل من ملوكهم : فابن الخطيب يذكر أن وفاة الياس حدثت سنة ١٧٦ هـ بينما يجعلها ابن عذارى فى سنة ١٧٣ هـ . وفى نفس الوقت لانعرف على وجه الدقة تاريخ سنة وفاة ادريس الأول ، فبينما يذكر ان ابى زرع أنه توفى فى سنة ١٧٧ هـ [١٧٥] ، يحدد البكرى وفاته سنة ١٧٥ هـ [١٧٦] . وأيا ما كان تاريخ وفاته ، فليس من شك فى أن ادريس الأول هاجم برغواطة فى عهد الياس او ابنه يونس بهدف وضع حد لنفوذ حكام برغواطه الذى بدأ يتسع فى بلاد السوس الأدنى من جهة ، وللقضاء على هرطقتهم من جهة أخرى ، فالأدارسة أسرة حسنية يرتفع نسبهم إلى على بن أبى طالب وبالتالى إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ومحاربتهم لهراطقة برغواطة يعد من قبيل الجهاد الذى التزموا به، وللحد من سيطرة المارقين عن الدين الاسلامى وتوسعهم فى التراب المغربى .

ولقد نجح الأدارسة فى بسط نفوذهم على تامسنا فترة من الزمن خاصة فى عهد محمد بن ادريس الثانى كما سنوضح فى سياق حديثنا عن العلاقات الخارجية لبرغواطة . ونرجح أن هذه الفترة التى ساد فيها نفوذ الأدارسة على

تامسنا هى نفس فترة الانتقال بين حكم يونس البرغواطى ، وحكم خليفته على ملك برغواطة أبى غفير محمد بن معاد بن اليسع بن صالح بن طريف ، خاصة اذا وضعنا فى الاعتبار استناداً على ماأورده البكرى ، وابن عذارى ، وابن خلدون أن نسل يونس بن الياس انقطع بوفاته ، وأن حكم برغواطة انتقل الى فرع آخر لابن ثان لطريف ، غير صالح ، هو اليسع (١٧٧) .

(٥) ابو غفير محمد بن معاذ بن اليسع

وعلى الرغم مما عاناه البرغواطيون فى التصدى للأدراسة فقد نجح أبو غفير محمد بن معاذ بن اليسع فى تخليص بلده من سيطره الأدارسة وأعاد عقيدة أجداده وأسرته ، وفى ذلك يقول ابن الخطيب « ولما ولى أبو غفير أظهر ديانته ، وقاتل الأدارسة ملوك المغرب من الفاطميين ، واشتدت شوكته ، فكانت بينه وبين ادريس بن ادريس الحسنى حرب عظيمة ومواقف جهادية شهيرة .. » (١٧٨)

ولم يلبث ابو غفير أن توفى فى سنة ٢٣٠ هـ على حد قول ابن الخطيب الذى يحدد فترة حكمه بخمس وثلاثين سنة (١٧٩) . وان كان كل من البكرى وابن عذارى وابن خلدون يذكرون أنه حكم ٢٩ سنة ، وتوفى فى اخريات المائة الثالثة .

ويكون أبو غفير بذلك قد عاصر ثلاثة من ملوك الأدارسة هم ادريس ابن ادريس المتوفى فى سنة ٢١٣ هـ ، ومحمد ابن ادريس الثانى المتوفى سنة ٢٢١ هـ والذى تمكن من بسط نفوذه على تامسنا إلى أن وضع أبو غفير حداً لهذا النفوذ ، كما عاصر على بن حيدرة بن محمد بن ادريس الذى توفى سنة ٢٣٤ هـ .

واهتم أبو غفير بعد تخليص برغواطة من نفوذ الأدارسة أن يعيد لها أهميتها بين بربر السوس الأدنى ، فانطلق يعيث فساداً فى المناطق المجاورة له ، وكانت له مع البربر وقائع مشهودة ، ومعارك مشهورة ، من أهمها معركة تيمغسن «وكانت مدينة عظيمة ، أقام القتل فى أهلها ثمانية أيام من الخميس الى الخميس حتى شرقت دورهم ورحابهم وسككهم بدمائهم ...» (١٨٠) .

ومن أشهر هذه المواقع موقعة بهت التى عجز الاحصاء عن عد ضحاياها ،

وقد نظم سعيد بن هشام المصمودى ، فى هذه المرقعة ، قصيدة طويلة منها :

ألم تسمع ولم تر يوم بهت ... على آثار خيلهم رنينا

رنين الباكيات بهم ثكالى ... وعاوية ومسقطة جنيناً

هنالك يونس وبنو أبيه ... يوالون البوار معظمينا

فليس اليوم ردتكم ولاكن ... ليالى كنتم مستيسرينا [(١٨١)]

(٦) أبو الانصار عبد الله بن أبى غفير

يذكر كل من البكرى ، وابن عذارى ، وابن خلدون أن أبا الانصار عبد الله خلف أباه أبا غفير بن معاذ على حكم برغواطة فى ختام المائة الثالثة للهجرة . ومن الملاحظ أن رواية ابن الخطيب عن دولة برغواطة بدأت تضطرب منذ عهد أبى غفير ، فهو يذكر أبا غفير معاذ على أنه من نسل يونس بن الياس بن صالح ، وواضح أن هذه النسبة غير صحيحة ، لأن يونس بن الياس لم يعقب كما سبق أن أوضحنا أو لأن الحكم انتقل إلى فرع آخر نتيجة خضوع برغواطة فى هذه الفترة للأدارسة . كذلك لم يذكر ابن الخطيب أن أبا الأنصار عبد الله خلف أباه أبا غفير على حكم برغواطة [(١٨٢)] .

ونستنتج من النصوص التاريخية المتعلقة بأبى الأنصار عبد الله أنه كان شخصية قوية ، هابه ملوك عصره وسعوا إلى خطب وده وصداقته ، فإنه كان سخياً يفى بالعهد ويحفظ الجار ويكافئ على الهدية بأضعافها [(١٨٣)] . وفى عهده استقرت الأوضاع السياسية لدولة برغواطة نتيجة لحملاته العسكرية التى كان يسيرها من آن لآخر إذ أنه «كان يجمع جنده وحشمه فى كل عام ويظهر أنه يغزو من حوله ، فتهاديه القبائل وتستألفه ، فإذا استوعب هداياهم وألطافهم فرق أصحابه [(*)]» .

وحكم أبو الأنصار عبد الله نحواً من ٤٢ سنة ، وتوفى فى أواخر سنة ٣٤١ هـ أو بداية سنة ٣٤٢ هـ ، ودفن فى مدينة بامسلاخت .

(٧) أبو منصور عيسى بن أبى الانصار عبد الله

وخلف أبا الأنصار فى مُلك برغواطة ، ولده أبو منصور عيسى . وكان شاباً

يافعاً يبلغ من العمر نحو ٢٢ عاماً (١٨٤) . وكان أبو الأنصار قد أوصى ولده أبا منصور عيسى قبل وفاته بموالاة صاحب الأندلس (الخليفة عبد الرحمن الناصر) ويبدو أن الصلات الودية بين أبى منصور عيسى وبين خلفاء بنى أمية فى الأندلس توثقت إلى حد كبير زمن الخليفة الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) فقد أرسل أبو منصور عيسى سفارة رسمية يرأسها أبو صالح زمور البرغواطى إلى الخليفة المستنصر فى شوال من ٣٥٢ هـ ، وكان يصاحب هذه السفارة البرغواطية ، عيسى بن داود المسطاسى الذى كان يتولى نقل أفكار السفير البرغواطى إلى الخليفة (١٨٥) . وتسجل تلك السفارة المكانة السياسية العالية التى بلغتها دولة برغواطة بحيث أصبحت بين الدول المغربية الكبرى التى تتعامل معها الحكومة المركزية بقرطبة دبلوماسياً وتتبادل السفارات السياسية مع دولة الإسلام فى الأندلس ، ونستدل على هذه المكانة السامية من رواية للبكرى تؤكد اشتداد شوكة أبى منصور عيسى ، وعظم سلطانه إلى حد أنه انتهج سيرة آبائه وادعى النبوة (١٨٦) ، فيكون بذلك ثالث ملوك برغواطه ، يدعى النبوة بعد صالح ، ويونس .

وكان قد شاع بين هراطقة برغواطة أن صالح بن طريف سيعود الى الظهور فى عهد سابع ملوكهم ، واتفق أن أبا منصور عيسى كان السابع بين هؤلاء الملوك ، ولهذا فقد ساد الإعتقاد فى برغواطة أن صالح بن طريف سيظهر فى عهده .

ويبدو أن الظروف السياسية السيئة التى أحاطت ببرغواطة منذ أوائل القرن الرابع الهجرى ، بلغت درجة كبيرة من الإضطراب والتعقيد ، وانعكست هذه الظروف السياسية على كتابات مؤرخى برغواطة بحيث خلطوا بين أسماء الملوك فقدموا بعضهم على بعض ، واختلفوا فى تحديد مدد حكمهم ، ومن مظاهر ذلك على سبيل المثال أن ابن خلدون يذكر أنه لم يقف على من ملك أمر برغواطة بعد أبى منصور عيسى (١٨٧) بينما توقف ابن عذارى عن متابعة الحديث عن برغواطة عند أحداث سنة ٣٥٢ هـ (١٨٨) .

أما ابن الخطيب فلم يكن أقل منهما اضطراباً بشأن ملوك برغواطة ، فقد

أورد اسم أبى حفص عمر بعد أبى غفير ، ثم ذكر أن اليسع بن إسماعيل خلف أبا حفص عمر ، وأن اليسع كان سابع ملوك برغواطة ، وأنه استمر يحكمها حتى سنة ٤٥٢ هـ ، وقت ظهور المرابطين ، كما ذكر أن آخر ملوكهم هو عيسى بن أبى الأنصار [١٨٩] .

ب - الصلات السياسية لبرغواطة مع الدول المغربية المجاورة

لم تكن برغواطة بمعزل عن التيارات السياسية التى كانت تجرى فى بلاد المغرب الاسلامى ، فقد كان لزاماً على أولى الأمر فيها الإرتباط بعلاقات سياسية مع الدول المجاورة لهم سواء رضوا أم كرهوا ، وتتمثل هذه الدول فى الأدارسة والفاطميين والأمويين فى الأندلس حتى سقوط الخلافة الأموية بقرطبة ، ثم فى دولة المرابطين ابتداء من منتصف القرن الخامس الهجرى على وجه التقريب .

(١) سياسة الادارسة مع برغواطة

أشرنا فى الصفحات السابقة إلى جانب من العلاقات بين دولة برغواطة والأدارسة فى عهد إدريس بن عبد الله الحسنى وعهد ولده إدريس الثانى .

واستمر خضوع تامسنا للأدارسة فى عهد محمد بن إدريس الثانى الذى قسم دولة الأدارسة إلى أعمال يتولاها أخوته بإسمه تنفيذاً لوصية جدته كنزة . فكانت شالة وسلا وآزمور وتامسنا وبرغواطة من نصيب أخيه عيسى [١٩٠] . وإتفق أن ثار عيسى بشالة على أخيه محمد ، وأراد الإستقلال ببرغواطة ، فكتب محمد إلى أخيه القاسم صاحب طنجة وسبته يأمره بالتوجه إلى تامسنا لقتال أخيهما عيسى وإعادته إلى الطاعة ، فرفض القاسم ، فاضطر محمد بن إدريس إلى توجيه أخيه عمر المتولى أعمال صنهاجة وغمارة لمحاربة عيسى فى تامسنا . ونجح عمر فى التغلب على أخيه عيسى وتمكن من ضم شالة وتامسنا وما يتبعهما من مناطق نفوذ برغواطة إلى ملكه ، كما بادر بقتال أخيه القاسم ، وانتصر عليه وضم أملاكه بدورها إليه . وظل عمر يتولى عمل شالة بالإضافة إلى ما اقتطعه من أعمال أخويه عيسى والقاسم حتى توفى فى سنة ٢٢٠ هـ . ولم يطل العمر بأخيه محمد ، فلحقه فى ٢٢١ هـ بعد سبعة أشهر من وفاة

أخيه [١٩١] .

وانتهز أبو غفير البرغواطي فرصة وفاة محمد بن إدريس في استرداد ما كان قد انتزعه الأدارسة من أملاكه ، فقاتل الأدارسة وحرر أراضيه من سيطرتهم ، واستعاد لملوك برغواطة من بني طريف ، السيادة على تامسنا وما يجاورها وأمكنه بالتالي استرجاع المكانة السامية التي كانت تشغلها برغواطة .

(٢) موقف برغواطة من الصراع الفاطمي الاموي

لم تستطع برغواطة أن تقف مكتوفة اليدين من الصراع الفاطمي / الأموى للسيطرة على المغرب الأقصى ، باعتبارها إحدى دول هذا الصقع من بلاد المغرب ، فالدولة الفاطمية التي قضت على دولتي الأغالبة والرستميين كانت تتطلع إلى ضم المغرب الأقصى بما في ذلك دولة الأدارسة ، ولكن زعيماً بربرياً هو موسى بن أبي العافية سبق الفاطميين في التحرك ، وتمكن سنة ٣١٣ هـ من الإستيلاء على بعض مناطق من المغرب الأقصى ، وأجلا «جميع الأدارسة عن بلادهم وأخرجهم عن ديارهم ، وملك مدينة أصيلا ومدينة شالة وغيرها من بلادهم ...» [١٩٢] ونخرج من هذا الحادث باحتمالين :

الأول : أن يكون موسى بن أبي العافية قد انتزع شالة من البلاد التابعة لدولة برغواطة وذلك بعد فترة زمنية من قيام أبي غفير بتحرير بلاده من السيطرة الادريسية .

والإحتمال الثاني : أن يكون الأدارسة ما يزالوا يسيطرون على شالة ، وأن أبا غفير لم ينجح في استردادها في جملة ما استرده من أملاكه .

وأياً ما كان الأمر فإننا نلاحظ أن برغواطة التزمت الوقوف مع الجانب الأموى الأندلسي ، من ذلك الصراع الفاطمي الأموى على سيادة المغرب الأقصى ، وهي نفس السياسة التي انتهجها موسى بن أبي العافية الذي أعلن تبعيته للخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر في الأندلس سنة ٣١٩ هـ ، ولهذا السبب كانت العلاقات القائمة بين ملوك برغواطة حتى زمن أبي منصور عيسى ، وبين بني أمية في الأندلس حتى خلافة الحكم المستنصر ودية . ولم يكن ذلك غريباً فقد أوصى صالح ولده الياس قبل رحيله الثاني إلى المشرق واختفائه ، بموالاة أمير

الأندلس ، كما أوصى أبو الأنصار عبد الله ابنه أبا منصور عيسى بمتابعة ولاته لصاحب الأندلس .

ويبدو أن أبا منصور أخذ بنصيحة أبيه فبادر أول توليه الحكم بإرسال سفارة الى الحكم المستنصر سنة ٣٥٢ هـ (١٩٣) . وأعتقد أن حرص ملوك برغواطة على إقامة علاقات وثيقة مع الأمويين في الأندلس ، يرجع إلى عاملين :

الأول أن عبد الرحمن الداخل مؤسس دولة بني أمية في الأندلس ، كان يحمل مودة خاصة لقبيلة مغيلة البربرية منذ أن لجأ عند أحد شيوخها وهو أبو قرة وانسوس المغيلي أثناء مطاردة أعوان عبد الرحمن بن حبيب الفهري له في المغربين الأدنى والأوسط . وكان أبو قرة المغيلي هذا من رؤساء الخوارج الصفرية ، ممن شاركوا في ثورات الخوارج على العرب ، ويبدو أنه كان زعيم قومه رأيا، حكمهم زهاء أربعين سنة (١٩٤) ، وفي ذلك يقول ابن خلدون في سياق حديثه عن مغيلة (١٩٥) أخوة مطماطة «وكان منهم جمهوران ، أحدهما بالمغرب الأوسط عند مصب شلف في البحر من ضواحي ما زونه ، المصر لهذا العهد ، ومن ساحلهم أجاز عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ، ونزل بالمنكب ، فكان منهم أبو قرة المغيلي الدائن بدين الصفرية من الخوارج ، ملك أربعين سنة ، وكانت بينه وبين أمراء العرب بالقيروان لأول دولة بني العباس حروب ، ونازل طبنة . وقد قيل أن أبا قرة هذا من مطماطة ، وهذا عندي صحيح ، فلذلك أخرت ذكر أخباره إلى أخبار بني يفرن من زناتة .... (١٩٦)» .

وسواء أكان أبو قرة من مغيلة أو من مطماطة ، فان مطماطة وهم أخوة مغيلة ، كانوا من حلفاء برغواطة ، وكذلك كان بنو يفرن (١٩٧) . ومادام أبو قرة قد اشترك في ثورة البربر الخوارج على العرب (١٩٨) ، فمن المرجح أنه كان صاحباً لميسرة المطغري أول ثوار البربر ، وطريف بن شمعون . ويذكر ابن خلدون أن أبا قرة ثار سنة ١٥٠ هـ مع أبي حسان وأبي حاتم يعقوب بن لبيب ، وموسى بن خليد ، ومليح بن علوان ، وحسان بن زروال . وكان حسان هذا آخر هؤلاء الثوار من الداخلين مع عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس (١٩٩) .

ولا نستبعد أن تكون الصلات الودية التي ربطت بين أسرة عبد الرحمن

الداخل من أمراء بنى أمية ، وبنى طريف فى برغواطة ، قد توثقت عن طريق أبى قرة المغيلى الصفرى الذى يرجع إليه الفضل فى حماية عبد الرحمن من شرطة ابن حبيب الفهرى (٢٠٠) .

والثانى أن أخوال عبد الرحمن الداخل مؤسس أسرة بنى أمية فى الأندلس من بربر نفزة (٢٠١) ، والمعروف أن من بطون نفزة تمصيت ومنه مطماطة وصطفورة ومطغرة ومغيلة (٢٠٢) .

هذه الصلات القبلية توحى بوجود ثمة علاقة تربط بين كل من مغيلة ومطغرة ومطماطة من جهة ، وبين عبد الرحمن الداخل الذى كان ينتمى من جهة الأم الى قبيلة نفزة ، ولما كان أبو قرة من زعماء ثوار الخوارج الصفرية ، وكذلك الشأن بالنسبة لميسرة المطغرى ، ولما كان كلاهما يرتفع فى نسبه إلى نفزة التى ينتمى إليها عبد الرحمن الداخل من جهة الأم ، فقد كان من الطبيعى ، والحال كذلك ، أن تتوطد الصلة بين بنى طريف حلفاء مطغرة ومطماطة ، وبين بنى أمية فى الأندلس .

وقد استمرت العلاقات الودية بين الأمويين فى الأندلس ، والبرغواطيين فى عصر الإمارة وفترة عهد الخليفتين الناصر والمستنصر ، ولكنها لم تلبث أن توترت بعد وفاة الحكم المستنصر فى سنة ٣٦٦ هـ ، وانتقال السلطة الفعلية إلى يد المنصور محمد بن أبى عامر ، عندما صرف جعفر بن على ، الذى كان المنصور بن أبى عامر قد أجازه الى المغرب وولاه على البصرة سنة ٣٦٦ هـ ، جهوده فى محاربة برغواطة (٢٠٣) . ولكن أبا منصور عيسى بن أبى الأنصار ملك برغواطة ، تمكن من إيقاع الهزيمة بجعفر بن على ، ولحق بأخيه يحيى بالبصرة ، ثم أمر المنصور باستدعائه تاركاً أخيه يحيى على عمله بالمغرب .

وفى بنفس الوقت الذى كانت قوات المنصور محمد بن أبى عامر تهاجم برغواطة ، كانت برغواطة تتعرض لهجوم ، شنته عليها جيوش بلكين بن زيرى الصنهاجى والى أفريقية من قبل الفاطميين سنة ٣٦٨ هـ . وفى إحدى الإشتباكات بين قوات برغواطة والجيوش الزيرية ، لقى أبو منصور البرغواطى مصرعه ، وانهزمت قواته ، وأثخن فيهم بلكين قتلاً ، ومع ذلك فلم تستطع

قوات بلكين القضاء على دولة برغواطة ، وواصل بلكين إرسال بعوثه العسكرية وحملاته على بلادهم ، فكان يغزوها عاماً بعد عام حتى سنة ٣٧٢ هـ عندما قتل أثناء عودته من المغرب الأقصى إلى القيروان (٢٠٤) .

ورغم هزيمة جيوش المنصور بن أبي عامر أمام برغواطة ، فقد عاود مهاجمتهم مرة ثانية عندما بعث ابنه المظفر عبد الملك ، مولاه واضحاً إلى المغرب فى سنة ٣٨٩ هـ ، فهاجم أراضى برغواطة ، وأثخن فيها وقتل وسبى أعداداً كبيرة منهم (٢٠٥) .

كذلك قام بنو يفرن الزناتيون بمحاربة برغواطة ، وذلك عندما استقل بنو يعلى بن محمد اليفرنى بناحية سلا (٢٠٦) . وقد بلغت الحملات اليفرنية على برغواطة أشدها فى عهد الأمير أبى الكامل تميم بن زمور الزناتى اليفرنى ، فقد كان يغزوهم فى كل سنة مرتين ، واستمر على هذه الحال حتى وفاته عام ٤٤٨ هـ . ويبدو أن الأمير تميم اليفرنى استولى على شالة فى إحدى هجماته بدليل أنه فر إليها سنة ٤٣١ هـ عندما استولى حمامة بن المعز مع مغراوة على فاس (٢٠٧) .

وتسجل السنوات الأخيرة من عهد أبى حفص عمر بن عبد الله بن محمد بن مقلد بن اليسع البرغواطى آخر ملوك برغواطة على حد قول ابن أبى زرع ، وابن الخطيب (٢٠٨) ، بداية حركة الجهاد التى حمل المرابطون لواءها ضد المارقين على الإسلام برئاسة عبد الله بن ياسين ، وانضم إلى ابن ياسين العديد من المؤمنين بمبادئه الإسلامية الخالصة وقوامها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعرف أتباعه بالمرابطين نسبة الى رباط ابن ياسين الذى تلقوا فيه تكوينهم الروحى والحربى ، ولشدة جدهم وحسن بلائهم ، كما عرفوا بالملثمين لاتخاذهم لثاماً يغطى الجزء الأدنى من الوجه ، وكذلك باللمتونيين نسبة الى قبيلة لمتونة التى ينتمون إليها وتولت الرئاسة على سائر قبائل صنهاجة الضاربة فى الصحراء الواقعة جنوبى جبال درن (٢٠٩) .

وعندما انطلق المرابطون للجهاد سنة ٤٤٥ هـ اتجهوا إلى درعة ، واصطدموا بقوات مغراوة وسجلماسة ، وتغلبوا عليها واستولوا على سجلماسة ، وأصلحوا

من أحوالها ، ثم اندفع المرابطون بعد ذلك فى موجات كاسحة لقتال زناتة ، كما قاتلوا الشيعة الرافضة فى تارودانت وافتتحوها ، واستولوا على ماسة ، وتم لهم الإستيلاء على السوس بأسره سنة ٤٤٨ هـ ، وبعث القائد أبو بكر بن عمر الذى كان يقاتل مع عبد الله بن ياسين ، ابن عمه يوسف بن تاشفين لفتح واحات درعة فيما بين عامى ٤٤٨ هـ ، ٤٤٩ هـ فنجح ابن تاشفين فى فتحها ، وامتدت فتوح المرابطين حتى وادى تنسيفت من بلاد رجراجة ، واستولوا عام ٤٤٩ هـ على أغمات ، ثم اتجهوا إلى المصامدة بجبال درن (٢١٠) .

وفى أواخر عام ٤٥٠ هـ ، دعا المرابطون الى جهاد برغواطة بتامسنا وأنفا والريف الغربى ، ودارت بين المرابطين وبين برغواطة معارك ضارية أسفرت عن إصابة عبد الله بن ياسين شيخ المرابطين إصابة خطيرة انتهت بوفاته (٢١١) .

وأوصى ابن ياسين قبل وفاته المرابطين بمواصلة الجهاد ضد هراطقة برغواطة فقال لهم «يا معشر المرابطين ، انكم فى بلاد أعدائكم ، وإنى ميت فى يومى هذا لا محالة ، فإياكم أن تجبنوا فتفشلوا ، فتذهب ريحكم ، وكونوا ألفة وأعواناً على الحق وإخواناً فى ذات الله تعالى ، وإياكم والمخالفة والتحاسد على طلب الرياسة ، فإن الله يؤتى ملكه من يشاء ويستخلف فى أرضه من أحب من عباده ، وإنى قد ذهبت عنكم ، فانظروا من تقدموه منكم يقوم بأمركم ويقود جيوشكم... » (٢١٢) . ثم توفى عبد الله بن ياسين يوم الأحد ٢٤ جمادى الأولى سنة ٤٥١ هـ ، ودفن فى كريفلة بتامسنا ، وبنى على قبره مسجد .

واتفق المرابطون بعد وفاة ابن ياسين على تقديم الأمير أبى بكر بن عمر اللمتونى عليهم ، وما كاد أبو بكر ينتهى من دفن عبد الله بن ياسين حتى انطلق لقتال برغواطة ، ويذكر ابن أبى زرع أنهم «فروا بين يديه وهو فى أثرهم يقتل ويسبى حتى أثخن فيهم ، وتفرقت برغواطة فى الشعارى ، وأذعنوا له بالطاعة ، وأسلموا إسلاماً جديداً ... » (٢١٣) .

وتجمع المصادر العربية على أن المرابطين قضوا على برغواطة قضاء تاماً واستأصلوا شأفتها ، ومع ذلك فإننا نلاحظ من خلال الحوادث والوقائع التى سجلها عصر دولة الموحدين ، أن المرابطين لم يقضوا تماماً على برغواطة بدليل

أنها ستظهر فى تلك الأحداث وتشارك فى الثورات ضد الدولة الموحدية كما سنوضح فى ختام البحث .

ولهذا فإننا نعتقد أن المرابطين ، وإن كانوا قد نجحوا فى القضاء على الكيان السياسى لبرغواطة كدولة لها مقومات الدول ، فإنهم لم يقضوا عليها كعصبية اجتماعية بدليل أن برغواطة عادت الى الظهور فى عهد الموحدين ، ونجح البرغواطيون فى مواجهة الموحدين ، وشاركوا فى ثورة الماسى والصحراوى مشاركة غير ذات خطر ، أما من حيث الفكر العقائدى لبرغواطة فقد تطهر على أيدى المرابطين الذين ردوها الى الإسلام الصحيح ، فلم نعد نسمع بعد أن قضى المرابطون على دولتهم شيئاً عن ديانتهم الغريبة المتطرفة . ومادمنا نتحدث عن برغواطة وأشهر ملوكها فيجدر بنا التعرض لاسرتين برغواطيتين كان لهما دور سياسى بارز فى حوادث المغرب الإسلامى ، خارج نطاق تامسنا حاضرتهم .

(١) اسرة منصور البرغواطى فى صفاقس بافريقية

ظهرت من برغواطة أسرة تولت الحكم فى صفاقس بافريقية فى عهد بنى باديس الصنهاجيين ، وكان من أبرز شيوخها منصور البرغواطى ، الذى ولاه المعز بن باديس على صفاقس ، ويصفه ابن خلدون بأنه كان فارساً مقداماً ولكنه جنح الى الثورة على المعز بن باديس أيام تغلب العرب الهلالية على إفريقية وخروج المعز الى المهدية ، ولم يتح لمنصور أن يكلل ثورته بالنجاح ، إذ انقلب عليه ابن عمه حمو بن مليل البرغواطى ، وقتله فى الحمام غدراً (٢١٤) .

وانضمت الى حمو طائفة كبيرة من عرب زغبة ورياح وعدى والأثبج ، واستبد حمو بصفاقس ، ولما توفى المعز ، طمع حمو فى التغلب على المهدية ، فزحف إليها فى حشود ضخمة من أتباعه العرب ، فتصدى له تميم بن المعز وأوقع به الهزيمة ، وكان ذلك فى عام ٤٥٥ هـ على حد قول ابن خلدون ، و٤٥٦ هـ فى رأى ابن عذارى . فتراجع حمو الى صفاقس ، وعندئذ أرسل تميم ولده يحيى لحصارها ، بيد أن تميم لم يصبر طويلاً على هذا الحصار فرفعه بعد فترة . وفى سنة ٤٩٣ هـ زحف تميم بن المعز إلى صفاقس وتمكن من استردادها من يد حمو البرغواطى الذى فر إلى بمكن بن كامل أمير قابس ، فأجاره ، أما

صفاقس فقد استرجعها تميم بن المعز وأسند ولايتها إلى ابنه (٢١٦) .

(٢) أسرة سكوت البرغواطي مولى الحموديين في سبتة وطنجة

ترك يحيي بن علي الحمودي كلاً من «رزق الله» وصديقه «سكوت (أو سقوت) بن محمد البرغواطي» على حكم سبتة ، بينما تفرغ هو لمعركة الخلافة في الأندلس ، ويغلب على الظن أن سكوت هذا كان أحد الأسرى البرغواطيين الذين وقعوا في أسر المنصور بن أبي عامر أو ولده سنة ٣٨٩ هـ وقت مهاجمة قوات الأندلس لدولة برغواطة . وكان سكوت آنذاك طفلاً حدثاً اشتراه أحد الحدادين ، ثم اشتراه علي بن حمود (٢١٧) ، عندما كان حاكماً لسبتة بإسم سليمان المستعين . وفي سنة ٤٥٣ هـ أمر سكوت البرغواطي بقتل رزق الله حليفه ، كما قطع كل صلاته بجميع الحموديين ، ونادى بنفسه ملكاً (*) ، واتخذ لنفسه لقباً خلافياً مزدوجاً وهو «المنصور» و «المعان» كما نقش على العملة اسم أمير المؤمنين يقصد الخليفة العباسي القائم بالله لإسباغ الشرعية على حكمه ، وعهد لولده بحكم طنجة . ثم تطلعت أنظار سكوت الى الجزيرة الخضراء التابعة لبني عباد،واضطر الى خوض بعض وقائع مع المعتضد بن عباد ، صاحب مملكة اشبيلية ، وتمكن بعد صولات وجولات من احكام السيطرة على المجاز ، والتحكم في معابر الأندلس . وبدأ يغير بسفنه على السفن القادمة والصادرة ، ويقطع الطريق عليها على نحو ما يفعل القراصنة (٢١٨) ، في الوقت الذي كانت قوات المرابطين تعمل فيه على توحيد الجبهة الاسلامية في المغرب ، والقضاء على اتباع برغواطة في الريف المغربي ، وفي هذه الفترة ازداد عيث القشتاليين في الأندلس وانتزاع قواعدها الواحدة اثر الأخرى ، وتمكن الفونسو السادس ملك قشتالة وليون من بسط سيادته على كل دويلات الطوائف ، وفرض على ملوكها الضعاف الإتاوات ، فوادعوه بقلاعهم وحصونهم بهدف شراء سلمه والإبقاء على عروشهم . وكان استيلاء ألفونسو السادس على طليطلة تذيراً لملوك الطوائف بقرب نهايتهم ، واتخذ هذا الملك لنفسه لقب الإمبراطور صاحب الملتين سنة ٤٧٨ هـ ، وعندئذ فقط تحرك ملوك الطوائف ومدوا أيديهم يلتمسون الغوث والنصرة من يوسف بن تاشفين. ولم يتردد ابن تاشفين في تلبية صرختهم بعد أن يفرغ من مهمته الرئيسية وهي

الإستيلاء على سبتة وطنجة . وأثلج ذلك نفوس أهل الأندلس ورفع من معنوياتهم وبادر المعتمد بن عباد كبير ملوك الطوائف بإرسال سفنه الى ساحل سبتة إسهاماً منه في الحصار المرابطي لسكوت البرغواطي . ودارت بين المرابطين وقوات سكوت معارك ضارية في نواحي سبتة أسفرت عن هزيمة سكوت ومصرعه ، وتمكن المرابطون من دخول سبتة ، أما ابنه ضياء الدولة فقد انهزم في طنجة وفر منها عقب استيلاء المرابطين عليها [٢١٩] .

جـ- تطور الفكر العقائدي لبرغواطة

إذا كانت المصادر العربية تجمع على أن طريف بن شمعون ، المؤسس الأول لدولة برغواطة في تامسنا كان مسلماً وأنه تقبل فكر الخوارج الصفرية ، بحكم صلته بميسرة المطغري وإن كان ابن خلدون ينفرد من بين المؤرخين في أنه ادعى النبوة وخرج عن الإسلام ، فإن هذه المصادر تجمع على أن ولده صالح هو الذي قفز بتعاليم هذه الدولة الناشئة الى بحور من التطرف والالحاد ، فقد انسلخ من آيات الله سبحانه وتعالى على حد وصف ابن خلدون [٢٢٠] ، وادعى النبوة ، وشرع لأتباعه ديانة جديدة . ولم يكتف بذلك بل ادعى أن قرآناً جديداً غير قرآن محمد (ص) أنزل عليه ، وكان يتلو عليهم سوراً عديدة [٢٢١] ، ويزعم ان ما يتلوه عليهم موحى إليه من الله سبحانه وتعالى ، وأنه هو صالح المؤمنين الذي ورد ذكره في سورة التحريم «وإن تظاهروا عليه فإن الله هو مولاه ، وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ....»[٢٢٢] . وادعى أيضاً أنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان لقتال الدجال ، وان عيسى بن مريم عليه السلام من أصحابه ، يصلي خلفه ، وأنه سيملأ الدنيا عدلاً مثلما ملئت جوراً ، كما نسب إلى موسى عليه السلام كلاماً كثيراً ، وزعم أن اسمه في اللغة العربية صالح وفي السريانية مالك ، وفي الأعجمية عالم ، وفي العبرانية روبيا ، وفي البربرية وريا ـ وري أي الذي ليس بعده شئ [٢٢٣] .

أما هذا القرآن الذي وضعه صالح بن طريف لقومه ، فكان يتكون وفقاً لما أورده البكري على لسان زمور البرغواطي من ثمانين سورة ، وأكثر هذه السور منسوبة إلى أسماء الأنبياء ، أولها سورة أيوب ، وآخرها سورة يونس ، ومن

سوره : سورة فرعون ، وسورة قارون ، وسورة هامان ، وسورة ياجوج وماجوج ، وسورة الدجال ، وسورة العجل ، وسورة هاروت وماروت ، وسورة طالوت ، وسورة نمرود ، وسورة الديك ، وسورة الحجل ، وسورة الجراد ، وسورة الجمل ، وسورة الحنش ، وسورة غرايب الدنيا ، وسورة الفيل ، وسورة ابليس (٢٢٤) .

ومن الجدير بالملاحظة أن الشرائع التى أحدثها صالح البرغواطي تخرج تماماً عن تعاليم الدين الاسلامى ، فقد حلل صالح لأتباعه وحرم كيفما شاء ، من ذلك على سبيل المثال :

(١) فيما يتعلق بالصلاة ، شرع لهم خمس صلوات فى النهار ، وخمس صلوات فى الليل ، ويتم الوضوء على النحو التالى : غسل السرة والخاصرتين ، ثم الاستفجاء ، والمضمضة ، وغسل الوجه ، ومسح العنق ، والقفاء ، وغسل الذراعين من المنكبين ومسح الرأس ثلاث مرات ، ومسح الأذنين ، ثم غسل الرجلين من الركبتين ، وبعض صلواتهم إيماء بلا سجود ، وبعضها الآخر على طريقة صلاة المسلمين ، وكانوا يسجدون ثلاث سجدات متصلة ، ويرفعون جباههم وأيديهم عن الأرض مقدار نصف شبر . وكان الواحد منهم عند إحرامه يضع إحدى يديه على الأخرى ويقول «أبسمن ياكُش» وتفسير ذلك بسم الله ، «مقر ياكرش» وتفسيره الله أكبر ، ويضعون أيديهم مبسوطة فى الأرض ، عندما يتشهدون ، ويقرأون نصف قرآنهم فى وقوفهم ، ونصفه فى ركوعهم ، ويقولون فى تسليمهم بالبربرية «الله فوقنا لم يغب عنه شئ فى الأرض ولا فى السماء» ، ثم يرددون كلمة «مقر ياكوش» خمساً وعشرين مرة ، ثم كلمة «ردام ياكش» بمعنى «لا أحد مثل الله» خمس وعشرين مرة (٢٢٥) .

(٢) أما بالنسبة للصوم فقد حرم صالح على قومه صيام شهر رمضان وأباح لهم الإفطار فيه وخصص لصيامهم شهر رجب (٢٢٦) ، بالإضافة الى صيام يوم من كل جمعة كفرض من فروضهم ، ويصومون الجمعة الأخرى التى تليه .

(٣) وأما الزكاة فقد أعفاهم صالح منها واكتفى بجمع العشر من جميع الحبوب ، وفى ذلك يقول البكرى على لسان زمور «ويأخذون العشر فى الزكاة

من جميع الحيوب ولا يأخذن من المسلمين شيئاً» .

(٤) أباح صالح لأتباعه أن يتزو ،ا من النساء كيفما شاءوا ويقدر ما استطاعوا ، دون أن يحدد عدداً للزوجات ، وحرم على أتباعه الزواج من بنات العم ، كما حرم عليهم الزواج من مسلمات ، وحرم على سيدات قومه الزواج من رجال المسلمين ، كما أحل لأتباعه أن يطلقوا نساءهم ويرجعوهن ما أحبوا دون قيد أو شرط .

(٥) وفيما يتعلق بالحدود والعقوبات شرع صالح قتل السارق بالإقرار أو بالبينة ، كما شرع رجم الزاني ونفي الكاذب ، والدية عندهم مائة من البقر . (٢٢٧)

(٦) أما بالنسبة للطعام فقد حرم صالح على أتباعه رأس كل حيوان ، وحرم أكل الأسماك إلا إذا ذبحت ، وحرم عليهم أكل البيض ، وذبح الديكة وأكل لحومها لقداستها في العقيدة البرغواطية ، وقد أغناهم بذلك عن الآذان ، فلم يكن لهم مؤذنون للصلاة ، واعتمدوا في معرفة الوقت على صياح الديكة ، أما أكل الدجاج فمكروه (٢٢٨) .

(٧) وكان صالح يبصق على أيدي أتباعه ، فيلعقون هذا البصاق تبركاً ، ويحملونه إلى مرضاهم ليشفيهم ، وادعى صالح وقت رحيله إلى المشرق أنه سيظهر من جديد في دولة السابع من ملوك بني طريف ليملأ الدنيا عدلاً ورحمة (٢٢٩) .

وهكذا اعتنق البرغواطيون هذه الديانة التي شرعها صالح ، وعملوا بتعاليمه وآمنوا به نبياً وقرأوا قرآنه ، ويبدو أن هذه الديانة الخارجة عن الإسلام مرت بمرحلتين متتابعتين : مرحلة المحلية ، ثم مرحلة الإنطلاق والإنتشار . أما المرحلة الأولى وهي التي انتشرت فيها تعاليم هذه الديانة داخل نطاق دولة برغواطة وفي تامسنا نفسها فأعتقد أنها واكبت فترة حكم صالح والشطر الأول من عهد الياس . وتستند في ذلك على نصيحة صالح لولده الياس عند رحيله الى المشرق ، بألا يظهر دينه إلا إذا قوى أمره ، ويبدو أن الياس أخذ بهذه النصيحة وعمل بها ، فقد ظل «مظهراً للإسلام مسراً لما أوصاه به أبوه من كلمة

كفرهم» «خوفاً وتقية» ، ومع ذلك فان الياس بادر فيما يظهر بشرح عقائد ديانة والده لأهل الثقة من أتباعه ولمن توفر لديه الإستعداد النفسى والعقلى لتقبل تعاليمه ، ونستند فى ذلك إلى رواية لابن الخطيب ، ذكر فيها أن خلقاً كثيراً من زناتة دخل فى طاعته [٢٣٠]. وبذلك بدأت دعوة صالح وولده الياس تنتشر فى داخل دولة برغواطة فى أضيق الحدود . ونخرج من ذلك بأن الشطر الثانى من حكم الياس يشكل مرحلة انتقالية بين المرحلة السرية المحلية لدعوة صالح وبين مرحلة الإنتشار الذى سيتحقق لهذه الدعوة فى عهد يونس الذى تنبأ مثل جده صالح ، واصطنع القهر والسيف لنشر الدعوة البرغواطية ، فكان يكره الناس على تقبل دعوته ولا يتردد فى استباحة دم من يرفض اعتناق ديانته . وقد أوضحنا فيما سبق أنه أحرق ٣٨٠ مدينة لمخالفة أهلها له ، كما سفك دماء ٧٧٧٠ شخصاً فى تاملوكاف رفضوا الدخول فى دينه . وكان طبيعياً أن سياسة يونس فى نشر هرطقته بقوة السيف تستثير استياء جيرانه أمراء الدويلات الإسلامية المجاورة ، وتحول هذا الإستياء عند بعض رؤساء المسلمين إلى غيرة على الإسلام . وأبرز القوى الإسلامية التى تصدت لبرغواطة دولة الأدارسة الحسنيين بفاس ، وهى دولة وإن كانت شيعية المذهب إلا أنها كانت أقرب الى السنة فى اعتدالها الى حد أن بعض المؤرخين اعتبروها دولة سنية [٢٣١] . لذلك تقدمت جيوش الأدارسة كما سبق أن أوضحنا لتحتل تامسنا وتضع بذلك حداً لهذه الهرطقة التى عمل بنو طريف على نشرها فى المغرب الأقصى بالقوة . ولكن لم يقدر للأدارسة تطهير تامسنا من هرطقة برغواطة ، بعد ظهور أبى غفير محمد البرغواطى ونجاحه فى تحرير بلاده من السيطرة الادريسية ، ثم انطلاقه لنشر الهرطقة البرغواطية من جديد ، ونجح أبو غفير فى تحقيق هدفه ، فعظمت شوكته واشتد أمره ، واعتمد بدوره على القوة العسكرية فى بسط سيادته على المناطق المجاورة لدولته ونشر فكر برغواطة الدينى بين بربر تلك النواحى ، وواصل كل من أبى الأنصار عبد الله وأبى منصور عيسى تطبيق هذه السياسة التوسعية ، خاصة وأن هذا الأخير قد تنبأ بدوره [٢٣٢] ، كما سبق أن أوضحنا فى سياق حديثنا عن الأحداث السياسية فى عهد ملوك برغواطة ، ومن العوامل التى ساعدت ملوك برغواطة على نشر ديانتهم ، كفايتهم

العسكرية العالية ، فقد ذكر البكرى أن قوة برغواطة العسكرية كانت تتألف من ثلاثة آلاف ومائتى فارس بخلاف القبائل البربرية التى تحالفت معها ، والتى سبق أن ذكرناها . ويؤكد ابن عذارى ذلك بقوله أن عسكر برغواطة يتجاوز ١٢٠ ألف مقاتل بعد احتساب العساكر المجندة من القبائل المختلفة (٢٣٣) التابعة لها .

وظلت برغواطة على هرطقتها حتى ظهور المرابطين الذين تصدوا تحت قيادة عبد الله بن ياسين ، للقضاء على هذه الهرطقة ، واستشهد ابن ياسين أثناء محاولته إرجاع برغواطة الى الاسلام الصحيح . ونجح المرابطون فى تحقيق هدفهم ، فلم نعد نسمع بعد قضاء المرابطين على دولتهم عن ديانة برغواطة وهرطقتها . وإذا كانت لبرغواطة ذيول بعد سقوط دولتها تتمثل فى سكوت البرغواطى القائم بسبتة وطنجة ، فإننا لا نعرف على وجه اليقين ما اذا كانت دولته انتهجت نفس سياسة دولة برغواطة فى السوس الأدنى من الهرطقة والكفر أم أنها عادت إلى الإسلام . ويرى بعض الباحثين أن نشأة سكوت فى كنف بنى حمود الأدارسة ، غيرت من مبادئه البرغواطية الإلحادية ، فنشأ نشأة إسلامية (٢٣٤) . ونستنتج من رواية أوردها ابن عذارى أن سكوت كان مسلماً وتقول الرواية أن سكوت أرسل الى أبى الوليد بن جهور صاحب قرطبة فى طلب قارئ للقرآن ، فوجه إليه ابن جهور فقيهاً قارئاً يعرف بعون الله بن نوح (٢٣٥) وفى اعتقادى أن سكوت البرغواطى لم يكن صادقاً فى إسلامه أو أنه كان باطنياً يتظاهر بالإسلام تقية ، وأعتقد أنه كانت له نفس ميول حكام دولة برغواطة فى تامسنا من الهرطقة والإلحاد ، رغم رواية ابن عذارى سالفة الذكر ، ورغم ما قيل عن نشأته فى كنف بنى حمود الأدارسة ، وأيضاً رغم اهتمامه باستقدام كبار فقهاء عصره إلى سبتة أمثال أبى الأصباغ بن سهل الجيانى الذى درس بقرطبة وغرناطة وطليطلة ثم انتقل إلى سبته حيث قام بالتدريس فى مسجدها ، وأبى محمد بن منصور قاضى الجماعة ، وأبى اسحق اللراتى .(٢٣٦) ومن الجدير بالذكر أن الادريسى الجغرافى المشهور نشأ فى سبتة زمن سكوت ، والواقع أن عقائد برغواطة تبيح لملوكهم مبدأ التقية وإخفاء معتقداتهم الحقيقية وراء قناع زائف من التظاهرات الإسلامية ، فهم أهل باطن شأن كثير من

أصحاب النحل والهرطقات التى ظهرت فى الشرق الإسلامى فى العصر العباسى الأول ، فسكوت فيما أعتقد كان يظهر الإسلام باستجلاب الفقهاء والمشايخ الى سبته ولكنه كان يخفى ما بداخله من أفكار دينية خارجة عن الإسلام . فطالما هاجم الأساطيل الإسلامية الإسلامية وخاصة الأندلسية عند مجاز جبل طارق ، ويصفه صاحب مفاخر البربر بأنه رجل استعان بالشر وتهاون بالأمر ، أضرم البحر بلججه ناراً ، وأخذ كل سفنه غصباً (٢٣٧) . كذلك أستند فيما ذهبت إليه الى خبر أورده كل من ابن خلدون فى العبر والقلقشندى فى صبح الأعشى تستنتج منه أن سكوت ، وان كان قد أظهر الاسلام فى دولته ، فإنه أبقى على عقيدة برغواطة .

فقد ذكر أنه ظهر فى غمارة فى أواخر عهد الموحدين رجل لشامى عرف بأبى الطواجن ، ادعى النبوة (٢٣٨) ، ورحل الى سبتة وأخذ ينشر مبادئه فيها . يقول القلقشندى «ثار فى غمارة محمد بن محمد اللشامى المعروف بأبى الطواجن ، وكان له يد فى السيمياء ، وارتحل الى سبتة فنزل عليها ، وادعى النبوة ، وأظهر انواعاً من السيمياء ، فاتبعه جماعة ، ثم ظهر لهم حقيقة امره ، فرجعوا عنه ، وقتله بعض البربر ...» (٢٣٩) .

ونتساءل عن السبب الذى دفع أبا الطواجن إلى اختيار سبتة بالذات لبث أفكاره المسمومة ، وادعائه النبوة ، فلو لم يكن واثقاً تماماً من وجود عناصر ملحدة بسبتة ، لما فكر فى اتخاذها مقراً لثورته ، فالخبر الذى أورده كل من القلقشندى وابن خلدون يوحى بأن سبتة رغم خضوعها لكل من دولتى المرابطين والموحدين ، ورغم أن أهلها نبذوا الفكر البرغواطى بفضل جهود المرابطين ، إلا أنه ربما كان بعض أفراد من أهلها ، مازالوا يحتفظون بأفكار الحادية منذ أيام سكوت ، وهذا يفسر السر فى انتقال هذا الثائر إليها لنشر مبادئه التى ظن أنها ستجد تربة خصبة لها هناك .

أما فيما يتعلق بدولة منصور البرغواطى فى صفاقس ، فليس لدينا من النصوص ما يشير الى عقائده وإن كنا نميل الى الاعتقاد بأن حركة منصور البرغواطى فى إفريقية كانت سياسية بحتة ، فقد ظهروا هناك فى نفس الوقت

الذى ظهر فيه المرابطون في المغرب الاقصى ، وحاولوا إعادة إنشاء كيان سياسى لبرغواطة فى بقعة أخرى بعيدة عن تامسنا والسوس الادنى ، بعد أن كان المرابطون قد قضوا على دولة برغواطة فى تامسنا .

المؤثرات المختلفة على العقيدة البرغواطية :

أن الدارس لما زودتنا به المصادر العربية من نصوص عن العقيدة البرغواطية ، وإن كانت شحيحة للغاية إلا أنها تكفى للقول بأنها فيما أرى لا تعدو مجموعة من الافكار الدينية ، اقتبست من أديان مختلفة . ونستطيع أن نقسم هذه الافكار المكونة للعقيدة البرغواطية أو التى تأثرت بها هذه العقيدة الى نوعين إسلامية ، وغير إسلامية .

أ - التاثيرات الاسلامية :

كان طبيعياً أن تتأثر الديانة البرغواطية بالاسلام بحكم أن مؤسسها كان مسلماً . وإن كان هذا التأثر جاء باهتاً يبعد صلة هذه الديانة عن الاسلام ، فقد حرف البرغواطيون وشوهوا من قواعده وأسسه ، ويتمثل ذلك فى تبديل شهر الصيام من رمضان الى رجب ، وفى تحريم بعض الاطعمة التى أحلها اللـه تعالى ، وفى السماح بتعدد الزوجات بدون حدود ، وإباحة الطلاق أيضاً دون قيود أو شروط ، وفى تسمية كتابهم المقدس بالقرآن رغم تغييرهم لاسماء سوره ، فسموا بعضها بأسماء الانبياء والبعض الاخر بأسماء الحيوانات . كما يتمثل الاثر الإسلامى فى اعتراف البرغواطية بمن سبق من الانبياء مثل عيسى عليه السلام الذى اعتبره صالح بن طريف من أصحابه ، وموسى الكليم الذى ادعى صالح أنه كلمه ونسب إليه كلاماً كثيراً .

كذلك تأثرت البرغواطية بالتشيع ربما لاحتكاكهم بالشيعة البجلية الذين كثر عددهم فى مدينة تارودانت ونواحيها من المغرب الاقصى . وقد اختلفت المصادر فى أصل هؤلاء الشيعة البجلية الذين كانوا يعيشون بالقرب من تامسنا ، وفيما إذا كانوا على المذهب الاثنى عشرى (الموسوى) أم على المذهب الاسماعيلى [٢٤٠] ، (السبعى) أم أن مذهبهم كان قريباً من مذهب القرامطة ،

ثم ربط بين المعتزلة والشيعة . كما يعزى تأثرهم بالتشيع الى مجاورتهم للأدارسة الحسنيين الشيعة فى فاس فى النصف الاخير من القرن الثانى للهجرة .

ويظهر أثر الفكر الشيعى (٢٤١) واضحاً فى وصية صالح بن طريف الى ولده الياس عند رحيله الى المشرق ، فقد أوصاه بعدم إظهار ديانته إلا إذا أحس بقوته ، وتذكرنا هذه الوصية بمبدأ "التقية" الذى آمن به الأئمة الاسماعيلية ، الذين عرفوا "بالأئمة المستورين" .

ويذكرنا وعده لابنه إلياس بأنه سيعود الى الظهور ، فى دولة السابع من ملوكهم ، وبأنه المهدى المنتظر ، بالتشيع عند الاسماعيلية ، فاختياره رقم "سبعة" على وجه الخصوص يوضح تأثره بالمذهب الاسماعيلى الذى أطلق عليه أيضاً اسم السبعية .

وربما كان المذهب الخارجى أكثر المذاهب الإسلامية (٢٤٢) تأثيراً فى عقيدة برغواطة وهذا أمر طبيعىٌ ، إذ أن مؤسسها طريف ، كان أصلاً من الخوارج الصفرية . ويتمثل التأثير الخارجى فى مبالغة البرغواطيين فى التمسك بعقيدتهم ، بحيث أقدموا على محاربة كل الدويلات الاسلامية التى كانت قائمة فى المغرب الإسلامى دون هوادة ، وإسرافهم فى توقيع العقوبات والحدود كنفى الكاذب ، وقتل السارق ، مما يتفق مع مبادئ الصفرية المفرطة فى التطرف ، كذلك يتمثل فى قسوتهم فى معاملة من يرفض ديانتهم ، وهو أمر يتفق أيضاً مع طبيعة الخوارج الصفرية ، وكذلك فى اعتبارهم المسلمين كفرة لا يجوز الزواج منهم .

ب - التأثيرات غير الاسلامية:

وأول هذه التأثيرات ما اقتبسوه فى عقيدتهم من الفكر اليهودى خاصة وأن هذه المنطقة من المغرب الاقصى كانت معقلاً لليهود كما سبق أن ذكرنا ، وأن طريف بن شمعون مؤسس هذه الدولة وواضع شرائعها يرجع إلىَ أصول يهودية . وقد حرص طريف على إبراز هذا الاصل اليهودى فى استخدامه اسم شمعون بدلاً من الإسم العربى سمعان .

ويتضح الأثر اليهودى فى تحريم برغواطة أكل البيض ، والإعتقاد فى تأثير اللعاب وهى عادة شائعة عند يهود طنجة ، وتربية الشعور على شكل ضفائر ، وهى من العادات المتبعة عند يهود بولونيا واليمن ، وتقديس الديك وهى عادة لاتزال رواسبها باقية فى منطقة الشاوية ودكالة (٢٤٣) ، التى كانت تدخل فى نطاق دولة برغواطة حيث يحتفل أهل البادية فى بعض مواسمهم بدفن عظام الديك ، كما يتضح الاثر اليهودى فى اهتمامهم ، بما يتعلق بموسى عليه السلام ، ونسبة بعض تعاليمهم اليه . لقد ظهر الفكر اليهودى فى عقيدة برغواطة بصورة واضحة الى حد أن بعض المؤرخين أمثال نحوم سلوتش اليهودى ، ودفردان (٢٤٤) يؤكدون أن دولة برغواطة هى دولة يهودية فى أساسها واتجاهها ، وأن كلمة "ياكش" البربرية التى نادى بها صالح إنما هى تحريف من اسم النبى اليهودى "يوشع" (٢٤٥) .

وأعتقد أنه لا ينبغى أن نستهين بالتأثير اليهودى فى العقيدة البرغواطية استناداً الى الاصل اليهودى لحكامها ، وقيامها فى وسط مجتمعات يهودية كانت قائمة فى المغرب الاقصى ، ويلى التأثير اليهودى تأثير مسيحى واضح المعالم ، وإن كان أقل بكثير من تأثير اليهودية .

فقد سبق أن أوردنا على الصفحات السابقة نصوصاً أوردها ابن أبى زرع وابن خلدون تشير الى وجود بعض المسيحيين فى إقليم فاس فى الوقت الذى نزل فيه إدريس بن عبد الله بن الحسن بوليلى . ويؤكد مارسيه أنه عثر على وثيقتين بمدينة وليلى تتضمنان مايشير الى وجود مواطنين من الروم فى هذا الاقليم كانوا على الديانة المسيحية عند الفتح الاسلامى (٢٤٦) . لذلك لا نستبعد الاثر المسيحى فى الفكر البرغواطى ، خاصة وأن صالح أخبر ولده إلياس ، طبقاً لما أوردته المصادر ، أن عيسى عليه السلام صاحبه وأنه يصلى خلفه . وقد سبق أن أوضحنا آراء بعض المستشرقين أمثال جوتييه من الربط بين الدوناتية المسيحية واستبسال أبنائها فى الدفاع عن مبادئهم ، وبين الخارجية فى المغرب الاقصى وتمسك أبنائها بها ، ربما يذكرنا هذا التفانى الدوناتى فى الدفاع عن عقيدتهم ، باستماتة البرغواطيين فى الدفاع عن عقيدتهم . ولقد بالغ بعض المؤرخين فى هذا الرأى الى حد أنهم فسروا كلمة ياكش الذى جاء بها

صالح على أنها تحريف من اسم السيد المسيح Jésus [٢٤٧] . والى جانب هذه التأثيرات السابقة لا يمكن أن نغفل أثر الافكار المحلية البربرية والتى ربما يرجع بعضها الى الوثنية ، فقرآن صالح الجديد كان باللغة البربرية ، وصلاتهم كانت بالبربرية . وقد دفع ذلك البعض الى الربط بين عقيدة برغواطة وبين الديانات الوثنية القديمة ، وقد فسروا كلمة "ياكش" على أنها باخوس إله اليونان [٢٤٨] .

ويرى بعض الباحثين أن الكتابات الواردة فى المصادر العربية عن برغواطة وعقيدتها تتسم بالمبالغة ، رويت لخدمة أغراض مذهبية وسياسية معادية لبنى طريف [٢٤٩] ، وأن دولة برغواطة دولة إسلامية لم تخرج عن شعائر الاسلام ولا عن تعاليمه ، وإنها كانت دولة خارجية صفرية [٢٥٠] ، كما أن قرآن برغواطة لم يكن سوى ترجمة بربرية للقرآن العربى . ونعتقد من جانبنا أن هذا الدفاع عن هراطقة برغواطة باطل ، وأن هذه الدولة لم تكتف بالخروج عن تعاليم الاسلام ، بل عملت على نشر هرطقتها خارج نطاق حدودها مما زاد من خطورتها على الاسلام فى المغرب . ونستدل على هذا الرأى بما يأتى :

١ - أن التعاليم التى جاء بها صالح بن طريف وتنبئه هو ومن جاء بعده من ملوك برغواطة مثل يرنس ، وابى منصور عيسى ، وإقدامهم على تحريف الكثير من التشريعات الاسلامية يكفى فى حد ذاته لاثبات ان برغواطة دولة خارجة عن الإسلام . أما قول بعضهم أن قرآن صالح بن طريف لا يعدو ترجمة بربرية للقرآن الكريم فمرفوض ولا يمكن الأخذ به ، استناداً الى أن مازودنا به البكرى عن الآيات الواردة فيه رغم قلته يكفى للتأكيد بأنهم مسخوا القرآن الكريم ، وتصرفوا فى أسماء الآيات والسور على هواهم . أما الزعم بأن المصادر العربية بالغت فى وصف عقيدة برغواطة لمصالح خاصة فقول مرفوض ، إذ أن الاخذ بهذا القول يعنى به الطعن فى صحة الروايات التى ساقها كتاب المسلمين الثقة ، أمثال البكرى وابن عذارى وابن خلدون وابن ابى زرع ، واتهامها بالتحيز والخروج عن الموضوعية . وإذا افترضنا جدلاً عدم موضوعية هؤلاء فيما يتعلق بنصوصهم عن برغواطة ، ألا يقتضى المنهج التاريخى والعلمي منا أن نتشكك أيضاً فى صحة بقية النصوص التى أوردوها من أخبار ووقائع تاريخية أخرى ؟ فكيف يجوز الاخذ ببعض هذه النصوص ورفض بعضها الآخر ؟

٢ - إن النصوص التاريخية التي أوردتها المصادر وخاصة البكرى ، وابن خلدون وابن عذارى عن عقيدة برغواطة ، إنما جاءت على لسان أحد البرغواطيين وهو زمور الذى أرسله ابو منصور عيسى سفيراً الى الحكم المستنصر سنة ٣٥٢ هـ . ولو أن هذه الاخبار المتعلقة بعقيدة برغواطة وتنبؤ ملوكها باطلة أو منحولة عليهم لكان زمور تصدى لإنكارها وتكذيبها فى حضرة الخليفة الأموى العالم الحكم المستنصر ، ذلك أن حقيقة أمر برغواطة ومواطن عقيدتها كانت معروفة فى كل من المغرب والاندلس يعرفها الخاص والعام ، ولهذا لم يعمد زمور فيما يظهر الى إخفائها ، واضطر الى توضيح ما غمض فيها أمام الحكم المستنصر ، واكتفى بإحاطة طريف رأس ملوكهم بهالة أسطورية ، وحرص على أن يسبغ عليه أمجاداً وبطولات ، وزعم أنه هو نفس طريف ابن مالك المعافرى صاحب أول سرية الى الاندلس .

٣ - لو أن برغواطة دولة إسلامية على المذهب الخارجى الصفرى كما يذكر المدافعون عنها فكيف نفسر محاربة كل الدول الاسلامية فى المغرب الاقصى على اختلاف مذاهبها لها ، وحرصها على مجاهدتها . فكما سبق أن أوضحنا لم تسلم برغواطة من الأدارسة ولا من الفاطميين وأتباعهم ، ولا من جيوش المنصور بن أبى عامر ، ولا من بنى [٢٥٠] يفرن الزناتيين ، بل أن بنى يفرن أصحاب سلا كانوا أشد وطأة على برغواطة من أى قوى أخرى مناوئة لهم . ويسوق كل من ابن ابى زرع ، والسلاوى الناصرى رواية نستنتج منها كيف كان الامير أبى الكمال تميم اليفرنى الذى اشتهر بصحة إسلامه وتدينه واستقامته مولعاً بجهاد برغواطة ، فكان يغزوهم فى السنة مرتين الى أن توفى سنة ٤٤٨ هـ ، فلما قتل ولده سنة ٤٦٢ هـ فى حرب لمتونة ، وحملت جثته لتدفن الى جوار قبر والده تميم ، سمعوا من داخل قبر أبيه تكبيراً ، فنبشوا قبره فألفوا جسده كما هو لم يتغير منه شيء ، وتذكر تلك المصادر أن الملائكة كانت تحف بقبره وتهلل وتسبح ثواباً لتميم على جهاده ضد برغواطة [٢٥٢] . ومن الواضح أن تصدى مسلمى المغرب لمحاربة برغواطة كان يعتبر جهاداً فى سبيل الله فى نظرهم ، وكان الجهاد من اهم الدعائم التى قامت عليها دولة المرابطين ، وكان جهاد المجوس البرغواطيين على حد قول ابن ابى زرع أهم أهداف المرابطين .

ويؤكد هذه النزعة الجهادية كثرة عدد الاربطة التى أنشأت على سواحل المغرب الأقصى خصيصاً لقتال برغواطة وجهادها ، ومن ذلك رباط سلا ، الذى أورد ابن حوقل ذكره فى القرن الرابع الهجرى ، وقد وصفه بقوله «وبسله رباط يرابط فيه المسلمون . وعليه المدينة الازلية المعروفة بسلة القديمة . وقد خربت والناس يسكنون ويرابطون برباطات تحف بها ، وربما اجتمع فى هذا المكان من المرابطين مائة ألف إنسان يزيدون فى وقت وينقصون لوقت ، ورباطهم على برغواطة من قبائل البربر على البحر المحيط متصلين بهذه الجهة التى سمت عمارة الاسلام اليها يغزون ويسبون ...» [٢٥٣] .

ويذكر المؤرخ المغربى المعاصر عبد العزيز بن عبد الله أن هذا الرباط الذى تحدث عنه ابن حوقل كان يقع على الجانب الشمالى لوادى مدينة سلا عاصمة بنى يفرن ، ويرجح هذا المؤرخ وجود رباطين متميزين فى سلا أحدهما أقيم على الوادى على مقربة من البحر ، والآخر بجانب أنقاض سلا القديمة ، وقد يكون أحدهما رباط عبادة ، والاخر رباط جهاد [٢٥٤] . ويرى د . أحمد مختار العبادى أن هذا الرباط الذى ذكره ابن حوقل فى سلا ، يبين أن الحدود الشمالية لدولة برغواطة ، وصلت قريباً من موضع الرباط الحالية ، ويؤكد د . العبادى أن اسم الرباط وتاريخها يوحى بأنها كانت رباطاً لجهاد برغواطة ، ويرى أن مدينة الرباط الحالية ، ربما كانت رباط سلا الذى ذكره ابن حوقل [٢٥٥] .

ومن الاربطة التى نشأت لجهاد برغواطة رباط شاكر القائم حتى الآن بالقرب من مدينة مراكش ويسميه الاهالى فى يومنا هذا سيدى شيكر .

ويذكر ابن الزيات التادلى أن مؤسس رباط شاكر هو يعلى بن مصلين الرجراجى وأنه كان من بين المجاهدين الذى قاتلوا كفار برغواطة ، وقد أسس هذا الرباط عند قبر شاكر أحد أصحاب عقبة بن نافع [٢٥٦] هذا بخلاف أربطة ماسة وفوز ونفيس التى انتشرت على سواحل المغرب الجنوبية [٢٥٧] . وكان أمير سجلماسة محمد بن الفتح ابن مدرار الملقب بالشاكر بالله ، والذى نبذ مذهب الخوارج ، وكان شديد التدين ، دعا قومه الى جهاد برغواطة سنة ٣٤٠ هـ ، ولكنه لم يحقق مأربه «لقلة من كان يدعو الى غزوهم من البربر» ولمهاجمة

الفاطميين لبلاده بقيادة جوهر الصقلى سنة ٣٥٤ هـ [٢٥٨] .

٤ – وفى اعتقادى أن دولة برغواطة أثرت بعقائدها الخارجة على الاسلام ، على المناطق المحيطة بها ، فانتشرت الآراء الهرطقية فى كافة أنحاء المغرب العربى الإسلامى بتأثير منها ، من ذلك ما أورده كل من البكرى ، وابن خلدون فى سياق حديثهما عن بنى صالح بن منصور الحميرى أصحاب نكور ، فهما يذكران أن صالح بن منصور استخلص نكور لنفسه بعد أن أقطعه إياها الوليد ابن عبد الملك سنة ٩١ هـ ، وكانت تجاوره قبائل مطماطة وزواغة وجراوة وغساسة وبنى مروان من غمارة وبنى يرتبان وبنى واسن . وقد اجتمعت على صالح قبائل غمارة وصنهاجة ، وأسلموا على يديه ، وانتشر الإسلام فيهم . وبعد مضى فترة من الزمن ثقلت عليهم الشرائع والنفقات فارتدوا عن الاسلام ، وأخرجوا صالح بن منصور ، وولوا على أنفسهم رجلاً من نفزة يعرف بالرندى . ثم عادوا الى الإسلام وتابوا وأرجعوا صالح بن منصور [٢٥٩] .

وأعتقد أن حركة نكور كانت معاصرة لخروج طريف بن شمعون فى تامسنا وظهور ولده صالح الذى أثر على بربر هذه المنطقة بسحره وعلومه التى تعلمها فى المشرق ، فكل من الحركتين ظهرت فى أوائل المائة الثانية من الهجرة ، ثم أن انتماء "الرندى" الى قبيلة نفزة التى من بطونها مغيلة ومطغرة حلفاء طريف يوحى بوجود نوع من الصلة بين الحركتين . يضاف الى ذلك احتمال نسبة الرندى الى مدينة رندة الواقعة جنوب الاندلس وهو موقع لا يبعد كثيراً عن برباط الموطن الاول لطريف ، كل هذا يربط بين الرندى فى نكور وطريف وولده صالح فى تامسنا ، ويؤكد تأثر كل حركة منهما بالاخرى .

ومن مظاهر تأثير برغواطة على المناطق المجاورة لها ، ظهور عاصم بن جميل أمير ورفجومة من بطون نفزة سنة ١٣٨ هـ ، وكان من غلاة الصفرية ، بعقائد تشبه الى حد كبير عقائد صالح بن طريف . وقد ادعى عاصم النبوة والكهانة وأسقط ذكر النبى (ص) من الآذان ، وزاد فى الصلاة ، ثم زحف وأتباعه الى القيروان ، واستحلوا المحارم ، وارتكبوا الكبائر ، وهو بذلك يعد مقلداً لصالح الذى تنبأ قبله فى عام ١٢٥هـ أو عام ١٢٧ هـ ، متشبهاً بسلوك ملوك برغواطة.

المرابطين والموحدين ، حركة دينية صوفية ، قد تكون رد فعل للحركات الالحادية والهرطقات التى شملت هذه البلاد فى القرون الثلاثة الثانى والثالث والرابع للهجرة . وظهر من برغواطة نفسها وتامسنا عدد من الفقهاء وعلماء الدين المشهورين من أهمهم الفقيه الصالح الزاهد أبو العباس أحمد بن عبد الله بن عبد العزيز البرغواطى [٢٦٤] (ت . سنة ٦٨٨ هـ) نزيل آزمور ، والشيخ الفقيه الاديب أبو اسحاق ابراهيم بن مناد البرغواطى نزيل أنفا (ت بين ٦٧٠ ـ ٦٨٠ هـ) [٢٦٥] . ومن بين العلماء الذين رحلوا من تامسنا قاصدين آزمور للتحصيل والدراسة ـ وهو أمر يؤكد ما ذهبت إليه من حدوث حركة دينية مضادة لهرطقة برغواطة فى هذا الاقليم ـ الشيخ الفقيه أبو ابراهيم عبد الواسع بن عبد السلام الصنهاجى نزيل آزمور (ت ٦٦٧هـ) ، والشيخ ابو على عمر بن موسى الهوارى نزيل آزمور ، والشيخ ابو مروان عبد الملك بن محمد الكتامى الذى درس بسبتة وتوفى بآزمور سنة ٦٩٣ هـ ، والشيخ ابو على المنصور المسطاسى الزمورى الذى قرأ بقرطبة على علمائها وتوفى بازمور سنة ٥٤٠ هـ وقبره مشهور بها ، والشيخ الفقيه القاضى ابو الحسن بن حمادوه الصنهاجى الذى ولى قضاء آزمور فى خلافة المستنصر الموحدى وذلك فى سنة ٦١٦ هـ ، والشيخ ابو موسى عيسى بن تلالين الجزولى الذى رحل الى المشرق ، ثم عاد ودخل الاندلس ، وقدم إلى آزمور فى عهد الناصر الموحدى [٢٦٦] .

ومن نزلاء أنفا الشيخ الفقيه القاضى ابو عبد الله محمد بن اسحق الفزارى الذى ولى القضاء بها فى دولة المرتضى ، وله قبر مشهور بها عند الباب القبلى من الجامع الكبير . ومن نزلاء آسفى الشيخ الفقيه الانفى ابو على الحسن بن حسون الكفيف الذى توفى بها وله مؤلف سماه «الترجيح والتنقيح فى الناسخ والمنسوخ» .

المصادر والحواشي

١ - عن برغواطة وقيامها فى إقليم تامسنا ارجع الى ابن ابى زرع "ابو الحسن على بن عبد الله الفاسي" كتاب الانيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس" ، تحقيق تورنبرج ، أو بسالة ، ١٨٤٣ ، ص ٨٢ ، ٨٣ ـ عبد الرحمن بن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، القسم الاول ، المجلد الاول ، دار الكتاب اللبنانى ، ١٩٦٨ ، ص ٤٢٨ ـ السلاوى "ابو العباس احمد بن خالد الناصرى" الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدولتان المرابطية والموحدية ، تحقيق وتعليق ولدى المؤلف الاستاذ جعفر الناصرى والأستاذ محمد الناصرى ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ ، ص ١٤ ـ مجهول ، نبذ تاريخية منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر ، نشر وتصحيح ليفى بروفنسال ، الرباط ، ١٩٣٤ ، ص ٤٧ ـ محمد ولد داداه ، مفهوم الملك فى المغرب من انتصاف القرن الأول الى انتصاف القرن السابع ، دراسة فى التاريخ السياسى ، دار الكتاب اللبنانى ، ١٩٧٧ ، ص ٧٣ ـ أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والاندلس ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٤٨٨ ـ محمود إسماعيل ، حقيقة المسألة البرغواطية ، مغربيات ـ دراسات جديدة ، المغرب ، ١٩٧٧ ، ص ٢٠ ـ محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص٢٩٥ *M. Talbi, The independence of the Maghrib, General history of Africa, Vol III, Unesco, 1988, p.250 - M. El Fasi and I.Herbec, Stages in the development of Islam and its dissemination in Africa, General history of Africa, vol III, Unesco, 1988, p.65* . سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربى حتى قيام دولة الأغالبة والرستميين والأدارسة ، طبعة دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٥ ، ص٤١٦ ـ ٤١٧ ـ محمود إسماعيل ، الخوارج فى بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجرى ، الدار البيضاء ، ١٩٧٦ ، ص ٤٨ حاشية ١٦١ ـ رجب

محمد عبد الحليم ، دولة بنى صالح فى تامسنا بالمغرب الأقصى ، القاهرة ، ١٩٦١ وقد نسب الأستاذ الدكتور رجب محمد عبد الحليم الدولة الى صالح وأولاده رغم أنه أكد فى بحثه أن واضع الاساس لهذه الدولة هو طريف والد صالح (ارجع الى المرجع ص ٢٩) ورغم إشارة أغلب المصادر الى هذه الحقيقة ، وقد برر الدكتور رجب هذه النسبة الى صالح بأن الحكم بقى فى ذريته وحده دون إخوته .

ونحن نميل الى تسمية هذه الدولة إما بدولة برغواطة أو بدولة بنى طريف الجد الاول لملوك هذه الاسرة الحاكمة ، وذلك تمييزاً لهذه الدولة التى قامت فى تامسنا عن دولة بنى صالح التى قامت فى نكور .

أما إقليم تامسنا *Tamasna* ، فقد كان طبقاً لما ذكره الحسن بن محمد الوزان (ليون الافريقى) أحد أقاليم مملكة فاس ، فقد قسم الحسن الوزان بلاد البربر الى أربعة ممالك : الاولى مملكة مراكش التى تنقسم الى سبعة أقاليم هى حاحا وسوس ومراكش وجزولة ودكالة وهسكورة وتادلا . والثانية مملكة فاس التى تضم بدورها سبعة أقاليم هى تامسنا وفاس وأزغار والهبط والريف وكرط والحوز . والثالثة مملكة تلمسان وفيها ثلاثة أقاليم ، الجبال وتنس والجزائر ، والرابعة مملكة تونس وتخضع لها أربعة أقاليم : بجاية وقسنطينة وطرابلس الغرب والزاب (الحسن بن محمد الوزان الفاسى ، وصف أفريقيا ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣ ، ترجمة محمد حجى ومحمد الاخضر ، جـ ١ ، ص ٣٠ ، ٣١)

وتامسنا كلمة بربرية ، بلهجة زناتة ، تعنى البسيط الخالى ، أطلقت على المنطقة السهلية الممتدة على ساحل المحيط الاطلسى من الرباط الى الدار البيضاء ، وعلى وجه التحديد فإن حد تامسنا الشمالى مدينة سلا أى الضفة الشمالية لنهر أبى رقراق ، وحدها الجنوبى آسفى (عبد العزيز بنعبد الله ، سلا أولى حاضرتى أبى رقراق ، سلا ، ١٩٨٩ ، ص ١٠٢) . وقد عرفت هذه المنطقة بالشاوية ، عقب تلاشى برغواطة فى عهد بنى مرين ، اشتقاقاً من كلمة شاه ، حيث كان عرب بنى هلال الذين نزلوا فى هذه

المنطقة واستوطنوا بها ، يقومون برعى الأغنام والماشية فعرفوا لذلك بالشاوية . وقد سمى أحد أبواب مدينة الرباط بإسم "باب تامسنا" ولا تزال لفظة تامسنا تطلق على صحراء غدامس بمعنى الارض القفر الخالية (أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٤٨٨) . وكان لموقع تامسنا بمحاذاة المحيط الاطلسى أكبر الأثر فى اشتغال سكانها البرغواطيين بأعمال القرصنة ، فكانوا يعترضون السفن التجارية المارة فى مضيق جبل طارق ويسطون عليها (أنظر تحقيق د. أحمد مختار العبادى لكتاب لسان الدين بن الخطيب ، أعمال الإعلام ، القسم الثالث ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤ ، ص١٨١ حاشية ٣) . وهناك من الباحثين من يفسر لفظة تامسنا بأنها مشتقة من كلمة تيمزين التى تعنى الشعير ، وكانت زراعته مزدهرة فى هذه المنطقة . كما يرى البعض الاخر أن اللفظة تنعت بها الة طحن الحبوب أو الرحى (ميلود عشاق ، من تاريخ المغرب الوسيط ، ملاحظات حول المسألة البرغواطية ، العلم الثقافى ، العدد ٩٧٢ ، مايو ١٩٩٠ ، الرباط ، ص ٢) .

٢ - من بين المؤرخين القدامى الذين وصموا برغواطة بالهرطقة ابن ابى زرع الذى وصفهم بأنهم "مجوس ، أهل ضلال وكفر" (ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص٨٢ ، ٨٣) والحسن بن الوزان الذى وصفهم بالزندقة .(الحسن بن الوزان ، وصف أفريقيا ، ص ١٩٤) .

٣ - من الباحثين الحديثين الذين تصدوا للدفاع عن عقيدة برغواطة الدكتور محمود إسماعيل فى بحثه حقيقة المسألة البرغواطية ، ص١٣ - ٥٥ . والمؤرخ الجليل د . سعد زغلول عبد الحميد الذى يرى أن المصادر العربية بالغت فى وصفها لعقيدة برغواطة لأن معظم المؤرخين كانوا يخدمون أغراضاً مذهبية وسياسية معادية لبنى طريف (سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربى ، ص ٤١٨) . وكذلك الدكتور رجب محمد عبد الحليم الذى دافع عن طريف مؤسس هذه الدولة واعتبره مسلماً وفياً لمذهبه ولبنى وطنه بينما وصف ولده صالح بأنه كان من أهل العلم والخير (ارجع الى رجب محمد عبد الحليم ، دولة بنى صالح فى تامسنا بالمغرب الاقصى

(١٢٥ ـ ٤٥٥ هـ ـ ٧٤٣ ـ ١٠٦٣م) ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص٤٧ ومايليها)

- محمد ولد داداه ، مفهوم الملك فى المغرب ، ص ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٤ ـ محمود اسماعيل ، حقيقة المسألة البرغواطية ، ص ٢٤ ، ٢٥ ، سعد زغلول ، تاريخ المغرب العربى ، ص ٤١٧ .

٥ - عن تأثر عقائد برغواطة بالمسيحية ارجع الى *Terrasse, Histoire du Maroc, t. I, Casablanca, 1944, p.129, - N.Slouch, L'empire des Berghouata et les origines des Blad-es-Siba, Revue du Monde Musulman, t.II, Paris, 1910, p.398.*

أما الدوناتية فهى نحلة مسيحية نسبة الى دوناتوس *Donatus* ، أسقف نوميديا الذى رفض الاعتراف باختبار بعض قساوسة الغرب لسيسيليان أسقفاً لقرطاجنة سنة ٣١١م لشكه فى ولاء هؤلاء القساوسة للعقيدة المسيحية . وقد آزرت الكنيسة والسلطات الرومانية سيسيليان ، بينما ناصر البربر وخاصة الفقراء منهم دوناتوس ، ثم مالبث الحزب الدوناتى أن انشق على نفسه ، فظل دوناتوس على رأس المعتدلين ، بينما ظهر زعيم جديد هو سيركونسليون ، دفع الدوناتية الى التطرف والعنف ، وانضم اليه الفقراء المطحونين الذين كانوا يتطلعون الى الثراء وينادون بالمساواة ، وتحولت النحلة الدينية بذلك الى حركة اجتماعية بحتة تستهدف تجريد الفقراء لثروات الاغنياء ، وأطلق عليها حركة الدوارين *Circum cellas* ، أى الذين يحرمون حول مستودعات حبوب الاغنياء لسرقتها . (شارل اندرى چوليان ، تاريخ أفريقية الشمالية من الفتح الإسلامى الى سنة ١٨٣٠م ، تونس ١٩٧٨ ، ص٢٩٧ ومايليها ، حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص١٨٨ ، محمود إسماعيل ، الخوارج فى بلاد المغرب ، ص٥٧ حاشية ٢١٧) . ويرى بعض الباحثين (محمود إسماعيل ، الخوارج فى بلاد المغرب ، ص٥٦ ، ٥٧ ، حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، ص١٨٧) أن هناك تشابهاً كبيراً بين الدوناتية المسيحية فى

بلاد المغرب ، وبين الخارجية الاسلامية هناك . ويؤكد جوتييه أن الدوناتيين كانوا يعلقون أمر العقيدة كلها على فرع من فروعها مثلهم فى ذلك مثل خوارج المغرب ، كما أن الدوناتيين كانوا يتعصبون لمبادئهم تعصباً أعمى ، وفى سبيل تلك المبادئ كانوا يضحون بأرواحهم ، وهم فى ذلك يشبهون خوارج المغرب المتطرفين وعلى الأخص الصفرية (حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، ص١٨٩) . ومن المعروف أن طريف بن شمعون مؤسس دولة برغواطة كان خارجياً صفرياً (لمزيد من التفاصيل عن الخوارج فى المغرب وحماسهم فى سبيل عقيدتهم ارجع الى *E. Levi-Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane, Tome Premier, Paris, Leiden,1950, pp. 43, 442.*

٦ - مفاخر البربر ، ص٤٧ .

٧ - ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، جـ ٣ ، ص١٨١ .

٨ - انظر تعليق د. حسين مؤنس على ابن الابار ، الحلة السيراء ، جـ٢ ، ص٥١ ، حاشية رقم ١ ـ حسين مؤنس فجر الاندلس ، ص١٤٦ .

٩ - *M.Talbi, The independence of the Maghrib, p250.*

١٠ - ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٣٤ ، ٤٣٥ .

١١ - المصدر السابق ، ص٤٢٧ .

١٢ - نفس المرجع السابق ، ص٤٣٥ .

١٣ - حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص٣٤ .

١٤ - *M.El Fasi and I.Herbek, Stages in the development of Islam, p.65,228.*

١٥ - محمد ولد داداه ، مفهوم الملك فى المغرب ، ص٧٣ .

١٦ ميلود عشاق ، ملاحظات حول المسألة البرغواطية ، ص٦ .

١٧ *Terrasse, Histoire du Maroc, Casablanca,1944,p22*

الواقعة من عهد عقبة بن نافع وحتى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) حتى أنه يقول «غلب الإسلام عليهم (البربر) وعلى بلادهم وأصبحوا جميعاً مسلمين منذ ولاية إسماعيل بن عبيد الله . ودانت هذه البلاد من برقة إلى السوس للعرب ...» (نفسه . ص ٢٢) . ولكننا نجد الدكتور رجب عبد الحليم يعود ليؤكد ما ذكره من انتشار الإسلام فى تامسنا خلال النصف الثانى للقرن الأول الهجرى . أن بعض أصحاب الديانات السابقة مثل النصرانية واليهودية والمجوسية ظلوا ينتشرون فى المناطق الساحلية والسهلية فى المغرب الأقصى فى حين ظلت داخلية البلاد التى تكثر فى الشعاب الجبلية على الوثنية وهو فى ذلك يقول «رغم انتشار الإسلام على هذا النحو فى بلاد المغرب الأقصى ومنها اقليم تامسنا بطبيعة الحال . إلا أنه فيما يبدو كان للبيئة الطبيعية والجغرافية أثرها فى بقاء بعض الديانات السابقة على الاسلام فى هذه البلاد مثل النصرانية واليهودية والمجوسية ... أما داخلية البلاد التى تكثر فيها الشعاب الجبلية والهضاب العديدة والطبيعة الجغرافية المعقدة . فقد كانت الكثرة فيها من السكان على الوثنية» (ص ٢٣) . ثم يأتى بحقيقة مغايرة لما سبق أن ذكره وهى أن إسلام أهل تامسنا تم فى عهد أول أمراء الأدارسة إدريس بن عبد الله (١٧٢ - ١٧٧ هـ) . وهذا يعنى أن أهالى تامسنا كانوا عند قيام دولة طريف فى برغواطة لا يزالوا إما على ديانات سابقة أو وثنيين . ونحن نرفض ما سبق أن أكد عليه د. رجب عبد الحليم بقوله أن الإسلام قد انتشر هناك فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز . وسوف نوضح على الصفحات التالية أن منطقة تامسنا كانت تكتظ باليهود ، وكانت أعدادهم هناك تقدر بالآلاف وقد أسرف ابن أبى زرع فى وصف جهود الأمير أبى الكامل تميم اليفرنى فى قتاله اليهود والنصارى فى منطقة فاس والسوس الأدنى . ونحن نأخذ بالرأى القائل بأن تحول المغرب كله الى الاسلام لم يتم إلا فى القرن الرابع الهجرى : (Fasi, The Islamisation of North Africa, Unesco, 1988, p 66) وحتى من أسلم من أبناء هذه المناطق النائية مثل تامسنا فقد كان اسلامه سطحياً

سلا عن الرباط ، وقد ذكره ابن الخطيب في كتابه نفاضة الجراب (أحمد مختار العبادى فى تحقيقه لأعمال الاعلام ، ص١٨١)

٢٤ - ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص٤٣٧ ، حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، ص٥٣ .

٢٥ - ابن الأثير (عز الدين ابو الحسن على بن ابى الكرم) الكامل فى التاريخ ، بيروت ، ١٩٦٥ ، المجلد الرابع ، ص ١٠٥ وما يليها ، ابن عذارى (ابو العباس أحمد) البيان المغرب فى أخبار المغرب ، تحقيق ليفى بروفنسال ، وكولان ، ليدن ، ١٩٤٨ ـ ١٩٥١ ، جـ ١ ص ٢٧

٢٦ - الرقيق القيرواني ، تاريخ أفريقيا والمغرب ، بدون تاريخ ، ص ٦٩ ، ابن عذارى ، البيان ، جـ ١ ، ص ٤٢ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٣٧ ولمزيد من التفاصيل ارجع الى حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٤٩ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ، ص ١٧٠ وما يليها ، سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربى ، ص ٢١٢ ، رجب محمد عبد الحليم ، دولة بنى صالح ، ص ١٨ ، ويذكر د. رجب أن الإسلام بدأ ينتشر فى بلاد تامسنا منذ فتوحات عقبة بن نافع الذى اهتم بإنشاء المساجد فى البلاد التى يفتحها وإن كان يؤكد أن إتمام فتح تامسنا وكل بلاد المغرب الأقصى قد تم على يد موسى بن نصير (المرجع السابق ، ص ١٦ ، ١٧) واستطرد د. رجب عبد الحليم فى توضيح أهم المساجد التى ابتناها عقبة بن نافع وموسى بن نصير كما أوضح أن حركة انتشار الإسلام ازدادت عمقاً فى بلاد المغرب فى عهد الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز على وجه الخصوص لأنه اختار ولاته على هذه البلاد من التقاة الصلحاء (نفسه ، ص ٢٠) بحيث أنه لم يبق فى ولاية عامله على هذه البلاد إسماعيل بن عبيد الله ، أحد من البربر إلا أسلم . كذلك عرض لنا د. رجب أسماء أشهر عشرة فقهاء قام الخليفة عمر بن عبد العزيز بإرسالهم الى مختلف نواحى المغرب (نفسه ، ص ٢١) . ونفهم من حديثه هذا أن الإسلام قد تغلغل فى جميع أنحاء بلاد المغرب بما فيها تامسنا فى الفترة

الواقعة من عهد عقبة بن نافع وحتى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) حتى أنه يقول «غلب الإسلام عليهم (البربر) وعلى بلادهم وأصبحوا جميعاً مسلمين منذ ولاية إسماعيل بن عبيد الله ، ودانت هذه البلاد من برقة إلى السوس للعرب ...» (نفسه ، ص ٢٢) ، ولكننا نجد الدكتور رجب عبد الحليم يعود ليؤكد ما ذكره من انتشار الإسلام فى تامسنا خلال النصف الثانى للقرن الأول الهجرى ، أن بعض أصحاب الديانات السابقة مثل النصرانية واليهودية والمجوسية ظلوا ينتشرون فى المناطق الساحلية والسهلية فى المغرب الأقصى فى حين ظلت داخلية البلاد التى تكثر فى الشعاب الجبلية على الوثنية وهو فى ذلك يقول «رغم انتشار الإسلام على هذا النحو فى بلاد المغرب الأقصى ومنها اقليم تامسنا بطبيعة الحال ، إلا أنه فيما يبدو كان للبيئة الطبيعية والجغرافية أثرها فى بقاء بعض الديانات السابقة على الاسلام فى هذه البلاد مثل النصرانية واليهودية والمجوسية ... أما داخلية البلاد التى تكثر فيها الشعاب الجبلية والهضاب العديدة والطبيعة الجغرافية المعقدة ، فقد كانت الكثرة فيها من السكان على الوثنية» (ص ٢٣) . ثم يأتى بحقيقة مغايرة لما سبق أن ذكره وهى أن إسلام أهل تامسنا تم فى عهد أول أمراء الأدارسة إدريس بن عبد الله (١٧٢ - ١٧٧ هـ) . وهذا يعنى أن أهالى تامسنا كانوا عند قيام دولة طريف فى برغواطة لا يزالوا إما على ديانات سابقة أو وثنيين . ونحن نرفض ما سبق أن أكد عليه د. رجب عبد الحليم بقوله أن الإسلام قد انتشر هناك فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وسوف نوضح على الصفحات التالية أن منطقة تامسنا كانت تكتظ باليهود ، وكانت أعدادهم هناك تقدر بالآلاف وقد أسرف ابن أبى زرع فى وصف جهود الأمير أبى الكامل تميم اليفرنى فى قتاله اليهود والنصارى فى منطقة فاس والسوس الأدنى . ونحن نأخذ بالرأى القائل بأن تحول المغرب كله الى الاسلام لم يتم إلا فى القرن الرابع الهجرى : *(Fasi, The Islamisation of North Africa, Unesco, 1988, p 66)* وحتى من أسلم من أبناء هذه المناطق النائية مثل تامسنا فقد كان اسلامه سطحياً

ممتزجاً بتعاليم أديان ومذاهب أخرى كما سيوضح فيما بعد

٢٧ - ميلود عشاق ، من تاريخ المغرب الوسيط ملاحظات حول المسألة البرغواطية ، ص ٢ وهو يرد فى هذا المقال على كثير من الآراء التى أوردها د. محمود إسماعيل فى بحثه «حقيقة المسألة البرغواطية»

٢٨ - الحسن بن الوزان ، وصف أفريقيا ، ص ١٩٤

٢٩ - المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

٣٠ - ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، تحقيق د. أحمد مختار العبادى ، جـ ٣ ص ١٨١ ، حاشية ١ .

٣١ - الحسن بن الوزان ، وصف أفريقيا ، ص ٢٠٣ .

٣٢ - أحمد مختار العبادى ، فى تحقيقه لأعمال الأعلام ، جـ ٣ ، ص ١٨١ حاشية ١ ، وطنجة مدينة أزلية قديمة بالمغرب الأقصى ، تقع عند الطرف الغربى لمضيق جبل طارق بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسى ، ولا يفصلها عن الشاطئ الأسبانى سوى ١٨ ك. م ، وهى تمثل آخر حدود أفريقية من المغرب ، ويفصل بينها وبين القيروان ألفا ميل (ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، بيروت ١٩٥٧ ، جـ ٤ ، ص ٤٣ ، أحمد مختار العبادى ، أعمال الأعلام ، جـ ٣ ، ص ٢٠٣ حاشية ١) وتبعد طنجة عن سبتة بنحو ثلاثين ميلاً فى البر . ويذكر الحميرى أنه كانت تعلوها فى العصور القديمة قنطرة تصل بينها وبين الأندلس «كانت تمر عليها القوافل والعساكر من ساحل طنجة إلى ساحل الأندلس ، فلما كان قبل الفتح الإسلامى ، طغى ماء البحر وزاد وخرج من البحر المحيط الى بحر الزقاق ، وأغرق هذه القنطرة ، وكان طولها اثنى عشر ميلاً ..» (الحميرى ، الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، طبعة لبنان ، ١٩٨٤ ، ص ٣٩٦) . وكانت طنجة تخضع فى العصر السابق للفتح الاسلامى ستغرب لحكم يليان (ابن خلدون ، العبر ، المجلد الرابع ، القسم الأول (٧) ، ص ٣٩٩) فلما افتتحها موسى بن نصير ولى عليها طارق بن زياد أصبحت معبراً مغربياً الى الأندلس فى العصر الإسلامى ، ثم خضعت

للأدارسة العلويين بفاس ، وجعلوا منها ومن سبتة قاعدتين بحريتين لأعمال القرصنة إلى أن تمكن المرابطون من القضاء على أسرة سكوت البرغواطى الحاكمة لهذه المنطقة (خواكين ڤالڤى بيرميخو ، سكوت البرغواطى ملك سبتة ، ترجمة عبد اللطيف الخطيب ، مجلة تطوان ، الرباط ١٩٧١ ، العدد الحادى عشر ، ص ٩٤ وما يليها ، أحمد مختار العبادى ، تحقيق ابن الخطيب لكتاب أعمال الأعلام ص ٢٠٣ ومايليها) .

٣٣ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، جـ ٣ ، ص ١٨٤ ، عبد العزيز بنعبد الله ، سلا أولى حاضرتى أبى رقراق ، ص ٩ .

٣٤ - الحسن بن الوزان ، وصف أفريقيا ، ص ٢٠٣ ، أحمد مختار العبادى فى تحقيقه لأعمال الأعلام ، جـ ٣ ، ص ١٨١ ، حاشية ١ ،ويعتبر القلقشندى مدينة سلا نفس مدينة تامسنا فيقول «ومنها سلا بفتح السين وفى آخرها ألف ، وهى مدينة من الغرب الأقصى فى آخر الإقليم الثالث ... وهى مدينة قديمة فى غربيها البحر المحيط ، وفى جنوبيها نهر يصب فى البحر المحيط ، والبساتين والكروم . وبنى عبد المؤمن أمامها من الشط الجنوبى على النهر والبحر المحيط قصراً عظيماً ، وبنى خاصته حوله المنازل فصارت مدينة عظيمة سماها المهدية ، وسلا متوسطة بين بلاد المغرب الأقصى ، قريبة من الأندلس ، وهى مدينة كثيرة الرخاء ، ولها معاملة كبيرة ، يقال لها تامسنا ، كثيرة الزرع والمرعي» (القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، طبعة تراثنا ، جـ ٥ ، ص ١٦٩) .

٣٥ - الحسن بن الوزان ، وصف أفريقيا ، ص ١٩٩ .

٣٦ - المصدر السابق ، ص ١٩٩ .

٣٧ - الحسن بن الوزان ، ص ٢٠٥ .

٣٨ - نفسه ، ص ١٩٦ .

٣٩ - نفسه ، ص ٢٠٤ .

٤٠ -،ويذكر ابن خلدون ان مواطن برغواطة فى تامسنا من سلا وازمور وآنفى

واسعى (ابن خلدون العبر ، القسم الأول المجلد السادس ، ص ٤٢٨)

٤١ - الحسن بن الوزان ، وصف أفريقيا ص ١٥٧

٤٢ - أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٩٣ ، ويعتبر الحسن بن الوزان دكالة من اقاليم فاس (الحسن بن الوزان ، وصف أفريقيا ص ١٥٧) وبلاد الحوز هى الأراضى الخصبة التى تحدها دكالة وعبدة والأطلس ووادى أم الربيع . ومن أهم أنهارها نهر تانسيفت ، ومن أهم مدنها أغمات ، ونفيس ، وتعتبر أسفى من عمل دكالة وأصبحت بعد إنشاء مراكش فرضة لها ، واشتهرت بوفرة كرومها (القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ١٦٨) .

٤٣ - الحسن بن الوزان ، وصف أفريقيا .

٤٤ - البكرى ، المصدر السابق ، ص ٨٧ .

٤٥ - راجع كلا من البكرى (المغرب فى ذكر أفريقيا والمغرب ، ص ١٣٤ وما يليها) الذى يصف برغواطة بأنها مملكة وممالك ، وكذلك ابن الخطيب (فى أعمال الأعلام ، جـ ٣ ، ص ١٨٠) الذى يصف حكام برغواطة بأنهم ملوك (أنظر أيضاً الناصرى ، الإستقصا ، ص ١٧ - مفاخر البربر ، ص ٤٧ - ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٢٢١) وتجمع معظم المراجع العربية الحديثة على أن دولة برغواطة مملكة ، وأن حكامها ملوك (ارجع الى أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٤٩٦ ، ومحمد ولد داداه ، مفهوم الملك فى المغرب ، ص ٧٣ - ٧٤ *M. Talbi, The independence of Maghrib, p. 250 - Terrasse, Histoire du Maroc, p. 129)*

N slouch, L'Empire des Berghouata et les origines des Blades Siba, Revue du Monde musulman, t. x, no3, 1910

٤٧ - محمود اسماعيل ، حقيقة المسألة البرغواطية ، ص ٢١ ، ٢٢ .

٤٨ - الحسن بن الوزان ، وصف افريقيا ، ص ١٩٩ ، ٣٦٨ . ويصف تيراس الطبيعة الجغرافية لبرغواطة بأنها كانت تجمع بين السهول والهضاب والجبال ، فقلب برغوطة كان يتألف من هضبة داخلية هى الشاوية الحالية ، وتقع ما بين مراكش وبر رشيد وستات وجيسر وواد زم . (Terrasse, Histoire du Marco, p. 129)

٤٩ - البكري ، المغرب ، ص ١٤١ - ميلود عشاق ، ملاحظات ، ص ٢ .

٥٠ - الحسن بن الوزان ، وصف افريقيا ، ص ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٥ ، وارجع كذلك الى القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ ٥ ، ص ١٦٩ ، محمود اسماعيل ، حقيقة المسألة البرغواطية ، ص ٢١ .

٥١ - الحسن بن الوزان ، وصف افريقيا ، ص ١٩٩ .

٥٢ - المصدر السابق ، ص ١٩٨ .

٥٣ - نفسه ، ص ٢٠٥ .

٥٤ - نفسه ، ص ١٩٨ .

٥٥ - نفسه ، ص ١٩٦ .

٥٦ - نفسه ، ص ٧٢ - عبد العزيز بنعبد الله ، سلا أولى حاضرتى أبى رقراق ، ص ٩ ، ٢٥ .

٥٧ - الحسن بن الوزان ، وصف أفريقيا ، ص ١٩٩ ، حيث يذكر أن أدندون اختصت بالعديد من هذه المناجم .

٥٨ - المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .

٥٩ - *J . Devisse, Trade and trade routes in west Africa, General history of africa, III, Unesco, 1988, p. 410* . يرجع د. رجب عبد الحليم سبب رواج تجارة برغواطة مع الأندلس لعاملين : الأول هو قيام علاقات مودة وصداقة ربطت بين حكام الدولتين ، والثانى هو وفرة الموانى الصالحة لرسو السفن والتى كانت تقع على ساحل تامسنا الطويل الذى

يبدأ فى الشمال من سلا وينتهى فى الجنوب الى مدينة آسفى . (د. رجب عبد الحليم ، دولة بنى صالح فى تامسنا ، ص ١٢٠) أما أشهر موانى تامسنا فقد حددها د. رجب عبد الحليم بأنها ميناء سلا الذى كان أهله على ثراء عظيم بسبب اشتغالهم بالتجارة مع أهل الأندلس ، وميناء فضالة الذى يقع إلى الجنوب من ميناء سلا ، وكانت ترد إليه السفن الأندلسية وغيرها من سفن البلاد الأوروبية ، ثم ميناء أنفا وبعده مرسى مازيغن (أمازيغان) الذى يبعد عنه بخمسة وستين ميلا ، ثم مرسى الغيط الذى يبعد عن مازيغن بثمانين ميلاً . أما ميناء آزمور فهو يقع بين كل من مرسى الغيط ومرسى مازيغن (ارجع الى د. رجب محمد عبد الحليم ، المرجع السابق ، ص ١٢٠ - ١٢٢) .

٦٠ - أبو القاسم بن حوقل النصيبى ، صورة الأرض ، طبعة بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ص ٨٣ .

٦١ - المصدر السابق ، ص ٨٣ .

٦٢ - ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، طبعة ١٩٦٨ ، ص ٢١٠ ، ٤٦١ .

٦٣ - البكرى ، المغرب ، ص ١٤١ .

٦٤ - المصدر السابق ، ص ١٤١ ، وارجع كذلك الى ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٣٢ .

٦٥ - ابن خلدون ، المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٤٣٥ .

٦٦ - حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٤ .

٦٧ - *Terrasse, Histoire du Maroc, p. 22*

٦٨ - الرقيق القيروانى ، تاريخ افريقيا والمغرب ، تحقيق وتقديم المنجى الكعبى ، تونس ١٩٦٨ ، ص ١٠٧ وما يليها - ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٥١ - ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٨٥ - ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٣٥ - ابن تغرى بردى «جمال الدين أبو المحاسن يوسف» النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة تراثنا ،

القاهرة ، ١٩٦٣ ، جـ ١ ، ص ٢٧٣ ـ حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ١٦٢ وما يليها ـ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب الاسلامى ، ص ٢١٢ ـ سعد زغلول ، تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٤٨ وما يليها ـ حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٦٦ ، ٧٠ .

Terrasse, Histoire du Moroc, p. 108 - Talbi, The independence p. 249 - 250 .

٦٩ - ابن عذارى ، البيان ، جـ ١ ، ص ٥١ ـ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٨٥ .

٧٠ - صاحب هذا الرأى هو د. حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٦٦ ، ٦٧ .

٧١ - لا نستطيع أن نحدد على وجه الدقة متى بدأت طلائع الخوارج فى التسلل إلى المغرب ونشر الدعوة الخارجية فيه ، بسبب اختلاف النصوص الوازدة فى المصادر العربية ، كما أن فرق الخوارج لم تنتشر كلها فى بلاد المغرب ، وإنما ظهرت منها فرقتان فقط على المسرح السياسى لأحداث المغرب الاسلامى ، هما فرقتا الاباضية والصفرية . (لمزيد من التفاصيل عن انتشار الخارجية فى المغرب ارجع الى محمود اسماعيل ، الخوارج فى بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجرى ، الدار البيضاء ، ١٩٧٦ ص ٤٣ وما يليها ، جودت عبد الكريم يوسف ، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، الجزائر ، ١٩٨٤ ، ص ٢٥ ـ سعد زغلول ، تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٥٣ وما يليها .ولمزيد من التفاصيل عن الحركة الاباضية فى المشرق الاسلامى وأهم أئمتها فى البصرة وعمان أمثال جابر بن زيد ، وأبى عبيدة بن أبى كريمة التميمى البصرى ، والربيع بن حبيب الأزدى العمانى البصرى ، وأبو المنذر بشير بن المنذر النزوانى ، وموسى ابن أبى جابر الأزكوى ، وعبد الله بن اباض ، وصلة هؤلاء بحضرموت واليمن وشمال أفريقيا ، وأهم أتباعهم هناك ، ارجع الى سالم بن حمود بن شامس السمائلى ، ازالة الوعثاء عن اتباع ابى الشعثاء ، تحقيق د. سيدة كاشف .

القاهرة ١٩٧٩ ، سالم بن حمد بن سليمان الحارثي ، العقود الفضية في أصول الأباضية ، عمان ١٩٨٣) .

٧٢ – السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب الاسلامي ، ص ٢١٥ .

٧٣ – حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ١٦٤ ـ محمود اسماعيل ، الخوارج في بلاد المغرب ، ص ٦٢ .

٧٤ – ميسرة : تجمع المصادر على أنه ينتسب إلى قبيلة مطغرة البربرية البترية (ابن القوطية «ابو بكر محمد» ، تاريخ افتتاح الأندلس ، نشره خليان ريبيرا ، مدريد ، ١٩٢٦ ، ص ١٤ ، الرقيق ، تاريخ افريقيا والمغرب ، ص ١٠٩ ، البكري ، ص ١٣٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٩١ – ١٩٣ ، ابن عذاري ، البيان ، جـ ١ ، ص ٥٢ ، ابن خلدون العبر ، القسم الأول ، المجلد السادس ، ص ٤٢٨ ، مفاخر البربر ص ٤٧ ، حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ١٦٤ ، السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الاسلامي ، ص ٢١٨ ، سعد زغلول ، تاريخ المغرب العربي ، ص ٢٥٥ ، ناطق صالح مطلوب ، تاريخ المغرب العربي ، الموصل ، ١٩٨٨ ص ١٥٥ وما يليها) . ويرى د . محمود اسماعيل أن أصل ميسرة يكتنفه الغموض لاختلاف المصادر في ذلك ، ويستند في ذلك الى نص أورده ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ذكر فيه أن ميسرة عربي أزدي (محمود اسماعيل ، الخوارج ، ص ٦٣ ، حاشية ١) الا أنه برجوعنا الى ابن تغري بردي تبيّن لنا أنه لم يشر إلى انتساب ميسرة إلى الأزد ، وكل ما ذكره ابن تغري بردي عنه لا يعدو أنه كان يلقب «بالحقير» (ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ١٩٦٣ ، جـ ١ ص ٢٨٧) ويصفه في موضع آخر بأنه ميسرة الصفري (النجوم الزاهرة ، جـ ١ ، ص ٢٩٤) ويبدو أن د . محمود اسماعيل قد التبس عليه الاسم الذي أورده ابن تغري بردي في النجوم (جـ ١ ، ص ٢٨٩) وهو ابو يوسف الازدي في سياق حديثه عن مواجهة كلثوم بن عياض القشيري لثوار البربر في بقدوره ، وظن أنه لميسرة ربما لأن ابن تغري بردي وصف أبا يوسف هنا بأنه رأس الصفرية . ويتمثل ذلك في قول ابن تغري بردي في أحداث سنة ١٢٣ هـ

(وفيها كانت وقعة عظيمة بين البربر وبين كلثوم بن عياض ، فقتل كلثوم في المصاف واستبيح عسكره ، كسرهم ابو يوسف الأزدى رأس الصفرية) .
ومن الثابت تاريخياً أن ميسرة لم يقاتل كلثوم بن عياض إذ كان قومه قد قتلوه عندما أعرض عن مجاربة العرب فى موقعة الأشراف وولوا على أنفسهم قائداً مقداماً هو خالد بن حميد الزناتى الذى التقى بخالد بن حبيب الفهرى في موقعة الأشراف ، سنة ١٢٢ هـ ، فانهزم العرب وقتل خالد بن حبيب . أما كلثوم بن عياض فقد سيره هشام بن الملك من دمشق ليواجه البربر ويثأر لشهداء وقعة الأشراف . وكان خالد بن حميد الزناتى على رأس هؤلاء الثوار بعد مقتل ميسرة . وفى ذلك يقول ابن عذارى صراحة «ولما قدم كلثوم على وادى سبو وهو فى ثلاثين ألفاً قال ابن القطان : فيهم عشرة آلاف من صلب بنى أمية ، وعشرون ألفاً من سائر العرب . فتوجه إليهم خالد بن حميد الزناتى الذى تولى الأمر بعد ميسرة ...» (ابن عذارى ، البيان ، جـ ١ ، ص ٥٥ وانظر أيضاً ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٩٢) . ويتضح مما سبق ذكره أن معظم المصادر الثقة تؤكد أن وفاة ميسرة حدثت قبل اشتباك العرب والبربر فى موقعة الأشراف وبالتالى قبل موقعة بقدورة ، باستثناء الرواية التى أوردها ابن تغرى بردى الذى يجعل ميسرة بطل موقعة بقدورة التى يؤرخها فى ص ٢٨٩ من كتابه بسنة ١٢٣ هـ ، وفى ص ٢٩٤ بسنة ١٢٤ هـ . ونحن لا نأخذ برأى ابن تغرى بردى لأمرين : الأول لأنه مؤرخ مشرقى لا يعول عليه فى دقة الرواية وصدقها ، والثانى لأنه متأخر زمنياً عن فترة الأحداث .

٧٥ - البكرى ، المغرب ، ص ١٣٥ . ومما يؤكد ذلك بعض أبيات أوردها البكرى ونقلتها عنه العديد من المصادر المتأخرة عنه ، كتبها سعيد بن هشام المصمودى ، فى إحدى مواقع برغواطة ، وهى موقعة بهت ، يذكر فيها ما يؤكد أن طريف كان من أصحاب ميسرة ، ومنها :

سيعلم قوم تامسنى إذا ما ... أتوا يوم النشور مهيمنيناً
هنالك يونس وبنو بنيه ... يقودون البرابر مهطعينا
اذا وريا ورى زمت عليه ... جهنم فايد المستكبرينا
فليس اليوم ردتكم ولكن ... ليالى كنتم متميسرينا

(البكرى ، المغرب ، ص ١٣٨ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٣٠)
ويذكر ابن الخطيب أن ميسرة ولى صالح بن طريف أميراً على المغرب ، ثم عزله وكتب كتاباً إلى أهل تامسنا وقومه من زناتة البربر يوصيهم به ويصف فضله وعلمه (ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، جـ ٣ ، ص ١٨١) .

٧٦ – الرقيق القيروانى ، تاريخ أفريقيا ، ص ١١٠ ، ابن عذارى ، البيان ، جـ ١ ، ص ٥٢ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب الإسلامى ، ص ٢١٩ ، حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ١٦٦ .

٧٧ – الرقيق القيروانى ، تاريخ أفريقيا ، ص ١١٠ ، ابن عذارى ، البيان ، جـ ١ ، ص ٥٣ .

٧٨ – البكرى ، المغرب ، ص ١٣٥ ، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، جـ ٣ ، ص ١٨١ .

٧٩ – حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ١٤٩ ، السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الإسلامى ، ص ٢١٦ .

٨٠ – هذا الرأى المدافع عن عقيدة برغواطة ، هو رأى د. محمود إسماعيل فى بحثه الموسوم بحقيقة المسألة البرغواطية ، ص ٢٧ .

٨١ – محمود إسماعيل ، الخوارج فى بلاد المغرب ، ص ٤٨ حاشية رقم ١٦١ . وفيها يذكر أن طريف بن شمعون كان من قواد ميسرة وأنه اختلف فى نسبه إذا ما كان مصمودياً أو يهودياً أو يمنياً . وفى بحثه ، حقيقة المسألة البرغواطية ، ص ٢٤ ، يذكر أن طريف حليف ميسرة هو نفس طريف صاحب الحملة الإستطلاعية الى الأندلس سنة ٩١ هـ .

٨٢ – سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٥٤ ، ويذكر د. سعد زغلول أن طريف بن ملوك الذى قاد أول سرية إسلامية الى الجزيرة الخضراء سنة ٩١ هـ . والذى سميت جزيرة طريف بإسمه ، كان مع الخوارج فى ثورة ميسرة .

٨٣ – يذكر د. حسين مؤنس فى كتابه فجر الأندلس ، ص ٦٦ أن طريف الذى

عبر بسرية صغيرة الى الأندلس ، هو أبو زرعة طريف بن ملوك ، ويرجح الرأى القائل بأنه عربى ، وأن جزيرة لاس بالوماس ستحمل إسمه . وفى حاشية رقم (٤) من نفس الصفحة يذكر أن طريف هذا سيلعب دوراً هاماً فى الثورة التى قام بها ميسرة . ومن الجدير بالملاحظة أن د. مؤنس ينسب ميسرة إلى برغواطة ، ولكنه فى ص ١٦٥ من نفس الكتاب يذكر أن برغواطة أعلنت الخروج ، وكان يقودها داعية خارجى هو طريف بن شمعون بن يعقوب وولده صالح .

٨٤ - ارجع الى رأى دكتور أحمد مختار العبادى فى تحقيقه لتاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط ، نصان جديدان ، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٨١ ، ص ٤٥ ، حاشية ٣ . وكتابه الموسوم بـ «فى تاريخ المغرب والأندلس» ص ٢٦٥ ، ٤٨٨ . فهو يذكر أن طريف صاحب الحملة الإستطلاعية كان يدعى طريف بن مالك أو ملوك وأنه كان عربياً يمنياً ، وان كان ابن عذارى يجعله بربرياً ، ثم يذكر أن طريف سيظهر اسمه بعد ذلك على مسرح الحوادث المغربية على عهد الخليفة هشام بن عبد الملك بدمشق ، وأن ابنه صالح انضم إلى الثورة الخارجية التى قام بها ميسرة .

٨٥ - السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، الإسكندرية ، ١٩٨٢ ص ٧٠ ، وهو يستند فيما ذكره على نص الرازى والحميرى وابن خلدون الذين ينسبون طريف صاحب الحملة الاستطلاعية إلى الأندلس الى معافر أو النخع اليمنيتين ، وهذا يعنى أنه عربى الأصل . ويستبعد أن يكون موسى بن نصير قد سير الطليعة الكشفية الأولى تحت قيادة رجل غير عربى .

٨٦ - محمد عبد الحميد عيسى ، فتح الأندلس ، رواية متجددة ، مجلة أوراق ١٩٨٢ - ١٩٨٣ ص ٨٠ . ولم يذكر د. محمد عيسى فى هذا الأمر سوى أن طريف كان يكنى بأبى زرعة وكان من موالى موسى بن نصير (وأنظر أيضاً كتابه ، الفتح الإسلامى للأندلس ، ١٩٨٥ ، ص ١٧) أما

د. عبد الرحمن الحجى فيرى أن طريف صاحب السرية كان بربرياً ، ولكنه أورد اسمه على أن طريف بن مالك الملقب بأبى زرعة (عبد الرحمن الحجى ، التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة ، بيروت ، الكويت ، ١٩٧٦ ، ص ٤٥) .

٨٧ - محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٢٩٣ .

٨٨ - حمدى عبد المنعم حسين ، دولة على بن يوسف المرابطى فى المغرب والأندلس ، رسالة ماجستير نوقشت فى كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ص ٧ .

* يرى د. رجب عبد الحليم رأياً مخالفاً لرأيى فقد أفرد صفحات عديدة من بحثه لإثبات أن طريف مؤسس دولة برغواطة هو نفسه صاحب الحملة الإستطلاعية على الأندلس وأنه كان بربرى الأصل واستند فى رأيه على ابن حوقل (انظر المرجع السابق ص ٢٩ - ٣٦) وسنعرض فى الصفحات القادمة من البحث ما يشير الى رأينا ويدعمه من خلال النصوص والأدلة العلمية والمنطقية .

٨٩ - السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ٧٠

٩٠ - المقرى ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، جـ ١ ، ص ٢٣٧ .

٩١ - مجهول ، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها - رحمهم الله - والحروب الواقعة بها بينها ، دار الكتاب اللبنانى ، ١٩٨١ ، ص ١٦ .

٩٢ - ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ، ص ٤٥ .

٩٣ - الحميرى ، الروض المعطار ، ص ٣٥ ، وارجع كذلك ، الى ص ٣٩٢ .

٩٤ - ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، طبعة ١٩٦٨ ، ص ٢٥٤ .

٩٥ - المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٤٢٨ .

٩٦ - السلاوى الناصرى ، الاستقصا ، جـ ٢ ، ص ١٦ .

٩٧ - البكرى ، المغرب ، ص ١٣٥ .

٩٨ - المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

٩٩ - ابن عذارى ، البيان ، جـ ٢ ، ص ٥ .

١٠٠ - المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٥٦ .

١٠١ - نفسه ، جـ ١ ، ص ٢٢٣ .

١٠٢ - محمود اسماعيل ، حقيقة المسألة البرغواطية ، ص ٢٥ .

١٠٣ - ابن خلدون ، العبر ، جـ٦ ، ص٤٢٨ . وعن نسبة طريف صاحب الحملة الإستطلاعية للنخع ، ارجع إلى ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص٢٥٤ .

١٠٤ - المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٤٣٥ .

١٠٥ - البكرى ، المغرب ، ص ١٤١ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٣٢.

١٠٦ - ابن خلدون ، المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٤٣٧ .

١٠٧ - البكرى ، المغرب ، ص ١٣٥ ، ١٣٧ .

* للدكتور رجب عبد الحليم رأى مناقض ، ارجع الى المرجع السابق ص ٣٤ ، من أدلة د. رجب عبد الحليم على أن برغواطة شاركت فى فتح الأندلس ما ذكره البكرى من أن اسم برغواطة هو نسبة الى وادى برباط الذى جرت عنده معركة طارق بن زياد الفاصلة وكذلك قوله بأن يونس بن الياس أصله من شذونة من وادى بربط ثم رحل إلى المشرق إضافة الى ما ذكره ابن خلدون (ارجع الى المرجع السابق ، ص ٣٨ ، ٣٩) ونحن بدورنا نعتقد أن هذا لا ينهض دليلاً على مشاركة برغواطة فى فتح الأندلس ، إذ كيف يتسنى لقوم شاركوا فى فتح الأندلس أن ينسبوا دون غيرهم إلى وادى برباط ؟؟ ولماذا استثنوا هم دون باقى القبائل التى شاركت فى الفتح الإسلامى للأندلس ، فحملوا اسم هذا الوادى «برباط» ثم تحرف بعد ذلك الى برغواطة ؟ وفى تصورى أن الأرجح والأقرب إلى المنطق أن يكون هذا

الإسم «برغواطة» محرفاً من «برباط» نتيجة لانحدار مؤسس هذه الأسرة من منطقة برباط وليس لمشاركة قبائل منطقة تامسنا فى موقعة وادى برباط (ارجع إلى المتن) .

١٠٨ – ابن أبى زرع ، الأنيس المطرب روض القرطاس ، فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، أو بسالة ، ١٨٤٣ ، ص ٨٢ ، ٨٣ .

١٠٩ – نبذ من مفاخر البربر ، ص ٤٧ .

١١٠ – السلاوى الناصرى ، الاستقصا ، ص ١٥ .

١١١ – ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، جـ ٣ ، ص ١٨١ .

١١٢ – ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٨٢ ـ ويستند د. رجب عبد الحليم على رأى كل من ابن حوقل وابن خلدون لإثبات أن طريف بن مالك يرجع إلى الأصل البربرى (المرجع السابق ، ص ٣٢ ، ٣٣) .

١١٣ – ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٣٥ .

١١٤ – ميلود عشاق ، ملاحظات حول المسألة البرغواطية ، ص ٦ .

١١٥ – ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٥ .

١١٦ – المصدر السابق ، ص ٢٤ .

١١٧ – نفسه ، ص ٦٩ .

١١٨ – نفسه ، ص ٧ .

١١٩ – ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ٢٤ ، ٢٥ وارجع كذلك إلى :

N. Slouch, L'Empire des Berghouata, p. 395.

١٢٠ – *Fasi. The islamization of north Afirica, p. 66.*

١٢١ – محمود اسماعيل ، الخوارج فى بلاد المغرب ، ص ٢٨٦ .

١٢٢ – *N. Slouch, op. cit.. p. 395 .*

١٢٣ – ابن الخطيب ، اعمال الأعلام ، جـ ٣ ، ص ١٨١ .

١٢٤ - ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٣٥ ـ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام جـ ٣ ، ص ١٨٢ .

١٢٥ - ويعرض ميلود عشاق بالإضافة الى هذا الرأى مجموعة أخرى من الآراء فيذكر أنه ربما كان إسم برغواطة جمع لإحدى اللفظتين البربريتين *Bourget, Bergouten* وكل منهما يعنى التحريض والتهييج والإستفزاز والتمرد ، وربما يكون أهل تامسنا قد وسموا أنفسهم بهذا الإسم إعتزازاً وافتخاراً ، كما يمكن أن يكون كذلك من وضع الأعداء والخصوم ازدراء وتنقيصاً . كما عرض ميلود عشاق لرأى امبارك رجالة ، الذى قسم الكلمة الى مقطعين *Bar* و *Gwat* وهى تعنى ابن الوادى او ساكن الوادى (ميلود عشاق ، ملاحظات حول المسألة البرغواطية ، ص ٦) .

١٢٦ - أشونة من كور استجة بجنوب الأندلس ، وكان لأشونة حصن كبير ، وكانت عامرة كثيرة المساكن (الحميرى ، الروض المعطار ، ص ٦٠) واستجة تقع بين القبلة والمغرب من قرطبة (الحميرى ، ص ٥٣) .

١٢٧ - ابن حزم الأندلسى «ابو محمد على بن أحمد» جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مصر ، ١٩٧١ ، ص ٥٠١ ، مفاخر البربر ، ص ٨٠ .

١٢٨ - البكرى ، المغرب ، ص ١٣٥ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٣٠ وارجع كذلك إلى ابن عذارى ، البيان ، جـ ١ ، ص ٥٧ .

* يذكر د. رجب محمد عبد الحليم أن طريف استمر فى المشاركة فى الحروب التى خاضها الصفرية عقب مقتل ميسرة المطغرى سنة ١٢٢ هـ ، ويؤكد أنه شارك فى مرقعتى الأشراف وبقدورة حتى هزيمة البربر على أيدى العرب فى موقعة القرن عام ١٢٤ هـ والأصنام سنة ١٢٥ هـ . (ارجع إلى رجب عبد الحليم ، دولة بنى صالح ، ص ٤٤ ، ٤٥) وهو يستند فى رأيه هذا على نص لابن عذارى أورده فى البيان المغرب (ج ١ ، ص ٥٦) يذكر فيه ابن عذارى أن طريفاً كان من جملة قواد العسكر الذين بلغ عددهم ثلاثمائة ألف مقاتل حسب تقديره والذين اتجهوا إلى القيروان

للقضاء على سلطة بنى أمية . ويؤكد د. رجب أن بداية ظهور دولة برغواطة أو دولة «بنى صالح فى تامسنا» على حد تعبيره كان فى عام ١٢٥ هـ مستنداً على اشارة لابن عذارى فى أخبار عام ١٢٤ هـ بابتداء ظهور دولة برغواطة .

ونحن لا نميل إلى الأخذ بهذا الرأى إذ أن نفس ابن عذارى الذى استند عليه د. رجب فى اثبات رأيه يعود ليذكر فى موضع آخر من كتابه البيان جـ ١ ، ص ٢٢٤ أن طريفاً انسحب الى تامسنا عقب مقتل ميسرة الذى حدث عام ١٢٢ هـ قبيل موقعة الأشراف ، وهو فى ذلك يقول «وكان طريف من أصحاب ميسرة ملك المغرب الذى تقدم فى ذكره ، فلما قتل ميسرة وافترق أصحابه ، احتل طريف ببلاد تامسنا فقدمه البربر على أنفسهم ...» . ومن المؤكد أن ابن عذارى قد نقل هذا الخبر الأخير عن البكرى الذى أورده فى كتابه ، ص ١٣٥ . أما الخبر الأول الذى يأخذ به د. رجب عبد الحليم فيبدو مضطرباً ، إذ لم يرد فى أى من المصادر الأخرى ، وقد ناقشنا فى صفحات بحثنا بعض مظاهر الاضطراب والتناقض فى روايات ابن عذارى فيما يتعلق بدولة برغواطة ، أما كون ابن عذارى قد حدد بداية ظهور دولة برغواطة بعام ١٢٤ هـ ، فهذا لا يعنى أبداً أن طريف خرج فى ذلك العام على وجه التحديد عن رفاقه البربر إلى تامسنا ، ولكن ربما يكون المقصود بخبر ابن عذارى هذا ، هو بداية ظهور عقائد هذه الدولة الغريبة فى عام ١٢٤ وسوف نثبت فى البحث أن ديانة هذه الدولة وعقائدها الهرطقية لم تظهر فى سنوات مؤسسها طريف ، وربما ظهرت فى عهد ولده صالح .

١٢٩ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، جـ ٣ ، ص ١٨١ .

١٣٠ - البكرى ، ص ١٣٥ ، ابن عذارى ، البيان ، جـ ١ ، ص ٢٢٤ .

١٣١ - ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٢٨ .

١٣٢ - ابن عذارى ، البيان ، جـ ١ ، ص ٢٢٤ ، مجد د. رجب عبد الحليم ، طريف مؤسس دولة برغواطة ، وعظم من شأنه ووصفه «بأنه لم يأت بما

يعاب عليه وظل وفياً لمذهبه ولبني وطنه ، محافظاً على تاريخه ودوره في فتح الأندلس حتى توفى عام ١٣١ هـ» ، مؤكداً بذلك على أنه هو نفسه طريف بن مالك النخعي ، وهذا ما أثبتنا عدم صحته (ارجع الى المرجع السابق ص ٤٨) ثم يستطرد في تفخيمه وتعظيمه لشخص طريف بأن عقد مقارنة بينه وبين طارق بن زياد منتهياً إلى أن طريف استمرت عظمته عندما أسس دولة استمر وجودها قروناً من الزمان بينما لف النسيان طارقاً وفي اعتقادي أنه لا وجه للمقارنة على الإطلاق بين القائد العظيم الفاتح طارق بن زياد وبين طريف بن شمعون الخارجي ذي الأصول اليهودية الذي أسس دولة خارجة عن تعاليم الإسلام ، عملت على نشر هرطقتها بحد السيف .

١٣٣ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، جـ ٣ ، ص ١٨٣ .

١٣٤ - المصدر السابق ، ص ١٨٢ .

١٣٥ - ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٣ .

١٣٦ - ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٢٩ ، وقد أخطأ ابن خلدون بقوله أن عام ١٢٧ هـ كان يزامن خلافة هشام بن عبد الملك ؛ الذي توفي سنة ١٢٥ هـ .

١٣٧ - نبذ من مفاخر البربر ، ص ٤٧ .

١٣٨ - ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٣٠ .

١٣٩ - البكري ، المغرب ، ص ١٣٥ .

١٤٠ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، جـ ٣ ، ص ١٨١ .

١٤١ - ابن ابي زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٣ .

١٤٢ - نبذ من مفاخر البربر ، ص ٤٧ .

١٤٣ - البكري ، المغرب ، ص ١٣٥ . وفي ذلك يقول البكري «فاخبر زمور أن طريفاً أبا ملوكهم من ولد شمعون بن يعقوب بن اسحق ، وأنه كان من

أصحاب ميسرة المطغري المعروف بالحقير ومغرور بن طالوت ، والى طريف نسبت جزيرة طريف ، فلما قتل ميسرة وافترق أصحابه ، احتل طريف ببلد تامسنى ، وكان إذ ذاك ملكاً لزناته وزواغة ، فقدمه البربر على أنفسهم ، وولى أمرهم ، وكان على ديانة الإسلام .....» .

١٤٤ - ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٣٠ .

١٤٥ - مجهول ، نبذ من مفاخر البربر ، ص ٨٠ .

١٤٦ - البكرى ، المغرب ، ص ١٣٥ .

١٤٧ - ابن عذارى ، البيان ، جـ ١ ، ص ٥٧ ، ٢٢٤ .

١٤٨ - ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٣٠ .

١٤٩ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، جـ ٣ ، ص ١٨٤ .

١٥٠ - ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٨٢ .

١٥١ - البكرى ، المغرب ، ص ١٣٧ .

١٥٢ - محمود اسماعيل ، حقيقة المسألة البرغواطية ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

١٥٣ - ابن عذارى ، البيان ، جـ ١ ، ص ٢٢٥ .

١٥٤ - ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٣٠ .

١٥٥ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، جـ ٣ ، ص ١٨٢ - محمود اسماعيل ، حقيقة المسألة البرغواطية ص ٢٥ .

١٥٦ - البكرى ، المغرب ، ص ١٣٥ - ابن عذارى ، البيان ، جـ ١ ، ص ٥٧ - ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٢٨ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، جـ ٣ ، ص ١٨١ .

١٥٧ - ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٣ .

١٥٨ - ابن الخطيب ، أعمال الأعمال ، ج ٣ ص ١٨٢ .

١٥٩ - المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

١٦٠ - البكري ، المغرب ، ص ١٣٦ ، ابن عذاري ، البيان ، جـ ١ ، ص ٢٢٤ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٣٠ .

١٦١ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، جـ ٣ ، ص ١٨٤ .

١٦٢ - ابن عذاري ، البيان ، جـ ١ ، ص ٥٧ .

١٦٣ - البكري ، المغرب ، ص ١٣٧ ، ابن عذاري ، البيان ، جـ ١ ، ص ٢٢٥ ، ابن خلدون ، عبر ، جـ ٦ ، ص ٤٣٠ .

١٦٤ - البكري ، المغرب ، ص ١٣٧ .

١٦٥ - ابن عذاري ، البيان ، جـ ١ ، ص ٢٢٤ .

١٦٦ - البكري ، المغرب ، ص ١٣٧ ، ابن عذاري ، البيان ، جـ ١ ، ص ٢٢٥

١٦٧ - ويذكر ناحوم سلوتش أن يونس رحل الى الأندلس ولاذ بها فراراً من حالة الفوضى التى ضربت أطنابها فى أنحاء المغرب بعد ظهور الأدارسة (ارجع إلى *Slouch, op. cit., p. 395.*).

١٦٨ - البكري ، المغرب ، ص ١٣٨ .

١٦٩ - المصدر السابق ، ص ١٣٨ .

١٧٠ - نفسه ، ص ١٣٦ ـ ابن عذاري ، البيان ، جـ ١ ، ص ٢٢٤ . وارجع الى ابن خلدون ، العبر جـ ٦ ، ص ٤٣٠ ـ بن الخطيب ، اعمال الأعلام ، جـ ٣ ، ص ١٨٤ .

١٧١ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، جـ ٣ ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

١٧٢ - ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٧ ـ ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ٢٤ ـ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب فى العصر الاسلامى ، ص ٢٨٣ .

١٧٣ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ص ٢٤ .

١٧٤ - ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٧ .

١٧٥ - المصدر السابق ، ص ٩ .

١٧٦ - البكرى ، المغرب ، ص ١٢٢ .

١٧٧ - المصدر السابق ، ص ١٣٦ ـ ابن عذارى ، البيان ، جـ ١ ، ص ٢٢٤ ـ ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٣٠ .

١٧٨ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، جـ ٣ ، ص ١٨٦ .

١٧٩ - المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

١٨٠ - البكرى ، المغرب ، ص ١٣٦ .

١٨١ - ابن عذارى ، البيان ، جـ ١ ، ص ٢٢٦ ـ وراجع أيضاً البكرى ، ص ١٣٨ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٣١ .

١٨٢ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، جـ ٣ ، ص ١٨٦ .

١٨٣ - ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٣١ .

* البكرى ، المغرب ، ص ١٣٧ ـ ابن عذارى ، البيان ، جـ ١ ، ص ٢٢٥ ـ ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٣٢ ، ٤٣٣ .

١٨٤ - ابن عذارى ، البيان ، جـ ١ ، ص ٢٢٥ ـ ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٣٢ .

١٨٥ - البكرى ، المغرب ، ص ١٣٤ ـ ابن عذارى ، البيان ، جـ ١ ، ص ٢٢٣ .

١٨٦ - البكرى ، المغرب ، ص ١٣٧ ، ابن عذارى ، البيان ، جـ ١ ، ص ٢٢٥ ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٣٢ .

١٨٧ - ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٣٣ .

١٨٨ - ابن عذارى ، البيان ، جـ ١ ، ص ٢٢٥ .

١٨٩ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، جـ ٣ ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

١٩٠ - البكرى ، المغرب ، ص ١٢٤ ـ ابن عذارى ، البيان ، جـ ١ ، ص ٢١١

ـ ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٢٨ ـ ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ٢٧ ، ٢٨ ـ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام جـ ٣ ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

١٩١ - لمزيد من التفاصيل انظر : السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب ، ص ٣٩٤ وما يليها . ومن الجدير بالذكر أن عمر بن ادريس هو جد بنى حمود الذين تلقبوا بالخلافة فى الأندلس فى عصر الطوائف .

١٩٢ - ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٥١ .

١٩٣ - البكرى ، المغرب ، ص ١٣٤ ، ابن عذارى ، البيان ، جـ ١ ، ص ٢٢٣ وكان من نتاج هذه الموالاة إقبال سكان ربض قرطبة على سكنى آزمور البرغواطية (البكرى ، المغرب ، ص ١٥٥ ، محمد أحمد عبد المولى ، القوى السنية فى المغرب من قيام الدولة الفاطمية إلى قيام الدولة الزيرية ، الإسكندرية ، ١٩٨٥ ، جـ ٢ ، ص ٦٥٧) .

١٩٤ - المقرى ، نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٣١٣ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٢٥٥ .

١٩٥ - ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ٢٥٤ .

١٩٦ - نفسه ، ص ٢٥٥ .

١٩٧ - نفسه ، ص ٤٣٢ .

١٩٨ - لمزيد من التفاصيل عن أبى قرة المغيلى أو اليفرنى ودوره فى الثورة على العرب سنة ١٤٨ هـ وتعاونه مع عبد الرحمن بن رستم ارجع الى ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

وانظر : رضوان البارودى ، بنو يفرن الزناتيون فى بلاد المغرب والأندلس ، الإسكندرية ، ١٩٩١ ، ص ١٣ وما يليها .

١٩٩ - المصدر السابق ، ص ٢٥٥ .

٢٠٠ - المقرى ، نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٣١٣ .

٢٠١ - مجهول ، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، مدريد ١٨٦٧ ، ص ٥٥

ـ ابن عذارى البيان ، جـ ٢ ، ص ٤٧ ـ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين واثارهم ، ص ١٧٨ ـ البيان ، جـ ٢ ، ص ٤٧ .

٢٠٢ - ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ١٨٠ .

٢٠٣ - لمزيد من التفاصيل ، ارجع الى المصدر السابق ، ص ٤٣٢ ، السلاوى ، الاستقصا جـ ٢ ، ص ١٨ *Terrasse, Histoire du Maroc, pp. 130, 131.*

أما البصرة فهى مدينة بالمغرب عرفت ببصرة الكتان لكثرة زراعتها له ، كما عرفت بالحمراء لاحمرار تربتها ، وكان لها سور مبنى من الحجارة والطوب ينفتح فيه عشرة أبواب ، كما كان لها حمامان ، ومقبرتها الكبرى فى شرقيها فى جبل ، أما الغربية فتعرف بمقبرة قضاعة . واشتهرت بجمال بناتها (البكرى ، المغرب ، ص ١١٠) .

٢٠٤ - ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٣٣ ، السلاوى الناصرى ، الاستقصا ، جـ ٢ ، ص ١٨ . أما بنو زيرى فقد كانوا أوفياء للفاطميين موالين لهم فى بداية الأمر . ولكنهم بدأوا يشقون عصا الطاعة على الفاطميين فى عهد المعز بن باديس ، الأمير الرابع منهم ، ففى سنة ٤٤٠ هـ ثار المعز على الفاطميين ، وأعلن استقلاله عنهم ، وتم انفصال بنى زيرى عن الفاطميين فى مصر فى عهد المعز بن باديس سنة ٤٤٤ هـ ، وفى خلافة المستنصر بالله الفاطمى .

٢٠٥ - ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٣٣ .

٢٠٦ - المصدر السابق ، ص ٤٣٣ .

٢٠٧ - ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٦٩ .

٢٠٨ - المصدر السابق ، ص ٨٤ ـ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، جـ ٣ ، ص ١٨٧ ، ٢٣٠ .

٢٠٩ - السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب الاسلامى ، ص ٦٠٩ .

٢١٠ – لمزيد من التفاصيل ، ارجع الى المرجع السابق ، ص ٦١٠ وما يليها ، حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٤ وما يليها .

٢١١ – ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، جـ ٣ ، ص ٢٣٠ ، نبذ من مفاخر البربر ، ص ٥٢ ، ابن عذاري ، البيان ، جـ ٤ ، ص ١٦ ، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول ، تحقيق د. سهيل زكار وعبد القادر زمامة ، الدار البيضاء ، ١٩٧٩ ، ص ٢٣ ، الناصري السلاوي ، الاستقصا ، جـ ٢ ، ص ١٨ ، شارل اندري چوليان ، تاريخ افريقيا الشمالية ، جـ ٢ ، تعريب محمد مزالي ، البشير سلامة ، تونس ، ١٩٧٨ ص ١٠٧ ؛ *Hrbek and Devisse, The almoravides, General History of Africa, Unesco, 1988, p. 348 - Terrasse, Histoire du Maroc, p. 221*

٢١٢ – ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٤ . وأنظر نص الوصية في ابن الخطيب أعمال الأعلام ، جـ ٣ ، ص ٢٣٠ . وقد اختلف المؤرخون في تحديد سنة وفاة ابن ياسين ، وانقسموا إلى فريقين ، فريق يرى أنه توفي في عام ٤٥١ هـ ومن هؤلاء البكري (ارجع الى المغرب ، ص ١٦٨) وابن عذاري (البيان ، جـ ٤ ، ص ١٦) وابن الخطيب (أعمال الأعلام ، جـ ٣ ، ص ٢٣٠) ، وفريق آخر يرى أنه توفي في سنة ٤٥٠ هـ ، ومن هؤلاء صاحب الحلل الموشية (ص٢٣) وابن خلدون (العبر ، جـ ٦ ، ص ٣٧٦) . ولمزيد من التفاصيل ارجع الى حمدي عبد المنعم حسين ، دولة علي بن يوسف ، ص ٧ .

٢١٣ – ابن ابي زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٤ .

٢١٤ – ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٣٤٤ .

٢١٥ – ابن عذاري ، البيان ، جـ ١ ، ص ٣٤٤ .

٢١٦ – ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٣٤٤ .

٢١٧ – ابن عذاري ، البيان ، جـ ٣ ، ص ٢٥٠ ـ مفاخر البربر ، ص ٥٨

السلاوى الناصرى ، الاستقصا ، جـ ٢ ، ص ٣٠ ، ٣١ ـ ولمزيد من التفاصيل عن سكوت مولى الحموديين ، وعن الأسرة الحمودية التى هى فرع من الأدارسة أنظر خواكين ڤالڤى ، سكوت البرغواطى ملك سبته ، ترجمة عبد اللطيف الخطيب ، بحث بمجلة تطوان ، الرباط ، العدد ١١ ١٩٧١ ، ص ٩٤ - ٩٩ ، وارجع الى محمد بن تاويت ، تاريخ سبتة ، الدار البيضاء ، ١٩٨٢ ، ص ٣٩ وما يليها .

* ابن عذارى ، البيان ، جـ ٣ ، ص ٢٥٠ ، عبد الواحد المراكشى ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ٦٧ ، السلاوى الناصرى ، الاستقصا ، جـ ٢ ، ص ٣٠ ، ٣١ .

٢١٨ - نبذ من كتاب مفاخر البربر ، ص ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٥ ـ خواكين ڤالڤى ، سكوت ، ص ٩٨ .

٢١٩ - مفاخر البربر ، ص ٤٧ ، ٥٣ ، ٥٦ ـ السلاوى الناصرى ، ص ٣١ وارجع كذلك إلى ابن الأبار (أبو عبد الله محمد عبد الله) الحلة السيراء ، تحقيق د. حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ، جـ ٢ ، ص ٥١ حاشية ١ ، ولمزيد من التفاصيل عن سكوت ارجع الى رضوان البارودى ، التاريخ السياسى لمدينة سبتة منذ القرن الرابع الهجرى حتى منتصف القرن السابع الهجرى ، مقال صدر بالمجلة التاريخية المصرية ، المجلد السادس والثلاثون سنة ١٩٨٩ ، ص ٥٧ وما يليها .

٢٢٠ - ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٢٩ .

٢٢١ - البكرى ، المغرب ، ص ١٣٥ ، ابن عذارى ، البيان ، جـ ١ ، ص ٥٧ ، ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٣ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٢٩ . وقد اورد البكرى فى ص ١٤٠ آية من هذا الكتاب الذى وضعه صالح لأتباعه .

٢٢٢ - أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٤٩٠ .

٢٢٣ - البكرى ، المغرب ، ص ١٣٥ .

٢٢٤ - المصدر السابق ، ص ١٤٠ ـ ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٢٩ ـ ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٤ .

٢٢٥ - ارجع الى المصادر السابقة ، ميلود عشاق ، المرجع السابق ، ص ٦ .

٢٢٦ - البكرى ، المغرب ، ص ١٣٨ .

٢٢٧ - المصدر السابق ، ص ١٣٨ وما يليها ، ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٣ ، أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٤٩٠ وما يليها .

٢٢٨ - ميلود عشاق ، ملاحظات حول المسألة البرغواطية ، ص ٦ ، ويذكر الدكتور ابراهيم حركات أن كراهية أكل البيض لا تزال متأصلة فى بعض مناطق المصامدة حتى يومنا هذا (المرجع السابق ، ص ٦) . أما الديك فهو يذهب الذنوب عند يهود المشرق كله . ومازال اليهود يدفنون عظام هذا الحيوان فى المقبرة . *(N. Slouch, op. cit., p. 397)* وقد بقيت من هذا الإعتقاد عند عامة الناس فى مصر أفكار مشابهة فهم يذبحون على أعتاب البيوت نوعاً معيناً من الديكة لإزالة الشر الذى يصيب صاحب البيت .

٢٢٩ - ارجع الى المصادر السابقة .

٢٣٠ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، جـ ٣ ، ص ١٨٤ .

٢٣١ - يميل الدكتور الفاسى الى تشبيه الأدارسة الشيعة بالسنة ، ارجع إلى :

M. EL Fasi and I. Hrbek, The islamization of North Africa, p. 65

٢٣٢ - ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٣٢ .

٢٣٣ - البكرى ، المغرب ، ص ١٤٠ ، ابن عذارى ، البيان ، جـ ٤ ، ص ١٠ .

٢٣٤ - يعد د. أحمد مختار العبادى من أنصار هذا الرأى ، ارجع الى كتابه «فى تاريخ المغرب والأندلس» ، ص ٤٩٧ .

٢٣٥ - ابن عذارى ، البيان ، جـ ٣ ، ص ٢٥٠ .

٢٣٦ - لمزيد من التفاصيل عن الحركة العلمية فى عهد سكوت بسبتة ارجع

إلى خواكين ڤالڤى ، سكوت البرغوطى ، ص ١٠٣ .

٢٣٧ - نبذ من مفاخر البربر ، ص ٥٥ .

٢٣٨ - ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٥٩ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ١٦٠ .

٢٣٩ - القلقشندى ، المصدر السابق ، ص ١٦٠ .

٢٤٠ - لمزيد من التفاصيل عن البجلية واختلاف آراء المصادر فيهم ، ارجع الى أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٤٩٩ وما يليها .

٢٤١ - محمد ولد داداه ، مفهوم الملك فى المغرب ، ص ٧٦ .

٢٤٢ - ارجع الى محمود اسماعيل ، حقيقة المسألة البرغواطية ، ص ٤٩ ، *Slouch, p. 397* .

٢٤٣ - أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٤٩١ ، وراجع كذلك حاشية رقم ٢٢٨ .

٢٤٤ - *N. Slouch, L'Empire, p. 394 - Gaston Deverdun, Marrakech des Origines à 1912, Rabat, 1959, p. 45* .

٢٤٥ - أحمد مختار العبادى ، المرجع السابق ، ص ٤٩١ . ويذكر ناحوم سلوتش أن بعض القبائل فى وهران والقصور بالصحراء لا تزال تستخدم كلمة يوش المشتقة من ياكش أو يوشع حتى الآن *N. Slouch, op. cit., p. 297.*

٢٤٦ - محمود اسماعيل ، حقيقة المسألة البرغواطية ، ص ٤٢ .

٢٤٧ - المرجع السابق ، ص ٤٢ ـ *N. Slouch, op. cit., p. 398* .

٢٤٨ - نفسه ، ص ٤١ .

٢٤٩ - هذا رأى د. سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربى ، ص ٤١٨ ، ٤١٩ ، وكذلك ارجع الى رأى د. رجب عبد الحليم فى المرجع السابق من ص ٤٨ - ٨٦ ، وقد حاول د. رجب الدفاع عن برغوطة وجاهد

لدحض الرأى الذى يصفها بالهرطقة ، وحجته فى ذلك أن المصادر المشرقية لم تذكر شيئاً عن دين برغواطة وخروجها عن الإسلام ، مثل ابن حوقل والمقدسى والاصطخرى كذلك ذكر أن الإدريسى لم يذكر بدوره شيئاً عن برغواطة وفاته أن الإدريسى كان بعيداً عن المغرب وأن الرحالة والجغرافيين السابقين كانوا من المشارقة وأن المؤرخين المغاربة والأندلسيين أمثال البكرى وابن عذارى وابن الخطيب وابن خلدون والسلاوى أجمعوا على هرطقة برغواطة وخروجها عن تعاليم الاسلام .

كما أفرد د. رجب صفحات طويلة للدفاع عن عقائد برغواطة وتوضيح أنها عقائد خارجية صفرية تابعة من تعاليم الإسلام ، وسنوضح على الصفحات التالية فى المتن ردنا على ذلك ، كذلك استدل د. رجب عبد الحليم على صحة رأيه بأن الأدارسة لم يقاتلوا برغواطة إلا ان فى عهد ملكها يونس وأن ذلك ينهض دليلاً قاطعاً على أن برغواطة لم تكن خارجة عن تعاليم الإسلام منذ ظهورها وتأكيداً على تبرئة صالح وأولاده من الهرطقة (المرجع السابق ص ٦٠) . وفى الواقع أن برغواطة كما سنذكر بدأت منذ عهد الياس فى محاولة نشر تعاليمها خارج حدودها الجغرافية ، وسيقوم يونس ولد الياس بفرضها بالقوة ، عند هذه المرحلة بدأت القوى الإسلامية المجاورة تستشعر خطورة برغواطة التى كانت ساكنة فى الفترة الماضية فلما بدأت فى التوسع الإقليمى لنشر عقائدها وجب على الأدارسة وكذلك بنى يفرن ثم المرابطين جهادهم . وسنوضح ذلك على الصفحات المقبلة .

٢٥٠ - محمود اسماعيل ، حقيقة المسألة البرغواطية ، ص ٤٠ ، وما يليها .

٢٥١ - محمد ولد داداه ، مفهوم الملك ، ص ٧٤ .

٢٥٢ - ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٦٩ ، ٧٠ - الناصرى السلاوى ، الإستقصا ، جـ ٢ ، ص ١٨ .

٢٥٣ - ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٨٢ .

٢٥٤ - عبد العزيز بنعبد الله ، سلا أولى حاضرتى أبى رقراق ، ص ٩ .

٢٥٥ - أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٤٩٤ .

٢٥٦ - المرجع السابق ، ص ٤٩٤ .

٢٥٧ - البكرى ، المغرب ، ص ٨٦ ، ١٦٠ ، ١٦١ .

٢٥٨ - ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٨٣ .

٢٥٩ - البكرى ، المغرب ، ص ٩١ ـ ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٣٩ .

٢٦٠ - ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ، ص ٤٠٩ ، ص ٤٤٦ ، ويسميه صاحب مفاخر البربر عاصم بن جهل اليزداجوسى ، ص ٧٧ . ولمزيد من التفاصيل ارجع الى السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ، ص ٢٥١ .

٢٦١ - ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٥٩ .

٢٦٢ - عن ديانة حاميم ، ارجع الى البكرى ، المغرب ، ص ١٠٠ ـ ابن خلدون ، العبر ، ، ج ٦ ، ص ٤٤٤ ـ ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٦٢ . وقد نص صاحب مفاخر البربر فى ص ٧٧ على تشابه بين عقيدة حاميم وعقيدة برغواطة .

٢٦٣ - عن دور برغواطة فى حركة الماسى الصحراوى فى العصر الموحدى ، ارجع الى ابن عذارى ، البيان ، القسم الموحدى ، ص ٢٦ ، ٣٢ وما يليها ـ البيذق (ابو بكر ابن على الصنهاجي) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، الجزائر ، ١٩٧٤، ص ١٢٢ وما يليها ـ ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٢٣ وما يليها ـ السلاوى الناصرى ، الإستقصا ، جـ ٢ ، ص ١١٠ ، ١١٣ وما يليها .

٢٦٤ - نبذ من مفاخر البربر ، ص ٧٢ .

٢٦٥ - المصدر السابق ، ص ٧٣ .

٢٦٦ - نفسه ، ص ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤ .



مصادر البحث ومراجعه

أولا المصادر العربية :

١) ابن الآبار (ابو عبد الله محمد القضاعى) : كتاب الحلة السيراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، جزآن ، القاهرة ١٩٦٣ .

٢) ابن الاثير (عز الدين ابو الحسن على بن أبى الكرم) : الكامل فى التاريخ ، المجلد الرابع ، بيروت ١٩٦٥ .

٣) ابن أبى زرع (أبو الحسن على بن عبد الله الفاسى) : كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، تحقيق تورنبرج ، أوبسالة ، ١٨٤٣ .

٤) ابن تغرى بردى (جمال الدين ابو المحاسن يوسف) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ١ ، طبعة تراثنا ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

٥) ابن حزم (أبو محمد على بن أحمد) : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ، ١٩٧١ .

٦) ابن حوقل (أبو القاسم النصيبى) : صورة الارض ، مكتبة الحياة ، بيروت (بدون تاريخ) .

٧) ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد) : كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى والأستاذ محمد ابراهيم الكتانى ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤ .

٨) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، المجلدان الرابع والسادس ، بيروت ، ١٩٦٨ .

٩) ابن عذارى (ابو العباس أحمد المراكشى) : البيان المغرب فى أخبار المغرب ، تحقيق الأستاذين ليفى بروفنسال وكولان ، جزآن ، ليدن ، ١٩٤٨ .

١٠) ابن الكرديوس (أبو مروان عبد الملك التوزرى) : تاريخ الاندلس وهو

قطعة من كتاب الاكتفاء فى أخبار الخلفاء ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى ، مطبوعات المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ، مدريد ، ١٩٧١ .

١١) ابن القوطية (ابو بكر محمد) : تاريخ افتتاح الأندلس ، نشر خليان ريبيرا ، مدريد ، ١٩٢٦ .

١٢) البكرى (أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز) : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، تحقيق البارون دى سلان ، الجزائر ، ١٩١١ .

١٣) البيذق (أبو بكر الصنهاجى) : كتاب أخبار المهدى بن تومرت ، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، الجزائر ، ١٩٧٤ .

١٤) الحميرى (ابن عبد المنعم) : الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق دكتور إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٨٤ .

١٥) الرقيق القيروانى : تاريخ إفريقية والمغرب ، تحقيق وتقديم المنجى الكعبى ، تونس ، ١٩٦٨ .

١٦) السلاوى (أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى) : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ .

١٧) السمائلى (سالم بن حمود بن شامس) : إزالة الوعثاء عن أتباع أبى الشعثاء ، تحقيق دكتورة سيدة كاشف ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

١٨) القلقشندى (أبوو العباس أحمد) : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ١٤ جزءاً ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩١٣-١٩١٩ .

١٩) مجهول : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها ، دار الكتاب اللبنانى ، القاهرة ، ١٩٨١ .

٢٠) مجهول : نبذ تاريخية منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر ، نشر ليفى بروفنسال ، الرباط ، ١٩٣٤ .

٢١) مجهول : كتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق دكتور

سهيل زكار والأستاذ عبد القادر زمامة ، الدار البيضاء ، ١٩٧٩ .

٢٢) المراكشى (عبد الواحد) : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق الأستاذين سعيد العريان ومحمد العربى العلمى ، القاهرة ، ١٩٤٩ .

٢٣) المقرى (أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب ، تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد ، ج ١ ، القاهرة ١٩٤٩ .

٢٤) الوزان (الحسن بن محمد الفاسى) : وصف أفريقيا ، ترجمة محمد حجى ، ومحمد الأخضر ، ج ١ ، ١٩٨٣ .

٢٥) ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله) : معجم البلدان ، ٥ مجلدات ، بيروت ، ١٩٥٧ .

ثانياً المراجع :

٢٦) البارودى (دكتور رضوان) : بنو يفرن الر يون فى بلاد المغرب والأندلس ، الاسكندرية ، ١٩٩١ .

٢٧) البارودى (دكتور رضوان) : التاريخ السياسى لمدينة سبتة من القرن الرابع الهجرى حتى منتصف القرن السابع الهجرى ، المجلة المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد ٣٦ ، لسنة ١٩٨٩ .

٢٨) جودت عبد الكريم يوسف : العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، الجزائر ، ١٩٨٤ .

٢٩) جوليان (الأستاذ شارل أندرى) : تاريخ أفريقيا الشمالية من الفتح الإسلامى الى سنة ١٨٣٠ ، جزآن ، تعريب الاستاذين محمد مزالى والبشير سلامة ، تونس ، ١٩٧٨ .

٣٠) الحارثى (سالم بن حمد بن سليمان) : العقود الفضية فى أصول الاباضية ، عمان ، ١٩٨٣ .

٣١) الحجى (دكتور عبد الرحمن) التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة ، بيروت ، ١٩٧٦ .

٣٢) حسن محمود (دكتور) : قيام دولة المرابطين ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

٣٣) حسين مؤنس (دكتور) : فجر الاندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

٣٤) حمدى عبد المنعم حسين (دكتور) : دولة على بن يوسف المرابطى فى المغرب والأندلس ، رسالة ماجستير مقدمة لكلية الأداب جامعة الاسكندرية ، ١٩٨٠ .

٣٥) خواكين ڤالڤى برميخو : سكوت البرغواطى ملك سبتة ، ترجمة عبد اللطيف الخطيب ، مجلة تطوان ، العدد الحادى عشر ، الرباط ، ١٩٧١ .

٣٦) سالم (دكتور السيد عبد العزيز) : تاريخ المغرب فى العصر الاسلامى ، نشر مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، ١٩٨٤ .

٣٧) سالم (دكتور السيد عبد العزيز) : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، الاسكندرية ، ١٩٨٢ .

٣٨) سعد زغلول عبد الحميد (دكتور) : تاريخ المغرب العربى ، طبعة دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

٣٩) الطنجى (الأستاذ محمد بن تاويت) : تاريخ سبتة ، الدار البيضاء ، ١٩٨٢ .

٤٠) العبادى (دكتور أحمد مختار) : فى تاريخ المغرب والأندلس ، بيروت ، ١٩٧٢ .

٤١) عبد الحليم (دكتور رجب محمد) : دولة بنى صالح فى تامسنا بالمغرب الأقصى ، القاهرة ١٩٦١ .

٤٢) عبد العزيز بن عبد الله : سلا أولى حاضرتى أبى رقراق ، سلا ، ١٩٨٩

٤٣) عبد المولى (دكتور محمد أحمد) : القوى السنية فى المغرب من قيام الدولة الفاطمية الى قيام الدولة الزيرية ، الاسكندرية ، ١٩٨٥ .

٤٤) عنان (الأستاذ محمد عبد الله) : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

٤٥) عيسى (الدكتور محمد عبد الحميد) : فتح الأندلس ، رواية متجددة ، مجلة أوراق ، مدريد ، ١٩٨٢-١٩٨٣ .

عيسى (الدكتور محمد عبد الحميد) : الفتح الإسلامى للأندلس ، القاهرة ، ١٩٨٥ .

٤٦) محمود اسماعيل (دكتور) : الخوارج فى بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجرى ، الدار البيضاء ، ١٩٧٦ .

٤٧) محمود اسماعيل (دكتور) حقيقة المسألة البرغواطية - مغربيات ، دراسات جديدة ، المغرب ، ١٩٧٧ .

٤٨) مطلوب (ناطق صالح) : تاريخ المغرب العربى ، الموصل ، ١٩٨٨ .

٤٩) ميلاد عشاق : من تاريخ المغرب الوسيط : ملاحظات حول المسألة البرغواطية ، مجلة العلم الثقافى ، العدد ٩٧٢ ، الرباط ، مايو ، ١٩٩٠ .

٥٠) ولد داداه (الأستاذ محمد) : مفهوم الملك فى المغرب من إنتصاف القرن الأول إلى انتصاف القرن السابع ، دراسات فى التاريخ السياسى ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ١٩٧٧ .

الفهـــــرس

المرضوع | الصفحة

الصفحة

رقم الإيداع ٢٢٣٩ / ٩٧
الترقيم الدولي I . S . B . N .
977 - 212 - 053 - 4



صاحبها ومديرها . محمد بسيوني
تلفون ١٦١ ش فرنسا ☎ ٨٠٩٠٠٥ الاسكندرية



